

مَجْمَعُ الْبَيِّنَاتِ وَقِسْطُ الْقُرْآنِ

تَأليف
أَمِيرِ الْإِسْلَامِ أَبِي عَلِيٍّ الْفَضْلِ بْنِ الْحُسَيْنِ
الطَّبْرِيِّ

طبعة جديدة مُنقَّحة

الطبعة والنشر والتوزيع
للطبع والنشر
بيروت - لبنان

jabir.abbas@yahoo.com



مَجْمَعُ الْبَيِّنَاتِ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

مَجْمَعُ الْبَيِّنَاتِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تَأَلَّفَ

أَمِيرُ الْإِسْلَامِ أَبِي عَلِيٍّ الْفَضْلُ بْنُ الْحُسَيْنِ الطَّبْرَسِيُّ

طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ مُنْقَحَةٌ

الجزء السابع

دار المرتضى
بيروت

DAR AL-MORTADA

Printing –Publishing –Distributing
Lebanon –Beirut

P O Box: 155/25 Ghobiery

Tel –Fax: 009611840392

E-mail:mortada14@hotmail.com

Printed In Lebanon

دار المرتضى

طباعة, نشر, توزيع

لبنان - بيروت, ص.ب: ٢٥/١٥٥ الضبيري

هاتف فاكس : ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢

E-mail:mortada14@hotmail.com

الطبعة الأولى

1427 هجرية

2006 ميلادية

جميع حقوق الطبع والاقتباس محفوظة

ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة طباعة

أو ترجمة الكتاب أو جزء منه إلا بإذن

خطي من المؤلف والناشر

سُورَةُ طه

مكية / آياتها (١٢٥)

● **عدد آياتها:** مائة وأربعون آية شامي، وخمسة وثلاثون آية كوفي. وأربع آيات حجازي، وآيتان بصري.

● **اختلافها:** إحدى وعشرون آية. طه ﴿١﴾ ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾، ﴿رَأَيْتَهُمْ صَلُّوا﴾: ثلاثهن كوفي، ﴿سُحِّحَكَ كَثِيرًا﴾، ﴿وَنَذَرُكَ كَثِيرًا﴾: كلاهما غير البصري، ﴿مَحَبَّةً مِنِّي﴾: حجازي شامي، ﴿فُتُونًا﴾: بصري شامي، ﴿لِنَفْسٍ﴾: كوفي شامي، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾، ﴿وَأَهْلَ مَدْيَنَ﴾، ﴿وَمَعَنَا بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾: أربعهن شامي، ﴿غَضَبِنَ أَيْسَاءَ﴾، ﴿وَالِلَّهِ مُوسَىٰ﴾: كلاهما مكي، والمدني الأول. ﴿وَعَدًا حَسَنًا﴾، ﴿أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾: كلاهما المدني الأخير، ﴿أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾: غير المدني الأخير. ﴿فَنَسِيَ﴾: عراقي شامي، والأخير ﴿صَفَصَفَا﴾: عراقي شامي. ﴿مِنِّي هُدًى﴾، ﴿وَزَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: غير الكوفي (١).

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأها أعطني يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار». أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم ﷺ بألفي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا: طوبى لأمة نزل هذا عليها، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسن تتكلم بهذا». وعن الحسن قال: قال النبي ﷺ: «لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا يس وطه». وروى إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا تدعوا قراءة طه فإن الله سبحانه يحبها ويحب من قرأها وأدمن قراءتها وأعطاه يوم القيامة كتابه بيمينه ولم يحاسبه لما عمل في الإسلام، وأعطني من الأجر حتى يرضى.

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه سورة مريم بذكر إنزال القرآن، وأنه بشارة للمتقين، وإنذار للكافرين، وافتتح هذه السورة بالقرآن، وأنه أنزله لسعادته لا لشقاوته فقال:

(١) أعلم أن أعداد أهل الكوفة أصح الأعداد، لأنه مأخوذ عن علي بن أبي طالب عليه السلام، والمراد بالمدني الأول هو أبو جعفر يزيد بن القعقاع القاري، وشيبة بن نضاح. وقيل: المدني الأول الحسن بن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، والمدني الثاني، والمدني الأخير هو إسماعيل بن جعفر. وقيل: المدني الأخير أبو جعفر وشيبة، وإسماعيل. والأول أشهر. وعدد أهل البصرة منسوب إلى عاصم بن أبي الصباح الجحدري، وأيوب المتوكل. وعدد أهل مكة منسوب إلى مجاهد بن جبر، وإسماعيل المكي. وعدد أهل الشام منسوب إلى عبد الله بن عامر. (عن هامش بعض النسخ المصححة).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ ١ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢ إِلَّا نَذِيرًا لِّمَن يَخْشَى ٣ تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ٤ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ٥ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا يَنْتَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ٦ وَإِن يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ٧ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ٨ ﴿٨﴾

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو: ﴿طه﴾ بفتح الطاء وكسر الهاء كسراً لطيفاً من غير إفراط. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم إلا يحيى عن أبي بكر بكسر الطاء والهاء. وكذلك عياش عن أبي عمرو، والباقون بفتح الطاء والهاء. وزوي عن أبي جعفر ونافع كهيعص، وطه وطس وحم وأكر كله بين الفتح والكسر، وهو إلى الفتح أقرب.

● **الحجة:** قد مرَّ القول في الإمالة والتفخيم في الحروف فيما تقدم، والتفخيم لغة أهل الحجاز ولغة النبي ﷺ.

● **اللغة:** الشقاء: استمرار ما يشق على النفس، ونقيضه السعادة، والعلی: جمع العليا ومنه الدنيا والدنا والقصوى والقصى، والثرى: التراب الندي، والجهر: رفع الصوت، يقال: جهر بجهر جهرأ فهو جاهر، والصوت مجهور وضده المهموس.

● **الإعراب:** روي عن الحسن أنه قرأ: ﴿طه﴾ بفتح الطاء وسكون الهاء، فإن صح ذلك عنه فأصله طأ فأبدل من الهمزة هاء، ومعناه: طاء الأرض بقديمك جميعاً، وقد زوي أن النبي ﷺ كان يرفع إحدى رجليه في الصلاة ليزيد تبعه فأنزل الله: ﴿طه﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ فوضعها. وزوي ذلك عن أبي عبد الله ﷺ. قال الزجاج: ويجوز أن يكون ﴿طه﴾ أمراً من وطأ يطأ على قول من لم يهزم. ثم حذفت الألف، فصار (ط) ثم زيدت الهاء في الوقف، ويجوز أن يكون ﴿طه﴾ جارياً مجرى القسم، فيكون ﴿طه﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ جواب القسم. وقوله: ﴿نَذِيرًا﴾: مفعول له. ﴿لِّمَن يَخْشَى﴾ الجار والمجرور في موضع الصفة لتذكرة، والأولى أن يكون مصدر فعل محذوف، ويكون الاستثناء منقطعاً، والتقدير: لكن تذكرة، وكذلك قوله: ﴿تَزِيلًا﴾ مصدر لفعل محذوف تقديره: نزلناه تنزيلاً، أو نزل تنزيلاً ويدل عليه قوله ﴿أُنزِلْنَا﴾.

● **المعنى:** ﴿طه﴾ قد بيّنا في أول البقرة تفسير حروف المعجم في أوائل السور والاختلاف فيه، وقد قيل إن معنى «طه»: يا رجل، عن ابن عباس وسعيد بن جبیر والحسن ومجاهد والكلبي، غير أن بعضهم يقول هو بلسان الحبشية أو النبطية. وقال الكلبي: هي بلغة عكّ وأنشد لتميم بن نويرة:

هتفتُ بَطَه في القتالِ فلمْ يُجِبْ فحِخْتُ لَعَمْرِي أَنْ يَكُونَ مُوَاتِلًا^(١)

(١) وتل: التجأ. وفي بعض النسخ «موالياً» مكان «مواتلاً».

وقال آخر:

إِنَّ السَّفَاهَةَ طُهُ مِنْ خَلَائِقِكُمْ لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الْقَوْمِ الْمَلَاعِينِ
وقال الحسن: هو جواب للمشركين حين قالوا إنه شقي، فقال سبحانه: يا رجل ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ إِلَّا لَتَشْفِقَ﴾ لكن لتسعد به وتنال الكرامة به في الدنيا والآخرة. قال قتادة: وكان يصلي الليل كله ويعلق صدره بحبل حتى لا يغلبه النوم، فأمره الله سبحانه بأن يخفف على نفسه وذكر أنه ما أنزل عليه الوحي ليتعب كل هذا التعب ﴿إِلَّا نَذْكِرَكَ لِمَنْ يَخْشَى﴾ قال المبرد: معناه لكن أنزلناه تذكرة، أي: لتذكرة من يخشى الله، والتذكرة مصدر كالتذكير. ﴿تَزِيلًا﴾ أي: أنزلناه تنزيلاً. ﴿وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ بدأ بالأرض ليستقيم رؤوس الآي ﴿وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى﴾ أي: الرفيعة العالية، نبه بذلك على عظم حال خالقهما، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أي: هو الرحمن لأنه لما قال ﴿وَمَنْ خَلَقَ﴾ بيّنه بعد ذلك فقال: هو الرحمن، قال أحمد بن يحيى: الاستواء الإقبال على الشيء فكأنه أقبل على خلق العرش، وقصد إلى ذلك، وقد سبق القول في معنى الاستواء في سورة البقرة والأعراف. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: له ملك ما في السموات وما في الأرض وتديرهما وعلمهما، يعني أنه مالك كل شيء ومديره ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني الهواء ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ والثرى: التراب الندي، يعني وما وارى الثرى من كل شيء، عن الضحاك. وقيل: يعني ما في ضمن الأرض من الكنوز والأموات ﴿وَلَنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ﴾ أي: إن ترفع صوتك به ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي: فلا تجهد نفسك برفع الصوت، فإنك وإن لم تجهر علم الله السر وأخفى من السر، ولم يقل وأخفى منه لدلالة الكلام عليه كما يقول القائل: فلان كالفيل أو أعظم، وقيل: تقديره وإن تجهر بالقول أو لا تجهر فإنه يعلم السر وأخفى منه، ثم اختلفوا فيما هو أخفى من السر فقيل: السر ما حدث به العبد غيره في خفية، وأخفى منه: ما أضمره في نفسه ما لم يحدث به غيره، عن ابن عباس، وقيل: السر ما أضمره العبد في نفسه وأخفى منه: ما لم يكن، ولا أضمره أحد، عن قتادة وسعيد بن جبير وابن زيد، وقيل: السر ما تحدث به نفسك، وأخفى منه: ما تريد أن تحدث به نفسك في ثاني الحال، وقيل: العمل الذي تستره عن الناس، وأخفى منه: الوسوسة، عن مجاهد، وقيل: معناه يعلم السر أي: أسرار الخلق وأخفى: أي: سر نفسه، عن زيد بن أسلم، جعله فعلاً ماضياً، ورؤي عن السيدين الباقر والصادق عليه السلام: السر ما أخفيته في نفسك. وأخفى: ما خطر ببالك ثم أنسيته ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود تحق له العبادة غيره ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: الأسماء الدالة على توحيده وعلى إنعامه على العباد وعلى المعاني الحسنة، فبأيها دعوت جاز، ورؤي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إن الله تعالى تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة». قال الزجاج: تأويله من وحد الله تعالى، وذكر هذه الأسماء الحسنى يريد بها توحيد الله وإعظامه، دخل الجنة، وقد جاء في الحديث: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»، فهذا لمن ذكر اسم الله موحداً له به، فكيف بمن ذكر أسماء كلها يريد بها توحيده والثناء عليه، وإنما قال الحسنى بلفظ التوحيد، ولم يقل الأحسن لأن الأسماء مؤنثة تقع عليها هذه، كما تقع على الجماعة هذه، كأنه اسم واحد للجمع، قال الأعشى:

وَسَوْفَ يُعْقِبُ بِهِ إِنْ ظَفَرْتُ بِهِ رَبِّ كَرِيمٍ، وَبِضْ ذَاتُ أَطْهَارٍ
وفي الترتيل ﴿حَدَائِقُ ذَاكَ بَهَجَةٌ﴾ و﴿مَنَارِبُ أُخْرَى﴾.



قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي
آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ
بِمُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَانْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ
فَأَسْمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤)
إِنَّ السَّاعَةَ ءَانِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا
يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦).

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو، «أني أنا ربك» بفتح الألف، والباقون
«إني» بالكسر، وقرأ حمزة: «لأهله امكثوا» وفي القصص أيضاً بضم الهاء، و«أنا» مشدد مفتوح
الهمزة «اخترتك» على الجمع، والباقون «لأهله» بكسر الهاء، و«أنا اخترتك» على التوحيد، وقرأ
ابن عامر وأهل الكوفة: «طوى» بالتنوين، والباقون بغير تنوين، وفي الشواذ قراءة الحسن
ومجاهد وسعيد بن جبیر: «أخفيها» بفتح الألف.

● **الحجة:** قال أبو علي: من كسر «إني» فلا ن الكلام حكاية، كأنه نودي فقيل: يا
موسى إني أنا ربك. ومن فتح، فكان المعنى: نودي بكذا ونادى قد يوصل بحرف الجر قال:
نَادَيْتُ بِاسْمِ رَبِّعَةٍ بَنَ مُكْرِمٍ إِنْ الْمُنْثَوَةُ بِاسْمِهِ الْمَوْثُوقُ^(١)

ومن الناس من يعمل هذه الأشياء التي هي في المعنى قول، كما يعمل القول ولا يضمن
القول معها، وينبغي أن يكون في «نُودِيَ» ضمير يقوم مقام الفاعل لأنه لا يجوز أن يقوم واحد
من قوله يا موسى، ولا إني أنا ربك، مقام الفاعل لأنها جمل والجمل لا تقوم مقام الفاعل، فإن
جعلت الاسم الذي يقوم مقام الفاعل موسى، - لأن ذكره قد جرى - كان مستقيماً.

وقوله: طوى يصرف ولا يصرف، فمن صرفه فعلى وجهين:

أحدهما: أن يجعله اسم الوادي، فيصرفه لأنه سمي مذكراً بمذكر.

والآخر: أن يجعله صفة، وذلك في قول من قال إنه قدس مرتين، فيكون طوى كقولك
ثنى ويكون صفة كقوله: مكاناً سوى وقوم عدى، وجاء في طوى الضم والكسر، كما جاء في
مكان سوى الضم والكسر. قال الشاعر:

أَفِي جَنْبِ بَكْرِ قَطَعْتَنِي مَلَامَةً لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ مَلَامَتُهَا إِنِّي

أي: ليس هذا بأول ملامتها. ومن لم يصرف احتمال أمرين:

أحدهما: أن يكون اسماً لبقعة أو أرض، فهو مذكر فيكون بمنزلة امرأة سميتها بحجر، ويجوز أن يكون معدولاً كعمر. ولا يمتنع أن تقدر العدل فيما لم يخرج إلى الاستعمال، ألا ترى أن جمع وكتع معدولتان عما لم يستعملا. فكذاك يكون طوى. وأما ضم الهاء في قوله ﴿لِأَهْلِهِ أَمَكُوا﴾: فقد مضى القول في مثله، وأما قوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ فالأفراد أكثر في القراءة وهو أشبه بما قبله من قوله ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾، ووجه الجمع أن يكون ذلك قد جاء في نحو قوله تعالى ﴿سَيَحْنُ الَّذِي أَسْرَى﴾، ثم قال ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، ويمكن أن يكون الوجه في قراءة حمزة ﴿وإنا اخترناك﴾ مع أنه قرأ ﴿إني أنا ربك﴾ بالكسر أن يكون التقدير: ولأنا اخترناك فاستمع، فيكون الجار والمجرور في موضع نصب بقوله: ﴿فَأَسْتَعِ﴾، ولم يذكره الشيخ أبو علي. وقوله ﴿أَخْفِيهَا﴾ فإنهم قالوا: معناه أظهرها، قال أبو علي: الغرض فيه أزيل عنها خفاءها، وهو ما يلف فيه القرية ونحوها من كساء وما يجري مجراه، وعليه قول الشاعر:

لَقَدْ عَلِمَ الْأَيْقَاطُ أَخْفِيَةَ الْكَرَى تَزَجُّجُهَا مِنْ حَالِكٍ فَاصْتَحَالَهَا^(١)

قال: أراد بالأيقاط عيوناً فجعل العين كالخفاء للنوم، كأنها تستره. وهو من ألفاظ السلب فأخفيته سلبت عنه خفاءه، كما تقول أشكيت الرجل أزلت عنه ما يشكوه، وأما «أخفيها» بفتح الألف فإنه أظهرها، قال امرؤ القيس:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وَذُقْ مِنْ سَحَابٍ مُرَكَّبٍ^(٢) وقوله:

فَإِنْ تَذَفُّوا الدَّاءَ^(٣) لَا تَخْفِهِ وَإِنْ تَبَقُّوا الْحَرْبَ لَا تَقْعُدِ

رواية أبي عبيدة بضم النون من نخفه ورواية الفراء بفتح النون.

● **اللغة:** الإيناس: وجدان الشيء الذي يؤنس به، والقبس: الشعلة من النار في طرف عود أو قصبة، والخلع: نزع الملبوس، يقال: خلع ثوبه وخلع نعله، والوادي: سفح الجبل، ويقال للمجرى العظيم من مجاري الماء واد، وأصله عظم الأمر، ومنها الدية، لأنها العطية في الأمر العظيم، وهو القتل. والمقدس: المطهر، قال امرؤ القيس: «كَمَا شَبَّرَقَ الْوِلْدَانُ ثَوْبَ الْمُقَدَّسِ»^(٤) يريد العابد من النصارى كالقسيس ونحوه. وسمي الوادي طوى لأنه طوي بالبركة مرتين، عن الحسن. فعلى هذا يكون مصدر قولك طويت طوى، قال عدي بن زيد:

(١) الكرى: النعاس، وال حالك: المظلم.

(٢) أي: أخرجهم من حجرتهم كما يخرجها المطر العظيم. والضمير لليرابيع يصف فرساً أخرج اليرابيع من حجرتها بعده.

(٣) وفي اللسان «فإن تكتنوا السر».

(٤) وقوله «فأدركته يأخذن بالساق والنساء» وشبرق الثوب: قطعه ومزقه. يقول: أدركت الكلاب الثور الوحشي فأخذن بساقه ونسائه «وهو عرق من الورك إلى الكعب» وشبرقت جلده كما يمزق الصبيان ثوب الراهب حين ينزل من صومعته تبركاً به.

أَعَادِلَ إِنَّ اللّٰوَمَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ عَلَيَّ طَوَى مِنْ غَيْبِكَ الْمُتَرَدِّدِ

ويقال: أخفيت الشيء كتمته وأظهرته جميعاً، وخفيته بلا ألف: أظهرته لا غير، والردى: الهلاك، وردى يردى ردى: إذا هلك، وتردى بمعناه.

● الإعراب: قوله: ﴿إِذْ رَأَى﴾، الظرف يتعلق بمحذوف فهو في موضع نصب على الحال من حديث موسى و﴿أَكَادُ أَخْفِيَهَا﴾ جملة في موضع رفع بأنها خبر أن فهي خبر بعد خبر اللام في ﴿يُخْزَى﴾: يتعلق بآتية، ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿وَأَقْبِرَ الصَّلَوةَ﴾، فتردى منصوب بإضمار أن في جواب النهي.

● المعنى: ثم خاطب الله سبحانه نبيه تسلياً له مما ناله من أذى قومه، وثبتاً له بالصبر على أمر ربه كما صبر موسى عليه السلام حتى نال الفوز في الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ هذا ابتداء إخبار من الله تعالى على وجه التحقيق، إذ لم يبلغه حديث موسى فهو كما يخبر الإنسان غيره بخبر على وجه التحقيق فيقول: هل سمعت بخبر فلان، وقيل: إنه استفهام تقرير بمعنى الخبر أي: وقد أتاك حديث موسى ﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ عن ابن عباس قال: وكان موسى رجلاً غيوراً لا يصحب الرفقة لثلا ترى امرأته، فلما قضى الأجل وفارق (مدين) خرج ومعه غنم له، وكان أهله على أتان وعلى ظهرها جوالق فيها أثاث البيت، فأضلل الطريق في ليلة مظلمة، وتفرقت ماشيته ولم يتقدح زنده، وامرأته في الطلق، فرأى ناراً من بعيد كانت عند الله نوراً وعند موسى ناراً ﴿فَقَالَ﴾ عند ذلك ﴿لِأَهْلِي﴾ وهي بنت شعيب، كان تزوجها بمدين ﴿أَمْكُتُوا﴾ أي: الزموا مكانكم، قال مقاتل: وكانت ليلة الجمعة في الشتاء، والفرق بين المكث والإقامة، أن الإقامة تدوم والمكث لا يدوم ﴿إِنِّي مَأْسُتٌ نَارًا﴾ أي: أبصرت ناراً ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مِنِّي بَقِيَّةٌ﴾ أي: بشعلة أقتبسها من معظم النار تصطلون بها ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي: أجد على النار هادياً يدلني على الطريق، وقيل: علامة أستدل بها على الطريق، والهدى: ما يهتدى به فهو اسم ومصدر، قال السدي: لأن النار لا تخلو من أهل لها وناس عندها ﴿فَلَمَّا أَنَّهُمَا﴾ قال ابن عباس: لما توجه نحو النار فإذا النار في شجرة عئاب، فوقف متعجباً من حسن ضوء تلك النار، وشدة خضرة تلك الشجرة فسمع النداء من الشجرة وهو قوله ﴿تَوَدَّى يَمْشِي﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ والنداء: الدعاء على طريقة يا فلان، فمن فتح الألف من إني فالمعنى: نودي بأني. ومن كسر فالمعنى: نودي فقل: إني أنا ربك الذي خلقت ودبرك، قال وهب: نودي من الشجرة فقل: يا موسى، فأجاب سريعاً ما يدري من دعاه فقال: إني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت؟ فقال: أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك من نفسك، فعلم أن ذلك لا ينبغي إلا لربه عز وجل وأيقن به.

وإنما علم موسى عليه السلام أن ذلك النداء من قبل الله تعالى لمعجز أظهره الله سبحانه كما قال في موضع آخر ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ * وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ إلى آخره، وقيل: إنه لما رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها تتوقد فيها نار بيضاء، وسمع تسبيح الملائكة، ورأى نوراً عظيماً لم تكن الخضرة تطفىء النار ولا النار تحرق الخضرة، تحير وعلم أنه معجز خارق للعادة،

وأنه لأمر عظيم فألقيت عليه السكينة. ثم نودي ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ وإنما كرر الكناية لتأكيد الدلالة وإزالة الشبهة وتحقيق المعرفة ﴿فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ﴾ أي: انزعهما. وقيل في السبب الذي أمر بخلع النعلين أقوال:

أحدها: أنهما كانتا من جلد حمار ميت، عن كعب وعكرمة وزوي ذلك عن الصادق عليه السلام.

وثانيها: كانتا من جلد بقرة ذكية، ولكنه أمر بخلعهما ليباشر بقدميه الأرض فتصفيه بركة الوادي المقدس، عن الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وابن جريج.

وثالثها: أن الحفاء من علامة التواضع، ولذلك كانت السلف تطوف حفاة عن الأصم.

ورابعها: أن موسى عليه السلام إنما لبس النعل اتقاء من الأنجاس، وخوفاً من الحشرات، فأمّنه الله مما يخاف وأعلمه بطهارة الموضع، عن أبي مسلم. ﴿إِنَّكَ يَا لَوْدِي الْمُقَدَّسُ﴾ أي: المبارك، عن ابن عباس. بورك فيه بسعة الرزق والخصب، وقيل: المطهر. ﴿طَوَى﴾ هو اسم الوادي، عن ابن عباس ومجاهد والجبائي، وقيل: سمي به لأن الوادي قدس مرتين فكانه طوي بالبركة مرتين، عن الحسن ﴿وَأَنَا أَخَرْتُكَ﴾ أي: اصطفتك بالرسالة، ﴿فَأَسْتَعِ لِمَا يُؤْتِي﴾ إليك من كلامي، واصغ إليه، وثبت. لما بشره الله سبحانه بالنبوة أمره باستماع الوحي ثم ابتداء بالتوحيد فقال: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أي: لا إله يستحق العبادة غيري ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ خالصاً ولا تشرك في عبادتي أحداً. أمره سبحانه بأن يبلغ ذلك قومه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أي: لأن تذكرني فيها بالتسبيح والتعظيم، لأن الصلاة لا تكون إلا بذكر الله، عن الحسن ومجاهد، وقيل: معناه لأن أذكرك بالمدح والثناء، وقيل: إن معناه صلّ لي، ولا تصلّ لغيري كما يفعله المشركون، عن أبي مسلم. وقيل: معناه أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة، كنت في وقتها أم لم تكن، عن أكثر المفسرين، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، ويعضده ما رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها غير ذلك». وقرأ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ رواه مسلم في الصحيح. ثم أخبره سبحانه بمجيء الساعة فقال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ يعني: إن القيامة جائية قائمة لا محالة ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ أي: أريد أن أخفيها عن عبادي لثلاث تأتيمهم إلا بغته، قال تغلب: هذا أجود الأقوال وهو قول الأخفش، وفائدة الإخفاء التهويل والتخويف فإن الناس إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة، كانوا على حذر منها كل وقت، وروى ابن عباس: أكاد أخفيها من نفسي، وهي كذلك في قراءة أبي، ورؤي ذلك عن الصادق عليه السلام والمعنى: أكاد لا أظهر عليها أحداً، وهو قول الحسن وقتادة، والمقصود من ذلك تباعد الوصول إلى علمها، وتقديره: إذا كدت أخفيها من نفسي فكيف أظهرها لك، قال المبرد: هذا على عادة العرب إذا بالغوا في كتمان الشيء قال كتمته حتى من نفسي، أي: لم أطلع عليه أحداً، فبالغ سبحانه في إخفاء الساعة وذكره بأبلغ ما تعرفه العرب، وقال أبو عبيدة: معنى أخفيها أظهرها ودخلت أكاد تأكيداً والمعنى: يوشك أن أقيمها. ﴿لِنُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى﴾ أي: بما تعمل من خير وشر، ولينتصف من الظالم للمظلوم ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي: لا يصرفك عن الصلاة من

لا يؤمن بالساعة. وقيل: معناه لا يمنعك عن الإيمان بالساعة من لا يؤمن بها، وقيل: عن العبادة ودعاء الناس إليها، وقيل: عن هذه الخصال ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ والهوى ميل النفس إلى الشيء ومعناه: ومن بنى الأمر على هوى النفس دون الحق، وذلك أن الدلالة قد قامت على قيام الساعة ﴿فَتَرَدَّى﴾ أي: فتهلك كما هلك أي: إن صددت عن الساعة بترك التأهب لها هلكت، والخطاب وإن كان لموسى عليه السلام، فهو في الحقيقة لسائر المكلفين. وفي هذه الآيات دلالة على أن الله تعالى كلم موسى، وأن كلامه محدث لأنه حل الشجرة وهي حروف منظومة.



قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَىٰ﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسْتُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقَاهَا يَمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَبَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِّئَلَّيْكَ مِنَ الْكُتُبِ الْكُتُبُ (٢٣) أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَأَحْلِلْ غَدَقَةً مِّنْ لِّسَانِي (٢٧) يَقْفَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَازِلُونَ أَخِي (٣٠) أَشَدُّ بِهِ أَزْرَىٰ (٣١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَىٰ سَيَعْبُكَ كَثِيرًا (٣٣) وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ (٣٦).

● **القراءة:** قرأ ابن عامر: «أشدُّ» بقطع الهمزة وفتحها «وأشركه» بضمها، والباقون «أشدُّ» بهمزة الوصل «وأشركه» بالفتح، وفي الشواذ قراءة عكرمة «وأهس» بالسین وقراءة أبي البرهسم^(١) «وأهش» بكسر الهاء.

● **الحجة:** الوجه في قراءة ابن عامر أنه جعله خبراً. وسائر القراء جعلوه دعاء، وضم الهمزة في «أشركه» ضعيف جداً لأنه ليس إلى موسى إشراك هارون في النبوة بل ذلك إلى الله تعالى، فالوجه فتح الهمزة على الدعاء. ومن قرأ «أهش» بكسر الهاء فيمكن أن يكون أراد أهش بضم الهاء أي: أكرس الكلاء بها للغنم فجاء بها على يفعل، إن كان متعدياً كما جاء هَرَّ الشيء يُهَرُّ ويهره إذا كرهه، وشَدَّ الحبل يَشُدُّ ويَشُدُّه ونَمَّ الحديث يَنْمُو، وأما أهس بالسین فمعناه: أسوق وكان ينبغي أن يقول أهس بها غنمي ولكن لما دخل السوق معنى الانتحاء لها والميل بها عليها استعمل على معناها حملاً على المعنى.

● **اللغة:** التوكؤ والانتكاء بمعنى، مثل التوقي والانتقاء، والهش: ضرب ورق الشجر ليتساقط، والمآرب: الحوائج واحدها مأربة بضم الراء وفتحها وكسرهما - عن علي بن عيسى، والسيرة والطريقة من النظائر ومعناه: مرور الشيء في جهة، وأصل الجناح من الجنوح: وهو الميل لأن الطائر يميل به في طيرانه، وعضد الإنسان: جناحه لأن من جهته يميل اليد حيث شاء

(١) أبو البرهسم كسفرجل: من قراء الشام. وفي نسختين مخطوطتين «إبراهيم» مكان «أبي البرهسم».

صاحبها، وقيل: يريد بالجنح الجنب لأن فيه جنوح الأضلاع. وقال الراجز «أضمها للصدر والجنح» قال أبو عبيدة: الجناحان الناحيتان، والطغيان: تجاوز الحد في العصيان، وشرح الصدر: توسعه ومنه شرح المعنى وهو بسط القول فيه، والعقدة: جملة مجتمعة يصعب تفكيكها، والحل ضد العقد ونظيره الفصل والقطع، والوزير: حامل الثقل عن الرئيس مشتق من الوزر الذي هو الثقل، والأزر الظهر، يقال: أزرني فلان على أمري أي: كان لي ظهراً، ومنه المئزر لأنه يشد على الظهر والإزار لأنه يسبل على الظهر والتأزير: التقوية، ويمكن أن يكون أزر ووزر مثل أرخ وورخ وأكد ووكد، قال امرؤ القيس:

بِمَخْنِيَّةٍ قَدْ آزَرَ الضَّالَّ نَبْتُهَا مَضْمَ جِيوشِ غَانِمِينَ وَخُيِّبَ^(١)

● الإعراب: ﴿وَمَا يَلَكَ يَمِينِكَ﴾ قال الزجاج: تلك اسم مبهم يجري مجرى التي ويوصل كما توصل التي. والمعنى: وما التي يمينك، وأنشد الفراء:

عَدَسَ مَا لِعُبَّادٍ عَلَيْكَ إِمَارَةً أَمِنَتْ وَهَذَا تَحْمِيلِينَ طَلِيْقُ^(٢)

أي: والذي تحمّلين. قال بعض المتأخرين: إن الصحيح الذي لا غبار عليه أن يكون ﴿يَلَكَ﴾ مبتدأ و﴿وَمَا﴾ خبره قدم عليه لما فيه من معنى الاستفهام، و﴿يَمِينِكَ﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال من معنى الفعل في (تلك)، وهو الإشارة، قال وإنما قلنا ذلك لأن أسماء الإشارة إنما تبين بصفاتهما كما أن الأسماء الموصولة تبين بصلاتها، ولا يجوز وصف المبهم بالجملة لأن الجمل تكرات، وقوله ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْتَعِي﴾ إذا هذه ظرف المفاجأة، وهي ظرف مكان تقديره: فبالحضره هي حية، والعامل في الظرف ﴿تَسْتَعِي﴾، وهذا يدل على أن «إذا» ههنا غير مضاف إلى الجملة لأنه لو كان كذلك لم يعمل فيه مما في الجملة شيء، لأن المضاف إليه لا يعمل في المضاف. و﴿سِيرَتَهَا﴾ انتصب على تقدير سنعيدها إلى سيرتها فحذف الجار، ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: في موضع نصب على الحال، والتقدير: تَبَيَّنَ غير برصاء فيكون حالاً عن حال، ﴿ءَايَةُ أُخْرَى﴾ اسم في موضع الحال أيضاً، والمعنى تخرج بيضاء مبيّنة، قال الزجاج: ويجوز أن يكون منصوبة على آيتناك آية أخرى، ونوتيك آية أخرى لأن في قوله ﴿تَخْرُجُ بَيَّضَةً﴾ دليلاً على أنه يعطى آية أخرى، ﴿لِرَبِّكَ﴾: اللام يتعلق بقوله ﴿وَأَضْمَمُ﴾، والمفعول الثاني من نري يجوز أن يكون ﴿الْكُبْرَى﴾ صفة محذوف وهو المفعول الثاني، والتقدير لنريك الآية الكبرى من آياتنا، ﴿هَرُونَ﴾ بدل من قوله ﴿وَزَيْرًا﴾، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار فعل كأنه قال: أعني هارون أخي، أو استوزر لي هارون، لأن وزيراً يدل عليه و﴿أَخِي﴾ صفة لهارون، ويجوز أن يكون بدلاً منه، قال الزجاج: يجوز أن يكون ﴿هَرُونَ﴾ مفعولاً أول لاجعل، ووزيراً مفعولاً ثانياً له. وعلى هذا فيكون مثل قوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْإِنِّ﴾ في أن المفعول الثاني من هذا الباب قد تقدم على المفعول الأول. ولو قرئ بالرفع ﴿هَرُونَ﴾ لكان خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل: من هذا الوزير؟ فقيل: هو هارون، و﴿كَبِيرًا﴾ نعت

(١) المحنية: منعطف الوادي. والضال: شجر السدر.

(٢) الشعر في (جامع الشواهد)، وقد مر في الكتاب مراراً.

مصدر محذوف في الموضعين أي: تسبيحاً كثيراً وذكرأ كثيراً، ويجوز أن يكون نعتاً لظرف محذوف تقديره: نسبحك وقتاً كثيراً ونذكرك وقتاً كثيراً.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه ما أعطى موسى من المعجزات فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ يَبِيمِينَكَ يَتْمُوسَى﴾ (٧) سألَه عما في يده من العصا تنبيهاً له عليها ليقع المعجز بها بعد التثبيت فيها والتأمل لها. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أي: أعتد عليها إذا مشيت، والتوكؤ: التحامل على العصا في المشي. ﴿وَأَهْبَشَ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ أي: وأخبط بها ورق الشجر لترعاه غنمي. ﴿وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى﴾ ولم يقل (أخر) ليوافق رؤوس الآي، أي: حاجات أخرى فنص على اللازم وكنى عن العارض، قال ابن عباس: كان يحمل عليها زاده، ويركزها فيخرج منه الماء، ويضرب بها الأرض فيخرج ما يأكل، وكان يطرد بها السباع، وإذا ظهر عدو حاربت، وإذا أراد الاستسقاء من بئر طالت وصارت شعبتها كاللدلو، وكان يظهر عليها كالشمعة فتضيء له الليل، وكانت تحدثه وتؤنسه، وإذا طالت شجرة حناها بمحجنها^(١). ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه ﴿أَلْقَهَا يَتْمُوسَى﴾ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَتَعَى (٢٥) أي: تمشي بسرعة، وقيل: صارت حية صفراء لها عرف كعرف الفرس وجعلت تتورم حتى صارت ثعباناً وهي أكبر من الحيات عن ابن عباس، وقيل: إنه ألقاها وحانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون، ويمر بالصخرة مثل الخلفة من الإبل فيلقمها وتطعن أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فتجشها^(٢)، وعيناه تتوقدان ناراً، وقد عاد المحجن عنقاً فيه شعر مثل النيازك^(٣)، فلما عاين ذلك ولى مدبراً ولم يعقب، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نودي يا موسى ارجع إلى حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف ﴿قَالَ خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ أي: سنعيدها إلى الحالة الأولى عصاء، وعلى موسى يومئذ مدرعة من صوف قد خلها بخلال فلما أمره سبحانه بأخذها أدلى طرف المدرعة على يده فقال: مالك يا موسى، أرأيت لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا ولكنني ضعيف ومن ضعف خُلِقْتُ، وكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية فإذا يده في الموضع الذي كان يضعها إذا توكأ عليها بين الشعبتين، عن وهب. قيل: كانت العصا من آس الجنة أخرجها آدم عليه السلام وتوارثها الأنبياء إلى أن بلغ شعيباً فدفعها إلى موسى قال وهب: كانت من عوسج وكان طولها عشرة أذرع على مقدار قامة موسى ﴿وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ معناه: واجمع يدك إلى ما تحت عضدك عن مجاهد والكلبي. وقيل: إلى جنبك، وقيل: أدخلها في جيبك، وكنى عن الجنب بالجنح. ﴿فَتَخَرَّجَ بِضَرَاةٍ﴾ لها نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر وأشد ضوءاً عن ابن عباس، ﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ من غير برص في قول الجميع، قالوا: وكان موسى آدم اللون ففعل فخرجت يده كما قال الله، ثم ردها فعادت إلى لونها الذي كانت عليه ﴿آيَةٌ أُخْرَى﴾ أي: فنزيدك بها آية أخرى، أو تخرج مبينة آية أخرى ﴿لِيُزَيِّنَكَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وحججنا ﴿الْكَبْرَى﴾ منها. ولو قال (الكبر) على الجمع وصفاً لجميع الآيات لكان جائزاً.

(٣) جمع النيزك: الرمح القصير.

(١) المحجن: المنعطف الرأس.

(٢) جث الشيء: قلعه من أصله.

وقيل: معناه لنريك من دلاتنا الكبرى سوى هاتين الدالتين، وقيل: إنها هلاك فرعون وقومه، فلما حملة سبحانه الرسالة وأراه المعجزات أمره بالتبليغ فقال: ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ فادعه إلي ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي: تجبر وتكبر في كفره. ﴿قَالَ﴾ موسى عند ذلك ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ أي: وسع لي صدري حتى لا أضجر ولا أخاف ولا أغتم، ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أي: سهل علي أداء ما كلفتني من الرسالة والدخول على الطاغي ودعائه إلى الحق. ﴿وَأَخْلَلْ عَقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ ٧٧ ﴿يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ ٧٨ أي: وأطلق عن لساني العقدة التي فيه حتى يفقهوا كلامي. وكان في لسان موسى ﷺ رُتبه لا يفصح معها بالحروف شبه التمتمة^(١)، وقيل إن سبب تلك العقدة في لسانه جمره طرحها في فيه، وذلك لما أراد فرعون قتله لأنه أخذ بلحية فرعون وנתفها وهو طفل، فقالت آسية بنت مزاحم: لا تفعل فإنه صبي لا يعقل وعلامة جهله إنه لا يميز بين الدرة والجمرة، فأمر فرعون حتى أحضر الدرة والجمرة بين يديه فأراد موسى أن يأخذ الدرة فصرف جبرائيل يده إلى الجمرة فأخذها ووضعها في فيه فاحترق لسانه عن سعيد بن جبير ومجاهد والسدي، وقيل إنه انحل ما كان بلسانه إلا بقية منه بدلالة قوله ﴿وَلَا يَكَاذُ يَئِينَ﴾، عن الجبائي، وقيل: استجاب الله تعالى دعاءه فأحل العقدة عن لسانه عن الحسن وهو الصحيح لقوله سبحانه: ﴿أُوَيِّتْ سُؤْلَكَ يَمْوَسَّىٰ﴾. ومعنى قوله ﴿وَلَا يَكَاذُ يَئِينَ﴾ أي: لا يأتي ببيان وحجة، وإنما قالوا ذلك تمويهاً ليصرفوا الوجه عنه ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا﴾ يؤازرنني على المضي إلى فرعون ويعاضدني عليه، وقيل: اجعل لي معاوناً أتقوى به وبرأيه ومشاورته، وقال ﴿مِّنْ أَهْلِي﴾ لأنه إذا كان الوزير من أهله كان أولى ببذل النصيحة له، ثم بين الوزير وفسره فقال ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ ٨٠ وكان أخاه لأبيه وأمه وكان بمصر ﴿أَشَدُّ بِهٖ أَرْزِي﴾ ٨١ أي: قو به ظهري وأعني به، ﴿وَأَشْرِكْ فِي أَمْرِي﴾ أي: اجمع بيني وبينه في النبوة ليكون أحرص على مؤازرتي. لم يقتصر على سؤال الوزارة حتى سأل أن يكون شريكه في النبوة، ولولا ذلك لجاز أن يستوزره من غير مسألة، وإنما سمي الوزير وزيراً لأنه يعين الأمير على ما هو بصده من الأمور، أخذ من المؤازرة التي هي المعاونة، وقيل إنما سمي وزيراً لأنه يتحمل الثقل عن الأمير من الوزر الذي هو الثقل، وقيل: لأنه يلتجئ الأمير إليه فيما يعرض له من الأمور من الوزر الذي هو الملجأ، قالوا: إن هارون كان أكبر من موسى بثلاث سنين وأتم طولاً وأبيض جسماً وأكثر لحماً وأفصح لساناً، ومات قبل موسى بثلاث سنين ﴿كَيْ سَمِعَكَ كَثِيرًا﴾ ٨٣ أي: ننزهك عما لا يليق بك. بَيَّنَّ ﷺ أنه إنما سأل هذه الحاجات ليتوصل بها إلى طاعة ربه وعبادته وتأدية رسالته لا للرياسة، ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ ٨٤ أي: نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من نعمك ومننت به علينا من تحميل رسالتك ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ ٨٥ أي: بأحوالنا وأمورنا عالماً وقيل: بصيراً باحتياجنا في النبوة إلى هذه الأشياء ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه إجابة له ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ أي: قد أعطيت منك وطلبتك ﴿يَمْوَسَّىٰ﴾ فيما سألته والسؤال: المني، والمراد فيما يسأله الإنسان، وقال الصادق حدثني أبي عن جدي عن أمير المؤمنين ﷺ قال: كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو فإن موسى بن عمران خرج يقبست

(١) تتمتة في الكلام: عجل فيه ولم يفهمه.

لأهله ناراً فكلّمه الله عز وجل فرجع نبياً، وخرجت ملكة سبأ كافرة فأسلمت مع سليمان، وخرج سحرة فرعون يطلبون العزة لفرعون فرجعوا مؤمنين.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۖ﴾ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ ۖ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْرِضْنِي فِي التَّائِبِينَ فَأَقْرِضْنِي فِي الْيَمِّ فَلْيَقْضِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ بِأَخْذِهِ عَدُوًّا لِّي وَعَدُوًّا لَّهُمُ ۖ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۖ﴾ (٣٩) إِذْ تَسْتَوِي أَسْجُدُ فَتَقُولُ هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَلَّتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكَ فُتُونًا ۚ فَلَيْتَ سَيْنٍ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوِئُ ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَنَعْنَاكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِتَأْتِي وَلَا لِنَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ۝

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر «ولتصنع» بالجزم والباقون: بكسر اللام والنصب وفي الشواذ قراءة أبي نهيك «ولتصنع» بكسر اللام وفتح التاء.

● **الحجة:** قوله «لتصنع» بالجزم مثل قولهم ولتغن بحاجتي فالمأمور غائب غير مخاطب، لأن العاني بالحاجة غير المخاطب. وليس ذلك مثل قوله «فلتفرحوا» فإن المأمور هناك مخاطب به، «ولتصنع على عيني»، قال أحمد بن يحيى: معناه لتكون حركتك وتصرفك على عين مني. وقراءة الفراء «ولتصنع» على عيني بضم التاء وفتح العين معناه: لتربي وتغذى بمرأى مني.

● **اللغة:** أصل المن: القطع ومنه «أجر غير ممنون». وحبل منين أي: منقطع. فالمن: نعمة تقطع لصاحبها من غيره، والمرة: الكرة الواحدة من المر. والقذف: الطرح. واليم: البحر، والاصطناع: افتعال من الصنع، والصنع: اتخاذ الخير لصاحبه. ووني في الأمريني ونياً وونى: إذا فتر، فهو وان ومتوان فيه. قال العجاج:

فَمَا وَئَىٰ مُحَمَّدُ مُذْ أَنْ غَفَرَ لَهُ الْإِلَهُ مَا مَضَىٰ وَمَا غَبَرَ

● **الإعراب:** ﴿مَرَّةً﴾: يحتمل أن يكون مصدرأ ويحتمل أن يكون ظرفاً ويكون التقدير مرة أخرى أو وقتاً آخر، ﴿مَا يُوحَىٰ﴾: ما مصدرية وتقديره: وأوحينا إلى أمك إحياء و﴿أَنْ أَقْرِضْنِي﴾ في موضع نصب بأنه مفعول أوحينا، ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾: اللام يتعلق بالقيت أي: لتربي ولتصنع، وقوله ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ في موضع نصب على الحال وتقديره: جئت مقدراً ما قدر لك.

● **المعنى:** لما أخبر سبحانه موسى بأنه آتاه طلبته وأعطاه سؤله، عدّد عقبيه ما تقدم ذلك من نعمه عليه ومننه لديه فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ (٣٧) أي: أنعمنا عليك من صغرك إلى كبرك جارية نعمتنا عليك متوالية فإجابتنا الآن دعاك تلوها، ثم فسر سبحانه تلك

النعمة فقال: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ﴾ ﴿١٧﴾ أي: حين أوحينا إلى أمك أي: ألهمناها ما يلهم، وهو ما كان فيه سبب نجاتك من القتل حتى عنيت بأمرك، وقيل كانت رأت في المنام عن الجبائي. ثم فسر ذلك الإيحاء فقال: ﴿أَنْ أَقْذِفَهُ فِي التَّابُوتِ﴾ أي: اجعليه فيه بأن ترميه فيه، ﴿فَأَقْذِفْهُ فِي آلِيهِ﴾ يريد النيل ﴿فَلْيَقْذِفْهُ آلِيَهُم بِالسَّاعِلِ﴾ وهو شط البحر لفظه أمر فكأنه أمر البحر كما أمر أم موسى والمراد به الخبر. والمعنى: حتى يلقيه البحر بالشط ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوِّي لِئَ يَعَذِّبَهُ لَكُمْ﴾ يعني فرعون، كان عدواً لله ولأنبيائه وعدواً لموسى خاصة لتصوره أن ملكه ينقض على يده، وكانت هذه المنة من الله سبحانه على موسى أن فرعون كان يقتل غلمان بني إسرائيل، ثم خشي أن يفني نسلهم فكان يقتل بعد ذلك في سنة ولا يقتل في سنة فولد موسى في السنة التي كان يقتل الغلمان فيها فنجاه الله تعالى منه ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي﴾ أي: جعلتك بحيث يحبك من يراك حتى أحبك فرعون فسلمت من شره وأحبتك امرأته آسية بنت مزاحم فتبنتك وربتك في حجرها، عن عكرمة. وقيل: معناه حببتك إلى عبادي فلا يلقاك أحد مؤمن ولا كافر إلا أحبك عن ابن عباس، وهذا كما يقال ألبسه الله جمالاً وألقى عليه جمالاً، وقال قتادة: ملاحة كانت في عين موسى فما رآه أحد إلا عشقه ﴿وَلَتُصَنِّعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ أي: لتربى وتغذى بمرأى مني أي: يجري أمرك على ما أريد بك من الرفاهة في غذائك عن قتادة وذلك أن من صنع لإنسان شيئاً وهو ينظر إليه صنعه كما يحب ولا يتهيباً له خلافه، قيل: لتربى ويطلب لك الرضاع على علم مني ومعرفة لتصل إلى أمك عن الجبائي. وقيل: لتربى وتغذى بحياطتي وكلايتي وحفظي كما يقال في الدعاء بالحفظ والحياطة عين الله عليك عن أبي مسلم. ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ الظرف يتعلق بتصنع والمعنى: ولتصنع على عيني قدرنا مشي أختك وقولها ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ لأن هذا كان من أسباب تربية موسى على ما أراده الله وهو قوله ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾، يعني حين قالت لها أم موسى قصيه فاتبعت موسى على أثر الماء، وذلك أن أم موسى اتخذت تابوتاً وجعلت فيه قطناً ووضعت فيه وألقته في النيل، وكان يشرع من النيل نهر كبير في باغ فرعون فبينا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذ التابوت يجيء على رأس الماء فأمر بإخراجه، فلما فتحوا رأسه إذا صبي به من أحسن الناس وجهاً فأحبه فرعون بحيث لا يتمالك، وجعل موسى يبكي ويطلب اللبن، فأمر فرعون حتى أتته النساء اللاتي كن حول داره فلم يأخذ موسى من لبن واحدة منهن، وكانت أخت موسى واقفة هناك إذ أمرتها أمها أن تتبع التابوت، فقالت إني آتي بامرأة ترضعه، وذلك قوله: ﴿فَقُولْ هَلْ أَذْكَرُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ أي: أدلكم على امرأة تربيته وترضعه وهي ناصحة له، فقالوا: نعم. فجاءت بالأُم فقبل ثديها، فذلك قوله: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا بِرُؤْيَاكَ وَيُقَاتِلَ مِنْ أَلْفِهِم﴾ أي: من غم القتل وكربه لأنه خاف أن يقتصوا منه بالقبطي، فالمعنى: خلصناك من غم القصاص وأمنائك من الخوف. ﴿وَفَنَّكَ فَتُونًا﴾ أي: اخترناك اختباراً، ومعناه: إنا عاملناك معاملة المختبر حتى خلصت للاصطفاء بالرسالة، وكان

سورة طه

هذا من أكبر نعمه سبحانه عليه، وقيل: معناه وخلصناك من محنة بعد محنة، منها: أنه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح الأطفال فيها، ثم إلقاؤه في اليم، ثم منعه من الرضاع إلا من ندي أمه، ثم جره لحية فرعون حتى هم بقتله، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة فدرأ ذلك عنه قتل فرعون، ثم مجيء رجل من شيعته يسعى ليخبره بما عزموا عليه من قتله عن ابن عباس، فعلى هذا يكون المعنى وخلصناك من المحن تخلصاً، وقيل: معناه وشددنا عليك التعمد في أمر المعاش حتى رعيت لشعيب عشر سنين، ثم بين ذلك فقال: ﴿فَلَيْتَ سَيْنٍ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: لبثت فيهم حين كنت راعياً لشعيب ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يُمْؤَيِّنُ﴾ أي: في الوقت الذي قدر لإرسالك نبياً قال الشاعر:

نَالَ الْخِلَافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدْرًا كَمَا أَتَى رَبُّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ^(١)

وقيل: معناه جئت على الوقت الذي يوحى فيه إلى الأنبياء وهو على رأس أربعين سنة، وقيل: على المقدار الذي قدره الله لمجيئك وكتبه في اللوح المحفوظ، والمعنى: جئت في الوقت الذي قدره الله لكلامك ونبوتك والوحي إليك ﴿وَأَمَطْنَعُكَ لِنَفْسِي﴾ أي: لوححي ورسالتي، عن ابن عباس. والمعنى: اخترتك واتخذتك صنيعتي وأخلصتك لتنصرف على إرادتي ومحبتي، وإنما قال ﴿لِنَفْسِي﴾ لأن المحبة أخص شيء بالنفس، وتبليغه الرسالة وقيامه بأدائها تصرف على إرادة الله ومحبته، وقيل: معناه اخترتك لإقامة حجتي وجعلتك بيني وبين خلقي حتى صرت في التبليغ عني بالمنزلة التي أنا أكون بها لو خاطبتهم واحتججت عليهم، عن الزجاج. ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَلَوْ كُنَّ يَتَابِقُ﴾ أي: بحجبي ودلالاتي. وقيل: بالآيات التسع، عن ابن عباس. ﴿وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ أي: ولا تضعفا في رسالتي، عن ابن عباس، وقيل: ولا تفترأ في أمري، عن السدي. وقيل: ولا تقصرا، عن محمد بن كعب. أي: لا يحملنكما خوف فرعون على أن تقصرا في أمري ﴿أَذْهَبَا إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ﴾ كرر الأمر بالذهاب للتأكيد، وقيل: إن في الأول خص موسى بالأمر، وفي الثاني أمرهما ليصيروا نبين وشريكين في الأمر، ثم بين من يذهبان إليه ﴿إِنَّهُ طَفَنَ﴾ أي: جاوز الحد في الطغيان ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا﴾ أي: ارفقا به في الدعاء والقول ولا تغلظا له في ذلك عن ابن عباس، وقيل: معناه كنيها، عن السدي وعكرمة، وكنيته أبو الوليد وقيل: أبو العباس. وقيل: أبو مرة. وقيل: إن القول اللين هو هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى عن مقاتل. وقيل: هو أن موسى أتاه فقال له: تسلم وتؤمن برب العالمين، على أن لك شبابك فلا تهرم، وتكون ملكاً لا ينزع الملك منك حتى تموت، ولا تنزع منك لذة الطعام والشراب والجماع حتى تموت، فإذا مت دخلت الجنة فأعجبه ذلك، وكان لا يقطع أمراً دون هامان وكان غائباً فلما قدم هامان أخبره بالذي دعاه إليه، وأنه يريد أن يقبل منه فقال هامان: قد كنت أرى أن لك عقلاً، وأن لك رأياً بيناً أنت رب وتريد أن تكون مربوباً؟ وبيناً أنت تُعْبَد وتريد أن تُعْبَد؟ فقلبه عن رأيه، وكان يحيى بن معاذ يقول: هذا رفك بمن يدعي الربوبية فكيف رفك بمن يدعي العبودية؟ ﴿أَلَمْ تَرَ يَذَّكَّرْ أَوْ يَحْشَى﴾ أي: ادعوا على الرجاء والطمع لا على اليأس

(١) هذا البيت من قصيدة رائية لجرير بن عطية يمدح بها عمر بن عبد العزيز بن مروان.

من فلاحه، فوقع التعبد لهما على هذا الوجه لأنه أبلغ لهما في دعائه إلى الحق. قال الزجاج: والمعنى في هذا عند سيبويه: اذهبوا على رجائكما وطمعكما والعلم من الله قد أتى من وراء ما يكون، وإنما يبعث الرسل وهم يرجون ويطمعون أن يقبل منهم، والمراد بيان الغرض بالبعثة أي: ليتذكر ما أغفل عنه من ربوبية الله تعالى وعبودية نفسه، ويخشى العقاب والوعيد. وفي قوله سبحانه: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا﴾ دلالة على وجوب أن يرفق في الدعاء إلى الله وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون أسرع إلى القبول وأبعد من النفور. وقيل: إن هارون كان بمصر فلما أوحى الله تعالى إلى موسى أن يأتي مصر أوحى إلى هارون أن يتلقى موسى فتلقاه على مرحلة ثم اتثمرا وذهبا إلى فرعون.



قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقِرُّ عَلَيْنَا أَوَّانَ يَطغى ٥٥﴾ قَالَ لَا نَخَافَا إِنْفِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَارَى ٥٦﴾ فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَغْدِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَى ٥٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوْحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَقَوْلِي ٥٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ٥٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ٦٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ٦١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ٦٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ٦٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَانِ ٦٤﴾ وَمِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ٦٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ٦٦﴾.

● **القراءة:** قرأ نصر عن الكسائي «خَلَقَهُ» بفتح اللام، والباقون: «خَلَقَهُ» بسكون اللام، وقرأ أهل الكوفة وروح وزيد عن يعقوب: «مهداً»، والباقون: «مهاداً» بالالف.

● **الحجة:** من قرأ «أعطى كل شيء خَلَقَهُ» فالمعنى أعطى كل شيء صورته أي: خلق كل حيوان على صورة أخرى ثم هداه. ومن قرأ «خَلَقَهُ» بفتح اللام فإنه جملة من الفعل والفاعل في موضع جر بأنه صفة شيء، والمفعول الثاني لأعطى محذوف، فكأنه أعطى كل شيء مخلوق ما أوجبه تدبيره ثم هداه السبيل، والمهد: مصدر كالفرش، والمهاد كالفرش والبساط في قوله ﴿جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَرَشًا﴾ وفي موضع آخر بساطاً. ويجوز أن يكون المهد استعمال استعمال الأسماء فجمع كما يجمع فعل على فعال، والأول أبين.

● **اللغة:** الفرط: التقدم، ومنه الفارط المتقدم إلى الماء، قال: «قد فَرَطَ العجل علينا وعَجَلَ» ومنه الإفراط: الإسراف لأنه تقدم بين يدي الحق، والتفريط: التقصير لأنه تأخر عما يجب فيه التقدم. قال الزجاج: القرن أهل كل عصر فيهم نبي أو إمام أو عالم يقتدى به، فإن لم يكن واحد منهم لم يسم قرناً. والنهي: جمع نهية وإنما قيل لأولي العقول أولو النهي لأنهم ينهون الناس عن القبائح، وقيل: لأنه ينتهي إلى آرائهم.

● **الإعراب:** ﴿أَسْمِعْ﴾ جملة في موضع الرفع بكونها خبراً بعد خبر، ويجوز أن يكون في موضع النصب على الحال، ﴿عِلْمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾: ﴿عِلْمَهَا﴾ مبتدأ و﴿فِي كِتَابٍ﴾ خبره و﴿عِنْدَ رَبِّي﴾ معمول الخبر، وتقديره علمها ثابت في كتاب عند ربي، ويجوز أن يكون قوله ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾ صفة لكتاب، فلما تقدم انتصب على الحال تقديره في كتاب ثابت عند ربي. ويجوز أن يكون ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾ الخبر و﴿فِي كِتَابٍ﴾ بدل منه، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وقوله ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ تقديره لا يضل ربي عنه، فحذف الجار والمجرور كما حذف من قوله ﴿وَأَنْتَ أَتَوْا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: فيه. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ يجوز أن يكون في موضع جر بأنه صفة ﴿رَبِّي﴾، ويجوز أن يكون في موضع رفع بأن يكون خبر مبتدأ محذوف، ﴿مِنْ ثَبَاتٍ﴾ في موضع نصب صفة لقوله ﴿أَزْوَاجًا﴾. و﴿شَقًى﴾: صفة له أيضاً فهي صفة بعد صفة، و﴿تَارَةً﴾ منصوبة على المصدر.

● **المعنى:** لما أمر الله سبحانه موسى وهارون أن يمضيا إلى فرعون ويدعوا إليه ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا﴾ أي: نخشى أن يتقدم فينا بعذاب ويعجل علينا ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ أي: يجاوز الحد في الإساءة بنا. وقيل: معناه إنا نخاف أن يبادر إلى قتلنا قبل أن يتأمل حجتنا، أو أن يزداد كفراً إلى كفره بردنا. ﴿قَالَ لَا نَخَافُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ بالنصرة والحفظ معناه: إني ناصركما وحافظكما ﴿أَسْمِعْ﴾ ما يسأله عنكما فألهمكما جوابه ﴿وَأَرَى﴾ ما يقصدكما به فادفعه عنكما، فهو مثل قوله ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾. ثم فسّر سبحانه ما أجمله فقال: ﴿فَأَيُّهَا﴾ أي: فأيتها فرعون ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أي: أرسلنا إليك خالقك بما ندعوك إليه ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: أطلقهم وأعتقهم عن الاستعباد، ﴿وَلَا تَغْلِبْهُمْ﴾ بالاستعمال في الأعمال الشاقة، ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: بدلالة واضحة ومعجزة لائحة من ربك تشهد لنا بالنبوة، ﴿وَأَسْلَمَ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ قال الزجاج: لم يرد بالسلام هنا التحية، وإنما معناه أن من اتبع الهدى سلم من عذاب الله. ويدل عليه قوله بعده ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي: إنما يعذب الله سبحانه من كذب بما جئنا به وأعرض عنه، فأما من اتبعه فإنه يسلم من العذاب، وههنا حذف وهو فأتياه فقالا له ما أمرهما الله تعالى به. ثم ﴿قَالَ﴾ لهما فرعون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا﴾ أي: فمن ربك وربيه ﴿يَتُوسَّى﴾، وإنما قال ربكما على تغليب الخطاب وقيل: تقديره فمن ربكما يا موسى وهارون فاكتمى بذكر أحدهما عن الآخر اختصاراً، ولتسوى رؤوس الآي، وأراد به: فمن أي جنس من الأجناس ربكما حتى أفهمه؟ فبيّن موسى أنه تعالى ليس له جنس وإنما يعرف سبحانه بأفعاله؟ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ معناه: أعطى كل شيء خلقته أي: صورته التي قدرها له، ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ أي: هداه إلى مطعمه ومشربه ومنكحه وغير ذلك من ضروب هدايته، عن مجاهد وعطية ومقاتل، وقيل: معناه أعطى كل شيء مثل خلقه أي: زوجه من جنسه ثم هداه لنكاحه، عن ابن عباس والسدي، وقيل: معناه أعطى خلقه كل شيء من النعم في الدنيا مما يأكلون ويشربون ويتفتعون به، ثم هداهم إلى طرق معاشهم وإلى أمور دينهم ليتوصلوا بها إلى نعم الآخرة، عن الجبائي. ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ أي: فما حال الأمم الماضية فإنها لم تقر بالله وما تدعو إليه، بل عبدت الأوثان، ويعني بالقرن

الأولى مثل قوم نوح وعاد وثمود ف ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي: أعمالهم محفوظة عند الله يجازيهم بها، والتقدير: علم أعمالهم لها عند ربي ﴿فِي كِتَابٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ. والمعنى أن أعمالهم مكتوبة مثبتة عليهم، وقيل: المراد بالكتاب ما يكتبه الملائكة، وقيل أيضاً: إن فرعون إنما قال ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ حين دعاه موسى إلى الإقرار بالبعث، أي: فما بالهم لم يبعثوا. ﴿لَا يَصِلُ رَبِّي﴾ أي: لا يذهب عليه شيء، وقيل معناه لا يخطئ ربي ﴿وَلَا يَنْسَى﴾ من النسيان عن أبي مسلم، أي: لا ينسى ما كان من أمرهم بل يجازيهم بأعمالهم، وقيل: معناه لا يغفل ولا يترك شيئاً، عن السدي. ثم زاد في الإخبار عن الله فقال: ﴿الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فرشاً ومهاداً، أي: فراشاً ﴿وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ والسلك إدخال الشيء في الشيء، والمعنى: أدخل لكم أي: لأجلكم في الأرض طرقاً تسلكونها. وقال ابن عباس: سهل لكم فيها طرقاً. ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر، وتم الإخبار عن موسى. ثم أخبر الله سبحانه عن نفسه فقال موصولاً بما قبله من الكلام ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿أَنْزُوجًا﴾ أي: أصنافاً ﴿مِنْ بَنَاتِ شَقٍ﴾ أي: مختلفة الألوان أحمر وأبيض وأخضر وأصفر، وكل لون منها زوج، وقيل: مختلفة الألوان والطعوم والمنافع، فمنها ما يصلح لطعام الإنسان، ومنها ما يصلح للثفكه، ومنها ما يصلح لغير الإنسان من أصناف الحيوان، ﴿كُلُوا﴾ أي: مما أخرجنا لكم بالمطر من النبات والثمار. ﴿وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ﴾ أي: وأسيموا مواشيكم فيما أنبتناه بالمطر. واللفظ للأمر والمراد الإباحة والتذكير بالنعمة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما ذكر ﴿لَايَتٍ﴾ أي: دلالات ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: للذين العقول الذين ينتهون عما حرم الله عليهم، عن الضحاك. وقيل: لذوي الورع، عن قتادة، وقيل: لذوي التقى، عن ابن عباس. ﴿وَمِنَّا خَلَقْنَا النَّاسَ وَنُفُوسَهُمْ﴾ أي: وفي الأرض نعيدكم إذا أمتناكم ﴿وَمِنَّا تُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ أي: دفعة أخرى إذا حشرناكم. ﴿وَلَقَدْ آزَيْنَهُ﴾ يعني فرعون ﴿إِنَّا آتَيْنَا كُلَّهُمَّا﴾ يعني الآيات التسع، أي: معجزاتنا الدالة على نبوة موسى ﴿فَكَذَّبَ﴾ بجميع ذلك ﴿وَأَنَّى﴾ أن يؤمن به، وقيل: معناه فجحد الدليل وأبى القبول ولم يرد سبحانه بذلك جميع آياته التي يقدر عليها ولا كل آية خلقها، وإنما أراد كل الآيات التي أعطاها موسى.

● **النظم:** ووجه اتصال قوله ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ بما قبله من الدعاء إلى التوحيد، أن فرعون لما ظهرت المعجزات ودلائل التوحيد على يد موسى تحير وخاف الفضيحة فأقبل على نوع آخر من السؤال تليسياً، وكثيراً ما يفعل ذلك أهل البدع عند ظهور الحجة. وقيل: لما دعاه موسى إلى الإقرار بالبعث، قال: فما بال أولئك القرون لم يبعثوا.



قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسَعْرِكَ يَمُوسَى ۖ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسَعْرِ مِثْلِهِ ۖ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ۚ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾ فتوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى

﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ بُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ النَّعْلَيْنِ ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّمَا أَن تُلْقَى وَإِنَّمَا أَن تُكُونَ أَوَّلَ مَنِ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِآءَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ .

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر «لا نخلفه» بالجزم، والباقون بالرفع، وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو والكسائي «سوى» بكسر السين، والباقون بضمها، وقرأ «يوم الزينة» بالنصب هبيرة عن حفص، وهي قراءة الحسن والأعمش والثقفى، والباقون «يوم الزينة» بالرفع، وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر ورويس «فيسحيتكم» بضم الياء وكسر الحاء، والباقون «فيسحيتكم» بفتح الياء والحاء، وقرأ أبو عمرو «إن هذين»، وقرأ ابن كثير وحفص «إن هذان» خفيف، وقرأ الباقر «إن هذان»، وابن كثير وحده يشدد النون من «هذان»، وقرأ أبو عمرو «فاجمعوا» بوصل الهمزة وفتح الميم، والباقون «فاجمعوا» بقطع الهمزة وكسر الميم، وقرأ ابن عامر وروح وزيد «تخيل إليه» بالتاء وهو قراءة الحسن والثقفى، والباقون «يخيل» بالياء.

● **الحجة والإعراب:** فأما قوله «لا نخلفه» بالجزم فإنه يكون على جواب الأمر، والقراءة المشهورة بالرفع على أن يكون ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾ في موضع النصب بكونه صفة لقوله ﴿مَوْعِدًا﴾ وهو الظاهر، وأما قوله ﴿سُوءٍ﴾ فإنه المكان النصف فيما بين الفريقين. قال موسى بن جابر:

وَجَدْنَا أَبَانًا كَانَ حَلًّا بِبَلَدَةٍ سِوَى بَيْنِ قَيْسِ قَيْسٍ عَيْلانَ وَالْفِزْرَ (١)

قال أبو علي: قوله ﴿سُوءٍ﴾ فَعَلٌ مِنَ التَّسْوِيَةِ، فكان المعنى مكاناً مستوياً مسافته على الفريقين، فيكون مسافة كل فريق إليه كمسافة الفريق الآخر. وهذا بناء يقل في الصفات ومثله قوم عدى. فأما فَعَلٌ فهو في الصفات أكثر. قالوا: دليل خُتَع (٢)، ومال لبُد، ورجل حُطَم، وأما انتصاب قوله ﴿مَكَانًا﴾ فلا يخلو من أن يكون مفعولاً للموعد، إما على أنه مفعول به، أو على أنه ظرف له، أو يكون منتصباً بأنه المفعول الثاني، ولا يجوز الأول ولا الثاني لأن الموعد قد وصف بالجملة التي هي ﴿لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ﴾، وإذا وصف لم يجز أن يعمل عمل الفعل لاختصاصه بالصفة؛ ولأنه إذا عطف عليه لم يجز أن يتعلق به بعد العطف عليه شيء منه، وكذلك إذا أُخْبِر عنه لم يجز أن يقع بعد الخبر عنه شيء يتعلق بالمخبر عنه. لم يجز سيبويه: هذا ضارب ظريف زيداً، ولا هذا ضوئرب زيداً إذا حقر اسم الفاعل، لأن التحقير في تخصيصه الاسم بمنزلة إجراء الوصف عليه، وقد جاء من ذلك شيء في الشعر، قال بشر بن أبي حازم:

(١) أبان: اسم جبل. والفزر: أبو قبيلة من تميم، وهو سعيد بن زيد.

(٢) دليل خنع: ماهر الدلالة. ومال لبُد: كثير لا يخاف فناؤه، كأنه التبد بفضه على بعض. ورجل حُطَم: لا يشبع لأنه يحطم كل شيء.

إِذَا فَايَدُ خَطْبَاءَ فَرَحَيْنِ رَجَعَتْ ذَكَرْتُ سُلَيْمِي فِي الْخَلِيطِ الْمُبَايِنِ^(١)

ويحتمل ذلك على إضمار فعل آخر كما ذهبوا إليه في نحو قول الشاعر:

إِن الْعَرَاةَ وَالْثُبُوحَ لِدَارِمٍ وَالْمُسْتَخِفَّ أَخُوهُمْ الْأَثْقَالَا^(٢)

فإذا لم يجز ذلك كان مفعولاً ثانياً لقوله ﴿فَأَجْعَلْ﴾ فيكون بمنزلة قوله ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ ونحوه، وأما ﴿يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ فمن نصبه فعلى الظرف كما تقول قيامك يوم الجمعة، فالموعد إذاً هنا مصدر، والظرف بعده خبر عنه. قال ابن جني وهو عندي على حذف المضاف أي: ان إنجاز موعدنا إياكم في ذلك اليوم، ألا ترى أنه لا يراد أنه في ذلك اليوم يعدكم لأن الموعد قد وقع الآن، وإنما يتوقع إنجازاه في ذلك اليوم. لكن في قوله ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ نظر، وظاهر حاله أن يكون مجرور الموضع حتى كأنه قال انتظروا موعدكم يوم الزينة وحشر الناس ضحى، أي: يوم هذا، ولهذا فيكون أن يحشر معطوفاً على الزينة، وقد يجوز أن يكون مرفوع الموضع عطفاً على الموعد، فكأنه قال إنجاز موعدكم وحشر الناس ضحى في يوم الزينة، أي: هذان الفعلان في يوم الزينة. وأما من رفع ﴿يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ فإن الموعد عنده ينبغي أن يكون زماناً فكأنه قال: وقت وعدكم يوم الزينة، كقولنا: مبعث الجيوش شهر كذا أي: وقت بعثها حينئذ، والعطف عليه بقوله ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ يؤكد الرفع، لأن ﴿أَنْ﴾ لا يكون ظرفاً بل هو حرف موصول في معنى المصدر، وينبغي أن يكون على حذف المضاف أي: وقت وعدكم يوم الزينة ووقت حشر الناس ضحى، كما أن قولك: ورودك مقدم الحاج، إنما هو على حذف المضاف أي: وقت قدم الحاج. وأما قوله ﴿فَيُسْحَرُكَ﴾ فإن سحت وأسحت بمعنى، قال الفرزدق:

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا بَنَ مَرَوَانَ لَمْ يَدْعُ مِنَ الْحَالِ إِلَّا مُسَحَّتًا أَوْ مُجَلَّفًا^(٣)

وفسر لم يدع على أنه بمعنى لم يبق. وأما قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَّحَرِينَ﴾ فمن قرأ بتشديد النون من ﴿إِنَّ﴾ والألف من ﴿هَٰذَا﴾ فقد قيل فيه أقوال:

أحدها: أن ﴿إِنَّ﴾ بمعنى نعم، وأنشدوا شعراً:

بَكَرَ الْعَوَاذِلُ فِي الضُّحَى يَلْجِيَنِي وَالْوَمَهُنَّةُ
وَيَقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلَا لَكَ وَقَدْ كُبُرَتْ فَقُلْتُ: إِنَّهُ

فعلى هذا يكون تقديره: نعم هذان لساحران. وهذا لا يصح لأن ﴿إِنَّ﴾ إذا كانت بمعنى

(١) وفي رواية الأشموني «في الخليط المزابل» قوله: «فاقد» المراد حمامة فقدت فرخها و«رجعت» أي صوتت وكررت صوتها و«سليمي» اسم. ويقولون: ضربته بين أذناه، ومن يشتري الخفان، وقيل: إنها لغة لبني الحرث بن كعب، وهذا القول اختار.

(٢) قائله الأخطل. والعراة: الشدة. والنبوح: العز والكثرة. يمدح بني دارم بكثرة عددهم، وحملهم الأمور الثقال التي يعجز غيرهم عن حملها. وفي إعراب البيت خلاف ذكره ابن منظور في (اللسان) في «نبج» فراجع.

(٣) المجلف: الذي بقيت منه بقية. يريد إلا مسحتاً أو هو مجلف.

سورة طه

نعم ارتفع ما بعدها بالابتداء والخبر، واللام لا يدخل على خبر مبتدأ جاء على أصله. وأما ما أشد في ذلك من قوله:

خَالِي لَأَنْتَ وَمَنْ جُرَيْرُ خَالِهِ يَنْلُ الْعِلَاءَ وَيُكْرِمُ الْأَخْوََالَ

وقوله :

أُمُّ الْحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَةٌ تَرْضَى مِنَ اللَّحْمِ بِعَظْمِ الرُّقْبَةِ^(١)

فمحمول على الشذوذ والضرورة. وأيضاً فإن أبا علي قال: ما قيل إن في الآية لا يقتضي أن يكون جوابه نعم، لأنك إن جعلته جواباً لقول موسى ﷺ: ويلكم لا تفتروا على الله كذباً، قالوا: نعم هذان ساحران، كان محالاً، وإن جعلته على تقدير: فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى، قالوا: نعم هذان لساحران، كان محالاً أيضاً.

وثانيها: ما قاله الزجاج: إن تقديره نعم هذان لهما ساحران فاللام دخل على مبتدأ محذوف، وهذا أيضاً مثل الأول لما قلناه ولأن سيبويه قال نعم عدة وتصديق، وأن يصرف إلى الناصبة للاسم أولى وهو قراءة أبي عمرو وعيسى بن عمرو، قال أبو علي: هذا الذي قاله الزجاج لا يتجه لأمرين:

أحدهما: أن الذي حملة النحويون على الضرورة، لا يمتنع أن يستمر هذا التأويل فيه ولم يحمله مع ذلك عليه.

والآخر: أن التأكيد باللام لا يتعلق به الحذف، ألا ترى أن الأوجه في الزينة أن يتم الكلام ولا يحذف، ثم يؤكد فليس باللائق في التدبر.

وثالثها: ما قاله المتقدمون من النحويين: إن التقدير إنه هذان لساحران فحذف ضمير القصة، وهذا أيضاً فيه نظر من أجل دخول اللام في الخبر، ولأن إضمار الهاء بعد ﴿إِنْ﴾ إنما يأتي في ضرورة الشعر نحو قوله:

إِنْ مَنْ لَامَ فِي بَنِي بَنِي حَسَّانٍ أَلَمَهُ وَأَغْصِيهِ فِي الْخُطُوبِ

وقوله:

إِنْ مَنْ يَدْخُلُ الْكَنِيسَةَ يَوْمًا يَلْتَقَ فِيهَا جَاذِرًا وَظَبَاءً^(٢)

ورابعها: ما قاله علي بن عيسى وهو أن ﴿إِنْ﴾ لما كانت مشبهة بالفعل وليست بأصل في العمل ألغيت ههنا، كما تلغى إذا خفت وهذا غير مستقيم أيضاً، لأن الإلغاء في ﴿إِنْ﴾ ما رأيناه في غير هذا الموضع، وأيضاً فإنها قد أعملت مخففة في قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَّا يُوقِنْتُمْ رَبِّكَ﴾

(١) والشاهد في دخول اللام على الخبر في البيتين وهو قوله لَأَنْتَ - في البيت الأول - ولعجوز - في البيت الثاني - مع أنها مختصة بالمبتدأ.

(٢) الجاذر جمع الجؤذر: ولد البقرة الوحشية.

أَعْمَلَهُمْ﴾ فكيف يجوز إلغاؤها في غير التخفيف؟ وأيضاً فقد أعمل اسم الفاعل والمصدر لشبههما بالفعل، ولا يجوز إلغاؤهما. وأيضاً فإن اللام يمنع من هذا التأويل لأن «إِنْ» إذا ألغيت ارتفع ما بعدها بالابتداء، واللام لا يدخل على خبر المبتدأ على ما بيناه.

وخامسها: أن هذه الألف ليست بألف التثنية وإنما هي ألف هذا زيدت عليها النون. وهذا قول الفراء وهو غير صحيح، فإنه لا يجوز أن يكون تثنية إلا ويكون لها علم. ولو كان على ما زعم لم تنقلب هذه الألف ياء في حال الجر والنصب. ويدل على أن هذه الألف للتثنية: أن الألف التي كانت في الواحد قد حذفت كما حذفت الياء من الذي والتي إذا قلت اللذان واللتان.

وسادسها: وهو أجود ما قيل فيه أن يكون ﴿هَٰذَا﴾ اسم ﴿إِنْ﴾ بلغة كنانة، يقولون: أتاني الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان. قال بعض شعرائهم:

واهاً لِرِزَّائِمٍ واهاً واهاً يا لَيْتَ عَيْنَاهَا لَنَا وِفاها
وموضعُ الخُلُخالٍ من رِجلاها بِئْسَ مَنْ نُغْطِي بِهِ أَبَاهَا
إن أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قد بلغا في المجد غايتها^(١)
وقال آخر:

تَزَوَّدَ مِنَّا بَيْنَ أَذْنَاهُ طَغْيَةً دَعَّاهُ إِلَى هَابِي التَّرَابِ عَقِيمٍ
وقال آخر:

فَأَطَّرَقَ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ وَلَوْ يَرَى مَسَاغاً لِنَابِئِ الشُّجَاعِ لَصَمًّا
ويقولون: ضربته بين أذناه ومن يشتري الخفان. وقيل: إنها لغة لبني الحرث بن كعب، وهذا القول اختيار أبي الحسن وأبي علي الفارسي. ومن قرأ: «إن هذين لساحران» فهو صحيح مستقيم، وزيف الزجاج هذه القراءة لمخالفتها المصحف. وقيل: إنه احتج في مخالفته المصحف بما روى أنه من غلط الكاتب. ويروون عن عثمان وعائشة أن في هذا القرآن غلطاً تستقيم العرب بألستها، وهذا غير صحيح عند أهل النظر، فإن أبا عمرو ومن ذهب من القراء مذهبه لا يقرأ إلا بما أخذه من الثقات من السلف، ولا يظن به مع علو رتبته أن يتصرف في كتاب الله من قبل نفسه فيغيّره، ومن قرأ ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ بسكون إن والألف، فقد قال الزجاج: يقوي هذه القراءة قراءة أُبَيٍّ «ما هذان إلا ساحران»، وروى عنه أيضاً «إن هذان إلا ساحران»، وهذا يدل على أنه جعل اللام بمنزلة إلا، والعجب أنه بصري المذهب، والبصريون ينكرون مجيء اللام بمعنى إلا، قالوا: لو كان كذلك لجاز أن تقول جاءني القوم لزيداً، بمعنى إلا زيدا، فالوجه الصحيح فيه أنه جعل ﴿إِنْ﴾ هذه مخففة من الثقيلة وأضمر فيها اسمها ورفع ما بعدها على الابتداء والخبر، وجعل الجملة خبر إن. وإذا كانت «إن» مخففة من الثقيلة لزمتم اللام ليكون فرقاً بينها وبين «إن» النافية. وأما تشديد النون في قول ابن كثير ففيه وجهان:

(١) نسب جماعة هذه الأبيات إلى النجم العجلي منهم الشريف المرتضى (ره) في الأمالي ونسبها آخرون إلى رؤية. وقال بعض: إنها لبعض أهل اليمن. وفي بعض الروايات لـ «سلمى».

أحدهما: أن يكون عوضاً من ألف هذا التي سقطت من أجل حرف التثنية.
والآخر: أن يكون للفرق بين النون التي تدخل على المبهم والنون التي تدخل على المتمكن، وذلك أن هذه إنما وجدت مشددة مع المبهم، وأما قوله ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ قال أبو الحسن: إنما يقولون بالقطع إذا قالوا أجمعوا على كذا. فأما إذا قالوا أجمعوا أمركم وأجمعوا كيدكم فلا يقولون إلا بالوصل. قال: وقال بالقطع أكثر القراء. قال: فأما أن يكون لغة في هذا المعنى لأن باب فعلت وأفعلت كثير، وأن يكون أجمعوا على كذا، ثم قال كيدكم على أمر مستأنف. قال أبو علي: فإن قيل فقد تقدم ذكر قوله ﴿فَجَمَعَ كَيْدَكُمْ﴾ فإذا قيل فأجمعوا كيدكم كان تكريراً، قيل: لا يكون كذلك لأن ذلك في قصة وهذا في أخرى، ذاك إخبار عن فرعون في جمعه كيده وسحره، وهذا فيما يتوصى به السحرة في جمع كيدهم، ويشبه أن يكون ذلك على لغتين كما ظنه أبو الحسن، قال الشاعر:

وأنتم معشر زيدوا على مائة فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ طَرّاً فِكِيدُونِي
فقوله «فأجمعوا أمركم» بمنزلة ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ لأن كيدكم من أمرهم، وأما قوله ﴿يَخِيلُ إِلَيْهِ﴾ فمن قرأ بالياء فإنه فعل فارغ وفاعله قوله ﴿أَنَّا تَتَوَّيَّ﴾، ومن قرأ بالتاء فعلى هذا يكون فاعله الضمير المستكن فيه العائد إلى الجبال والعصي، و﴿أَنَّا تَتَوَّيَّ﴾ في محل الرفع لأنه بدل من ذلك الضمير وهو بدل الاشتمال ويجوز أن يكون موضعه على هذه القراءة نصباً أيضاً على معنى: يخيل إليه كونها ذات سعي.

● المعنى: ثم حكى سبحانه عن فرعون أنه نسب موسى إلى السحر تليسياً على قومه بأن قال: ﴿أَجِئْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى﴾ أي: من أرض مصر ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ أي: مثل ما أتيت به ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سَوْىً﴾ أي: اضرب بيننا وبينك موعداً مكاناً يعد لحضورنا ذلك المكان، لا يقع منا في حضوره خلاف. ثم وصف المكان بأنه تستوي مسافته على الفريقين، ومكاناً بدل عن موعد. وقيل: ﴿مَكَاناً سَوْىً﴾ أي: عدلاً بيننا وبينك عن قتادة، وقيل: منصفاً بكون النصف بيننا وبينك، عن مجاهد. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وكان يوم لهم فسمي يوم الزينة لأن الناس يتزينون فيه ويترنون به الأسواق، عن مجاهد وقاتدة والسدي. ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ يعني ضحى ذلك اليوم، ويريد بالناس أهل مصر، يقول: يحشرون إلى العيد ضحى، فينظرون إلى أمري وأمرك فيكون ذلك أبلغ في الحجة وأبعد من الشبهة، قال الفراء: يقول إذا رأيت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى فذلك الموعد. قال: وجرت عادتهم بحشر الناس في ذلك اليوم ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ أي: انصرف وفارق موسى على هذا الوعد ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي: حيلته ومكره، وذلك جمع السحرة ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ أي: حضر الموعد ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى﴾ أي: قال للسحرة، لأنهم أحضروا ما عملوا من السحر ليقابلوه بمعجزة موسى، فوعظهم فقال: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ وهي كلمة وعيد وتهديد، معناه: ألزمكم الله الويل والعذاب، ويجوز أن يكون على النداء نحو: يا ويلتا، فيكون الدعاء بالويل عليهم، وقيل: إن ويلكم كلمتان تقديرهما: وي لكم فيكون مبتدأ وخبراً، أو يكون ويلكم بمنزلة: أتعجب لكم. ﴿لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي: لا تشركوا مع الله أحداً، عن ابن

عباس، وقيل: لا تكذبوا على الله بأن تنسبوا معجزاتي إلى السحر، وسحركم إلى أنه حق، وبأن تنسبوا فرعون إلى أنه إله معبود ﴿فَسُحِرْكُم﴾ أي: يستأصلكم ﴿بِعَذَابِي﴾، عن قتادة والسدي، وقيل: يهلككم، عن ابن عباس والكلبي ومقاتل والجبائي. وأصل السحت: استقصاء الخلق، يقال: سحت شعره: إذا استأصله. وسحته الله وأسحته: إذا استأصله وأهلكه ﴿وَقَدْ خَابَ مَن آفَرَى﴾ أي: خسر من كذب على الله ونسب إليه باطلاً، عن قتادة، وقيل: انقطع رجاء من كذب على الله عن ثوابه وجنته. ﴿فَنَزَعُوا أَمْرَهُم بِنَجْمِهِ﴾ أي: تشاور القوم وتفاوضوا في حديث موسى وهارون وفرعون، وجعل كل واحد منهم ينازع لكلام صاحبه، وقيل: تشاورت السحرة فيما هياؤهم من الحبال والعصي، وفيمن يتبدى بالإنلقاء ﴿وَأَسْرَأُ النَّجْوَى﴾ يعني أن السحرة أخفوا كلامهم وتناجوا فيما بينهم سراً من فرعون، فقالوا: إن غلبنا موسى اتبعناه، عن الفراء والزجاج، وقيل: إن موسى لما قال لهم ﴿وَلَكُمْ لَا تَقْرَؤُا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قال بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر. وأسر بعضهم إلى بعض يتناجون، عن محمد بن إسحاق، وقيل: أسروا النجوى بأن قالوا: إن كان هذا ساحراً فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمره، عن قتادة. وقيل: تناجوا مع فرعون وأسروا عن موسى وهارون قولهم ﴿إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ عن الجبائي وأبي مسلم إن هذان يعني موسى وهارون ﴿لَسَحِرَيْنِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا﴾ قاله فرعون وجنوده للسحرة، ويريدون بالأرض أرض مصر. ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾ هي تأنيث الأمثل، وهو الأفضل، وهو الأشبه بالحق، يقال: فلان أمثل قومه أي: أشرفهم وأفضلهم، والمعنى: يريدان أن يصرفا وجوه الناس إليهما عن أمير المؤمنين علي عليه السلام. وقيل: إن طريقتهم المثلى بنو إسرائيل كانوا أكثر القوم عدداً وأموالاً أي: يريدان أن يذهبا بهم لأنفسهم، عن قتادة، وأكثر المفسرين. وقيل: يذهبا بطريقتكم التي أنتم عليها في السيرة والدين، عن الجبائي وأبي مسلم وابن زيد. ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي: لا تدعوا من كيدكم شيئاً إلا جتتم به ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا صَفًّا﴾ أي: مصطفىين مجتمعين ليكون أنظم لأموالكم وأشد لهيبكم عن ابن عباس وأكثر المفسرين. وقيل: ثم اتوا موضع الجمع، ويسمى المصلى: الصف، عن أبي عبيدة، والمعنى: ثم اتوا موضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم. ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَن أَسْتَعْلَى﴾ أي: وقد سعد اليوم من غلب وعلا، عن ابن عباس. قال بعضهم: إن هذا من قول فرعون للسحرة، وقال آخرون: بل هو قول بعض السحرة لبعض، ﴿قَالُوا يَتَوَسَّعُ إِمَّا أَنْ تُلْفَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْفَىٰ﴾ ﴿١٥﴾ هذا قول السحرة خيروهم بين أن يلقوا أولاً ما معهم أو يلقي موسى عصاه، ثم يلقون ما معهم. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿بَلْ أَلْفَاكُمْ﴾ أنتم ما معكم، أمرهم بالإنلقاء أولاً ليكون معجزه أظهر إذا ألقوا ما معهم، ثم يلقي هو عصاه فتبتلع ذلك، وههنا حذف أي: فألقوا ما معهم ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَايَتْهُمْ بِجَلِّ إِلَهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ الضمير في ﴿إِلَهِ﴾ راجع إلى موسى، وقيل: إلى فرعون، أي: يرى الحبال من سحرهم أنها تسير وتعدو مثل سير الحيات، وإنما قال ﴿بَجَلِّ إِلَهِ﴾ لأنها لم تكن تسعى حقيقة، وإنما تحركت لأنهم جعلوا داخلها الزئبق فلما حميت الشمس طلب الزئبق الصعود فحركت الشمس ذلك، فظن أنها تسعى.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٧﴾ وَالْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٨﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٦٩﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧٠﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧١﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئِينَ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٢﴾ إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبِّهِمْ مَجْرِمًا فَإِنْ لَمْ يَجْهَرُوا لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ لَوَ يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٣﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٤﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٥﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن ذكوان «تلقف» بالرفع، والباقون بالجزم. إلا أن حفصاً يقرؤها خفيفة والآخرين مشددة وابن كثير برواية البزي وابن فليح يشدد التاء أيضاً، وقرأ «كيد سحر» بغير ألف أهل الكوفة غير عاصم، والباقون «ساحر» بالألف.

● **الحجة:** من قرأ «تلقف» بالرفع فإنه يرتفع لأنه في موضع الحال، والحال يجوز أن يكون من الفاعل الملقى أو من المفعول الملقى فإن جعلته من الفاعل جعلته من المتلقف، وإن كان التلقف في الحقيقة للعصا، لأن التلقف كان بإلقائه، فجاز أن ينسب إليه. وإن جعلته من المفعول فإنه أنث على المعنى، لأن الذي في يمينه عصا. ومثل ذلك في أن يكون مرة للخطاب، ومرة للمؤنث قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿٤١﴾، فهذا يكون على تحدث أنت أيها الإنسان، وعلى أن الأرض تحدث. وأما «تلقف» بالجزم، فعلى أن يكون جواباً كأنه قال: إن تلقه تَلْقَفَ وتَلْقَفَ. ومن شدد التاء فإنما أراد تتلقف وهذا يكون على تتلقف أنت أيها المخاطب، وعلى تتلقف هي، إلا أنه أدغم التاء الأولى في التاء الثانية والإدغام في هذا ينبغي أن لا يكون جائزاً، لأن المدغم يسكن وإذا سكن لزم أن يجلب له همزة الوصل كما جلبت في أمثلة الماضي، نحو: اذرائم وازينت واطيروا. وهمزة الوصل لا تدخل على المضارع. قال: وسألت أحمد بن موسى كيف يبتدىء من أدغم، فقال كلاماً معناه: أنه يصير بالابتداء إلى قول من خفف ويدع الإدغام. ومن قرأ «كيد ساحر» فلأن الكيد للساحر في الحقيقة وليس للسحر، إلا أن يريد كيد ذي سحر، فيكون في المعنى مثل كيد ساحر. والاختلاف بين القراء في «آمنتكم» والوجه في ذلك ذكرناه في سورة الأعراف^(١).

● **اللغة:** يقال: لقفت الشيء وتلقفته والتقفته: إذا أخذته بسرعة. قال الكسائي: الصبي

في الحجاز إذا جاء من عند معلمه قال: جئت من عند كبير، والكبير في اللغة: الرئيس، ولهذا يقال للمعلم: الكبير، والإيثار: الاختيار، والتزكي: طلب الزكاء، والزكاء: النماء في الخير، ومنه الزكاة لأن المال ينمو بها.

● **الإعراب:** ﴿إِنْ﴾ مفعول من ﴿مَا صَنَعُوا﴾ لأن ما ههنا موصولة و﴿صَنَعُوا﴾ صلته، ويجوز أن يكون الموصول اسماً بمعنى الذي، ويكون العائد من الصلة إلى الموصول محذوفاً. ويجوز أن يكون حرفاً فيكون تقديره أن صنعهم. والفرق بين آمنتم به وآمنتم له: أن آمنتم به بالباء هو: من الإيمان الذي هو ضد الكفر، وآمنتم له: بمعنى التصديق. ﴿وَمَنْ خَلَفَ﴾ حتمل أن يكون (من) بمعنى عن، أي: عن خلاف، ويحتمل أن يكون بمعنى: على خلاف، فيكون الجار والمجرور في موضع نصب على الحال. ﴿فِي جُدُوعِ اللَّخْلِ﴾ في بمعنى على. وإنما جاز ذلك لأن الجذع قد اشتمل عليهم وقد صاروا فيها. قال الشاعر:

هُم صَلَبُوا الْعَبْدِي فِي جُدُعِ نَخْلَةٍ فَلَا عَطَسَتْ شَيْبَانُ إِلَّا بِأَجْدَعَا^(١)

﴿إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ تعليق، ومعنى التعليق إن عملت تعمل في المعنى، ولا تعمل في اللفظ. ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ موضعه جر عطف على ﴿مَا جَاءَنَا﴾، ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ يجوز أن يكون «ما» مصدرية في تقدير الظرف، أي: فاقض القضاء مدة كونك قاضياً، ويجوز أن يكون «ما» مفعوله أي: فاقض ما أنت قاضيه، فحذف الهاء، ﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ حذف المضاف، وتقديره: إنما نقضي أمور هذه الحياة الدنيا، ويجوز أن يكون تقديره: إنما نقضي مدة هذه الحياة الدنيا، وهذه على القول الأول منصوبة مفعول بها، وعلى الثاني منصوبة على الظرف. ويجوز أن يكون الواو للقسمة. ﴿جَعَلْتُ عَدُوًّا﴾ يجب أن يكون بدلاً من ﴿الدَّرَجَتِ﴾، ولا يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، لأن قوله ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ نصب على الحال من قوله ﴿لَهُمْ﴾، وذو الحال الضمير المجرور باللام، فعلى هذا لا يجوز الوقف على ﴿الدَّرَجَتِ أَعْلَى﴾ و﴿الدَّرَجَتِ﴾ مرتفع بالظرف بلا خلاف بينهم، لأن الظرف جرى خبراً على المبتدأ وهو ﴿فَأُولَئِكَ﴾، واعتمد عليه، فيرتفع ما بعده.

● **المعنى:** ﴿فَأَرْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّؤَسَّى﴾ معناه: فأحس موسى ووجد في نفسه ما يجده الخائف، ويقال: أوجس القلب فرعاً أي: أضمر، والسبب في ذلك أنه خاف أن يلتبس على الناس أمرهم فيتوهموا أنهم فعلوا مثل فعله، ويظنوا المساواة فيشكوا ولا يتبعونه، عن الجبائي. وقيل: إنه خوف الطباع إذا رأى الإنسان أمراً فظيماً، فإنه يحذره ويخافه في أول وهلة، وقيل: إنه خاف أن يتفرق الناس قبل إلقائه العصا، وقبل أن يعلموا ببطلان السحرة فيبقوا في شبهة. وقيل: إنه خاف لأنه لم يذّر أن العصا إذا انقلبت حية هل تظهر المزية، لأنه لا يعلم أنها تتلفها، فكان ذلك موضع خوف، لأنها لو انقلبت حية ولم تتلف ما يأفكون، ربما ادّعوا المساواة لا سيما والأهواء معهم والدولة لهم. فلما تلقت زالت الشبهة وتحقق عند الجميع صحة أمر موسى

وبطلان سحره. ﴿فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّا أَنْتَ الْآخِلَىٰ﴾ ﴿١٧﴾ عليهم بالظفر والغلبة ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني: العصا، ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ أي: تبتلع ما صنعوا فيه من الحبال والعصي، لأن الحبال والعصي أجسام ليست من صنعهم، قالوا: ولما ألقى عصاه صارت حية، وطافت حول الصفوف حتى رآها الناس كلهم، ثم قصدت الحبال والعصي فابتلعتهما كلها على كثرتها، ثم أخذها موسى فعادت عصا كما كانت. ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ﴾ أي: إن الذي صنعوه أو إن صنيعهم كيد ساحر، أي: مكره وحيلته. ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ أي: لا يظفر الساحر ببغيته إذ لا حقيقة للسحر ﴿حَيْثُ أَفَى﴾ أي: حيث كان من الأرض، وقيل: لا يفوز الساحر حيث أتى بسحره، لأن الحق يبطله. ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَ سِحْدًا﴾ ههنا محذوف وهو فآلقى عصاه، وتلقف ما صنعوا، فألقى السحرة سجداً أي: سجدوا ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ أضافوه سبحانه إليهما لدعائهما إليه، وكونهما رسولين له، ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة ﴿آمَنْتُمْ لَكُمْ﴾ أي: لموسى والمعنى قد صدقتم له ﴿قِيلَ أَنْ مَادَّنَ كُذَّبَ﴾ أي: من غير إذني، لأنه بلغ من جهله أنه لا يعتقد دين إلا بإذنه. والفرق بين الإذن والأمر: أن في الأمر دلالة على إرادة الأمر الفعل المأمور به، وليس في الإذن ذلك. وقوله ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ إذن، وقوله ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أمر. ﴿إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ معناه: إنه لأستاذكم وأنتم تلاميذه، وقد يعجز التلميذ عما يفعله الأستاذ، وقيل: إنه لرئيسكم ومتقدمكم وأنتم أشياعه وأتباعه ما عجزتم عن معارضته، ولكنكم تركتم معارضته احتشاماً له واحتراماً، وإنما قال ذلك ليوهم العوام أن ما أتوا به إنما هو لتواطؤ من جهتهم ليصرفوا وجوه الناس إليهم. ﴿فَلَا تُطِيعُوا أَمْرَهُمْ وَلَا تَحْمِلُوا حِمْلَهُمْ﴾ أي: أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى ﴿وَلَا تُصَلِّتُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أيها السحرة ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا﴾ لكم ﴿وَأَبْقَى﴾ وأدوم أنا على إيمانكم أم رب موسى على ترككم الإيمان به. ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي: لن نفضلك ولن نختارك على ما أتانا من الأدلة الدالة على صدق موسى وصحة نبوته، والمعجزات التي تعجز عنها قوى البشر ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي: وعلى الذي فطرنا أي: خلقنا. وقيل: معناه لن نؤثرك والله الذي فطرنا على ما جاءنا من البينات وما ظهر لنا من الحق ﴿فَأَقِصْ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أي: فاصنع ما أنت صانعه على إتمام وإحكام، وقيل: معناه فاحكم ما أنت حاكم، وليس هذا بأمر منهم ولكن معناه: أي شيء صنعت فإننا لا نرجع عن الإيمان ﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَٰذِهِ لَعْنَةً دُنْيَا﴾ أي: إنما تصنع بسلطانك أو تحكم في هذه الحياة الدنيا دون الآخرة، فلا سلطان لك فيها ولا حكم. وقيل: معناه إنما تقضي وتذهب هذه الحياة الدنيا دون الحياة الآخرة ﴿إِنَّمَا يَرِيحُنَا لَفِيفٌ لِّمَا خَطَيْنَا﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ إنما قالوا ذلك لأن الملوك كانوا يجبرونهم على تعليم السحر كيلا يخرج السحر من أيديهم، وقيل: إن السحرة قالوا لفرعون: أرنا موسى إذا نام، فأراهم إياه فإذا هو نائم وعصاه تحرسه، فقالوا: ليس هذا بسحر، إن الساحر إذا نام بطل سحره. فأبى عليهم إلا أن يعملوا فذلك إكراههم، عن عبد العزيز بن أبان. ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي: والله خير لنا منك، وثوابه أبقى لنا من ثوابك وقيل: معناه والله خير ثواباً للمؤمنين وأبقى عقاباً للعاصيين منك، وهذا جواب لقوله ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾، وههنا انتهى الإخبار عن السحرة. ثم قال الله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ مَن يَأْتِي رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ وقيل: إنه من قول السحرة، قال ابن عباس في رواية الضحاك: المجرم الكافر. وفي

رواية عطاء يعني الذي أجرم، وفعل مثل ما فعل فرعون ﴿وَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياة فيها راحة، بل هو معاقب بأنواع العقاب ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِ مُؤْمِنًا﴾ مصداقاً بالله وبأنبيائه ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: أدى الفرائض عن ابن عباس، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ يعني: درجات الجنة وبعضها أعلى من بعض، والعلی جمع العليا وهي تأنيث الأعلى، ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ معناه: أن الثواب الذي تقدم ذكره جزاء من تطهر بالإيمان والطاعة عن دنس الكفر والمعصية، وقيل: تزكى طلب الزكاة بإرادة الطاعة والعمل بها.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۖ فَاَتْبَعَهُمُ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ۖ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۚ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ۖ يَتَّبِعْ إِسْرَهُمْ قَدْ أَجْبَنَّاكَ مِنْ عِدُوكَ وَأَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى ۚ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ۖ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ۚ وَمَا أَعَجَلَك عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ۚ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرَىٰ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۚ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۚ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبِّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ۚ

● **القراءة:** قرأ حمزة: «لا تخف» جزماً، والباقون: «لا تخاف». وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: «قد أنجيتكم وواعدتكم ورزقتكم»، وقرأ الباقر: «قد أنجيناكم وواعدناكم ورزقناكم» بالنون، وقرأ أبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وسهل: «وواعدناكم» بغير الألف، والباقون بالألف. وقرأ الكسائي: «فيحل» بضم الحاء و«من يحلل» بضم اللام، والباقون بالكسر في الموضعين.

● **الحجة:** قال أبو علي من رفع قوله «لا تخاف» فإنه حال من الفاعل في ﴿فَاضْرِبْ﴾ أي: غير خائف ولا خاش، ويجوز أن يقطعه من الأول أي: أنت لا تخاف، ومن قرأ «لا تخف» جعله جواب الشرط أي: إن تضرب لا تخف دركاً ممن خلفك ولا تخش غرقاً بين يديك، فأما من قال «لا تخف دركاً ثم لا تخشى» فيجوز أن يعطيه من الأول أي: إن تضرب لا تخف وأنت لا تخشى. ولا يحمله على قول الشاعر «كان لم تر قبلي أسيراً يمانياً»^(١) ولا على نحو:

إذا العجوزُ غضِبَتْ فطلق ولا تَرْضِيها ولا تملق^(٢)

(١) قاله: عبد يغوث بن وقاص، وقوله: «وتضحك مني شبيخة عبشمية» والشاهد في قوله «لم ترى» حيث أثبت

الشاعر الألف مع الجازم.

(٢) قاله: رؤبة بن العجاج.

لأن ذلك إنما يجيء في ضرورة الشعر، كما أن قوله:

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تُنْمِي بِمَا لَأَقْتُ لَبُونُ بَنِي زِيَادٍ^(١)

كذلك. ولكنك تقدر أنك حذف الألف المنقلبة عن اللام، ثم أشبعت الفتحة لأنها في فاصلة فأثبت الألف الناشئة عن إشباع الفتحة. ومثل هذا مما ثبت في الفاصلة قوله ﴿فَأَصْلُونَا السَّيْلَا﴾، وقد جاء إشباع هذه الفتحة في كلامهم قال:

وَأَنْتَ عَنِ الْعَوَائِلِ حِينَ تُزْمِي وَمِنْ ذَمِّ الرِّجَالِ بِمُنْتَرَاكِحٍ

أي: بمنترج. وحجة من قرأ «وعدناكم» أن ذلك يكون من الله سبحانه. قال أبو الحسن: زعموا أن «واعدناكم» لغة في «وعدناكم» فإذا كان كذلك فاللفظ لا يدل على أن الفعل من اثنين، فيكون القراءة بوعد أحسن، لأن واعد بمعنى وعد، ويعلم من وعد أنه فعل واحد لا محالة، وليس واعد كذلك. فالأخذ بالآبين أولى. ومن قرأ «أنجيناكم وواعدناكم» فحجته قوله ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى﴾. وحجة من قرأ «يجل» بكسر الحاء أنه روي في زمزم أنه لإشباع حل أي: مباح له غير محظور عليه ولا ممنوع عنه، فالحل والحلال في المعنى مثل المباح فهو خلاف الحظر والحجر، والحرام والحرم، فهذه الألفاظ معناها المنع. والمباح من قولهم باح بالسر والأمر ببوح به: إذا لم يجعل دونه حظراً، فمعنى يحل عليكم: ينزل بكم وينالكم بعدما كان ذا حظر وحجر ومنع عنكم. ووجه قراءة من قرأ «يجل عليكم غضبي» أن الغضب لما كان تتبعه العقوبة والعذاب جعله بمنزلة العذاب، فقال: يحل أي: ينزل، فجعله بمنزلة قولهم: حل بالمكان يحل. وعلى هذا جاء ﴿تَصِيْبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، فكما أن هذا عذاب قد أخبر عنه بأنه يحل، كذلك أخبر عن الغضب بمثله، وجعله بمنزلة لأنه يتبعه ويتصل به.

● **اللغة:** اليبس: اليابس وجمعه أيباس. وجمع اليبس بسكون الباء ييوس، قال الكمي:

فَمَا زِدْتُهُ إِلَّا يُبُوساً وَمَا أَرَى لَهُمْ رَحِمًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَوْصُلُ

قال أبو زيد: حل عليه أمر الله يحل حلولاً، وحل الدار يحلها حلولاً. وحل العقدة يحلها حلاً، وحل له الصوم يحل حلاً، وأحله الله إحلالاً، وحل عليه حقي يحل محلاً، وأحل الرجل من إحرامه إحلالاً، وحل يحل حلاً. والأسف: أشد الغضب، ويكون أيضاً بمعنى الحزن.

● **الإعراب:** ﴿هُمُ أَوَّلَاءُ﴾ مبتدأ وخبر، ويجوز أن يكون ﴿أَوَّلَاءُ﴾ بدلاً من ﴿هُمُ﴾ ويكون ﴿عَلَى أَثَرِي﴾ في موضع رفع بأنه خبر المبتدأ، وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون ﴿عَلَى أَثَرِي﴾ في موضع نصب على الحال، والعامل فيه معنى الإشارة في ﴿أَوَّلَاءُ﴾ ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن حال بني إسرائيل فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ بعد ما رأى فرعون من الآيات فلم يؤمن هو ولا قومه ﴿أَنَّا أَتَرِ بِعِبَادِي﴾ أي: سر بهم ليلاً من أرض

(١) قائله: قيس بن زهير وكان قد طرد إبلاً للربيع بن زياد في قصة مشهورة.

مصر ﴿فَأَضْرَبَ لَهِمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي: اجعل لهم طريقاً في البحر يابساً بضربك العصا لينفلق البحر، فعذى الضرب إلى الطريق لما دخله هذا المعنى، فكأنه قد ضرب الطريق كما يضرب الدينار ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ أي: لا تخاف أن يدركك فرعون من خلفك، ولا تخشى من البحر غرقاً. ومن قرأ «لا تخف» بالجزم فمعناه: لا تخف أن يدركك فرعون، وأنت لا تخشى شيئاً من أمر البحر، مثل قوله ﴿يُولُوكُمْ أَلْدَبَارَ ثُمَّ لَا يُصْرُونَ﴾ ويجوز أن يكون في موضع الجزم على نحو ما ذكرناه في الحجة. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِحُنُودِهِ﴾ معناه: ألحق جنوده بهم، وبعث بجنوده خلفهم وفي أثرهم. وفي الكلام حذف أنهم فعلوا ذلك فدخل موسى وقومه البحر، ثم أتبعهم فرعون بجنوده ﴿فَغَشَّيْهِمْ مِنْ أَلَيْمٍ مَا غَشَّيْهِمْ﴾ أي: جاءهم من البحر ما جاءهم، ولحقهم منه ما لحقهم، وفيه تعظيم للأمر، ومعناه: غشيهم الذي عرفتموه وسمعتم به، ومثله قول أبي النجم «أنا أبو النجم وشعري شعري» أي: شعري الذي سمعت به وعلمته، أي: هلك فرعون ونجا موسى هذا كان عاقبة أمرهم فليعتبر المعتبرون بهم. ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ أي: صرفهم عن الهدى والحق وما هداهم إلى الخير والرشد وطريق النجاة، وإنما قال ﴿وَمَا هَدَى﴾ بعد قوله ﴿وَأَضَلَّ﴾ ليتبين أنه استمر على ذلك وما زال يضلهم ولا يهديهم، وحسن حذف المفعول لمكان رأس الآية، وإنما قال سبحانه تكديماً لقول فرعون لقومه: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، ثم خاطب سبحانه بني إسرائيل، وعدّد نعمه عليهم فقال: ﴿بَيْنَ يَدَيْ إِبْرَاهِيمَ قَدْ أَجَيْتُكُمْ مِنْ عَذْرَئِي﴾ فرعون بمرأى منكم ﴿وَوَعَدْنَاكَ خَلِيبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ وهو أن الله تعالى وعد موسى بعد أن أغرق فرعون ليأتي جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة، فيها بيان الشرائع والأحكام، وما يحتاجون إليه ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكُتُبَ وَالْحِكْمَ﴾ يعني في التيه. وقد مرّ بيان ذلك في سورة البقرة^(١). ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ صورته صورة الأمر والمراد به الإباحة ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي: فلا تتعدوا فيه فتأكلوه على الوجه المحرم عليكم. وقيل: إن المعنى لا تتجاوزوا عن الحلال إلى الحرام. وقيل: معناه لا تتناولوا من الحلال للاستعانة به على المعصية ﴿فَيَحْمِلَ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: فيجب عليكم عقوبتي، ومن ضم الحاء فالمعنى: فينزل عليكم عقوبتي ﴿وَمَنْ يَحْمِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ أي: هلك لأن من هوى من علو إلى سفلى فقد هلك. وقيل: فقد هوى إلى النار. قال الزجاج: فقد صار إلى الهاوية. ﴿وَأَنِّي لَفَقَّارٌ﴾ وهو فعال من المغفرة ﴿لِمَنْ تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَأَمَّنَ﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: أدى الفرائض ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ أي: ثم لزم الإيمان إلى أن يموت واستمر عليه، وقيل: ثم لم يشك في إيمانه عن ابن عباس، وقيل: ثم اتخذ بسنة النبي ﷺ ولم يسلك سبيل البدعة، عن ابن عباس أيضاً والربيع بن أنس. وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: ثم اهتدى إلى ولايتنا أهل البيت عليه السلام فوالله لو أن رجلاً عبد الله عمره ما بين الركن والمقام ثم مات ولم يجيء بولايتنا لأكبّه الله في النار على وجهه. رواه الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده، وأورده العياشي في تفسيره من عدة طرق. ﴿وَمَا أَعْجَلَك عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ قال ابن إسحاق كانت المواعدة أن يوافي الميعاد هو وقومه، وقيل: مع

جماعته من وجوه قومه وهو متصل بقوله ﴿وَوَعَدْنَاهُ جَانِبَ الْطُّورِ الْآيَمَنَ﴾ فتعجل موسى من بينهم شوقاً إلى ربه، وخلفهم ليلحقوا به، فقليل له: ما أعجلك عن قومك يا موسى، أي: بأي سبب خلفت قومك وسبقتهم وجئت وحدك. ﴿قَالَ﴾ موسى في الجواب ﴿هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي﴾ أي: هؤلاء من ورائي يدركونني عن قريب، وقيل: معناه هم على ديني ومنهاجي، عن الحسن، ورؤي عنه أيضاً أنه قال: هم ينتظرون من بعدي ما الذي آتيهم به وليس يريد أنهم يتبعونه. ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ أي: سبقتهم إليك حرصاً على تعجيل رضاك أي: لأزداد رضا إلى رضاك. ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ أي: امتحناهم وشددنا عليهم التكليف بما حدث فيهم من أمر العجل، فالزمنهم عند ذلك النظر ليعلموا أنه ليس بآله، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِي أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا بِهِ لَوْلَا آمَنَّا بِهِمْ لَا يَقْنُتُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿مِنْ بَعْدِكَ﴾ أي: من بعد انطلاقتك ﴿وَأَضَلُّهُمْ السَّامِرِيُّ﴾ أي: دعاهم إلى الضلال فقبلوا منه وضلوا عند دعائه، فأضاف الضلال إلى السامري، والفتنة إلى نفسه، ليدل سبحانه على أن الفتنة غير الضلال، وقيل: إن معنى فتنا قومك: عاملناهم معاملة المختبر المبتلي ليظهر لغيرنا المخلص منهم من المنافق، فيوالي المخلص ويعدادي المنافق. ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ أي: رجع موسى من الميقات إلى بني إسرائيل شديد الغضب حزناً، عن ابن عباس، وقيل: جزعاً، عن مجاهد، وقيل: متحسراً متلهفاً على ما فات، لأنه خشي أن لا يمكنه تدارك أمر قومه، عن الجبائي. ﴿قَالَ يَقْوَرِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ أي: صدقاً لإيتاء الكتاب وهو التوراة لتعلموا ما فيه وتعملوا به، فتستحقوا الثواب، عن الجبائي. وقيل: الوعد الحسن هو ما وعدهم به من النجاة من فرعون، ومجيئهم إلى جانب الطور، ووعد بالمغفرة لمن تاب. وقيل: هو ما وعدهم به في الآخرة على التمسك بدينه في الدنيا، عن الحسن. ﴿أَنطَلَّ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أي: مدة مفارقتي إياكم ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يجب عليكم ﴿غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ بعبادتكم العجل. والمعنى: أم أردتم أن تصنعوا صنعاً يكون سبباً لغضب ربكم ﴿فَأَخْلَفْتُمُ مَّوْعِدِي﴾ أي: ما وعدتموه لي من حسن الخلافة بعدي، وبيّن ذلك قوله: ﴿يَسْمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي﴾، وقيل: إن إخلافهم موعده أنه أمرهم للحاق به فتركوا المسير على أثره للميقات، وقيل: إنه أمرهم أن يتمسكوا بطريقة هارون وطاعته، ويعملوا بأمره إلى أن يرجع، فخالفوه.



قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ رَبِّنَا الْقَوَرِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُمُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَقْوَرِ إِنَّمَا فَتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَالْيَعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿قَالُوا لَنْ نَنْتَرِعَ عَلَيْهِ عَكِيفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ ﴿٩١﴾ ﴿قَالَ يَنْهَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَ أَفْعَصِيَّتَ أَمْرِي﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي

وَلَا بِرَأْسِيْ اِنِّيْ خَشِيتُ اَنْ تَقُوْلَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيْ اِسْرَءِيْلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِيْ ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمُرِيْ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوْا بِهٖ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ اَثَرِ الرَّسُوْلِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذٰلِكَ سَوَّلَتْ لِيْ نَفْسِيْ ﴿٩٦﴾ .

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة والكوفة وعاصم: «بمَلَكنا» بالفتح، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: «بمَلِكنا» بضم الميم، والباقون: «بمَلِكنا» بكسر الميم، وقرأ ابن عامر وحفص ورويس: «حُمَلنا» بالضم والتشديد، والباقون: «حَمَلنا» بفتح الحاء والتخفيف، وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: «لم تبصروا» بالتاء، والباقون بالياء، وفي الشواذ قراءة ابن مسعود وأبي الحسن وقتادة وأبي رجاء ونصر بن عاصم «فقبضت قبضة» بالصاد، وزوي عن الحسن أيضاً «قبضة» بضم القاف.

● **الحجة:** قال أبو علي في قوله «بمَلَكنا» هذه ثلاث لغات والكسر أكثر، والفتح لغة فيه. والمعنى: ما أخلفنا موعدك بمَلَكنا الصواب، ولكن لخَطْطنا. فأضيف المصدر إلى الفاعل وحذف المفعول. فأما من ضم الميم فإنه لا يخلو من أن يريد به مصدراً لَمَلِك، أو يكون لغة في مصدر الملك. فإن أريد الأول فالمعنى: لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك لمكان ملكنا، ويكون على هذا التقدير كقوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ اِلْحَافًا﴾ أي: ليس منهم مسألة، فيكون منهم إلحاف فيها ليس أنه أثبت ملكاً كما لم يثبت في قوله لا يسألون الناس إلحافاً مسألة منهم، ومثل ذلك قول ابن أبي أحمر:

لَا تُفْزِعُ اَلْأَرْنَبَ اَهْوَالُهَا وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ

أي: ليس بها أرنب فيفزع لهولها، ومثله قول ذي الرمة:

لَا تَشْتَكِي سَقَطَةً مِنْهَا وَقَدْ رَقَصَتْ بِهَا الْمَفَاوِزُ حَتَّى ظَهَرُهَا حَدَبُ

أي: ليس منها سقطت فتشتكي. وقوله ﴿حُمَلْنَا﴾ من حمل الإنسان الشيء وحملته إياه. فمن قرأ «حُمَلْنَا» فالمعنى: جعلونا نحمل أوزار القوم. ومن قرأ «حَمَلْنَا» أراد أنهم فعلوا ذلك، ومن قرأ «بما لم يبصروا به» بالياء فالمعنى: بما لم يبصر به بنو إسرائيل، ومن قرأ بالتاء صرف الخطاب إلى الجميع، والقبض بالصاد: باليد كلها. وبالصاد بأطراف الأصابع، والقبضة بالضم: القدر المقبوض، والقبضة: فعلك أنت. وقد ذكرنا الاختلاف في قوله: ﴿قَالَ يَبْنَومُ﴾، والوجه في ذلك في سورة الأعراف^(١).

● **اللغة:** الوزر: أصله الثقل، ومنه الوزر: الذنب، لأن صاحبه قد حمل به ثقلاً. والوزر: الحمل، والأزار: الأحمال والأثقال، ومنه الأوزار للسلح، لأنها تثقل على لابسها. والخوار: الصوت المتردد الشديد التردد كصوت البقر ونحوه، والعكوف: الإقامة وملازمة الشيء ومنه الاعتكاف في المسجد، ورقب يرقب رقباناً ورقبة: انتظر، والمرقب: المكان العالي الذي

يقف عليه الرقيب، وأرقت فلاناً داري وأعمرته. والاسم الرقبى والعمرى، وبصر بالشيء يبصر: إذا صار عليماً به، وأبصر يبصر: إذا رأى.

● **الإعراب:** ﴿فَكَذَّبَكَ أَخَى السَّامِرِيِّ﴾: الكاف صفة مصدر محذوف لألقى، تقديره ألقى السامري إلقاء مثل إلقاءنا. ﴿جَسَدًا﴾ بدل من عجل، ﴿أَلَّا يَرْجِعُ﴾ تقديره: أفلا يرون أنه لا يرجع، ويجوز أن ينصب ﴿يَرْجِعُ﴾ بأن فيكون الناصبة للفعل، ولا يكون ﴿أَنَّ﴾ المخففة من أن. ﴿صَلُّوا﴾ جملة في موضع نصب على الحال، وقد مضى، ﴿أَلَّا تَنْتَبِهَ﴾ في موضع جر بمن المحذوف، أو في موضع نصب على الخلاف فيه، تقديره ما منعك من اتباعي. ولا زائدة كما في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْتَجِدَّ﴾.

● **المعنى:** ﴿قَالُوا﴾ أي: قال الذين لم يعبدوا العجل ﴿مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا﴾ أي: ونحن نملك من أمرنا شيئاً. والمعنى: أنا لم نطق رد عبدة العجل عن عظيم ما ارتكبهوا للربية لكثرتهم وقتلتنا. وجاء في الرواية أن الذين لم يعبدوا العجل كانوا اثني عشر ألفاً، والذين عبدوه كانوا ستمائة ألف رجل. ومن قرأ «بملكننا» بضم الميم، فمعناه بقدرتنا وسلطاننا أي: لم نقدر على ردهم. ﴿وَلَكِنَّا جُمْلَةً أَوْرَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ معناه: ولكننا حملنا أثقالاً من حلي آل فرعون وهو ما استعادوه من حليهم حين أرادوا السير. وقيل: هو ما ألقاه البحر على الساحل من ذهبهم وفضتهم وحليهم بعد إغراقهم فأخذوه، وقيل: هو من أثقال الذنوب والآثام أي: حملنا آثاماً من حلي القوم لأنهم استعاروا حلياً من القبط ليتزينوا بها في عيد كان لهم، ثم لم يردوها عليهم عند الخروج من مصر مخافة أن يعلموا بخروجهم فحملوه وكان ذلك ذنباً منهم إذ كانوا مستأمنين فيما بينهم. وقيل: إنهم كانوا في حكم الأسراء فيما بينهم فكان يحل لهم أخذ أموالهم، فعلى هذا لا يمكن حمله على الإثم. ﴿فَقَذَّفْنَاهَا﴾ أي: ألقيناها في النار لتذوب ﴿فَكَذَّبَكَ أَخَى السَّامِرِيِّ﴾ أيضاً ليوهم أنه منهم، عن الجبائي. وقيل: معناه فمثل ما ألقينا نحن من هذا الحلي في النار ألقى السامري أيضاً فاتبعناه. وقيل: إن هذا الكلام مبتدأ من الله، حكى عنهم أنهم ألقوا ثم قال: ﴿فَكَذَّبَكَ أَخَى السَّامِرِيِّ﴾، عن أبي مسلم. ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا﴾ أي: أخرج لهم من ذلك عجلًا جسيماً ﴿أَلَمْ خَوَّزْ﴾ أي: صوت. وقد ذكرنا صفة العجل في سورة الأعراف ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ أي: قال السامري ومن تبعه من السفلة والعوام: هذا العجل معبودكم ومعبود موسى. ﴿فَنَسِيَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه من قول السامري ومن تبعه، أي: نسي موسى أنه إله، وهو قول ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي والضحاك. وقيل: معناه فنسى أي: ضل وأخطأ الطريق، وقيل: معناه أنه تركه هنا وخرج يطلبه.

والثاني: أنه قول الله تعالى أي: فنسي السامري، أي: ترك ما كان عليه من الإيمان الذي بعث الله به موسى، عن ابن عباس أيضاً، وقيل: معناه فنسي السامري الاستدلال على حدوث العجل، وأنه لا يجوز أن يكون إلهاً. وقيل: فنسي السامري أي: نافق وترك الإسلام، ثم احتج سبحانه عليه فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: أفلا يرى بنو إسرائيل أن العجل الذي

عبوده واتخذوه إلهاً لا يرد عليهم جواباً، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرْاً وَلَا نَقْعاً﴾ ومن كان بهذه الصفة فإنه لا يصلح للعبادة.

قال مقاتل: لما مضى من موعد موسى خمسة وثلاثون يوماً، أمر السامري بني إسرائيل أن يجمعوا ما استعاروه من حلي آل فرعون، وصاغه عجباً في السادس والثلاثين، والسابع والثامن، ودعاهم إلى عبادته في التاسع، فأجابوه. وجاءهم موسى بعد استكمال الأربعين. قال سعيد بن جبير: كان السامري من أهل كرمان وكان مطاعاً في بني إسرائيل، وقيل: كان من قرية يعبدون البقر فكان حب ذلك في قلبه، وقيل: كان من بني إسرائيل فلما جاوز البحر نافق، فلما قالوا ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ اغتنمها وأخرج لهم العجل ودعاهم إليه، عن قتادة. ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل عود موسى إليهم ﴿يَقُولُوا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ يعني أن الله تعالى شدد عليكم التعبد فاعلموا إلهكم وابعدوه ولا تعبدوا العجل، موعظة ونصحاء. ويحتمل أن يكون أراد فتنكم السامري به وأضلكم ﴿وَرَأَى رِجْلُكَ الرِّجْمَ فَأَتَيْتُكَ﴾ أي: اتبعوني فيما أدعوكم إليه ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ في عبادة الله ولا تتبعوا السامري ولا تطيعوا أمره في عبادة العجل ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ﴾ معناه: لا نزال مقيمين على عبادته ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ فننظر أيعبده كما عبدناه أم لا، فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً. فلما رجع موسى ﷺ وهو ممتلىء غيظاً منهم ومن عبادتهم العجل، وسمع الصباح والجلبة إذ كانوا يرقصون حول العجل ويضربون الدفوف والمزامير، واستقبله هارون فألقى الألواح، وأخذ يعاقب هارون ﴿قَالَ يَهْرُؤُ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ﴿أَلَا تَتَّبِعُنِي﴾ أي: هلا تتبعتني بمن أقام على إيمانه، عن ابن عباس. وقيل: معناه هلا قاتلتهم إذ علمت أنني لو كنت فيهم لقاتلتهم، وقيل: هلا لحقت بي حين رأيتهم ضلوا بعبادة العجل قبل استحكام الأمر. والأصل أن لا مزيدة وتقديره ما منعك أن تتبعتني ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ فيما أمرتك به يريد قوله: ﴿أَخْلَفَنِي فِي قَوْلِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فلما أقام معهم، ولم يبالغ في منعهم نسبه إلى عصيانه. وقيل: إن صورته صورة الاستفهام والمراد به التقرير، لأن موسى ﷺ كان يعلم أن هارون لا يعصيه في أمره.

سؤال: متى قيل إن الظاهر يقتضي أن موسى كان أمره باللاحق به، فعصى هارون أمره؟ قلنا: يجوز أن يكون أمره بذلك بشرط المصلحة، ورأى هارون الإقامة أصلح، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب. ويجوز أن يكون لم يأمره بذلك وإنما أمره بمجاهدتهم وزجرهم عن القبيح، وإنما عاتبه مع أن اللوم توجه على القوم لأن أمره بمفارقتهم لوم عليهم. وقيل: إن موقع الذنب ممن عظمت رتبته أعظم. فلما كان هارون أجل من خلفه موسى، خصه باللائمة. وهذا إنما يتجه إذا ثبت لهارون ذنب، فأما وهو نقي الجيب من جميع الذنوب، بريء الساحة من العيوب، فالقول الأول هو الوجه. ﴿قَالَ﴾ هارون ﴿يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ قد فسرناه في سورة الأعراف. وقيل: كانت العادة جارية في القبض عليهما في ذلك الزمان، كما أن العادة في زماننا هذا القبض على اليد والمعانقة، وذلك مما تختلف العادة فيه بالآزمة والأمكنة. وقيل: إنه أجراه مجرى نفسه إذا غضب في القبض على لحيته، لأنه لم يكن يتهم عليه، كما لا يتهم على نفسه. ثم بين ﷺ عذره في مقامه معهم، فقال ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يعني:

أني لو فارقتهم أو قاتلتهم لصاروا أحزاباً وتفرقوا فرقاً، ففريق يلحقون بك معي، وفريق يقيمون مع السامري على عبادة العجل، وفريق يتوقفون شاكين في أمره، مع أنني لم آمن إن تركتهم أن يصيروا بالخلاف إلى تسافك الدماء، وشدة التصميم والثبات على اتباع السامري، فإنهم كانوا يمتنعون بعض الامتناع بمكاني فيهم. وكنت أوجه إليهم من الإنكار مقدار ما يتحملة الحال، وذلك قوله ﴿يَقُومُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾، فاعتذر بما يقبل مثله، لأنه وجه واضح من وجوه الرأي. وقوله ﴿وَلَمْ تَرْفَ قَوْلِي﴾ معناه: ولم تحفظ وصيتي، ولم تعمل به حين قلت ﴿أَخْلَقْنِي فِي قَوِي وَأَصْلَحَ﴾، ولما ظهرت براءة ساحة هارون، أقبل على السامري ﴿قَالَ﴾ له ﴿فَمَا خَطْبُكَ يُسْئِرُ﴾ أي: ما شأنك؟ وما دعاك إلى ما صنعت؟ فكأنه قال: ما هذا الخطب والأمر العظيم الذي أحدثت؟ وما حملك عليه؟ ﴿قَالَ﴾ السامري ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي: رأيت ما لم يروه، وقيل: معناه علمت ما لم يعلموا من البصيرة ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي: قبضت قبضة تراب من أثر قدم جبرائيل ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ في العجل ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما حدثتكم يا موسى ﴿سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ أي: زينت لي نفسي من أخذ القبضة وإلقائها في صورة العجل. وقيل: معناه حدثتني نفسي. فأما حديث العجل وما الذي قبضه السامري وكيفيه ذلك، واختلافهم فيه، فقد سبق ذكره.



قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفُهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝٩٨ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۝١٠١ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝١٠٤ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝١٠٧﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وأهل البصرة غير سهل: «لن تخلفه» بكسر اللام، وقرأ الضرير: «لن نخلفه» بالنون وكسر اللام وهو قراءة الحسن. وقرأ الباقون: «لن تخلفه» بفتح اللام، وقرأ أبو جعفر: «لنحرقنه» بفتح النون وسكون الحاء وتخفيف الراء، وهو قراءة علي عليه السلام وابن عباس. وقرأ أبو عمرو «يوم ننفخ في الصور» بالنون، والباقون «ينفخ» بالياء وفتح الفاء. وفي الشواذ قراءة أبي حيوة: «لا مَسَاسٍ». وقرأ مجاهد وقتادة: «وسع كل شيء علماً»، وقرأ ابن عباس: «في الصور» بفتح الواو.

● **الحجة:** قال أبو علي: أخلفت يتعدى إلى مفعولين ﴿لَنْ تُخْلَفَ﴾ مثل لن تعطاه. لما أسندت الفعل إلى أحد المفعولين فأقمته مقام الفاعل، بقي الفعل متعدياً إلى مفعول واحد، وفاعله الذي يخلف هو الله تعالى أو موسى، ومعناه: سيأتيك به ولن يتأخر عنك. ولن تخلفه أي: سيأتيه ولا مذهب لك عنه. وقال ابن جني: معناه لن تصادفه مخلفاً كقول الأعشى:

أَثْوَى وَقَصَّرَ لَيْلَهُ لِيَزْوَدَا وَمَضَى وَأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدًا^(١)

وهو وعيد والمعنى في قراءة الأولى أبين. وأما «نخلفه» بالنون فالمعنى: لن نخلفك إياه، أي: لن ننقص ما عقدناه لك، وقوله ﴿لَنُحْرِقَنَّ﴾ من قولهم فلان يحرق عليّ الأرم أي: يحك أسنانه بعضها ببعض غيظاً عليّ. قال زهير:

أَبَى الضَّيْمِ وَالنُّعْمَانُ يَحْرِقُ نَابَهُ عَلَيْهِ فَأَفْصَى وَالسَّيْفُ مَعَاقِلُهُ^(٢)

فكان لنحرقنه على هذا: لنبردنه ولنحترئه حتاً، يقال: حرقت الحديد أي: بردته فتحات وتساقط. وقوله ﴿مَسَاسٌ﴾ مثل نزال وحذار. قال ابن جني: ولا يدخل على هذا الضرب من الكلام ما النافية بالنكرة، فلا إذا في قوله ﴿لَا مَسَاسٌ﴾ نفي للفعل كقولك: لا أمسك ولا أقرب منك، فكأنه حكاية قول القائل مساس، فكأنه قال: لا أقول مساس. قال الكمي: «لا همام لي لا همام»^(٣) أي: لا أقول همام. ولا بد أن تكون الحكاية مقدرة، ألا ترى أنه لا يجوز أن تقول: لا أضرب، فتتفي بلا لفظ الأمر لتنافي اجتماع لفظ الأمر والنهي، فالحكاية إذاً معتقدة مقدرة. وأما قوله ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فمعناه على ما قاله ابن جني: أنه خرق كل مصمت بعلمه، لأنه بطن كل مخفي فصار لعلمه فضاء متسعاً بعدما كان متلاقياً مجتمعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، وهذا في العمل وذاك في العلم، والوجه في قوله: ننفع في الصور ﴿فَنَفَعْنَا فِيهِ مِنْ زُجْجًا﴾، وقوله فيما بعده ﴿وَنَحْشُرُ﴾، والوجه في الياء قوله ﴿يَوْمَ يُفْتَحُ فِي الصُّورِ﴾ ﴿وَيُفْتَحُ فِي الصُّورِ﴾، وأما قوله «في الصور»: فإنه جمع صورة، وقد يقال فيها صير وأصله صور. قال:

أَشْبِهْنَهُ مِنْ بَقْرِ الْخَلَصَاءِ أَغْيَتْهَا فَهِنَّ أَحْسَنُ مِنْ صِيرَانِهَا صِيرًا^(٤)

وصوراً أيضاً. قال أبو عبيدة: الصور جمع صورة، ويقال: الصور القرن، ويقال: فيه ثقب بعدد نفوس البشر، فإذا نفخ فيه قام الناس من الأرماس.

(١) أثوى بالمكان: أقام. وقتيلة: علم امرأة، وأخلف موعداً أي: صادف سنّها خلف المواعيد. ويروى «فمضت» مكان «فمضى» ومعناه: فمضت الليلة.

(٢) الضيم: الظلم. وأفصى: أي تخلص من الشر.

(٣) هذا جزء من بيت له في مدح أهل البيت عليه السلام وقيل هذا البيت قوله: «إن أمت لا أمت ونفسم نفسان من الشك في عمى أو تعام» وتمايم البيت «عادلاً غيرهم من الناس طراً * بهم لا همام لي لا همام» ومعناه: لا أهم بذلك وهو مبني على الكسر كقطام يقول: لا أعدل بهم أحداً.

(٤) خلصاء: اسم موضع. وصيران جمع صوار: قطع البقر.

● **اللغة:** ظلت: أصله ظلمت، وللعرب فيها مذهبان: فتح الظاء وكسرها. فمن قال: ظلت، ترك الظاء على حالها، ومن قال: ظلمت بالكسر، نقل حركة اللام إليها للإشعار بأصلها، ومثله مَسَّت ومِسَّت في مسست وهل أحست في أحسست. قال الشاعر:

خَلَا أَنَّ الْعِتَاقَ مِنَ الْمَطَايَا أَحْسَنَ بِهِ فَهَنَّ إِلَيْهِ شُوسُ^(١)

لنفسه: يقال نفس فلان الطعام بالمنسف: إذا ذراه ليطير عنه قشوره. والصفصف: الموضع المستوي الذي لا نبات به، كأنه على صف واحد في استوائه، والقاع: الأرض الملساء. وقيل: مستنقع الماء وجمعه أقواع وقيعان وقية، والأمت: الأكمة. يقال مد حبله حتى ما ترك فيه أمتاً، وملأ سقاءه حتى ما ترك فيه أمتاً، أي: انثناء. قال الشاعر: «ما في انجذاب سيره من أمت».

● **المعنى:** ثم حكى سبحانه عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ﴾ للسامري ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ واختلف في معناه فقيل: إنه أمر الناس بأمر الله أن لا يخالطوه، ولا يجالسوه، ولا يؤاكلوه تضييقاً عليه، والمعنى: لك أن تقول لا أُمَسَّ ولا أُمَسَّ ما دمت حياً، قال ابن عباس: لك ولولدك، والمساس: فعال من المماسه، ومعنى لا مساس: لا يمس بعضنا بعضاً. فصار السامري يهيم في البرية مع الوحش والسياب لا يمس أحداً ولا يمسه أحد، عاقبه الله تعالى بذلك، وكان إذا لقي أحداً يقول: لا مساس، أي: لا تقربني ولا تمسني. وصار ذلك عقوبة له ولولده حتى إن بقاياهم اليوم يقولون ذلك، وإن مس واحد من غيرهم واحداً منهم حُمَّ كلاهما في الوقت، وقيل: إن السامري خاف وهرب فجعل يهيم في البرية لا يجد أحداً من الناس يمسّه، حتى صار لبعده عن الناس كالقائل لا مساس، عن الجبائي. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أي: وعداً لعذابك يعني يوم القيامة لن تخلف ذلك الوعد ولن يتأخر عنك. قال الزجاج: المعنى يكافيك الله على ما فعلت يوم القيامة. ﴿وَانْظُرْ إِلَيْكَ إِلَهَكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاقِبًا﴾ معناه: وانظر إلى معبودك الذي ظلمت على عبادته مقيماً، يعني العجل ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنار ﴿ثُمَّ لَنَسْفَعُنَّهُ فِي أَلْيَمٍ سَفْعًا﴾ أي: لنذرينه في البحر. قال ابن عباس: فحرقه ثم ذراه في البحر، وهذا يدل على أنه كان حيواناً لحماً ودماً. وعلى القراءة الأخرى لنحرقه أي: لنبردنه بالمبرد يدل على أنه كان ذهباً وفضة، ولم يصر حيواناً، ونبه عليه بذلك على أن ما يمكن سحقه أو إحراقه لا يصلح للعبادة. وقال الصادق عليه السلام: إن موسى عليه السلام هَمَّ بقتل السامري فأوحى الله سبحانه إليه: لا تقتله يا موسى فإنه سخي. ثم أقبل موسى على قومه فقال: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الذي يستحق العبادة ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: يعلم كل شيء علماً تاماً، وهي لفظة عجيبة في الفصاحة. وفي ذلك دلالة على أن المعلوم يسمى شيئاً لكونه معلوماً، ثم قال الله لنبيه عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي: مثل ما قصصنا عليك يا محمد من نبأ موسى وقومه،

نقص عليك من أخبار ما قد مضى وتقدم من الأُمم والأُمور ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ يعني: القرآن، لأن فيه ذكر كل ما يحتاج إليه من أمور الدين. ثم أَوعد سبحانه على الإعراض عنه وترك الإيمان به فقال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ أي: حملاً ثقيلاً من الإثم يشق عليه حمله لما فيه من العقوبة كما يشق حمل الثقل ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ أي: في عذاب ذلك الوزر وجزائه، وهو الخلود في النار ﴿وَسَاءَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ تقديره: ساء الحمل حملاً، والحمل بمعنى المحمول أي: بشئ الوزر هذا الوزر لهم يوم القيامة، قال الكلبي: بشئ ما حملوا على أنفسهم من المآثم كفرهم بالقرآن، ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ هو بدل من يوم القيامة، وقد سبق معناه. ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قال ابن عباس: يريد بالمجرمين الذين اتخذوا مع الله إلهاً، يحشرون زرق العيون سود الوجوه، ومعنى الزرقة: الخضرة في سواد العيون كعين السنور، والمعنى في هذا تشويه الخلق. وقيل: زرقاً عمياً ترى زرقاً وهي عمي، عن الفراء. وقيل: عطاشاً في مظهر عيونهم كالزرقة مثل قوله ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ عن الأزهري ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتسارون بينهم فيقول المجرمون بعضهم لبعض: ﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: ما لبثتم إلا عشر ليال، عن ابن عباس وقتادة. يعني من النفخة الأولى إلى الثانية، وذلك أنه يكف عنهم العذاب فيما بين النفختين وهو أربعون سنة. وقيل: ما لبثتم في الدنيا. ينسون من شدة هول ذلك اليوم مدة لبثهم في الدنيا، وقيل: في القبر يذهب عنهم طول لبثهم في قبورهم كأنهم كانوا نياماً فانتبهوا. وقيل: إنهم يقللون لبثهم في الدنيا طول ما هم لا يشعرون فيه من النار، عن الحسن. ثم قال سبحانه: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: بما يتسارون بينهم ﴿إِذْ يَقُولُ الْمَتَلَبِّصُونَ أَيُّهُمْ أَصْلَحُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ﴾ أي: أصلحهم وأوفرهم عقلاً وأصوبهم رأياً، وقيل: أكثرهم سداداً عند نفسه ﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي: ما لبثتم إلا يوماً في الدنيا وفي القبور، إنما قال ذلك لأن اليوم الواحد والعشرة إذا قوبلت بيوم القيامة، وما لهم من الأيام في النار، كان اليوم الواحد أقرب إليه، وهو كقوله: ﴿لَوْ يَلْتَمِزُوا إِلَّا عِثَّةً أَوْ ضُفَّةً﴾، وقيل: إنهم قالوا ذلك بعد انقطاع عذاب القبر عنهم لأن الله يعذبهم ثم يعيدهم، عن الجبائي.

ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿رَسَّالُونَكَ﴾ أي: ويسألك منكرو البعث عند ذكر القيامة ﴿عَنِ الْجِبَالِ﴾ ما حالها ﴿فَقُلْ﴾ يا محمد ﴿يَسِفُّهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أي: يجعلها ربي بمنزلة الرمل، ثم يرسل عليها الرياح فيذريها كتذرية الطعام من القشور والتراب، فلا يبقى على وجه الأرض منها شيء، وقيل: يصيرها كالهباء، وقيل: إن رجلاً من ثقيف سأل النبي ﷺ كيف تكون الجبال يوم القيامة مع عظمها؟ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسُوقُهَا بِأَنْ يَجْعَلَهَا كَالرَّمَالِ﴾، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: فيدع أماكنها من الأرض إذا نسفها ﴿قَاعًا﴾ أي: أرضاً ملساء، وقيل: منكشفة، عن الجبائي ﴿صَفْصَفًا﴾ أي: أرضاً مستوية ليس للجبل فيها أثر. وقيل: القاع والصفصف بمعنى واحد وهو: المستوي من الأرض الذي لا نبات فيه، عن ابن عباس ومجاهد ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ أي: ليس فيها منخفض ولا مرتفع، عن عكرمة عن ابن عباس، قال الحسن: العوج ما انخفض من الأرض. والأمت: ما ارتفع من الروابي، وقيل: لا ترى فيها وادياً ولا رابية، عن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (١٨) **يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا** ﴿١٩﴾ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ** ﴿٢٠﴾ **وَعَنَتِ الْأُصُوفُ لِلْخِيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا** ﴿٢١﴾ **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا** ﴿٢٢﴾ **وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا** ﴿٢٣﴾ **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴿٢٤﴾ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: «فلا يخف» بالجزم، والباقون: «فلا يخاف» بالألف، وقرأ يعقوب: «أن نقضي» بالنون «وحيه» بالنصب، والباقون: «يقضي» بضم الياء، «وحيه» بالرفع.

● **الحجة:** من قرأ «فلا يخف» فإنه على النهي. ومن قرأ «فلا يخاف» فإنه على الخبر، وتقديره: فهو لا يخاف. وموضع الفاء مع ما بعدها في الموضعين مجزوم، ولكونه في موضع جواب الشرط، والمبتدأ محذوف ومراد بعد الفاء. «وهو مؤمن» في موضع نصب على الحال والعامل في الحال «يعمل»، وذو الحال الذكر الذي في «يعمل» العائد إلى من، ومن قرأ «من قبل أن يقضي إليك وحيه» فإنه أضاف القضاء إلى الله، وجعل الوحي مفعوله. والمعنى في القراءتين واحد.

● **اللغة:** الهمس: إخفاء الكلام والصوت الخفي، قال الراجز:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَاهِمِيسَا إِنْ يَضْدُقُ الطَّيْرُ نَبْكَ لَمِيسَا

يعني صوت أخفاف الإبل في سيرها، والعنوة: الخضوع والذل، والعاني: الأسير، وأخذت الشيء عنوة أي: غلبة تذل المأخوذ منه. وقد يكون العنوة عن تسليم وطاعة، لأنه على طاعة الدليل للعزیز، قال الشاعر:

هَلْ أَنْتَ مَطِيعِي أَيُّهَا الْقَلْبُ عَنُوَّةٌ وَلَمْ تُلَحْ نَفْسٌ لَمْ تُلَمْ فِي احْتِيَالِهَا

وقال آخر:

فَمَا أَخَذُوهَا عَنُوَّةٌ عَنْ مَوَدَّةٍ وَلَكِنْ بِضَرْبِ الْمَشْرِفِي اسْتَفَالِهَا

والهضم: النقص، يقال: هضمني حقي وبهضمني أي: ينقصني، وامرأة هضم الحشا أي: ضامرة الكشحين لنقصانه عن حد غيره، ومنه هضمت المعدة الطعام أي: نقصته مع تغييرها، والعزم: الإرادة المتقدمة لتوطين النفس على الفعل.

● **الإعراب:** ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ و﴿لَهُمْ﴾ جملة في موضع الحال، والتقدير: يتبعون الداعي غير معوجين عن إجابته، لأن معناه لا عوج لهم عن دعائه، أي: لا

يقدرّون على أن لا يتبعوه. ﴿قُرْآنًا﴾ منصوب على الحال و﴿عَرَبِيًّا﴾ صفة، وفي الحقيقة الحال قوله عربياً وإنما ذكر قرآناً للبيان، وكذلك الكاف في محل نصب بأنه صفة لمصدر محذوف.

● **المعنى:** ثم وصف سبحانه القيامة فقال: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ﴾ أي: يوم القيامة يتبعون صوت داعي الله الذي ينفخ في الصور، وهو إسرافيل عليه السلام ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: لدعاء الداعي ولا يعدل عن أحد، بل يحشرهم جميعاً، عن أبي مسلم، وقيل: معناه لا عوج لهم عن دعائه لا يميلون عنه ولا يعدلون عن ندائه، أي: يتبعونه سراعاً ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، عن الجبائي. ﴿وَحُشِّنَ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: خضعت الأصوات بالسكون لعظمة الرحمن، عن ابن عباس. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ وهو صوت الأقدام، عن ابن عباس وابن زيد، أي: لا تسمع من صوت أقدامهم إلا صوتاً خفياً كما يسمع من وطء الإبل، وقيل: الهمس إخفاء الكلام، عن مجاهد، وقيل: معناه أن الأصوات العالية بالأمر والنهي في الدنيا ينخفض ويذل أصحابها فلا تسمع منهم إلا الهمس. ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ﴾ أي: لا تنفع ذلك اليوم شفاعة أحد في غيره، إلا شفاعة من أذن الله له في أن يشفع ورضي قوله فيها من الأنبياء والأولياء والصالحين والصدّيقين والشهداء.

ثم قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الضمير يرجع إلى الذين يتبعون الداعي أي: يعلم سبحانه جميع أقوالهم وأفعالهم قبل أن خلقهم، وبعد أن خلقهم، وما كان في حياتهم وبعد مماتهم، لا يخفى عليه شيء من أمورهم تقدم أو تأخر، عن أبي مسلم، وقيل: يعلم ما بين أيديهم من أحوال الآخرة، وما خلفهم من أحوال الدنيا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ أي: ولا يحيطون هم بالله علماً، أي: بمقدورات ومعلوماته، وقيل: بكنه عظمته في ذاته وأفعاله، وقيل: لا يحيطون علماً بما بين أيديهم وما خلفهم إلا من أطلعه الله على ذلك، عن الجبائي، وقيل: معناه ولا يدركونه بشيء من الحواس حتى يحيط علمهم به. ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أي: خضعت وذلت خضوع الأسير في يد من قهره، والمراد خضع أرباب الوجوه وأسلموا الحكم للحَيِّ الذي لم يموت ولا يموت، وإنما أسند الفعل إلى الوجوه، لأن أثر الذل يظهر عليها. وقيل: المراد بالوجوه الرؤساء والقادة والملوك، أي: يذلون وينسلخون عن ملكهم وعزهم. وقد سبق معنى الحي القيوم في مواضع. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: وقد خاب عن ثواب الله من حمل شركاً إلى يوم القيامة، عن ابن عباس، وقيل: قد خسر الثواب من جاء يوم القيامة كافراً ظالماً ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: ومن يعمل شيئاً من الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ عارف بالله تعالى مصدق بما يجب التصديق به، وإنما قال ذلك لأنه لا تنفع الطاعة من غير إيمان ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ أي: هو لا يخاف أن يظلم ويزاد عليه في سيئاته، ولا أن يهضم أي: ينقص من حسناته، عن ابن عباس، وقيل: لا يخاف أن يؤخذ بذنب لم يعمل، ولا أن تبطل حسنة عملها، عن الضحاك، وقيل: لا يخاف ظلماً بأن لا يجزى بعمله، ولا هضماً بالانتقاص من حقه، عن ابن زيد. ومن قرأ «فلا يخف» على النهي فمعناه: فليأمن ولا يخف الظلم والهضم، والنهي عن الخوف أمر بالأمن. وفي هذه الآية دلالة على بطلان التحايط ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما أخبرناك بأخبار القيامة ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: أنزلنا هذا

الكتاب ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي: كَرَرْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ وذكرناه على وجوه مختلفة وبيناه بالفاظ متفرقة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي، وقيل: ليتقي العرب من قبل أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك ﴿أَوْ يُحِثُّ لَهُمْ ذِكْرُكَ﴾ معناه: أو يجدد لهم عظة واعتباراً، أي: يذكرها به عقاب الله للأمم فيعتبروا. وقيل: يحدث لهم شرفاً بإيمانهم به، وإنما أضاف إحداث الذكر إلى القرآن، لأنه يقع عنده كما قال: ﴿وَإِذَا ثَلِثْتَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾. ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي: ارتفعت صفاته عن صفات المخلوقين فلا يشبهه أحد في صفاته، لأنه أقدر من كل قادر وأعلم من كل عالم، وكل عالم وقادر سواء محتاج إليه وهو غني عنه، وكل قادر وعالم قادر على شيء، عاجز عن شيء، عالم بشيء، جاهل بشيء، وما هو عالم به يجوز أن ينساه أو يسهو عنه، فهو معرض للزوال والله سبحانه لم يزل عالماً قادراً ولا يزال كذلك، والملك: الذي يملك الدنيا والآخرة، والحق: الذي يحق له الملك وكل ملك سواء يملك بعض الأشياء، ويبيد ملكه ويفنى. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ فيه وجوه:

أحدها: أن معناه: لا تعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبرائيل عليه السلام من إبلاغه فإنه ﷺ كان يقرأ معه ويعجل بتلاوته مخافة نسيانه، أي: تفهم ما يوحى إليك إلى أن يفرغ الملك من قراءته ولا تقرأ معه، ثم اقرأ بعد فراغه منه. وهذا كقوله ﴿لَا تُخْرِكْ يَدَيْكَ إِسْرَافًا لِّتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١١)، عن ابن عباس والحسن والجبائي.

وثانيها: أن معناه: ولا تقرأ لأصحابك ولا تمله عليهم حتى يتبين لك معانيه، عن مجاهد وقتادة وعطية وأبي مسلم.

وثالثها: أن معناه: ولا تسأل إنزال القرآن قبل أن يأتيك وحيه، لأنه تعالى إنما ينزله بحسب المصلحة وقت الحاجة. ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي: استزد من الله سبحانه علماً إلى علمك. روت عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله، فلا بارك الله لي في طلوع شمس». وقيل: معناه زدني علماً بقصص أنبيائك ومنازل أوليائك. وقيل: زدني قرآناً لأنه كلما ازداد من نزول القرآن عليه ازداد علماً، عن الكلبي. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَسِيٍّ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (١٥) معناه: أمرناه وأوصينا إليه أن لا يقرب الشجرة ولا يأكل منها فترك الأمر، عن ابن عباس، ولم نجد له عقداً ثابتاً. وقيل: معناه فنسي من النسيان الذي هو السهو، ولم نجد له عزمًا على الذنب لأنه أخطأ ولم يعتمد، عن ابن زيد وجماعة. وقيل: ولم نجد له حفظاً لما أمر به، عن عطية. وقيل: صبراً، عن قتادة، وزوي عن ابن عباس أنه قال: إنما أخذ الإنسان من أنه عهد إليه فنسي ومن حمله على النسيان فما الذي نسيه؟ فيه أقوال:

أحدها: أنه نسي الوعيد بالخروج من الجنة إن أكل.

والثاني: أنه نسي قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِرِزْقِكَ﴾.

والثالث: أنه نسي الاستدلال على أن النهي عن الجنس، وقد نهى عن الجنس فنسي،

وظن أن النهي عن العين.

● **النظم:** وجه اتصال قوله ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بما قبله أنه يتصل بقوله ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾، وقيل: إنه يتصل بما قبله من قصة موسى أي: كما أنزلنا التوراة على موسى أنزلنا عليك القرآن. ووجه اتصال قوله ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ الآية بما قبله، أنه لما ذكر تصريف الآيات والقرآن، وأن بها يتذكر، أمره سبحانه بالتذكر، وأن لا يكون مثل آدم في نسيان العهد. وقيل: إنه اتصل بقوله ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ أي: لا تعجل خوف النسيان للفظه ولكن توكل على الله وسله التوفيق لحفظه، فإن أباك آدم نسي ما عهد إليه. وقيل: إنه عطف على قوله ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ من أنباء ما قد سبق، فقُصِّ عليه قصة آدم عليه السلام، عن أبي مسلم.



قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۖ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۖ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ۖ (١١٩) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبَلَىٰ ۖ (١٢٠) فَآكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۖ (١٢١) ثُمَّ اجْبَنَاهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۖ (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۖ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ۖ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۖ (١٢٥)﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع وأبو بكر: «وانك لا تظمؤ» بالكسر، والباقون: «أنك» بالفتح، وفي الشواذ قراءة أبان بن تغلب: «ونحشره» بالجرم.

● **الحجة:** من قرأ بالفتح فتقديره: إن لك أن لا تجوع فيها، وإن لك أنك لا تظمأ. ولا يجوز أن تقول: إن ﴿أَنَّكَ﴾ منطلق لكراهة اجتماع حرفين متقاربي المعنى، فإذا فصل بينهما جاز. ومن كسر فقال: «فإنك لا تظمأ» قطع الكلام الأول واستأنف. ومن قرأ: «نحشره» فإنه عطفه على موضع قوله «فإن له معيشة ضنكاً» وموضعه جزم لكونه جواب الشرط.

● **اللغة:** ضحى الرجل يضحى ضحى: إذا برز للشمس، قال عمر بن أبي ربيعة:

رَأَتْ رَجُلًا أَيَّمَا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَضْحَى وَأَيَّمَا بِالْعِشِيِّ فَيَخْصُرُ^(١)

يعني: أما، والضحك، الضيق الصعب، يقال: منزل ضنك وعيش ضنك، لا يشنى ولا يجمع ولا يؤنث، لأن أصله المصدر قال: «وإذا هم نزلوا بطنك فانزل».

● **المعنى:** ثم بين سبحانه تفصيل ما أجمله من قصة آدم عليه السلام فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قد مر تفسيره ﴿إِنِّي﴾ أي: امتنع من أن يسجد ﴿فَقُلْنَا يَتَّعَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْحِكَ﴾ حواء ﴿فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ أي: لا تطيعاه. والمعنى: لا يكون سبباً لخروجكما من الجنة بغروره ووساوسه ﴿فَتَشَقَّى﴾ أي: فتقع في تعب العمل، وكذا الاكتساب والنفقة على زوجتك ونفسك، ولذلك قال ﴿فَتَشَقَّى﴾ ولم يقل فتشقى، وقيل: لأن أمرهما في السبب واحد فاستوي حكمهما لاستوائهما في السبب والعلة. وقيل: لتستقيم رؤوس الآي: قال سعيد بن جبیر: أنزل على آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه، ويرشح العرق عن جبينه، وذلك هو الشقاوة ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ أي: في الجنة لسعة طعام الجنة وثيابها ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ أي: لا تعطش ولا يصيبك حر الشمس. عن ابن عباس وسعيد بن جبیر وقتادة قالوا: ليس في الجنة شمس وإنما فيها ضياء ونور وظل ممدود.

وَيُسَالُ هُنَا فَيَقَالُ: كيف جمع بين الجوع والعري، وبين الظمأ والضحى، والجوع من جنس الظمأ، والعري من جنس الضحى؟ وأجيب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: أن الظمأ أكثر ما يكون من شدة الحر، والحر إنما يكون من الضحى وهو الانكشاف للشمس، فجمع بينهما لاجتماعهما في المعنى، وكذلك الجوع والعري متشابهان من حيث إن الجوع عري في الباطن من الغذاء، والعري للجسم في الظاهر.

والثاني: أن العرب تلف الكلامين بعضهما ببعض اتكالا على علم المخاطب، وأنه يرد كل واحد منهما إلى ما يشاكله، كما قال امرؤ القيس:

كَأَنِّي لَمْ أُرْكَبْ جَوَاداً لِلذَّيْ
وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالٍ
وَلَمْ أَسْبَأِ الرُّزْقَ الرُّزْيَ وَلَمْ أَقْلُ
لِيَخِيلِي: كِرَةً بَعْدَ إِجْفَالٍ^(١)
وكان حقه أن يقول كما قال عبد يغوث:

كَأَنِّي لَمْ أُرْكَبْ جَوَاداً وَلَمْ أَقْلُ
لِيَخِيلِي كِرِي نَفْسِي عَنْ رَجَالِيَا
وَلَمْ أَسْبَأِ الرُّزْقَ الرُّوْيَ وَلَمْ أَقْلُ
لَأَيَسِّرَ صَدَقٍ: أَظْهَرُوا ضَوْءَ نَارِينَا

وقد يؤول قول امرئ القيس على الجواب الأول. ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ قد تقدم بيانه ﴿قَالَ يَتَّعَدُمُ هَلْ أَتَىكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أي: على شجرة من أكل منها لم يمت ﴿وَمَلِكٌ لَا يَبُلَى﴾ جديده ولا يفنى. وهذا كقوله: ﴿مَا نَهَكْنَا رَيْكًا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ الآية. ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهَا سَوَاءُ تَهُمَا وَطَفِيفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ هذا مفسر في سورة الأعراف. ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ معناه: خالف آدم ما أمره ربه به فخاب من ثوابه، والمعصية: مخالفة الأمر سواء كان الأمر واجباً أو ندباً. قال الشاعر: «أمرت أن أجازماً فعصيتني». ولا يمتنع أن يسمى تارك النفل

عاصياً، كما يسمى بذلك تارك الواجب. يقولون: فلان أمرته بكذا وكذا من الخير فعصاني وخالفتني، وإن لم يكن ذلك واجباً. ولا شبهة أن لفظة ﴿عَوَى﴾ يحتمل الخيبة. قال الشاعر:

فَمَنْ يَلْتَقِ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوِ لَا يَغْدُمُ عَلَى الْعَيِّ لَأَمَّا^(١)

ويجوز أن يكون معناه: فخاب مما كان يطمع فيه بأكل الشجرة من الخلود ﴿ثُمَّ اجْبَنَهُ رَبُّهُ﴾ أي: اصطفاه الله تعالى واختاره للرسالة ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ أي: قبل توبته وهداه إلى ذكره، وقيل: هداه، للكلمات التي تلقاها منه ﴿قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعاً﴾ يعني آدم وحواء ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ قد فسرنا جميعها في سورة البقرة ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ أي: فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. قال ابن عباس: ضمن الله سبحانه لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: ومن أعرض عن القرآن وعن الدلائل التي أنزلها الله تعالى لعباده وصدف عنها ولم ينظر فيها ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ أي: عيشاً ضيقاً، عن مجاهد وقتادة والجبائي، وهو أن يقتر الله عليه الرزق عقوبة له على إعراضه، فإن وسع عليه فإنه يضيق عليه المعيشة بأن يمسكه ولا ينفقه على نفسه، وإن أنفقه فإن الحرص على الجمع وزيادة الطلب، يضيق المعيشة عليه وقيل: هو عذاب القبر، عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري والسدي ورواه أبو هريرة مرفوعاً. وقيل: هو طعام الضريع والزقوم في جهنم لأن ماله إليها وإن كان في سعة من الدنيا، عن الحسن وابن زيد. وقيل: معناه أن يكون عيشه منغصاً بأن ينفق إنفاقاً من لا يوقن بالخلف، عن ابن عباس. وقيل: هو الحرام في الدنيا الذي يؤدي إلى النار، عن عكرمة والضحاك، وقيل: عيشاً ضيقاً في الدنيا لقصرها وسائر ما يشوبها ويكدرها، وإنما العيش الرغد في الجنة، عن أبي مسلم. ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ أي: أعمى البصر، عن ابن عباس، وقيل: أعمى عن الحجة، عن مجاهد، يعني أنه لا حجة له يهتدي إليها. والأول هو الوجه لأنه الظاهر ولا مانع منه، ويدل عليه قوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾ قال الفراء: يقال إنه يخرج من قبره بصيراً فيعمى في حشره. وقد روى معاوية بن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل لم يحج وله مال؟ قال: هو ممن قال الله فيه ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾، فقلت: سبحانه الله أعمى؟ قال: أعماه الله عن طريق الحق. فهذا يطابق قول من قال: إن المعنى في الآية أعمى عن جهات الخير لا يهتدي لشيء منها.



قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنسِي﴾ ﴿٢٦٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿٢٦٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا

(١) قائله: قعنب المزاري. ونسبه بعض إلى المرقش. يريد: إن من ظفر بمطلوبه، حمده الناس. ومن لم يظفر، عابوه مع أنه لم يكن مقصراً.

قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينَهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٧٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٧٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٨٠﴾

● **القراءة:** قراءة الكسائي وأبو بكر. «ترضى» بضم التاء، والباقون بفتحها.

● **الحجة:** حجة من فتح التاء قوله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾. وحجة من ضم التاء أنه جاء في صفة بعض الأنبياء: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾، وكان معنى ترضى: ترضى لفعلك ما أمرت به من الأفعال التي يرضاها الله، أو ترضى بما تعطاه من الدرجة الرفيعة، وترضى بما يعطيكه الله من الدرجة العالية والرتبة المرضية.

● **اللغة:** آناء الليل: ساعاته، واحداها انى. قال السعيدى:

خُلُوْ وَمرَّرْ كَعَطْفِ الْقِدْحِ مِرَّتُهُ بِكُلِّ انى حذاء الليل ينتعل^(١)

● **الإعراب:** ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ فاعل يهد مضمَر يفسره ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ والمعنى أفلم يهد لهم إهلاكنا من قبلهم من القرون، وموضع ﴿كَمْ﴾ نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾.

● **المعنى:** ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِيْنَهَا﴾ هذا من جواب الله سبحانه لمن يقول: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِيْ أَعْمَى﴾، ومعناه: كما حشرناك أعمى، جاءك محمد ﷺ والقرآن والدلائل فأعرضت عنها وتعرضت لنسيانها، فإن النسيان ليس من فعل الإنسان فيتوعد عليه، ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِئُ أِي: تصوير بمنزلة من ترك كالمنسي بعذاب لا يفنى. وقيل: معناه كما حشرتك أعمى لتكون فضيحة، كنت أعمى القلب، فتركت آياتي ولم تنظر فيها، وكما تركت أوامرنا فجعلتها كالشيء المنسي، تترك اليوم في العذاب كالشيء المنسي، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي: وكما ذكرنا نجزي من أشرك، وجاوز الحد في العصيان، ولم يؤمن بآيات ربه أي: لم يصدق بحجج ربه وكتبه ورسله. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ﴾ من عذاب الدنيا وعذاب القبر ﴿وَأَبْقَى﴾ أي: أدام لأنه لا يزول، وعذاب الدنيا وعذاب القبر يزول. ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ يعني كفار مكة، والمعنى: أفلم يبين لهم طريق الاعتبار كثرة إهلاكنا القرون قبلهم بتكذيبهم رسلنا فيعتبروا ويؤمنوا وقوله: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْكِينَهُمْ﴾ يريد أهل مكة كانوا يتجرون إلى الشام فيمرون بمساكن عاد وثمود، ويرون علامات الإهلاك. وفي هذا تنبيه لهم وتخويف أي: أفلا يخافون أن يقع بهم مثل ما وقع بأولئك. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في إهلاكنا إياهم ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: لعمراً ودلالات ﴿لِّأُولِي النُّهَى﴾ أي: لذوي العقول الذين يتدبرون في أحوالهم. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عن هؤلاء الكفار إلى يوم القيامة وهو قوله: ﴿لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: لكان العذاب لازماً لهم واقعاً في الحال. واللزام مصدر وصف

(١) نسيه في (اللسان)، و(السيرة) إلى المتنخل الهذلي. والقدح: السهم. والمرة: القوة والشدة. وانتعل الرجل: ركب صلاب الأرض وحارها. وهذا البيت من قصيدة قالها في رثاء ابنه أثيلة.

به. قال قتادة: الأجل المسمى قيام الساعة، وقال غيره: هو الأجل الذي كتبه الله للإنسان أن يبقية إليه، وقيل: إن عذاب الزام كان يوم بدر، قتل الله فيه رؤوس الكفار، ولولا ما قدر الله تعالى من آجال الباقين، ووعدهم من عذاب الآخرة، لكان ذلك القتل الذي نالهم يوم بدر، لازماً لهم أبداً في سائر الأزمان.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بالصبر على أذاهم بأن قال: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من تكذيبك وأذاهم إياك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صل لربك بالحمد له والثناء عليه، وقيل: معناه سبحه واحمده في هذه الأوقات ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاة العصر ﴿وَمِنْ مَّا تَأْتِي آلِيلُ﴾ أي: ساعاته، قال ابن عباس: هي صلاة الليل كله. وقيل: يريد أول الليل المغرب والعشاء الآخرة ﴿فَسَبِّحْ وَاطَّرَافَ النَّهَارِ﴾ يعني الظهر. وسمي وقت صلاة الظهر أطراف النهار لأن وقته عند الزوال، وهو طرف النصف الأول وطرف النصف الثاني، وهذا قول قتادة والجبائي. ومن حمل التسبيح على الظاهر قال: أراد بذلك المداومة على التسبيح والتحميد في عموم الأوقات ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ بالشفاعة والدرجة الرفيعة. وقيل: بجميع ما وعدك الله به من النصر، وإعزاز الدين في الدنيا، والشفاعة والجنة في الآخرة.



قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَآبَقَىٰ ۖ﴾ (١٣١) وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسئلك رزقاً نحن نرزقك والعقبة للفقوى (١٣٢) وقالوا لولا يأتينا بشيء من ربه ألوهم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى (١٣٣) ولو أننا أهلكناهم بعداب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذلل ونخزى (١٣٤) قل كل مترص فترصوا فستعلمون من أصحب الصرط السوي ومن أهتدى (١٣٥).

● **القراءة:** قرأ يعقوب وسهل: «زهرة» بفتح الهاء، والباقون بسكونها. وقرأ أهل المدينة والبصرة وقتيبة وحفص: «أو لم تأتهم» بالياء، والباقون بالياء.

اللغة: زهرة الحياة الدنيا: حسنها. ويجوز فتح العين فيها. والزهرة: النور الذي يروق عند الرؤية، ومنه يقال لكل شيء مستنير زاهر. ومنه الحديث في صفة النبي ﷺ، كان أزهو اللون أي: نير اللون، والزهراوان: البقرة وآل عمران. ويوم الجمعة: يوم أزهو.

● **الإعراب:** قال الزجاج ﴿زَهْرَةَ﴾ منصوب بمعنى متعنا، لأن معناه جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة لنفتنهم فيه، أي: لنجعل ذلك فتنة لهم، ويجوز أن يكون حالاً من الهاء في ﴿به﴾، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾، ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ تقديره: ولو ثبت إهلاكهم. لأن ﴿لَوْ﴾ يقتضي الفعل فيكون ﴿أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ في موضع رفع بأنه فاعل الفعل

سورة طه

المقدر، ﴿مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ تعلق بقوله: ﴿فَسَعَلَمُونَ﴾ وهو مبتدأ وخبر، وكذلك ﴿وَمِنْ أَهْتَدَى﴾.

النزول: قال أبو رافع: نزل برسول الله ﷺ ضيف فبعثني إلى يهودي فقال: قل إن رسول الله يقول: بعني كذا وكذا من الدقيق، أو أسلفني إلى هلال رجب. فأتيته فقلت له. فقال: والله لا أبيععه ولا أسلفه إلا برهن. فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: والله لو باعني أو أسلفني لقضيته وإني لأمين في السماء وأمين في الأرض، اذهب بدرعي الحديد إليه. فنزلت هذه الآية تسلياً له عن الدنيا.

● **المعنى:** ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ وقد فسرناه في سورة الحجر، وقال أبي بن كعب في هذه الآية: من لم يتعز بعزاء الله، تقطعت نفسه حشرات على الدنيا، ومن يتبع بصره ما في أيدي الناس، يطل حزنه، ولا يشفى غيظه. ومن لم ير الله نعمة إلا في مطعمه ومشربه، نقص علمه ودنا عذابه. وروى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: لما نزلت هذه الآية استوى رسول الله ﷺ جالساً ثم قال الكلمات التي تقدمت. ﴿زَهْرَةَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بهجتها ونضارتها وما يروق الناظر عند الرؤية، وقال ابن عباس وقتادة: زينة الحياة الدنيا. ﴿لَفَتْنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنعاملهم معاملة المختبر بشدة التعبد في العمل بالحق في هذه الأمور وأداء الحقوق عنه، وقيل: لفتنهم أي: لشدد عليهم التعبد بأن نكلفهم متابعتك والطاعة لك مع كثرة أموالهم وقلة مالك، وقيل: معناه لنعذبهم به لأن الله قد يوسع الرزق على بعض أهل الدنيا تعذيباً له، ولذلك قال عليه السلام: لو كانت الدنيا ترن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء. ﴿وَرَزُقُ رَبِّكَ حَيْرٌ﴾ أي: ورزق ربك الذي وعدك به في الآخرة خير مما متعنا به هؤلاء في الدنيا ﴿وَأَبْقَى﴾ أي: أدام. ﴿وَأَمَرَ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ معناه: وأمر يا محمد أهل بيتك وأهل دينك بالصلاة.

روى أبو سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه الآية، كان رسول الله ﷺ يأتي باب فاطمة وعلي تسعة أشهر، عند كل صلاة فيقول: الصلاة رحمكم الله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً. ورواه ابن عقدة بإسناده من طرق كثيرة، عن أهل البيت عليه السلام وعن غيرهم مثل أبي برزة وأبي رافع. وقال أبو جعفر عليه السلام: أمره الله تعالى أن يخص أهله دون الناس ليعلم الناس أن لأهله عند الله منزلة ليست للناس، فأمرهم مع الناس عامة ثم أمرهم خاصة. ﴿وَأَصْطَرِ عَلَيْهِ﴾ أي: واصبر على فعلها، وعلى أمرهم بها ﴿لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا﴾ لخلقنا ولا لنفسك، بل كلفناك العبادة، وأداء الرسالة، وضمننا رزق الجميع. ﴿وَنَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد به جميع الخلق أي: نرزقهم جميعهم ولا نسترزقهم، وننتفع بهم ولا تنتفع بهم، فيكون أبلغ في الامتنان عليهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: العاقبة المحمودة لأهل التقوى، قال ابن عباس: يريد الذين صدقوك واتبعوك واتفقوني. وفي الأثر: أن عروة الزبير كان إذا رأى ما عند السلطان، دخل بيته، وقرأ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآيات، ثم ينادي بالصلاة، الصلاة، رحمكم الله. ﴿وَقَالُوا﴾ يعني الكفار ﴿لَوْلَا يَا أَيُّهَا مُحَمَّدٌ ﷺ﴾ ﴿يَتَأَيَّرُ مِنْ رَبِّهِ﴾

اقترحناها عليه كما أتى به الأنبياء، نحو الناقة ﴿أَوَلَمْ نَأْتِهِمْ بَيْنَهُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي: أو لم يأتهم في القرآن بيان ما في الكتب الأولى من أنباء الأمم التي أهلكناها، لما اقترحوا الآيات ثم كفروا بها، فماذا يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤال الآية كحال أولئك. ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ يعني كفار قريش ﴿بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل بعث محمد ﷺ ونزول القرآن ﴿لَقَالُوا﴾ يوم القيامة ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا﴾ أي: هلا أرسلت ﴿رَسُولًا﴾ يدعونا إلى طاعتك ويرشدنا إلى دينك ﴿فَتَنبَحِءَ آبَائِنَا﴾ أي: نعمل بما فيها ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّزِلَ﴾ بالعذاب ﴿وَنُخْزَى﴾ في جهنم، وقيل: من قبل أن نذل في الدنيا بالقتل والأسر ونخزي في الآخرة بالعذاب. فقطعنا عذرهم بإرسال الرسول فلم يبق لهم متعلق. ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿كُلُّ مُتَرَبِّصٍ﴾ أي: كل واحد منا ومنكم منتظر، فنحن ننتظر وعد الله لنا فيكم، وأنتم تتربصون بنا الدوائر ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أنتم أي: انتظروا، وهذا على وجه التهديد ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ أي: فسوف تعلمون فيما بعد ﴿مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي: أهل الدين المستقيم ﴿وَمَنْ أَهْتَدَى﴾ إلى طريق الحق، أي: أنحن أم أنتم، وفي قوله سبحانه ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ الآية، دلالة على وجوب اللطف لأنه سبحانه بين أنه إنما بعث الرسول إليهم لطفاً بهم، وأنه لو لم يبعثه لكان لهم الحجة عليه فكان في البعثة قطع العذر، وإزاحة العلة، وبالله التوفيق.

jabir.abbas@yahoo.com

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

مكية/آياتها (١١٢)

مكية كلها وهي مائة واثنى عشرة آية كوفي، وإحدى عشرة آية في الباقيين.

● **اختلافها:** آية واحدة ﴿مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ كوفي.

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الأنبياء حاسبه الله حساباً يسيراً، وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن». وقال أبو عبد الله عليه السلام: «من قرأ سورة الأنبياء حُباً لها، كان ممن رافق النبيين أجمعين في جنات النعيم، وكان مهيباً في أعين الناس حياة الدنيا».

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه سورة طه بذكر الوعيد، وافتتح هذه السورة بذكر القيامة،

فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ① مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ③ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ④ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَقْتَرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِزْنَا بِشَايِعٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ⑤.

● **القراءة:** قرأ حمزة والكسائي وحفص: «قال ربي» بالالف، والباقيون: «فقل ربي».

● **الحجة:** من قرأ «قال» فإنه على إضافة القول إلى الرسول والخبر عنه. ومن قرأ

«قل» فإنه على الخطاب.

● **الإعراب:** ﴿مِنْ ذِكْرِ﴾ في موضع رفع ومن مزيدة. ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ صفة لذكر،

فيجوز أن يكون في موضع جر على لفظه، ويجوز أن يكون في موضع رفع على محل الجار والمجرور. ﴿أَسْتَمِعُوهُ﴾ في محل نصب على الحال بإضمار قد، وتقديره: ما يأتيهم ذكر رباني إلا مستمعاً. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حال من الواو في ﴿أَسْتَمِعُوهُ﴾. ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ حال من الواو في ﴿يَلْعَبُونَ﴾، وإن شئت كان حالاً بعد حال، وقوله ﴿وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ موضع ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يجوز أن يكون رفعاً على وجوه:

أحدها: أن يكون على البدل من الواو في أسروا. والثاني: أن يكون مرفوعاً على الذم

فيكون خبر مبتدأ محذوف أي: هم الذين ظلموا. والثالث: أن يكون فاعل ﴿أَسْرَأُوا﴾ على لغة

من يقول: أكلوني البراغيث، وتكون الواو في ﴿أَسْرُوا﴾ حرفاً لعلامة الجمع كالتاء في قالت، ولا يكون اسماً. ويجوز أن يكون في موضع نصب على الذم بإضمار أعني.

● **المعنى:** ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ اقرب: افتعل من القرب، والمعنى: اقرب للناس وقت حسابهم، يعني القيامة، كما قال ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ﴾ أي: دنا وقت محاسبة الله إياهم ومسألتهم عن نعمه، هل قابلوها بالشكر، وعن أوامره هل امتثلوها، وعن نواهيها هل اجتنبوها. وإنما وصف ذلك بالقرب لأنه آت وكل ما هو آت قريب، ولأن أحد أشرط الساعة مبعث رسول الله ﷺ، فقد قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وأيضاً فإن الزمان يقرب بكثرة ما مضى وقلة ما بقي، فيكون يسيراً بالإضافة إلى ما مضى. ﴿وَمَنْ فِي غَفْلَةٍ﴾ من دنوها وكونها ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن التفكير فيها والتأهب لها، وقيل: عن الإيمان بها. وتضمنت الآية الحث على الاستعداد ليوم القيامة. ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني القرآن ﴿تُحَدِّثُ﴾ أي: محدث التنزيل مبتدأ التلاوة، كنزول سورة بعد سورة، وآية بعد آية. ﴿إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ لا هيئة قلوبهم ﴿أي: لم يستمعوه استماع نظر وتدبر وقبول وتفكير، وإنما استمعوه استماع لعب واستهزاء. وقال ابن عباس: معناه يستمعون القرآن مستهزئين غافلة قلوبهم عما يراد بهم. ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ أي: تناجوا فيما بينهم يعني المشركين. ثم بين من هم فقال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا بالله. ثم بين سبحانه سرهم الذي تناجوا به فقال: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: أنه آدمي مثلكم ليس مثل الملائكة. ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر. نفروا الناس عنه بشيئين:

أحدهما: أنه بشر.

والآخر: أن ما أتى به سحر. وقيل: إن أسروا معناه: أظهروا هذا القول، فإن هذا اللفظ مشترك بين الإخفاء والإظهار، والأول أصح. ثم أمر سبحانه نبيه فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿رَبِّي﴾ الذي خلقتني واصطفاني ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلم أسرار المتناجين لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم وضمائرهم. ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾ بل للإضراب عما حكى سبحانه أنهم قالوه أولاً، وللإخبار عما قالوه ثانياً، أي قالوا: إن القرآن تخاليط أحلام رآها في المنام، عن قتادة. ﴿بَلْ أَفْتَرْتَهُ﴾ أي: ثم قالوا لا بل افتراه أي: تخرصه وافتعله ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي: ثم قالوا بل هو شاعر، وهذا قول المتحير الذي بهره ما سمع، فمرة يقول سحر، ومرة يقول شعر، ومرة يقول حلم، ولا يجزم على أمر واحد. وهذه مناقضة ظاهرة. ﴿فَلْيَأْنِ إِسْيَانُهُ كَمَا أَزْسِلَ الْأُولُونَ﴾ معناه: فليأتنا بآية ظاهرة يستدركها الخاص والعام، كما أتى بها الأولون من الأنبياء. قال ابن عباس: بآية مثل الناقة والعصا. وقال الزجاج: اقترحوا الآيات التي لا يكون معها إمهال. وفي قوله سبحانه ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ﴾ دلالة ظاهرة على أن القرآن محدث، لأنه تعالى أراد بالذكر القرآن بدلالة قوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقد وصفه بأنه محدث، ويوضحه قوله ﴿إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ﴾.

سورة الأنبياء

قوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (١) **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ (٩) لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٠).**

● **القراءة:** قرأ «نوحى» بالنون حفص عن عاصم، والباقون: «يوحى» وقد تقدم ذكره في سورة يوسف (عليه السلام).

● **الإعراب:** ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾: في موضع الجر لأنه صفة ﴿قَرِيْبَةٍ﴾. ﴿جَسَدًا﴾: واحداً بمعنى الجمع أي: وما جعلناهم أجساداً، بمعنى ذوي أجساد، ولذلك قال ﴿لَا يَأْكُلُونَ﴾، وتقديره غير أكليين الطعام. ﴿وَمَنْ نَّشَاءُ﴾: في موضع نصب عطفاً على هم من قوله ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ﴾.

● **المعنى:** لما تقدمت الحكاية عن الكفار بأنهم اقترحوا الآيات، قال سبحانه مجيباً لهم: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: لم يؤمن قبل هؤلاء الكفار من أهل قرية جاءتهم الآيات التي طلبوها، فأهلكناهم مصرين على الكفر ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ عند مجيئها. هذا إخبار عن حالهم، وأن سبيلهم سبيل من تقدم من الأمم، طلبوا الآيات فلم يؤمنوا وأهلكوا، فهؤلاء أيضاً لو أتاهم ما اقترحوه، لم يؤمنوا، ولاستحقوا عذاب الاستئصال. وقد حكم الله سبحانه في هذه الآية أن لا يعذبهم عذاب الاستئصال، فلذلك لم يجبههم في ذلك. وقيل: ما حكم الله سبحانه بهلاك قرية، إلا وفي المعلوم أنهم لا يؤمنون، فلذلك لم يأت هؤلاء بالآيات المقترحة. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، والمعنى: لم نرسل قبلك يا محمد إلا رجالاً من بني آدم ﴿نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ لا ملائكة، لأن الشكل إلى الشكل أميل، وبه أنس، وعنه أفهم، ومن الأنفة منه أبعد ﴿فَتَتْلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ اختلف في المعنى بأهل الذكر على أقوال فروي عن علي (عليه السلام) أنه قال: نحن أهل الذكر، ورؤي ذلك عن أبي جعفر (عليه السلام). ويعضده أن الله تعالى سمى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ذكراً رسولاً في قوله ﴿ذِكْرًا * رَسُولًا﴾، وقيل: أهل الذكر أهل التوراة والإنجيل، عن الحسن وقتادة، وقيل: هم أهل العلم بأخبار من مضى من الأمم، وقيل: هم أهل القرآن والذكر: هو القرآن، وهم العلماء بالقرآن، عن ابن زيد. ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أي: باقين لا يموتون، هذا رد لقولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا رَسُولٌ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾، ومعناه: وما جعلنا الأنبياء قبلك أجساداً لا يأكلون الطعام ولا يموتون، حتى يكون أكلك الطعام وشربك وموتك علة في ترك الإيمان بك، فإننا لم نخرجهم عن حد البشرية بالوحي. قال الكلبي: الجسد المجسد الذي فيه الروح ويأكل ويشرب، فعلى هذا يكون ما يأكل ويشرب جسماً. وقال مجاهد: الجسد ما لا يأكل ولا يشرب فعلى هذا يكون ما يأكل ويشرب نفساً. ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أي: صدقناهم الوعد بأن العاقبة الحميدة تكون لهم، ومعناه: أنجزنا ما وعدناهم به من النصر والنجاة والظهور على الأعداء، وما وعدناهم به من الثواب

﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ أي: فأنجيناهم من أعدائهم، وأنجيناهم معهم من نشاء من المؤمنين بهم ﴿وَأَمَلَكْنَا الْآسْرِينَ﴾ على أنفسهم بتكذيبهم الأنبياء، قال قتادة: المسرفين هم المشركون، وهذا تخويف لكفار مكة. ثم ذكر نعمته عليهم بإنزال القرآن فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: فيه شرفكم إن تمسكتم به، كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَذَكَّرْتُمْ لَكُمْ وَلِقَوْمِكُمْ﴾. وقيل: هو خطاب للعرب لأنه أنزل القرآن بلغتهم. وقيل: هو خطاب لجميع المؤمنين لأن فيه شرفاً للمؤمنين كلهم، وقيل: إن معناه فيه ذكر ما تحتاجون إليه من أمر دينكم ودنياكم، عن الحسن، وقيل: فيه ذكر مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال لتتمسكوا بها. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما فضلتم على غيركم، وقيل: معناه أفلا تتدبرون فتعلمون أن الأمر على ما قلناه.



قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١١) ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ (١٢) ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُونَ﴾ (١٣) ﴿قَالُوا يَبُولْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (١٤) ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ (١٥) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ (١٦) ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١٧) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ (١٨) ﴿وَلَهُمْ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَا يَسْتَغِيثُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٢٠).

● اللغة: القصم: الكسر، يقال: قصمه يقصمه وهو قاصم الجبابة. والإنشاء: الإيجاد ونظيره الاختراع والإبداع، والركض: العدو بشدة والوطء. وركض دابته: ضربها برجله حتى تعدو، وارتكاض الصبي: اضطرابه في الرحم. والترفة: النعمة. والمترفه: المتنعم. والزاهق: من الأضداد، يقال للهلك: زاهق، وللسمين من الدواب: زاهق، وزهقت نفسه تزهق زهوقاً أي: تلفت. والدماغ: شج الرأس حتى يبلغ الدماغ، يقال: دماغه بدمغة: إذا أصاب دماغه، ومنه في صفة النبي ﷺ: الدماغ جيشات الأباطيل، والاستحسار: الانقطاع عن الإعياء، يقال: بعير حسير أي: معي، وأصله من قولهم: حسر عن ذراعيه. فالمعنى: أنه كشف قوته بإعياء، وجمعه حسرى. قال علقمة بن عبدة:

بها جيفُ الحسرى فأما عظامُها فَبَيْضٌ وَأَنَا جِلْدُهَا فَصَلِيبٌ

● الإعراب: ﴿وَكَمْ﴾ في موضع نصب بأنه مفعول ﴿قَصَمْنَا﴾. و﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ في موضع نصب على التمييز، ويجوز أن يكون صفة لكم، والتقدير: كثيراً من القرى قصمنا. ﴿إِذَا﴾ ظرف مكان العامل فيه ﴿يَرْكُضُونَ﴾، و﴿تِلْكَ﴾ في موضع رفع اسم ﴿زَالَتْ﴾، و﴿دَعْوُهُمْ﴾ في موضع

سورة الأنبياء

نصب خبر ﴿زَالَتْ﴾، وجائز أن يكون ﴿دَعَوْنَهُمْ﴾ اسماً و﴿تِلْكَ﴾ خبراً. ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: ما كنا فاعلين، ويجوز أن تكون إن للشرط أي: إن كنا ممن يفعل ذلك ولنا ممن يفعله، اتخذناه من لدنا. و﴿مَنْ عِنْدَهُ﴾ مبتدأ. و﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ خبره، ويجوز أن يكون ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ معطوفاً على ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾، فيكون ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في موضع الحال، فالمعنى غير مستكبرين، وكذا ﴿لَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ و﴿يَسِيحُونَ﴾ و﴿لَا يَقْرَءُونَ﴾ كلها أحوال على هذا.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه ما فعله بالمكذابين فقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكنا ﴿وَنَ قَرِيْبَ﴾، عن مجاهد والسدي، وقيل: عذبنا، عن الكلبي ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: كافرة يعني أهلها ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أي: أوجدنا ﴿بَعْدَهَا﴾ أي: بعد إهلاك أهلها ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا﴾ أي: فلما أدركوا بحواسهم ﴿بِأَسْنَا﴾ أي: عذابنا ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ معناه: إذا هم من القرية أو من العقوبة يهربون سراعاً، هرب المنهزم من عدوه ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ أي: يقال لهم تقريباً وتوبيخاً: لا تهربوا ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِيكُمْ﴾ أي: وارجعوا إلى ما نعمتم فيه وإلى مساكنكم التي كفرتم وظلمتم فيها، وقيل: إنهم لما أخذتهم السيوف انهزموا مسرعين، فقالت لهم الملائكة بحيث سمعوا النداء: لا تركضوا وارجعوا إلى ما خولتم ونعمتم فيه، وارجعوا إلى مساكنكم. وقال ابن قتيبة: معناه إلى نعمكم التي أترفتكم ومساكنكم لعلكم تسألون شيئاً من دنيائكم والمعنى أن الملائكة استهزأت بهم، فقالت لهم: أرجعوا إلى نعمكم ومساكنكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ شيئاً من دنيائكم فإنكم أهل ثروة ونعمة. يقولون ذلك استهزاء بهم، هذا قول قتادة، وقيل: لعلكم تسألون أي: يسألكم رسولكم أن تؤمنوا كما سئل قبل نزول العذاب بكم، وهذا استهزاء بهم أيضاً أي: لا سبيل إلى هذا فتدبروا الأمر قبل حلوله. وقيل: لكي تسألوا عن أعمالكم وعن تنعمكم في الدنيا بغير الحق، وعما استحققتكم به العذاب، عن الجبائي وأبي مسلم. ﴿قَالُوا﴾ على سبيل التندم لما رأوا العذاب: ﴿يَوَلَّيْنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا حيث كذبنا رسل ربنا. والمعنى أنهم اعترفوا بالذنب حين عاينوا العذاب. والويل: الوقوع في الهلكة ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ﴾ أي: لم يزلوا يقولون يا ويلنا، وتلك دعواهم ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ أي: محصوراً مقطوعاً ﴿خَالِدِينَ﴾ ساكني الحركات ميتين، كما تخدم النار إذا انطفأت. والمعنى: استأصلناهم بالعذاب وأهلكناهم، عن الحسن، وقيل: بالسيف، وهو قتل «بخت نصر» لهم، عن مجاهد، وقيل: نزلت في قرية باليمن قتلوا نبياً لهم يقال له حنظلة فسلط الله عليهم «بخت نصر» حتى قتلهم وسباهم ونكل فيهم، حتى خرجوا من ديارهم منهزمين فبعث الله ملائكة حتى ردهم إلى مساكنهم، فقتل صغارهم وكبارهم حتى لم يبق لهم اسم ولا رسم. ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ﴾ ﴿بَلْ خَلَقْنَاهُمَا لَغُرُضٍ صَحِيحٍ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ دَلَالَةً وَنِعْمَةً وَتَعْوِضًا لِلثَّوَابِ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ اللهو المرأة، عن الحسن ومجاهد. وقيل: هو الولد، عن ابن عباس، وقيل: معناه اللهو الذي هو داعي الهوى ونازع الشهوة. والمعنى: لو اتخذنا نساء أو ولداً لاتخذناه من أهل السماء ولم نتخذه من أهل الأرض. يريد لو كان ذلك جائزاً عليه لم يتخذه بحيث يظهر لهم، ويسر ذلك حتى لا يطلعوا عليه. وقد أحسن ابن قتيبة في شرح اللهو هنا فقال: التفسيران في اللهو متقاربان لأن امرأة الرجل لهوه، وولده لهوه، ولذلك يقال:

امراً الرجل وولده ريحانته، وأصل اللهو الجماع، كنى عنه باللهو كما كنى عنه بالسر، ثم قيل للمرأة لهو لأنها تنجام. قال امرؤ القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي

وتأويل الآية: أن النصارى لما قالت في المسيح وأمه ما قالت، قال الله عز وجل: لو أردنا أن نتخذ صاحبة وولداً كما تقولون، لاتخذنا ذلك من عندنا، ولم نتخذ من عندكم، لأنكم تعملون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره ﴿إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ أي: ما كنا فاعلين، عن قتادة ومجاهد وابن جريج. وقيل: معناه إن كنا فاعلين ذلك لاتخذناه من عندنا بحيث لا يصل علمه إليكم، عن الجبائي ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ معناه: بل نورد الأدلة القاهرة على الباطل، وقيل: نرمي بالحجة على الشبهة. وقيل: بالإيمان على الكفر. ﴿فَيَذَرُكُمْ﴾ أي: يعلوه ويبطله. وقيل: يهلكه ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: هالك مضمحل، عن قتادة، وتأويله: إن الله سبحانه يظهر الحق بأدلة ويبطل الباطل، فكيف يفعل الباطل واللعب ﴿وَلَكُمْ الْأَوَّلُ مِمَّا نَفْصُونَ﴾ أي: الهلاك لكم يا معشر الكفار مما تصفون الله تعالى به من اتخاذ صاحبة والولد ﴿وَلَمْ مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً وملكاً وخلقاً. وهذا رد أيضاً على من أثبت له الولد والشريك، أي: وكيف يجوز عليه اتخاذ الشريك والولد ﴿وَمَنْ عِنْدُ﴾ يعني الملائكة الذين لهم عند الله تعالى المنزلة، كما يقال عند الأمير كذا وكذا من الجند، وإن كانوا متفرقين في الأماكن، ولا يراد بذلك قرب المسافة. ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي: لا يأنفون ولا يترفعون عن عبادته. وأراد بذلك نفي النبوة عنهم لأن أحداً لا يستعبد ابنه ﴿وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ أي: لا يعيرون، عن قتادة والسدي، وقيل: لا يملون، عن ابن زيد، وقيل: لا ينقطعون مأخوذ من البعير الحسير المنقطع بالإعياء ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي: ينزهون الله تعالى عن جميع ما لا يليق بصفاته على الدوام ﴿أَيْلَ وَالنَّهَارِ﴾ أي: في الليل والنهار ﴿لَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: لا يضعفون عنه. قال كعب: جعل لهم التسييح كما جعل لكم النفس في السهولة.

● **النظم:** اتصل قوله ﴿وَلَمْ مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بما تقدم من ذكر هلاك الكفار، فبين سبحانه أنه لم يهلكهم إلا بالاستحقاق لأنه سبحانه تعالى خلقهم للعبادة، فلما كفروا جازاهم بكفرهم. ولولا ذلك لكان خلق السموات والأرض وما بينهما لعباً، لأن خلقهما إنما هو لأجل المكلفين، وخلق المكلف إنما هو لتعريض الثواب. ووجه اتصال قوله ﴿وَمَنْ عِنْدُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ بما قبله أن هؤلاء الذين وصفتموهم بأنهم بنات الله، هم عبيد الله على أتم وجوه العبودية، وذلك يبطل معنى الولادة لأن الولادة لا تكون إلا مع المجانسة.



قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَتَخْذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَرَأَيْتُمْ أَتَخْذُوا مِن دُونِهِ إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي

سورة الأنبياء

إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَسْفِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَنَقَّهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ .

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة، غير أبي بكر: «إلا نوحى» بالنون، والباقون: «يوحى». وقرأ ابن كثير: «ألم ير» بغير واو، وكذلك هو في مصاحف مكة. والباقون: «أو لم يروا» بالواو، وفي الشواذ قراءة الحسن وابن محيصن: «الحق» بالرفع، «فهم معرضون»، وقراءة الحسن أيضاً وعيسى الشففي: «رتقاً» بفتح التاء.

● **الحجة:** وجه النون أنه أشبه بما تقدم من قوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾. والياء في المعنى كالنون. والوجه في قراءة الحسن «الحق» بالرفع: الاستئناف، فإن الوقف في هذه القراءة على قوله ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، والتقدير هذا الحق أو هو الحق، فيحذف المبتدأ ويوقف على الحق. ثم يستأنف فيقال: ﴿فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ لأن أكثرهم لا يعلمون. والوجه في قوله: «رتقاً» بفتح التاء أنه قد كثر مجيء المصدر على فعل، واسم المفعول منه على فعل مفتوح العين، وذلك كالتنقُص والتنقُص والطرد والطرد فالرتق على هذا يكون للشيء المرتوق، كما أن التنقُص للمفوض والهدم للمهدوم. فقراءة الجماعة «رتقاً» بسكون التاء كأنه مما وضع من المصادر موضع اسم المفعول، كالصيد بمعنى المصيد، والخلق بمعنى المخلوق.

● **الإعراب:** ﴿أَوِ اتَّخَذُوا﴾: أم هذه هي المنقطعة، وليست المعادلة لهمزة الاستفهام في مثل قولك: أزيد عندك أم عمرو. وقوله ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ فَسَدَتْ﴾: إلا هذه صفة لآلهة وتقديره غير الله، عما يفعل ما هذه: الأجود أن تكون مصدرية، ويحتمل أن تكون اسماً.

● **المعنى:** ثم عاد سبحانه إلى توبيخ المشركين فقال: ﴿أَوِ اتَّخَذُوا آلَ اللَّهِ مِنَ الْأَرْضِ﴾ هذا استفهام معناه الجحد، أي: لم يتخذوا آلهة من الأرض ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ أي: يحيون الأموات، عن مجاهد. يقال: أنشر الله الموتى فنشروا أي: أحياهم فحيوا، وهو من النشر بعد الطي، لأن المحيا كأنه كان مطوياً بالقبض عن الإدراك فأنشر بالحياة، والمعنى في ذلك: أن هؤلاء إذا كانوا لا يقدرون على الإحياء الذي من قدر عليه قدر على أن ينعم بالنعم التي يستحق بها العبادة، فكيف يستحقون العبادة؟ قال الزجاج: ومن قرأ «ينشرون» بفتح الياء فمعناه: لا يموتون أبداً ويبقون أحياء أي: لا يكون ذلك. وأقول: قد يجوز أن يكون يَنشرون وَيُنشرون بمعنى، يقال نشر الله الميت بمعنى أنشر. ثم ذكر سبحانه الدلالة على توحيده، وأنه لا يجوز أن يكون معه إله سواه فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ فَسَدَتْ﴾ ومعناه: لو كان في السماء والأرض آلهة سوى الله لفسدتا وما استقامتا، وفسد من فيهما ولم ينتظم أمرهم، وهذا هو دليل

التمانع الذي بنى عليه المتكلمون مسألة التوحيد، وتقرير ذلك: أنه لو كان مع الله سبحانه إله آخر لكانا قديمين، والقدم من أخص الصفات، فلاشتراك فيه يوجب التماثل، فيجب أن يكونا قادرين عالمين حيين. ومن حق كل قادرين أن يصح كون أحدهما مريداً لضد ما يريده الآخر من إماتة وإحياء، أو تحريك وتسكين، أو إفقار وإغناء، ونحو ذلك. فإذا فرضنا ذلك فلا يخلو إما أن يحصل مرادهما وذلك محال، وإما أن لا يحصل مرادهما فينتقض كونهما قادرين، وإما أن يقع مراد أحدهما ولا يقع مراد الآخر فينتقض كون من لم يقع مراده من غير وجه منع معقول قادراً. فإذا لا يجوز أن يكون الإله إلا واحداً. ولو قيل إنهما لا يتمانعان، لأن ما يريده أحدهما يكون حكمة فيريده الآخر بعينه؟ والجواب: أن كلامنا في صحة التمانع لا في وقوع التمانع، وصحة التمانع يكفي في الدلالة، لأنه يدل على أنه لا بد من أن يكون أحدهما متناهي المقدور، فلا يجوز أن يكون إلهاً.

ثم نزه سبحانه نفسه على أن يكون معه إله فقال: ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وإنما خص العرش لأنه أعظم المخلوقات، ومن قدر على أعظم المخلوقات كان قادراً على ما دونه ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (٢٣) معناه: أن جميع أفعاله حكمة وصواب، ولا يقال للحكيم لم فعلت الصواب وهم يسألون لأنهم يفعلون الحق والباطل. وقيل: معناه أنه لا يسأل عن ادعاء الربوبية وهم مسؤولون إذا ادعوا، ويدل على هذا التأويل النظم والسياق. وقيل: معناه لا يحاسب على أفعاله وهم يحاسبون على أفعالهم، وقيل: معناه أنه لا يسأله الملائكة والمسيح عن فعله، وهو يسألهم ويجازيهم، فلو كانوا آلهة لم يسألوا عن أفعالهم. ﴿أَوِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ وهذا استفهام إنكار وتوبيخ أيضاً ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: هاتوا حجتكم على صحة ما فعلتموه، لأنهم لا يقدرون على ذلك أبداً، وفي هذا دلالة على فساد التقليد لأنه طالبهم بالحجة على صحة قولهم. والبرهان هو: الدليل المؤدي إلى العلم. ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ أي: وقل لهم يا محمد: هذا القرآن ذكر من معي بما يلزمهم من الأحكام، وذكر من قبلي من الأمم ممن نجا بالإيمان أو هلك بالكفر، عن قتادة. وقيل: هذا ذكر من ممن بالحق في إخلاص الإلهية والتوحيد في القرآن، وعلى هذا ذكر من قبلي في التوراة والإنجيل، عن الجبائي، قال: لأن القرآن ذكر أتاه الله ومن معه، والتوراة والإنجيل ذكر تلك الأمم. وقال أبو عبد الله عليه السلام: يعني بذكر من معي: من معه، وما هو كائن، ويذكر من قبلي: ما قد كان. وقيل: إن معناه في القرآن خبر من معي على ديني ممن يتبعني إلى يوم القيامة، بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، وذكر ما أنزل الله من الكتب قبلي، فانظروا هل في واحد من الكتب أن الله أمر باتخاذ إله سواه. فبطل بهذا البيان جواز اتخاذ معبود سواه من حيث الأمر به. وقال الزجاج: قل لهم هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أتى أمته بأن لهم إلهاً غير الله، فهل في ذكر من معي وذكر من قبلي إلا توحيد الله؟ ويدل على صحة هذا، قوله فيما بعد: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾. فلما توجهت الحجة عليهم ذمهم سبحانه على جهلهم بمواضع الحق. فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن التأمل والتفكير، واختص الأكثر منهم لأن فيهم من آمن، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ﴾ أي: رسولا، ومن: مزيدة: ﴿إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ﴾ نحن، أو يوحى إليه أي: يوحى

سورة الأنبياء

الله إليه ﴿أَنْتَ لَا إِلَهَ﴾ أي: لا معبود على الحقيقة ﴿إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ أي: فوجهوا العبادة إلي دون غيري ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ يعني من الملائكة ﴿سُبْحَنَهُ﴾ نزه نفسه عن ذلك، لأن اتخاذ الولد لا يخلو إما أن يكون على سبيل التوالد، أو على سبيل التبني، وكلاهما لا يجوز عليه، لأن الأول يقتضي أن يكون من قبيل الأجسام، والثاني وهو التبني يكون بأن يقيم غير ولده مقام ولده. وإذا كان حقيقة الولد مستحيلاً منه، فالمشبه به كذلك، وليس ذلك كالخلة لأنه من الاختصاص وحقيقته جائزة عليه. ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: ليسوا أولاد الله كما يزعمون، بل هم عباد مكرمون أكرمهم الله واصطفاهم ﴿لَا يَسْأَلُونَكَ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، فكل أقوالهم طاعة لربهم، وناهيك بذلك جلالة قدرهم ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَمْكُوتُونَ﴾ ومن كان بهذه الصفة لا يوصف بأنه ولده ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما قدموا من أعمالهم وما أخروا منها، يعني ما عملوا، وما هم عاملون ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ الله دينه. وقال مجاهد: إلا لمن رضي الله عنه. وقيل: إنهم أهل شهادة أن لا إله إلا الله، عن ابن عباس، وقيل: هم المؤمنون المستحقون للثواب، وحقيقته أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله أن يشفع فيه، فيكون في معنى قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي: من خشيتهم منه فأضيف المصدر إلى المفعول ﴿مُسْتَفْقُونَ﴾ خائفون وجلون من التقصير في عبادته ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتَ إِلَهُ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من يقل من هؤلاء الملائكة: إني إله تحق لي العبادة من دون الله، ﴿فَذَلِكَ﴾ أي: فذلك القائل ﴿يَجْزِيهِ جَهَنَّمُ﴾ يعني أن حالهم مثل حال سائر العبيد في استحقاق الوعيد. وقيل: إنه عنى به إبليس لأنه الذي دعا الناس إلى عبادته، عن ابن جريج وقتادة. وقيل: إن هذا لا يصح لأن الله سبحانه علّق الوعيد بالشرط، ولأن إبليس ليس من الملائكة عند الأكثرين ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ يعني المشركين الذين يصفون بما لا يليق به، وفي هذه الآية دلالة على أن الملائكة ليسوا مطبوعين على الطاعات على ما قاله بعضهم، وأنهم مكلفون. ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْأَيْنَ كَذْرًا﴾ استفهام يراد به التقرير والمعنى: أو لم تعلموا أنه سبحانه الذي يفعل هذه الأشياء ولا يقدر عليها غيره فهو الإله المستحق للعبادة دون غيره، ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ تقديره: كانتا ذواتي رتق فجعلناهما ذواتي فتق، والمعنى: كانتا ملتزقتين منسدتين، ففصلنا بينهما بالهواء، عن ابن عباس والحسن والضحاك وعطاء وقتادة. وقيل: كانت السموات مرتتقة مطبقة ففتقناها سبع سموات، وكانت الأرض كذلك ففتقناها سبع أرضين، عن مجاهد والسدي. وقيل: كانت السماء رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتقنا السماء بالمطر، والأرض بالنبات، عن عكرمة وعطية وابن زيد، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: وأحيينا بالماء الذي نزل من السماء كل شيء حي، وقيل: وخلقنا من النطفة كل مخلوق حي، عن أبي العالية. والأول أصح، وروى العياشي بإسناده عن الحسن بن علوان قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن طعم الماء فقال له: سل تفقهاً ولا تسأل تعنتاً، طعم الماء طعم الحياة، قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، وقيل: معناه وجعلنا من الماء حياة كل ذي روح، ونماء كل نام. فيدخل فيه الحيوان

والنبات والأشجار، عن أبي مسلم. ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أفلا يصدقون بالقرآن وبما يشاهدون من الدليل والبرهان.

● **النظم:** وجه اتصال الآية الأولى بما قبلها: أنه سبحانه قال: فاسألوا أهل الذكر هل أرسلنا قبلك إلا رجالاً، وهل اتخذوا آلهة من الأرض، أي: من الحجر والمدر والخشب، فإن كله من الأرض، عن أبي مسلم. وقيل: إنه يتصل بقوله ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا﴾، والمعنى أنهم أضافوا إليه الولد، وأضافوا إليه الشريك. ووجه اتصال قوله: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ بما قبله: أنه لما بين التوحيد عطف عليه بيان العدل. وقيل: إنه يتصل بقوله ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، والحساب هو السؤال عما أنعم الله عليهم به، وهل قابلو نعمه بالشكر، أم قابلوها بالكفر، عن أبي مسلم. ووجه اتصال قوله ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِي وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾ بما قبله أن ما قدمنا ذكره من التوحيد والعدل مذكور في القرآن وفي الكتب السالفة.



قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٢١) ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٢٣) ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِّنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (٢٤) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٢٥).

● **اللغة:** الرواسي: الجبال. رست ترسو رسوا: إذا ثبتت بثقلها فهي راسية، كما ترسو السفينة إذا وقفت متمكنة في وقوفها، والميد: الاضطراب بالذهاب في الجهات، والفج: الطريق الواسع بين الجبلين. والفلك: أصل كل شيء دائر، ومنه فلكة المغزل، ويقال: فلك ثدي المرأة تفليكا: إذا استدار، والسباحة والعم والسبح والجري بمعنى.

● **الإعراب:** ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ في موضع نصب بأنه مفعول له، وتقديره: كراهة أن تميد بكم أو حذاراً أن تميد بكم، أو حذار أن تميد. ومن قال: إن لا هنا مضمرة والتقدير: لأن لا تميد فلا وجه لقوله. و﴿سُبُلًا﴾ بدل من ﴿فِجَاجًا﴾ لأن الفج هو السبيل. ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ جملة اسمية في موضع الحال وفي يتعلق بيسبحون، ﴿أَفَإِنَّ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ شرط وجزاء دخلت الفاء في الشرط وفي الجزاء، وقوله ﴿فِتْنَةً﴾ مفعول له، والمعنى: للفتنة. ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال أي: نبلوكم فاتنين. ويجوز أن يكون منصوباً على المصدر لأن البلاء بمعنى الفتنة.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه كمال قدرته وشمول نعمته بأن قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي: جبلاً ثوابت تمنع الأرض من الحركة والاضطراب ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: تتحرك وتميل وتضطرب بهم، وقيل: لتستقر، عن قتادة ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الرواسي ﴿فِجَاجًا﴾ أي: طرقاً واسعة بينها، لولا ذلك لما أمكن أن يهتدوا إلى مقاصدهم في الأسفار، ثم بين الفجاج

سورة الأنبياء

فقال: ﴿سُبُلًا لِّعَالِهِمْ يَهْتَدُونَ﴾ بها إلى طريق بلادهم ومواطنهم، وقيل: ليهتدوا بالاعتبار بها إلى دينهم ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أي: رفعنا السماء فوق الخلق كالسقف محفوظاً من الشياطين بالشهب التي ترمى بها، كما قال ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾، عن الجبائي، وقيل: محفوظاً من أن تسقط إلى الأرض كما قال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾، وقيل: محفوظاً من أن يطمع أحد في أن يتعرض لها بنقص أو أن يلحقها بلى، أو هدم على طول الدهر، عن الحسن. ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا﴾ أي: عن الاستدلال بما فيها من دلائل الحدوث والحاجة إلى المحدث ﴿تُعْرِضُونَ﴾ أي: أعرضوا عن التفكير فيها ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٢٢) أي: يجرون، وقيل: يدورون. وأراد الشمس والقمر والنجوم، لأن قوله الليل يدل على النجوم. وقال ابن عباس: يسبحون بالخير والشر بالشدة والرخاء، وقيل: معناه أنه سبحانه جعل لكل واحد منهما فلماً يدور فيه بسرعة كالسباحة، وإنما قال ﴿يَسْبَحُونَ﴾ لأنه أضاف إليها فعل العقلاء، كما قال ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَايَتْهُمُ لِي سَجْدًا﴾ وقال النابغة الجعدي:

تمززتها والديك يدعرو صياحه إذا ما بنوا نغش دنوا فتصوبوا^(١)

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿أَلْفُلْدًا﴾ أي: دوام البقاء في الدنيا ﴿أَقْبَاتٍ مِتَّ﴾ أنت على ما يتوقعونه وينتظرونه ﴿فَهُمْ أَلْفُلْدُونَ﴾ أي: أفهم يخلدون بعدك، يعني مشركي مكة حين قالوا: نترى بمحمد ريب المنون، فقال: لئن مت فإنهم أيضاً يموتون، فأبي فائدة لهم في تمنى موتك. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي: لا بد لكل نفس حية بحياة أن يدخل عليها الموت وتخرج عن كونها حية ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ أي: نعاملكم معاملة المختبر بالفقر والغنى وبالضراء والسراء وبالشدة والرخاء، عن ابن عباس. وقيل: بما تكرهون وما تحبون ليظهر صبركم على ما تكرهون، وشكركم فيما تحبون، عن ابن زيد. وزوي عن أبي عبد الله عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام مرض فعاده إخوانه فقالوا: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: بشر، قالوا: ما هذا كلام مثلك، قال: إن الله تعالى يقول ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، فالخير: الصحة والغنى، والشر: المرض والفقر. وقال بعض الزهاد: الشر غلبة الهوى على النفس، والخير العصمة عن المعاصي ﴿فِتْنَةً﴾ أي: ابتلاء واختبار أو شدة تعبد ﴿وَاللَّيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: إلى حكمنا تردون للجزاء بالأعمال، حسننها وسيئها.

● **النظم:** يتصل قوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَلْفُلْدًا﴾ بما ذكر سبحانه من خلق الأشياء، فإنه بين أنه لم يخلقها للخلود، وإنما خلقها ليتوصل بها إلى نعيم الآخرة، فلا بد لكل إنسان من الموت والرجوع إلى الجزاء، عن القاضي.



(١) التمزز: شرب الشراب قليلاً قليلاً. وتصوب ضد تصعد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأٰكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمٰنِ هُمْ كٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْاِنْسٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَآوِرِكُمْ ؕ اٰتٰنٰى فَلَا تَسْتَعِجِلُوْنَ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُوْنَ مَتٰى هٰذَا الْوَعْدُ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا حِيْنَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوْهِهِمُ النَّارُ وَلَا عَنْ ظُهُوْرِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُوْنَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيْهِمْ بَغْتَةً فَنَبْهَتْهُمْ فَلَآ يَسْتَطِيعُوْنَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُوْنَ ﴿٤٠﴾﴾.

● **اللغة:** الهزؤ: إظهار خلاف الإبطان لإيهام النقص عن فهم القصد، يقال: هزأ منه يهزأ هزؤاً فهو هازئ، ومثله السخرية. ويقول العرب: ذكرت فلاناً أي: عبته. قال عنترة: لَا تَذْكِرِي مُهْرِي، وَمَا أَطْعَمْتُهُ فَيَكُونُ جِلْدُكَ مِثْلَ جِلْدِ الْأَجْرَبِ^(١)

والعجلة: تقديم الشيء قبل وقته، وهو مذموم. والسرعة: تقديم الشيء في أقرب أوقاته، وهو محمود. والاستعجال: طلب الشيء في وقته الذي حقه أن يكون فيه دون غيره.

● **الإعراب:** ﴿وَإِذَا رَأٰكَ﴾: العامل في إذا اتخذوا وهو معنى قوله ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ لأن معناه اتخذوك هزؤاً. وقوله ﴿أَهٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ تقديره: قائلين أهذا الذي يذكر آلهتكم، فحذف قائلين وهو في موضع الحال، كما حذف ذلك من قوله ﴿وَالَّذِيْنَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي: قائلين ما نعبدهم، والباء في قوله ﴿بِذِكْرِ الرَّحْمٰنِ﴾، يتعلق بقوله ﴿كَافِرُونَ﴾، وقوله ﴿حِيْنَ لَا يَكْفُوتُ﴾: يجوز أن يكون مفعولاً به ليعلم. ويجوز أن يكون ظرفاً له فيكون مفعول يعلم محذوفاً تقديره: لو يعلمون الأمر حين لا يكفون، وجواب لو محذوف وتقديره لانتهاوا، ﴿بَغْتَةً﴾ نصب على الحال من المفعول تقديره: بل تأتيهم مبعوتين مفاجئين. ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل، وهو الضمير المستكن في تأتي، والتقدير: بل تأتيهم بغتة مفاجئة.

● **المعنى:** ثم خاطب نبيه ﷺ وقال: ﴿وَإِذَا رَأٰكَ﴾ أي: إذا رآك يا محمد ﴿الَّذِيْنَ كَفَرُوا﴾ وأنت تعيب آلهتهم وتدعوهم إلى التوحيد ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ أي: ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: سخرية يقول بعضهم لبعض: ﴿أَهٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: يعيب آلهتهم، وذلك قوله إنها جماد لا ينفع ولا يضر ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمٰنِ﴾ أي: بتوحيده، وقيل: بكتابه المنزل ﴿هُمْ كٰفِرُونَ﴾ أي: جاحدون. عجب الله سبحانه نبيه ﷺ منهم، حيث جحدوا الحي المنعم القادر، العالم الخالق الرازق، واتخذوا ما لا ينفع ولا يضر، ثم إن من دعاهم إلى تركها اتخذوه هزؤاً وهم أحق بالهزؤ عند من يدبر حالهم. ﴿خُلِقَ الْاِنْسٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ قيل: فيه قولان:

أحدهما: أن المعنى بالإنسان آدم. ثم إنه قيل في عجل ثلاث تأويلات منها: أنه خلق بعد

سورة الأنبياء

خلق كل شيء آخر نهار يوم الجمعة، وهو آخر الأيام الستة على سرعة، معاجلاً به غروب الشمس، عن مجاهد. ومنها: أن معناه في سرعة من خلقه، لأنه لم يخلقه من نقطة ثم من علة ثم من مضغة، كما خلق غيره، وإنما أنشأ إنشأ، فكأنه سبحانه نبه بذلك على الآية العجيبة في خلقه. ومنها: أن آدم عليه السلام لما خلق، وجعلت الروح في أكثر جسده، وثب عجلان مبادراً إلى ثمار الجنة، وقيل: هم بالوثوب. فهذا معنى قوله ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾، عن ابن عباس والسدي، وروى ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام. والقول الثاني: أن المعنى بالإنسان الناس كلهم. ثم اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: أن معناه خلق الإنسان عجولاً أي: خلق على حب العجلة في أمره، عن قتادة وأبي مسلم والجبائي، قال: يعني أنه يستعجل في كل شيء يشتهي، وللعرب عادة في استعمالهم هذا اللفظ عند المبالغة، يقولون لمن يصفونه بكثرة النوم: ما خلق إلا من نوم، وبكثرة وقوع الشر منه: ما خلق إلا من شر. ومنه قول الخنساء في وصف البقرة: «فإنما هي إقبال وإدبار».

وثانيها: أنه من المقلوب، والمعنى خلقت العجلة من الإنسان، عن أبي عبيدة وقطرب. وهذا ضعيف لأنه مع حمل كلامه تعالى على القلب، يحتاج إلى تأويل فلا فائدة في القلب.

وثالثها: أن العجل هو الطين، عن أبي عبيدة وجماعة، واستشهدوا بقول الشاعر:

وَالْتَّبَعُ يَنْبُتُ بَيْنَ الصَّخْرِ ضَاجِيَةً وَالنَّخْلُ تَنْبُتُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْعَجَلُ

ورواه ثعلب: «والتَّبَعُ في الصخرة الصماء مَنبُتٌ». فعلى هذا يكون قوله ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾.

ورابعها: أن معناه خلق الإنسان من تعجيل من الأمر لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، عن أبي الحسن الأخفش. ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ الدالة على وحدانيته وعلى صدق محمد عليه السلام فيما يوعدكم به من العذاب ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾ في حلول العذاب بكم، فإنه سيدرككم عن قريب. قال ابن عباس في رواية عطاء: يريد به الضر بن الحرث، وهو الذي قال ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ﴾ الآية. ويريد بقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ القتل يوم بدر. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني: ويقول المشركون للمسلمين ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدونا يريدون وعد القيامة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: ويقولون إن كنتم صادقين في هذا الوعد فمتى يكون ذلك. ثم قال سبحانه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ﴾ أي: لو علموا الوقت الذي لا يدفعون فيه عذاب النار عن وجوههم ﴿وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ يعني أن النار تحيط بهم من جميع جوانبهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وجواب لو محذوف، وتقديره: لعلمو صدق ما وعدوا به، ولما استعجلوا ولا قالوا ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾، ثم قال: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: فتحيرهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: فلا يقدرُونَ على دفعها ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يؤخرون إلى وقت آخر ولا يمهلون لتوبة أو معذرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤١) ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٤٢) ﴿أَرَأَيْتُمْ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ (٤٣) ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤) ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ (٤٥).

● **القراءة:** قرأ ابن عامر: «ولا تسمع» بضم التاء، «الصم» بالنصب، والباقون: «ولا يسمع» بفتح الياء، «الصم» بالرفع.

● **الحجة:** الوجه في قراءة ابن عامر: أنه وجه الخطاب إلى النبي ﷺ فكانه قال: ولا تسمع أنت يا محمد الصم، كما قال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾، لأن الله تعالى لما خاطبهم فلم يلتفتوا إلى ما دعاهم إليه، صاروا بمنزلة الميت الذي لا يسمع ولا يعقل. ووجه قراءة الباقيين: أنه جعل الفعل لهم ويقويه قوله ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

● **اللغة:** الكلاء: الحفظ. قال ابن هرمة:

إِنْ سُلِّمَى، وَاللَّهُ يَكْلُؤُهَا ضُئْتُ بِشَيْءٍ مَا كَانَ يَزْرُؤُهَا^(١)

والفرق بين السخرية والهزاء: أن في السخرية معنى طلب الذلة، لأن التسخير التذليل. فأما الهزاء فيقتضي طلب صغر القدر بما يظهر في القول.

● **الإعراب:** ﴿أَرَأَيْتُمْ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا﴾ أم هذه هي المنقطعة، وتقديره: بل لهم آلهة، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ جملة مستأنفة لأنها لا تستقيم أن تكون صفة لآلهة ولا حالاً عنها، لأن الله وصفها بقوله ﴿تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا﴾ على زعمهم. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ضد هذه الصفة.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر استهزاء الكفار بالنبي والمؤمنين سأل الله سبحانه نبيه ﷺ عند ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما استهزأ هؤلاء ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: حل بهم وبال استهزائهم وسخريتهم. وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ يعني من الرسل ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: يحفظكم من بأس الرحمن وعذابه، وقيل: من عوارض الآفات، وهو استفهام معناه النفي، تقديره: لا حافظ لكم من الرحمن. ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي: بل هم عن كتاب ربهم معرضون لا يؤمنون به ولا يتفكرون فيه، وقيل: معناه أنهم لا يلتفتون إلى شيء من المواعظ والحجج. ثم قال على وجه التوبيخ لهم والتقريع: ﴿أَرَأَيْتُمْ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا﴾ تقديره: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم من عذابنا وعقوباتنا وتم الكلام. ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال: ﴿وَلَا

سورة الأنبياء

يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ﴿١﴾ فكيف ينصرونهم، وقيل: معناه أن الكفار لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا يقدرّون على دفع ما ينزل بهم عن نفوسهم ﴿وَلَا هُمْ مِتَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي: ولا الكفار يجارون من عذابنا، عن ابن عباس. قال ابن قتية: أي لا يجيرهم منا أحد، لأن المجير صاحب الجار، يقول العرب: صحبك الله أي: حفظك الله وأجارك. وقيل: يصحبون أي: ينصرون ويحفظون، عن مجاهد. وقيل: لا يصحبون من الله بخير، عن قتادة. ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِنِعْمِهِمْ﴾ فلم نعالجهم بالعقوبة ﴿حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي: طالت أعمارهم فغرهم طول العمر وأسباب الدنيا حتى أتوا ما أتوا ﴿أَفَلَا يَرْزُقُ أَتَا نَافِي الْأَرْضِ نَقْصَهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: ألم ير هؤلاء الكفار أن الأرض يأتيها أمرنا، فننقصها بتخريبها ويموت أهلها. وقيل: بموت العلماء، ورؤي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نقصانها ذهاب عالمها. وقيل: معناه نقصها من أطرافها بظهور النبي على من قاتله، أرضاً فأرضاً وقوماً فقوماً، فيأخذ قراهم وأرضيهم، عن الحسن وقتادة. ومعناه: أنا ننقصها من جانب المشركين ونزيدها في جانب المسلمين. ﴿أَفَلَيْبُورُ﴾ أي: أفهل هؤلاء الغالبون أم نحن؟ ومعناه: ليسوا بغالبين ولكنهم المغلوبون ورسول الله الغالب. وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الرعد. ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي: قل يا محمد إنما أُنذركم من عذاب الله وأخوفكم بما أوحى الله إلي ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ شَبَّهَهُم بِالصُّمِّ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ النِّدَاءَ إِذَا نَادَوْا﴾ لأنهم لم ينتفعوا بالسمع، والمعنى: أنهم يستثقلون القرآن وسماعه وذكر الحق، فهم في ذلك بمنزلة الأصم الذي لا يسمع ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أي: يخوفون.

● النظم: إنما اتصل قوله: ﴿أَمَرَهُمُ إِلَهَهُ﴾ بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ﴾، وتقديره: أنهم الخالدون أم لهم آلهة تمنع نفوسهم من الموت، ومما ينزل الله بهم، عن أبي مسلم. وقيل: اتصل بقوله ﴿مَنْ يَكْفُرْ﴾ أي: أم لهم آلهة تكلوهم وتمنهم، ووجه اتصال قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ بما قبله أنه اتصل بقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْ﴾، وتقديره: لو تفكروا لعلمو أنه لا عاصم من الله، وأن فيما أُنذركم به من القرآن أعظم الآيات والحجج. وقيل: إنه اتصل بما تقدم من العظة بحال من مضى من الأمم، والمعنى: أن ذلك وجميع ما يعظّم به من الوحي.



قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكُ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُونِ ﴿٥٠﴾

● القراءة: قرأ أبو جعفر ونافع: «مِثْقَال حبة» بالرفع، وفي لقمان مثله. والباقيون

بالنصب. وقرأ: «آتيناً بها» بها بالمد ابن عباس وجعفر بن محمد ومجاهد وسعيد بن جبير والعلاء بن سبابة، والباقون: «آتيناً» بالقصر.

● **الحجة:** وجه النصب «وإن كان الظلامة مثقال حبة». وهذا أحسن لتقدم قوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ فإذا ذكر ﴿تُظْلَمُ﴾ فكأنه ذكر الظلامة كقولهم: من كذب كان شراً له. ووجه الرفع أنه أسند الفعل إلى ﴿مُنْفَكًا﴾ كما أسند في قوله: ﴿وإن كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي: ذا عسرة. وكذلك قول الشاعر: «إذا كان يوم ذو كواكب أشهباً». ومن قرأ «آتيناً» فهو فاعلنا فهو من أتى يؤاتي مؤاتاة، عن ابن جني. ورؤي عن الصادق عليه السلام أنه قال: معناه جازينا بها. وعلى هذا فيجوز أن يكون من أفعَلْنَا، ويكون مفعول «آتيناً» محذوفاً وتقديره: آتيناهما بها للجزاء.

● **اللغة:** النفحة: الواقعة اليسيرة تقع بهم، يقال: نَفَحَ يَنْفَحُ نَفْحًا، ونفح الطيب ينفح فله نفحة طيبة. ونفحت الدابة: إذا رمت بحافرها فضربت به. ونفحه بالسيف: إذا تناوله من بعيد، وأما حديث شريح: «إنه أبطل النفح» من نفح الدابة، فالمعنى أنه كان لا يلزم صاحبها شيئاً، والقسط: العدل، وهو مصدر يوصف به. والتقدير: ونضع الموازين ذوات القسط.

● **الإعراب:** ﴿شَيْئًا﴾ انتصب على أنه مفعول ثانٍ لتظلم، ويجوز أن يكون منصوباً على المصدر أي: لا تظلم نفس ظلماً. ومن رفع ﴿مُنْفَكًا حَبَةً﴾ فإن ﴿كَانَتْ﴾ تكون تامة، ومن نصب فإن ﴿كَانَتْ﴾ ناقصة، واسمها الضمير المستكن فيها العائد إلى شيء. ﴿وَكُنْ يَنَّا حَسِيرِينَ﴾. قال الزجاج: انتصب قوله ﴿حَسِيرِينَ﴾ على التمييز، أو على الحال، ودخلت الباء في ﴿يَنَّا﴾ لأنه خبر في معنى الأمر. والمعنى: اكتفوا بالله حسيماً. وقد روي عن ابن عباس أنه قرأ «ضياء» بغير واو، ويكون على هذا منصوباً على الحال من ﴿الْفُرْقَانِ﴾، ويجوز أن يكون مفعولاً له. وبالواو يكون عطفاً على ﴿الْفُرْقَانِ﴾ وتكون الواو داخلية على ﴿ضِيَاءٍ﴾، وإن كان صفة في المعنى دون اللفظ، كما تدخل على الصفة التي هي صفة لفظاً. قال سيبويه: إذا قلت مررت بزيد وصاحبك، وزيد هو الصاحب، جاز. ولو قلته بالفاء لم يجز، كما جاز بالواو، لأن الفاء يقتضي التعقيب، وتأخير الاسم عن المعطوف عليه بخلاف الواو. ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ في محل جر لأنه صفة للمتقين، ويجوز أن يكون في محل نصب أو رفع على المدح. و﴿بِالْفَيْبِ﴾ في محل النصب على الحال.

● **المعنى:** لما تقدم الإنذار بالعذاب ذكر عقبيه ﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أي: أصابهم طرف، عن ابن عباس، وقيل: قليل، عن ابن كيسان، وقيل: نصيب، عن ابن جريج، وقيل: بعض ما يستحقونه من العقوبة، عن أبي مسلم ﴿وَمِنْ عَذَابٍ رَّبِّكَ يَقُولُكَ يَوْمَئِذٍ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: يدعون بالويل والثبور عند نزوله. ثم قال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي: نضع الموازين ذوات القسط ليوم القيامة. وقيل: معناه نحضر الموازين التي لا جور فيها، بل كلها عدل وقسط لأهل يوم القيامة أو في يوم القيامة. وقال قتادة: معناه نضع العدل في المجازاة بالحق لكل أحد على قدر استحقاقه، فلا يبخس المثاب بعض ما يستحقه، ولا يفعل بالمعاقب فوق ما يستحقه. وقد سبق الكلام في الميزان في سورة الأعراف. ﴿فَلَا

نُظِّلُمْ نَفْسَ شَيْئًا ﴿٥١﴾ أي: لا ينقص من إحسان محسن ولا يزداد في إساءة مسيء. ﴿وَإِنْ كُنَّا مِنْكُمْ لَمِنَ الْحَافِظِينَ﴾ أي: عالمين حافظين، وذلك أن من حسب شيئاً علمه وحفظه، عن ابن عباس، وقيل: محصين. والحسب: العد، عن السدي. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: أعطيناهما التوراة يفرق بين الحق والباطل، عن مجاهد وقتادة، وقيل: البرهان الذي فرّق به بين حق موسى وباطل فرعون، وقيل: هو فلق البحر. ﴿وَضِيقَ الْيَمِّ﴾ أي: وآتيناهما ضياء، وهو من صفة التوراة أيضاً مثل قوله ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، والمعنى أنهم استضاءوا بها حتى اهتدوا في دينهم ﴿وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ يذكرونه ويعملون بما فيه ويتعظون بمواعظه. ثم وصف المتقين فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: في حال الخلوة والغيبة عن الناس، وقيل: في سرائرهم من غير رياء ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ﴾ أي: من القيامة وأحوالها ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أراد به القرآن أنه ذكر ثابت نافع دائم نفعه إلى يوم القيامة، وقيل: سماه مباركاً لوفور فوائده من المواعظ والزواجر والأمثال الداعية إلى مكارم الأخلاق والأفعال. لما وصف التوراة أتبعه ذكر القرآن الذي آتاه نبينا ﷺ ﴿فَأَنْتُمْ لَكُمْ مُنْكَرُونَ﴾: استفهام على معنى التوبيخ أي: فلماذا تنكرونه وتجحدونه مع كونه معجزاً.

● **النظم:** وجه اتصال قصة موسى وهارون بما قبلها: أنه لما تقدم ذكر الوحي، بين عقبيه أن إنزال القرآن على نبيه ليس ببدع، فقد أنزل على موسى وهارون التوراة، وقيل: اتصل بقوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ﴾، والمعنى: أن هؤلاء كما أنهم استهزؤوا بك مع أننا أنزلنا إليك الكتاب، فكذا قد أنزلنا على موسى وهارون الكتاب فكذبوهما واستهزؤوا بهما.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلَىٰ عِلْمِينَ﴾ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاقِبُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَاقِبَةً ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مِنْ فَعَلِ هَٰذَا بِنَاهِتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ .

● **القراءة:** قرأ الكسائي: «جذاذاً» بكسر الجيم، والباقون بضمها. وفي الشواذ قراءة ابن عباس وأبي السماك بفتح الجيم.

● **الحجة:** قال أبو حاتم فيه لغات جذاذاً وجذاذاً وجذاذاً، وأجودها الضم كالخطام والرفات من جذذ الشيء: إذا قطعته. قال النابغة:

تَجِدُ السُّلُوقِي المِضَاعَفَ نَسْجُهُ وَيُوقِدَنَّ بِالصُّفَّاحِ نَارَ الحُبَابِ^(١)
وقال جرير:

بَنُو المَهْلَبِ جَدُّ الله دَابِرُهُمْ أَمَسُوا رَمَاداً فَلَا أَضْلَ وَلَا طَرْفَ

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم من قصة موسى وهارون بقصة إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ أي: أعطينا ﴿إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ يعني: الحجج التي توصله إلى الرشد من معرفة الله وتوحيده، وقيل: معناه هداة أي: هديناه صغيراً، عن قتادة ومجاهد. وقيل: هو النبوة ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسى. وقيل: من قبل محمد ﷺ والقرآن، وقيل: من قبل بلوغه ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ إنه أهل لإيتاء الرشد وصالح للنبوة ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ حين رآهم يعبدون الأصنام ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ والعامل في إذ قوله ﴿آتَيْنَا﴾ أي: آتينا رشفه في ذلك الوقت. والتمثال: اسم للشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله، وأصله من مثلت الشيء بالشيء: إذا شبهته به، واسم ذلك الممثل تمثال، وجمعه تماثيل، وقيل: إنهم جعلوها أمثلة لعلمائهم الذين انقضوا، وقيل: إنهم جعلوها أمثلة للأجسام العلوية، والمعنى: ما هذه الصور التي أنتم مقيمون على عبادتها. وروى العياشي بإسناده عن الأصمعي بن نباتة أن علياً عليه السلام مر يقوم يلعبون الشطرنج فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون لقد عصيتم الله ورسوله. ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ فاعتقدنا بهم. اعترفوا بالتقليد إذ لم يجدوا حجة لعبادتهم إياها سوى اتباع الآباء. ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ضلال مبين أي: في ذهاب عن الحق ظاهر. ذمهم على تقليد الآباء، ونسبهم في ذلك إلى الضلال. ﴿قَالُوا أَيْحَتْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ معناه: أجاد أنت فيما تقول، محق عند نفسك أم لاعب مازح؟ وإنما قالوا ذلك لاستبعادهم إنكار عبادة الأصنام عليهم، إذ ألفوا ذلك واعتادوه. ﴿قَالَ بَلْ زَكَّيْتُ رَبِّي أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ فُطْرَهُنَّ﴾ أي: بل إلهكم إله السموات والأرض الذي خلقهن وأبتدأهن. فدل على الله سبحانه بصنعه ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذِكْرِ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ومعنى هذه الشهادة تحقيق الأخبار، والشاهد الدال على الشيء عن مشاهدة، فإبراهيم عليه السلام شاهد بالحق لأنه دال عليه بما يرجع إلى ثقة المشاهدة. ثم أقسم إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ﴾ أي: لأدبرن في بابهم تدبيراً خفياً يسوؤكم ذلك، وقيل: إنما قال ذلك في سر من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل منهم فأفشاه، عن قتادة ومجاهد. ﴿بعد أن تولوا مدبرين﴾ أي: بعد أن تنطلقوا ذاهبين.

قالوا: كان لهم في كل سنة مجمع وعيد، إذا رجعوا منه دخلوا على الأصنام وسجدوا لها، فقالوا لإبراهيم عليه السلام: ألا تخرج معنا، فخرج. فلما كان ببعض الطريق قال: أشتكي رجلي. وانصرف ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾ أي: فجعل أصنامهم قطعاً قطعاً، عن قتادة، وقيل: حطاماً، عن ابن عباس ﴿إِلَّا كِبِيرًا لَهُمْ﴾ تركه على حاله. ويجوز أن يكون كبيرهم في الخلقة، ويجوز

(١) السلوقي: الدرع المنسوبة إلى سلوق: قرية باليمن. والصفاح: الحجر العريض. ونار الحباب: ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة. قاله في وصف السيوف وفي اللسان: «تقد السلوقي».

أن يكون أكبرهم عندهم في التعظيم. قالوا: جعل يكسرهم بفأس في يده حتى لم يبق إلا الصنم الكبير، علّق الفأس في عنقه وخرج. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لعلمهم يرجعون إلى إبراهيم فيسألونه عن حال الأصنام لينبئهم على جهلهم، وقيل: لعلمهم يرجعون إلى الكبير فيسألونه وهو لا ينطق، فيعلمون جهل من اتخذوه إلهاً. وفي الكلام ههنا حذف تقديره: فلما رجع قومه من عيدهم فوجدوا أصنامهم مكسرة ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾: من هذه الموصولة تقديره: الذي فعل هذا بآلهتنا فإنه ظالم لنفسه، لأنه يقتل إذا علم به، وقيل: إنهم قالوا: من فعل هذا؟ استفهموا عن صنع ذلك، وأنكروا عليه فعله بقولهم ﴿إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إذ فعل ما لم يكن له أن يفعله. ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: قال الرجل الذي سمع من إبراهيم قوله ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ للقوم ما سمعه منه، فقالوا: سمعنا فتى يذكرهم بسوء، وقيل: إنهم قالوا: سمعنا فتى يعيب آلهتنا، ويقول: إنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، فهو الذي كسرهما. وعلى القول الأول فإنما قالوا: سمعنا فتى، وإن لم يسمعه كما يقال: سمعت الله يقول، أو سمعت الرسول يقول إذا بلغك عنه رسالة على لسان ثقة صدوق. وقوله ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ارتفع إبراهيم على وجهين: أحدهما: يقال له هو إبراهيم، والمعروف به إبراهيم، وعلى النداء أي: يقال له يا إبراهيم، عن الزجاج.



قوله تعالى: ﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ (١١) ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (١٢) ﴿قَالَ بَلْ فَعَلْتُ كِبَرُهُمْ هَذَا فَشَكُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (١٣) ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٤) ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ (١٥) ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (١٦) ﴿أَفِ لَكُمْ وَرَءَايَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٧) ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١٨) ﴿قُلْنَا يَنْتَرُكُمْ كُوفٍ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (١٩) ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٢٠).

● **اللغة:** النكس: هو أن يجعل أسفل الشيء أعلاه، ومنه النكس في العلة، وهو أن يرجع إلى أول حاله. ومنه النكس وهو السهم فوقه، فيجعل أعلاه أسفله. ويقال للمائق أيضاً: نكس، تشبيهاً بذلك.

● **الإعراب:** ﴿عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ﴾: في موضع الحال أي: مرئياً مشهوداً. ﴿بَلْ فَعَلْتُ كِبَرُهُمْ﴾: هذا من وقف على ﴿فَعَلْتُ﴾ ففاعله مضمر وتقديره فعله من فعله، و﴿كِبَرُهُمْ﴾ مبتدأ و﴿هَذَا﴾ خبره، ومن لم يقف على ﴿فَعَلْتُ﴾ فكبيرهم فاعله، وهذا يكون صفة لكبيرهم، أو بدلاً عنه، وجواب الشرط الذي هو قوله ﴿إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ محذوف يدل عليه قوله ﴿بَلْ

فَعَلَكُمْ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَشَاوَوْهُمْ ﴿١٦﴾ على الوجه الثاني. ويقتضي أن يكون للشرط جزاءان على هذا، والجزاء الثاني معطوف على الأول، التقدير: إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا فاسألوهم. والمعنى: إن لم يقدروا على النطق لم يقدروا على الفعل.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه ما جرى بين إبراهيم وقومه في أمر الأصنام بقوله: ﴿قَالُوا﴾ يعني قوم إبراهيم ﴿فَاتَّوْأَ بِهِ﴾ أي: فجيئوا به ﴿عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي: بحيث يراه الناس ويكون بمشهد منهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما قاله، فيكون ذلك حجة عليه بما فعل، عن الحسن وقتادة والسدي، قالوا: كرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة، وقيل: معناه لعلهم يشهدون عقابه وما يصنع به، أي: يحضرونه، عن ابن إسحاق والضحاك. ﴿قَالُوا ۖ أَنْتَ فَفَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ المعنى: فلما جاؤوا به قالوا له هذا القول، مقررين له على ذلك. فأجابهم إبراهيم ﷺ بأن ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَكُمْ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَشَاوَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾.

اختلفوا في معناه وتقديره على وجه:

أحدها: أنه مقيد بقوله ﴿إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ والتقدير: فقد فعله كبيرهم إن نطقوا فاسألوهم. فقد علق الكلام بشرط ألا يوجد، فلا يكون كذباً، ويكون كقول القائل فلان صادق فيما يقول إن لم يكن فوقنا سماء.

وثانيها: أنه خرج مخرج الخبر وليس بخبر، إنما هو إلزام يدل عليه الحال، فكأنه قال ما ينكرون أن يكون فعله كبيرهم هذا، والإلزام يأتي تارة بلفظ السؤال، وتارة بلفظ الأمر، وتارة بلفظ الخبر. وربما يكون أحد هذه الأمور أبلغ فيه. ووجه الإلزام أن هذه الأصنام إن كانت آلهة كما تزعمون، فإنما فعل ذلك بهم كبيرهم لأن غير الإله لا يقدر أن يكسر الآلهة.

وثالثها: أن تقديره: فعله من فعله على ما تقدم ذكره، وهو قول الكسائي، وأما ما ذكر فيه أنه أراد به الخبر عن الكبير، وقال: إنه غضب من أن يعبد معه الصغار فكسره، وما زوي في ذلك من أن إبراهيم ﷺ كذب ثلاث كذبات قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَبِيرُهُمْ﴾، وقوله في سارة لما أراد الجبار أخذها وكانت زوجته: ﴿إِنهَا أَخْتِي﴾ فمما لا يعول عليه. فقد دلت الأدلة العقلية التي لا تحتل التأويل على أن الأنبياء لا يجوز عليهم الكذب، وإن لم يقصدوا به غروراً ولا ضرراً، كما لا يجوز عليهم التعمية في الاخبار، ولا التقية، لأن ذلك يؤدي إلى التشكيك في إخبارهم. وكلام إبراهيم ﷺ يجوز أن يكون من المعارض، فقد أبيح ذلك عند الضرورة، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّ الْكَذِبَ لَا يَصْلَحُ فِي جَدٍ وَلَا هَزَلٍ﴾. وقد قيل في تفسير قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾: إن معناه: أني سأسقم لأنه لما نظر إلى بعض علم النجوم وقت نوبة حمى كانت تأتية، فقال: إني سأسقم، وقيل معناه: إني سقيم عندكم فيما أدعوكم إليه، وسنذكر الكلام فيه في موضعه. وأما قوله في سارة: ﴿إِنهَا أَخْتِي﴾ فإنما أراد في الدين، قال سبحانه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وقد دل الدليل العقلي على أن الكذب قبيح لكونه كذباً، فلا يحسن على وجه من الوجوه. ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿١٧﴾ معناه: فرجع بعضهم إلى بعض وقال بعضهم لبعض: أنتم الظالمون حيث تعبدون ما لا يقدر

سورة الأنبياء

على الدفع عن نفسه، وما نرى الأمر إلا كما قال. وقيل: معناه فرجعوا إلى عقولهم وتدبروا في ذلك إذ علموا صدق إبراهيم فيما قاله، وحراروا عن جوابه، فأنطقهم الله بالحق فقالوا: إنكم أنتم الظالمون هذا الرجل في سؤاله، وهذه آلهتكم حاضرة فاسألوها. ﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ إذ تحيَّروا وعلموا أنها لا تنطق. ثم اعترفوا بما هو حجة عليهم فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ يا إبراهيم ﴿مَا هَؤُلَاءِ بِنُطْقُونَ﴾ فكيف نسألهم؟ فأجابهم إبراهيم بعد اعترافهم بالحجة ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦) أي: أفتوجهون عبادتكم إلى الأصنام التي لا تنفعكم شيئاً إن عبدتموها، ولا تضرركم إن تركتموها، لأنها لو قدرت على نفعكم وضرركم لدفعت عن نفسها من دون الله سبحانه الذي يقدر على ضرركم ونفعكم، على أنه ليس كل من قدر على الضر والنفع استحق العبادة، وإنما يستحقها من قدر على أصول النعم التي هي الحياة والشهوة والقدرة وكمال العقل، وقدر على الثواب والعقاب.

ثم قال إبراهيم عليه السلام مهجناً لأفعالهم، مستقذراً لها: ﴿أَفِ لَكَ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: معنى أف لكم: تباً لأعمالكم وأفعالكم. وقد ذكرنا اختلاف القراء فيه وما قيل في تفسيره في سورة بني إسرائيل. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تتفكرون بعقولكم في أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ والمعنى: فلما سمعوا منه هذا القول قال بعضهم لبعض: حرقوه بالنار ﴿وَأَنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ أي: وادفعوا عنها وعظموها ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلَاءِينَ﴾ أي: إن كنتم ناصريها، والمعنى: فلا تنصرونها إلا بتحريقه بالنار. قال ابن عمر ومجاهد: إن الذي أشار بتحريق إبراهيم بالنار رجل من أكراد فارس، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة وقال وهب: إنما قاله نمروذ، وفي الكلام حذف. قال السدي: فجمعوا الحطب حتى إن الرجل منهم ليمرض فيوصي بكذا وكذا من ماله فيشتري به حطب، وحتى إن المرأة لتغزل فتشتري به حطباً، حتى بلغوا من ذلك ما أرادوا فلما أرادوا أن يلقوا إبراهيم في النار لم يدروا كيف يلقونه، فجاء إبليس فدلهم على المنجنيق، وهو أول منجنيق صنعت، فوضعه فيها ثم رموه. ﴿قُلْنَا يَنَازُكُوكُنِي بُرْدًا وَسَلَمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) معناه: فلما جمعوا الحطب وألقوه في النار قلنا للنار ذلك، وهذا مثل فإن النار جماد لا يصح خطابه، والمراد: أنا جعلنا النار برداً عليه وسلامة لا يصيبه من أذاها شيء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كُونُوا رِجْدَةً خَاشِعِينَ﴾ والمعنى: أنه صيَّره كذلِكَ، لا أنه خاطبهم وأمرهم بذلك، وقيل: يجوز أن يتكلم الله سبحانه بذلك. ويكون ذلك صلاحاً للملائكة ولطفاً لهم.

وذكر في كون النار برداً على إبراهيم وجوه:

أحدها: أن الله سبحانه أحدث فيها برداً بدلاً من شدة الحرارة التي فيها، فلم تؤذ.

وثانيها: أن الله سبحانه حال بينها وبينه فلم تصل إليه.

وثالثها: أن الإحراق إنما يحصل بالاعتمادات التي في النار صعداً، فيجوز أن يذهب سبحانه تلك الاعتمادات. وعلى الجملة فقد علمنا أن الله سبحانه منع النار من إحراقه وهو أعلم بتفاصيله.

قال أبو العالية: لو لم يقل سبحانه ﴿وَسَلَّمَ﴾ لكانت تؤذيه من شدة بردها، ولكان بردها أشد عليه من حرها فصارت سلاماً عليه. ولو لم يقل: ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ لكان بردها باقياً على الأبد. وقال أبو عبد الله عليه السلام: لما جلس إبراهيم في المنجنيق، وأرادوا أن يرموا به في النار، أتاه جبريل عليه السلام فقال: السلام عليك يا إبراهيم ورحمة الله وبركاته ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. فلما طرحوه دعا الله فقال: يا الله، يا واحد يا أحد، يا صمد، يا من لم يلد، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فحسرت النار عنه، وإنه لمحتب ومعه جبرائيل عليه السلام وهما يتحدثان في روضة خضراء. وروى الواحدي بالإسناد مرفوعاً إلى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ نَمْرُودَ الْجَبَّارَ لَمَّا أُلْقِيَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي النَّارِ، نَزَلَ إِلَيْهِ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَمِيصٍ مِنَ الْجَنَّةِ وَطَنْفَسَةٍ^(١) مِنَ الْجَنَّةِ، فَأَلْبَسَهُ الْقَمِيصَ وَأَقْعَدَهُ عَلَى الطَنْفَسَةِ، وَقَعَدَ مَعَهُ يَحْدُثُهُ تَمَامَ الْخَبَرِ». وقال كعب: ما أحرقت النار من إبراهيم عليه السلام غير وثاقه، وقيل: إن إبراهيم عليه السلام أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَهُوَ ابْنُ سِتْ عَشْرَةَ سَنَةً. ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ معناه: أن الكفار أرادوا بإبراهيم عليه السلام كيداً أي: شراً وتديباً في إهلاكه. ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ قال ابن عباس: هو أن سلط الله على نمرود وخيله البعوض، حتى أخذت لحومهم وشربت دماءهم، ووقعت واحدة في دماغه حتى أهلكته. والمعنى: أنهم كادوه، أرادوا أن يكيدوه سوء، فانقلب عليهم ذلك.



قوله تعالى: ﴿وَبَخَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَخَّيْنَاهُ مِنَ الْقُرْبَىٰ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْقِينَ﴾ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) ﴿

● **اللغة:** النافلة: العطية الخاصة. والنفل: النفع الذي يجزى الحمد فيما زاد على حد الواجب. ومنها: النافلة للصلاة وهي الفضل على الفرائض. وقيل: النافلة: الغنيمة. قال الشاعر:

الله نافلة الأعز الأفضل^(٢)

● **الإعراب:** ﴿نَافِلَةً﴾ نصب على الحال من ﴿يَعْقُوبَ﴾، وقيل: إنه نصب على المصدر من ﴿وَوَهَبْنَا﴾ وتقديره: وهبنا له هبة. و﴿يَهْدُونَ﴾ صفة لأئمة، ومفعولاه محذوفان تقديره: يهدون الناس الطريق. وحذف التاء من إقامة، لأن الإضافة عوض عنها، ولا يجوز ذلك في غير الإضافة. لا يقال أقام إقاماً، كما يقال إقامة. و﴿لُوطًا﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره هذا الظاهر، تقديره: وآتيناه لوطاً آتيناه إلا أنه إذا ذكر المحذوف لم يذكر الموجود، والنصب في

(١) الطنفسة: البساط. الحصر.

(٢) هذا عجز بيت للبيد بن ربيعة.

سورة الأنبياء

﴿لَوْطًا﴾ أحسن لتكون الجملة فعلية معطوفة على جملة فعلية. و﴿فَسِيقِينَ﴾: يجوز أن يكون منصوباً بكونه صفة لـ ﴿قَوْمَ سَوَءٍ﴾، ويجوز أن يكون خبراً لكان، ويكون خبراً بعد خبر.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه تمام نعمته على إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ أي: من نمرود وكيد، والمعنى: ورفعناه ﴿وَلُوطًا﴾ من الهلكة، وهو ابن أخي إبراهيم، فأمن به ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ اختلف فيها فقيل: هي أرض الشام، أي: نجيناه من كوثى إلى الشام عن قتادة قال: وإنما قال ﴿بَارَكْنَا فِيهَا﴾ لأنها بلاد خصب، وقيل: إلى أرض بيت المقدس لأن بها مقام الأنبياء، عن الجبائي. وقيل: نجاهما إلى مكة كما قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ عن ابن عباس. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ أي: وهبنا لإبراهيم إسحاق حين سأل الولد فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال ابن عباس وقتادة: نافلة راجع إلى يعقوب، فإنه زاده من غير دعاء، فهو نافلة، وقيل: إنه راجع إلى إسحاق ويعقوب جميعاً لأنه أعطاهما إياه من غير جزاء ولا استحقاق، عن مجاهد. ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب صالحين للنبوة والرسالة، وقيل: معناه حكمنا بكونهم صالحين، وهو غاية ما يوصف به من الثناء الجميل. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾ يقتدى بهم في أفعالهم وأقوالهم، ﴿يَهْدُونَ﴾ الخلق إلى طريق الحق وإلى الدين المستقيم ﴿يَأْمُرُونَ﴾ فمن اهتدى بهم في أقوالهم وأفعالهم، فالنعمة لنا عليه. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ قال ابن عباس: شرائع النبوة ﴿وِإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ أي: إقامة الصلاة وإعطاء الزكاة ﴿وَكَاوُوا لَنَا عبيدِينَ﴾ أي: مخلصين في العبادة ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ومعناه: وأعطينا لوطاً حكمة وعلماً، وقيل: الحكم النبوة، وقيل: هو الفصل بين الخصوم بالحق، أي: جعلناه حاكماً وعلمناه ما يحتاج إلى العلم به. ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ التي كانت تفعل للفتنة وهي قرية «سدوم» على ما روي. والخباثات التي كانوا يعملونها هي أنهم كانوا يأتون الذكران في أديارهم، ويتضارطون في أدينتهم. وقيل: هي ما حكى الله تعالى: ﴿إِنِّي كُنْتُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ وغير ذلك من القبائح. وأراد بالقرية أهلها. ثم ذمهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ فَسِيقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله تعالى ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي: في نعمتنا ومننتنا ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: بسبب أنه من الصالحين الذين أصلحوا أفعالهم فعملوا بما هو الحسن منها دون القبيح، وقيل: أراد بكونه من الصالحين أنه من الأنبياء.



قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) ونصرته من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين (٧٧) وداود وسليمان إذ يحكمان في الحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) ففهمناها سليمان وكلاً ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا

مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالِ يُسَيِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ .

القراءة: قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص، عن عاصم وروح وزيد عن يعقوب: «لتحصنكم»
بالتاء، وقرأ أبو بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب: «لتحصنكم» بالنون، والباقون: «ليحصنكم»
بالياء.

● **الحجة:** من قرأ بالياء فيجوز أن يكون الفاعل اسم الله لتقدم قوله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾. ويجوز أن يكون اللباس، لأن اللبوس بمعنى اللباس. ويجوز أن يكون داود. ومن قرأ بالتاء حملة على المعنى، لأن الدرع مؤنث، ومن قرأ بالنون: فلتقدم قوله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾.

● **اللغة:** النفس بفتح الفاء وسكونها: أن تنتشر الإبل والغنم بالليل، فترعى بلا راع. ويقال: غنم نفاش وإبل نفاش، واللبوس: اسم للسلاح كله عند العرب درعاً، أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً. قال الهذلي يصف رمحاً:

وَمَعِيَ لَبُوسٌ لِّلْبَئِيسِ كَأَنَّهُ رِزْقٌ بِجَنبِهِ ذِي نِعَاجٍ مُّجْفِلٍ^(١)

وقيل: هو كل ما يلبس من ثياب ودرع. وقيل: هو الدرع، وأصل اللباس من الاختلاط، ومنه سميت المرأة لباساً، وسمي الليل لباساً، لأنه يباشر الناس بظلمته. والإحصان: الإحراز، وأصله من المنع.

● **الإعراب:** ﴿وَتُوبًا﴾: معطوف على قوله ﴿وَلُوطًا﴾، وقوله ﴿إِذْ نَفَسَتْ﴾ ظرف لقوله ﴿يَخْرُجُكُمَا﴾، وقوله ﴿وَكُنَّا لَكُمْ فِيهِمْ شَهِيدِينَ﴾ يجوز أن يكون في موضع الجر بالعطف على ﴿يَخْرُجُكُمَا﴾ أي: وقت حكمهما في الحرث وكوننا شاهدين له. ويجوز أن يكون في موضع نصب على الحال. ﴿وَكُلًّا﴾ منصوب لأنه مفعول أول لآتيناً. ﴿وَكُكْمًا﴾ مفعول ثان له. ﴿يُسَيِّحْنَ﴾ في موضع نصب على الحال من الجبال، ﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطف على الجبال، ويجوز أن يكون مفعولاً معه وتقديره: يسبحن مع الطير، فيكون الواو بمعنى مع.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه قصة نوح وداود على قصة إبراهيم عليه السلام ولوط فقال: ﴿وَتُوبًا إِذْ كَادَى﴾ أي: دعا ربه فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾، وقال: ﴿إِنِّي مَقْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾، وغير ذلك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل إبراهيم ولوط ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ﴾ أي: أجبناه إلى ما التمسهُ ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي: من الغم الذي يصل حرّاً إلى القلب، وهو ما كان يلقاه من الأذى طول تلك المدة، وتحمل الاستخفاف من السقاط من أعظم الكرب، ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: منعناه منهم بالنصرة حتى لم يصلوا إليه بسوء، وقيل: معناه نصرناه على القوم. ومن بمعنى على، عن أبي عبيدة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ صغارهم وكبارهم وذكورهم وإناثهم ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْرُجُ فِي الْحَرْثِ إِذْ

(١) الروق: القرن من كل ذي قرن. والمجفل: المسرع شبه رمحه بقرن الثور الوحشي.

سورة الأنبياء

فَنَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴿١٠٠﴾ أَي: وآتينا داود وسليمان حكماً وعِلْماً إذ يحكمان، وقيل تقديره: واذكر داود وسليمان حين يحكمان في الحرث في الوقت الذي نفشت فيه غنم القوم، أي: تفرقت ليلاً. ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ أي: بحكمهم عالمين لم يغب عنا منه شيء. وإنما جمع في موضع التثنية لإضافة الحكم إلى الحاكم وإلى المحكوم لهم، وقيل: لأن الاثنين جمع فهو مثل قوله: ﴿إِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ وهو يريد أخوين.

واختلف في الحكم الذي حكما به، فقيل: إنه زرع وقعت فيه الغنم ليلاً فأكلته، عن قتادة، وقيل: كان كرمًا وقد بدت عناقيده، فحكم داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله. قال: وما ذاك؟ قال: يدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، ويدفع الغنم إلى صاحب الكرم، فيصيب منها حتى إذا عاد الكرم كما كان، ثم دفع كل واحد منهما إلى صاحبه ماله، عن ابن مسعود، وزُوي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام. وقال الجبائي: أوحى الله تعالى إلى سليمان بما نسخ به حكم داود الذي كان يحكم به قبل، ولم يكن ذلك عن اجتهاد، لأنه لا يجوز للأنبياء أن يحكموا بالاجتهاد، وهذا هو الصحيح المعول عليه عندنا. وقال علي بن عيسى والبلخي: يجوز أن يكون ذلك عن اجتهاد، لأن رأى النبي أفضل من رأي غيره، فإذا جاز التعبد بالتزام حكم غير النبي من طرق الاجتهاد. فكيف يمنع من حكم النبي على هذا الوجه. والذي يدل على صحة القول الأول أن النبي إذا كان يوحى إليه، وله طريق إلى العلم بالحكم، فلا يجوز أن يحكم بالظن، على أن الحكم بالظن والاجتهاد والقياس قد بين أصحابنا في كتبهم أنه لم يتعبد بها في الشرع، إلا في مواضع مخصوصة. ورد النص بجواز ذلك فيها، نحو قيم المتلفات، وأروش الجنائيات، وجزاء الصيد، والقبلة، وما جرى هذا المجرى. وأيضاً فلو جاز للنبي ﷺ أن يجتهد، لجاز لغيره أن يخالفه كما يجوز للمجتهدين أن يختلفوا، ومخالفة الأنبياء تكون كفراً. هذا وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَا يَطُوقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فأخبر سبحانه أنه إنما ينطق عن جهة الوحي. ويقوي ما ذكرناه قوله تعالى ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أي: علمناه الحكومة في ذلك. وقيل: إن سليمان قضى بذلك وهو ابن إحدى عشرة سنة. وزُوي عن النبي ﷺ أنه قضى بحفظ المواشي على أربابها ليلاً، وقضى بحفظ الحرث على أربابه نهاراً، ﴿وَكُنَّا لآيَاتِنَا حُكَّامًا وَعِلْمًا﴾ أي: وكل واحد من داود وسليمان أعطياه حكمة. وقيل: معناه النبوة وعلم الدين والشرع. ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ قيل: معناه سيرنا الجبال مع داود حيث سار، فعبر عن ذلك بالتسبيح لما فيه من الآية العظيمة التي تدعو إلى تسبيح الله وتعظيمه وتنزيهه عن كل ما لا يليق به، وكذلك تسخير الطير له تسبيح، يدل على أن مسخرها قادر، لا يجوز عليه ما يجوز على العباد، عن الجبائي وعلي بن عيسى، وقيل: أن الجبال كانت تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير يسبح معه بالغداة والعشي معجزة له، عن وهب. ﴿وَكُنَّا فَعَلِينَ﴾ أي: قادرين على فعل هذه الأشياء ففعلناها دلالة على نبوته، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي: علمناه كيف يصنع الدرع، قال قتادة: أول من صنع الدرع داود ﷺ، وإنما كانت صفائح جعل الله سبحانه الحديد في يده كالعجين، فهو أول من سردها وحلقها، فجمعت الخفة والتحصين، وهو قوله ﴿لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ

بَأْسِكُمْ ﴿١٧﴾ أي: ليحرزكم ويمنعكم من وقع السلاح فيكم، عن السدي، وقيل: معناه من حربكم أي: في حالة الحرب والقتال، فإن البأس في اللغة هو شدة القتال. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ لنعم الله تعالى عليكم وعلى أنبيائه قبلكم، وهذا تقرير للخلق على شكره، فإن إنعامه على الأنبياء إنعام على الخلق. وقيل: إن سبب إلالة الحديد لداود عليه السلام أنه كان نبياً ملكاً، يطوف في ولايته متكرراً يتعرف أحوال عماله ومتصرفيه، فاستقبله جبرائيل ذات يوم على صورة آدمي، فسلم عليه فرد عليه السلام وقال: ما سيرة داود؟ فقال: نعمت السيرة لولا خصلة فيه! قال: وما هي؟ قال: إنه يأكل من بيت مال المسلمين. فشكره وأثنى عليه وقال: لقد أقسم داود أنه لا يأكل من بيت مال المسلمين. فعلم الله سبحانه صدقه فالأن له الحديد. كما قال: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾. وَرُوي أن لقمان الحكيم حضره، فرآه يفعل ذلك، فصبر ولم يسأله حتى فرغ من ذلك، فقام ولبس وقال: نعمت الجنة للحرب. فقال لقمان: الصمت حكمة، وقليل فاعله.



قوله تعالى: ﴿وَلَسُلَيْمَنَّ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُم مَّحْفُوظِينَ ﴿٨٢﴾ وَالنُّورَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْكَعِلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلًّا مِّنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

● **اللغة:** الريح: هو الجو يشتد تارة ويضعف تارة، وهي جسم لطيف منعش، يمتنع بلطفه من القبض عليه، ويظهر للحس بحركته. والعصف: شدة حركة الريح، عصفت تعصف عصفاً وعصفواً: إذا اشتدت، والعصف: التبن، لأن الريح تعصفه بتطيرها له.

● **الإعراب:** ﴿وَلَسُلَيْمَنَّ﴾ اللام يتعلق بـ ﴿سَخَرْنَا﴾. والتقدير: وسخرنا لداود الجبال وسخرنا لسليمان الريح. ﴿عَاصِفَةً﴾ نصب على الحال ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ في موضع الحال أيضاً، فهو حال بعد حال. ويحتمل أن يكون حالاً عن الحال التي هي عاصفة. ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ عطف على الريح. ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ﴾ في موضع نصب على الحال من سخرنا. وذو الحال ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾، ويجوز أن يكون حالاً من يغوصون له، وذو الحال الواو. و﴿مَعَهُمْ﴾ في موضع نصب على أنه صفة بعد صفة تقديره: وأهلاً مثلهم كائنين معهم، وانتصب ﴿رَحْمَةً﴾ بأنه مفعول له.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه بقصة سليمان على ما تقدم ﴿وَلَسُلَيْمَنَّ الرِّيحَ﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح ﴿عَاصِفَةً﴾ أي: شديدة الهبوب، قال ابن عباس: إذا أراد أن تعصف الريح عصفت، وإذا أراد أن ترخي أرخت، وذلك قوله: ﴿رُحَّةً حَيْثُ أَصَابَ﴾. ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ أي: بأمر سليمان ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض الشام، لأنها كانت مأواه وقد سبق ذكرها في

سورة الأنبياء

هذه السورة. وقيل: كانت الريح تجري في الغداة مسيرة شهر، وفي الرواح كذلك، وكان يسكن بعلبك، ويبنى له بيت المقدس، ويحتاج إلى الخروج إليها وإلى غيرها. وقال وهب: وكان سليمان يخرج إلى مجلسه فتعكف عليه الطير، ويقوم له الجن والإنس حتى يجلس على سريره، ويجتمع معه جنوده، ثم تحمله الريح إلى حيث أراد. ﴿وَكُنَّا يَكُلُّ شَيْءٍ عَالِيَيْنَ﴾ فإنما أعطيناه ما أعطيناه لما علمناه من المصلحة. ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي: وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في البحر فيخرجون له الجواهر واللاآلىء. والغوص: النزول إلى تحت الماء. ﴿وَيَقْمَرُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: سوى ذلك من الأبنية كالمحارب والتمائيل وغيرهما. ﴿وَكُنَّا لَهُمُ حَافِظِينَ﴾ لئلا يهربوا منه ويمتنعوا عليه. وقيل: يحفظهم الله من أن يفسدوا ما عملوه، عن الفراء والزجاج.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أي: واذكر يا محمد أيوب حين دعا ربه لما امتدت المحنة به. ﴿إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ أي: نالني الضر وأصابني الجهد. ﴿وَأَنْتَ أَزْكَمُ الْأَرْهَمِينَ﴾ أي: ولا أحد أرحم منك، وهذا تعريض منه بالدعاء لإزالة ما به من البلاء، وهو من لطيف الكنايات في طلب الحاجات، ومثله قول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. ﴿فَأَنصَبْنَا لَهُ﴾ أي: أجبنا دعاءه ونداءه. ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ أي: أنزلنا ما به من الأوجاع والأمراض. ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِنْهُمُ مَّعَهُ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود: ردَّ الله سبحانه عليه أهله الذين هلكوا بأعيانهم، وأعطاه مثلهم معهم وكذلك ردَّ الله عليه أمواله ومواشيه بأعيانها، وأعطاه مثلها معها، وبه قال الحسن وقتادة وهو المزوي عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: إنه خير أيوب فاختار إحياء أهله في الآخرة، ومثلهم في الدنيا، فأوتيت على ما اختار، عن عكرمة ومجاهد. قال وهب: وكان له سبع بنات وثلاثة بنين، وقال ابن يسار: سبعة بنين وسبع بنات. ﴿رَحْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا﴾ أي: نعمة منا عليه. ﴿وَنُذَكِّرُ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: موعظة لهم في الصبر والانقطاع إلى الله تعالى والتوكل عليه، لأنه لم يكن في عصر أيوب أحد أكرم على الله منه، فابتلاه بالمحن العظيمة، فأحسن الصبر عليها. فينبغي لكل عاقل إذا أصابته محنة أن يصبر عليها، ولا يجزع، ويعلم أن عاقبة الصبر محمودة.

﴿وَأِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ أي: واذكر هؤلاء الأنبياء، وما أنعمت عليهم من فنون النعمة. ثم قال: ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ صبروا على بلاء الله والعمل بطاعته، فأما إسماعيل فإنه صبر ببلد لا زرع به ولا ضرع، وقام ببناء الكعبة. وأما إدريس فإنه صبر على الدعاء إلى الله، وكان أول من بعث إلى قومه فدعاهم إلى الدين فأبوا، فأهلكهم الله تعالى ورفعهم إلى السماء السادسة، وأما ذو الكفل فاختلف فيه فقيل: إنه كان رجلاً صالحاً ولم يكن نبياً، ولكنه تكفل لنبي بصوم النهار وقيام الليل، وأن لا يغضب ويعمل بالحق، فوفى بذلك، فشكر الله ذلك له، عن أبي موسى الأشعري وقتادة ومجاهد. وقيل: هو نبي اسمه ذو الكفل، عن الحسن، قال: ولم يقص الله خبره مفصلاً. وقيل: هو إلياس، عن ابن عباس. وقيل: كان نبياً وسمي ذا الكفل بمعنى أنه ذو الضعف، فله ضعف ثواب غيره ممن هو في زمانه، لشرف عمله، عن الجبائي. وقيل: هو اليسع بن خطوب الذي كان مع إلياس، وليس اليسع الذي ذكره الله في القرآن، تكفل لملك جبار إن هو تاب دخل الجنة ودفع إليه كتاباً بذلك فتاب الملك، وكان اسمه كنعان فسمي ذا

الكفل. والكفل في اللغة هو الخط. وفي كتاب النبوة بالإسناد عن عبد العظيم بن عبد الله الحسيني قال: كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام، أسأله عن ذي الكفل وما اسمه، وهل كان من المرسلين، فكتب عليه السلام: إن الله بعث مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي، المرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وإن ذا الكفل منهم، وكان بعد سليمان بن داود عليه السلام، وكان يقضي بين الناس كما يقضي داود عليه السلام، ولم يغضب قط إلا الله تعالى، وكان اسمه عدوياً بن أدارين. ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي: وأدخلنا هؤلاء الذين ذكرناهم من الأنبياء في نعمتنا، وأراد: غمرناهم بالرحمة، ولو قال: رحمتناهم، لما أفاد ذلك بل أفاد أنه فعل بهم الرحمة. ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: إنما أدخلناهم في رحمتنا لأنهم كانوا ممن صلحت أعمالهم.



قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب: «ظن أن لن يقدر» بضم الباء، والباقون: «نقدر» بالنون وكسر الدال، وقرأ ابن عامر وأبو بكر: «نجى» بنون واحدة وتشديد الجيم، والباقون: «ننجي» بالنونين.

● **الحجة:** قوله ﴿أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أن هذه مخففة من الثقيلة، وتقديره: ظن أنه لن يقدر عليه أي: لن نصيق عليه. ومن قرأ «لن يقدر عليه» فهو مثل الأول في المعنى، بني الفعل للمفعول به، وأقيم الجار والمجرور مقام الفاعل. ومن قرأ «نجي المؤمنين» بنون واحدة، قال أبو بكر السراج: هو وهم لأن النون لا تدغم في الجيم، وإنما خفيت لأنها ساكنة تخرج من الخياشيم، فحذفت في الكتابة، وهي في اللفظ ثابتة. قال أبو علي: والقول في ذلك: إن عاصماً ينبغي أن يكون قرأ بنونين، وأخفى الثانية، فظن السامع أنه مدغوم، وكذلك غيره.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه قصة يونس عليه السلام فقال: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ أي: واذكر ذا النون، والنون: الحوت، وصاحبها يونس بن متى ﴿إِذْ ذَهَبَ﴾ أي: حين ذهب ﴿مُغْضِبًا﴾، لقومه، عن ابن عباس والضحاك، أي: مراغماً لهم من حيث إنه دعاهم إلى الإيمان مدة طويلة، فلم يؤمنوا حتى أوعدهم الله بالعذاب، فخرج من بينهم مغاضباً لهم قبل أن يؤذن له ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: لن نصيق عليه، عن عطاء وجماعة من المفسرين، وقيل: ظن أن لن نقضي عليه ما قضيناه، والقدر بمعنى القضاء، عن مجاهد وقتادة والكلبي والجبائي، قال الجبائي: ضيق الله عليه

سورة الأنبياء

الطريق حتى ألجأه إلى ركوب البحر، ثم كذف فيه فابتلعه السمكة. ومن قال: إنه خرج مغاضباً لربه وأنه ظن أن لن يقدر الله على أخذه بمعنى أنه يعجز عنه فيه، فقد أساء الثناء على الأنبياء، فإن مغاضبة الله كفر أو كبيرة عظيمة، وتجوز العجز على الله سبحانه كذلك، فكيف يجوز ذلك على نبي من أنبياء الله تعالى. وقال ابن زيد: إنه استفهام معناه التوبيخ، وتقديره: فظن أن لن نقدر عليه. وأنكره علي بن عيسى وقال: لا يجوز حذف الاستفهام من غير دليل عليه. وقد جاء في كلام العرب حذفه على خلاف ما قاله. أنشد النحويون قول عمر بن أبي ربيعة:

نُمُّ قالوا: تحبُّها قُلْتُ بَهْرًا عَدَدَ الْقَطْرِ وَالْحَصَى وَالشَّرَابِ^(١)

أي: أتحبها؟ ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ قيل: إنها ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، عن ابن عباس وقتادة، وقيل: كان حوت في بطن حوت، عن سالم بن أبي الجعد. ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ لما أراد السؤال والدعاء، قدم ذكر التوحيد والعدل ثم قال: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: من الذين يقع منهم الظلم، وإنما قاله على سبيل الخشوع والخضوع، لأن جنس البشر لا يمتنع منه وقوع الظلم. قال الجبائي: لم يكن يونس في بطن الحوت على جهة العقوبة من الله تعالى، لأن العقوبة عداوة للمعاقب، لكن كان ذلك على وجه التأديب، والتأديب يجوز للمكلف، وغير المكلف كتأديب الصبي وغيره، وبقاؤه في بطن الحوت حياً معجزة له ﴿فَأَسَجَّجْنَا لَهُ وَجِجْنَهُ مِنَ النَّارِ﴾ أي: من بطن الحوت ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ننجيهم إذا دعونا به، كما أنجينا ذا النون.

ثم قال سبحانه: ﴿وَزَكَرِيَّا﴾ أي: واذكر زكريا ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ ودعاه يا ﴿رَبِّ﴾. ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ بغير وارث ولا ولد يعينني على أمر الدين والدنيا في حياتي، ويرثني بعد وفاتي. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ هذا ثناء على الله سبحانه بأنه الباقي بعد فناء خلقه، وأنه خير من بقي حياً بعد ميت، وأن الخلق كلهم يموتون ويبقى هو سبحانه. ﴿فَأَسَجَّجْنَا لَهُ وَجِجْنَهُ مِنَ النَّارِ﴾ روى الحرث بن المغيرة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني من أهل بيت قد انقضوا، وليس لي ولد؟ فقال: ادع وأنت ساجد: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، قال: ففعلت فولد لي علي والحسين. ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ بأن كانت عقيمة فجعلناها ولوداً، عن قتادة، وقيل: كانت هرة فردنا عليها شباها، عن أبي مسلم، وقيل: كانت سيئة الخلق فجعلناها حسنة الخلق. ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني زكريا ويحيى. وقيل: معناه أن الأنبياء الذين تقدم ذكرهم ﴿كَانُوا يُسْعِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: يبادرون إلى الطاعات والعبادات ﴿وَيَدْعُونَكَ رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ أي: للرجبة والرهبة: رغبة في الثواب ورهبة من العقاب، وقيل: راغبين وراهبين، عن الضحاك، وقيل: رغباً بيطون الأكف، ورهباً بظهور الأكف. ﴿وَكَاوُوا لَنَا خُشُوعِينَ﴾ أي: متواضعين، عن ابن عباس، وقيل: الخشوع المخافة الثابتة في القلب، عن الحسن، وقيل: معناه أنهم قالوا حال النعمة: «اللهم لا تجعلها

(١) قوله «بهرًا» أي: بهرني بمعنى غلبني غلبة أي: أحباها حباً بهرني بهراً.

استدراجاً»، وحال السيئة: «اللهم لا تجعلها عقوبة بذنب سلف منا». وفي قوله سبحانه ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ دلالة على أن المسارعة إلى كل طاعة مرغّب فيها، وعلى أن الصلاة في أول الوقت أفضل.



قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَزَحْجَهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَنَقُطِعْ أَمْرَهُمْ بِآيَتِهِمْ كُلُّ إِلَهِنَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَى قَرِيَةِ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: «وَحَرَّمَ» بكسر الحاء بغير ألف، والباقيون: «وحرام»، وهو قراءة الصادق عليه السلام. وفي الشواذ قراءة الحسن وابن أبي إسحاق: «أمة واحدة» بالرفع، وقرأ ابن عباس وقتادة: «وَحَرَّمَ» وفي رواية أخرى عن ابن عباس: «وَحَرَّمَ» وهي قراءة عكرمة وأبي العالية.

● **الحجة:** قال أبو علي: حُزِمَ وحرام لغتان، وكذلك حل وحلال، وكل واحد من حرم وحرام إن شئت رفعته بالابتداء لاختصاصه بما جاء بعده من الكلام، وخبره محذوف وتقديره: وحرام على قرية أهلكتها بأنهم لا يرجعون، مقضي أو ثابت أو محكوم عليه. وإن شئت جعلته خبر مبتدأ محذوف، وجعلت لا زائدة. والمعنى: حرام على قرية أهلكتها رجوعهم، كما قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾. وإن شئت جعلته خبر مبتدأ وأضمرت مبتدأ كما ذكرت، ويكون المعنى: حرام على قرية أهلكتها بالاستئصال رجوعهم لأنهم لا يرجعون، وتكون لا غير زائدة. والمعنى: حرام عليهم أنهم ممنوعون من ذلك، وقال الزجاج: تقديره وحرام على قرية أهلكتها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون، أي: لا يتوبون أبداً، كما قال سبحانه: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الآية. فعلى هذا يكون حرام خبر مبتدأ محذوف، وهو قوله: أن يتقبل منهم عمل. و﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ في موضع نصب لأنه مفعول له. فأما من قرأ «جرم على قرية» فإنه من حرم فهو حرم أي: قمر ماله، قال زهير:

وإن أتاه خليل يوم مسغبة يقول لا غائب مالي ولا حرم^(١)

وأما حَرَمَ فمعناه ظاهر. ومن قرأ «أمة» بالرفع جعله بدلاً من «أُمَّتُكُمْ»، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر. و﴿أُمَّةً﴾ منصوبة على الحال، والعامل فيها معنى الإشارة. وذو الحال الأمة الأولى، وفي الحقيقة الحال الأولى قوله ﴿وَاحِدَةً﴾ التي هي صفة الأمة. كقوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ والتقدير: أن هذه أمتكم أمة واحدة أي: مجتمعة غير متفرقة.

(١) قوله «خليل» يعني به المحتاج الفقير المختل الحال. و«مسغبة» بمعنى المجاعة. يصف رجلاً بالجوْد.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم بقصة عيسى عليه السلام فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَزَحَهَا﴾ يعني: مريم ابنة عمران، أي: واذكر مريم التي حفظت فرجها وحصنته وعفت وامتنعت من الفساد ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ أي: أجرينا فيها روح المسيح كما يجري الهواء بالنفخ، فأضاف الروح إلى نفسه على وجه الملك، تشريفاً له في الاختصاص بالذكر. وقيل: إن معناه أمرنا جبرائيل فنفخ في جيب درعها، فخلقنا المسيح في رحمها. ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ إنما قال آية ولم يقل آيتين، لأنه في موضع دلالة فلا يحتاج إلى أن تثني، الآية فيهما أنها جاءت به من غير فعل، فتكلم في المهد بما يوجب براءة ساحتها من العيب. ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: هذا دينكم واحد، عن ابن عباس ومجاهد والحسن، وأصل الأمة الجماعة التي على مقصد واحد، فجعلت الشريعة أمة واحدة لاجتماعهم بها على مقصد واحد، وقيل: معناه جماعة واحدة في أنها مخلوقة مملوكة لله تعالى، أي: فلا تكونوا إلا على دين واحد، وقيل: معناه هؤلاء الذين تقدم ذكرهم من الأنبياء، فريقكم الذي يلزمكم الاقتداء بهم في حال اجتماعهم على الحق، كما يقال: هؤلاء أمتنا، أي: فريقنا وموافقونا على مذهبنا. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ الذي خلقكم ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ ولا تشركوا بي شيئاً.

ثم ذكر اليهود والنصارى بالاختلاف فقال: ﴿وَنَقُطِعْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرّقوا دينهم فيما بينهم، يلعن بعضهم بعضاً ويتبرأ بعضهم من بعض، عن الكلبي وابن زيد، والتقطع هذا بمنزلة التقطيع. ثم قال مهدداً لهم: ﴿كُلُّ إِلَهِنَا رَجُومٌ﴾ أي: كل ممن اجتمع وافترق راجع إلى حكمنا في الوقت الذي لا يقدر فيه على الحكم سوانا، فنجازيهم بأعمالهم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ أُذْيَةٍ﴾ التقدير: فمن يعمل من الصالحات شيئاً، مثل صلة الرحم ومعونة الضعيف ونصر المظلوم والتنفيس عن المكروب، وغير ذلك من أنواع الطاعات، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط الإيمان، لأن هذه الأشياء لو فعلها الكافر لم ينتفع بها عند الله تعالى، ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدٍ﴾ أي: فلا جحود لإحسانه في عمله بل يشكر ويثاب عليه. ﴿وَإِنَّا لَمَكِينُونَ﴾ أي: نأمر ملائكتنا أن يكتبوا ذلك ويثبتوه فلا يضيع منه شيء، وقيل: كاتبون أي: ضامنون جزاءه حتى نوفر على عاملها مجموعها، ومنه الكتيبة: لأنه ضم رجال إلى رجال. ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرَبَيْهِ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: أن ﴿لَا﴾ مزيدة، والمعنى: حرام على قرية مهلكة بالعقوبة أن يرجعوا إلى دار الدنيا عن الجبائي. وقيل: إن معناه واجب عليها أنها إذا أهلكت لا ترجع إلى دنياها، عن قتادة وعكرمة والكلبي، قال عطاء: يريد حتم مني، والمراد: أن الله تعالى كتب على من أهلك أن لا يرجع إلى الدنيا قضاء منه حتماً. وفي ذلك تخويف لكفار مكة بأنهم إن عذبوا وأهلكوا لم يرجعوا إلى الدنيا كغيرهم من الأمم المهلكة، وقد جاء الحرام بمعنى الواجب في شعر الخنساء:

وَأَنْ حَرَاماً لَا أَرَى الدُّهْرَ بَاكِياً عَلَى شَجْوَةٍ إِلَّا بَكَيْتُ عَلَى صَخْرٍ^(١)

(١) الشجوة: الحزن. وفي نسخة مخطوطة وكذا في اللسان «على عمرو» مكان «على صخر» ونسب البيت في اللسان إلى عبد الرحمن المحارب.

وثانيها: أن معناه حرام على قرية وجدناها هالكة بالذنوب، أن يتقبل منهم عمل، لأنهم لا يرجعون إلى التوبة.

وثالثها: أن معناه حرام أن لا يرجعوا بعد الممات، بل يرجعون أحياء للمجازاة، عن أبي مسلم. وروى محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال: كل قرية أهلكها الله بعذاب، فإنهم لا يرجعون.



قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا فَتَحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦) وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بَيُولْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب: «فتحت» بالتشديد، والباقون بالتخفيف. وقد ذكرنا اختلافهم في يأجوج ومأجوج في سورة الكهف. وفي الشواذ قراءة ابن مسعود: «من كل حدث»، وقراءة ابن السميع: «حطب جهنم» ساكنة الصاد، وقراءة ابن عباس: «حضب» بالضاد مفتوحة، وقراءة علي (عليه السلام) وعائشة وابن الزبير وأبي بن كعب وعكرمة: «حطب» بالطاء.

● **الحجة:** من خُفِّ «فتحت» فلأن الفعل في الظاهر مسند إلى هذين الاسمين، وأراد فتح سد يأجوج ومأجوج، ومن شدد، حملة على الكثرة، فهو مثل «مُنْفَعَةٌ لَهُمُ الْأَنْبُؤُ»، والجدث: القبر بلغة أهل الحجاز. والجذف بالفاء بلغة تميم. وفي الحطب لغات، وحطب وحصب بالصاد، وخضب بالضاد، ولا يقال حصب بالصاد إلا إذا أُلْقِيَ في التنور أو في الموقد. وقال أحمد بن يحيى: أصل الحصب الرمي، حطباً كان أو غيره. قال الأعشى:

فَلَا تَكُ فِي حَزِينِنَا مُخْصِباً لِيَجْعَلَ قَوْمَكَ شَتَّى شُعُوباً^(١)

فأما الحصب ساكناً بالصاد والضاد فالطرح، فهو مصدر وقع موقع اسم المفعول كالخلق والصيد بمعنى المخلوق والمصيد.

● **اللغة:** الحذب: الارتفاع من الأرض بين الانخفاض، والحدبة: خروج الظهر،

(١) الإحصاب: إثارة الحياء وهو كناية عن إثارة الفتنة.

ورجل أحذب. والنسول: الخروج عن الشيء الملابس يقال: نسل ينسل وينسل. قال امرؤ القيس:

فإن يك قد ساءتلك مني خليفة فسلّي ثيابي من ثيابك تنسلي^(١)

ونسول ريش الطائر: إذا سقط. وقيل: النسول الخروج بإسراع نحو نسلان الذئب، قال:

نسلان الذئب أمسى قارباً برّد الليل عليه فنسل

وشخص المسافرين شخوصاً: إذا خرج من منزله وشخص من بلد إلى بلد، وشخص بصره: إذا نظر إليه كأنه خرج إليه، والحسيس والحس: الحركة.

● **الإعراب:** ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ﴾ قال الفراء: معنى الواو الطرح، والمعنى: إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق. قال الزجاج: الواو لا يجوز أن يطرح عند البصريين، وجواب إذا عندهم قوله: ﴿يَتَوَلَّوْنَا﴾ وههنا قول محذوف أي: قالوا يا ويلنا. وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ﴾ إذا ظرف مكان والعامل فيه ﴿شَخِصَةٌ﴾ وهي ضمير القصة في محل رفع بالابتداء و﴿أَبْصُرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مبتدأ آخر. و﴿شَخِصَةٌ﴾ خبر مقدم. والجملة خبر هي. وقيل: إن تمام الكلام عند قوله هي وتقديره: فإذا هي بارزة واقعة، يعني أنها من قريبا كأنها وقعت. ثم ابتداء فقال: ﴿شَخِصَةٌ أَبْصُرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على تقديم الخبر على المبتدأ.

● **المعنى:** لما تقدم أنهم لا يرجعون إلى الدنيا، وعدهم بالرجوع إلى الآخرة وبين علامة ذلك، فقال: ﴿حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أي: فتحت جهتهم، والمعنى: انفرج سد يأجوج ومأجوج بسقوط أو هدم أو كسر، وذلك من أشرار الساعة. ﴿وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ أي: وهم - يريد يأجوج ومأجوج - من كل نشز من الأرض يسرعون، عن قتادة وابن مسعود والجبائي وأبي مسلم، يعني أنهم يتفرقون في الأرض فلا ترى أكمة إلا وقوم منهم يهبطون منها مسرعين، وقيل: إن قوله هم كناية عن الخلق، يخرجون من قبورهم إلى الحشر، عن مجاهد. وكان يقرأ: «من كل جدث» يعني القبر، ويدل عليه قوله ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾. ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ أي: الموعود الصدق، ومعناه: اقترب قيام الساعة ﴿فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصُرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معناه: فإذا القصة أن أبصار الذين كفروا تشخص في ذلك اليوم، أي: لا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم وهوله ينظرون إلى تلك الأهوال، عن الكلبي. ﴿يَتَوَلَّوْنَا﴾ أي: يقولون: ﴿يَتَوَلَّوْنَا﴾ ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ اشتغلنا بأمور الدنيا وغفلنا عن هذا اليوم فلم نتفكر فيه ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بأن عصينا الله تعالى، وعبدنا غيره. ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام ﴿حَصْبٌ جَهَنَّمَ﴾ أي: وقودها، عن ابن عباس، وقيل: حطبها، عن مجاهد وقاتدة وعكرمة، وأصل الحصب: الرمي، فالمراد: أنهم يرمون فيها كما يرمي بالحصباء، عن الضحاك وأبي مسلم.

(١) كان امرؤ القيس مفركاً لا تحبه النساء، ولا تكاد امرأة تصبر معه، يخاطب في هذا البيت امرأة ويقول لها: إن ساءت خلقي فانزعي نفسي من نفسك.

ويسأل على هذا فيقال: إن عيسى عليه السلام قد عبد، والملائكة قد عبدوا؟ والجواب: أنهم لا يدخلون في الآية، لأن ما لما لا يعقل ولأن الخطاب لأهل مكة وإنما كانوا يعبدون الأصنام. فإن قيل: فأى فائدة في إدخال الأصنام النار؟ قيل: يعذب بها المشركون الذين عبدوها فتكون زيادة في حسرتهم وغمهم، ويجوز أن يرمى بها في النار توبيخاً للكفار حيث عبدوها، وهي جماد لا تضر ولا تنفع. وقيل: إن المراد بقوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الشياطين. دعوهم إلى عبادة غير الله فاطاعوهم، كما قال: ﴿يَتَّبِعْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾. ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ خطاب للكفار، أي: أنتم في جهنم داخلون. وقيل: إن معنى لها إليها لقوله: ﴿يَأْنِ رَبُّكَ أَتَىٰ لَهَا﴾. أي: إليها ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ﴾ الأصنام والشياطين ﴿إِلَهِةً﴾ كما ترعمون ﴿مَا وَرَدُوهَا﴾ أي: ما دخلوا النار ولا متنعوا منها، ﴿وَكُلُّ﴾ من العابد والمعبود ﴿فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿خَالِدُونَ﴾ دائمون ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: صوت كصوت الحمار، وهو شدة نفْسهم في النار عند إحراقها لهم. ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يسمعون ما يسرهم ولا ما ينتفعون به، وإنما يسمعون صوت المعذنين وصوت الملائكة الذين يعذبونهم، ويسمعون ما يسوؤهم، عن الجبائي، وقيل: يجعلون في تواييت من نار فلا يسمعون شيئاً ولا يرى أحد منهم أن في النار أحداً يعذب غيره، عن عبد الله بن مسعود. قالوا: ولما نزلت هذه الآية أتى عبد الله بن الزبير رسول الله ﷺ فقال: يا محمدا! ألسنت تزعم أن عزيزاً رجل صالح، وأن عيسى عليه السلام رجل صالح، وأن مريم امرأة صالحة؟ قال: بلى. قال: فإن هؤلاء يعبدون من دون الله فهم في النار. فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي: الموعدة بالجنة. وقيل: الحسنى السعادة، عن ابن زيد. وكأنه يذهب إلى الكلمة بأنه سيسعد أو إلى العدة لهم على طاعتهم فأنث الحسنى ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: يكونون بحيث لا يسمعون صوتها الذي يحس ﴿وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾ من نعيم الجنة وملاذها، ﴿خَالِدُونَ﴾ أي: دائمون الشهوة: طلب النفس اللذة، يقال: اشتهى شهوة، وقيل: إن الذين سبقت لهم منا الحسنى عيسى وعزير ومريم، والملائكة الذين عبدوا من دون الله وهم كارهون، استثناهم من جملة ما يعبدون من دون الله، عن الحسن ومجاهد. وقيل: إن الآية عامة في كل من سبقت له الموعدة بالسعادة. ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ﴾ أي: الخوف الأعظم وهو عذاب النار إذا أطبقت على أهلها، عن سعيد بن جبير وابن جريج. وقيل: هو النفخة الأخيرة لقوله ونفخ في الصور، ففرع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، عن ابن عباس، وقيل: هو حين يؤمر بالعبد إلى النار، عن الحسن. وقيل: هو حين يذبح الموت على صورة كبش أملح وينادى: يا أهل الجنة! خلود ولا موت. ويا أهل النار! خلود ولا موت. وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة على كتابان من مسك، لا يحزنهم الفرع الأكبر ولا يكثرثون للحساب: رجل قرأ القرآن محتسباً، ثم أمم به قوماً محتسباً، ورجل أذن محتسباً، ومملوك أدى حق الله عز وجل وحق مواليه». ﴿وَنُلَقِّنُكُمُ الْمَلَكَةَ﴾ أي: تستقبلهم الملائكة بالتهنئة، يقولون لهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا فأبشروا بالأمن والفوز.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١٧٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٧٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٧٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٧٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ ءَاذَنَّاكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَذْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْرٍ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٧٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٨٠﴾ وَإِنْ أَذْرَىٰ لَعَلَّهُمْ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٨١﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨٢﴾

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: «تطوي» بالياء والضم، «السما» بالرفع، والباقون: «نطوي» بالنون «السما» بالنصب، وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: «للكتب» على الجمع، والباقون: «للكتاب»، وقرأ حفص: «قال رب» والباقون: «قل ربي»، وقرأ أبو جعفر: «رب احكم» بضم الباء، وقرأ زيد عن يعقوب: «ربي احكم» وهو قراءة ابن عباس وعكرمة والجحدري وابن محيصن، والباقون: «رب احكم». وفي الشواذ قراءة الحسن: «كطي السجل» بسكون الجيم، وقراءة أبي زرعة بن عمرو: «السُّجْل» بضم السين والجيم وتشديد اللام. وقراءة أبي السماك: «السُّجْل» بفتح السين وسكون الميم.

● **الحجة:** من قرأ: «يوم تطوى السماء» فبنى الفعل للمفعول به. ومن قرأ: «يوم تطوى السماء» فالفاعل هو الله سبحانه، والمعنى واحد. وفي انتصاب ﴿يَوْمَ﴾ وجهان عند أبي علي، أحدهما: أن يكون بدلاً من الهاء المحذوفة من الصلة، ألا ترى أن المعنى: هذا يومكم الذي توعدونه، والآخر: أن يكون منتصباً بـ«نعيد»، والمعنى: نعيد الخلق إعادة كابتدائه أي: كابتداء الخلق. ومثله في المعنى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تُوَدُّونَ﴾، وتقديره: كما بدأ خلقكم، فحذف المضاف في الموضعين وأقام المضاف إليه مقامه، والمعنى: يعود خلقكم عوداً كبده، ومثله في المعنى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾. ومن أفرد الكتاب ولم يجمع فإنه واحد يراد به الكثرة. ومن قرأ ﴿لِلْكُتُبِ﴾ فإن المراد به الجمع. ومن قرأ: «قال رب» أراد قال الرسول. ومن قرأ: «قل» فهو على: قل أنت يا محمد. وقراءة أبي جعفر: «رب احكم» معناه: يا رب احكم، وهي ضعيفة عند النحويين البصريين، وقد جاء مثله في المثل وهو قولهم «أصبح ليل وأطرق كروان وأفتد مخنوق» أي: يا ليل ويا كروان ويا مخنوق. وقد جاء في الشعر وهو:

عَجِبْتُ لِعَطَارِ أَتَانَا يَسُومُنَا بِدِسْكَرَةِ الْمَرَّانِ دُهْنِ الْبَنْفُسِجِ (١)
فَقُلْتُ لَهُ: عَطَارُ هَلَا أَتَيْتَنَا بِنُورِ الْخَزَامَى أَوْ بِخَوْصَةِ عَرْفَجِ

(١) الدسكرة: بناء على هيئة القصر فيه بناء للخدم والحشم. ومران: موضع. وخزامى: نبت طيب الريح كذا العرفج.

أراد يا عطار. ومن قرأ: «رب احكم» فالمعنى ظاهر.

الإعراب: الكاف في قوله ﴿كَطَيَّ السَّجِلَ﴾ في محل نصب، لأنه صفة مصدر محذوف تقديره: نظوي السماء طياً مثل طي السجل، فإن كان السجل اسماً للصحيفة، فالمصدر الذي هو طي مضاف إلى المفعول في المعنى. وإن كان اسم ملك أو كاتب فهو مضاف إلى الفاعل في المعنى، فإن كان مفعولاً كان اللام بمعنى من أجل. وإن كان فاعلاً كان اللام للاختصاص. ﴿وَعَدَا عَلَيْنَا﴾ منصوب على المصدر. قال الزجاج: لأن قوله ﴿نُعِيدُهُمْ﴾ بمعنى قد وعدنا ذلك، والأجود أن يقدر عاملاً محذوفاً لأن القراء يقفون على قوله ﴿نُعِيدُهُمْ﴾، قال جامع العلوم: الكاف في ﴿كَمَا بَدَأْنَا﴾ من صلة ﴿نُعِيدُهُمْ﴾ وإن كان متقدماً، ومثله كما علمه الله فليكتب. ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ نصب على الحال أو على أنه مفعول له. و﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ في محل رفع بإسناد يوحى إليه، وقيامه مقام الفاعل. و﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ في موضع نصب على الحال من الفاعلين والمفعولين، والتقدير: أذنتكم واستوتينا نحن وأنتم. فيكون الحال من الفريقين. ﴿مَا تُوْعَدُونَ﴾ في موضع رفع بأنه فاعل ﴿أَقْرَبُ﴾، لأنه اعتمد على همزة الاستفهام فهو كقولهم أقائم أخوك، ويجوز أن يكون مبتدأ و﴿أَقْرَبُ﴾ خبره، وعلى الوجهين فهما مفعولا ﴿أَدْرِي﴾ أي: أعلم علقتهما همزة الاستفهام. والتقدير: أقرب ما توعدون أم بعيد. فبعد عطف على قريب، والنية فيه التأخير. ﴿وَأَن أَدْرِي لَعَلَّكُمْ فِتْنَةً لَّكُمْ﴾ مفعول ﴿أَدْرِي﴾ محذوف، والتقدير: ما أدري كيف يكون الحال.

● المعنى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ المراد بالطي هنا: هو الطي المعروف، وأن الله سبحانه يطوي السماء بقدرته، وقيل: إن طي السماء ذهابها عن الحس ﴿كَطَيَّ السَّجِلَ لِلْكِتَابِ﴾ والسجل: صحيفة فيها الكتب، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والكلبي. وعلى هذا فمعناه نظويها كما تطوى الصحيفة المَجْعُولَة للكتاب. ويجوز أن يكون المراد بالكتاب المكتوب، وقيل: إن السجل ملك يكتب أعمال العباد، عن أبي عمرو والسدي. وقيل: هو ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه، عن عطاء. وقيل: هو اسم كاتب كان للنبي ﷺ، عن ابن عباس في رواية. ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ أي: كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلاً^(١) كذلك نعيدهم، روي ذلك مرفوعاً. وقيل: معناه نبعث الخلق كما ابتدأناه. أي: قدرتنا على الإعادة كقدرتنا على الابتداء، عن الحسن والزجاج. وقيل: معناه نهلك كل شيء كما كان أول مرة، عن ابن عباس ﴿وَعَدَا عَلَيْنَا﴾ أي: وعدناكم ذلك وعداً ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ما وعدناكم من ذلك ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: أن الزبور كتب الأنبياء، ومعناه: كتبنا في الكتب التي أنزلناها على الأنبياء من بعد كتابته في الذكر، أي: أم الكتاب الذي في السماء وهو اللوح المحفوظ، عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد، وهو اختيار الزجاج قال: لأن الزبور والكتاب بمعنى واحد، وزبرت: كتبت.

(١) الغرل: جمع الأغرل: الأقف وهو الذي لم يختن.

وثانيها: أن الزبور الكتب المنزلة بعد التوراة، والذكر هو التوراة، عن ابن عباس والضحاك.

وثالثها: أن الزبور زبور داود، والذكر توراة موسى، عن الشعبي، وزُوي عنه أيضاً أن الذكر القرآن، وبعد بمعنى قبل. ﴿أَنْتَ الْآرِضُ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قيل: يعني أرض الجنة يرثها عبادي المطيعون، عن ابن عباس وسعيد بن جبير وابن زيد، فهو مثل قوله: ﴿وَأَوْثَرْنَا الْآرِضُ﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾، وقيل: هي الأرض المعروفة يرثها أمة محمد ﷺ بالفتوح بعد إجلاء الكفار، كما قال ﷺ «زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها، وسيلبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها» عن ابن عباس في رواية أخرى. وقال أبو جعفر ﷺ: هم أصحاب المهدي ﷺ في آخر الزمان. ويدل على ذلك ما رواه الخاص العام عن النبي ﷺ أنه قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً صالحاً من أهل بيتي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما قد ملئت ظلماً وجوراً». وقد أورد الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في كتاب «البعث والنشور» أخباراً كثيرة في هذا المعنى، حدثنا بجمعها عنه حافده أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن أحمد في شهور سنة ثمانى عشرة وخمسائة، ثم قال في آخر الباب: فأما الحديث الذي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ بالإسناد عن محمد بن خالد الجندي عن أبان بن صالح عن الحسن عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الناس إلا شحاً، ولا الدنيا إلا إدباراً، ولا تقوم الساعة إلا على أشرار الناس، ولا مهدي إلا عيسى بن مريم» فهذا حديث تفرد به محمد بن خالد الجندي. قال أبو عبد الله الحافظ: ومحمد بن خالد رجل مجهول، واختلف عليه في إسناده، فرواه مرة عن أبان بن صالح عن الحسن عن أنس عن النبي ﷺ. ومرة عن أبان بن أبي عياش وهو متروك، عن الحسن عن النبي ﷺ وهو منقطع. والأحاديث في التنصيص على خروج المهدي ﷺ أصح إسناداً، وفيها بيان كونه من عترة النبي ﷺ هذا لفظه.

ومن جملتها ما حدثنا أبو الحسن حافده عنه قال: أخبرنا أبو علي الروذباري قال: أخبرنا أبو بكر بن داسة قال: حدثنا أبو داود السجستاني في كتاب السنن، عن طرق كثيرة ذكرها ثم قال كلهم عن عاصم المقري، عن زيد عن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً مني، أو من أهل بيتي» وفي بعضها: «يواطىء اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً» وبالإسناد قال: حدثنا أبو داود قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم قال: حدثني عبد الله بن جعفر الرقي قال: حدثني أبو المليح الحسن بن عمر، عن زياد بن بيان، عن علي بن نفيل، عن سعيد بن المسيب، عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة ﷺ». ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ يعني: إن في الذي أخبرناكم به مما توعدنا به الكفار من النار والخلود فيها، وما وعدنا به المؤمنين من الجنة والكون فيها، وقيل: معناه إن في هذا القرآن ودلائله ﴿لَبَلَعًا﴾ أي: كفاية ووصلة إلى البغية. والبلاغ: سبب الوصول إلى الحق ﴿لَقَوْمٍ عَكِيدٍ﴾ لله مخلصين له.

قال كعب: هم أمة محمد ﷺ الذين يصلّون الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان، سَمَاهُمْ عَابِدِينَ. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: نعمة عليهم. قال ابن عباس: رحمة للبرِّ والفاجر والمؤمن والكافر، فهو رحمة للمؤمن في الدنيا والآخرة، ورحمة للكافر بأن عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والسمخ. وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَجَبْرَائِيلَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «هَلْ أَصَابَكَ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ شَيْءٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، إِنِّي كُنْتُ أَخْشَى عَاقِبَةَ الْأَمْرِ فَأَمَنْتُ بِكَ لَمَّا أَتَنَى اللَّهُ عَلَيَّ بِقَوْلِهِ: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، وَقَدْ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ». وَقِيلَ: إِنَّ الْوَجْهَ فِي أَنَّهُ نِعْمَةٌ عَلَى الْكَافِرِ أَنَّهُ عَرَضَهُ لِلْإِيمَانِ وَالْثَوَابِ الدَّائِمِ، وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَهْتَدِ، كَمَنْ قَدَّمَ الطَّعَامَ إِلَى جَائِعٍ فَلَمْ يَأْكُلْ، فَإِنَّهُ مَنْعَمٌ عَلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَقْبَلْ.

وفي الآية دلالة على بطلان قول أهل الجبر في أنه ليس لله على الكافر نعمة، لأنه سبحانه يَبَيِّنُ أَنَّ فِي إِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ نِعْمَةً عَلَى الْعَالَمِينَ، وَعَلَى كُلِّ مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ. ثُمَّ قَالَ لَهُ ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُرِيدُ الْإِنسَانُ أَتَمَّ إِلَهَهُكُمْ إِنَّهُ وَحْدَهُ قَهْلٌ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مستسلمون منقادون لذلك، بآن تتركوا عبادة غير الله. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ الْأَمْرُ أَي: أَسْلَمُوا كَقَوْلِهِ: ﴿قَهْلٌ أَنتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ أي: انتهوا ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أَعْرَضُوا وَلَمْ يَسْلَمُوا ﴿فَقُلْ أَذَنْتُكُمْ﴾ أي: أَعْلَمْتُكُمْ بِالْحَرْبِ ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: إِذْنَانَا عَلَى سَوَاءٍ إِعْلَامًا نَسْتَوِي نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِي عِلْمِهِ، لَا اسْتِزْدَانًا بِهِ دُونَكُمْ لَتَتَأَهَّبُوا لِمَا يَرَادُ بِكُمْ. وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿فَأَنذِرْ لِيَتَّهِمَ عَلَى سَوَاءٍ﴾، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَعْلَمْتُكُمْ بِمَا يَجِبُ الْإِعْلَامُ بِهِ عَلَى سَوَاءٍ فِي الْإِذْنِ، لَمْ أَبَيِّنِ الْحَقَّ لِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ، وَلَمْ أَكْتُمِهِ لِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ. وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى بَطْلَانِ قَوْلِ أَصْحَابِ الرَّمُوزِ وَأَنَّ لِلْقُرْآنِ بَوَاطِنَ خَصَّ بِالْعِلْمِ بِهَا أَقْوَامٌ ﴿وَلَوْ أَنِّي أَدْرِي﴾ أي: وَمَا أَدْرِي ﴿أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ يَعْنِي: أَجَلُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْعَالَمُ بِذَلِكَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَذَنْتُكُمْ بِالْحَرْبِ وَلَا أَدْرِي مَتَى أُوْذَنُ فِيهِ. ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ السَّرَّ وَالْعِلَانِيَةَ ﴿وَلَوْ أَنِّي أَدْرِي﴾ أي: وَمَا أَدْرِي ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ كَنَايَةٌ عَنْ غَيْرِ مَذْكُورٍ ﴿فَتَنَّةٌ لَّكُمْ﴾ أي: لَعَلَّ مَا أَذَنْتُكُمْ بِهِ اخْتِبَارٌ لَكُمْ وَشِدَّةٌ تَكْلِيفٌ، لِيُظْهَرَ صَنِيعُكُمْ، عَنْ الزَّجَاجِ. وَقِيلَ: لَعَلَّ هَذِهِ الدُّنْيَا فِتْنَةٌ لَكُمْ، عَنْ الْحَسَنِ. وَقِيلَ: لَعَلَّ تَأْخِيرَ الْعَذَابِ مُحَنَّةً وَاخْتِبَارًا لَكُمْ لَتَرْجِعُوا عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿وَمَنْعٌ لِّكَ حِينٍ﴾ أي: تَتَمَتَّعُونَ بِهِ إِلَى وَقْتِ انْقِضَاءِ أَجَالِكُمْ ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: فَوَضَّ أُمُورَكَ يَا مُحَمَّدُ إِلَى اللَّهِ، وَقُلْ: يَا رَبِّ احْكُم بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ كَذَبَنِي بِالْحَقِّ. قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا شَهِدَ قِتَالًا قَالَ: «رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ» أَي: أَفْصِلْ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَشْرِكِينَ بِمَا يَظْهَرُ بِهِ الْحَقُّ لِلْجَمِيعِ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ احْكُمْ بِحُكْمِكَ الْحَقِّ، وَهُوَ إِظْهَارُ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ. ﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ﴾ الَّذِي يَرْحَمُ عِبَادَهُ ﴿الْمُسْتَغْنَى﴾ الَّذِي يَعِينُهُمْ فِي أُمُورِهِمْ، فَجَمَعَ بَيْنَ الرَّحْمَةِ وَالْمَعُونَةِ اللَّتَيْنِ تَضَمَّنَتَا أَصُولَ النِّعَمِ ﴿عَلَى مَا نَقُصُّونَ﴾ مِنْ كَذِبِكُمْ وَبِاطِلِكُمْ فِي قَوْلِكُمْ: ﴿هَذَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وَقَوْلِكُمْ: ﴿أَتَأْخُذُ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَغْنَى عَلَى دَفْعِ مَا تَصِفُونَ.

سُورَةُ الْحَجِّ

مدنية/آياتها (٧٨)

مكية عن ابن عباس وعطاء، إلا آيات. قال الحسن: هي مدنية غير آيات نزلت في السفر. وقال بعضهم: غير ست آيات. وقال بعضهم: غير أربع آيات.

● **عدد آياتها:** ثمان وسبعون آية كوفي، سبع آيات مكّي، وست آيات مدني، خمس بصري، أربع آيات شامي.

● **اختلافها:** خمس آيات الحميم والجلود كلاهما كوفي، وعاد وثمود غير الشامي، وقوم لوط حجازي كوفي، سماكم المسلمين مكّي.

● **فضلها:** أبي بن كعب قال: قال النبي ﷺ: «من قرأ سورة الحج أعطي من الأجر كحجة حجها، وعمره اعتمرها، بعدد من حج واعتمر فيما مضى، وفيما بقي». وقال أبو عبد الله عليه السلام: من قرأها في كل ثلاثة أيام، لم يخرج من سنته حتى يخرج إلى بيت الله الحرام، وإن مات في سفره دخل الجنة.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سورة الأنبياء بالدعاء إلى التوحيد والإعلام بأن نبيه رحمة للعالمين، افتتح هذه السورة بخطاب المكلفين ليتقوا الشرك ومخالفة الدين، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرْوَاهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝ وَيَمْنَعُ اللَّهُ النَّاسَ مِنَ يُجَادِلُوا فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْآلِثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُفِّرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُؤْتِي وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝﴾

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «سُكْرَى وما هم بِسُكْرَى»، والباقون: «سَكَارَى» في الموضعين، وفي الشواذ قراءة الأعرج والحسن بخلاف: «سُكْرَى» بضم السين، وقرأ أبو جعفر: «وربأت» بالهمزة، ههنا وفي حم، والباقون: «وربت».

● **الحجة:** قالوا: رجل سكران وامرأة سكرى، والجمع سُكَارَى وسَكَارَى بضم السين وفتحها، إلا أن القراءة بالضم. وأما سُكْرَى في الجمع فهو مثل صَرْعَى وَجَرْحَى، وذلك لأن السكر كأنه علة لحقت عقولهم، كما أن الصرع والجرح علة لحقت أجسامهم. وفعلني مختص في الجمع بالمبتلين كالمرضى والسقْمَى والهلَكَى، وأما سُكْرَى بالضم فيجوز أن يكون اسماً مفرداً على فعلى بمعنى الجمع، وأما قوله: «رَبَّتْ» فهو من ربا يربو: إذا زاد. وأما الهمز فمن ربأت القوم: إذا أشرفت عليهم عالياً لتحفظهم. وهذا كأنه ذهب إلى علو الأرض لما فيها من إفراط الربو. فإذا وصف علوها دل على أن الزيادة شاعت فيها.

● **اللغة:** الزلزلة والزلازل: شدة الحركة على الحال الهائلة. وقيل: إن أصله زل فضوعف للمبالغة. وأثبتته البصريون، قالوا: إنَّ زل ثلاثي وزلزل رباعي، وإن اتفق بعض الحروف في الكلمتين لأنه لا يمتنع مثل هذا، ألا ترى أنهم يقولون: دمث ودمثر وسبط وسبطر، وليس أحدهما مأخوذاً من الآخر، وإن كان معناه واحداً، لأن الزاي ليست من حروف الزيادة، والزلازل بالفتح: الاسم. قال الشاعر:

يَغْرِفُ الْجَاهِلُ الْمُضِلُّ أَنَّ الدَّهْرَ فِيهِ التُّكْرَاءُ وَالزُّلْزَالُ

والذهول: الذهاب عن الشيء دهشاً وحيرة. يقال: ذهل عنه يذهل ذهولاً وَذَهْلًا بمعنى. والذهل: السلو. قال: «صحا قلبه يا عَزَّ أو كاد يَذْهَلُ»^(١)، والحَمْلُ بفتح الحاء: ما كان في بطن أو على رأس شجرة، والحَمْلُ بكسر الحاء: ما كان على ظهر أو على رأس، والمريد: المتجرد للفساد. وقيل: إن أصله الملاسة فكانه متملس من الخير. ومنه صخرة مرداء أي: ملساء، ومنه الأمرد والممرد من البناء: المتناول المتجاوز، والمضغة: مقدار ما يمضغ من اللحم. والهمود: الدروس والدثور. قال الأعشى:

قالت قُتَيْلَة: مَا لِجِسْمِكَ شَاحِباً وَأَرَى ثِيَابَكَ بَالِيَاتٍ هُمُوداً^(٢)
والبهيج: الحسن الصورة.

● **الإعراب:** العامل في «يَوْمَ تَرَوْنَهَا» قوله: «تَذْهَلُ» أي: تذهل كل مرضعة في هذا اليوم عما أرضعته، ويجوز أن يكون «مَا» مصدرية. فيكون التقدير: تذهل كل مرضعة في هذا اليوم عن إرضاعها ولدها، ومفعول أرضعت محذوف على الوجهين. ومرضعة جار على الفعل، يقال: امرأة مرضع أي: ذات إرضاع أرضعت ولدها أو أرضعته غيرها، ومرضعة ترضع. قال امرؤ القيس:

(١) «عز» مرخم عزة: علم امرأة.

(٢) الشاحب: المتغير اللون من هزل، أو مرض، أو سفر.

وَمِثْلِكَ حُبْلَى قَدْ طَرَفْتُ وَمَرْضِعُ فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمٍ مُخَوِّلٍ^(١)

و﴿سَكَّرَ﴾ نصب على الحال. وإن جعلت ﴿تَرَى﴾ بمعنى الظن، فهو المفعول الثاني له. ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ﴾: الهاء في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود إلى الشيطان. والهاء في ﴿أَنَّهُ﴾ يحتمل وجهين أن يكون ضمير الأمر والشأن، وأن يكون عائداً إلى الشيطان. وإنما فتحت أن في قوله ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ على أحد وجهين: أن يكون عطفاً على الأولى للتأكيد والمعنى: كتب عليه أنه من تَوَلَّاهُ يضلّه، وتأويله: كتب على الشيطان إضلال متوليه وهدايتهم إلى عذاب السعير، وهذا قول الزجاج، وفيه نظر، لأن الأصل في التوكيد أن لا يدخل حرف العطف بين المؤكّد والمؤكّد. فالقول الصحيح فيه أن يكون على معنى: فالشأن أنه يضلّه، فيكون مبنياً على مبتدأ مضمّر. ﴿وَنُقِرُّ﴾ مرفوع بالعطف على ﴿خَلَقْتَكُمْ﴾ أو للاستئناف. ويكون خبر مبتدأ محذوف أي: ونحن نُقِرُّ. و﴿مَا نَسَاءُ﴾ يجوز أن يكون مفعول ﴿نُقِرُّ﴾، ويجوز أن يكون ظرف زمان، ويكون مفعول ﴿نُقِرُّ﴾ محذوفاً وتقديره: ونقر في الأرحام الولد مدة مشيئتنا. و﴿طِفْلاً﴾ منصوب على الحال. ﴿ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا﴾ أي: لأن تبلغوا. والجار والمجرور معطوف على محذوف تقديره لترضعوا وتشبوا ثم لتبلغوا أشدكم. ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ﴾ إذا اجتمع اللام بمعنى كي مع كي فالحكم للام، وكي: يكون بمعنى أن واللام يتعلق بيزد.

النزول: قال عمران بن الحصين وأبو سعيد الخدري: نزلت الآيتان من أول السورة ليلاً في غزاة بني المصطلق، وهم حيٌّ من خزاعة، والناس يسرون، فنادى رسول الله ﷺ فحثوا المطي حتى كانوا حول رسول الله ﷺ فقرأها عليهم، فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا السرج عن الدواب، ولم يضربوا الخيام، والناس ما بين باك أو جالس حزين متفكر، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون أي: يوم ذاك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: ذاك يوم يقول الله تعالى لآدم: ابعث بعث النار من ولدك. فيقول آدم: من كم وكم؟ فيقول الله عز وجل: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، وواحد إلى الجنة. فكبر ذلك على المسلمين وبكوا، وقالوا: فمن ينجو يا رسول الله؟ فقال: أبشروا فإن معكم خليقتين يأجوج ومأجوج، ما كانا في شيء إلا كثرتا. ما أنتم في الناس إلا كشعرة بيضاء في الثور الأسود أو كرقم في ذراع البكر أو كشامة في جنب البعير، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبروا. إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبروا. ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة وإن أهل الجنة مائة وعشرون صفّاً، ثمانون منها أمتي. ثم قال: ويدخل من أمتي سبعون ألفاً الجنة بغير حساب. وفي بعض الروايات أن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله! سبعون ألفاً؟ قال: نعم ومع كل واحد سبعون ألفاً، فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعله منهم. فقام رجل من الأنصار فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال ﷺ: سبقك بها عكاشة. قال ابن عباس: كان الأنصاري منافقاً فلذلك لم يدع له.

(١) هذا بيت من معلقته المشهورة. يقول: قرب امرأة حبلى، وامرأة ذات رضيع، أتيتها ليلاً فغسلتها عن ولدها الذي علقت عليه العود، وقد أتى عليه حول كامل، فخدعت مثلهما مع اشتغالهما بأنفسهما، فكيف تخلصني عني؟

● **المعنى:** خاطب الله سبحانه جميع المكلفين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ معناه: يا أيها العقلاء المكلفون اتقوا عذاب ربكم واحشوا معصية ربكم، كما يقال: احذر الأسد، والمراد احذر افتراسه لا عينه. ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ أي: زلزلة الأرض يوم القيامة، عن ابن عباس والحسن والسدي، والمعنى: أنها تقارن قيام الساعة وتكون معها، وقيل: إن هذه الزلزلة قبل قيام الساعة، وإنما أضافها إلى الساعة لأنها من أشراط ظهورها وآيات مجيئها، عن علقمة والشعبي. ﴿شَقٌّ عَظِيمٌ﴾ أي: أمر عظيم هائل لا يطاق. وقيل: معناه أن شدة يوم القيامة أمر صعب. وفي هذا دلالة على أن المعدم يسمى شيئاً، فإن الله سبحانه سماها شيئاً وهي معدومة. ﴿يَوْمَ تَرَوْنها﴾ معناه: يوم ترون الزلزلة أو الساعة ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: تشغل كل مرضعة عن ولدها وتنساه، وقيل: تسلو عن ولدها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تضع الحبالى ما في بطونها، وفي هذا دلالة على أن الزلزلة تكون في الدنيا، فإن الرضاع ووضع الحمل إنما يتصور في الدنيا. قال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام. ومن قال: إن المراد به يوم القيامة قال: إنه تهويل لأمر القيامة وتعظيم لما يكون فيه من الشدائد، أي: لو كان ثم مرضعة لذهلت، أو حامل لوضعت، وإن لم يكن هناك حامل ولا مرضعة. ﴿وَنَزَى النَّاسُ سُكْرِيَّ﴾ من شدة الخوف والفرع ﴿وَمَا هُمْ بِسُكْرَى﴾ من الشراب، وقيل: معناه كأنهم سكارى من ذهول عقولهم لشدة ما يمر بهم، لأنهم يضطربون اضطراب السكران. ثم علل سبحانه ذلك فقال: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فمن شدته يصيبهم ما يصيبهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجْدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: هذا إخبار عن المشركين الذين يخاصمون في توحيد الله سبحانه ونفي الشرك بغير علم منهم، بل للجهل المحض، وقيل: إن المراد به النضر بن الحرث فإنه كان كثير الجدال، وكان يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين، وينكر البعث ﴿وَيَتَّبِعُ كُلُّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ يغويه عن الهدى ويدعوه إلى الضلال، وإن كان المراد بالآية النضر بن الحرث فالمراد بالشيطان المريد: شيطان الإنس، لأنه كان يأخذ من الأعجام واليهود ما يطعن به على المسلمين ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن قَوْلَاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ معناه: أنه يتبع كل شيطان كتب الله على ذلك الشيطان في اللوح المحفوظ أنه يضل من تولاها فكيف يتبع مثله ويعدل بقوله عمن دعا إلى الرحمة. وقيل: معناه كتب على الشيطان أنه من تولاها أضله الله تعالى. وقيل: معناه كتب على المجادل بالباطل أن من اتبعه ووالاه يضلّه عن الدين ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

ثم ذكر سبحانه الحجة في البعث لأن أكثر الجدال كان فيه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي: في شك ﴿مِنَ الْبَعْثِ﴾ والنشور، والريب: أقبح الشك ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ معناه: فالدليل على صحته أنا خلقنا أصلكم، وهو آدم عليه السلام، من تراب، فمن قدر على أن يُصَيِّرَ التراب بشراً سوياً حياً في الابتداء، قدر على أن يحيي العظام ويعيد الأموات. ﴿ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ معناه: ثم خلقنا أولاده ونسله من نطفة في أرحام الأمهات، وهي الماء القليل يكون من الذكر والأنثى، وكل ماء صاف فهو نطفة قلّ أم كثر ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ بأن تصير النطفة علقه وهي: القطعة من الدم الجامد ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ أي: شبه قطعة من اللحم ممضوغة. فإن معنى

المضغة مقدار ما يمزج من اللحم، ﴿تَخْلَقْ وَغَيْرَ تَخْلَقْ﴾ أي: تامة الخلق وغير تامة، عن ابن عباس وقتادة. وقيل: مصورة وغير مصورة، وهي ما كان سقطاً لا تخطيط فيه ولا تصوير، عن مجاهد. ﴿لَنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ معناه: لندلكم على مقدورنا بتصرفكم في ضروب الخلق، أو لنبين لكم أن من قدر على الابتداء قدر على الإعادة، أو لنبين لكم ما يزيل ريبكم فحذف المفعول. ﴿وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معناه: ونبقي في أرحام الأمهات ما نشاء إلى وقت تمامه، عن مجاهد، وقيل: ونقر من قدرنا له أجلاً مسمى في رحم أمه إلى أجله ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي: نخرجكم من بطون أمهاتكم وأنتم أطفال، والطفل: الصغير من الناس، وإنما وُحِدَ والمراد به الجمع لأنه بمعنى المصدر كقولهم: رجل عدل، ورجال عدل. وقيل: أراد ثم نخرج كل واحد منكم طفلاً. ﴿ثُمَّ لِنَبْلُغْ أَشُدَّكُمْ﴾ وهو حال اجتماع العقل والقوة وتمام الخلق، وقيل: هو وقت الاحتلام والبلوغ، وقد سبق تفسير الأشد واختلاف العلماء في معناه ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَفِّقُ﴾ أي: قبل بلوغ الأشد أي: يقبض روحه فيموت في حال صغره أو شبابه ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَّا أَزْلاً أَلْعَمُرُ﴾ أي: أسوأ العمر وأخبثه عند أهله، وقيل: أحقره وأهونه وهي حال الخوف. وإنما صار أزدل العمر لأن الإنسان لا يرجو بعده صحة وقوة، وإنما يرتقب الموت والفناء بخلاف حال الطفولية والضعف، الذي يرجى له الكمال والتمام بعدها.

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي: لكيلا يستفيد علماً وينسى ما كان به عالماً. وقيل: معناه لكي يصير إلى حال ينعدم عقله أو يذهب عنه علومه هرمياً، فلا يعلم شيئاً مما كان علمه. وإذا ذهب أكثر علومه جاز أن يطلق عليه ذهاب الجميع. قال عكرمة: من قرأ القرآن لم يصبر بهذه الحالة، واحتج بقوله ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿١﴾ أي: قرأوا القرآن.

ثم ذكر سبحانه دلالة أخرى على البعث فقال: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ يعني: هالكة، عن مجاهد، أي: يابسة دارسة من أثر النبات ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ وهو المطر ﴿أَهْزَنْتُ﴾ أي: تحركت بالنبات، والاهتزاز: شدة الحركة في الجهات ﴿وَرَبَّتْ﴾ أي: زادت أي: أضعفت نباتها. وقيل: انتفخت لظهور نباتها، عن الحسن، ﴿وَأَنْبَتَتْ﴾ يعني الأرض ﴿مِنْ كُلِّ رَوْحٍ﴾ أي: من كل صنف ﴿بِهَيْجٍ﴾ مؤنق للعين حسن الصورة واللون.



قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٧) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٨) ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٩) ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (١٠).

● الإعراب: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ منصوب على الحال، تقديره: ثانياً عطفه. ﴿لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ له خزي مبتدأ وخبر. وفي يتعلق بما يتعلق به اللام، والمبتدأ وخبره في محل الرفع بأنه

خبر. ﴿مَنْ يُجِدِلْ﴾ خبر بعد خبر. ﴿ذَلِكَ يَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ و﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَذَاك﴾: يجوز أن يكون ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ، والجار والمجرور في موضع الخبر، ويجوز أن يكون التقدير الأمر ذلك فيكون ﴿ذَلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف.

● **المعنى:** لما قدّم سبحانه ذكر الأدلة، عقبه بما يتصل به، فقال: ﴿ذَلِكَ يَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ معناه: ذلك الذي سبق ذكره من تصريف الخلق على هذه الأحوال وإخراج النبات. بسبب أن الله هو الحق أي: ليعلموا أنه الذي يحق له العبادة دون غيره، وقيل: هو الذي يستحق صفات التعظيم ﴿وَأَنْتُمْ يُحْيِ الْمَوْتَى﴾ لأن من قدر على إنشاء الخلق فإنه يقدر على إعادته. ﴿وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أما المعدومات فيقدر على إيجادها، وأما الموجودات فيقدر على إفنائها وإعادتها، ويقدر على جميع الأجناس ومن كل جنس على ما لا نهاية له. ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: وليعلموا أن القيامة آتية لا شك فيها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: يحييهم للجزاء، لأن ما ذكرناه يدل على البعث على الوجه الذي بيّناه. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجِدِلْ فِي اللَّهِ يَغْتَرِ عَلَيْهِمْ﴾ سبق تفسيره ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: لا يرجع فيما يقوله إلى علم ولا دلالة ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي: مضيء، له نور يؤدي من تمسك به إلى الحق، والمعنى: أنه لا يتبع أدلة العقل ولا أدلة السمع وإنما يتبع الهوى والتقليد، وفي هذا دلالة على أن الجدال بالعلم صواب، وبغير العلم خطأ، لأن الجدال بالعلم يدعو إلى اعتقاد الحق، وبغير العلم يدعو إلى اعتقاد الباطل. ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ أي: متكبراً في نفسه، عن ابن عباس. يقول العرب: ثنى فلان عطفه إذا تكبر وتجبر. وعطفا الرجل: جانباه من عن يمين أو شمال، وهو الموضع الذي يعطفه الإنسان أي: يلويه ويميله عند الإعراض عن الشيء، وقيل: معناه لاوي عنقه إعراضاً وتكبراً عن الله ورسوله، عن قتادة ومجاهد ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ليضل الناس عن الدين، ومن فتح الياء أراد: ليضل هو عن طريق الحق المؤدي إلى توحيد الله. ﴿لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: هوان وذل وفضيحة بما يجري له على ألسنة المؤمنين من الدم، وبالقتل وغير ذلك ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: النار التي تحرقهم ﴿ذَلِكَ﴾ أي: يقال له ذلك العذاب ﴿بِمَا قَدَّمْتَ يَذَاك﴾ أي: بما كسبت يداك ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ في تعذيبه، لأن الله لا يظلم ولا يعاقب ابتداء ولا يزيد على الجزاء، وفي هذا دلالة واضحة على بطلان مذهب المجبرة الذين ينسبون كل ظلم في العالم إلى الله تعالى.



قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْفَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١١)
 ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٢)
 ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِمْ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ (١٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١٤)

كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَيَمَدَّدُ سَبَبٌ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لَيَقْطَعُ
فَلَيَنْظُرَ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

● **القراءة:** قرأ روح وزيد عن يعقوب: «خاسر الدنيا والآخرة» بالجهر، وهو قراءة مجاهد وحמיד بن قيس. والباقون: «خسر» بغير ألف، «والآخرة» بالنصب. وقرأ أهل البصرة وابن عامر وورش: «ثم ليقطع» بكسر اللام، والباقون بسكونها. وكذلك «ثم ليقضوا» وزاد ابن عامر «وليوفوا وليطوفوا» بالكسر فيهما أيضاً، وقرأ أبو بكر: «وليوفوا» بتشديد الفاء، والأعشى عنه بكسر اللام أيضاً. والباقون: «وليوفوا» ساكنة الواو خفيفة الفاء.

● **الحجة:** من قرأ: «خسر الدنيا والآخرة» فإن هذه الجملة تكون بدلاً من قوله: «انقلب على وجهه» فكأنه قال: وإن أصابته فتنة خسر الدنيا والآخرة، ومثله قول الشاعر:
إِنْ يَجْبِنُوا أَوْ يَغْدِرُوا أَوْ يَنْخَلُوا لَا يَحْفَلُوا يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجَّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

فقوله: «يغدوا عليك» بدل من لا يحفلوا. ومن قرأ: «خاسر الدنيا والآخرة» فإنه منصوب على الحال. وأما قوله: «ثم ليقطع» فإن أصل هذه اللام الكسر، فإذا دخلها الواو والفاء أو ثم، فمن أسكنها مع الفاء والواو، فإن الفاء والواو يصيران كشيء واحد في نفس الكلمة، لأن كل واحد منهما لا ينفرد بنفسه، فصار بمنزلة كنف وفخذ. فأما ثم فهو منفصل عن الكلمة، وليست كالواو والفاء، فمن أسكن اللام معها شبه الميم في ثم بالفاء والواو، وجعله كقولهم: أراك مُتَفَخِّخًا، كقول العجاج: «أراك متصباً وما تكدسا»، ومثل ذلك قولهم: وَهِيَ فَهْيَ.

● **اللغة:** الحرف والطرف والجانب نظائر، والاطمئنان: التمكن، والفتنة ههنا المحنة، والانقلاب: الرجوع، والعشير: الصاحب المعاشر أي: المخالط. والنصرة: المعونة، وقيل: إن النصره ههنا الرزق، تقول العرب: من ينصرني نصره الله أي: من أعطاني أعطاه الله. قال الفقعي^(١):

وإِنَّكَ لَا تُغْطِي أَمْرًا فَوْقَ حَظِّهِ وَلَا تَمْلِكُ الشَّقَّ الَّذِي الْغَيْثُ نَاصِرُهُ

أي: معطيه وجائده. ويقال: نصر الله أرض فلان أي: جاد عليها بالمطر، والسبب: كل ما يتوصل به الشيء، ومنه قيل للحبل سبب، وللطريق سبب، وللباب سبب.

● **الإعراب:** ﴿يَدْعُوا لَمَنْ صَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ قال الزجاج: اختلف الناس في تفسير هذه اللام، فقال البصريون والكوفيون: معنى هذه اللام التأخير، والتقدير: يدعو من لضره أقرب من نفعه، ولم يشرحوه، قال: وشرحه أن اللام لليمين والتوكيد، فحقها أن تكون في أول الكلام فقدمت لتجعل في حقها، وإن كان أصلها أن يكون في آخره، كما أن لام أن حقها أن تكون في الابتداء. فلما لم يجز أن تلي أن جعلت في الخبر مثل قولك: إن زيدا لقاتم، فهذا قول. وقالوا أيضاً: إن ﴿يَدْعُوا﴾ معه هاء مضمرة وأن ﴿ذَلِكَ﴾ في موضع رفع، و﴿يَدْعُوا﴾ في

موضع الحال، المعنى: ذلك هو الضلال البعيد يدعو أي: في حال دعائه إياه. ويكون ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ﴾ مستأنفاً مرفوعاً بالابتداء، وخبره ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾، وفيه وجه آخر أغفله الناس وهو أن يكون ذلك في تأويل الذي، وهو موضع نصب لوقوع ﴿يَدْعُوا﴾ عليه. ويكون ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ﴾ مستأنفاً وهو مثل قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ يَبِيمَنِكَ يَمُوسَىٰ﴾ ومعناه: وما التي يمينك. وقال أبو علي: إن اللامات التي هي حروف دالة على معان سوى الجارة والتي للأمر، على أربعة أضرب:

أحدها: تدخل على خبر إن إذا خففت أو على غير خبرها، ليفصل بين إن النافية والمؤكد، مثل قوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ﴾ و﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا﴾.

والثاني: يختص بالدخول على الفعل المضارع والماضي، ويكون جواباً للقسم نحو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وقول امرئ القيس: «لناموا فما إن من حديث ولا صال»^(١).

والثالث: يدخل في الشرط إذا كان جزؤه معتمداً على قسم، نحو قوله: ﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَّأُوهُ مُصَفَّرًا لَّظَلُّوا﴾.

والرابع: يختص بالدخول على الأسماء المبتدأة، وهي التي تدخل على خبر إن، ويدخل على الفعل المضارع إذا كان للحال، وكان خبراً لأن، وهو أحد جهتي مضارعة الفعل المضارع للاسم، وقد تدخل هذه اللام في ضرورة الشعر على خبر المبتدأ في غير إن، وذلك كقوله: «أُمُّ الْحَلِيسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَةٌ»^(٢). وكما حكى أبو الحسن في حكاية نادرة إن زيداً وجهه لحسن. فإذا كان هذه اللام حقها أن تدخل على المبتدأ أو على اسم إن أو خبرها، من حيث أدخلها على المبتدأ، وكان دخولها على خبر المبتدأ ضرورة، مع أنه المبتدأ في المعنى، فدخوله في الموصول والمراد به الصلة، ينبغي أن لا يجوز لأن الصلة ليست بالموصول، كما أن خبر المبتدأ ليس المبتدأ. فمن زعم أن اللام في ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ﴾ حكمها أن تكون في المبتدأ الذي في الصلة، ثم قدم على الموصول، كان مخطئاً. وأيضاً فإن اللام إذا كان حكمه أنه يكون في الصلة، ثم قدم على الموصول، فذلك غير سائغ، كما أن سائر ما يكون في الصلة لا يتقدم على الموصول.

قال: والوجه في ذلك أن يجعل قوله: ﴿يَدْعُوا﴾ تكراراً للفعل الأول على جهة تكثير هذا الفعل الذي هو الدعاء من فاعله، ولا تجعلها متعدية إذ قد تعدت مرة. ويجوز أن تجعل مع ﴿يَدْعُوا﴾ هاء مضمرة ويكون في موضع نصب على الحال من ذلك، فكأنه قال: ذلك هو الضلال البعيد مدعواً. ويجوز أن تجعل ذلك هو الضلال البعيد مفعول يدعو، على أن يكون ذلك في معنى الذي ويكون هو الضلال البعيد صلته، كما قال أبو إسحاق أيضاً. فتكون اللام في هذه الوجوه داخلة على اسم مبتدأ موصول، ولا موضع للجمله التي هي ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ﴾

(١) وقيله: «حلفت لها بالله حلقة فاجر». والشعر بتمامه في (جامع الشواهد).

(٢) وبعبده: «ترضى من اللحم بعظم الرقبة». والشعر في (جامع الشواهد).

سورة الحج

مِنْ نَفْعِهِ. الآية. لأنها لا تقع موقع مفرد، ويكون اللام في قوله ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ في موضع رفع لوقوعه خبر المبتدأ وتكون هذه اللام لليمين، فهذا ما يجب أن تحمل الآية عليه. وأقول: إن إعرابه على الوجه الأول: أن يكون ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ مفعول ﴿يَدْعُو﴾ و﴿وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ معطوفاً عليه. و﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ. و﴿هُوَ الْأَصْلُ الْأَبْعِيدُ﴾ خبره. و﴿يَدْعُو﴾ تكراراً للفعل الأول. وعلى الوجه الثاني: يكون ﴿يَدْعُو﴾ حالاً من معنى الإشارة في ﴿ذَلِكَ﴾، وعلى الوجه الثالث: يكون ﴿ذَلِكَ﴾ اسماً موصولاً بمعنى الذي، والجملة صلته، والموصول والصلة في موضع نصب بأنه المفعول ليدعو. واللام في ﴿لَنْ ضَرُّهُ﴾ لام الابتداء، والموصول والصلة في موضع رفع بالابتداء. و﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ جواب القسم، والقسم والمقسم في موضع رفع بأنه خبر المبتدأ. والعائد إلى المبتدأ هو الضمير المحذوف من الجملة، لأن التقدير: لبس المولى هو، ولبس العشير هو. قال الزجاج: وفيه وجه آخر، وهو أن يكون ﴿يَدْعُو﴾ في معنى يقول: ويكون ﴿مِنْ﴾ في موضع رفع، وخبره محذوف. ويكون المعنى: لمن ضره أقرب من نفعه هو مولاي، ومثله قول عترة:

يَدْعُونَ عَنَّتَرَ وَالرُّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بِثَرٍ فِي لَبَانِ الْأَذْهَمِ^(١)

أي: يقولون يا عترة! ويجوز أن يكون ﴿يَدْعُو﴾ في معنى يسمى، كما قال ابن أحمر:

أَهْوَى لَهَا مِشْقَصاً حَشِراً فَشَبَّرَقَهَا وَكُنْتُ أَذْعُو قَذَاهَا الْإِثْمِدَ الْفَرْدَ^(٢)

وأقول: إنما قال خبر المبتدأ هنا محذوف، لأن من يعبد الصنم لا يقول لمن ضره أقرب من نفعه لبس المولى، فلذلك قدر الخبر محذوفاً.

النزول: قيل: نزلت هذه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغُ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ في جماعة كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ المدينة، فكان أحدهم إذا صح جسمه، ونتجت فرسه، وولدت امرأته غلاماً، وكثرت ماشيته، رضي به واطمأن إليه، وإن أصابه وجع في المدينة وولدت امرأته جارية قال: ما أصبت في هذا الدين إلا شراً، عن ابن عباس.

● المعنى: لما تقدّم ذكر الكفار وما تعاطوه من الجدل، ذكر سبحانه بعده حال مقلدة الضلال والدعاة إلى الضلال، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغُ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي: على ضعف في العبادة كضعف القائم على حرف. أي: طرف جبل أو نحوه. عن علي بن عيسى قال: وذلك من اضطرابه في طريق العلم إذا لم يتمكن من الدلائل المؤدية إلى الحق، فينقاد لأدنى شبهة لا يمكنه حلها، وقيل: على حرف أي: على شك، عن مجاهد، وقيل: معناه أنه يعبد الله بلسانه دون قلبه، عن الحسن قال: الدين حرفان أحدهما اللسان والثاني القلب، فمن اعترف بلسانه ولم يساعده قلبه فهو على حرف.

(١) هذا بيت من المعقلة. الشطن: الجبل الذي يستقى به. واللبان: الصدر، شبه النصل الطويل بحبال البئر.

(٢) وسان حشر أي: دقيق. وشبرقها أي: مزقها، والأثم: حجر يكتحل به. والقذى: ما يقع في العين من تينة

﴿إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي: أصابه رخاء وعافية وخصب وكثرة مال، اطمأن على عبادة الله بذلك الخير ﴿وَأِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار بجذب وقلة مال ﴿أَنفَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أي: رجع عن دينه إلى الكفر، والمعنى: انصرف إلى وجهه الذي توجه منه وهو الكفر ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: خسر الدنيا بفراقه وخسر الآخرة بنفاقه ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي: الضرر الظاهر لفساد عاجله وآجله. وقيل: خسر في الدنيا العز والغنيمة، وفي الآخرة الثواب والجنة ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي: يدعو هذا المريد بعبادته سوى الله، ما لا يضره إن لم يعبد، وما لا ينفعه إن عبده ﴿ذَلِكَ﴾ الذي فعل ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْأَعْيَدُ﴾ عن الحق والرشد، يدعو على الوجه الآخر معناه ﴿يَدْعُوا﴾ الذي هو الضلال البعيد. ﴿لَمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾: قال السدي: يعني الذي ضره في الآخرة بعبادته إياه أقرب من النفع، وإن كان لا نفع عنده، ولكن العرب تقول لما لا يكون: هذا بعيد. ونفع الصنم بعيد لأنه لا يكون، فلما كان نفعه بعيداً قيل لضره: إنه أقرب من نفعه على معنى أنه كائن. ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ أي: لبس الناصر هو ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ أي: صاحب المعاصر المخالط هو يعني الصنم يخالطه العابد ويصاحبه.

ولما ذكر الشاك في الدين بالخسران، ذكر ثواب المؤمنين على الإيمان فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وصدقوا رسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ بأوليائه وأهل طاعته من الكرامة، وبأعدائه وأهل معصيته من الإهانة، لا يدفعه دافع ولا يمنعه مانع. ثم قال: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ الهاء في ﴿يَنْصُرُهُ﴾ عائدة إلى النبي ﷺ، عن ابن عباس وقتادة، والمعنى: من كان يظن أن الله لن ينصر نبيه محمداً ﷺ ولا يعينه على عدوه ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: فليشد حبلاً في سقفه ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ أي: ليمدد ذلك الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً، والمعنى: فليخنق غيظاً حتى يموت فإن الله ناصره ولا ينفعه غيظه، وهو قوله: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهَبَ كَيْدُهُ﴾ أي: صنعه وحيلته. ﴿مَا يَغِيظُ﴾ ما بمعنى المصدر أي: هل يذهبن كيده غيظه، عن قتادة وأكثر المفسرين، وقيل: فليمدد بسبب إلى السماء معناه: فليطلب شيئاً يصل به إلى السماء المعروفة ثم ليقطع نصر الله ووحى الله عن محمد ﷺ، وليلز بكيده ما يغيه من نصر الله له، ونزول الوحي عليه، أي: لا يتهياً له ذلك ولا سبيل له إليه فليتجرع ما يغيه. وإنما قال سبحانه ذلك على وجه التبعيد أي: كما لا يتهياً لهم الوصول إلى السماء، كذلك لا يتهياً لهم إزالة ما يغيزهم من أمر رسول الله ونصره على أعدائه دائماً. وإنما ذكر السماء لأن النصر يأتيه من قبل السماء ومن الملائكة، عن أبي علي الجبائي. وقيل: إن الهاء في ﴿يَنْصُرُهُ﴾ عائدة إلى ﴿مِنْ﴾، عن مجاهد والضحاك وأبي مسلم. ثم اختلف في معناه فقيل: من كان يظن من الناس أن الله لا ينصره، فليجهد جهده وليصعد السماء ثم ليقطع المسافة، فلينظر هل ينفعه كيده في إزالة غيظه لما يدعى إليه من دين الله، فإن الذي حكم الله به لا يبطل بكيد الكائد، عن أبي مسلم. وقيل: المراد بالنصر الرزق. ويقال: أرض منصوره أي: ممطورة، والمعنى: من ظن أن الله لا يرزقه في الدنيا والآخرة، فليخنق نفسه أي:

سورة الحج

لا يمكنه تكثير رزقه أي: كما لا يقدر أن يزيد فيما رزقه الله بهذا النوع من الكيد، كذلك لا يقدر عليه بسائر أنواع الكيد. وهذا مثل ضربه الله لهذا الجاهل الذي يسخط لما أعطاه الله أي: مثله مثل من فعل بنفسه هذا.



قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ (١٦) **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** (١٧) **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** (١٨).

● **الإعراب:** خبر ﴿إِنَّ﴾ الأولى جملة الكلام مع ﴿إِنَّ﴾ الثانية وزعم الفراء أن قولك: إن زيدا إنه لقائم. وَرَوِي أَنَّ هذه الآية إنما صلحت في الذي. قال الزجاج: لا فرق بين الذي وغيره في باب إن. إن قلت: إن زيدا إنه قائم، كان جيدا، قال جرير:

إِنَّ الْخَلِيفَةَ إِنَّ اللَّهَ سَزَبَلَهُ سِزْبَالَ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ

● **المعنى:** ثم بين سبحانه أنه نزل الآيات حجة على الخلق فقال: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ما تقدم من آيات القرآن ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ يعني القرآن ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: حججا واضحة على التوحيد والعدل والشرائع. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ أي: وأنزلنا إليك أن الله يهدي إلى الدين من يريد، وقيل: إلى النبوة، وقيل: إلى الثواب، وقيل: يهدي من يهتدي بهداه ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود ﴿وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ظاهر المعنى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يبين المحق من المبتل بما يضطر إلى العلم بصحة الصحيح، فيبيض وجه المحق، ويسود وجه المبتل. والفصل: التمييز بين الحق والباطل. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عليم مطلع على ما من شأنه أن يشاهد بعلمه قبل أن يكون، لأنه علام الغيوب.

ثم خاطب النبي ﷺ والمراد به جميع المكلفين فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ من العقلاء ﴿وَالشَّمْسُ﴾ أي: ويسجد الشمس ﴿وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ وصف سبحانه هذه الأشياء بالسجود، وهو الخضوع والذل والانقياد لخالقها فيما يريد منها ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني: المؤمنين الذين يسجدون لله تعالى، وانقطع ذكر الساجدين ثم ابتداء فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي: ممن أبى السجود ولا يوحده سبحانه. قال الفراء: قوله ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ يدل على أن المعنى: وكثير

أبى السجود، لأنه لا يحق عليه العذاب إلا بتركه السجود. ﴿وَمَنْ يُنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ معناه: من يهتد بالله بأن يشقيه ويدخله جهنم فما له من مكرم بالسعادة أي: بإدخاله الجنة، لأنه لا يملك العقوبة والمثوبة سواه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ من الإنعام والانتقام بالفريقين من المؤمنين والكافرين.



قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن تَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْصِعٌ مِّن حديدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدًى إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدًى إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وعاصم: «لؤلؤاً» بالنصب، وفي سورة فاطر مثله. والباقون بالجر في الموضعين، إلا يعقوب فإنه قرأ: «ههنا» بالنصب، وفي فاطر بالجر. وترك أبو جعفر وأبو بكر وشجاع الهمزة الأولى منه في جميع القرآن. وفي الشواذ قراءة ابن عباس: «يحلون» بفتح الياء وتخفيف اللام.

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه الجر في «لؤلؤ» أنهم يحلون فيها من أساور من ذهب ومن لؤلؤ. ووجه النصب أنه على «ويحلون لؤلؤاً»، ويجوز أن يكون عطفاً على موضع الجار والمجرور لأن المعنى في «يحلون فيها من أساور»: يحلون أساور. وقال ابن جني: يحلون من حلي يحلى يقال: لم أحل منه بطلال، أي: لم أظفر. ويجوز أن يكون من قولهم: امرأة حالية. أي: ذات حلي.

● **اللغة:** الخصم: يستوي فيه الواحد والجمع والذكر والأنثى، يقال: رجل خصم، ورجلان خصم، ورجال خصم ونساء خصم، وقد يجوز في الكلام: هذان خصمان اختصموا، وهؤلاء خصم اختصموا. قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَنتَكَ نَبُوءُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾، وهكذا حكم المصادر إذا وصف بها أو أخبر بها نحو: عدل ورضى وصوم وفطر وزور وحري وقمن، وما أشبه ذلك. وإنما قال في الآية ﴿خَصْمَانِ﴾ لأنهما جمعان وليسا برجلين. ومثله ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾. والحميم: الماء المغلي، والصهر: الإذابة يقال: صهرته فانصهر. قال:

تروي لقي ألقى في صفصف تضره الشمس فلا ينصهر^(١)

(١) قائله: ابن أحمر يصف فرخ قطاة. قوله: «تروي» أي: تسوق إليه الماء أي تصير له كالراوية. والصفصف: الغلاة. وقوله: «تضره الشمس..» أي: تذيبه الشمس فيصبر على ذلك.

سورة الحج

يعني: ولدها، والمقامع: جمع مقمعة وهي مدقة الرأس، من قمعه قمعاً: إذا دقه. والحريق: بمعنى المحرق كالأليم، والأساور: جمع أسوار وفيه ثلاث لغات أسوار بالالف، وسوار وسوار بالكسر والضم، والجمع أسورة.

النزول: قيل: نزلت الآية ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا﴾ في ستة نفر من المؤمنين والكفار، تبارزوا يوم بدر وهم: حمزة بن عبد المطلب قتل عتبة بن ربيعة، وعلي بن أبي طالب عليه السلام قتل الوليد بن عتبة، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب قتل شيبه بن ربيعة، عن أبي ذر الغفاري وعطاء. وكان أبو ذر يقسم بالله تعالى إنها نزلت فيهم، ورواه البخاري في الصحيح وقيل: نزلت في أهل القرآن وأهل الكتاب، عن ابن عباس، وقيل: في المؤمنين والكافرين عن الحسن ومجاهد والكلبي، وهذا قول أبي ذر إلا أن هؤلاء لم يذكروا يوم بدر.

● المعنى: لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين بين سبحانه ما أعدّه لكل واحد من الفريقين فقال. ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ أي: جمعان، فالفرق الخمسة الكافرة خصم، والمؤمنون خصم، وقد ذكروا في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ﴾ الآية. ﴿أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ أي: في دين ربهم، فقالت اليهود والنصارى للمسلمين: نحن أولى بالله منكم لأن نبينا قبل نبيكم، وديننا قبل دينكم، وقال المسلمون: بل نحن أحق بالله منكم آمنا بكتابنا وكتابكم ونبينا ونبيكم، وكفرتم أنتم بنبينا حسداً، فكان هذا خصومتهم. وقيل: إن معنى اختصموا اقتتلوا يوم بدر. ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ قال ابن عباس: حين صاروا إلى جهنم لبسوا مقطعات النيران، وهي الثياب القصار. وقيل: يجعل لهم ثياب نحاس من نار، وهي أشد ما تكون حراً، عن سعيد بن جبير، وقيل: إن النار تحيط بهم كإحاطة الثياب التي يلبسونها بهم ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ أي: الماء المغلي فيذيب ما في بطونهم من الشحوم وتتساقط الجلود. وفي خبر مرفوع أنه يصب على رؤوسهم الحميم فينفذ إلى أجوافهم فيسلت ما فيها. ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أي: يذاب وينضج بذلك الحميم ما فيها من الأمعاء وتذاب به الجلود. ﴿وَلَهُمْ مَّقْتَبِعٌ مِّنْ حَديدٍ﴾ قال الليث: المقمعة شبه الجزر من الحديد، يضرب بها الرأس، وروى أبو سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَلَهُمْ مَّقْتَبِعٌ مِّنْ حَديدٍ﴾: «لو وضع مقمعة من حديد في الأرض ثم اجتمع عليه الثقلان ما أفلوه من الأرض». وقال الحسن: إن النار ترميهم بلهبها حتى إذا كانوا في أعلاها، ضربوا بمقامع فهوا فيها سبعين خريفاً، فإذا انتهوا إلى أسفلها، ضربهم زفير لهبها، فلا يستقرون ساعة. فذلك قوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي: كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذي يأخذ بأنفسهم حين ليس لها مخرج، ردوا إليها بالمقامع. ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: ويقال لهم ذوقوا، والذوق: طلب إدراك الطعم، والحريق: الاسم من الاحتراق.

قال الزجاج: هذا لأحد الخصمين. وقال في الخصم الذين هم المؤمنون ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله وأقروا بوحدانيته ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت أبنيتها وأشجارها ﴿مُخْلَوْنَ فِيهَا﴾ أي: يلبسون الحلي فيها ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ وهي: حلي اليد

﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: ومن لؤلؤ ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: ديباج. حرم الله سبحانه لبس الحرير على الرجال في الدنيا وشوقهم إليه في الآخرة، فأخبر أن لباسهم في الجنة حرير. ﴿وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: أرشدوا في الجنة إلى التحيات الحسنة، يُحَيِّي بعضهم بعضاً، ويحييهم الله وملائكته بها. وقيل: معناه أرشدوا إلى شهادة أن لا إله إلا الله والحمد لله، عن ابن عباس. وزاد ابن زيد: والله أكبر، وقيل: أرشدوا إلى القرآن، عن السدي، وقيل: إلى القول الذي يلتذونه ويستهون به نفوسهم. وقيل: إلى ذكر الله فهم به يتنعمون ﴿وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ والحميد: هو الله المستحق للحمد المستحمد إلى عباده بنعمه، عن الحسن، أي: الطالب منهم أن يحمده. ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أحد أحب إليه الحمد من الله، عز ذكره». وصراط الحميد هو طريق الإسلام وطريق الجنة.



قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمِ نُذُقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَثَامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ الْأَنْعَمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَاسِ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَهُمْ وَلِيَطَوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَمُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حفص عن عاصم وروح وزيد عن يعقوب: «سواء» بالنصب، والباقون بالرفع. وفي الشواذ قراءة ابن عباس وابن مجلز ومجاهد وعكرمة والحسن: «رُجَالًا» بالتشديد والضم، وهو المروي عن أبي عبد الله ﷺ. وقراءة ابن أبي إسحاق والزهري والحسن بخلاف: «رُجَالًا» بالضم والتخفيف.

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه الرفع في «سواء» أنه خبر مبتدأ مقدم، والمعنى: العاكف فيه والبادي سواء، ليس أحدهما بأحق به من صاحبه. وهذا يدل على أن أرض الحرم لا تملك ولو ملكت لم يستويا فيها، وصار العاكف فيها أولى بها من البادي لحق ملكه ولكن سبيلها سبيل المساجد التي من سبق إليها كان أولى بها. ومن نصب «سواء» أعمل المصدر إعمال اسم الفاعل فرفع العاكف به، كما يرفع بمستوي لو قال: جعلناه مستويًا العاكف فيه والبادي. وجه إعماله أن المصدر قد يقوم مقام اسم الفاعل في الصفة في نحو قولهم: رجل

سورة الحج

عدل، فيصير عدل كعادل. ويجوز في نصب «سواء» وجه آخر، وهو أن تنصبه على الحال، فإذا نصبت عليها وجعلت قوله للناس مستقراً جاز أن يكون حالاً يعمل فيها معنى الفعل، وذو الحال الذكر الذي في المستقر. ويجوز أن يكون حالاً من الفعل الذي هو ﴿جَعَلْتَهُ﴾ فإن جعلتها حالاً من الضمير المتصل بالفعل، كان الضمير ذا الحال، والعامل فيها الفعل، وجواز كون للناس مستقراً على أن يكون المعنى أنه جعل للناس، ونصب لهم منسكاً ومتعبداً، كما قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾. وأما قوله «رُجَالاً» فهو جمع راجل مثل: طالب وطلاب، وكاتب وكتّاب. وأما «رُجَالاً» بتخفيف الجيم فهو غريب في الجمع، فهو نحو: ظُور وعُراق ورُخال، في جمع ظئر وعرق ورخل.

● **اللغة:** العاكف: المقيم الملازم للمكان، والبادي: أصله من بدا يبدو: إذا ظهر، والبدو: خلاف الحضر، سُمي بذلك لظهوره. والبادي في الآية: الطارىء، والمكان: ما يتمكن عليه الشيء، قيل: هو اسم لما أحاط بالشيء. والمكان والموضع والمستقر نظائر، والرجال: جمع راجل مثل صحاب وقيام في جمع صاحب وقائم، والضامر المهزول أضمره السير، والعميق: البعيد. قال الراجز: «يقطعن بعد النازح العميق». والبائس: الذي به ضرّ الجوع، والفقير: الذي لا شيء له. يقال: بؤس فهو بائس أي: صار ذا بؤس وهو الشدة، قال الأزهري: لا يعرف التث في لغة العرب إلا من قول ابن عباس وأهل التفسير. وقال النضر بن شميل: هو إذهاب الشعث.

● **الإعراب:** خبر ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ محذوف يدل عليه ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمِ نُزْقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. فالمعنى: إن الذين كفروا نذيقهم العذاب الأليم، ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ﴾: الباء فيه زائدة تقديره: ومن يرد فيه إلحاداً. والباء في قوله: ﴿يُظْلَمِ﴾ للتعدية وما جاءت الباء فيه مزيدة، قول الشاعر:

بَوَادٍ يَمَانٍ يُنْبِتُ الشَّتَّ صَدْرُهُ وَأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ وَالشُّبُهَانِ^(١)

وقول الأعشى:

ضَمِنْتُ بِرِزْقِ عِيَالِنَا أَرْمَاحُنَا مِلءَ الْمَرَاجِلِ وَالصَّرِيحِ الْأَجْرَدِ^(٢)

وقال امرؤ القيس:

أَلَا هَلْ أَتَاهَا وَالْحَوَادِثُ جَمَّةً بَأْنَ امْرَأَ الْقَيْسِ بِنَ تَمْلِكَ بَيَّقَرَا^(٣)

وقال الزجاج: والذي يذهب إليه أصحابنا أن الباء ليست بملغاة، والمعنى عندهم: ومن إرادته فيه بأن يلحد بظلم، وهو مثل قوله:

(١) الشت: شجر طيب الريح، مر الطعم، يدبغ به. والمَرْخ والشُّبُهَان: نوعان من الشجر.

(٢) المَراجِل: ضرب من الثياب. والصَّرِيحُ الْأَجْرَد: أراد به اللبن الخالص الذي لا رغو فيه.

(٣) بَيَّقَرَا: أي أعيا، وبَيَّقَر: هلك، وبَيَّقَر: مشى مشية المنكس، وبَيَّقَر: أفسد «لسان العرب».

أُرِيدُ لِأَنسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تَمَثَّلَ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلٍ

والمعنى: أريد وإرادتي لهذا. ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ في موضع نصب على الحال أي: يأتوك رجالاً وركبانا. و﴿يَأْتِيكَ﴾ في موضع جر لأن المعنى في قوله: ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ على إبل ضامرة آتية من كل فج عميق. ورؤي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قرأ: «يأتون». فعلى هذا يعود الضمير في يأتون إلى الناس.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه حال الكفار فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عطف بالمضارع على الماضي، لأن المراد بالمضارع أيضاً الماضي، ويقويه قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ويجوز أن يكون المعنى: إن الذين كفروا فيما مضى، وهم الآن يصدون الناس عن طاعة الله ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: مستقراً ومنسكاً، ومتعبداً، وقيل: معناه خلقناه للناس كلهم لم يخص به بعض دون بعض، قال الزجاج: جعلناه للناس وقف تام. ثم قال: ﴿سَوَاءٌ أَلْعَكِفُ فِيهِ وَالْبَاءُ﴾ أي: العاكف المقيم فيه، والباد الذي ينتابه^(١) من غير أهله، مستويان في سكناه والنزول به، فليس أحدهما أحق بالمنزل يكون فيه من الآخر، غير أنه لا يخرج أحد من بيته، عن ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير قالوا: إن كراء دور مكة وبيعها حرام. والمراد بالمسجد الحرام على هذا، الحرم كله كقوله: ﴿أَسْرَى يَعْبُدُوهُ لِيَأْخُذَ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وقيل: المراد بالمسجد الحرام عين المسجد الذي يصلى فيه، عن الحسن ومجاهد والجبائي، والظاهر يدل عليه. وعلى هذا يكون المعنى في قوله ﴿جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: قبلة لصلاتهم ومنسكاً لحجهم، فالعاكف والباد سواء في حكم النسك. وكان المشركون يمنعون المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام والطواف به، ويدعون أنهم أربابه وولاته. ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ﴾ والإلحاد: العدول عن القصد، واختلف في معناه ههنا فقيل: هو الشرك وعبادة غير الله تعالى، عن قتادة. فكانه قال: ومن يرد فيه ميلاً عن الحق بأن يعبد غير الله ظلماً وعدواناً، وقيل: هو الاستحلال للحرام والركوب للآثام، عن ابن عباس والضحاك ومجاهد وابن زيد، وقيل: هو كل شيء نهى عنه حتى شتم الخادم لأن الذنوب هناك أعظم، وقيل: هو دخول مكة بغير إحرام، عن عطاء. ﴿ثَذِّقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي: نعهبه عذاباً وجيعاً، وقيل أن الآية نزلت في الذين صدوا رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية. ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ معناه: واذكر يا محمد إذ وطأنا لإبراهيم مكان البيت، وعرفناه ذلك بما جعلنا له من العلامة. قال السدي: إن الله تعالى لما أمره ببناء الكعبة، لم يدر أين يبني، فبعث الله ريحاً خجوجاً^(٢)، فكنست له ما حول الكعبة عن الأساس الأول الذي كان البيت عليه، قبل أن رفع أيام الطوفان. وقال الكلبي: بعث الله سبحانه على قدر البيت، فيها رأس تتكلم، فقامت بحيال الكعبة وقالت: يا إبراهيم ابن علي قدري، وقيل: إن المعنى: جعلنا البيت مثوبة ومسكنة، عن ابن الأنباري. ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا﴾ أي: وأوحينا إليه أن لا تعبد غيري، قال المبرد: كأنه

سورة الحج

قال وَحَذَنِي فِي هَذَا الْبَيْتِ، لَأَنْ مَعْنَى لَا تَشْرِكْ بِي شَيْئاً: وَحَذَنِي ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ مِنَ الشَّرِكِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، عَنْ قَتَادَةَ. ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ مفسر بسورة البقرة، والمراد بالقائمين: المقيمين بمكة، وقيل: القائمين في الصلاة عن عطاء ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أي: ناد في الناس وأعلمهم بوجوب الحج. واختلف في المخاطب به على قولين:

أحدهما: أنه إبراهيم، عن علي وابن عباس واختاره أبو مسلم. قال ابن عباس: قام في المقام فنادى: يا أيها الناس! إن الله دعاكم إلى الحج فأجابوا بلييك اللهم لييك.

والثاني: أن المخاطب به نبينا محمد عليه أفضل الصلوات أي: وأذن يا محمد في الناس بالحج، فأذن صلوات الله عليه في حجة الوداع أي: أعلمهم بوجوب الحج، عن الحسن والجاثي. وجمهور المفسرين على القول الأول، وقالوا: أسمع الله تعالى صوت إبراهيم كل من سبق علمه بأنه يحج إلى يوم القيامة، كما أسمع سليمان مع ارتفاع منزلته، وكثرة جنوده حوله، صوت النملة مع خفضه وسكونه. وفي رواية عطاء عن ابن عباس قال: لما أمر الله سبحانه إبراهيم أن ينادي في الناس بالحج، صعد أبا قبيس ووضع أصبعه في أذنيه، وقال: يا أيها الناس أجبوا ربكم. فأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال، وأول من أجابه أهل اليمن. ﴿يَأْتُوكَ رِكَالاً﴾ أي: مشاة على أرجلهم ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: ركبناً. قال ابن عباس: يريد الإبل ولا يدخل بعير ولا غيره الحرم، إلا وقد هزل. وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال لبنيه: يا بني! حجوا من مكة مشاة حتى ترجعوا إليها مشاة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «للحاج الراكب بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة، وللحاج المشي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم». قيل: وما حسنات الحرم؟ قال: «الحسنة بمائة ألف حسنة». ﴿يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فَيْحٍ عَمِيقٍ﴾ أي: طريق بعيد، ورؤي مرفوعاً عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة، يقول: يا ملائكتي! انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً، أقبلوا يضربون إلي من كل فَيْحٍ عميق، فأشهدكم أنني قد أجبت دعاءهم وشفعت رغبتهم، ووهبت مسيئتهم لمحسنهم، وأعطيت محسنهم جميع ما سألوني غير التبعات التي بينهم. فإذا أفاض القوم إلى جَمْعٍ ووقفوا وعادوا في الرغبة والطلب إلى الله، يقول: يا ملائكتي! عبادي وقفوا وعادوا في الرغبة والطلب، فأشهدكم أنني قد أجبت دعاءهم وشفعت رغبتهم ووهبت مسيئتهم لمحسنهم، وأعطيت محسنهم جميع ما سألني، وكفلت عنهم بالتبعات التي بينهم». وقوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قيل: يعني بالمنافع التجارات عن ابن عباس، وسعيد بن جبير. وقيل: التجارة في الدنيا، والأجر والثواب في الآخرة، عن مجاهد، وقيل: هي منافع الآخرة وهي العفو والمغفرة، عن سعيد بن المسيب وعطية العوفي، وهو المزوي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام. ويكون المعنى: ليحضروا ما ندبهم الله إليه مما فيه النفع لهم في الآخرة. ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتٍ مُّعْلُونَةٍ﴾ اختلف في هذه الأيام وفي الذكر فيها فقيل: هي أيام العشر، وقيل لها معلومات: للحرص على علمها من أجل وقت الحج في آخرها. والمعدودات: أيام التشريق، عن الحسن ومجاهد. وقيل: هي أيام التشريق يوم النحر، وثلاثة بعده. والمعدودات: أيام العشر، عن ابن عباس، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام. واختاره

الزجاج قال: لأن الذكر ههنا يدل على التسمية على ما ينحر لقوله ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: على ذبح ونحر ما رزقهم من الإبل والبقر والغنم، وهذه الأيام تختص بذلك. وقيل: إن الذكر فيها كناية عن الذبح، لأن صحة الذبح لما كان بالتسمية سمي باسمه توسعاً. وقيل: هو التكبير، قال أبو عبد الله عليه السلام: التكبير بمنى عقيب خمس عشرة صلاة، أولها صلاة الظهر من يوم النحر يقول: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد، الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أبلانا، والله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام. والبهيمة: أصلها من الإبهام، وذلك أنها لا تفصح كما يفصح الحيوان الناطق. والأنعام: الإبل. واشتقاقها من النعمة وهي اللين، سميت بذلك للين أخفافها. وقد يجتمع معها البقر والغنم فيسمى الجمع أنعاماً اتساعاً، وإن انفردا لم يسميا أنعاماً.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي: من بهيمة الأنعام، وهذا إباحة وندب وليس بواجب ﴿وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾ فالبائس: الذي ظهر عليه أثر البؤس من الجوع والعري، وقيل: البائس الذي يمد يده بالسؤال ويتكفف للطلب. أمر سبحانه أن يُعطى هؤلاء من الهدى ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي: ليزيلوا شعث الإحرام من تقليم ظفر وأخذ شعر وغسل واستعمال طيب، عن الحسن، وقيل: معناه ليقضوا مناسك الحج كلها، عن ابن عباس وابن عمر، قال الزجاج: قضاء التفث كناية عن الخروج من الإحرام إلى الإحلال. ﴿وَلْيَذُكُّوا نَذْرَهُمْ﴾ أي: وليتموا نذورهم بقضائها، ولم يقل بنذورهم لأن المراد بالإيفاء الإتمام. قال ابن عباس: هو نحر ما نذروا من البدن، وقيل: هو ما نذروا من أعمال البر في أيام الحج، وربما نذر الإنسان أن يتصدق إن رزقه الله الحج، وإن كان على الرجل نذور مطلقة فالأفضل أن يفي بها هناك. ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ هذا أمر وظاهره يقتضي الوجوب. وقيل: أراد به طواف الزيارة لأنه من أركان أفعال الحج بلا خلاف. وقيل: إنه طواف الصدر^(١) لأنه سبحانه أمر به عقيب المناسك كلها، وروى أصحابنا أن المراد به طواف النساء الذي يستباح به وصل النساء، وذلك بعد طواف الزيارة، فإنه إذا طاف طواف الزيارة حل له كل شيء إلا النساء، فإذا طاف طواف النساء حلت له النساء. والبيت العتيق هو الكعبة، وإنما سمي عتيقاً لأنه أعتق من أن يملكه العبيد، عن مجاهد وسفيان بن عيينة وأبي مسلم. وقيل: إنما سمي عتيقاً لأنه أعتق من أن تصل الجابرة إلى تخريبه، وما قصده جبار قبل نبينا ﷺ إلا أهلكه الله تعالى، وإنما لم يهلك الحجاج حين نقضه، وبناء ثانياً ببركة نبينا ﷺ، فإن الله سبحانه أمن ببركته هذه الأمة من عذاب الاستئصال، عن مجاهد. وقيل: سمي به لأنه أعتق من الطوفان فغرقت الأرض كلها إلا موضع البيت، وقيل: سمي به لأنه قديم فهو أول بيت وضع للناس بناه آدم عليه السلام، ثم جده إبراهيم عليه السلام، عن ابن زيد. ﴿ذَلِكَ﴾ قيل: ههنا وقف، ومعناه الأمر ذلك أي: هكذا أمر الحج والمناسك ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ حَرٌّ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: فالتعظيم خير له عند ربه أي: في الآخرة، والحرمة: ما لا يحل انتهاكه، وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه، وهي في هذه الآية ما نهى

(١) قال الطريحي: طواف الصدر: طواف الرجوع من (منى).

سورة الحج

عنها، ومنع من الوقوع فيها، وتعظيمها ترك ملامستها. واختار أكثر المفسرين في معنى الحرمات هنا أنها المناسك لدلالة ما يتصل بها من الآيات على ذلك. وقيل: معناها ههنا البيت الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمسجد الحرام، عن ابن زيد، قال: ويدل عليه قوله: ﴿وَأَحِلَّتْ لَكُمُ الْبَقَرُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ﴾ ﴿إِلَّا مَا يَتَلَبَّسُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني في سورة المائدة من الميتة والمنخنقة والموقوذة ونحوها، ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ هنا للتبيين، والتقدير: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وروى أصحابنا أن اللعب بالشرطنج والنرد وسائر أنواع القمار من ذلك، وقيل: إنهم كانوا يلطخون الأوثان بدماء قرايبهم، فسمي ذلك رجساً ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ يعني: الكذب، وقيل: هو تلبية المشركين: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وروى أصحابنا أنه يدخل فيه الغناء وسائر الأقوال الملهية. وروى أيمن بن خريم، عن رسول الله ﷺ أنه قام خطيباً فقال: أيها الناس! عدلت شهادة الزور بالشرك بالله، ثم قرأ ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ يريد أنه قد جمع في النهي بين عبادة الوثن وشهادة الزور.



قوله تعالى: ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْفُسِ فَالْهَكُمُ إِلَهٌُ وَحْدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥).

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة: «فتخطفه» بفتح الخاء مشدداً، والباقون: «فتخطفه» بسكون الخاء والتخفيف، وقرأ: «منسكاً» بالكسر أهل الكوفة غير عاصم. والباقون: «منسكاً» بالفتح، وفي الشواذ قراءة الحسن وابن أبي إسحاق: «والمقيمي الصلاة» بالنصب.

● **الحجة:** تَخَطَّفُ تَتَخَطَّفُ: فحذف تاء التفعّل، وهما في كلا القراءتين حكاية حال تكون، والمعنى في ذلك أنه في مقابلة قوله: ﴿فَقَدْ اسْتَسَكَ بِالْعَزْوَةِ الْوُفْقَى لَا أَنْفَصَامَ لَهَا﴾، فالشرك بعكس هذا الوصف، فلم يستمسك لكفره بما فيه أمان من الخرور، ونجاة من الهوى، واختطاف الطير، فصار كمن خرّ من السماء، فهوت به الريح، فلم يكن له معتصم. والأصل في المنسك الفتح، لأنه لا يخلو من أن يكون مصدرأً أو مكاناً، وكلاهما مفتوح العين من باب يفعل، إلا أنه قد جاء اسم المكان منه في كلمات على المفعّل، نحو: المطلع والمسجد شاذاً عن القياس. ومن قرأ: «والمقيمي الصلاة» فإنه حذف النون تخفيفاً لا لتعاقبها الإضافة، وشبه ذلك بالذين والذات في قول الشاعر:

وإِنَّ الَّذِي حَاسَتْ بَقْلَجٍ دِمَاؤُهُمْ هُمْ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ ^(١)
وقول الأخطل:

وَأَبْنِي كُلِّيبٍ إِنَّ عَمِّي الْذَا قَتَلَ الْمُلُوكَ وَفَكَّكَ الْأَغْلَالَا
ونحوه بيت الكتاب:

والحَافِظُونَ عَوْرَةَ الْعَشِيرَةِ لَا يَأْتِيهِمْ مِنْ وَرَائِهِمْ وَكُفُّ^(٢)
وقال آخر:

قَتَلْنَا نَاجِيًا بِقَتِيلٍ عَمَرُوا وَخَيْرُ الطَّالِبِي الثَّرَةِ الْعَشُومُ^(٣)

● **اللغة:** الخطف والإخطف: الاستلاب، والسحيق: البعيد، والسحوق: النخلة الطويلة، والشعائر: علامات مناسك الحج التي تشعر بما جعلت له، وأشعرت البدن: أعلمتها بما يشعر أنها هدي، والمنسك: موضع العبادة، والنسك: العبادة، يقال: نسك ينسك وينسك أي: تعبّد. وقيل: هو عبادة الذبح، والنسيكة: الذبيحة، يقال: نسكت الشاة: ذبحتها، والإخبات: الخضوع والطمأنينة، وأصله من الخبت وهو المكان المطمئن، وقيل: المنخفض.

● **المعنى:** قال سبحانه ﴿حُقَّ لِلَّهِ﴾ أي: مستقيمي الطريقة على أمر الله، مائلين عن سائر الأديان، وهي نصب على الحال. ﴿غَيْرَ شُرَيْكِينَ بِهِ﴾ أي: حاجاجاً مخلصين وهم مسلمون موحدون، لا يشركون في تلبية الحج به أحداً. ثم ضرب سبحانه مثلاً لمن أشرك فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ السَّمَاءُ﴾ أي: سقط من السماء ﴿فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ﴾ أي: تأخذه بسرعة. قال ابن عباس: يريد تخطف لحمه ﴿أَوْ نَهَوَىٰ بِهِ الْرِمْحُ﴾ أي: تسقطه ﴿فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾ أي: بعيد مفرط في البعد.

قال الزجاج: أعلم الله سبحانه أنَّ بُعد من أشرك به من الحق كبعد من خَرَّ من السماء، فذهبت به الطير أو هوت به الريح في مكان بعيد، وقال غيره: شبه حال المشرك بحال الهاوي من السماء في أنه لا يملك لنفسه حيلة، فهو هالك لا محالة ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك الذي ذكرناه ﴿وَمَنْ يُضَظِّمْ شَعْتِرَ اللَّهِ﴾ أي: معالم دين الله والأعلام التي نصبها لطاعته، ثم اختلف في ذلك، فقول: هي مناسك الحج كلها، عن ابن زيد. وقيل: هي البدن. وتعظيمها: استسمانها واستحسانها، عن مجاهد وعن ابن عباس في رواية مقسم. والشعائر: جمع شعيرة وهي البدن إذا أشعرت أي: أعلمت عليها بأن يشق سنامها من الجانب الأيمن، ليعلم أنها هدي. فالذي يهدي مندوب إلى طلب الأسمن والأعظم، وقيل شعائر الله: دين الله كله، وتعظيمها: التزامها، عن الحسن. ﴿فَأَنهَآ﴾ أي: فإن تعظيمها للدلالة تعظيم عليه. ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه فقال: فإنها ﴿مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى، تقوى

(١) حان الرجل: هلك. وفلج: اسم بلد. (٣) الثرة: الثأر. ورجل غشوم: أي ظالم.

(٢) الوكف: العيب.

سورة الحج

القلوب، وقيل: أراد صدق النية. ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الشعائر ﴿مَنْفَعٌ﴾ فمن تأول أن الشعائر الهدى قال: إن منافعها ركوب ظهورها، وشرب ألبانها إذا احتيج إليها، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، وهو قول عطاء بن أبي رباح ومذهب الشافعي. وعلى هذا فقوله ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معناه: إلى أن ينحر. وقيل: إن المنافع من رسلها ونسلها وركوب ظهورها وأصوافها وأوبارها ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى أن يسمى هدياً، وبعد ذلك تنقطع المنافع، عن مجاهد وقتادة والضحاك، والقول الأول أصح لأنها قبل أن تسمى هدياً، لا تسمى شعائر. ومن قال: إن الشعائر مناسك الحج قال: المراد بالمنافع التجارة إلى أجل مسمى إلى أن يعود من مكة، ومن قال: إن الشعائر دين الله قال: لكم فيها منافع أي: الأجر والثواب. والأجل المسمى: القيامة. ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ومن قال: إن شعائر الله هي البدن قال: معناه أن محل الهدى والبدن الكعبة، وقيل: محله الحرم كله. وقال أصحابنا: إن كان الهدى للحج فمحله منى، وإن كان للعمرة المفردة فمحله مكة قبالة الكعبة بالجزورة، ومحله حيث يحل نحرها. ومن قال: إن الشعائر مناسك الحج قال: معناه ثم محل الحج والعمرة والطواف بالبيت العتيق، وأن منتهاها إلى البيت العتيق. لأن التحلل يقع بالطواف، والطواف يختص بالبيت. ومن قال: إن الشعائر هي الدين كله، فيحتمل أن يكون معناه: أن محل ما اختص منها بالإحرام هو البيت العتيق، وذلك الحج والعمرة في القصد له، والصلاة في التوجه إليه، ويحتمل أن يكون معناه: إن أجراها على رب البيت العتيق.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّرِزْقِهِمْ﴾ أي: لكل جماعة مؤمنة من الذين سلفوا جعلنا عبادة في الذبح، عن مجاهد. وقيل: قرباناً أجلاً لهم ذبحه. وقيل: متعبداً وموضع نسك يقصده الناس، وقيل: منهاجاً وشريعة، عن الحسن ﴿يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: تعبدها بذلك ليعلموا اسم الله على ما رزقناهم من بهيمة الأنعام، وبهيمة غير الأنعام لا يحل ذبحها، ولا التقرب بها. وفي هذا دلالة على أن الذبائح غير مختصة بهذه الأمة، وأن التسمية على الذبح كانت مشروعة قبلنا ﴿فَالْهَكَرُ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ أي: معبودكم الذي توجهون إليه العبادة واحد لا شريك له والمعنى: فلا تذكروا على ذبائحكم إلا الله وحده ﴿فَلَهُ اسْلِمُوا﴾ أي: انقادوا وأطيعوا. ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: المتواضعين المطمئنين إلى الله، عن مجاهد، وقيل: الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لا ينتصرون، كأنهم اطمأنوا إلى يوم الجزاء. ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: إذا خوفوا بالله خافوا ﴿وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ من البلياء والمصائب في طاعة الله ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ في أوقاتها يؤدونها كما أمرهم الله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: يتصدقون من الواجب وغيره، عن ابن عباس.



قوله تعالى: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْفَايَ وَالْمُعَزَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا

لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ بِنَاءُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِهَا اللَّهُ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾ اذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

● **القراءة:** قرأ: «لن تنال الله ولكن تناله» بالتاء يعقوب. وقرأ الأول بالتاء أبو جعفر، وقرأ الباقر بالتاء فيهما. وقرأ ابن كثير وأهل البصرة: «إن الله يدفع» بغير ألف، والباقر: «يدفع» بالألف. وقرأ أهل المدينة ويعقوب: «ولولا دفاع الله» بالألف، والباقر: «دفع الله» بغير ألف. وقرأ أهل المدينة وحفص: «أذن» بضم الألف «يقاتلون» بفتح التاء، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو ويعقوب: «أذن» بضم الألف «يقاتلون» بكسر التاء. وقرأ ابن عامر: «أذن» بفتح الألف «يقاتلون» بفتح التاء. والباقر: «أذن» بفتح الألف «يقاتلون» بكسر التاء. وقرأ أهل الحجاز: «لهدمت» خفيفة الدال، والباقر بالتشديد. وأظهر التاء عاصم ويعقوب، وأدغمه الآخرون. وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو جعفر الباقر عليه السلام وقاتادة وعطاء والضحاك: «صوافن» بالنون. وقرأ الحسن وشفيع وأبو موسى الأشعري وسليمان التيمي: «صوافي». وقرأ جعفر بن محمد عليه السلام: «وصلوات» بضم الصاد واللام، وقرأ الجحدري والكلبي: «وصلوات» بضم الصاد وفتح اللام.

● **الحجة:** التأنيث في «تنال» للجماعة ولللفظ التقوى. والتذكير لمعنى الجمع، لأن التقوى بمعنى الانتقاء، والدفع: مصدر دفع، والدفاع: مصدر دافع، وقد يكون فاعل بمعنى فعل نحو: طارقت النعل وعاقبت اللص. وأما قوله: ﴿اِذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ﴾ فالقراءات فيها متقاربة. والمأذون لهم في القتال أصحاب رسول الله ﷺ، وما ظلموا به: أن المشركين أخرجوهم من ديارهم حتى لحق طائفة منهم بالحبيشة، ثم هاجروا إلى المدينة. فمن قرأ «أذن» على بناء الفعل للفاعل، فلما تقدم من ذكر الله سبحانه. وقوله ﴿لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ﴾ في موضع نصب. ومن قرأ: «يقاتلون» فالمعنى أنهم يقاتلون عدوهم الظالمين لهم، ومن قرأ: «أذن» على بناء الفعل للمفعول به. فالمعنى على أن الله سبحانه أذن لهم في القتال. والجار والمجرور في موضع رفع، وقوله: «لهدمت» بالتخفيف، وإنما جاز لأن ذلك قد يكون للقليل والكثير، تقول: ضربت زيدا ضربة وضربته ألف ضربة. فاللفظ في القلة والكثرة على حالة واحدة. و«هدمت» بالتشديد يختص بالكثرة، قال الشاعر:

مَا زِلْتُ أَفْتَحُ أَبْوَاباً وَأَغْلِقُهَا حَتَّى أَتَيْتُ أَبَا عَمْرٍو بْنَ عَمَّارٍ

سورة الحج

فأما من قال: «صوافن» فمثل الصافنات، وهي الجياد من الخيل، إلا أنه استعمل هنا في الإبل. والصافن: الرافع إحدى رجله معتمداً منها على سنبكها^(١). قال عمرو بن كلثوم:

تَرْكُنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ مُقْلَدَةً أَعْيَتْهَا صُفُونَا

والصوافي: الخواص لوجه الله. وأما صَلَوَاتٌ وَصُلُواتٌ فيمكن أن يكون جمع صلاة، وإن كانت غير مستعملة، فيكون مثل حجرة وَحُجَرَاتٍ وَحَجَرَاتٍ.

● **اللغة:** البدن: جمع بدنة وهي الإبل المبدنة بالسمن. قال الزجاج: تقول بدنت الإبل أي: سمتها، وقيل: أصل البدن الضخم وكل ضخم بدن. وبدن بَدْناً وَبُذْناً: إذا ضخ. وبدن تَبْدِيناً: إذا أسن وثقل لحمه بالاسترخاء. وفي الحديث: «إني قد بدنت فلا تبادروني بالركوع والسجود». وقال: «وَكُنْتُ خِلْتُ الشَّيْبَ وَالتَّبْدِينَ»^(٢). والوجوب: الوقوع، يقال: وجبت الشمس إذا وقعت في المغرب للغروب. ووجب الحائط: وقع. ووجب القلب: اضطرب بأن وقع ما يوجب اضطرابه. ووجب الفعل: إذا وقع ما يلزم به. ووجب البيع: إذا وقع وجوباً، والصواف: المصطفة. الأزهرى عن ابن الأعرابي قال: قَنَعْتُ بما رَزَقْتُ بالكسر، وَقَنَعْتُ إلى فلان: خضعت له بالفتح. والمعتري والمعتري واحد. رُوِيَ عن الحسن وأبي رجاء وعمرو بن عبيد أنهم قرأوا المعتري. يقال: عراه واعتراه وعَرَّه واعتَرَّه كله بمعنى أتااه وقصده. قال طرفة:

فِي جَفَانٍ يَغْتَرِي نَادِيَنَا وَسَدِيفٍ حِينَ هَاجَ الصُّنْبَرُ^(٣)

ويقال: قنع الرجل إلى فلان قنوعاً: إذا سأل. قال الشماخ:

لَمَّا لَ الْمَرْءُ يُضْلِحُهُ فَيُغْنِي مَفَاقرَهُ أَعْفَ مِنَ الْقُشُوعِ

والصومعة: أصلها من الانضمام، ومنه الأصمع للأذن، وكل منضم فهو متصمع.

قال أبو ذؤيب يصف صائداً:

قَرَمَى فَأَتَقَدَّ مِنْ نُحُوصٍ عَائِطٍ سَهْمًا فَخَرَّ وَرِيشُهُ مُتَصَمِّعٌ^(٤)

والبيع: كئاس اليهود.

● **الإعراب:** ﴿وَالَّذِينَ﴾: منصوب بإضمار فعل تقديره: والبدن، ﴿جَعَلْنَاهَا﴾. ﴿صَوَافٍ﴾: منصوب على الحال، ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾: في محل الجر بأنه بدل من ﴿الَّذِينَ يَقْتُلُونَ﴾، ويجوز أن يكون في موضع الرفع على تقدير: هم الذين أخرجوا، وفي محل النصب على المدح على تقدير: أعني الذين أخرجوا. ﴿بِخَيْرٍ حَقٍّ﴾: في موضع نصب على الحال، ويجوز أن يكون صفة

(١) السنبك: طرف الحافر.

(٢) قائله: حميد الأرقط وبعده: «والهم مما يذهل القرينا».

(٣) النادي: المجلس. والسديف: لحم السنام وقيل: شحمه. والصنبر: برد الشتاء.

(٤) النحوص: الأتان الوحشية. والعائط من النوق: التي لم تحمل أول سنة يطرقها الفحل. والمتصمع من السهام:

المنضم الريش من الدم.

مصدر محذوف وتقديره: أخرجوا إخراجاً بهذه الصفة. ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾: إلا ههنا لنقص النفي وتقديره: إلا بأن يقولوا أي: بقولهم، و﴿بَعْضُهُمْ﴾ منصوب على البدل من ﴿النَّاسُ﴾، وهو بدل البعض من الكل، والتقدير: دفع الله بعض الناس ببعض.

● **المعنى:** ثم عاد إلى ذكر الشعائر فقال: ﴿وَالَّذِينَ﴾ وهي الإبل العظام، وقيل: الناقة والبقرة مما يجوز في الهدى والأضاحي، عن عطاء والسدي. ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي: من أعلام دينه، وقيل: من علامات مناسك الحج. والمعنى: جعلنا لكم فيها عبادة الله من سوقها إلى البيت وإشعارها وتقليدها ونحرها والإطعام منها. ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: نفع في الدنيا والآخرة، وقيل: أراد بالخير ثواب الآخرة، وهو الوجه لأنه الغرض المطلوب ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي: في حال نحرها، وعبر به عن النحر. قال ابن عباس: هو أن يقول: الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر، اللهم منك ولك. ﴿صَوَّافٍ﴾ أي: قياماً مقيدة على سنة محمد ﷺ عن ابن عباس. وقيل: هو أن تعقل إحدى يديها وتقوم على ثلاثة، تنحر كذلك فيسوى بين أوظفتها لثلاثا يتقدم بعضها على بعض، عن مجاهد، وقيل: هو أن تنحر وهي صافة أي: قائمة ربطت يديها ما بين الرسغ والخف إلى الركبة، عن أبي عبد الله عليه السلام هذا في الإبل. فأما البقر فإنه يشد يداها ورجلاها ويطلق ذنبها، والغنم: يشد ثلاث قوائم منها، ويطلق فرد رجل منها، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبَهَا﴾ أي: سقطت إلى الأرض. وعبر بذلك عن تمام خروج الروح منها ﴿فَكُلُّوا مِنْهَا﴾ وهذا إذن وليس بأمر، لأن أهل الجاهلية كانوا يحرمونها على نفوسهم، وقيل: إن الأكل منها واجب إذا تطوع بها ﴿وَأَطِيعُوا أَلْقَانِعَ وَالْمَعْتَرِ﴾ اختلف في معناهما فقيل: إن القانع: الذي يقنع بما أُعطي أو بما عنده ولا يسأل. والمعتز: الذي يتعرض لك أن تطعمه من اللحم ويسأل، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وعكرمة وإبراهيم. وقيل: القانع الذي يسأل، والمعتز: الذي يتعرض ولا يسأل، عن الحسن وسعيد بن جبير. وقال أبو جعفر عليه السلام وأبو عبد الله عليه السلام: القانع: الذي يقنع بما أُعطيته ولا يسخط ولا يكلم ولا يلوي شدة غضباً. والمعتز: المادّ يده لتطعمه. وفي رواية الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: القانع الذي يسأل فيرضى بما أُعطي والمعتز: الذي يعتري رجاء ممن لا يسأل، ورؤي عن ابن عباس أنه قال في جواب نافع بن الأزرق لما سأله عن ذلك القانع، الذي يقنع بما أُعطي والمعتز الذي يعتري الأبواب: أما سمعت قول زهير:

على مكثريهم حق من يغتريهم وعند المقلين السماحة والبدل

ورؤي عنهم عليه السلام أنه ينبغي أن يطعم ثلثه، ويعطي القانع والمعتز ثلثه، ويهدي لأصدقائه الثلث الباقي. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما وصفناه ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُم﴾ أي: ذللناها لكم حتى لا تمنع عما تريدون منها من النحر والذبح، بخلاف السباع الممتنعة، ولتنتفعوا بركوبها وحملها ونتاجها نعمة منا عليكم ﴿لَمَلَكْنَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ذلك ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ﴾ أي: لن تصعد إلى الله لحومها ولا دماؤها، وإنما يصعد إليه القوي، عن الحسن. وهذا كناية عن القبول، وذلك إنما يقبله الإنسان. يقال: قد ناله ووصل إليه. فخطب الله سبحانه عباده بما اعتادوه في مخاطباتهم، وكانوا في الجاهلية إذا ذبحوا الهدى، استقبلوا الكعبة بالدماء فنضحوها

سورة الحج

حول البيت قربة إلى الله. وقيل: معناه لن تبلغوا رضا الله بذلك، وإنما تبلغونه بالتقوى ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ تقدم تفسيره ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أي: على ما بين لكم وأرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه. وقيل: هو أن يقول الله أكبر على ما هدانا ﴿وَنَشِيرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الموحدون، عن ابن عباس، وقيل: الذين يعملون أعمالاً حسنة ولا يسيئون إلى غيرهم.

ثم بين سبحانه دفعه عن المؤمنين بشارة لهم بالنصر فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ غائلة المشركين بأن يمنعهم منهم وينصرهم عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ وهم الذين خانوا الله بأن جعلوا معه شريكاً، وكفروا نعمه، عن ابن عباس. وقيل: من ذكر اسم غير الله، وتقرب إلى الأصنام بذبيحته، فهو خوان كفور، عن الزجاج. ثم بين سبحانه إذنه لهم في قتال الكفار بعد تقدم بشارتهم بالنصرة فقال: ﴿أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ أي: بسبب أنهم ظلموا، وقد سبق معناه في الحجة. وكان المشركون يؤذون المسلمين ولا يزال يجيء مشجوج ومضروب إلى رسول الله ﷺ، ويشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ، فيقول لهم صلوات الله عليه وآله: اصبروا فإنني لم أؤمر بالقتال، حتى هاجر فأنزل الله عليه هذه الآية بالمدينة، وهي أول آية نزلت في القتال. وفي الآية محذوف وتقديره: أذن للمؤمنين أن يقاتلوا أو بالقتال من أجل أنهم ظلموا بأن أخرجوا من ديارهم، وقصدوا بالإيذاء والإهانة. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وهذا وعد لهم بالنصر، معناه أنه سينصرهم. ثم بين سبحانه حالهم فقال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ يحتمل معناه أن يكون أراد: أخرجوا إلى المدينة، فتكون الآية مدنية، ويحتمل إلى الحبشة، فتكون الآية مكية، وذلك بأنهم تعرضوا لهم بالأذى حتى اضطروا إلى الخروج. وقوله ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ معناه: من غير أن استحقوا ذلك، عن الجبائي، أي: لم يخرجوا من ديارهم إلا لقولهم: ربنا الله وحده. وقال أبو جعفر عليه السلام: نزلت في المهاجرين، وجرت في آل محمد ﷺ الذين أخرجوا من ديارهم وأخيفوا ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ قد تقدم الكلام في هذا ﴿لَمُكِّمَتِ صَوَائِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ﴾ أي: صوامع في أيام شريعة عيسى، وبيع في أيام شريعة موسى، ومساجد في أيام شريعة محمد ﷺ عن الزجاج، والمعنى: ولولا أن دفع الله بعض الناس ببعض، لهدم في كل شريعة بناء المكان الذي يصلى فيه. وقيل: البيع للنصارى في القرى، والصوامع في الجبال والبراري، ويشارك فيها الفرق الثلاث. والمساجد للمسلمين، والصلوات كنيسة اليهود، يسمونها صلوات فعزبت. وقال الحسن: أراد بذلك عين الصلاة وهدم الصلاة بقتل فاعليها ومنعهم من إقامتها. وقيل: أراد بالصلوات المصليات، كما قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ وأراد المساجد ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا اِسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الهاء تعود إلى المساجد، وقيل: إلى جميع المواضع التي تقدمت، لأن الغالب فيها ذكر الله. ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ هذا وعد من الله بأنه سينصر دينه وشريعته ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: قادر قاهر.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْنَا لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَثِرُ مَغَطِلُهَا وَقَصُرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة: «أهلكتها» بالثاء، والباقون: «أهلكناها» والمعنى واحد.

● **اللغة:** يقال: خوت الدار خواء ممدوداً فهي خاوية. وخوى جوف الإنسان من الطعام خوى مقصوراً فهو خوي، والتعطيل: إبطال العمل بالشيء، ولهذا يقال للدهرى: معطل، لأنه أبطل العمل بالعلم على مقتضى الحكمة. والمشيّد: المرتفع من الأبنية، شاد الرجل بناء يشيده وشيّد يشيّد. قال عدي بن زيد:

شاده مَزْمَرًا وجلّه كِنَسًا فَلِلطَّيْرِ فِي ذُرَاهُ وَكُورٌ^(١)

وقال امرؤ القيس:

وتَينَاءَ لَمْ يَثْرُكْ بِهَا جِذْعُ نَخْلَةٍ وَلَا أَطْمَأ إِلَّا مَشِيدًا بِجَنْدَلٍ^(٢)

وقيل: المشيد المجصص والمبني بالشيّد. والشيّد: الجص والجيار. والجيار: الصاروج.

● **المعنى:** ثم وصف سبحانه من ذكرهم من المهاجرين فقال: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ والتمكين: إعطاء ما يصح معه الفعل، فإن كان الفعل لا يصح إلا بالآلة، فالتمكن: إعطاء تلك الآلة لمن فيه القدرة، وكذلك إن كان لا يصح الفعل إلا بعلم ونصب ودلالة واضحة وسلامة ولطف وغير ذلك، فالتمكن: إعطاء جميع ذلك، وإن كان الفعل يكفي في صحة وجوده مجرد القدرة. فخلق القدرة التمكين. فالمعنى: الذين أعطيناهم ما به يصح الفعل منهم، وسلطانهم في الأرض، أدوا الصلاة بحقوقها، وأعطوا ما افترض الله عليهم من الزكاة. ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهذا يدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعروف هو الحق، لأنه يعرف صحته، والمنكر هو الباطل، لأنه لا يمكن معرفة صحته. قال الزجاج: هذه صفة من في قوله: ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ﴾، وقال الحسن وعكرمة: هم هذه الأمة، وقال أبو جعفر عليه السلام: نحن هم والله. ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ هو

(١) الكلس: مثل الصاروج يبنى به. والذرى جمع الذروة: أعلى الشيء. والوكور جمع الوكر: عش الطائر وإن لم يكن فيه، وهذا البيت من قصيدة لعدي بن زيد قالها في ذم الدنيا ومن هذه القصيدة قوله: «أين كسرى كسرى الملوك أنوشر * وإن أم أين قبله سابور».

(٢) الأطم: الحصون. والجندل: الحجارة.

سورة الحج

كقوله ﴿وَالَىٰ اللَّهُ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، ومعناه: أنه يبطل كل ملك سوى ملكه فتصير الأمور إليه بلا مانع ولا منازع.

ثم عزى سبحانه نبيه ﷺ عن تكذيبهم إياه، وخوف مكذبيه بذكر من كذبوا أنبياءهم فأهلكوا فقال: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد ﴿فَقَدْ كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴿كل أمة من هؤلاء الأمم فقد كذبت نبيها. ثم قال: ﴿وَكَذَّبَ مُوسَى﴾ ولم يقل: وقوم موسى، لأن قومه بنو إسرائيل وكانوا آمنوا به، وإنما كذبه فرعون وقومه. ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: أخرت عقوبتهم وأمهلتهم، يقال: أملى الله لفلان في العمر: إذا أخر عنه أجله ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي: بالعذاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهام معناه التقرير أي: فكيف أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب، فأبدلتهم بالنعمة نقمة وبالحياة هلاكاً، قال الزجاج: المعنى ثم أخذتهم فأنكرت أبلغ إنكار.

ثم ذكر سبحانه كيف عذب المكذبين فقال: ﴿فَكَأَنَّ مِنْ قَرِيبٍ أَمَلَكْنَاهَا﴾ أي: وكم من قرى أهلكناها وأخذناها. والاختيار التاء، وذلك لقوله: ﴿فَأَمَلَيْتُ﴾. ﴿وَهِيَ ظَلَمَةٌ﴾ أي: وأهلها ظالمون بالتكذيب والكفر ﴿فَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: خالية من أهلها، ساقطة على سقوفها ﴿وَيَبُرُّ مَغَطَّلُهُ﴾ عطف على قوله ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾، أي: وكم من بئر بار أهلها وغار ماؤها وتعطلت من دلالتها، فلا مستقي منها ولا وارد لها. ﴿وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ أي: وكم من قصر رفيع مجصص تداعى للخراب بهلاك أهله، فلم يبق فيه داع ولا مجيب. وأصحاب الآبار ملوك البدو، وأصحاب القصور ملوك الحضرة. وفي تفسير أهل البيت ﷺ في قوله ﴿وَيَبُرُّ مَغَطَّلُهُ﴾ أن المعنى: وكم من عالم لا يرجع إليه ولا ينتفع بعلمه. وقال الضحاك: هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها «حاضور» نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح، ومعهم صالح. فلما حضروا مات صالح، فسمي المكان «حضرموت». ثم إنهم كثروا فكفروا وعبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نبياً يقال له حنظلة، فقتلوه في السوق، فأهلكهم الله فماتوا عن آخرهم، وعطلت بئرهم وخرب قصر ملكهم.



قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٢١) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٢٢) ﴿وَكَأَنَّ مِنْ قَرِيبٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ (٢٣) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٢٤) ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٢٥) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٢٦).

● القراءة: قرأ ابن كثير وأهل الكوفة غير عاصم: «مما يعدون» بالياء، والباقون بالتاء.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «معجزين» بالتشديد، وفي سبأ أيضاً في موضعين، والباقون: «معاجزين» بالالف في السورتين.

● **الحجة:** حجة من قرأ «يعدون» بالياء: أن قبله ﴿وَيَسْتَعِزُّوْكَ﴾، وحجة من قرأ بالتاء: أن ذلك أعم. وقوله «معاجزين» أي: ظانين ومقدرين أن يعجزونا، لأنهم ظنوا أن لا بعث ولا نشور، فهو كقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا﴾ و«معجزين»: ينسبون من اتبع النبي ﷺ إلى العجز نحو: جهلته نسبتة إلى الجهل. وزوي عن مجاهد أنه فسر «معجزين» مبطين أي: يبطلون الناس عن النبي ﷺ.

● **المعنى:** ثم حث سبحانه على الاعتبار بحال من مضى من القرون المكذبة لرسولهم فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أو لم يسر قومك يا محمد في أرض اليمن والشام، عن ابن عباس: ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أي: يعلمون بها ما يرون من والمعنى: فيعقلون بقلوبهم ما نزل بمن كذب قبلهم ﴿أَوْ أَدَانُ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبار الأمم المكذبة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الهاء في أنها ضمير القصة والجملة بعدها تفسيرها. قال الزجاج: وقوله ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ من التوكيد الذي يريده العرب في الكلام، كقوله: ﴿عَتَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، وقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾. وقوله: ﴿يَطْلُرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، وقيل: إنه إنما ذكر ذلك لثلاث يتوهم إلى غير معنى القلب نحو قلب النخلة، فيكون أنفى للبس بتجاوز الاشتراك، وكذلك قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لأن القول قد يكون بغير الفم، والمعنى: إن الأبصار وإن كانت عمياء، فلا تكون في الحقيقة كذلك، إذا كان أصحابها عارفين بالحق، وإنما يكون العمى عمى القلب الذي يقع معه الجحود بوحداية الله ﴿وَيَسْتَعِزُّوْكَ﴾ يا محمد ﴿بِالْعَذَابِ﴾ أن ينزل بهم ويستبطنونه ﴿وَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: في إنزال العذاب بهم. قال ابن عباس: يعني يوم بدر. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: أن يوماً من أيام الآخرة يكون كألف سنة من أيام الدنيا عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن زيد، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه أراد: أن يوماً من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض كألف سنة، ويدل عليه ما روي أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وخمسائة عام. ويكون المعنى على هذا: أنهم يستعجلون العذاب وأن يوماً من أيام عذابهم في الآخرة كألف سنة.

وثانيها: أن المعنى: وإن يوماً عند ربك، وألف سنة في قدرته واحد، فلا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب، وبين تأخره في القدرة. إلا أنه سبحانه تفضل بالإمهال إذ لا يفوته شيء، عن الزجاج، وهو معنى قول ابن عباس في رواية عطاء.

وثالثها: أن يوماً واحداً كألف سنة في مقدار العذاب لشدة وعظمته، كمقدار عذاب ألف سنة من أيام الدنيا على الحقيقة، وكذلك نعيم الجنة، لأنه يكون في مقدار يوم من أيام الجنة من النعيم والسرور، مثل ما يكون في ألف سنة من أيام الدنيا لو بقي منعم فيها، ثم الكافر يستعجل

سورة الحج

ذلك العذاب لجهله، عن الجبائي. وهذا كما يقال في المثل: «أيام السرور قصار، وأيام الهموم طوال». وقال الشاعر:

يطول اليوم لا ألقاك فيه وحول نلتقي فيه قصير

وقال:

تطاولت أيام مغن بنا فيوم كشهريين إذ يستهل

وقال جرير:

ويوم كإبهام الحبارى لهوثة^(١)

ثم أعلم سبحانه أنه أخذ قوماً بعد الإمهال فقال: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِينَةٍ آمَنَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مستحقة لتعجيل العقاب ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ أي: أهلكتها ﴿وَالَّذِي الْمَصِيرُ﴾ لكل أحد.

ثم خاطب نبيه ﷺ فقال: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ أي: لهم ﴿بَيِّنَاتٍ النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مخوف من معاصي الله، مُبَيِّنٌ لكم ما يجب عليكم فعله وما يجب عليكم تجنبه، ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ من الله لمعاصيهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: نعيم الجنة، فإنه أكرم نعيم في أكرم دار ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا﴾ أي: بذلوا الجهد في إبطال آياتنا وبالغوا في ذلك. وأصل السعي: الإسراع في المشي ﴿مُعْجِزِينَ﴾ أي: مغالين، عن ابن عباس، والمعاجزة: محاولة عجز المغالب، وقيل: مقدرين أنهم يسبقوننا، والمعاجزة المسابقة، وقيل: ظانين أن يعجزوا الله أي: يفوتوه، ولن يعجزوه، عن قتادة. وهذا مثل ما تقدم. ومن قرأ: «معجزين» فمعناه: مثبتين لمن أراد اتباع النبي ﷺ - ، عن مجاهد وقيل: قاصدين تعجيز رسولنا، وقيل: ناسين من تبعه إلى العجز. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: الملازمون للجحيم أي: النار.



قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٧﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾.

(١) الحبارى: طائر أكبر من الدجاج الأهلي، وأطول عنقاً منه، وهو على شكل الإوزة، برأسه وبطنه غبرة. وفي المثل: «أقصر من إبهام الحبارى».

● **النزول:** روي ابن عباس وغيره: أن النبي ﷺ لما تلا سورة والنجم، وبلغ إلى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾، ألقى الشيطان في تلاوته: «تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترجى» فسر بذلك المشركون. فلما انتهى إلى السجدة، سجد المسلمون وسجد أيضاً المشركون لما سمعوا من ذكر آلهتهم بما أعجبهم. فهذا الخبر إن صحَّ محمول على أنه كان يتلو القرآن فلما بلغ إلى هذا الموضع، وذكر أسماء آلهتهم، وقد علموا من عادته ﷺ أنه كان يعيها، قال بعض الحاضرين من الكافرين: تلك الغرائق العلى. وألقى ذلك في تلاوته توهم أن ذلك من القرآن، فأضافه الله سبحانه إلى الشيطان، لأنه إنما حصل بإغوائه ووسوسته. وهذا أورده المرتضى، قدس الله روحه، في كتاب التنزيه، وهو قول الناصر للحق من أئمة الزيدية، وهو وجه حسن في تأويله.

● **المعنى:** ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ من هنا مزيدة، والتقدير: ما أرسلنا قبلك رسولاً ولا نبياً. وإنما ذكر اللفظين لاختلاف فائدتهما، فالرسول الذي أرسله الله تعالى ولا يحمل عند الإطلاق على غير رسول الله ﷺ. والنبى الذي له الرفعة والدرجة العظيمة بالإرسال. وقيل: إن بينهما فرقاً؛ فالرسول الذي تنزل عليه الملائكة بالوحي، والنبى الذي يوحى إليه في منامه. فكل رسول نبى، وليس كل نبى رسولاً. وقيل: بل الرسول هو المبعوث إلى أمة. والنبى هو الذي لا يبعث إلى أمة، عن قطرب، وقيل: إن الرسول هو المبتدئ بوضع الشرائع والأحكام، والنبى: الذي يحفظ شريعة غيره، عن الجاحظ. والقول هو الأول، لأن الله سبحانه خاطب نبيينا ﷺ مرة بالنبي ومرة بالرسول، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ﴾ و﴿يَتَأْتِيهَا الْنَبِيُّ﴾ فالرسول والنبى واحد، لأن الرسول يعم الملائكة والبشر، والنبى يختص بالبشر، فجمع بينهما هنا، وفي قوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ أَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ قال المرتضى: لا يخلو التمني في الآية من أن يكون معناه التلاوة، كما قال حسان بن ثابت:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرُهُ لَأَقَى جَمَامَ الْمَقَادِرِ

أو يكون تمنى القلب، فإن كان المراد التلاوة، فالمعنى: أن من أُرْسِلَ قبلك من الرسل كان إذا تلا ما يؤديه إلى قومه، حَرَفُوا عليه، وزادوا فيما يقوله ونقصوا، كما فعلت اليهود، وأضاف ذلك إلى الشيطان، لأنه يقع بغروره ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي: يزيله ويدحضه بظهور حججه. وخرج هذا على وجه التسلية للنبي ﷺ لما كذب المشركون عليه، وأضافوا إلى تلاوته من مدح آلهتهم، ما لم يكن فيها. وإن كان المراد تمنى القلب فالوجه أن الرسول متى تمنى بقلبه بعض ما يتمناه من الأمور، وسوس إليه الشيطان بالباطل يدعوه إليه، وينسخ الله ذلك ويبطله بما يرشده إليه من مخالفة الشيطان، وترك استماع غروره. قال: وأما الأحاديث المروية في هذا الباب فهي مطعونة ومضعفة عند أصحاب الحديث، وقد تضمنت ما ينزه الرسل ﷺ عنه. وكيف يجوز ذلك على النبي ﷺ، وقد قال الله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَهْدِي اللَّهُ فِرْقَانَهُ﴾ وقال: ﴿سَنُرِيكَ فَلَا تَشَقَّى﴾. وإن حمل ذلك على السهو، فالسأهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة ونظمها، ثم لمعنى ما تقدمها من الكلام لأننا نعلم ضرورة أن

سورة الحج

الساهي لو أنشد قصيدة، لم يجز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها، وفي معنى البيت الذي تقدمه، وعلى الوجه الذي تقتضيه فائدته. ويمكن أن يكون الوجه فيه ما ذكرناه في النزول، لأن من المعلوم أنهم كانوا يلقون عند قراءته طلباً لتغليطه، ويمكن أن يكون كان هذا في الصلاة، لأنهم كانوا يلقون في قراءته. وقيل أيضاً: إنه كان إذا تلا القرآن على قریش، توقف في فصول الآيات، وأتى بكلام على سبيل الحجاج لهم. فلما تلا الآيات قال: «تلك الغرائق العلى» على سبيل الإنكار عليهم، وعلى أن الأمر بخلاف ما قالوه وظنوه. وليس يمتنع أن يكون هذا في الصلاة، لأن الكلام في الصلاة حيث كان مباحاً وإنما نسخ من بعد. وقيل: إن المراد بالغرائق: الملائكة. وقد جاء ذلك في بعض الحديث فتوهم المشركون أنه يريد آلهتهم. وقيل: إن ذلك كان قرآنًا منزلاً في وصف الملائكة، فلما ظن المشركون أن المراد به آلهتهم نسخت تلاوته. وقال البلخي: ويجوز أن يكون النبي ﷺ سمع هاتين الكلمتين من قومه وحفظهما، فلما قرأ، ألقاها الشيطان في ذكره، فكاد أن يجربها على لسانه فعصمه الله ونبهه، ونسخ وسواس الشيطان، وأحكم آياته بأن قرأها النبي ﷺ محكمة سليمة مما أراد الشيطان. ويجوز أن يكون النبي ﷺ لما انتهى إلى ذكر اللات والعزى، قال الشيطان هاتين الكلمتين رافعاً بهما صوته، فألقاها في تلاوته في غمار الناس، فظن الجهال أن ذلك من قول النبي ﷺ، فسجدوا عند ذلك. والغرائق: جمع غرنوق وهو الحسن الجميل، يقال: شاب غرنوق، وغرائق: إذا كان ممتلياً رياً ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: يبقى آياته ودلائله وأوامره محكمة لا سهر فيها ولا غلط ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ واضح للأشياء مواضعها ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ليجعل ذلك تشديداً في التعبد وامتحاناً، عن الجبائي. والمعنى: أنه شدد المحنة والتكليف على الذين في قلوبهم شك، وعلى الذين قست قلوبهم من الكفار، فتلزمهم الدلالة على الفرق بين ما يحكمه الله، وبين ما يلقيه الشيطان ﴿وَالَّذِينَ أَقْبَلُوا الْقُلُوبَ لِنَفْسِ شَقَائِهِمْ بَعِيدٍ﴾ أي: في معاداة ومخالفة بعيدة عن الحق ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بالله وبتوحيده وبحكمته ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: إن القرآن حق لا يجوز عليه التبديل والتغيير ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: فيثبتوا على إيمانهم، وقيل: يزدادوا إيماناً إلى إيمانهم ﴿فَتُخَيِّتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخشع وتتواضع لقوة إيمانهم ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق واضح لا عوج فيه، أي يثبتهم على الدين الحق، وقيل: يهديهم ربهم بإيمانهم إلى طريق الجنة. ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيئَةٍ مِنْهُ﴾ أي: في شك من القرآن، عن ابن جريج. وهذا خاص فيمن علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون من الكفار ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة وعلى غفلة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قيل: إنه عذاب يوم بدر، عن قتادة ومجاهد. وسماء عقيماً لأنه لا مثل له في عظم أمره، لقتال الملائكة فيه، ومثله قول الشاعر:

عَقَمَ النساءَ فلا يَلِدْنَ شَبِيهَهُ إن النساءَ بمثله لَعَقِيمٌ

وقيل: إنما سُمِّيَ ذلك اليوم عقيماً لأنه لم يكن فيه للكفار خير، فهو كالريح العقيم التي لا

تأتي بخير، عن الضحاك، واختاره الزجاج. وقيل: المراد به يوم القيامة. والمعنى: حتى تأتيهم علامات الساعة أو عذاب يوم القيامة. وسماه عقيماً لأنه لا ليلة له، عن عكرمة والجبائي.

● **النظم:** اتصلت الآية الأولى بما تقدم من ذكر الكفار، وما متّعوا به من نعيم الدنيا، ولما رأى النبي ﷺ ما مني به أصحابه من الإقتار، تمنى لهم الدنيا. فبيّن سبحانه أن ذلك التمني من وساوس الشيطان، وأن ما أعدّه لهم من نعيم الآخرة خير. وقيل: اتصل بقوله ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، فبيّن سبحانه أنه بشر، وأن حاله كحال الرسل قبله.



قوله تعالى: ﴿الْمَلَأْتُ يَوْمَئِذٍ لَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخِلْنَهُمْ مُّدْخَلَ بَرْزَخٍ بَاطِنٍ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر: «قتلوا» بالتشديد، والباقون بالتخفيف. وقرأ أهل المدينة: «مدخلا» بالفتح. والباقون بضم الميم. وقد سبق ذكره.

● **المعنى:** لما تقدّم ذكر القيامة بيّن صفته فقال: ﴿الْمَلَأْتُ يَوْمَئِذٍ لَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ لا يملك أحد سواه شيئاً بخلاف الدنيا ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بين المؤمنين والكافرين. ثم بيّن حكمه فقال: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ينعمون فيها. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يهينهم وبذلهم ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: فارقوا أوطانهم وخرجوا من مكة إلى المدينة ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ في الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ في الغربة ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وهو رزق الجنة، عن الحسن والسدي. والرزق الحسن: ما إذا رآه لا تمتد عينه إلى غيره، وهذا لا يقدر عليه غير الله تعالى، ولذلك قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وقيل: بل هو مثل قوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَا بِرَبِّهِمْ رِزْقُونَ﴾. ﴿لِيَدْخِلْنَهُمْ مُّدْخَلَ بَرْزَخٍ بَاطِنٍ﴾ لأن لهم فيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين. والمدخل يجوز أن يكون بمعنى المكان، وبمعنى المصدر ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معالجة الكفار بالعقوبة ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك الذي قصصنا عليك ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ أي: من جازى الظالم بمثل ما ظلمه. قال الحسن: معناه قاتل المشركين كما قاتلوه، والأول لم يكن عقوبة ولكن كقولهم: الجزاء بالجزاء، لازدواج الكلام. ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ أي: ظلم بإخراجه من منزله يعني: ما فعله المشركون من البغي على المسلمين. حتى أخرجوهم إلى مفارقة ديارهم ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ يعني المظلوم الذي بُغِيَ عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾ رُوِيَ أن الآية نزلت

في قوم من مشركي مكة، لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم، فقالوا: إن أصحاب محمد ﷺ لا يقاتلون في هذا الشهر. فحاملوا عليهم، فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبوا، فأظفر الله المسلمين بهم.



قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١١) ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (١٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣) لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَكَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ﴾ (١٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٥).

● **القراءة:** قرأ أهل العراق غير أبي بكر: «ما يدعون» هنا، وفي لقمان بالياء. والباقيون

بالتاء.

● **الحجة:** من قرأ: «تدعون» بالتاء فعلى الخطاب للمشركين، وحجته قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ﴾، ومن قرأ بالياء فعلى الحكاية، وحجته قوله: ﴿يَكَادُرُونَ بِسُطُورٍ﴾.

● **الإعراب:** ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ﴾: إنما رفع لأنه لم يجعله جواباً للاستفهام، والمراد به الخبر. ومثله قول الشاعر:

ألم تسأل الرنغ القديم فينطئ وهل يُخبرنك اليوم ببيداء سَمَلُ^(١)

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك النصر ﴿يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعاء المؤمنين ﴿بَصِيرٌ﴾ بهم ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الذي فعل من نصر المؤمنين ﴿يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: ذو الحق في قوله وفعله، وقيل: معناه أنه الواحد في صفات التعظيم التي من اعتقده عليها، فهو محق. ﴿وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ لأنه ليس عنده نفع ولا ضرر ﴿وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ عن الأشياء ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي كل شيء سواه يصغر مقداره عن معناه. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: مطراً ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بالنبات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بأرزاق عباده من حيث لا يحتسبون ﴿خَبِيرٌ﴾ بما في قلوبهم، وقيل: اللطيف المحيط بتدبير دقائق الأمور، الذي لا يتعذر عليه شيء يتعذر على

(١) قائله: جميل. والسملق: القاع المستوي الأملس، والأجرد، لا شجر فيه.

غيره. ﴿لَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: له التصرف في جميع ذلك ﴿وَلَيْكَ اللَّهُ لَهُمُ الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ﴾ الغني الحي الذي ليس بمحتاج، الحميد: المحمود بصفاته وأفعاله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوان والجماد ﴿وَالْفَلَكَ تَجَرَّى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: وسخر لكم الفلك في حال جريها ﴿وَيُسَبِّحُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: يمنع السماء من وقوعها على الأرض إلا بإرادته، والمعنى: إلا إذا أذن الله في ذلك بأن يريد إبطالها وإعدامها ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْكَائِنِ لَءَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ برأفته ورحمته بهم فعل هذا التسخير، وأمسك السماء من الوقوع.



قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ٦٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ٦٧ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ٦٨ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٦٩ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ٧٠ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ٧١﴾.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه دلالة أخرى على وحدانيته فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم نطفاً ميتة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انتهاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث والحساب. وفيه بيان أن من قدر على ابتداء الإحياء قدر على إعادة الإحياء ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي: جحود، فإنه مع هذه الأدلة الدالة على الخلق يجحد الخالق ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: لكل قرن مضى ﴿جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: شريعة هم عاملون بها، عن ابن عباس، وقيل: مكاناً يألفونه وموضعاً يعتادونه لعبادة الله. ومناسك الحج من هذا لأنها مواضع العبادات فيه، فهي متعبدات الحج. وقيل: موضع قربان أي: متعبد في إراقة الدماء منى أو غيره، عن مجاهد وقتادة ﴿فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ﴾ هذا نهى لهم عن منازعة النبي ﷺ، وقيل: نهى له لأن المنازعة تكون من اثنين، فإذا وجّه النهي إلى من ينازعه فقد وجّه إليه، ومنازعتهم قولهم: أتناكلون ما قتلتم، ولا تاكلون ما قتل الله؟ يعنون الميتة أي: فلا يخاصمك في أمر الذبح. وقيل: معناه ليس لهم أن ينازعوك في شريعتهم، وقد نسخت هذه الشريعة الشرائع المتقدمة. ﴿وَاَدْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: لا تلتفت إلى منازعتهم، وادع إلى توحيد ربك، وإلى دينه ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: على دين قيم ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ٦٨﴾ أي: إن خاصموك في أمر الذبيحة فقل: الله أعلم بتكذيبهم فهو يجازيكم به. وهذا قبل الأمر بالقتال. وقيل: معناه وإن جادلوك على سبيل المراء والتعنّت بعد لزوم الحجة، فلا تجادلهم على هذا الوجه وادفعهم بهذا القول. وقيل: معناه وإن نازعوك في نسخ الشريعة فحاكمهم إلى الله. ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يفصل بينكم ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: فيما تذهبون فيه إلى خلاف ما يذهب. ثم قال لنبيه ﷺ والمراد جميع المكلفين ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ من قليل

وكثير ولا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ أي: مثبت في الكتاب المحفوظ، عن الجبائي ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: كتابته في اللوح المحفوظ على الله يسير، لا يحتاج إلى معالجة خطوط وحروف، وإنما يقول: كن فيكون. وقيل: إن الحكم بينكم يسير على الله.



قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ٧١﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ تَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمُوتُ بَشَرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ ٧٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ٧٥﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب وسهل: «إن الذين يدعون» بالياء، والباقون بالتاء.

● **اللغة:** السطوة. إظهار الحال الهائلة للإخافة، يقال: سطا عليه يسطو سطوة، وسطا به. والإنسان مسطو به. والسطوة والبطشة بمعنى.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن حال الكفار فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أنها آلهة. وإنما قال ذلك لأن الإنسان قد يعلم أشياء من غير حجة ودليل كالضروريات ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي: وما للمشركين من مانع من العذاب. ثم أخبر سبحانه عن شدة عنادهم فقال: ﴿وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ يعني من القرآن، وغيره من حجج الله ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات لمن تفكر فيها، وهي منصوبة على الحال ﴿تَعْرِفُ﴾ يا محمد ﴿فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ أي: الإنكار. وهو مصدر، يريد أثر الإنكار من الكراهة والعبوس ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ أي: يقعون ويبطشون من شدة الغيظ ﴿بِالَّذِينَ تَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ والمعنى: يكادون يسطون إليهم أيديهم بالسوء. يقال: سطا عليه وسطا به إذا تناوله بالبطش. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿أَفَأَنْتُمْ كُمُوتُ بَشَرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ﴾ وأكره إليكم من هذا القرآن الذي تسمعون وأشد عليكم منه. ثم فسّر ذلك فقال: ﴿النَّارُ﴾ أي: هو النار ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمأوى. ثم خاطب سبحانه جميع المكلفين فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ قال الأخفش: إن قيل فإين المثل الذي ذكر الله في قوله ﴿ضَرْبٌ مِّثْلُ﴾، قيل: ليس ههنا مثل، والمعنى: أن الله قال: ضرب لي مثل أي: شبه في الأوثان، ثم قال: فاستمعوا لهذا المثل الذي جعلوه مثلي. وقال القتيبي: ههنا مثل

لأنه ضرب مثل هؤلاء الذين يعبدون الأصنام بمن عبد من لا يخلق ذباباً. وقيل: معناه أثبت حديثاً يتعجب منه، فاستمعوا له لتقفوا على جهل الكفار. من قولك: ضربت خيمة أي: نصبتها وأثبتها. وقيل: معناه جعل ذلك كالشيء اللازم الثابت من قولك: ضرب السلطان الجزية على أهل الذمة. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام. وكان ثلاثمائة وستين صنماً حول الكعبة ﴿أَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ في صغره وقلته ﴿وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا﴾ مما عليهم. قال ابن عباس: كانوا يطلون أصنامهم بالزعران فيجف، فيأتي الذباب فيختلسه ﴿لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: لا يقدر على استنقاذه منه ﴿صَعَفَكَ الطَّلَابُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ الطالب الذباب، والمطلوب الصنم، عن ابن عباس، ورؤي عنه على العكس من هذا، وهو أن الطالب الصنم والمطلوب الذباب. فعلى هذا يكون معناه: ضعف السالب والمسلوب. وقيل: إن معناه راجع إلى العابد والمعبود أي: جهل العابد والمعبود، وقهر العابد والمعبود، عن الضحاك، وهو معنى قول السدي. الطالب الذي يطلب إلى هذا الصنم بالتقرب إليه والصنم المطلوب إليه. ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ﴾ أي: ما عظموه حق عظمتهم، حيث جعلوا هؤلاء الأصنام شركاء له، عن الحسن والفراء. وقيل: معناه ما عرفوه حق معرفته، عن الأخفش، وقيل: ما وصفوه حق صفته، عن قطرب. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: قادر لا يقدر أحد على مغالبتها ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ يعني: جبرائيل وميكائيل ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ يعني: النبيين ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ سميع بأقوالهم بصير بضمائرهم وأفعالهم.

● **النظم:** إنما اتصل قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أي: ومن خالفك على الكفر والضلال. وإنما اتصل قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ﴾ بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾، والمعنى: أن من لا يقدر على خلق ذباب مع صغره، وإذا سلبه الذباب شيئاً لا يقدر على استرداده، فكيف يستحق أن يعبد. ثم قال: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ﴾ أي: من أشرك غيره معه في العبادة مع كمال قدرته، فما عرفه حق معرفته. ثم قال: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ ليعلم أنه سبحانه إنما اصطفاهم لعبادتهم إياه، فمن جعل الملائكة والأنبياء أولاداً، فإنه لم يعظمه حق عظمتهم ولم يعرفه حق معرفته، إذ جعل من يعبد سبحانه معبوداً.



قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٧٦) **يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا لِّتَرْهَيْمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

سورة الحج

الإعراب: ﴿حَقَّ جِهَادُهُ﴾ منصوب على المصدر لأنه مضاف إلى المصدر. ﴿مِنْ حَرْجٍ﴾ من مزيدة أي: ما جعله عليكم حرجاً. ﴿يَلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ منصوبة بإضمار فعل تقديره: واتبعوا وألزموا ملة أبيكم، لأن قبله ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾، قال المبرد: عليكم ملة أبيكم. وقال الزجاج: وجائر أن يكون منصوباً على تقدير: وافعلوا الخير فعل أبيكم.

● المعنى: لما وصف الله سبحانه نفسه بأنه سميع بصير عقبه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: ما بين أيدي الخلائق من القيامة وأحوالها، وما يكون في مستقبل أحوالهم. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: وما يخلفونه من دنياهم. وقيل: يعلم ما بين أيديهم أي: أول أعمالهم، وما خلفهم: آخر أعمالهم، عن الحسن. وقيل: معناه يعلم ما كان قبل خلق الملائكة والأنبياء، وما يكون بعد خلقهم، عن علي بن عيسى. ﴿رَلَى اللَّهِ تَرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يوم القيامة، فلا يكون لأحد أمر ولا نهي. ثم خاطب سبحانه المؤمنين فقال: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي: صلوا ﴿وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ بفعل ما تعبدكم به من العبادات. ﴿وَأَفْكُلُوا الْخَيْرَ﴾ قال ابن عباس: يريد صلة الرحم ومكارم الأخلاق، ومعناه: لا تقتصروا على فعل الصلاة والواجبات من العبادات، وافعلوا غيرها من أنواع البر من إغاثة الملهوف وإعانة الضعيف وبر الوالدين، وما جانسها ﴿لَقَلَّكَ لُفْلُحُونَ﴾ أي: لكي تفلحوا وتسعدوا. ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أكثر المفسرين حملوا الجهاد ههنا على جميع أعمال الطاعة، وقالوا: حق الجهاد أن يكون بنية صادقة خالصة لله تعالى، وقال السدي: هو أن يطاع فلا يعصى. وقال الضحاك: معناه جاهدوا بالسيف من كفر بالله، وإن كانوا الآباء والأبناء. وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّهُ قَالَ: هو مجاهدة الهوى والنفس ﴿هُوَ أَجْتَبَنَكُمْ﴾ أي: اختاركم واصطفاكم لدينه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ﴾ أي: من ضيق لا مخرج منه ولا مخلص من عقابه، بل جعل التوبة والكفارات ورد المظالم مخلصاً من الذنوب، فليس في دين الإسلام ما لا سبيل إلى الخلاص من العقاب به، فلا عذر لأحد في ترك الاستعداد للقيامة. وقيل: معناه أن الله سبحانه لم يضيق عليكم أمر الدين، فلن يكلفكم ما لا تطيقون، بل كلف دون الوسع فلا عذر لكم في تركه. وقيل: إنه يعني الرخص عند الضرورات كالقصر والتيمم وأكل الميتة، عن الكلبي ومقاتل، واختاره الزجاج. ﴿يَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: دينه، لأن ملة إبراهيم داخلة في ملة محمد ﷺ، وإنما سمَّاه أباً للجميع لأن حرمة على المسلمين كحرمة الوالد على الولد، كما قال: ﴿وَأَرْوَاهُ أَنَّهُمْ﴾، عن الحسن. وقيل: إن العرب من ولد إسماعيل، وأكثر العجم من ولد إسحاق، وهما ابنا إبراهيم، فالغالب عليهم أنهم أولاده. ﴿هُوَ سَمَنَكُمْ الْأَسْلِينَ﴾ أي: الله سماكم المسلمين، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: هو كناية عن إبراهيم، عن ابن زيد قال: ويدل عليه قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل إنزال القرآن ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي: وفي هذا القرآن ﴿يَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: ليكون محمد ﷺ شهيداً عليكم بالطاعة والقبول، فإذا شهد لكم به صرتم عدولاً تشهدون على الأمم الماضية، بأن الرسل قد بلغوهم رسالة ربهم، وأنهم لم يقبلوا، فيوجب لكافرهم النار، ولمؤمنهم الجنة بشهادتكم. وهذا من أشرف المراتب، وهو مثل قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية.

وقيل: معناه ليكون الرسول شهيداً عليكم في إبلاغ رسالة ربه إليكم، وتكونوا شهداء على الناس بعده، بأن تبلغوا إليهم ما بلغه الرسول إليكم ﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال قتادة: فريضتان واجبتان افترضهما الله عليكم فأدوهما إلى الله. وروى عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ قال: «لا تقبل الصلاة إلا بالزكاة». ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ أي: تمسكوا بدين الله، عن الحسن، وقيل: معناه امتنعوا بطاعته عن معصيته، وقيل: امتنعوا بالله من أعدائكم أي: اجعلوه عصمة لكم مما تحذرون، وقيل: ثقوا بالله وتوكلوا عليه عن مقاتل ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: وليكم وناصركم، والمتولي لأموالكم ومالككم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ﴾ هو لمن تولاه ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ هو لمن استنصره. وقيل: فنعم المولى إذ لم يمنعكم الرزق حين عصيتموه، ونعم النصير إذ أعانكم لما أطعتموه.

jabir.abbas@yahoo.com

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

مكية/آياتها (١١٨)

- عدد آياتها: مائة وثمانية عشرة آية كوفي، تسع عشرة في الباقي.
- اختلافها: آية واحدة: ﴿وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ غير الكوفي.
- فضلها: أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِشَرِّهِ الْمَلَائِكَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرُّوحِ وَالرِّيحَانِ، وَمَا تَقَرَّبَ بِهِ عَيْنُهُ عِنْدَ نَزُولِ مَلِكِ الْمَوْتِ». وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِينَ، خَتَمَ اللَّهُ لَهُ بِالسَّعَادَةِ إِذَا كَانَ يَدْمَنُ قِرَاءَتَهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ وَكَانَ مَنْزِلُهُ فِي الْفَرْدَوْسِ الْأَعْلَى مَعَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ».
- تفسيرها: ختم الله سورة الحج بأمر المكلفين في العبادة، وأفعال الخير على طريق الإجمال، وافتتح هذه السورة بتفصيل تلك الجملة، وبيان تلك الأفعال، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ فَمَنْ أَتَّبَعَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾.

- القراءة: قرأ ابن كثير: «لأمانتهم» على الواحد هنا، وفي المعارج. والباقيون: «لأماناتهم» على الجمع، وقرأ: «على صلاتهم» بالإفراد أهل الكوفة غير عاصم، والباقيون: «على صلواتهم» على الجمع.

● الحجة: قال أبو علي: وجه الإفراد في الأمانة أنه مصدر واسم جنس، فيقع على الكثرة. ووجه الجمع قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، ومما أفردت فيه الأمانة، والمراد به الكثرة، ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من الأمانة أن أوثمت المرأة على فرجها». يريد تفسير قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهِنَّ أَنْ يَكُنَّ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْحَامِهِنَّ﴾، ووجه الإفراد في الصلاة: أنها مصدر، ووجه الجمع: أنها صارت بمنزلة الاسم لاختلاف أنواعها، والجمع فيه أقوى، لأنه صار اسماً شريعياً لانضمام ما لم يكن في أصل اللغة إليها.

● **المعنى:** ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١: أي: فاز بثواب الله الذين صدّقوا بالله وبوحدانيته وبرسوله. وقيل: معنى أفلح بقي أي: قد بقيت أعمالهم الصالحة، وقيل: معناه قد سعد. قال لبيد: «ولقد أفلح من كان عقل». قال الفراء: يجوز أن يكون ﴿قَدْ﴾ ههنا لتأكيد الفلاح للمؤمنين، ويجوز أن يكون تقريباً للماضي من الحال، ألا تراهم يقولون: «قد قامت الصلاة» قبل حال قيامها، فيكون المعنى في الآية: ان الفلاح قد حصل لهم وأنهم عليه في الحال. ثم وصف هؤلاء المؤمنين بأوصاف فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ أي: خاضعون متواضعون متذلّلون لا يرفعون أبصارهم عن مواضع سجودهم، ولا يلتفتون يمينا ولا شمالا. ورؤي أن النبي ﷺ رأى رجلاً يعبت بلحيته في صلاته، فقال: «أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه».

وفي هذا دلالة على أن الخشوع في الصلاة يكون بالقلب وبالجوارح، فأما بالقلب فهو أن يفرغ قلبه بجمع الهمّة لها، والإعراض عما سواها، فلا يكون فيه غير العبادة والمعبود، وأما بالجوارح فهو غض البصر والإقبال عليها، وترك الالتفات والعبث. قال ابن عباس: خشع فلا يعرف من على يمينه، ولا من على يساره. ورؤي أن رسول الله ﷺ كان يرفع بصره إلى السماء في صلاته، فلما نزلت الآية طأطأ رأسه ورمى ببصره إلى الأرض. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ اللغو في الحقيقة هو كل قول أو فعل لا فائدة فيه يعتد بها، فذلك قبيح محظور يجب الإعراض عنه. وقال ابن عباس: اللغو: الباطل. وقال الحسن: هو جميع المعاصي، وقال السدي: هو الكذب، وقال مقاتل: هو الشتم، فإن كفار مكة كانوا يشتمون النبي ﷺ وأصحابه، فنهوا عن إجابتهم. ورؤي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: هو أن يتقول الرجل عليك بالباطل، أو يأتيك بما ليس فيك، فتعرض عنه الله. وفي رواية أخرى أنه الغناء والملاهي ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ ٢: أي: مؤدّون. فعبر عن التأدية بالفعل لأنه فعل. قال أمية بن أبي الصلت: «المطعمون الطعام في السنة الأزمة والفاعلون للزكوات» (١). قال ابن عباس: للصدقة الواجبة مؤدّون. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ٣: قال الليث: الفرج اسم لجميع سوءات الرجال والنساء، والمراد بالفروج ههنا فروج الرجال بدلالة قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال الزجاج: المعنى أنهم يلامون في إطلاق ما حظر عليهم، وأمروا بحفظه إلا على أزواجهم. ودل على المحذوف ذكر اللوم في قوله: ﴿فَأَنَّهُمْ غَيْرَ مَلُومِينَ﴾ وملك اليمين في الآية المراد به الإماء، لأن الذكور من المماليك لا خلاف في وجوب حفظ الفرج منهم، وإنما قيل للجارية ملك يمين، ولم يقل في الدار ونحوها ملك يمين، لأن ملك الجارية أخص منه، إذ يجوز له نقض بنية الدار، وليس له نقض بنية الجارية، وله عارية الدار وليس له عارية الجارية للوطء حتى توطأ بالعارية. وإنما أطلق سبحانه إباحة وطء الأزواج والإماء، وإن كانت لهن أحوال يحرم وطؤهن فيها، كحال الحيض والعدة، للجارية من زوج لها وما أشبه ذلك، لأن الغرض بالآية بيان جنس من يحل وطؤها دون الأحوال التي لا يحل فيها الوطء. ﴿فَمَن بَنَىٰ غَرَابًا وَرَآهُ ذَٰلِكَ﴾ أي: طلب سوى الأزواج والولائد المملوكة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي: الظالمون

(١) الأزمة: الشدة والقطط.

المتجاوزون إلى ما لا يحل لهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (٨) أي: حافظون وافون، والأمانات ضربان: أمانات الله تعالى وأمانات العباد، فالأمانات التي بين الله تعالى وبين عباده هي العبادات، كالصيام والصلاة والاعتسالة، وأمانات العباد هي مثل الودائع والعواري والبياعات والشهادات وغيرها. وأما العهد فعلى ثلاثة أضرب: أوامر الله تعالى، ونذور الإنسان، والعقود الجارية بين الناس، فيجب على الإنسان الوفاء بجميع ضروب الأمانات والعهود، والقيام بما يتولاه منها. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩) أي: يقيمونها في أوقاتها ولا يضيعونها، وإنما أعاد ذكر الصلاة تنبيهاً على عظم قدرها وعلو رتبته عنده تعالى. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١٠) معناه: أن من كانوا بهذه الصفات واجتمعت فيهم هذه الخلال، هم الوارثون يوم القيامة منازل أهل النار من الجنة، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله». وقيل: إن معنى الميراث هنا أنهم يصيرون إلى الجنة بعد الأحوال المتقدمة، وينتهي أمرهم إليها، كالميراث الذي يصير الوارث إليه. ثم وصف الوارثين فقال: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ وهو اسم من أسماء الجنة، عن الحسن، ولذلك أثبت فقال: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وقيل: هو اسم لرياض الجنة، عن مجاهد وأبي علي الجبائي. وقيل: هو جنة مخصوصة. ثم اختلف في أصله فقيل: إنه اسم رومي فَعَرَبَ، وقيل: هو عربي وزنه فَعْلُول، وهو البستان الذي فيه كرم، قال جرير:

يَا بُغْدَ يَبْرِينَ مِنْ بَابِ الْفِرَادِيسِ^(١)

وقال الجبائي: معنى الورثة هنا: أن الجنة ونعيمها يؤول إليهم من غير اكتساب، كما يؤول المال إلى الوارث من غير اكتساب.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتَّوْنَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا تَوْفَكُمُ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْتَبَ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩).

● القراءة: قرأ ابن عامر وأبو بكر: «عظماً فكسونا العظم» على الأفراد، وقرأ زيد عن يعقوب: «عظماً فكسونا العظام»، والباقون: على الجمع في الموضعين.

(١) وقيل: «فقلت للركب إذ جد الرحيل بنا». ويبرين: موضع من أصقاع بحرين.

● **الحجة:** قال أبو علي: الجمع أشبه بما جاء في التنزيل ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا وَرُقْنًا﴾، ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا نَحْرَةً﴾، ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ﴾. والإفراد لأنه اسم جنس فأفرد كما يفرد المصادر وغيرها من الأجناس نحو الدرهم والإنسان، وليس ذلك على حد قوله:

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعِفُّوا فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيصٌ^(١)

ولكنه على ما أنشده أبو زيد:

لَقَدْ تَعَلَّلْتُ عَلَى أَيْانِقٍ صُهِبَ قَلِيلَاتِ الْقُرَادِ اللَّازِقِ^(٢)

فالقراد يراد به الكثرة لا محالة.

● **اللغة:** السلالة: اسم لما يسلم من الشيء كالكساحة اسم لما يكسح. وتسمى النطفة سلالة، والولد سلالة وسليلة، والجمع سلالات وسلائل. فالسلالة: صفوة الشيء التي يخرج منها كالسلالة، قال الشاعر:

وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا مُنْهَرَةٌ عَرَبِيَّةٌ سَلِيلَةٌ أَفْرَاسٍ تَجَلَّلَهَا بَغْلٌ^(٣)

والنطفة: الماء القليل، وقد يقال للماء الكثير أيضاً، ومنه قول أمير المؤمنين عليه أفضل الصلوات: مصارعهم دون النطفة، يريد النهر وان يعني الخوارج. ومنه الحديث: «حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى جوراً» يعني بحر المشرق وبحر المغرب.

● **الإعراب:** ﴿فِي قَرَارٍ﴾ في موضع الصفة لنطفة. و﴿عَلَقَةً﴾: حال من النطفة بعد الفراغ من الفعل، وكذلك القول في مضغة وعظام. و﴿لَحْمًا﴾ مفعول ثانٍ ل﴿كَسَوْنَا﴾، و﴿خَلَقْنَا﴾ مصدر أنشأنا من غير لفظه. ﴿مَنْ يُحْيِي وَأَعْتَبَ﴾ صفة لجنات. وكذلك قوله ﴿لَكَرَ فِيهَا فَوْكُهُ كَثِيرَةٌ﴾.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه على وجه القسم ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ المراد بالإنسان ولد آدم عليه السلام، وهو اسم الجنس فيقع على الجميع، عن ابن عباس ومجاهد. وأراد بالسلالة الماء يسلم من الظهر سلاً، من طين أي: من طين آدم، لأنها تولدت من طين خلق آدم منه. قال الكلبي: يقول من نطفة سلت تلك النطفة من طين. وقيل: أراد بالإنسان آدم عليه السلام لأنه استل من أديم الأرض، عن قتادة، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ يعني: ابن آدم الذي هو الإنسان ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ يعني الرحم مكن فيه الماء بأن هيء لاستقراره فيه إلى بلوغ أمدته الذي جعل له ﴿فَوَخَلَقْنَا النَّفْثَةَ عَلَقَةً فَوَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مَضْغَةً﴾ مفسر في سورة الحج ﴿فَوَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ عِظْمًا﴾ أي: جعلنا تلك المضغة من اللحم عظماً ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ أي: فأنبتنا

(١) زمن خميص: أي شديد.

(٢) تعلل بالأمر: تشاغل. وأيانق جمع أيتق وهي جمع الناقة. والأصهب من الإبل الذي يخالط بياضه حمرة. والقراد: دوية تعض الإبل. ومعنى قليات: أن جلودها ملس لا يثبت عليها قراد الأيتق لأنها سمان ممتلئة.

(٣) المهرة: ولد الفرس. وقال بعضهم: إن قوله «بغل» تصحيف، وإن صوابه «نغل» بالنون، وهو الخسيس من الناس والدواب. ويروى البيت: «وما هند... تحللها بغل».

سورة المؤمنون

اللحم على العظام كاللباس، يبين سبحانه تنقل أحوال الإنسان في الرحم حتى استكمل خلقه، لينبئه على بدائع حكمته وعجائب صنعته وكمال نعمته ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أي: نفخنا فيه الروح، عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والشعبي والضحاك. وقيل: هو نبات الشعر والأسنان وإعطاء الفهم، عن قتادة. وقيل: يعني ثم أنشأناه ذكراً وأنثى، عن الحسن ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي: تعالى الله ودام خيره وثبت، وقيل: معناه استحق التعظيم بأنه قديم لم يزل ولا يزال، لأنه مأخوذ من البروك الذي هو الثبوت. وقال: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ لأنه لا تفاوت في خلقه. وأصل الخلق التقدير. يقال: خلقت الأديم إذا قصته لتقطع منه شيئاً. وقال حذيفة في هذه الآية: تصنعون ويصنع الله وهو خير الصانعين، وفي هذا دليل على أن اسم الخلق قد يطلق على فعل غير الله تعالى، إلا أن الحقيقة في الخلق لله سبحانه فقط. فإن المراد من الخلق إيجاد الشيء مقدراً تقديراً لا تفاوت فيه، وهذا إنما يكون من الله سبحانه وتعالى. ودليله قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، وروى أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان يكتب لرسول الله ﷺ، فلما بلغ إلى قوله ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ خطر بباله ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فلما أملاها رسول الله ﷺ، قال عبد الله: إن كان محمداً نبياً يوحى إليه فأنا نبي يوحى إلي. فلحق بمكة مرتداً، ولو صغ هذا، فإن هذا القدر لا يكون معجزاً ولا يمتنع أن يتفق ذلك من الواحد منا، لكن هذا الشقي إنما اشتبه عليه، أو شبه على نفسه لما كان في صدره من الكفر والحسد للنبي ﷺ. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد ما ذكرنا من تمام الخلق ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ أي: تحشرون إلى الموقف والحساب والجزاء. أخبر الله سبحانه أن هذه البنية العجيبة المبنية على أحسن إتقان وإحكام، تنقض بالموت لغرض صحيح، وهو البعث والإعادة. وهذا لا يمنع من الإحياء في القبور لأن إثبات البعث في القيامة، لا يدل على نفي ما عده. ألا ترى أن الله سبحانه أحيا الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف، وأحيا قوم موسى على الجبل بعد ما أماتهم، وفي الآية دلالة على فساد قول النظام في أن الإنسان هو الروح. وقول معمر: إن الإنسان شيء لا ينقسم وإنه ليس بجسم. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي: سبع سموات كل سماء طريقة وسميت بذلك لتطارقها، وهو أن بعضها فوق بعض. وقيل: لأنها طرائق الملائكة، عن الجبائي. وقيل: الطرائق الطباق، وكل طبقة طريقة، عن ابن زيد. وقيل: إن ما بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، وكذلك ما بين السماء والأرض، عن الحسن. ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ إذ بنينا فوقهم سبع سموات، أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب، وقيل: معناه ما خلقناهم عبثاً بل خلقناهم عالمين بأعمالهم وأحوالهم، عن الجبائي. وفي هذا دلالة على أنه عالم بجميع المعلومات، وفيه زجر عن السيئات، وترغيب في الطاعات. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: مطراً وغيثاً ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: بقدر الحاجة لا يزيد على ذلك فيفسد، ولا ينقص عنه فيهلك، بل على ما توجه المصلحة ﴿فَأَنشَأْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا له الأرض مسكناً جمعناه فيه لينتفع به. يريد ما يبقى في المستنقعات والدحلان^(١). أقر الله الماء فيها لينتفع

(١) الدحلان جمع الدحل: المصنع يجمع الماء.

الناس بها في الصيف عند انقطاع المطر. وقيل: معناه جعلناه عيوناً في الأرض. وروى مقاتل عن عكرمة، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى أنزل من الجنة خمسة أنهار سيحون، وهو نهر الهند، وجيحون وهو نهر بلخ، ودجلة والفرات وهما نهران العراق، والنيل وهو نهر مصر. أنزلها الله من عين واحدة وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معاشهم، وذلك قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾. ﴿وَلَنَا عَلَى ذَٰلِكُمْ بِهٖ لَقَدْرُونَ﴾ أي: ونحن على إذهابه قادرون، ولو فعلناه لهلك جميع الحيوانات. نبه سبحانه بذلك على عظيم نعمته على خلقه بإنزال الماء من السماء ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ﴾ أي: أحدثنا وخلقنا لنفعمكم ﴿بِهٖ﴾ أي: بسبب هذا الماء ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ تَحْتِهَا أَعْنَابٌ لَّكُمْ﴾ يا معشر الخلق ﴿فِيهَا فَوْكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكهون بها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وإنما خصّ النخل والأعناب لأنها ثمار الحجاز من المدينة والطائف، فذكرهم سبحانه بالنعم التي عرفوها.

● **النظم:** وجه اتصال الآيات بما قبلها، أنه سبحانه لما ذكر نعمته على المؤمنين بما أعد لهم في الآخرة، ابتدأ بذكر نعمه عليهم في مبتدأ خلقه، تنبيهاً لهم على النظر فيها وترغيباً في التمسك بالحسنات المذكورة. ولما بين أحوال الآخرة، بين متى يكون البعث ودل بذلك على أن من قدر على خلق الإنسان في هذا الترتيب والتركيب العجيب قدر على الإعادة. ثم أبان عن قدرته على البعث، بقدرته على خلق السماوات. ثم بين أنه لا يغفل عن عباده إذ لا يشغله فعل عن فعل ثم بين أنه قادر لذاته حيث أنزل من السماء الماء وأسكنه في الأرض بأن فرقه في البحار والأنهار والعيون. ثم بين سبحانه أنه قادر على إذهابه، دلالة على أن هذه النعمة وقعت باختياره. ثم ذكر تفصيل النعمة.



قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةٍ تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلَّالِئِينَ ۝١٥﴾
 ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبَرَةٌ شَفِيقُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٦﴾
 ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝١٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهٖ جِنَّةٌ فَرَّقُوا بِهٖ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٢٥﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو: «طور سيناء» بكسر السين. والباقون بفتحها. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب، عن روح: «تنبت بالدهن» بضم التاء، والباقون: «تنبت» بفتح التاء وضم الباء، وفي الشواذ قراءة الحسن والزهري والأعرج: «تنبت» بضم التاء وفتح الباء وقد ذكرنا اختلافهم في «نسقيكم» في سورة النحل.

● **الحجة:** قال أبو عمرو: من قرأ: «سيناء» بفتح السين لم ينصرف الاسم عنده في معرفة

ولا نكرة، لأن الهمزة في هذا البناء لا تكون إلا للتأنيث، ولا تكون للإلحاق، لأن فعلاً لا يكون إلا في المضاعف فلا يجوز أن يلحق به شيء. فهذا إذاً كموضع أو بقعة تسمى بطرفاء أو صحراء، ومن قرأ: «سيناء» بالكسر فالهمزة فيها منقلبة عن الياء، كعلباء وسيساء^(١). وهي الياء التي أظهرت في نحو دِرْحَايَةٍ^(٢). وإنما لم ينصرف على هذا القول وإن كان غير مؤنث، لأنه جعل اسم بقعة، فصار بمنزلة امرأة سميت بجعفر. ومن قرأ: «تَنْبِتُ بالدهن» احتمل وجهين:

أحدهما: أن يجعل الجار زائداً، يريد تنبت الدهن، كما في قوله: ﴿وَلَا تُثْلِقُوا يَأَيُّكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾ وقد زيدت هذه الباء مع الفاعل، كما زيدت مع المفعول به في نحو قوله:

ألم يأتيك والأنباء تَنُمِي بما لاقت لبون بني زياد^(٣)
وقد زيدت مع هذه الكلمة بعينها في قوله:

بوادٍ يَمانٍ تَنَبَّتُ الشَّيْءُ حَوْلَهُ وَأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ وَالشُّبُهَانِ^(٤)

حملوه على ينبت أسفل المرخ. ويجوز أن يكون الباء متعلقاً بغير هذا الفعل الظاهر، ويقدر مفعولاً محذوفاً تقديره تنبت جناها أي: ثمرتها وفيها دهن وصبغ كما تقول: خرج بثيابه وركب سلاحه. ومن قرأ: «تَنْبِتُ بالدهن» جاز أن يكون الجار فيه للتعدي أنبته ونبت به. ويجوز أن يكون الباء في موضع حال، كما كان في الوجه الأول، ولا يكون للتعدي. ولكن تنبت فيها دهن، وقد قالوا: أنبت بمعنى نبت، فكان الهمزة في أنبت مرة للتعدي ومرة لغيرها. ويكون من باب أخال وأجرب وأقطف أي: صار ذا خال وجرب^(٥). ومن قرأ: «تَنْبِتُ» فهو على معنى تنبت، وفيها دهنها، وتؤكد ذلك قراءة عبد الله «تخرج بالدهن» أي: تخرج من الأرض ودهنها معها. قال ابن جني: ذهبوا في بيت زهير:

حتى إذا أنبت البقل^(٦)

إلى أنه في معنى نبت. وقد يجوز أن يكون محذوف المفعول بمعنى حتى إذا أنبت البقل ثمره. قال: ومن ذهب إلى زيادة الباء في قوله: تنبت بالدهن فمضعوف المذهب، لأنه يزيد حرفاً لا حاجة له إلى اعتقاد زيادته.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم فقال: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ أي: وأنشأنا لكم بذلك المطر شجرة يعني شجرة الزيتون، وخصت بالذكر لما فيها من العبرة بأنه لا

(١) العلباء: عصبية في صفحة العنق. والسيساء: متظم فقار الظهر.

(٢) الدرحاية من الرجال: القصير السمين البطن.

(٣) مضى البيت في هذا الجزء فراجع.

(٤) مضى البيت في هذا الجزء فراجع.

(٥) [وقطف].

(٦) هذا جزء من بيت تمامه:

«رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطيناً لهم حتى إذا أنبت البقل»

يتعاهدها إنسان بالسقي، وهي تخرج الثمرة التي يكون منها الدهن الذي تعظم به المنفعة. وسيناء: اسم المكان الذي به هذا الجبل في أصح الأقوال، وهي نبطية في قول الضحاك، وحشية في قول عكرمة، وهي اسم حجارة بعينها أضيف الجبل إليها، عن مجاهد. وقيل: سيناء البركة فكأنه قيل: جعل البركة، عن ابن عباس وقتادة. وقيل: طور سيناء الجبل المشجر أي: كثير الشجر، عن الكلبي. وقيل: هو الجبل الحسن، عن عطاء. وهو الجبل الذي نودي منه موسى ﷺ، وهو ما بين مصر وأيلة، عن ابن زيد. ﴿تَبَّتْ يُالَ ذَهَبٍ﴾ أي: تنبت ثمرها بالدهن لأنه يعصر من الزيتون الزيت ﴿وَصَبَّغَ لِلْأَكْلَيْنِ﴾ والصبغ ما يصطبغ به من الأدم، وذلك أن الخبز يلون بالصبغ إذا غمس فيه والاصطباغ بالزيت: الغمس فيه للائتمام به. والمراد بالصبغ الزيت، عن ابن عباس، فإنه يدهن به ويؤتد. جعل الله في هذه الشجرة أدماً ودهناً: «فالأدم» الزيتون، والدهن الزيت. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الزيت شجرة مباركة فائتدوا به وادهنوا». ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ أي: دلالة تستدلون بها على قدرة الله تعالى ﴿تُفْقِكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ أراد به اللبن. ومن قرأ بضم النون أراد: إنا جعلنا ما في ضرعها من اللبن سقياً لكم. ومن فتح النون جعل ذلك مختصاً بالسقاة، وهو مفسر في سورة النحل. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ في ظهورها وألبانها وأوبارها وأصوافها وأشعارها ﴿وَمِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: من لحومها وأولادها والتكسب بها. ﴿وَعَلَيْهَا﴾ يعني على الإبل خاصة. ﴿وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونُ﴾ وهذا كقوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ﴾، أما في البر فالإبل، وأما في البحر فالسفن. ولما قدم سبحانه ذكر الأدلة الدالة على كمال قدرته، فأتبعها بذكر شمول نعمته على كافة خليقته، عقب ذلك بذكر إنعامه عليهم بإرسال الرسل فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ قيل: إنما سمي نوحاً لكثرة نوحه على نفسه، عن ابن عباس. وقيل في سبب نوحه: إنه كان يدعو على قومه بالهلاك. وقيل: هو مراجعته ربه في شأن ابنه. ﴿فَقَالَ يَتَوَمَّيْزُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: أطيعوه ووحّدوه ﴿مَا لَكُمْ مِّنَ إِلَهِ غَيْرِهِ﴾ بدأ بالتوحيد لأنه الأهم ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله في ترك الإيمان به ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يتشرف ويترأس عليكم بأن يصير متبوعاً، وأنتم له تبع، فيكون له الفضل عليكم، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا يعبد شيء سواه ﴿لَأَنزَلْنَا مَلَائِكَةً﴾ ولم يرسل بشراً آدمياً ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يدعوننا إليه نوح من التوحيد ﴿فِي ءَابَائِنَا الْأُولَىٰ﴾ أي: في الأمم الماضية ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَدَّعِي جَنَّةً﴾ أي: في حالة جنون ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: انتظروا موته فتستريحوا منه. وقيل: فانتظروا إفاقته من جنونه فيرجع عما هو عليه. وقيل: معناه احبسوه مدة ليرجع عن قوله.



قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ ﴿٢١﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ

﴿٢٧﴾ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْخُذْ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلِ رَبِّ أُنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

● **القراءة:** قرأ أبو بكر عن عاصم: «منزلاً» بفتح الميم وكسر الزاي، والباقون: «منزلاً» بضم الميم وفتح الزاي.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: «منزلاً» بالضم، جاز أن يكون مصدرًا وأن يكون موضعاً للإنزال. فعلى الوجه الأول جاز أن يعدى الفعل إلى مفعول آخر، وعلى الوجه الثاني قد تعدى إلى مفعولين. ومن قرأ: «منزلاً» أمكن أن يكون مصدرًا وأن يكون موضع نزول. ودل أنزلني على نزلت.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أن نوحاً لما نسبته قومه إلى الجنون ولم يقبلوا منه ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون﴾ أي: بتكذيبهم آياتي، والمعنى: انصُرني بإهلاكهم ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحيث نراها كما يراها الرائي من عبادنا بعينه، وقيل: معناه بأعين أوليائنا من الملائكة والمؤمنين، فإنهم يحرسونك من كل من يمنعك منه ﴿وَوَحَيْنَا﴾ أي: بأمرنا وإعلامنا إياك كيفية فعلها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَكَانَ الْغَوْءُ فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: فأدخل في السفينة ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ مفسر في سورة هود، ﴿وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لا تكلمني في شأنهم ﴿إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: هالكون ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنتَ يَا نُوحُ﴾ ومن معك على الفلك ﴿السفينة﴾ ﴿فَقُلِ الْخُذْ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا﴾ أي: خلصنا ﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لنفوسهم بجحدهم توحيد الله ﴿وَقُلِ رَبِّ أُنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا﴾ أي: إنزالاً مباركاً، أو نزولاً مباركاً بعد الخروج من السفينة، وذلك تمام النجاة، عن مجاهد. وقيل: المنزل المبارك هو السفينة، عن الجبائي، قيل: لأنه سبب النجاة. وقيل: معناه أنزلني مكاناً مباركاً بالماء والشجر، عن الكلبي، وقيل: معنى البركة أنهم توالدوا وكثروا، عن مقاتل. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ لأنه لا يقدر أحد على أن يصون غيره من الآفات، إذا أنزله منزلاً، وكيفيه جميع ما يحتاج إليه إلا أنت. قال الحسن: كان في السفينة سبعة أنفس من المؤمنين ونوح ثامنهم. وقيل: ثمانون. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في أمر نوح والسفينة وهلاك أعداء الله ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات للعقلاء يستدلون بها على التوحيد. ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ معناه: وإن كنا مختبرين إياهم بإرسال نوح، ووعظه وتذكيره، ومتعبدين عبادنا بالاستدلال بتلك الآيات على قدرتنا ومعرفتنا.



قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا مَّآخِرِينَ﴾ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ

وَلَشَرَبَ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٦﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَعْيَدَكُمْ أَتُكْرَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَتُكْرَمُونَ ﴿٣٩﴾ هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٤٠﴾ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٤١﴾ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٤٣﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٤﴾ .

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: «هيهات هيهات» بالكسر، والباقون بالفتح. وفي الشواذ قراءة عيسى بن عمر: «هيهات هيهات» بالتونين والكسر. وقراءة أبي خنوة: «هيهات هيهات» بالرفع والتونين، وقراءة عيسى الهمداني: «هيهات هيهات» مرسله التاء.

● **الحجة:** قال ابن جني: أما الفتح وهو قراءة العامة فعلى أنه واحد، وهو اسم سمي به الفعل في الخبر، وهو اسم بُعد، كما أن شتان اسم افتراق، وأف اسم اتضجر. ومن كسر فقال: «هيهات» منوناً أو غير منون فهو جمع هيهاة وأصلها هيهيات فحذف الألف لأنه في آخر اسم غير متمكن، كما حذفت ياء الذي، وألف ذا، في التثنية إذا قلت: اللذان وذان. ومن نون ذهب إلى التكرير أي: بُعْداً بُعْداً. ومن لم يتنن ذهب إلى التعريف، أراد البعد البعد. ومن فتح وقف بالهاء لأنها كهاء أخطاء. ومن كسر كتبها بالتاء لأنها جماعة. ومن قال: هيهات بالتونين والرفع فإنه يكتبها بالهاء، ويكون اسماً معرباً فيه معنى البعد. وقوله: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ خبر عنه فكأنه قال: البعد لوعدكم. وأما «هيهات» ساكنة التاء فينبغي أن تكون جماعة، وتكتب بالتاء، وأجريت في الوقف مجراها في الوصل. ويقول العرب: هيهات لما تبغي، وهيهات منزلك، قال جرير:

فَهِيَهَاتَ هِيَهَاتَ الْعَقِيقَ وَمَنْ بِهِ وَهِيَهَاتَ حِلٌّ بِالْعَقِيقِ تُوَاصِلُهُ^(١)

ويروى: أيهات، واختار الفراء الوقف على «هيهات» بالتاء، لأن قبلها ساكناً، فصارت كتنأيت أخت. وقال أبو علي: إنما كرر هيهات في الآية، وفي البيت، للتأكيد، وأما اللتان في الآية ففي كل واحدة منهما ضمير مرتفع يعود إلى الإخراج. إذ لا يجوز خلوه من الفاعل، والتقدير: هيهات إخراجكم، لأن قوله ﴿أَتُكْرَمُونَ﴾ بمعنى الإخراج أي: بعد إخراجكم للوعد، إذ كان الوعد إخراجكم بعد موتكم. استبعد أعداء الله إخراجهم لما كانت العدة به بعد الموت. ففاعل هيهات هو الضمير العائد إلى ﴿أَتُكْرَمُونَ﴾ الذي هو بمعنى الإخراج. وأما في البيت، ففي هيهات الأول ضمير العقيق، وفسر ذلك ظهوره مع الثاني.

● **الإعراب:** اختلفوا في «أن» الثانية من قوله سبحانه: ﴿أَعْيَدَكُمْ أَتُكْرَمُونَ﴾ إذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَتُكْرَمُونَ، وكذلك قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ يُخَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبَقَ لَهُ نَارُ

(١) العقيق: اسم موضع. وفي (اللسان): «نحاوله» بدل «نواصله».

سورة المؤمنون

جَهَنَّمَ . وقوله: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، فقال سيبويه: أنَّ الثانية في هذه المواضع الثلاثة بدل من الأولى. وقال أبو عمرو الجرمي وأبو العباس المبرد: إنها مكررة للتأكيد وطول الكلام. وقال أبو الحسن: إنها مرتفع بالظرف، واختاره أبو علي الفارسي، وزيف القولين الأولين. وأقول: إنَّ أن الأولى في قوله: ﴿ أَيْدِيكُمْ أَتُكْرَمُ ﴾ مع اسمها وخبرها في موضع نصب على أنه المفعول الثاني من الوعد. ويكون تقديره على مذهب سيبويه: أَيْدِيكُمْ أَنْكُمْ مَخْرُجُونَ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعِظَامًا، أي: أَيْدِيكُمْ كُونَكُمْ مَخْرُجِينَ بَعْدَ مَوْتِكُمْ، وَكُونَكُمْ تَرَابًا وَعِظَامًا. وأما على مذهب من جعله للتكرير فتقديره: أَيْدِيكُمْ أَنْكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ مَخْرُجُونَ. وأما على مذهب أبي الحسن وأبي علي فتقديره: أَيْدِيكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ إِخْرَاجَكُمْ. واتقوا: أَنْكُمْ وَقْتُ مَوْتِكُمْ أَوْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ إِخْرَاجَكُمْ. فقوله: ﴿ أَتُكْرَمُ تَخْرُجُونَ ﴾ في موضع رفع بالظرف الذي هو قوله: ﴿ إِذَا مِتُمْ ﴾. وقوله: ﴿ إِذَا مِتُمْ ﴾ مع ما بعده رفع لكونه جملة واقعة موقع خبر أنَّ الأولى. وموضع ﴿ إِذَا ﴾ نصب كما انتصب «يوم» في قولك: يوم الجمعة القتال، والعامل في الظرف في الأصل الفعل المحذوف، أو معنى الفعل مثل قولك: يحدث أو حادث، أو يكون أو كائن. ولا يجوز أن يكون العامل فيه الإخراج نفسه، إذ لو كان كذلك لكان الكلام غير تام ولا يكون له خبر، ثم يحذف هذا المضممر لدلالة الظرف عليه وقيامه مقامه، ويصير الذكر الذي كان في المضممر من المحدث عنه في الظرف، وذلك الذكر مرتفع بالظرف كما كان يرتفع بالفعل، كما في نحو قولك: زيد ذهب، وزيد ذاهب. فلما قام الظرف مقام الفعل متأخراً عن الاسم، قام مقامه أيضاً مبتدأ، فرفع الاسم الظاهر كما رفعه الفعل. فكذلك ﴿ إِذَا ﴾ في الآية تقديره في الأصل: إِذَا مِتُمْ إِخْرَاجَكُمْ كَائِنَ أَوْ حَادِثَ أَوْ يَكُونُ أَوْ يَحْدُثُ. ثم اختزل الفعل أو معنى الفعل على ما قاله أبو علي، فانتصب إِذَا بذلك كما ينتصب «غداً» في قولك: غداً الرحيل. وحذف الخبر كما حذف من غداً، ثم قام إِذَا مقام الفعل فرفع قوله: ﴿ أَتُكْرَمُ تَخْرُجُونَ ﴾ كما رفع قولك: غداً الرحيل. وعلى هذا فيجوز أن نقول هنا: إن موضع ﴿ إِذَا ﴾ نصب بحادث، أو يحدث، المضممر في قولك: إِذَا مِتُمْ إِخْرَاجَكُمْ يحدث أو حادث. ويجوز أن نقول: إن الاسم الذي هو ﴿ أَتُكْرَمُ تَخْرُجُونَ ﴾ واقع موقع جواب شرط إِذَا، ويرفع بفعل مضمَر تقديره: أَيْدِيكُمْ إِذَا مِتُمْ يَعَادُ إِخْرَاجَكُمْ أَوْ يَحْدُثُ إِخْرَاجَكُمْ وَيَكُونُ مَوْضِعُ ﴿ إِذَا ﴾ نصب بذلك الفعل. فأما تقدير ارتفاع أنَّ الثانية بالظرف في الآيتين الأخيرتين، فقد تقدم بيانه في موضعيهما من هذا الكتاب فلا معنى لإعادته.

فقد أجاز أبو عثمان وغيره إضممار الظرف وإعماله، كما قالوا في انتصاب مثلهم في بيت الفرزدق:

فَأُضْبَحُوا قَدْ أَعَادَ اللَّهُ نِعْمَتَهُمْ إِذْ هُمْ قُرَيْشٌ وَإِذَا مَا مِثْلَهُمْ بَشَرٌ^(١)

إنه على ظرف مضمَر.

(١) هذا البيت من قصيدة يمدح فيها عمر بن عبد العزيز. وضمائر الجمع مرجعها قریش.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على قصة قوم نوح، فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: أحدثنا وخلقنا من بعد قوم نوح ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: جماعة آخرين من الناس، والقرن: أهل العصر على مقارنة بعضهم لبعض. قيل: يعني عاداً قوم هود، لأنه المبعوث بعد نوح. وقيل: يعني ثمود لأنهم أهلكوا بالصبحة، عن الجبائي ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ سبق تفسيره ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ﴾ أي: بالبعث والجزاء ﴿وَأَرْفَقْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: نعمناهم فيها بضروب الملاذ ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ من الأشربة، فليس هو أولى بالرسالة منا ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ﴾ فيما يدعوكم إليه ﴿إِنَّكُمْ لَخَافِرُونَ﴾ باتباعه ﴿يَعْبُدُوكُمْ﴾ هذا الرسول ﴿أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ وصرتم بعد الموت رميماً ﴿أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء. ﴿هَيَّاتَ﴾ فيه ضمير مرتفع عائد إلى قوله ﴿أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ والمعنى: هيهات هو، أي: بُعد إخراجكم جداً حتى امتنع ﴿هَيَّاتَ لِمَا توعَدُونَ﴾ قال ابن عباس: بعداً بعداً لما توعدون. وقال الكلبي: بعيد بعيد ما يعدكم ليوم البعث ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: ليس الحياة إلا الحياة التي نحن فيها القريبة منا ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموت قوم منا، ويحيا قوم ولا نبعث، وقيل: يموت الآباء ويحيا الأبناء، عن الكلبي. وقيل: يموت قوم ويولد قوم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد ذلك، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: اختلق كذباً ﴿وَمَا نَحْنُ لَمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدقين فيما يقول ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ تقدم بيانه ﴿قَالَ﴾ أي: قال الله سبحانه: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن قليل من الزمان والوقت، يعني عند الموت أو عند نزول العذاب، وما ههنا مزيدة ﴿لَيُصِصِحَّنَّ نَارِهِمْ﴾ هذا وعيد لهم، واللام للقسم.



قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾
 ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدَدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

● **القراءة:** قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: «تترى» بالتنوين، والباقون بغير تنوين ومن نون وقف بالألف لا غير. ومن لم ينون ومذهبه الإمالة وقف بالياء وهي ألف مماله. والباقون بالألف. وقد ذكرنا اختلافهم في «ربوة» في سورة البقرة.

● **الحجة:** قال أبو علي: «تترى» فعلى من المواتره، والمواتره أن يتبع الخبر الخبر،

سورة المؤمنون

والكتاب الكتاب، فلا يكون بينهما فصل كثير. والأقيس أن لا يصرف، لأن المصادر قد يلحق أواخرها ألف التأنيث كالدعوى والعدوى والذكرى والشورى، ولم نعلم شيئاً من المصادر لحق آخرها الياء للإلحاق، فمن قال: «تترى» أمكن أن يريد به فعلى من المواترة، فيكون الألف بدلاً من التنوين، وإن كان في الخط بالياء كان للإلحاق. والإلحاق في غير المصادر ليس بالقليل نحو: أرطى ومعزى، ولزم أن يحمل على فَعَلَ دون فَعَلَى. ومن قال: «تترى» وأراد به فعلى فحكمه أن يقف بالألف مفخمة ولا يميلها، ومن جعل للإلحاق أو للتأنيث أمال الألف إذا وقف عليها.

● **المعنى:** لما قال سبحانه: إن هؤلاء الكفار يصبحون نادمين على ما فعلوه، عقبه بالإخبار عن إهلاكهم، فقال: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ﴾ صاح بهم جبرائيل صيحة واحدة، ماتوا عن آخرهم ﴿يَالْحَقُّ﴾ أي: باستحقاقهم العقاب بكفرهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ وهو ما جاء به السيل من نبات قد يبس، وكل ما يحمله السيل على رأس الماء من قصب وعيدان شجر فهو غثاء. والمعنى: فجعلناهم هلكى قد يبسوا كما يبس الغشاء، وهمدوا. ﴿فَبَعْدًا﴾ أي: ألزم الله بعداً من الرحمة ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ المشركين المكذبين ﴿فَرَأَيْنَاهُمْ مِنْ بُعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد هؤلاء ﴿قُرُونًا مَّا خَرَتْ﴾ أي: أمماً وأهل أعصار آخرين ﴿مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ هذا وعيد للمشركين معناه: ما تموت أمة قبل أجلها المضروب لها ولا تتأخر عنه، وقيل: عنى بالعذاب الموعود لهم على التكذيب أنه لا يتقدم على الوقت المضروب لهم لذلك، ولا يتأخر عنه. والأجل هو الوقت المضروب لحدوث أمر من الأمور، والأجل المحتوم لا يتأخر ولا يتقدم، والأجل المشروط بحسب الشرط، والمراد بالأجل المذكور في الآية: الأجل المحتوم، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ أي: متواترة يتبع بعضهم بعضاً، عن ابن عباس ومجاهد، وقيل: متقاربة الأوقات. وأصله الاتصال لاتصاله بمكانه من القوس، ومنه الوتر وهو الفرد عن الجمع المتصل. قال الأصمعي: يقال واترت الخبر: أتبت بعضه بعضاً، وبين الخبرين هنيهة. ﴿كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ﴾ ولم يُقِرُّوا بنبوته ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ يعني في الإهلاك أي: أهلكنا بعضهم في أثر بعض ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: يتحدث بهم على طريق المثل في الشر، وهو جمع أخذوته، ولا يقال هذا في الخير. والمعنى: إنا صيرناهم بحيث لم يبق بين الناس إلا حديثهم ﴿فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ظاهر المعنى. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بدلائلنا الواضحة ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: وبرهان ظاهر بين ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ خص الملأ وهم الأشراف بالذكر لأن الآخرين كانوا أتباعاً لهم ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا﴾ أي: تجبروا وتعظموا عن قبول الحق ﴿وَكَانُوا قَوْمًا غَالِينَ﴾ أي: متكبرين قاهرين قهروا أهل أرضهم واتخذوهم خولاً. ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ﴾ أي: نصدق لإنسانين خلقهم مثل خلقنا، ويسمى الإنسان بشراً لانكشاف بشرته، وهي جلده الظاهرة حتى احتاج إلى لباس يكتئه، وغيره من الحيوان مغطى البشرة بصوف أو ريش أو غيره، لطفاً من الله سبحانه بخلقه، إذ لم يكن هناك عقل يدبر أمره مع حاجته إلى ما يكتئه، والإنسان يهتدي إلى ما يستعين به في هذا الباب. ﴿وَقَوْمَهُمَا لَنَا عِدُونَ﴾ أي: مطيعون طاعة العبد لمولاه، قال الحسن: كان بنو إسرائيل يعبدون فرعون، وفرعون يعبد الأوثان ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ أي: فكذبوا

موسى وهارون فكان عاقبة تكذيبهم أن أهلكهم الله وغرقهم. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: لكي يهتدوا إلى طريق الحق والصواب ﴿وَجَعَلْنَا آيَنَ مَرْيَمَ وَآيَةَ عِيسَى﴾ وهذا مثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: حجة على قدرتنا على الاختراع. وآية عيسى أنه خلق من غير ذكر، وآية مريم أنها حملت من غير فعل. ﴿وَوَهَّابْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ أي: جعلنا مأواهما مكاناً مرتفعاً مستوياً واسعاً. يقال: أوى إليه يأوي أوىاً وأواه غيره يؤويه إيواءً أي: جعله مأوى له. والربوة التي أوبا إليها هي الرملة من فلسطين، عن أبي هريرة، وقيل: دمشق، عن سعيد بن المسيب، وقيل: مصر، عن ابن زيد، وقيل: بيت المقدس، عن قتادة وكعب. قال كعب: وهي أقرب الأرض إلى السماء. وقيل: هي حيرة الكوفة وسوادها. والقرار: مسجد الكوفة، والمعين: الفرات، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام. وقيل: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ معناه: أي ذات موضع قرار أي: هي أرض مستوية يستقر عليها ساكنوها، عن الضحاك وسعيد، وقيل: ذات ثمار، عن قتادة ذهب إلى أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها. ومعين: ماء جار ظاهر العيون مفعول من أعتته أعينه. ويجوز أن يكون فعلاً من معن يمعن معانة، والماعون: الشيء القليل في قول الزجاج. قال الراعي:

قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا يَنْتَعِمُوا مَاعُونَهُمْ وَيُبْدِلُوا التَّنْزِيلَ

قالوا: معناه رفدهم، وقيل: زكاتهم، وقال عبيد بن الأبرص:

واهيئةً أَوْ مَعِينٌ مُنْعِينٌ أَوْ هَضْبَةٌ دُونَهَا لُهَوْبٌ^(١)

واللهب: شق في الجبل ممعن مار. والمعن: الشيء السهل الذي ينقاد ولا يعتاص. وأمعن بحقه وأذعن أي: أقر. قال ابن الأعرابي: سالت معانه أي: مسألته ومجاربه.



قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١) ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ أَمَّتْكُمْ وَوَحْدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (٥٢) ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٣) ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٥٤) ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسَبِّحُ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَسَبِّحٍ﴾ (٥٥) ﴿سَارِعُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٦).

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة: «وَأَنَّ هذه» بالكسر، وقرأ ابن عامر: «وَأَنَّ» بالفتح والتخفيف، والباقون: «وَأَنَّ هذه» بالفتح.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: «وَأَنَّ هذه» بالفتح، فالمعنى على قول الخليل وسيبويه: أنه محمول على الجار والتقدير: ولأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون أي: اتقوني لهذا. ومثل ذلك عندهم قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾ أي: ولأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله

(١) الوهي: الشق في الشيء. والهضبة: الجبل المنبسط.

سورة المؤمنون

أحداً. وكذلك عندهما ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ﴾ فكأنه قال: فليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف قريش أي: ليقابلوا هذه النعمة بالشكر والعبادة للمنع بها، وعلى هذا التقدير يحمل قراءة ابن عامر. ألا ترى أن إذا خففت اقتضت ما يتعلق بها اقتضاءها وهي غير مخففة. وقال بعض النحويين: موضع «أن» المفتوحة جر عطفاً على قوله: ﴿يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. و﴿أُمَّةٌ وَجَدَةٌ﴾ نصب على الحال، والكوفيون يسمونه قطعاً. ومن كسر لم يحملها على الفعل كما يحملها من فتح، ولكن يجعلها كلاماً مستأنفاً.

● **المعنى:** لما أخبر الله سبحانه عن إتيائه الكتاب للاهتداء، ثم عما أولاه من سابغ النعمة، خاطب الرسل بعد ذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنْ الطَّيِّبَاتِ﴾ قيل: هو خطاب للرسل كلهم، وأمر لهم أن يأكلوا من الحلال، عن السدي. ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً». وأنه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنْ الطَّيِّبَاتِ﴾، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، وقيل: أراد به محمداً ﷺ وحده، على مذهب العرب في مخاطبة الواحد مخاطبة الجمع، عن الحسن ومجاهد وقتادة والكلبي. ويتضمن هذا أن الرسل جميعاً كذا أمرُوا. قال الحسن: أما والله ما عني به أصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكنه قال: انتهوا إلى الحلال منه. ﴿وَأَعْلَوْا صَالِحًا﴾ أي: ما أمركم الله به، وقيل: إنه خطاب لعيسى ﷺ خاصة ﴿إِنِّي يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ هذا بيان السبب الداعي إلى إصلاح العمل. فإن العاقل إذا عمل لمن يعلم عمله ويجازيه على حسب ما يعمل من عمله وبقدر استحقاقه، أصلح العمل. ﴿وَلَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَجَدَةٌ﴾ أي: دينكم دين واحد، عن الحسن وابن جريج، ويعضده قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي: على دين. قال النابغة:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِي رِبَّةً وَهَلْ يَأْتُمْنِ ذُو أُمَّةٍ وَهَوَ طَائِعُ

وقيل: هذه جماعتكم وجماعة من قبلكم واحدة، كلكم عباد الله تعالى، عن الجبائي ﴿وَأَنَّا رَبُّكُمْ فَأَنقُوتُوا﴾ أي: لهذا فاتقوا ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ تفسير الآيتين قد تقدم في سورة الأنبياء ﴿زُبُرًا﴾ أي: كتباً وهو جمع زبور، عن الحسن وقتادة ومجاهد. والمعنى: تفرقوا في دينهم وجعلوه كتباً دانوا بها وكفروا بما سواها، كاليهود كفروا بالإنجيل والقرآن، والنصارى كفروا بالقرآن، وقيل: معناه أحدثوا كتباً يحتجون بها لمذهبهم، عن ابن زيد، ومن قرأ: ﴿زُبُرًا﴾ وهو ابن عامر، فمعناه: جماعات مختلفة فهي جمع زبرة أي: تفرقوا أحزاباً. وانتصب ﴿زُبُرًا﴾ على الحال من ﴿أَمْرَهُمْ﴾ والعامل فيه «تقطع»، وقال الزجاج: معناه جعلوا دينهم كتباً مختلفة على قراءة من قرأ: ﴿زُبُرًا﴾ فعلى هذا يكون «زبراً» مفعولاً ثانياً. ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: كل فريق بما عندهم من الدين راضون، يرون أنهم على الحق. ثم خاطب نبيه ﷺ فقال: ﴿فَذَرُّهُمْ﴾ يا محمد ﴿فِي غَرَبِهِمْ﴾ أي: جهلهم وضلالتهم. وقيل: في حيرتهم، وقيل: في غفلتهم، وهي متقاربة. ﴿حَتَّىٰ يَبِينَ﴾ أي: وقت الموت، وقيل: وقت العذاب. ثم قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسَبِّهُ بِذِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ﴾ ﴿٥٥﴾ سَأَرُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ معناه: أيظن هؤلاء الكفار أن ما نعطيهم ونزيدهم

من أموال وأولاد، إنما نعطيهم ثواباً ومجازاة لهم على أعمالهم، أو لرضانا عنهم ولكرامتهم علينا؟ ليس الأمر كما يظنون، بل ذلك إملاء لهم واستدراج لهوانهم علينا، وللابتلاء في التعذيب لهم. ونظيره قوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾. وروى السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام، عن أبيه عن آبائه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: يحزن عبدي المؤمن إذا أقترت عليه شيئاً من الدنيا، وذلك أقرب له مني. ويفرح إذا بسطت له الدنيا، وذلك أبعد له مني. ثم تلا هذه الآية إلى قوله: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ثم قال: إن ذلك فتنة لهم». ومعنى ﴿سَارِعٌ﴾: نسرع ونتعجل، وتقديره: نسارع لهم به في الخيرات، فحذف به للعلم بذلك، كما حذف الضمير من قولهم: السمن منوان بدرهم أي: منوان منه بدرهم. والخيرات: المنافع التي يعظم شأنها، ونقيضها الشرور وهي المضار التي يشتد أمرها. والشعور: العلم الذي يدق معلومه وفهمه على صاحبه كدقة الشعر. وقيل: هو العلم من جهة المشاعر وهي الحواس، ولهذا لا يوصف القديم سبحانه به.



قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِ لَهُمْ سَدِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة النبي ﷺ، وعائشة وابن عباس، وقتادة والأعمش: «يأتون ما أتوا» مقصوراً.

● **الحجة:** معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾: أنهم يعطون الشيء ويشفقون أن لا يقبل منهم. ومعنى ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾: أنهم يعملون العمل وهم يخافونه ويخافون لقاء الله.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه حال الأخيار الأبرار، بعد بيانه أحوال الكفار، الفجار فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: من خشية عذاب ربهم خائفون، فيفعلون ما أمرهم به، ويتنهيون عما نهاهم عنه، والخشية: انزعاج النفس بتوهم المضرة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بآيات الله وحججه من القرآن وغيرها يصدقون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي لا يشركون بعبادة الله تعالى غيره من الأصنام والأوثان، لأن خصال الإيمان لا تتم إلا بترك الإشراك، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أي: يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقة، وقيل: أعمال البر كلها ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ أي: خائفة، عن قتادة، وقال الحسن: المؤمن جمع إحساناً وشفقة، والمنافق جمع إساءة وأمناء. وقال أبو عبد الله: معناه خائفة أن لا يقبل منهم، وفي رواية أخرى: يؤتى ما أتى وهو خائف راج. وقيل: إن في الكلام حذفاً وإضماراً وتأويله: قلوبهم وجلة أن لا يقبل منهم لعلمهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي: لأنهم يوقنون بأنهم يرجعون إلى الله تعالى، يخافون أن لا يقبل منهم، وإنما يخافون ذلك لأنهم لا يأمنون التفريط. ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي

سورة المؤمنون

الْحَزَنَةِ ﴿١﴾ معناه: الذين جمعوا هذه الصفات وكملت فيهم، هم الذين يبادرون إلى الطاعات ويسابقون إليها، رغبة منهم فيها وعلماً منهم بما ينالون بها من حسن الجزاء. ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أي: وهم لأجل تلك الخيرات سابقون إلى الجنة. وقيل معناه: وهم إليها سابقون، وقال الكلبي: سبقوا الأمم إلى الخيرات. قال ابن عباس: يسابقون فيها أمثالهم من أهل البر والتقوى.



قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَفْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴿٢٣﴾ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخِرُّونَ ﴿٢٤﴾ لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لَكُمْ مِتًّا لَا تَنْصُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ أَنْقَبِكُمْ أَنْ كَسَبْتُمْ لِنُفْسِكُمْ تَهْجُرُونَ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٧﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ ﴿٢٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَانَتْهُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَلَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٣٠﴾

● القراءة: قرأ نافع: «تهجرون» بضم التاء وكسر الجيم، والباقون: «تهجرون» بفتح التاء وضم الجيم. وفي الشواذ قراءة ابن مسعود وابن عباس وعكرمة «وسمراً تهجرون»، وقراءة ابن محيصن «سُمراً»، وقراءة يحيى: «ولو اتبع» بضم الواو.

● الحجة: قال أبو علي: من قال: «تهجرون» فالمعنى: أنكم كنتم تهجرون آياتي وما يتلى عليكم من كتابي، فلا تنقادون له وتكذبون به. وتهجرون: تأتون بالهجر والهذيان وما لا خير فيه من الكلام. وقال ابن جني: قوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ معناه: تكثرون من الهجر، أو هجر النبي ﷺ أو كتابه، أو تكثرون من الإهجار وهو الإفحاش في القول، لأن فعلً للتكثير. والسُمَر: جمع سامر، والسامر: القوم يسمرون أي: يتحدثون ليلاً. قال ذو الرمة:

وكم عرست بَعْدَ السُّرى مِنْ مُعْرِسٍ بِهِ مِنْ عَزِيفِ الْجِنِّ أَصْوَاتٍ سَامِرٍ^(١)

قال قطرب: السامر قد يكون واحداً أو جماعة. وقيل: إنه أخذ من السُمرة وهي اللون الذي بين السواد والبياض، فقيل لحديث الليل: السمر، لأنهم كانوا يقعدون في ظل القمر يتحدثون. وقيل: إن السمر ظل القمر.

● اللغة: الوسع: الحال التي يتسع بها السبيل إلى الفعل، والوسع: دون الطاقة، والتكليف: تحميل ما فيه المشقة بالأمر والنهي. والإعلام مأخوذ من الكلفة في الفعل. والله

(١) التعريس: نزول القوم في السفر في آخر الليل للاستراحة. والسرى: سير الليل. وعزيف الجن: صوته.

سبحانه يكلف عباده تعريضاً إياهم للنفع الذي لا يحسن الابتداء بمثله، وهو الثواب. وأصل الغمرة: الستر والتغطية. يقال: غمرت الشيء إذا سترته. وغمرات الموت. شدائده، وكل شدة غمرة. قال: «الغمرات ثم ينجلينا ثم يذهبن فلا يجينا». والجوار: الاستغاثة ورفع الصوت بها، والنكوص: رجوع القهقري، وهو المشي على الأعقاب إلى خلف، وهو أقبح مشية مثل بها أقبح حال وهي الإعراض عن الداعي إلى الحق.

● **الإعراب:** ﴿وُسْعَهَا﴾ مفعول ثان لنكلف، ﴿بِالْحَقِّ﴾ إن جعلت الحق مصدراً فالباء مزيدة والتقدير: ينطق الحق. وإن جعلته صفة محذوفاً، فالتقدير: ينطق بالحكم الحق. ومفعول ﴿يَنْطِقُ﴾ محذوف، ﴿هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ جملة في موضع رفع لأنها صفة لأعمال. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ منصوب على الحال من قوله: ﴿نَنْكُصُونَ﴾، وذو الحال الواو. و﴿نَنْكُصُونَ﴾ خبر كان، و﴿سَيِّئًا﴾ اسم للجمع منصوب لأنه حال.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه أنه لا يكلف أحداً إلا دون الطاقة بعد أن أخبر عن حال الكافرين والمؤمنين فقال: ﴿وَلَا تُكَلَّفُ نَفْسًا﴾ أي: لا نكلفها أمراً ولا نأمرها ﴿إِلَّا وَسْعَهَا﴾ أي: دون طاقتها ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ معناه: وعند ملائكتنا المقربين كتاب ينطق بالحق أي: يشهد لكم وعليكم بالحق، كتبه الملائكة بأمرنا، يريد صحائف الأعمال. ﴿وَهُمْ لَا يُلْقُونَ﴾ أي: يوفون جزاء أعمالهم، فلا ينقص من ثوابهم ولا يزداد في عقابهم ولا يؤخذون بذنب غيرهم ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ بل رد لما سبق، وابتداء الكلام، والمعنى: أن قلوب الكفار في غفلة شديدة من هذا الكتاب المشتمل على الوعد والوعيد وهو القرآن، وقيل: في جهل وحيرة، عن الحسن والجبائي ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ أي: ولهم أعمال ردية سوى هذا الجهل، يعملون تلك الأعمال فيستحقون بها وبالكفر العقوبة من الله تعالى، وقيل: لهم أعمال أي: خطايا من دون الحق، عن قتادة وأبي العالية ومجاهد. وقيل: لهم أعمال من دون الأجل الذي أجلت لهم في موتهم، لا بد أن يعملوها، عن الحسن ومجاهد في رواية أخرى وابن زيد. وقيل: أعمال أصغر من ذلك أي: دون الكفر كما يقال: هذا دون هذا في القدر هم لها عاملون إلى أن يفني آجالهم فهم مشتغلون بها. ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ أي: يكون هذا دأبهم حتى إذا أخذنا متنعميهم ورؤساءهم بعذاب الآخرة. ويقال: عذاب الدنيا، وهو عذاب السيف في يوم بدر، عن ابن عباس، وقيل: هو الجوع حين دعا النبي ﷺ عليهم فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها سنين كسني يوسف». فابتلاههم الله سبحانه بالقحط حتى أكلوا الجيف والكلاب، عن الضحاك ﴿إِذَا هُمْ يَخْرُوتُ﴾ أي: يضجون لشدة العذاب ويجزعون. وقيل: يستغيثون، عن ابن عباس، وقيل: يصرخون إلى الله بالتوبة فلا يقبل منهم ﴿لَا يَخْتَرُوا الْيَوْمَ﴾ أي: يقال لهم لا تتضرعوا اليوم ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُصْرُونَ﴾ هذا إيثاس لهم من دفع العذاب عنهم ﴿فَدَكَاتْ أَيْتِي نُنَلِّ عَلَيْكُمْ﴾ أي: تقرأ ﴿فَنَكْشَرُ﴾ أيها الكافرون المعذبون ﴿عَلَىٰ أَغْفَافِكُمْ نَنْكُصُونَ﴾ أي: تدبرون وتستأخرون وترجعون القهقري مكذبين ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي: متكبرين على سائر الناس بالحرم، أو بالبلد، يعني مكة، أن لا يظهر عليكم فيه أحد، عن ابن عباس والحسن ومجاهد. وقيل: مستكبرين بمحمد ﷺ أن تطيعوه، وبالقرآن أن تقبلوه، فإنها

كناية عن غير مذكور في الجميع. ﴿سَمِرًا﴾ أي: تسمرون بالليل أي: تتحدثون في معائب النبي ﷺ ﴿تَهْجُرُونَ﴾ الحق بالإعراض عنه، وتهجرون أي: تفحشون في المنطق. ثم قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَذَبُّوا أَلْفَوْا﴾ أي: ألم يتدبروا القرآن فيعرفوا ما فيه من العبر والدلالات على صدق نبينا ﷺ ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال ابن عباس: يريد أليس قد أرسلنا نوحاً وإبراهيم والنبیین إلى قومهم، وكذلك أرسلنا محمداً ﷺ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ﴾ قال ابن عباس: أليس هو محمداً الذي قد عرفوه صغيراً وكبيراً، صادق اللسان أميناً وافيّاً بالعهد. وفي هذا توبيخ لهم بالإعراض عنه بعد ما عرفوا صدقه وأمانته، مع شرف نسبه قبل الدعوة. ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ قال ابن عباس: يريد وأيّ جنون ترون به. وفي هذا دلالة على جهلهم حيث أقروا له بالعقل والصدق أولاً، ثم نسبوه إلى الجنون. وإنما نسبوه إلى الجنون لينفروا الناس عنه، أو لأنه يطمع في إيمانهم فهو يطمع في غير مطعم. ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ المعنى: بل جاءهم بالقرآن والدين الحق، وليس به جنة. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لأنه لم يوافق مرادهم ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الحق هو الله تعالى، عن أبي صالح وابن جريج والسدي. والمعنى: ولو جعل الله لنفسه شريكاً كما يهونون ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ ووجه الفساد ما تقدم ذكره عند قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، وقيل: الحق: ما يدعو إلى المصالح والمحاسن، والأهواء: ما تدعو إلى المفساد والمقايح. ولو اتبع الحق داعي الهوى، لدعا إلى المقايح، ولفسد التدبير في السماوات والأرض، لأنها مدبرة بالحق لا بالهوى. وقيل: معناه لفسدت أحوال السماوات والأرض لأنها جارية على الحكمة لا على الهوى. ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي: ولفسد من فيهن، وهو إشارة إلى العقلاء من الملائكة، والإنس والجن. وقال الكلبي: وما بينهما من خلق فيكون عاماً. ووجه فساد العالم بذلك أنه يوجب بطلان الأدلة، وامتناع الثقة بالمدلول عليه، وأن لا يوثق بوعده ولا وعيده، ولا يؤمن انقلاب عدل الحكيم ﴿بَلْ أَلَبَّتْهُمْ بَلَدُهُمْ﴾ أي: بما فيه شرفهم وفخرهم، لأن الرسول ﷺ منهم، والقرآن نزل بلسانهم ﴿فَنَهَى عَنْ ذِكْرِهِمْ﴾ أي: شرفهم ﴿مُعْزِزُونَ﴾ وبالذل راضون. وقيل: الذكر البيان للحق، عن ابن عباس.



قوله تعالى: ﴿أَمْ تَشَاءُ لَهُمْ خَرَجًا فَخَرَجَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ (٧٦) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٧) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنُ (٧٨) ﴿٧٤﴾ ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤُا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) ﴿٨٠﴾

● **اللغة:** أصل الخراج والخرج واحد، وهو الغلة التي تخرج على سبيل الوظيفة. ومنه خراج الأرض. وهما مصدران يجمعان، وقد سبق اختلاف القراء فيه في سورة الكهف. والاستكانة: الخضوع، وهو استفعل من الكون، والمعنى: ما طلبوا الكون على صفة الخضوع، قال الأزهري: أكانه الله يكيهه أي: أخضعه حتى ذل، ومات فلان بكينة سوء أي: بحال سوء، وقيل: إن استكان من السكينة والسكون، إلا أن الفتحة أشبعت فنشأت منها ألف، فصار استكانوا الأصل استكنوا على افتعلوا. قال عترة في إشباع الفتحة:

ينباع من ذَفَرِي غَضُوبٍ جَسُورُ زِيَاةٍ مِثْلِ الْفَنِيقِ الْمَكْدَمِ^(١)

يريد ينبع، فأشبع الفتحة. وقال آخر:

وَأَنْتَ مِنَ الْغَوَائِلِ حِينَ تُزْمَى وَمِنْ ذَمِّ الرِّجَالِ بِمُنْتَزَاجِ^(٢)

أي: بمنتزح. يقال: استكن واستكان وتمسكن بمعنى.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿أَمْ تَتْلُوهُمْ﴾ يا محمد على ما جئتهم به من القرآن والإيمان ﴿خَرَجًا﴾ أي: أجراً ومالاً يعطونك، فيورث ذلك تهمة في حالك، أو يثقل عليهم قبول قولك لأجله ﴿فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ﴾ أي: فرز ربك في الدنيا خير منه، عن الكلبي. وقيل: فأجر ربك في الآخرة خير منه، عن الحسن. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ أي: أفضل من أعطى وأجر. وفي هذه دلالة على أن في العباد من يرزق غيره بإذن الله ﴿وَأِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ من التوحيد وإخلاص العبادة والعمل بالشرعة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بالنشأة الآخرة ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنُ﴾ أي: عن الدين الحق عادلون ومائلون، وقيل: معناه أنهم في الآخرة ناكبون عن طريق الجنة، يؤخذ بهم يمنة ويسرة إلى النار، عن الجبائي. ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ﴾ في الآخرة ﴿وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ ورددناهم إلى دار التكليف ﴿لَلْجَوِّ فِي طَعْنِهِمْ يَعْهَوْنَ﴾ مثل قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾، عن الجبائي وأبي مسلم. وقيل إنه في الدنيا أي: ولو أنا رحمناهم وكشفنا ما بهم من جوع ونحوه، لتمادوا في ضلالتهم وغوايتهم يترددون، عن ابن جريج. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ معناه: أنا قد أخذنا هؤلاء الكفار بالجذب وضيق الرزق والقتل بالسيف ﴿فَمَا أَسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: ما تواضعوا ولا انقادوا ﴿وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ أي: وما يرغبون إلى الله في الدعاء. وقال أبو عبد الله عليه السلام: الاستكانة الدعاء، والتضرع: رفع اليد في الصلاة. ﴿حَقٌّ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: وهذا دأبهم حتى إذا فتحنا عليهم نوعاً آخر من العذاب، وذلك حين دعا النبي ﷺ فقال: «اللهم سنين كسني يوسف»، فجاعوا حتى أكلوا العلهز: وهو الوبر بالدم، عن مجاهد. وقيل: هو القتل يوم بدر، عن ابن عباس. وقيل: فتحنا عليهم باباً من

(١) هذا بيت من معلقته الشهيرة. والذفري: ما خلف الأذن. والجسرة: الناقة الموثقة الخلق. والزيف: التبختر. والفنيق: الفحل من الإبل. والمكدم من الفحول: القوي قول ينبع هذا العرق من خلف أذن الناقة... الخ شبهها بالفحل في تبخترها، ووثاقة خلقها، وضخمها.

(٢) مضى البيت في هذا الجزء.

سورة المؤمن

عذاب جهنم في الآخرة، عن الجبائي، وقيل: ذلك حين فتح مكة، وقال أبو جعفر عليه السلام: هو في الرجعة. ﴿إِنَّا هُمْ فِيهِ مُبَسِّئُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير متحيرون.

ثم بين سبحانه أنه المنعم على خلقه بأنواع النعم، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي: خلق هذه الحواس ابتداء لا من شيء، وخص هذه الثلاثة لأن الدلائل مبنية عليها، ينظر العاقل ويسمع ويتفكر فيعلم ﴿فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: يقل شكركم لها، و﴿فَلَيْلًا﴾ منصوب على المصدر، وتقديره: تشكرون قليلاً لهذه النعم التي أنعم الله بها عليكم، وقيل: معناه أنكم لا تشكرون رب هذه النعم فتوحدونه، عن مقاتل. ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم وأوجدكم ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يحييكم في أرحام أمهاتكم، ويميتكم عند انقضاء آجالكم ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: وله تدبيرهما بالزيادة والنقصان، وقيل: وله ملك اختلافهما وهو ذهاب أحدهما ومجيء الآخر. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تعلمون بأن تفكروا فتعلموا أن لذلك صانعاً قادراً، عالماً حياً حكيماً، لا يستحق الإلهية سواه، ولا تحسن العبادة إلا له.



قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨١) ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٨٢) ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨٣) ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٨٥) ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِذُ﴾ (٨٧) ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٨) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ (٨٩) ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩٠).

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة: «سيقولون الله» في الآيتين، والباقون: «الله» ولم يختلفوا في الأولى.

● **الحجة:** أما قراءة أهل البصرة، فجواب على ما يوجب اللفظ، ومن قرأ «الله» فعلى المعنى، وذلك أنه إذا قيل: من مالك هذه الدار؟ فأجيب: لزيد، فإن الجواب على المعنى دون ما يقتضيه اللفظ، فإن الذي يقتضيه اللفظ أن يقال: زيد. وإنما استقام ذلك لأن معنى من مالك هذه الدار ولمن هذه الدار واحد. فلذلك أجيب تارة على اللفظ وتارة على المعنى.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن الكفار المكذبين بالبعث فقال: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ المنكرون للبعث بعد الموت، ثم حكى مقالهم فقال: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وهذا جهل منهم، لأنهم لو تفكروا في أن النشأة الأولى أعظم منه لما استعظموه، وقد أقرروا بأن الله خالقهم. ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا﴾ أي: وعد آبائنا ﴿هَذَا﴾ الذي تعدنا من البعث ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل مجيئك، فما صدق وعدهم ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

أي: ما هذا إلا أكاذيب الأولين، قد سطوروا ما لا حقيقة له. وإنما يجري مجرى حديث السمر الذي يكتب للإطراف به. ثم احتج على هؤلاء المنكرين للبعث والنشور فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿لَيْنَ الْأَرْضِ وَنَ فِيهَا﴾ أي: لمن خلق الأرض وملكها ومن فيها من العقلاء ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ﴾ ﴿لَا﴾ في الجواب ﴿لِلَّهِ﴾، وإنما قال ذلك لأنهم كانوا يقولون بأن الله هو الخالق. ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فقل لهم عند ذلك: أفلا تتفكرون فتعلمون أنه تعالى قادر على ذلك، ومن قدر عليه، قدر على إحياء الموتى، لأنه ليس ذلك بأعظم منه. ثم زاد في الحجة فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم أيضاً ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ الْكَبِيرَةِ﴾ أي: من مالكتها والمتصرف فيها؟ ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: ومن مالك العرش ومدبره؟ لأنهم كانوا يقولون بأن الله خالق السماوات وأن الملائكة سكان السماوات، والعرش عندهم عبارة عن الملك، إلا أن يكون أتاها خلق العرش من قبل النقل. ثم أخبر أنهم ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ في الجواب عن ذلك أي: إن رب السماوات ورب العرش هو الله. ومن قرأ «الله» فالمعنى: أنها لله ﴿قُلْ أَفَلَا تُخْشَوْنَ﴾ أي: فعند ذلك يلزمهم الحجة. فقل لهم: أفلا تتقون عذابه على جحد توحيده، والإشراك في عبادته وفي إنكار البعث، ثم زاد في الحجة فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم أيضاً: ﴿مَنْ يَدِينُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والملكوت: من صفات المبالغة في الملك، كالجبروت والرهبوت. وقال مجاهد: ملكوت كل شيء: خزائن كل شيء ﴿وَهُوَ يُجْزِي وَلَا يُجَاوِزُ عَلَيْهِ﴾ أي: يمنع من السوء من يشاء ولا يمنع منه من أراد به سوء، يقال: أجرت فلاناً: إذا استغاث بك فحميته، وأجرت عليه: إذا حميت عنه. ويحتمل أن يكون أراد في الدنيا أي: من قصد عبداً من عباده بسوء، قدر على منعه. ومن أراد الله بسوء لم يقدر على منعه أحد، ويحتمل أن يكون أراد في الآخرة أي: يجير من العذاب ولا يجار عليه منه ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم تعلمون ذلك فأجيبوا ﴿سَيَقُولُونَ﴾ في الجواب ﴿لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي: فكيف يخيل إليكم الحق باطلاً والصحيح فاسداً، مع وضوح الحق وتميزه من الباطل، وقيل: معناه فكيف تعملون عن هذا وتصدون عنه، من قولهم: سحرت أعيننا فلم نبصر. وقيل: معناه فكيف تخدعون ويموه عليكم، كقول امرئ القيس:

وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ^(١)

أي: ونخدع. ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ معناه: إنا جئناهم بالحق، وبيننا لهم الحق الذي فيه بيان كذبهم، ولكنهم أصروا على باطلهم وكذبهم.

● **النظم:** وإنما اتصلت الآية الأولى بما قبلها بمعنى أنهم لو تفكروا لعلوموا، ولكن عولوا على التقليد فقالوا مثل ما قال الأولون. فعلى هذا تكون متصلة بقوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقيل: إنه جواب الاستفهام في قوله: ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، والآية الأخيرة معطوفة على ما تقدم من أدلة التوحيد، وهي رد على المشركين وتكذيب لهم في قولهم: إن الأصنام آلهة، وأن الله سبحانه له ولد، وإن الملائكة بنات الله.



(١) وقيله: «أرنا موضعين لحتم غيب» وقد مر بتمامه في ج ٦.

سورة المؤمنون

قوله تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩٦﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٧﴾ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٨﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوَرِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٩﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿١٠٠﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٠١﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٠٢﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٠٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٠٤﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ .

● القراءة: قرأ أهل المدينة، وأهل الكوفة غير حفص: «عالم الغيب» بالرفع، والباقيون بالجر، إلا أن رويساً إذا وصل جر، وإذا ابتدأ رفع.

● الحجة: وجه الرفع أن يكون خبر مبتدأ محذوف وتقديره: هو عالم الغيب. ووجه الجر أن يكون صفة الله تعالى، ويكون إضافة عالم حقيقية بمعنى اللام. ويجوز أن يكون بدلاً فتكون الإضافة غير حقيقية. والغيب: في تقدير النصب الأول يكون بمعنى الماضي، والثاني بمعنى الحاضر، ولا يكون بمعنى المستقبل.

● اللغة: الهمزة: شدة الدفع، ومنه الهمزة للحرف الذي يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد ودفع. وهمزة الشيطان: دفعه بالإغواء إلى المعاصي، وقوس همزي: شديدة الدفع للسهم، والبرزخ: الحاجز بين الشيئين، وكل فصل بين شيئين برزخ. ومعنى من ورائهم هنا: من أمامهم وقدامهم. قال الشاعر:

أَبْرَجُوا بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي وَقَوْمِي تَمِيمٌ وَالْفَلَاءُ وَرَائِيَا

● الإعراب: قوله: ﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ جواب ﴿لَوْ﴾ مقدّر والتقدير: ولو كان معه إله إذا لذهب. وإذا هنا حشو بين لو وجوابه فهو لغو غير عامل. ﴿إِمَّا تُرِيدُنِي﴾ إن للشرط ضمت إليها ما مسلطة، والمعنى: أنها سلطت نون التأكيد على دخولها الفعل المضارع، ولو لم تكن هي لم يجز أن تريني. وجواب الشرط ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي﴾. وَرَبِّ مُعْتَرِضٌ بَيْنَ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ. وَ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الموصولة والصلة في موضع جر بأنهما صفة محذوف مجرور. التقدير: ادفع بالخصلة التي هي أحسن. وَ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ جاء الخطاب على لفظ الجمع، لأنه سبحانه يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وَ﴿إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ وهذا اللفظ يعرفه العرب للجليل الشأن، يخبر به الجماعة، فكذلك جاء الخطاب في ﴿ارْجِعُونِ﴾، وقال المازني: إنه جمع الضمير ليدل على التكرار فكأنه قال: رب أرجعني أرجعني أرجعني. وَ﴿إِنْ يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ إلى: تتعلق بما يتعلق به ﴿مِنْ﴾ في قوله ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ وَ﴿يَوْمَ﴾ مضاف إلى ﴿يُبْعَثُونَ﴾ لأن أسماء الزمان تضاف إلى الأفعال.

● المعنى: ثم أكد سبحانه ما قدمه من أدلة التوحيد بقوله: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ أي:

لم يجعل ولد غيره ولد نفسه، لاستحالة ذلك عليه. فمن المحال أن يكون له ولد، فلا يجوز عليه التشبيه بما هو مستحيل ممتنع إلا على النفي والتبديد. واتخاذ الولد هو أن يجعل الجاعل ولد غيره يقوم مقام ولده، لو كان له، وكذلك التبني إنما هو جعل الجاعل ابن غيره. ومن يصح أن يكون ابناً له مقام ابنه، ولذلك لا يقال: تبني شاب شيخاً، ولا تبني الإنسان بهيمة، لما استحال أن يكون ذلك لا ولداً له ﴿وَمَا كُنَّا مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ من ههنا وفي قوله ﴿بَيْنَ الْوَلَدِ﴾ مؤكدة، فهو أكد من أن يقول: ما اتخذ الله ولداً وما كان معه إله. نفى عن نفسه الولد والشريك على أكد الوجوه. ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ والتقدير: إذ لو كان معه إله آخر لذهب كل إله بما خلق، أي: لميز كل إله خلقه عن خلق غيره، ومنعه من الاستيلاء على ما خلقه، أو نصب دليلاً يميز به بين خلقه وخلق غيره فإنه كان لا يرضى أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره. ﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: ولطلب بعضهم قهر بعض ومغالبة. وهذا معنى قول المفسرين: ولقاتل بعضهم بعضاً، كما يفعل الملوك في الدنيا. وقيل: معناه ولمنع بعضهم بعضاً عن مراده، وهو مثل قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، وفي هذه دلالة عجيبة في التوحيد، وهو أن كل واحد من الآلهة من حيث يكون إلهاً، يكون قادراً لذاته فيؤدي إلى أن يكون قادراً على كل ما يقدر عليه غيره من الآلهة فيكون غالباً ومغلوباً من حيث إنه قادر لذاته. وأيضاً فإن من ضرورة كل قادرين صحة التمانع بينهما، فلو صحَّ وجود إلهين صحَّ التمانع بينهما من حيث إنهما قادران، وامتنع التمانع بينهما من حيث إنهما قادران للذات، وهذا محال. وفي هذا دلالة على إعجاز القرآن لأنه لا يوجد في كلام العرب كلمة وجيزة تضمنت ما تضمنته هذه، فإنها قد تضمنت دليلين باهرين على وحدانية الله وكمال قدرته.

ثم نزه نفسه عما وصفوه به فقال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: عما يصفه به المشركون من اتخاذ الولد والشريك ﴿عَلَيْهِمُ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ﴾ أي: يعلم ما غاب وما حضر فلا يخفى عليه شيء ﴿فَقَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والمعنى: أنه عالم بما كان وبما سيكون، وبما لم يكن أن لو كان كيف يكون. ومن كان بهذه الصفة لا يكون له شريك لأنه الأعلى من كل شيء في صفته.

ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿رَبِّ إِنَّمَا تُرِيدُ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: إن أرستني ما يوعدون من العذاب والنقمة، يعني القتل يوم بدر ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: مع القوم الظالمين، والمعنى: فأخرجني من بينهم عندما تريد إحلال العذاب بهم لثلاثي صيبي ما يصيبهم. وفي هذا دلالة على جواز أن يدعو الإنسان بما يعلم أن الله يفعله لا محالة، لأن من المعلوم أن الله تعالى لا يعذب أنبياءه مع المعذنين. ويكون الفائدة في ذلك إظهار الرغبة إلى الله. ﴿وَرِئَاءَ عَلَيَّ أَنْ تُرِكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدْ رَوْنُ﴾ هذا ابتداء كلام من الله تعالى معناه: أنا لا نعالجهم بالعقوبة مع قدرتنا على ذلك، ولكن ننظرهم ونمهلهم لمصلحة توجب ذلك. قال الكلبي: هذا أمر شهده أصحاب رسول الله ﷺ بعد موته، وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن أبي صالح، عن ابن عباس وجابر بن عبد الله أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول في حجة الوداع، وهو بمنى: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، وأيم الله لئن

سورة المؤمنون

فعلتموها لتعرفني في كتيبة يضاربونكم». قال: فغمز من خلفه منكبه الأيسر فالتفت فقال: «أو عليّ» فنزل: ﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا رُبِّيَّتِي مَا يُوعَدُونَ﴾ الآيات. ثم أمره ﷺ بالصبر إلى أن ينقضي الأجل المضروب للعذاب، فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي فِي يَدَيْكَ إِلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: ادفع بالإغضاء والصفح إساءة المسيء، عن مجاهد والحسن، وهذا قبل الأمر بالقتال، وقيل: معناه ادفع باطلهم ببيان الحجج على ألفت الوجوه وأوضحها، وأقربها إلى الإجابة والقبول ﴿فَنَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: بما يكذبون ويقولون من الشرك. والمعنى: إنا نجازيهم بما يستحقونه. ثم أمره ﷺ فقال: و﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ أي: أعتصم بك ﴿بَيْنَ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: من نزعاتهم ووساوسهم، عن ابن عباس والحسن، والمعنى: من دعائهم إلى الباطل والعصيان، ومن شرورهم في كل شيء يخاف فيه من ذلك ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي: يشهدوني ويقاربوني ويصدوني عن طاعتك، وقيل: معناه أن يحضروني في الصلاة عند تلاوة القرآن، وقيل: في الأحوال كلها. ثم عاد سبحانه إلى قوله ﴿إِذَا مَنَّْنَا وَكُنَّا نَرَاهَا وَعِظَمًا﴾، فقال: ﴿حَقًّا إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ يعني: أن هؤلاء الكفار إذا أشرفوا على الموت، سألوا الله تعالى عند ذلك الرجعة إلى دار التكليف، فيقول أحدهم: رب ارجعون، على لفظ الجمع، وفي معناه قولان:

أحدهما: أنهم استغاثوا أولاً بالله، ثم رجعوا إلى مسألة الملائكة، فقالوا لهم: ارجعون أي: ردوني إلى الدنيا، عن ابن جرير.

والآخر: أنه على عادة العرب في تعظيم المخاطب، كما قال: ﴿ثُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا فَتَتَلَوُّهُ﴾. وروى النضر بن شميل قال: سألوا الخليل عن هذا ففكر ثم قال: سألتهم عن شيء لا أحسنه ولا أعرف معناه. فاستحسن الناس منه ذلك. ﴿لَعَلَّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ أي: في تركتي، والمعنى: أؤدي منها حق الله تعالى. وقيل: معناه في دنياي فإنه ترك الدنيا وصار إلى الآخرة. وقيل: معناه أعمل صالحاً فيما فرطت وضيّعت أي: في صلاتي وصيامي وطاعاتي. وقال الصادق عليه السلام: إنه في مانع الزكاة يسأل الرجعة عند الموت. ثم قال سبحانه في الجواب عن سؤالهم: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يرجع إلى الدنيا ﴿إِنَّمَا﴾ أي: مسألة الرجعة ﴿كَلِمَةٌ مَوْقَالِيهَا﴾ أي: كلام يقوله ولا فائدة له في ذلك وقيل: معناه وهي كلمة يقولها بلسانه وليس لها حقيقة مثل قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ﴾. وروى العياشي بإسناده، عن الفتح بن يزيد الجرجاني، قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: جعلت فداك يعرف القديم سبحانه الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون؟ قال: ويحك! إن مسألتك لصعبة، أما قرأت قوله عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ اللَّهِ فَسَدَّتَا﴾، ﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ لقد عرف الشيء الذي لم يكن ولا يكون، أن لو كان كيف كان يكون، وقال: ويحكي قول الأشقياء: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ لَعَلَّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ مَوْقَالِيهَا، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَلَئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فقد علم الشيء الذي لم يكن، لو كان كيف كان يكون، وهو السميع البصير الخبير العليم. ﴿وَمِنْ دَرَاهِمِهِمْ﴾ أي: ومن بين أيديهم ﴿بَرَزُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: حاجز بين الموت والبعث في يوم القيامة من القبور، عن ابن زيد، وقيل: حاجز بينهم وبين الرجوع إلى

الدنيا، وهم فيه إلى يوم يبعثون، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: البرزخ الإمهال إلى يوم القيامة، وهو القبر، وكل فصل بين شيئين هو برزخ، عن علي بن عيسى. وفي الآية دلالة على أن أحداً لا يموت حتى يعرف منزلته عند الله تعالى اضطراراً، وأنه من أهل الثواب أو العقاب، عن الجبائي.



قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٦١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٦٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٦٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَتَلَّى عَلَيْنَا فَكَذَّبْتَ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿١٦٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٦٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴿١٦٨﴾ إِنَّهُمْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٦٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ .

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «شقاوتنا» بالالف وفتح الشين، والباقون: «شقوتنا» بكسر الشين من غير ألف. وقرأ أهل المدينة وأهل الكوفة غير عاصم: «سخرياً» بضم السين، والباقون بكسرهما، وكذلك في سورة ص.

● **الحجة:** قال أبو علي: الشقوة مصدر كالرقعة والفطنة. والشقاوة كالسعادة فالقراءة بهما جميعاً سائغة. وقال أبو زيد: اتخذت فلاناً سُخْرِيًّا وَسِخْرِيًّا: إذا هزئت منه. وقد سخرت منه أسخر سُخْرِيًّا وَسِخْرًا، قال أبو عبيدة: اتخذتموهم سُخْرِيًّا تسخرون منهم وَسُخْرِيًّا تَسْخَرُونَهُمْ. ويقال أيضاً: إن من الهزء سُخْرِي وَسِخْرِي، ومن السخرية مضمومة لا غير. وحكي عن الحسن وقتادة أن ما كان من العبودية فهو سُخْرِي بالضم، وما كان من الهزء فبالكسر. قال أبو علي: الأكثر في الهزء كسر السين فيما حكوه، ويرى أنه إنما كان أكثر لأن السخر مصدر سخرت، وفعل وفعل قد يكونان بمعنى نحو المثل والمثل، والشبه والشبه في حرف آخر، فكَذَلِكَ السُّخْر والسُّخْر إلا أن المكسورة أَلَزِمَتْ ياء النسب دون المفتوحة مما اتفقوا في القسم على الفتح في: لعمر الله. ولم يعتد بياء النسب كما لم يعتد بها في نحو أحمر وأحمري ودوار ودواري. والوجه في الضم ما حُكِيَ عن يونس أن السخري قد يقال بالضم بمعنى الهزء. واتفق القراء على الضم في الزُخْرَف لأنه من السخرة، وانقياد بعضهم لبعض في الأمور، وذلك لا يكون إلا بالضم.

● **اللغة:** اللفح والنفخ بمعنى، إلا أن اللفح أشد تأثيراً وأعظم من النفخ، وهو ضرب من السموم للوجه. والنفخ: ضرب الريح الوجه. والكلوح: تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو الأسنان قال الأعشى:

وَلَهُ الْمَقْدَمُ لَا مِثْلَ لَهُ سَاعَةَ الشُّذُقِ عَنِ النَّابِ كَلَخَ^(١)

وخسأت فلاناً أخسأه خساً: إذا زجرته ليتباعد فخسأه وهو خاسيء. ومعنى إخساً أي: تباعد تباعد سخط.

● الإعراب: العامل في إذا نفخ، وبينهم، ويومئذ خبر ﴿لَا﴾ المحذوف، تقديره: فلا أنساب تثبت بينهم. ﴿تَلَفَّحَ وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ في موضع النصب على الحال، والعامل فيه: ﴿خَلِيدُونَ﴾.

● المعنى: ثم بين سبحانه حال الفريقين يوم البعث فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ قيل: إن المراد به نفخة الصعق، عن ابن عباس. وقيل: نفخة البعث، عن ابن مسعود. والصور جمع صورة أي: إذا نفخ فيه الأرواح وأعيدت أحياء، عن الحسن، وقيل: إن الصور قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بالصوت العظيم الهائل، على ما وصفه الله تعالى علامة لوقت إعادة الخلق، عن أكثر المفسرين. ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: لا يتواصلون بالأنساب ولا يتعاطفون بها مع معرفة بعضهم بعضاً، عن الحسن. والمعنى: أنه لا يرحم قريب قريبه لشغله عنه، فإن المقصود بالأنساب دفع ضرر أو جر نفع، فإذا ذهب هذا المقصود فكأن الأنساب قد ذهبت، ومثله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُخُوهُ وَأَبَوَ ۖ﴾. وقيل: معناه لا يتفاخرون بالأنساب كما كانوا يفعلونه في الدنيا، عن ابن عباس والجبائي. ولا بد من تقدير محذوف في الآية على تأويل: فلا أنساب بينهم يومئذ يتفاخرون بها أو يتعاطفون بها. والمعنى: أنه لا يفضل بعضهم بعضاً يومئذ بنسب وإنما يتفاضلون بأعمالهم. وقال النبي ﷺ: «كل حسب ونسب منقطع يوم القيامة إلا حسبي ونسبي». ﴿وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله وخبره، كما كانوا يسألون في الدنيا لشغل كل واحد بنفسه، عن الجبائي. وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل عنه ذنبه، ولا تنافي بين هذه الآية وبين قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ ۖ﴾ لأن للقيامة أحوالاً ومواطن، فمنها حال يشغلهم عظم الأمر فيها عن المسألة، ومنها حال يلتفتون فيها فيتساءلون. وهذا معنى قول ابن عباس لما سُئِلَ عن الآيتين، فقال: هذه تارات يوم القيامة. وقيل: إنما يتساءلون عند دخول الجنة وإنما يسأل بعض أهل الجنة بعضاً، فإنهم لا يفزعون من أهوال القيامة، عن السدي. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالطاعات ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الناجون ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ عن الطاعات ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾. وقد تقدّم تفسير الآيتين واختلاف المفسرين في كيفية الميزان والوزن في سورة الأعراف. ﴿تَلَفَّحَ وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي: يصيب وجوههم لفتح النار ولهبا ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ أي: عابسون، عن ابن عباس. وقيل: هو أن تقلص شفاههم، وتبدو أسنانهم كالرؤوس المشوية، عن الحسن. ﴿أَلَمْ تَكُنْ عَائِنِي تَتْلَىٰ عَلَيَّكَ﴾ أي: ويقال لهم أو لم يكن القرآن يقرأ عليكم. وقيل: ألم تكن حججي وبيّناتي وأدلتي تقرأ عليكم في دار الدنيا. ﴿فَكَفُّهُمْ بِهَا تَكْفِيرًا ۖ﴾ ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ۖ﴾

أي: شقاوتنا. ومعناها واحد وهو المضرة اللاحقة في العافية، والسعادة المنفعة اللاحقة في العافية. ويقال لمن حصل في الدنيا على مضرة فادحة: شقي. والمعنى: استعلت علينا سيئاتنا التي أوجبت لنا الشقاء ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي: ذاهبين عن الحق، ولما كانت سيئاتهم التي شقوا بها سبب شقاوتهم، سميت شقاوة توسعاً. ومن أكبر الشقاوة أن تترك عبادة الله تعالى إلى عبادة غيره، وتترك الأدلة ويتبع الهوى ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ لما تكره من الكفر، والتكذيب والمعاصي ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ لأنفسنا. قال الحسن: هذا آخر كلام يتكلم به أهل النار، ثم بعد ذلك يكون لهم شهيق كشهيق الحمار. ﴿قَالَ أَخْشُوا فِيهَا﴾ أي: ابعدوا بعد الكلب في النار. وهذه اللفظة زجر للكلاب. وإذا قيل ذلك للإنسان يكون للإهانة المستحقة للعقوبة ﴿وَلَا تُكَلِّمُون﴾ وهذه مبالغة للإذلال والإهانة، وإظهار الغضب عليهم، لأن من لا يكلم إهانة له فقد بلغ به الغاية في الإذلال. وقيل: معناه: ولا تكلمون في رفع العذاب فإني لا أرفعه عنكم. وهي على صيغة النهي وليست بنهي، لأن الأمر والنهي مرتفعان في الآخرة لارتفاع التكليف. ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ مِنْ عِبَادِي﴾ أي: طائفة من عبادي، وهم الأنبياء والمؤمنون ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ أي: يدعون بهذه الدعوات في الدنيا طلباً لما عندي من الثواب ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ أنتم يا معشر الكفار ﴿سَخِرَاتٍ﴾ أي: كنتم تهزأون وتسخرون منهم، وقيل: معناه تستعبدونهم وتصرفونهم في أعمالكم وحوائجكم كرهاً بغير أجر. وقيل: إنهم كانوا إذا آذوا المؤمنين، قالوا: انظروا إلى هؤلاء رضوا من الدنيا بالعيش الدني طمعاً في ثواب الآخرة، وليس وراءهم آخرة ولا ثواب، فهو مثل قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ ﴿٢٤﴾. ﴿حَتَّىٰ أَتَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أي: نسيتم ذكري لاشتغالكم بالسخرية منهم، فنسب الإنساء إلى عبادة المؤمنين، وإن لم يفعلوه لما كانوا السبب في ذلك ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ ظاهر المعنى.



قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿١١١﴾ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَيْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّاكَ الْوَدَّاعِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١١٨﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة والكسائي: «إنهم» بكسر الألف، و«قل كم لبثتم»، و«قل إن لبثتم» على الأمر. وقرأ ابن كثير: «قال كم لبثتم» فقط. وقرأ الباقون: «أنهم» بفتح الألف، و«قال» في الموضعين. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم ويعقوب: «لا ترجعون» بفتح التاء، والباقون بضم التاء وفتح الجيم.

● **الحجة:** قال أبو علي: من فتح «أَنْ» فالمعنى لأنهم هم الفائزون. ويجوز أن يكون أنهم في موضع المفعول الثاني، لأن جزيت يتعدى إلى مفعولين. قال سبحانه: ﴿وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (١٢)، وتقديره: جزيتهم اليوم بصبرهم الفوز. وفاز الرجل: إذا نال ما أراد، وقالوا: فوز الرجل: إذا مات. ويشبه أن يكون ذلك على التفاضل له أي: صار إلى ما أحب، والمفاضة: المهلكة على وجه التفاضل أيضاً. ومن كسر «إِنْ» استأنف فقطعه عما قبله ومثله: «البيك إن الحمد والنعمة لك وإن الحمد»، بالكسر والفتح. ومن قرأ: «قل كم لبثتم»: كان على قل أيها السائل عن لبثهم. وقال: على الإخبار عنه. وزعموا أن في مصاحف أهل الكوفة «قل» في الموضوعين. وحجة من قال «ترجعون»: إنا إليه راجعون، وقد تقدم ذكر هذا النحو.

● **الإعراب:** ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ كم في محل نصب لأنه ظرف زمان، والعامل فيه لبث و﴿عَدَدٌ﴾ منصوب على التمييز، والعامل فيه ﴿كَمْ﴾. ولا يمنع كم من العمل الفصل الكثير، لأن كم الخبرية تجر المميز، فإذا فصل بينها وبين معمولها نصبت كالاستفهامية، فلأن تنصب الاستفهامية مع الفصل أولى. و﴿قَلِيلًا﴾ صفة مصدر محذوف تقديره: إن لبثتم إلا قليلاً عبثاً. ويجوز أن يكون مصدراً وضع موضع الحال وتقديره: أفحسبتم أنما خلقناكم عبثين. ويجوز أن يكون مفعولاً له أي: للعبث. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ في موضع نصب على الحال على تقدير: فتعالى الله عديم المثل. والأولى أن يكون جملة مستأنفة. و﴿رَبُّ الْعَرْشِ﴾ خبر المبتدأ محذوف فهي جملة أخرى مستأنفة بدلالة حسن الوقف على المواضع الثلاثة: على ﴿الْحَقُّ﴾ وعلى ﴿هُوَ﴾ وعلى ﴿الْكَبِيرِ﴾. ﴿لَا بُرْهَانَ لَكُمْ بِهِ﴾ جملة منصوبة الموضع بأنه صفة لقوله: ﴿إِلَهِهَا﴾، فهي صفة بعد صفة.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن المؤمنين الذين سخر الكافرون منهم في دار الدنيا فقال: ﴿إِنِّي جَزَّيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بصبرهم على أذاكم وسخريتكم واستهزائكم بهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: الظافرون بما أرادوا، الناجون في الآخرة. والمراد بقوله: ﴿الْيَوْمَ﴾ أيام الجزاء، لا يوم بعينه ﴿قَالَ﴾ أي: قال الله تعالى للكفار يوم البعث، وهو سؤال توبيخ وتبيكت لمنكري البعث ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في القبور ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنهم لم يشعروا بطول لبثهم ومكثهم لكونهم أمواتاً. وقيل: إنه سؤال عن مدة حياتهم في الدنيا. ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقلوا حياتهم في الدنيا لطول لبثهم ومكثهم في النار، عن الحسن. قال: ولم يكن ذلك كذباً منهم لأنهم أخبروا بما عندهم، وقيل: إن المراد به يوماً أو بعض يوم من أيام الآخرة. قال ابن عباس: أنساهم الله قدر لبثهم، فيرون أنهم لم يلبثوا إلا يوماً أو بعض يوم، لعظم ما هم بصده من العذاب ﴿فَسْئَلُ الْمَلَائِكَةِ﴾ يعني الملائكة لأنهم يحصون أعمال العباد، عن مجاهد، وقيل: يعني الحساب لأنهم يعدون الشهور والسنين، عن قتادة ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: ما مكثتم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأن مكثهم في الدنيا أو في القبور وإن طال، فإنه متناه قليل بالإضافة إلى طول مكثهم في عذاب جهنم ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ صحة ما أخبرناكم به. وقيل: معناه لو كنتم تعلمون قصر أعماركم في الدنيا، وطول مكثكم في الآخرة في العذاب، لما اشتغلتم بالكفر والمعاصي وأثرتم الفاني على الباقي. ثم قال

سبحانه لهم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ معاشر الجاحدين للبعث والنشور، الظانين دوام الدنيا ﴿أَنَّمَا خَلَقْتُمْ عَبِيدًا﴾ أي: لعباً وباطلاً لا لغرض وحكمة، ومثله: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾، والمعنى: أظننتم أنا خلقناكم لتفعلوا ما تريدون، ثم إنكم لا تحشرون ولا تسألون عما كنتم تعملون، هذا عبث. فإن من خلق الأشياء، لا لينتفع به نفسه أو غيره، كان عبثاً، والله سبحانه غني لا يلحقه منفعة، فلا بد من أن يكون خلق الخلق لينفعهم ويعرضهم للثواب، بأن يتعبد لهم. وإذا تعبد لهم فلا بد من الفرق بين المطيع والعاصي، وذلك إنما يكون بعد البعث. ﴿وَأَنكُمُ إِنَّا لَا نَرْجِعُون﴾ أي: وحسبتم أنكم لا ترجعون إلى حكمنا، والموضع الذي لا يملك الحكم فيه غيرنا. ﴿فَلَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي: تعالى عما يصفه به الجهال من الشريك والولد، وقيل: معناه تعالى الله من أن يفعل شيئاً عبثاً. ﴿وَالْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ الذي يحق له الملك بأنه ملك غير مملوك، وكل ملك غيره فملكه مستعار، ولأنه يملك جميع الأشياء من جميع الوجوه، وكل ملك سواه يملك بعض الأشياء من بعض الوجوه. والحق هو الشيء الذي من اعتقده كان على ما اعتقده. فالله هو الحق لأن من اعتقد أنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فقد اعتقد الشيء على ما هو به. ﴿رَبِّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أي: خالق السرير الحسن، والكريم في صفة الجماد بمعنى الحسن. وقيل: الكريم الكثير الخير. وصف العرش به لكثرة ما فيه من الخير لمن حوله، ولإتيان الخير من جهته. وخصَّ العرش بالذكر مع كونه سبحانه رب كل شيء، تشريفاً وتعظيماً له كقوله: ﴿رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ﴾. ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ أي: لا حجة له فيما يدعيه، يعني أن من صفته أنه لا حجة له به ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ معناه: فإنما معرفة مقدار ما يستحقه من الجزاء، عند ربه، فيجازه على قدر ما يستحقه. وقيل: معناه فإنما مكافأته عند الله تعالى، والمكافأة والمحاسبة بمعنى ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: لا يظفر ولا يسعد الجاحدون لنعم الله، والمنكرون لتوحيده، والدافعون للبعث والنشور. ولما حكى سبحانه أقوال الكفار أمر نبيه ﷺ بالتبري منهم والانقطاع إليه سبحانه فقال: ﴿وَقُلْ﴾ يا محمد ﴿رَبِّ اغْفِرْ﴾ الذنوب ﴿وَأَزِمْ﴾ وأنعم على خلقك ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: أفضل المُنعمين، وأكثرهم نعمة، وأوسعهم فضلاً.

سُورَةُ النُّورِ

مدنية / آياتها (٦٤)

مدنية بلا خلاف.

- **عدد آياتها:** أربع وستون آية عراقي شامي، آيتان حجازي.
- **اختلافها:** آيتان بالغدو والآصال، ويذهب بالأبصار، كلاهما عراقي شامي.
- **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة النور أُعْطِيَ من الأجر عشر حسنات، بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي». وروى الحاكم أبو عبد الله في الصحيح بالإسناد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة، وعلموهن المغزل، وسورة النور». يعني النساء. وروى عبد الله بن مسكان عن أبي عبد الله ﷺ قال: حصنوا أموالكم وفروجكم بتلاوة سورة النور، وحصنوا بها نساءكم، فإن من أدام قراءتها في كل ليلة أو في كل يوم، لم يزن أحد من أهل بيته أبداً حتى يموت فإذا مات شيعه إلى قبره سبعون ألف ملك، يدعون ويستغفرون الله له، حتى يدخل إلى قبره.
- **تفسيرها:** ختم الله سبحانه سورة المؤمنين بأنه لم يخلق الخلق للعبث، بل للأمر والنهي، وابتدأ هذه السورة بذكر الأمر والنهي وبيان الشرائع، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ٣﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «وفرَضناها» بالتشديد، والباقون بالتخفيف. وقرأ ابن كثير غير ابن فليح: «رأفة» بفتح الهمزة، والباقون بسكون الهمزة. وفي الشواذ قراءة عيسى الثقفى: «سورة» بالنصب، «والزانية والزاني» بالنصب. وروى عن عمر بن عبد العزيز وعيسى الهمداني: «سورة» أيضاً بالنصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: التثقيل في «فرَضناها» لكثرة ما فيها من الفرض. والتخفيف يصلح للقليل والكثير. ومن حجة التخفيف: ﴿إِنَّ أَلَدَىٰ فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ﴾، قال: ولعل «رأفة» التي قرأها ابن كثير لغة. وأما قراءة: «سورة» بالرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف

أي: هذه سورة. ولا يجوز أن يكون مبتدأ لأنها نكرة، ولا يبتدأ بالنكرة حتى توصف. وإن جعلت أنزلناها وفرضناها صفة لها، بقي المبتدأ بلا خبر. فإن جعلت تقديره: يتلى عليكم سورة أنزلناها جاز. ومن قرأ «سورة» بالنصب، فعلى إضمار فعل يفسره أنزلناها، والتقدير: أنزلنا سورة أنزلناها. إلا أن هذا الفعل لا يظهر، لأن التفسير يغني عنه، ومثله قول الشاعر:

أَضْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السُّلَاحَ وَلَا أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا
وَالذُّبُّ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَزْتُ بِهِ وَخِدي وَأَخْشَى الرِّيحَ وَالْمَطَرَا^(١)

أي: وأخشى الذئب. فلما أضمره فسرّه بقوله أخشاه، ويجوز أن يكون الفعل الناصب لـ«سورة» من غير لفظ الفعل بعدها، على معنى التخصيص أي: اقرأوا سورة وتأملوا سورة أنزلناها، كقوله سبحانه: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَهَا﴾ أي: احفظوا ناقة الله، وكذلك قوله: انتصب بفعل مضمر أي: اجلدوا الزانية والزاني. فلما أضمر الفعل الناصب، فسرّه بقوله ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ زَنِيٍّ فِيهِمَا﴾، وجاز دخول الفاء في هذا الوجه، لأنه موضع أمر. ولا يجوز زيدا فضربته لأنه خبر، وإنما جاز في الأمر لمضارعة الشرط. ألا تراه دالاً على الشرط، ولذلك انجزم في قولك: زني أكرمك، لأن معناه فإنك إن تزني أكرمك ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ فلما آل معناه إلى الشرط جاز دخول الفاء في الفعل المفسر للمضمر. وتقول على هذا: يزيد فامرر، وعلى عمرو فاغضب.

● **اللغة:** السورة مأخوذة من سور البناء، وهو ارتفاعه، وقيل: هو ساق من أسواقه. فعلى القول الأول يكون تسميتها بذلك لارتفاعها في النفوس. وعلى القول الثاني يكون تسميتها بذلك لأنها قطعة من القرآن. وقيل: إن السورة المنزلة الشريفة والجلالة. قال النابغة:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَغْطَاكَ سُوْرَةً تَرَى كُلَّ مَلَكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ
لَانَكَ شَمْسٌ وَالْمَلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ^(٢)

وقيل: أصله الهمز. وقيل: اشتقاقها من أسارت: إذا أبقيت في الإناء بقية. ومنه الحديث: «إذا شربتم فأسثروا». إلا أنه أجمع على تخفيفها كما أجمع على تخفيف برة وروية، وأصلها من برا الله الخلق، وروأت في الأمر. وأصل الفرض من فرض القوس: وهو الحز الذي فيه الوتر، ثم اتسع فيه فجعل في موضع الإيجاب. وفصل بين الفرض والواجب، فإن الفرض واجب بجعل جاعل، لأنه فرضه على صاحبه كما أنه أوجبه عليه. والواجب قد يكون واجباً من غير جعل جاعل، كوجوب شكر المنعم. فجرى مجرى دلالة الفعل على الفاعل في أنه يدل من غير جعل جاعل. والزنى هو وطء المرأة في الفرج من غير عقد شرعي ولا شبهة عقد، مع العلم بذلك أو غلبة الظن. وليس كل وطء حرام زنى، لأن الوطء في الحيض والنفاس حرام ولا يكون زنى،

(١) الشعران لربيع بن ضبع الفزاري، وهو من معمرى العرب، من أبيات قالها بعد ما بلغ مايتين وأربعين سنة، كما في أمالي الشريف (قده)، والخزانة، وغيره.

(٢) يخاطب النعمان بن المنذر ملك الحيرة. وفي البيت الثاني كلام لطيف، ذكره الشريف المرتضى (ره) في (الأمالي ج ١: ٤٨٧) فراجع.

سورة النور

وَالْجُلْدُ ضَرْبُ الْجُلْدِ، يُقَالُ: جُلِدَ كَمَا يُقَالُ: ظَهَرَ وَرَأْسُهُ وَفَأَدَهُ، وَهَذَا قِيَاسٌ، وَالرَّافَةُ: التَّحْنُ وَالْتَعَطْفُ، وَفِيهِ ثَلَاثُ لُغَاتٍ: سَكُونُ الْهَمْزَةِ وَفَتْحُهَا وَمَدُّهَا. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: الرَّافَةُ رَحْمَةٌ فِي تَوْجَعٍ.

● **المعنى:** ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا﴾ أي: هذه سورة قطعة من القرآن لها أول وآخر، أنزلها جبرائيل عليه السلام بأمرنا ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي: وأوجبنا عليكم العمل بها، وعلى من بعدكم إلى يوم القيامة. وقيل: معناه وفرضنا فيها إباحة الحلال وحظر الحرام، عن مجاهد، وهذا يعود إلى معنى أوجبناها. وقيل: معناه وقدّرنا فيها الحدود، عن عكرمة، وهو من قوله: ﴿فَقِصْفُ مَا قُضِيَ مِنْكُمْ﴾. وفسّر أبو عمرو معنى القراءة بالتشديد بأن قال: معناها فصلناها بيّناها بفرائض مختلفة. ﴿وَأَنْزَلْنَاهَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: دلالات واضحات على وحدانيتنا وكمال قدرتنا. وقيل: أراد بها الحدود والأحكام التي شرع فيها ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي تتذكروا فتعلموا بما فيها، ثم ذكر سبحانه تلك الآيات وابتدأ بحكم الزنى، فقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ معناه: التي تزني والذي يزني أي: من زنى من النساء ومن زنى من الرجال، فيفيد العموم في الجنس. ﴿فَأَجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ يعني: إذا كانا حريين بالغين بكرين غير محصنين. فأما إذا كانا محصنين، أو كان أحدهما محصناً، كان عليه الرجم بلا خلاف. والإحصان هو أن يكون له فرج يغدو إليه ويروح على وجه الدوام، أو يكون حراً. فأما العبد فلا يكون محصناً، وكذلك الأمة لا تكون محصنة، وإنما عليهما نصف الحد خمسون جلدة، لقوله سبحانه: ﴿إِنْ أَنْتَ بِنَحْوِ اللَّهِ فَوَاقٍ نَفَقَاتٍ فَتَعَلَّىٰ نَفَسًا يُصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾، وقيل: إنما قدم ذكر الزانية على الزاني، لأن الزنى منهن أشنع وأعير، وهو لأجل الحبل أضر، لأن الشهوة فيهن أكثر وعليهن أغلب. وقوله ﴿فَأَجْلِدُوا﴾ هذا خطاب للأمة، ومن يكون منصوباً للأمر من جهتهم، لأنه ليس لأحد أن يقيم الحدود إلا الأئمة وولاتهم بلا خلاف. ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ معناه: إن كنتم تصدّقون بالله وتقرون بالبعث والنشور، فلا تأخذكم بهما رحمة تمنعكم من إقامة الحدود عليهما، فتعطلوا الحدود، عن عطاء ومجاهد. وقيل: معناه لا تأخذكم بهما رافة تمنع من الجلد الشديد، بل أوجعهما ضرباً ولا تخففوا كما يخفف في حد الشارب، عن الحسن وقتادة وسعيد بن المسيب والنخعي والزهري، وقوله ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي: في طاعة الله، وقيل: في حكم الله، عن ابن عباس، كقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَخِي أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: في حكمه. ﴿وَلَسْتُمْ بِعَذَابِهِمَا﴾ أي: وليحضر حال إقامة الحد عليهما ﴿طَائِفَةٌ﴾ أي: جماعة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم ثلاثة فصاعداً، عن قتادة والزهري، وقيل: الطائفة رجлан فصاعداً، عن عكرمة، وقيل: أقله رجل واحد، عن ابن عباس والحسن ومجاهد وإبراهيم، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام. ويدل على ذلك قوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾، وهذا الحكم يشبث للواحد كما يشبث للجمع، وقيل: أقلها أربعة، لأن أقل ما يشبث به الزنى شهادة أربعة، عن ابن زيد. وقيل: ليس لهم عدد محصور، بل هو موكول إلى رأي الإمام. والمقصود أن يحضر جماعة يقع بهم إذاعة الحد ليحصل الاعتبار. وقوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ يختلف في تفسيره على وجوه:

أحدها: أن المراد بالنكاح العقد، ونزلت الآية على سبب، وهو: أن رجلاً من المسلمين استأذن النبي ﷺ في أن يتزوج أم مهزول، وهي امرأة كانت تسافح، ولها راية على بابها تعرف بها، فنزلت الآية، عن عبد الله بن عباس وابن عمر ومجاهد وقتادة والزهرى. والمراد بالآية النهي، وإن كان ظاهره الخبر، ويؤيده ما رُوِيَ عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام، أنهما قالوا: هم رجال ونساء كانوا على عهد رسول الله ﷺ مشهورين بالزنى، فنهى الله عن أولئك الرجال والنساء على تلك المنزلة، فمن شهر بشيء من ذلك، وأقيم عليه الحد، فلا تزوجوه حتى تعرف توبته.

وثانيها: أن النكاح هنا الجماع، والمعنى: أنهما اشتركا في الزنى فهي مثله، عن الضحاك وابن زيد وسعيد بن جبير، وفي إحدى الروايتين، عن ابن عباس. فيكون نظير قوله: ﴿الْحَيِّثُ فِي أَنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْأَغْلَبِ الْأَعْمِ﴾.

وثالثها: أن هذا الحكم كان في كل زان وزانية، ثم نسخ بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ﴾ الآية، عن سعيد بن المسيب وجماعة.

ورابعها: أن المراد به العقد، وذلك الحكم ثابت فيمن زنى بامرأة، فإنه لا يجوز له أن يتزوج بها، رُوِيَ ذلك عن جماعة من الصحابة، وإنما قرن الله سبحانه بين الزاني والمشارك، تعظيماً لأمر الزنى وتفخيماً لشأنه. ولا يجوز أن تكون هذه الآية خبراً لأننا نجد الزاني يتزوج غير الزانية، ولكن المراد هنا الحكم أو النهي، سواء كان المراد بالنكاح العقد أو الوطء. وحقيقة النكاح في اللغة الوطء. ﴿وَحَرَّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حرم نكاح الزانيات، أو حرّم الزنى على المؤمنين، فلا يتزوج بهن أو لا يطأهن إلا زان أو مشرك.



قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٤١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة عبد الله بن مسلم بن يسار وأبي زرعة: «بأربعة» بالتثنية.

● **الحجة:** من قرأ: «بأربعة شهداء» بغير تنوين، أضاف العدد إلى «شهداء»، وإن كان الشهداء من الصفات. وساغ ذلك لأنهم استعملوها استعمال الأسماء كقولهم: إذا دفن الشهيد صُلِّت عليه الملائكة، ونحو ذلك. فحسن إضافة اسم العدد إليها، كما يضاف إلى الاسم الصريح. ومن قرأ بالتثنية جعل شهداء صفة لأربعة في موضع جر. ويجوز أن يكون في موضع نصب من جهتين:

إحدهما: أن يكون على معنى ثم لم يحضروا أربعة شهداء، وعلى الحال من النكرة أي: لم يأتوا بأربعة في حال الشهادة، قاله الزجاج.

● **الإعراب:** موضع ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ﴾ رفع بالابتداء. ومن قرأ «الزانية والزاني» بالنصب،

فيكون على ذلك موضع ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ﴾ نصباً على معنى: اجلدوا الذين يرمون المحصنات. والمحصنات هنا: اللاتي أحصن فروجهن بالعفة. و﴿الَّذِينَ تَابُوا﴾ في محل النصب على الاستثناء من قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ عند من قال: إن شهادتهم مقبولة ويكون قوله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ صفة لهم. ويجوز أن يكون في موضع جر على البدل من هم في ﴿لَهُمْ﴾ ومن قال: إن شهادة القاذف غير مقبولة فعنده يكون في موضع النصب على الاستثناء من قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

● **المعنى:** لما تقدّم ذكر حدّ الزنى، عقبه سبحانه بذكر حد القاذف بالزنى، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: يقذفون العفاف من النساء بالفجور والزنى، وحذف لدلالة الكلام عليه. ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ﴾ أي: ثم لم يأتوا على صحة ما رموهن به من الزنى، بأربعة شهداء عدول، يشهدون أنهم رأوهن يفعلن ذلك ﴿فَاجْلِدُوهُنَّ﴾ أي: فاجلدوا الذين يرمونهن بالزنى ﴿ثَنَيْنِ جَلْدَهُ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ نهى سبحانه عن قبول شهادة القاذف على التأييد، وحكم عليهم بالفسق. ثم استثنى من ذلك فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ واختلف في هذا الاستثناء إلى ماذا يرجع على قولين:

أحدهما: أنه يرجع إلى الفسق خاصة، دون قوله ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ فيزول عنه اسم الفسق بالتوبة، ولا تقبل شهادته إذا تاب بعد إقامة الحد عليه، عن الحسن وقتادة وشريح وإبراهيم، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه.

والآخر: أن الاستثناء يرجع إلى الأمرين، فإذا تاب قبلت شهادته حداً، ولم يحد، عن ابن عباس في رواية الوالبي ومجاهد والزهري، ومسروق وعطاء وطاووس وسعيد بن جبير والشعبي، وهو اختيار الشافعي وأصحابه، وقول أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام. قال الشافعي: أخبرنا سفيان بن عيينة عن الزهري قال: زعم أهل العراق أن شهادة القاذف لا تجوز، فاشهد لأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر لما شهد على المغيرة بن شعبة: تُبْ تقبل شهادتك، أو إن تبت تقبل شهادتك، فأبى أبو بكر أن يكذب نفسه. وقال الزجاج: ليس القاذف بأشدّ جرماً من الكافر، والكافر إذا أسلم قبلت شهادته، فالقاذف أيضاً حقه إذا تاب أن تقبل شهادته. يعضد هذا القول: أن المتكلم بالفاحشة لا ينبغي أن يكون أعظم جرماً من مرتكبها، ولا خلاف في العاهر، أنه إذا تاب قبلت شهادته. فالقاذف إذا تاب ونزع مع أنه أيسر جرماً، يجب أن تقبل شهادته. وقال الحسن: يجلد القاذف وعليه ثيابه، ويجلد الرجل قائماً، والمرأة قاعدة، وهو المروى عن أبي جعفر عليه السلام. ومن شرط توبة القاذف أن يكذب نفسه فيما قاله، فإن لم يفعل ذلك لم يجز قبول شهادته، وبه قال الشافعي. وقيل: إنه لا يحتاج إلى ذلك، وهو قول مالك. والآية وردت في النساء، وحكم الرجال حكمهن ذلك في الإجماع. وإذا كان القاذف عبداً أو أمة، فالحد أربعون جلدة عند أكثر الفقهاء. وروى أصحابنا أن الحد ثمانون في الحر والعبد سواء. وظاهر الآية يقتضي ذلك، وبه قال عمر بن عبد العزيز والقاسم بن عبد الرحمن.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَهُ أَحَدُهُمْ أَزْبَعُ شَهَادَتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمِيسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَزْبَعُ شَهَادَتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة، غير أبي بكر: «شهادة أحدهم أربع شهادات» بالرفع، والباقون: «أربع شهادات» بالنصب. وقرأ حفص: «والخامسة» الثانية بالنصب، والباقون بالرفع. وقرأ نافع: «أن» ساكنة النون، «لعنة الله» بالرفع، و«أن غضب الله عليها» بكسر الضاد ورفع «الله». وقرأ يعقوب: «أن لعنة الله» و«أن غضب الله» برفع لعنة وغضب جميعاً، والباقون: «أن لعنة الله» و«أن غضب الله» بالتشديد والنصب في الموضعين.

● **الحجة:** قال أبو علي: من نصب «أربع شهادات» نصبه بالشهادة، وينبغي أن يكون قوله: ﴿فَشَهَدَهُ أَحَدُهُمْ﴾ مبنياً على ما يكون مبتدأ تقديره: فالحكم، أو فالفرض أن تشهد أربع شهادات، أو فعليهم أن يشهدوا. وإن شئت حملته على المعنى لأن المعنى يشهد أحدهم، وقوله ﴿بِاللَّهِ﴾ يجوز أن يكون من جملة الشهادة، لأنك أوصلتها بالشهادة، ومن صلة شهادات إذا نصبت الأربع. وقياس من أعمل الثاني، أن يكون قوله ﴿بِاللَّهِ﴾ من صلة شهادات، وحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، كما تقول: ضربت وضربني زيد، ومن رفع فقال: «شهادة أحدهم أربع شهادات بالله» فإن الجار والمجرور من صلة شهادات، ولا يجوز أن يكون من صلة شهادة، لأنك إن وصلتها بالشهادة فقد فصلت بين الصلة والموصول. ألا ترى أن الخبر الذي هو ﴿أَزْبَعُ شَهَادَتٍ﴾ يفصل قوله ﴿إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قول من نصب أربع شهادات يجوز أن يكون من صلة شهادة أحدهم. فتكون الجملة التي هي ﴿إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في موضع نصب، لأن الشهادة كالعلم، فيتعلق بها إن، كما يتعلق بالعلم. والجملة في موضع نصب بأنه مفعول به، و﴿أَزْبَعُ شَهَادَتٍ﴾ ينتصب انتصاب المصدر. ومن رفع «أربع شهادات» لم يكن ﴿إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إلا من صلة شهادات، دون صلة شهادة، لأنك إن جعلته من صلة شهادة فصلت بين الصلة والموصول. ومن قرأ «أن لعنة الله عليه» و«أن غضب الله عليها» فمعناه: أنه لعنة الله عليه وأنه غضب الله عليها، خفت الثقيلة المفتوحة على إضمار القصة والحديث، ولا تكون في ذلك كالمكسورة، لأن الثقيلة المفتوحة موصولة، والموصول يتشبه بصلته أكثر من تشبه غير الموصول بما يتصل به. وأهل العربية يستقبحون أن تلي الفعل حتى يفصل بينها وبين الفعل بشيء، يقولون: استقبحوا أن تحذف ويحذف ما تعمل فيه وأن تلي ما لم تكن تليه من الفعل بلا حاجز بينهما، فتجتمع هذه الاتساعات فيها، فإن فصل بينها وبين الفعل بشيء لم يستقبحوا ذلك، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ نَرْحَمُهُ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾، وعلمت أن قد قام. فإن قلت: فقد جاء ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ﴿٢٦﴾، وجاء: ﴿نُودِيَ أَنَّ بُرُوكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، فالجواب: فإن ليس يجري مجرى ما ونحوها مما ليس بفعل، وأما

قوله: ﴿تُودِي أَنْ بُورِكَ﴾ فإن قوله ﴿بُورِكَ﴾ على معنى الدعاء، فلم يجوز دخول لا، ولا قد، ولا السين، ولا شيء مما يصح دخوله الكلام فيصح به الفصل. ووجه قراءة نافع، أن ذلك قد جاء في الدعاء ولفظه لفظ الخبر، وقد يجيء في الشعر وإن لم يكن شيء يفصل بين أن، وبين ما تدخل عليه من الفعل. فإن قلت: فلم لا تكون أن في قوله ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ﴾ أن الناصبة للفعل، وصل بالماضي. فيكون كقراءة من قرأ «وامرأة مؤمنة أن وهبت نفسها للنبي» فإن ذلك لا يسهل ألا ترى أنها متعلقة بالشهادة، والشهادة بمنزلة العلم لا تقع بعدها الناصبة.

النزول: الضحاك، عن ابن عباس، قال: لما نزلت الآية ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، قال عاصم بن عدي: يا رسول الله! إن رأى رجل منا مع امرأته رجلاً، فأخبر بما رأى، جلد ثمانين. وإن التمس أربعة شهداء، كان الرجل قد قضى حاجته ثم مضى؟ قال ﷺ: «كذلك أنزلت الآية يا عاصم». قال: فخرج سامعاً مطيعاً. فلم يصل إلى منزله حتى استقبله هلال بن أمية يسترجع، فقال: ما وراءك؟ قال: شر، وجدت شريك بن سحما على بطن امرأتي خولة! فرجع إلى النبي ﷺ، فأخبره هلال بالذي كان. فبعث إليها فقال: ما يقول زوجك؟ فقالت: يا رسول الله ﷺ: إن ابن سحما كان يأتينا فينزل بنا، فيتعلم الشيء من القرآن، فربما تركه عندي، وخرج زوجي فلا أدري أدركته الغيرة، أم بخل عليّ بالطعام. فأنزل الله آية اللعان: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ والآيات. وعن الحسن قال: لما نزلت ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الآية، قال سعد بن عباد: يا رسول الله، أرايت إن رأى رجل مع امرأته رجلاً فقتله تقتلون، وإن أخبر بما رأى جلد ثمانين، أفلا يضربه بالسيف؟ فقال رسول الله ﷺ: «كفى بالسيف شاه». أراد أن يقول: شاهد، ثم أمسك وقال: لولا أن يتابع فيه السكران والغيران. وفي رواية عكرمة، عن ابن عباس، قال سعد بن عباد: لو أتيت لكاع وقد يفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب. وإن قلت ما رأيت فإن في ظهري لثمانين جلدة. فقال النبي ﷺ: يا معشر الأنصار ما تسمعون إلى ما قال سيدكم؟ فقالوا: لا تلمه فإنه رجل غيور، ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، ولا طلق امرأة له فاجترى رجل منا أن يتزوجها. فقال سعد بن عباد: يا رسول الله بأبي أنت وأمي والله إنني لأعرف أنها من الله وإنها حق، ولكن عجبت من ذلك لما أخبرتك. فقال: فإن الله يأبى إلا ذاك، فقال: صدق الله ورسوله. فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية من حديقة له، قد رأى رجلاً مع امرأته، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: إني جئت أهلي عشاء، فوجدت معها رجلاً رأيته بعيني وسمعته بأذني. فكره ذلك رسول الله ﷺ حتى رأى الكراهة في وجهه، فقال هلال: إني لأرى الكراهة في وجهك، والله يعلم إنني لصادق، وإنني لأرجو أن يجعل الله فرجاً. فهّم رسول الله ﷺ بضربه، وقال: واجتمعت الأنصار، وقالوا: ابتلينا بما قال سعد أيجلد هلال وتبطل شهادته؟ فنزل الوحي، وأمسكوا عن الكلام حين عرفوا أن الوحي قد نزل، فأنزل الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ والآيات. فقال ﷺ: أبشر يا هلال فإن الله تعالى قد جعل فرجاً. فقال: قد كنت أرجو ذاك من الله تعالى. فقال ﷺ: أرسلوا إليها، فجاءت فلاعن بينهما. فلما انقضى اللعان فرّق بينهما، وقضى أن الولد لها ولا يدعى لأب ولا

يرمى ولدها. ثم قال رسول الله ﷺ: إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها، وإن جاءت به كذا وكذا، فهو للذي قيل فيه.

● **المعنى:** لما تقدّم حكم القذف للأجنبيات، عقّبه بحكم القذف للزوجات، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ بالزنى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ﴾ يشهدون لهم على صحة ما قالوا ﴿إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ﴾ قال الزجاج: معناه فشهادة أحدهم التي تدرأ حد القاذف، أربع شهادات. ومن نصب فمعناه: فالذي يدرأ عنهم العذاب أن يشهد أحدهم أربع شهادات ﴿بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنى ﴿وَالْفُحْشَى﴾ أي: والشهادة الخامسة ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنى. والمعنى: أن الرجل يقول أربع مرات، مرة بعد مرة أخرى: أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما ذكرت عن هذه المرأة من الفجور. فإن هذا حكم خصّ الله به الأزواج في قذف نسائهم، فتقوم الشهادات الأربع مقام الشهود الأربعة في دفع حد القذف عنهم. ثم يقول في المرة الخامسة: لعنة الله عليّ إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنى. ﴿وَيَذَرُوهَا الْعَذَابَ﴾ ويدفع عن المرأة حد الزنى ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ معناه أن تقول المرأة أربع مرات، مرة بعد أخرى: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما قذفني به من الزنى ﴿وَالْفُحْشَى أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي: وتقول في: الخامسة غضب الله عليّ ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما قذفني به من الزنى، ثم يفرّق الحاكم بينهما، ولا تحل له أبداً، وكان عليها العدة من وقت لعانها. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جواب لولا محذوف، تقديره: ولولا فضل الله عليكم بالنهي عن الزنى والفواحش وإقامة الحدود، لتهالك الناس، ولفسد النسل، وانقطعت الأنساب، عن أبي مسلم. وقيل: معناه لولا إفضال الله وإنعامه عليكم، وأن الله عواد على من يرجع عن المعاصي بالرحمة، حكيم فيما فرضه من الحدود، لنال الكاذب منهما عذاب عظيم، أي: لبيّن الكاذب منهما، فيقام عليه الحد. وقيل: لعاجلكم بالعقوبة ولفضحكم بما تركبون من الفاحشة، ومثله قوله: لو رأيت فلاناً وفي يده السيف، والمعنى لرأيت شجاعاً أو لرأيت أمراً هائلاً. وقال جرير:

كَذَبَ الْعَوَازِلُ لَوْ رَأَيْنَ مَنَاخَنَا بِحَزِيرِ زَامَةٍ وَالْمَطِي سَوَامٍ^(١)
وجاء في المثل: «لو ذات سوار لطمتي».



قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَبِيرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرُ مِنْهُمْ لَمُوْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١)

(١) الحزير في اللغة: المكان الغليظ المتقاد. وهو في مواضع كثيرة منها حزير رامة: وهو اسم موضع قرب البصرة. والسوام: راعية. وفي رواية الحموي في المعجم: «ولقد نظرت فرد نظرتك الهوى * بحزير رامة...» وعليها فلا شاهد في هذا البيت.

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَقَوَّيْتُكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسَسَّكَرَ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّكِزِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ .

● **القراءة:** قرأ يعقوب «كبره» بضم الكاف، وهو قراءة أبي رجا وحميد الأعرج. وقراءة الفراء «كبره» بكسر الكاف، وفي الشواذ قراءة عائشة وابن عباس وابن يعمر: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ»^(١)، وقراءة ابن السميع «تَلَقَّوْنَهُ» والقراءة المشهورة «تَلَقَّوْنَهُ».

● **الحجة:** من ضم «كبره» أراد عظمه. ومن كسر أراد وزره وإثمه. قال قيس بن الخطيم:

تَنَامُ عَنْ كُبَرِ شَأْنِهَا فَإِذَا قَامَتْ زُوَيْدًا تَكَادُ تَنْعَرِفُ^(٢)

أي: عن معظم شأنها، وأما قوله «تلقونه» فمعناه: تسرعون فيه وتخفون إليه، قال الراجز: «جاءت به عَنَسٌ مِنَ الشَّامِ تَلِقُ»^(٣) أي: تخف، وأصله تَلِقُونَ فيه أو إليه، فحذف حرف الجر فوصل الفعل إلى المفعول. وقيل: إن الولق الكذب، فكان الكاذب يستمر في الكذب ويسرع فيه. وجاء في حديث علي عليه السلام: كذبت وولقت. وأما «تَلَقَّوْنَهُ» فمعناه: تلقونه بأفواهكم. وأما «تَلَقَّوْنَهُ» فهو من تَلَقَّيْتُ الحديث من فلان أي: أخذته منه وقبلته.

● **النزول:** روى الزهري، عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب، وغيرهما عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأَيَّتَهُنَّ خرج سهمها، خرج بها. فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وذلك بعد ما أنزل الحجاب، فخرجت مع رسول الله ﷺ حتى فرغ من غزوه، وقفل^(٤). وروى أنها كانت غزوة بني المصطلق من خزاعة. قالت: ودنونا من المدينة فقمنا حين أذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرجل، فلمست صدرتي فإذا عقد من جَزَعِ ظَفَارٍ^(٥) قد انقطع. فرجعت فالتمت عقدتي فحبسني ابتغاؤه. وأقبل الرهط الذي كانوا يرحلونني، فحملوا هودجي على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنني فيه. وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلهن

(١) من ولق يلق ولقاً في سيره: أسرع.

(٢) العزف: التثني والانقصاف أي: تثني من دقة خصرها.

(٣) وقيله: «إِنَّ الْجَلِيدَ زَلِقَ وَمَلَقَ * كَذَبَ الْعَقْرَبُ شَوَالَ عُلُقَ * جَاءَتْ بِهِ عَنَسٌ . . . » يهجو به جليد الكلابي، ويريد أنه ينزل قبل الجماع.

(٤) أي: رجع.

(٥) الجزع: الخرز اليماني. وظفار كقطام: قرية من قرى يمن، ينسب إليها الجزع الطفاري.

اللحم^(١) (ولم يغشهن اللحم. خ ل)، إنما يأكلن العلقمة من الطعام. فبعثوا الجمل وساروا. ووجدت عِقدي وجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فسموت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إلي. فبينما أنا جالسة إذ غلبتني عيناي فممت، وكان صفوان بن المعطل السلمي قد عرس من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما كلمني بكلمة حتى أناخ راحلته، فركبتها فانطلق يقود الراحلة، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين^(٢) في حرّ الظهيرة. فهلك من هلك فيّ، وكان الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبي سلول. فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمتها شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك وهو يرثيني في وجعي، غير أنني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ فذلك يحزنني ولا أشعر بالسر، حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت معي أم مسطح قبل المصانع، وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُف، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه، وكنا نتأذى بالكُف أن نتخذها عند بيوتنا. وانطلقت أنا، وأم مسطح، وأما بنت صخرة بن عامر، خالة أبي، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح! فقلت لها: بشس ما قلت! أتسبين رجلاً قد شهد بدرًا؟ فقالت: أي بنتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي. فلما رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله ﷺ ثم قال: كيف تيكم؟ قلت: تأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا أريد أن أتقن الخبر من قبله. فأذن لي رسول الله ﷺ. فجئت أبوي وقلت لأمي: يا أماه! ماذا يتحدث الناس؟ فقالت: أي: بنية! هوني عليك، فوالله لقلّ ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. قلت: سبحان الله! أو قد يحدث الناس بهذا؟ قالت: نعم. فمكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب ﷺ، حين استلبت الوحي يستشيرهما في فراق أهله. فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي علم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الوذ، فقال: يا رسول الله! هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً، فأما علي بن أبي طالب، عليه أفضل الصلوات، فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثيرة، وإن تسأل الجارية تصدّقك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة! فقال: يا بريرة هل رأيت شيئاً يريبك من عائشة؟ قالت بريرة: والذي بعثك بالحق! إن رأيت عليها أمراً قط أغمضه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها. قالت: وأنا والله أعلم أنني بريئة، ولما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولكنني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله بها. فأنزل الله تعالى على نبيه وأخذه ما كان يأخذه من برحاء الوحي، حتى إنه لينحدر عنه مثل الجمان من العرق في اليوم الثاني من ثقل القول الذي أنزل عليه. فلما سري عن رسول الله ﷺ

(١) أي: لم يكثر عليهن اللحم والشحم. والعلقمة: القليل من الطعام.

(٢) الوغر: شدة توقد الحر.

سورة النور

قال: أبشري يا عائشة! أما الله فقد برأك. فقالت لي أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله، فهو الذي أنزل براءتي. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ الآيات العشر.

● **المعنى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أي: بالكذب العظيم الذي قلب فيه الأمر عن وجهه ﴿عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ أيها المسلمون. قال ابن عباس، وعائشة: منهم عبد الله بن أبي سلول، وهو الذي تولى كبره، ومسطح بن أثانة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش. ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ هذا خطاب لعائشة وصفوان لأنهما قُصِدا بالإفك، ولمن اغتمَّ بسبب ذلك، وخطاب لكل من رُمي بسبب، عن ابن عباس، أي: لا تحسبوا غم الإفك شراً لكم، بل هو خير لكم لأن الله تعالى يبرئ عائشة ويأجرها بصبرها واحتسابها، ويلزم أصحاب الإفك ما استحقوه بالإثم الذي ارتكبهوا في أمرها. وقال الحسن: هذا خطاب للقاذفين من المؤمنين، والمعنى: لا تحسبوا أيها القذفة هذا التأديب شراً لكم، بل هو خير لكم، فإنه يدعوكم إلى التوبة، ويمنعكم عن المعاودة إلى مثله. ﴿لَّكُم لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾، أي: لكل امرئ من القذفة جزء ما اكتسبه من الإثم، بقدر ما خاض وأفاض فيه. وقيل: معناه على كل امرئ منهم عقاب ما اكتسب، كقوله: ﴿وَلَا أَسْأَلُكُمْ فَلَهًا﴾ أي: فعلها ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ أي: تحمّل معظمه ﴿مِنْهُمْ لَّمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والمراد به عبد الله بن أبي سلول أي: فإنه كان رأس أصحاب الإفك، كان يجتمع الناس عنده ويحدثهم بحديث الإفك، ويشيع ذلك بين الناس، ويقول: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها، والله ما نجت منه ولا نجا منها. والعذاب العظيم: عذاب جهنم في الآخرة، وقيل: المراد به مسطح بن أثانة. وقيل: حسان بن ثابت، فإنه روي أنه دخل على عائشة بعد ما كفَّ بصره، فقيل لها: إنه يدخل عليك، وقد قال فيك ما قال وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَّمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فقالت عائشة: أليس قد كفَّ بصره. فأنشد حسان قوله فيها:

حِصَانٌ زَرَانٌ مَا تُزَنُ بِرَبِّهِ وَتُصْبِحُ غَرْزِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ^(١)

فقالت عائشة: لكنك لست كذلك. ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ معناه: هلا حين سمعتم هذا الإفك من القائلين له، ظن المؤمنون والمؤمنات بالذين هم كأنفسهم خيراً، لأن المؤمنين كلهم كالنفس الواحدة فيما يجري عليها من الأمور. فإذا جرت على أحدهم محنة، فكأنها جرت على جماعتهم، فهو كقوله: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَيَّ أَنفُسِكُمْ﴾ عن مجاهد. وعلى هذا يكون خطاباً لمن سمعه، فسكت ولم يصدق ولم يكذب. وقيل: هو خطاب لمن أشاعه، والمعنى: هلا إذا سمعتم هذا الحديث ظننتم بها ما تظنون به بأنفسكم، لو خلوتن بها، وذلك لأنها كانت أم المؤمنين. ومن خلا بأمة فإنه لا يطمع فيها، وهي لا تطمع فيه. ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: وهلا قالوا هذا القول كذب ظاهر ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي: هلا جاؤوا على ما قالوه ببينة، وهي أربعة شهداء يشهدون بما قالوه ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ أي: فحين لم يأتوا

(١) الحصان هنا: العفيفة. والزنان: الملازمة موضعها التي لا تتصرف كثيراً. وامرأة زران: إذا كانت ذات ثبات ووقار. وما تزن: أي: ما تتهم. وغرثي أي: جائعة. والغوافل جمع غافلة. يريد أنها لا ترتع في أعراض الناس.

بالشهداء ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الذين قالوا هذا الإفك ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه ﴿هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بأن أمهلهم لتتوبوا ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿لَكُنْتُمْ أَصَابَكُمْ﴾ ﴿فِي مَا أَفَضْتُمْ﴾ أي: خضتم ﴿فِيهِ﴾ من الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: عذاب لا انقطاع له، عن ابن عباس.

ثم ذكر الوقت الذي كان يصيبهم العذاب فيه لولا فضله فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: يرويه بعضكم عن بعض، عن مجاهد، ومقاتل. وقيل: معناه تقبلونه من غير دليل، ولذلك أضافه إلى اللسان. وقيل: معناه يلقيه بعضكم إلى بعض، عن الزجاج ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا﴾ أي: تظنون أن ذلك سهل، لا إثم فيه ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوزر، لأنه كذب وافتراء.



قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٦﴾ يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

● **المعنى:** ثم زاد سبحانه في الإنكار عليهم فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ﴾ أي: هلا قلتم حين سمعتم ذلك الحديث ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ أي: لا يحل لنا أن نخوض في هذا الحديث، وما ينبغي لنا أن نتكلم به، ﴿سُبْحَانَكَ﴾ يا ربنا ﴿هَذَا﴾ الذي قالوه ﴿بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ أي: كذب وزور عظيم عقابه، أو نتحير من عظمه. وقيل: إن سبحانه هنا معناه التعجب كقول الأعشى:

سُبْحَانَ مَنْ عَلَقَمَةَ الْفَاحِشِ (١)

وقيل: معناه ننزهك ربنا من أن نعصيك بهذه المعصية. ثم وعظ سبحانه الذين خاضوا في الإفك فقال: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ﴾ أي: ينهاكم الله، عن مجاهد، وقيل: يحرم الله عليكم ﴿أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ عن ابن عباس. وقيل: معناه كراهة أن تعودوا، أو لثلا تعودوا إلى مثله من الإفك ﴿أَبَدًا﴾ أي: طول أعماركم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: مُصَدِّقِينَ بِاللَّهِ وَنَبِيِّهِ، قابِلين موعظة الله ﴿وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ في الأمر والنهي ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يكون منكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله، لا يضع الشيء إلا في موضعه. ثم هدد القاذفين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ أي: يفسحوا ويظهروا الزنى والقبائح ﴿فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بأن ينسبوا إليهم ويقذفوهم بها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) وقوله: «أقول لما جاءني فخره». قاله في علقمة بن علاثة.

فِي الدُّنْيَا بِإِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِمْ ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ ﴿وَاللَّهُ يَسْمُرُ﴾ مَا فِيهِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، وَمَا يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَاقِبَةِ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذَلِكَ، ثُمَّ ذَكَرَ فَضْلَهُ وَمِثْلَهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ لَعَاجَلَكُمْ بِالْعُقُوبَةِ. وَلَكِنَّهُ بِرَحْمَتِهِ أَهْلَكُمْ لَتَتُوبُوا وَتَتَدَمَّوْا عَلَى مَا قُلْتُمْ، وَجَوَابُ ﴿وَلَوْلَا﴾ مَحْذُوفٌ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ.

● **النظم:** لَمَّا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَحْكَامَ قَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِأَحْكَامِ قَذْفِ الزَّوْجَاتِ. ثُمَّ عَطَفَ بَعْدَ ذَلِكَ قَذْفَ الْأَمْهَاتِ، فَإِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ أَمْهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ بِدَلَالَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الْآيَةُ.



قوله تعالى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤) وَلَا يَأْتَلُ أَهْلُ الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٥) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٦) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (٢٨).

● **القراءة:** قرأ روح، عن يعقوب: «ما زكى منكم» بالتشديد، والباقون بالتخفيف. وقرأ أبو جعفر: «ولا يتأل» وهو قراءة زيد بن أسلم وأبي رجا وأبي مجلز، والباقون: «لا يأتل». وزوي عن علي عليه السلام: «ولتغفوا ولتصفحوا» بالتاء كما يروى بالياء أيضاً. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: «يوم يشهد عليهم» بالياء، والباقون: «تشهد». وفي الشواذ قراءة مجاهد وأبي روق: «يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق» بالرفع.

● **الحجة:** الوجه في قوله «ما زكى» بالتشديد أنه قال والله يزكي. وأما قوله: «ولا يتأل» فإنه من تألى إذا حلف. وفي الحديث: «ومن يتأل على الله يكذبه»، وهو الذي يحلف فيقول: والله لا يدخل فلان الجنة وفلان النار. وأنشد الأصمعي: «عجاجة هجاجة تألى، لأصبحن الأحقر الأدلا». وأما «لا يأتل» ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها: من الألية التي هي اليمين أيضاً، يقال: أئتلى وتآلى وآلى بمعنى. والآخر: أنه من قولهم: ما ألوت في كذا أي: ما قصرت. والمعنى: ولا يقصر. وقال الأخفش: إنه يحتمل الأمرين. وقوله: «ولتغفوا ولتصفحوا» بالتاء. مثل ما روي فلتفرحوا بالتاء على الأصل، وقد تقدم القول فيه. ومن قرأ «يوم يشهد» بالياء، فلأن تأنيث الألسنة ليس بحقيقي، ولأنه حصل بين الفعل والفاعل فصل. ومن قرأ بالتاء فعلى أن الألسنة مؤنثة. ومن قرأ «الحق» بالرفع جعله وصفاً لله تعالى أي: يوفيههم الله الحق دينهم، مثل قوله: ﴿إِلَى اللَّهِ مَوَلَهُمُ الْحَقُّ﴾.

● **النزول:** قيل: إن قوله ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ الآية، نزلت في أبي بكر ومسطح بن أثاثه، وكان ابن خالة أبي بكر، وكان من المهاجرين ومن جملة البدرين، وكان فقيراً، وكان أبو بكر يجري عليه ويقوم بنفقته. فلما خاض في الإفك قطعها، وحلف أن لا ينفعه بنفع أبداً. فلما نزلت الآية عاد أبو بكر إلى ما كان، وقال: والله إنني لأحب أن يغفر الله لي، والله لا أنزعها عنه أبداً، عن ابن عباس وعائشة وابن زيد، وقيل: نزلت في يتييم كان في حجر أبي بكر حلف لا ينفق عليه، عن الحسن ومجاهد. وقيل: نزلت في جماعة من الصحابة، أقسموا على أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا يواسوه، عن ابن عباس وغيره.

● **المعنى:** ثم نهى سبحانه عن اتباع الشيطان فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: آثاره وطرقه التي تؤدي إلى مرضاته، وقيل: وسأوسه ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْتِرْ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ هذا بيان سبب المنع من اتباعه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بأن لطف لكم وأمركم بما تصيرون به أزكياً، ونهاكم عما تصيرون بتركه أزكياً ﴿مَا زَكَّيْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي: ما صار منكم أحد زكياً. ومن في ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ مزيدة، وقيل: معناه ما ظهر منكم أحد من وسوسة الشيطان وما صلح. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنِ يَشَاءُ﴾ أي: يظهر بلطفه من يشاء، وهو من له لطف يفعل سبحانه به ليزكو عنده، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يفعل المصالح والألطاف بالمكلفين، لأنه يسمع أصواتهم وأقوالهم ويعلم أحوالهم وأفعالهم. وفي الآية دلالة على أن الله سبحانه يريد من خلقه خلاف ما يريده الشيطان، لأنه إذا ذم سبحانه الأمر بالفحشاء والمنكر، فخالق الفحشاء والمنكر ومريدهما أولى بالذم، تعالى وتقدس عن ذلك، وفيها دلالة على أن أحداً لا يصلح إلا بلطفه. ﴿وَلَا يَأْتِلُ﴾ أي: ولا يحلف أو لا يقصر ولا يترك ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ أي: وأولو الغنى والسعة في المال ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى﴾ قال الزجاج: معناه أن لا يؤتوا، فحذف لا، أي: لا يحلفوا أن لا يؤتوا. وقيل: لا يقصروا أن يؤتوا ولا يتركوا جهداً في الإنفاق على أقربائهم ﴿وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقد اجتمع في مسطح الصفات الثلاث: كان قريباً لأبي بكر، مسكيناً، مهاجراً. قال الجبائي: وفي قصة مسطح دلالة على أنه قد يجوز أن تقع المعاصي ممن شهد بداراً بخلاف قول النواصب. ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ هذا أمر من الله تعالى للمرادين بالآية بالعفو عمن أساء إليهم والصفح عنهم. وقال لهم: ﴿أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ معاصيكم جزاء على عفوكم وصفحكم عمن أساء إليكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٢٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْفُوتُ الْمُتَصَنِّتِ﴾ أي: يقذفون العفاف من النساء ﴿الْفَاطِلَاتِ﴾ عن الفواحش ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: أبعدوا من رحمة الله في الدارين، وقيل: استحقوا اللعنة فيهما. وقيل: عُذِّبُوا فِي الدُّنْيَا بِالْجُلْدِ وَرَدَّ الشَّهَادَةِ، وفي الآخرة بعذاب النار ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا الوعيد عام لجميع المكلفين، عن ابن عباس وابن زيد. ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ بيّن الله سبحانه أن ذلك العذاب يكون في يوم، تشهد ألسنتهم فيه عليهم بالقذف وسائر أعضائهم بمعاصيهم. وفي كيفية شهادة الجوارح أقوال:

أحدها: أن الله تعالى بينها بُنية يمكنها النطق والكلام من جهتها، فتكون ناطقة.

والثاني: أن الله تعالى يفعل فيها كلاماً يتضمن الشهادة، فيكون المتكلم هو الله دون الجوارح. وأضيف الكلام إليها على التوسع لأنها محل الكلام.

والثالث: أن الله تعالى يجعل فيها علامة تقوم مقام النطق بالشهادة. وأما شهادة الألسن فبأن يشهدوا بالسنتهم إذا رأوا أنه لا ينفعهم الجحود. وأما قوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ فإنه يجوز أن تخرج الألسنة ويختم على الأفواه، ويجوز أن يكون الختم على الأفواه في حال شهادة الأيدي والأرجل. ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ وَيَخْفَىٰ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: يتمم الله لهم جزاءهم الحق. فالدين هنا بمعنى الجزاء، ويجوز أن يكون المراد جزاء دينهم الحق. فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: يعلمون الله ضرورة في ذلك اليوم، ويقرؤون أنه الحق لأنه يقضي بالحق، ويعطي بالحق ويأخذ بالحق ﴿الْمُتِّينَ﴾ أي: الذي يظهر لهم حقائق الأمور، ويبين جلال الآيات.

● **النظم:** بدأ سبحانه فين حكم القاذف أولاً، وأوجب عليه الحد، وردّ شهادته وسمّاه فاسقاً فعلم أن المراد به أهل الملة. ثم عقبه بحديث الإفك لاتصاله به. ثم ذكر صنفاً آخر من القذفة وهم المنافقون بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وبين ما لهم من الغضب واللعنة. ثم عمّ الجميع بالوعيد في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْآيَاتِ، عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ.



قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّيِّبِينَ وَالْمُطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَدْخُلُوا بَيْتًا بَيِّنَاتٍ مِّنَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَّمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرِجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

● **اللغة:** الاستيناس: طلب الأنس بالعلم، أو غيره، تقول العرب: اذهب فاستأنس هل ترى أحداً. ومنه قوله: ﴿فَإِنْ ءَاسْتَمْتُمْ رُشْدًا﴾ أي: علمتم. وروى عن ابن عباس أنه قال: إنما هي تستأذنوا يعني قوله: ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾، وكذلك يروى عن عبد الله، وروى عن أبي حتى تسلموا وتستأنسوا،^(١) وكذلك قرأ ابن عباس.

● **المعنى:** قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّيِّبِينَ وَالْمُطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبَاتِ﴾ قيل في معناه أقوال:

(١) وفي نسخة: «حتى تسلموا أو تستأذنوا».

أحدها: أن الخبيثات من الكلم للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلم، والطيبات من الكلم للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من الكلم. ألا ترى أنك تسمع الخبيث من الرجل الصالح، فتقول: غفر الله لفلان ما هذا من خلقه، ولا مما يقول، عن ابن عباس والضحاك ومجاهد والحسن.

والثاني: أن معناه الخبيثات من السيئات للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من السيئات، والطيبات من الحسنات للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من الحسنات، عن ابن زيد.

والثالث: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، عن أبي مسلم والجبائي، وهو المَرْوِي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام، قالوا: هي مثل قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية. إن أناساً هموا أن يتزوجوا منهن، فنهاهم الله عن ذلك وكره ذلك لهم.

﴿أُولَئِكَ مِرْيُوتٌ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: الطيبون مبرؤون أي: منزّهون من الكلام الخبيث، عن مجاهد. وقال الفراء: يعني به عائشة وصفوان بن المعطل. وهو بمنزلة قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾، والأم تحجب بالأخوين فجاء على تغليب لفظ الجمع. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: لهؤلاء الطيبين من الرجال والنساء مغفرة من الله لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: عطية من الله كريمة في الجنة.

ثم خاطب سبحانه المؤمنين فقال: ﴿يَتَابِعُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ أي: حتى تستأذنوا، عن ابن مسعود وابن عباس، قال: أخطأ الكاتب فيه وكان يقرأ حتى تستأذنوا، وقيل: تستأنسوا بالتنحنح والكلام الذي يقوم مقام الاستئذان. وقد بين الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ عن مجاهد والسدي. وقيل: معناه حتى تستعلموا وتتعرفوا، عن أبي أيوب الأنصاري، قال: قلنا يا رسول الله ما الاستئناس؟ قال: «يتكلم الرجل بالتسبيحة والتحميدة والتكبيرة ويتنحنح على أهل البيت». وعن سهل بن سعد قال: اطلع رجل في حجرة من حجر رسول الله، فقال رسول الله ﷺ ومعه بدرى^(١) يحك به رأسه: «لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينيك! إنما الاستئذان من النظر». وروى أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أستاذن على أمي؟ فقال: نعم، قال: إنها ليس لها خادم غيري، أفأستاذن عليها كلما دخلت؟ قال: أتحب أن تراها عريانة؟ قال الرجل: لا. قال: فاستأذن عليها. ﴿وَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ قيل: إن فيه تقديمًا وتأخيرًا تقديره: حتى تسلموا على أهلها، وتستأنسوا وتستأذنوا، فإن أذن لكم فادخلوا. وقيل: معناه حتى تستأنسوا بأن تسلموا، فقد روي أن رجلاً استأذن على رسول الله ﷺ، فتحنح، فقال رسول الله ﷺ لامرأة يقال لها روضة: قومي إلى هذا فعلميه، وقولي له: قل السلام عليكم أدخل. فسمعها الرجل فقالها، فقال: أدخل. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ معناه: ذلك الدخول بالاستئذان خير لكم ﴿لَمَّا لَمْ تَدْرُوتُمْ﴾ مواظ الله وأوامره ونواهي

سورة النور

فَتَتَّبِعُونَهَا ﴿فَإِنْ لَّمْ يَجِدُوا﴾ معناه: فإن لم تعلموا ﴿فِيهَا أَهْدَا﴾ يأذن لكم في الدخول ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ لأنه ربما كان فيها ما لا يجوز أن تطلعوا عليه ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: حتى يأذن لكم أرباب البيوت في ذلك. يبين الله سبحانه بهذا أنه لا يجوز دخول دار الغير بغير إذنه، وإن لم يكن صاحبها فيها، ولا يجوز أن يتطلع إلى المنزل ليرى من فيه فيستأذنه إذا كان الباب مغلقاً لقوله ﷺ: «إنما جعل الاستيذان لأجل النظر» وإلا أن يكون الباب مفتوحاً لأن صاحبه بالفتح أباح النظر. ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اتَّجِعُوا فَاتَّجِعُوا﴾ أي: فانصرفوا ولا تلجؤا عليهم، وذلك بأن يأمرهم بالانصراف صريحاً، أو يوجد منهم ما يدل عليه. ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ معناه: أن الانصراف أنفع لكم في دينكم ودنياكم، وأطهر لقلوبكم، وأقرب إلى أن تصيروا أذكىاء ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي: عالم بأعمالكم لا يخفى عليه شيء منها. ثم قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ يعني بغير استئذان ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ قيل: في معنى هذه البيوت أقوال:

أحدها: أنها الحانات والحمامات والأرجبة، عن الصادق ﷺ، وعن محمد بن الحنفية وقتادة. ويكون معنى متاع لكم أي: استمتاع لكم.

الثاني: أنها الخرابات المعطلة ويدخلها الإنسان لقضاء الحاجة، عن عطاء.

والثالث: أنها الحوانيت وبيوت التجار التي فيها أمتعة الناس، عن ابن زيد. قال الشعبي: وإذئهم أنهم جاؤوا ببيعهم فجعلوها فيها، وقالوا للناس: هلموا.

والرابع: أنها مناخات الناس في أسفارهم يرتفقون بها، عن مجاهد. والأولى حملة على الجميع. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك.

● **النظم:** وجه اتصال الآية بما قبلها: أنه سبحانه لما عظم شأن الزنى والقذف، أكد ذلك بالنهي عن دخول بيوت الناس إلا بعد الاستئذان والاستئناس، ليكونوا أبعد من التهمة وأقرب إلى العصمة من السيئة.



قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٢٤) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءَهُنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِيكَ غَيْرِ أُولَىٰ الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الْذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٥).

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو بكر: «غَيْرَ أُولِي الإِرْبَةِ» بالنصب، والباقون بالجر. وقرأ ابن عامر: «أَيُّهُ الْمُؤْمِنِينَ» و «يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ» و «أَيُّهُ الثَّقَلَانُ» بضم الهاء، والباقون بفتحها.

● **الحجة:** قال أبو علي: «غير» فيمن جر صفة للتابعين، والمعنى: لا يبيدين زينتهن إلا للتابعين الذين لا إربة لهم في النساء. والإربة: الحاجة. لأنهم في أنهم لا إربة لهم كالأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء، أي: لم يقووا عليها. ومنه قوله ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾، وجاز وصف التابعين بغير، لأنهم غير مقصودين بأعيانهم فأجري لذلك مجرى النكرة. وقد قيل: إن التابعين جاز أن يوصفوا بغير في هذا، لقصر الوصف على شيء بعينه، فإذا قصر على شيء بعينه زال الشياخ عنه فاختص. فالتابعون ضربان: ذو إربة، وغير ذي إربة، وليس ثالث. وإذا كان كذلك جاز لاختصاصه أن يجري وصفاً على المعرفة، وعلى هذا ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمُعْتَصِرِينَ عَلَيْهِمْ﴾. وكذلك: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَبِ﴾، لأن المسلمين وغيرهم لا يخلو من أن يكونوا أصحاب أو زمني، فإذا وصفوا بأحد الشئيين زال الشياخ، فساغ الوصف به لذلك. ومن نصب «غير» احتمل ضربين:

أحدهما: أن يكون استثناء والتقدير: لا يبيدين زينتهن إلا للتابعين إلا ذا الإربة منهم، فإنهم لا يبيدين زينتهن لمن كان منهم ذا إربة.

والآخر: أن يكون حالاً، والمعنى: أو الذين يتبعونهم عاجزين عنهم. وذو الحال ما في التابعين من الذكر، وقال: الوقف على يا أيها، وأيها بالألف، لأنها إنما أسقطت لسكونها وسكون لام المعرفة، فإذا وقفت عليها زال التقاء الساكنين وظهرت الألف. فأما ضم الهاء في قراءة ابن عامر فلا يتجه، لأن آخر الاسم هو الياء الثانية من أي فينبغي أن يكون المضموم آخر الاسم، ولو جاز أن يضم هذا من حيث كان مضموماً إلى الكلمة، لجاز أن يضم الميم من اللهم، لأنه آخر الكلمة. ووجه الإشكال والشبهة في ذلك أنه وجد هذا الحرف قد صار في بعض المواضع التي يدخل فيها بمنزلة ما هو من نفس الكلمة، نحو: مررت بهذا الرجل، وغلام هذه المرأة. فلما وجدها في أوائل المبهمة، كذلك جعلها في الآخر أيضاً بمنزلة شيء من نفس الكلمة. واستجاز حذف الألف اللاحق للحرف لما رآه قد حذف في قولهم: هلم، فأجري عليه الإعراب لما كان كالشيء الذي من نفس الكلمة. فإن قلت: فإنه قد حرك الياء التي قبلها بالضم في «يا أيها الرجل» فإنه يجوز أن نقول: حركة أي: في هذه المواضع كحركات الإتيان في نحو امرئ.، وامرؤ. فهذا وجه شبهته.

● **اللغة:** أصل الغض: النقصان، يقال: غض من صوته، ومن بصره أي: نقص، ومنه حديث عمرو بن العاص لما مات عبد الرحمن بن عوف: هنيئاً لك خرجت من الدنيا بيطنتك، لم تغضغض منها بشيء. يقال: غضغضت الشيء فتغضغض: إذا نقص، والإربة: فعلة من الإرب كالمشية والجلسة. وفي الحديث: أن رجلاً اعترض النبي ﷺ ليسأله، فصاحوا به

فقال ﷺ: «دعوا الرجل أرب ما له». قال ابن الأعرابي: أي: احتاج فسأل ما له. وقيل: معناه حاجة جاءت به فدعوه. وما: مزيدة، عن الأزهري^(١).

● **الإعراب:** «يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ» مجزوم لأنه جواب شرط مقدر، والتقدير: قل للمؤمنين غضوا من أبصاركم، فإنك إن تقل لهم يغضوا. ويجوز أن يكون مجزوماً على تقدير: ليغضوا من أبصارهم، ومثل ذلك قوله: «يَقْضُضْنَ»، وإن لم يظهر فيه الإعراب لكونه مبنياً. و«مَا ظَهَرَ» في موضع نصب على البدل من «زَيْنَتَهُنَّ»، وقوله «مِنْهَا» من هنا: للتبيين. والجار والمجرور مع المحذوف في موضع نصب على الحال.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه ما يحل من النظر وما لا يحل منه فقال: «قُلْ يَا مُحَمَّد لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ» عما لا يحل لهم النظر إليه «وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» عمن لا يحل لهم، وعن الفواحش، وقيل: إن «مِنْ» من مزيدة، وتقديره: يغضوا أبصارهم عن عورات النساء، وقيل: إنها للتعبض، لأن غض البصر إنما يجب في بعض المواضع، عن أبي مسلم، والمعنى: ينقصوا من نظرهم فلا ينظروا إلى ما حرم، وقيل: إنها لابتداء الغاية. وقال ابن زيد: كل موضع في القرآن ذكر فيه حفظ الفروج، فهو عن الزنى، إلا في هذا الموضع، فإن المراد به الستر حتى لا ينظر إليها أحد، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: فلا يحل للرجل أن ينظر إلى فرج أخيه، ولا يحل للمرأة أن تنظر إلى فرج أخيها. «ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ» أي: أنفع لدينهم ودنياهم، وأطهر لهم، وأنفى للتهمة، وأقرب إلى التقوى «إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ» أي: عليم «بِمَا يَصْنَعُونَ» أي: بما يعملونه، أي: على أي وجه يعملونه «وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَقْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ» أمر النساء بمثل ما أمر به الرجال من غض البصر وحفظ الفرج «وَلَا يَبْدِينَ زَيْنَتَهُنَّ» أي: لا يظهرن مواضع الزينة لغير محرم ومن هو في حكمه. ولم يرد نفس الزينة، لأن ذلك يحل النظر إليه، بل المراد مواضع الزينة. وقيل: الزينة زينتَان ظاهرة وباطنة، فالظاهرة لا يجب سترها ولا يحرم النظر إليها، لقوله: «إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا» وفيها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن الظاهرة الثياب، والباطنة الخلخالان والقرطان والسواران، عن ابن مسعود.
وثانيها: أن الظاهرة الكحل والخاتم والخدان والخضاب في الكف، عن ابن عباس.
والكحل والسوار والخاتم، عن قتادة.

وثالثها: أنها الوجه والكفان، عن الضحاك وعطاء، والوجه والبنان، عن الحسن. وفي تفسير علي بن إبراهيم: الكفان والأصابع. «وَلْيَضْرِبْنَ خُفَّهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ» والخُمَرُ المقانع جمع خمار: وهو غطاء رأس المرأة المنسدل على جبينها، أَمَرْنَ بِإِلْقَاءِ المقانع على صدورهن تغطية لنحوهن، فقد قيل: إِنْهَن كُنَّ يَلْقَيْنَ مقانعهن على ظهورهن، فتبدو صدورهن. وكُنَّ عن الصدور بالجيوب لأنها ملبوسة عليها. وقيل: إِنْهَن أَمَرْنَ بِذَلِكَ ليسترن صدورهن وقرطهن وأعناقهن. قال ابن عباس: تغطي شعرها وصدورها وتراثيبها وسوالفها. «وَلَا يَبْدِينَ زَيْنَتَهُنَّ»

(١) وذكروا في الحديث وجوهاً أخر. راجع (النهاية لابن الأثير)، و(اللسان): مادة «أرب».

يعني: الزينة الباطنة التي لا يجوز كشفها في الصلاة، وقيل: معناه لا يضعن الجلباب والخمار، عن ابن عباس ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: لأزواجهن يبدن مواضع زينتهن لهم، استدعاء لميلهم وتحريكاً لشهوتهم، فقد رُوِيَ أنه ﷺ لعن السلتاء من النساء والمرهءاء، فالسلتاء: التي لا تخضب، والمرهءاء التي لا تكتحل، ولعن المسوفة والمفسلة، فالمسوفة: التي إذا دعاها زوجها إلى المباشرة قالت: سوف أفعل، والمفسلة: هي التي إذا دعاها قالت: أنا حائض، وهي غير حائض. ﴿أَوْ آبَائِهِمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ بُعُولَتِهِمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ بَنَاتُ إِخْوَانِهِمْ﴾ وهؤلاء الذين يحرم عليهم نكاحهن، فهم ذوو محارم لهم بالأسباب والأنساب، ويدخل أجداد البعولة فيه وإن علوا، وأحفادهم وإن سفلوا. ويجوز إبداء الزينة لهم من غير استدعاء لشهوتهم، ويجوز لهم تعمد النظر من غير تلذذ. ﴿أَوْ نِسَائِهِمْ﴾ وهو يعني النساء المؤمنات ولا يحل لهن أن يتجردن ليهودية أو نصرانية أو مجوسية، إلا إذا كانت أمة، وهو معنى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي: من الإماء، عن ابن جريج ومجاهد والحسن وسعيد بن المسيب، قالوا: ولا يحل للعبد أن ينظر إلى شعر مولاته، وقيل: معناه العبيد والإماء، ورُوِيَ ذلك عن أبي عبد الله ﷺ. وقال الجبائي: أراد مملوكاً له لم يبلغ مبلغ الرجال. ﴿أَوْ التَّيَعِينِ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ اختلف في معناه فقليل: التابع الذي يتبعك لينال من طعامك، ولا حاجة له في النساء، وهو الأبله المولى عليه، عن ابن عباس وقاتدة وسعيد بن جبير، وهو المزوي عن أبي عبد الله ﷺ. وقيل: هو العنين الذي لا إرب له في النساء لعجزه، عن عكرمة والشعبي. وقيل: إنه الخصى المجبوب الذي لا رغبة له في النساء، عن الشافعي، ولم يسبق إلى هذا القول. وقيل: إنه الشيخ الهرم لذهاب إربه، عن يزيد بن أبي حبيب. وقيل: هو العبد الصغير، عن أبي حنيفة وأصحابه ﴿أَوْ الْطِفْلِ﴾ أي: الجماعة من الأطفال ﴿الَّذِينَ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ يريد به الصبيان الذين لم يعرفوا عورات النساء، ولم يقووا عليها لعدم شهوتهم. وقيل: لم يطبقوا مجامعة النساء، فإذا بلغوا مبلغ الشهوة فحكمهم حكم الرجال ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ قال قتادة: كانت المرأة تضرب برجلها لتسمع ققعقة الخلخال فيها، فنهاهن عن ذلك، وقيل: معناه لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت، ليتبين خلخالها أو يسمع صوته، عن ابن عباس ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تفوزون بثواب الجنة. وفي الحديث: أنه ﷺ قال: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إلى الله في كل يوم مائة مرة» أورده مسلم في الصحيح. والمراد بالتوبة: الانقطاع إلى الله تعالى.



قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٣٢﴾ وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتَبْتُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ

سورة النور

خَيْرًا وَعَاثُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَيْنَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِغَاءِ إِن أَرَدْتَ تَحَصُّنًا
لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ
أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

● **القراءة:** في الشواذ قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير: «من بعد إكراههم لهن غفور رحيم»، ورُوي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.

● **الحجة:** اللام في لهن متعلقة بغفور أي: غفور لهن.

● **اللغة:** الأياى جمع أيم، وهي المرأة التي لا زوج لها، سواء كانت بكرة أو ثيباً. ويقال للرجل الذي لا زوجة له: أيم أيضاً. قال جميل:

أَحِبُّ الْأَيَامَى إِذْ بَثِينَةُ أَيِّمٍ وَأُخْبِنْتُ لَمَّا أَنَّ عَنِينَتِ الْعَوَانِيَا^(١)
وقال الشاعر:

فَإِنْ تَنْكِحِي أَنْكِحِ، وَإِنْ تَتَأَيَّمِي مَدَى الدَّهْرِ مَا لَمْ تَنْكِحِي أَتَأَيِّمُ^(٢)

والفعل منه: آمت المرأة تئيم أيمة وأيوماً. والإنكاح: التزويج، يقال: نكح إذا تزوج، وأنكح غيره: إذا زوجه، والاستغفار والتعفف سواء: وهو طلب العفة واستعمالها. ويقال: رجل عف، وامرأة عفة، والكتاب والمكاتبة: أن يكتب الرجل مملوكه على مال يؤديه إليه، فإذا أذاه عتق، وأصله من الجمع. وكل شيء جمعته إلى شيء فقد كتبه، ومنه الكتاب لتداني بعض حروفه إلى بعض، وهنا قد جمع العبد نجوم المال. وقيل: جمع ماله إلى مال السيد.

● **الإعراب:** أحد مفعولي ﴿وَأَنْكِحُوا﴾ محذوف تقديره: وأنكحوا رجالكم الأياى من نسائكم، أو نساءكم الأياى من رجالكم، وأنكحوا الصالحين من عبادكم إماءكم الصالحات، أو الصالحات من إمائكم عبادكم الصالحين، لأن الأياى يشتمل على الرجال والنساء والصالحين يشتمل عليهما أيضاً. وقوله ﴿يَنْكُرُ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال، ومن للتبيين. وكل موضع يكون من مع معموله والعامل فيه، في محل نصب على الحال، لا يكون إلا كذلك.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه عباده بالنكاح وأغناهم عن السفاح فقال: ﴿وَأَنْكِحُوا آلَيْنِي يَنْكُرُ﴾ ومعناه: زوجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من أحرار رجالكم ونسائكم، وهذا أمر ندب واستحباب، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب فطرتي فليستنَّ بسنتي ومن سنتي النكاح»، وقال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(٣). وروى عطاء بن السائب، عن

(١) الغانية من النساء: الشابة المتزوجة، وجمعها غوان.

(٢) وفي بعض النسخ: «وإن كنت أفتى منكم أتائم» بدل المصراع الأخير.

(٣) الوجاء: رض عروق البيضتين حتى تنفضح، فيكون شبيهاً بالخصاء. شبه الصوم به، لأنه يكسر الشهوة كالوجاء.

سعيد بن جببر، قال: لقيني ابن عباس في حجة حجها فقال: هل تزوجت؟ قلت: لا. قال: فتزوج. قال: ولقيني في العام المقبل، فقال: هل تزوجت؟ قلت: لا. فقال: اذهب فتزوج فإن خير هذه الأمة كان أكثرها نساء. يعني النبي ﷺ. وعن أبي هريرة قال: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد للقيت الله بزوجة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «شراركم عزابكم». وقال ﷺ: «من أدرك له ولد وعنده ما يزوجه، فلم يزوجه، فأحدث فالإثم بينهما»، وعن أبي امامة، عن النبي ﷺ قال: أربع لعنهم الله من فوق عرشه، وأمنت عليه ملائكته: الذي يحصر نفسه فلا يتزوج، ولا يتسرى، لثلا يولد له، والرجل يتشبه بالنساء وقد خلقه الله ذكراً، والمرأة تشبه بالرجال وقد خلقها الله أنثى، ومضلل الناس - يريد الذي يهزأ بهم - يقول للمسكين: هلم أعطك. فإذا جاء يقول: ليس معي شيء، ويقول للمكفوف: اتق الدابة وليس بين يديه شيء. والرجل يسأل عن دار القوم فيضلله. «وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ» أي: وزوجوا المستورين من عبيدكم وولائدكم، وقيل: إن معنى الصلاح ههنا الإيمان، عن مقاتل. ثم رجع إلى الأحرار فقال: «إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ» لا سعة لهم للتزويج «يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» وعدهم سبحانه أن يوسع عليهم عند التزويج «وَاللَّهُ وَاسِعٌ» المقدور كثير الفضل «عَلَيْهِمْ» بأحوالهم وما يصلحهم، فيعطيهم على قدر ذلك. وقال أبو عبد الله ﷺ: من ترك التزويج مخافة العيلة فقد أساء الظن بربه، لقوله سبحانه: «إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ». «وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد السبيل إلى أن يتزوج، بأن لا يجد المهر والنفقة، أن يتعفف ولا يدخل في الفاحشة ويصبر حتى يوسع الله عليه من رزقه. ثم بين سبحانه ما يسهل سبيل النكاح فقال: «وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكَتَابَ» أي: يطلبون المكاتب «مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» من العبيد والإماء «لَكَاتِبُهُمْ» والمكاتب: أن يكتب الإنسان عبده على مال ينجمه عليه، ليؤديه إليه في هذه النجوم المعلومة. وهذا أمر ندب واستحباب وترغيب عند جميع الفقهاء. وقيل: إنه أمر حتمي وإيجاب إذا طلبه العبد، وعلم فيه الخير، عن عطاء وعمر بن دينار والطبري. «إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا» أي: صلاحاً ورشداً، عن ابن عباس، ورؤي عنه أيضاً: إن علمتم فيهم قدرة على الاكتساب لأداء مال الكتابة، ورغبة فيه وأمانة، وهو قول ابن عمر وابن زيد والثوري والزجاج. قال الحسن: إن كان عنده مال فكاتبه، وإلا فلا تعلق عليه صحيفة يغدو بها على الناس، ويروح بها فيسألهم. ورؤي أن عبداً لسلمان قال له: كاتيني. قال: ألك مال؟ قال: لا. قال: تطعمني أوساخ الناس فأبى عليه. وقال قتادة: يكره أن يكتب العبد، ويقول لا يكتبه لثلا يسأل الناس. «وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ» أي: حطوا عنهم من نجوم الكتابة شيئاً، عن ابن عباس وقاتادة وعطاء، وقيل: معناه ردوا عليهم يا معشر السادة من المال الذي أخذتم منهم شيئاً، وهو استحباب، وقيل: هو إيجاب. وقال قوم من المفسرين: إنه خطاب للمؤمنين بمعونتهم على تخليص رقابهم من الرق. ومن قال: إنه خطاب للسادة اختلفوا في قدر ما يجب، فقيل: يتقدر بربع المال، عن الثوري، ورؤي ذلك عن علي ﷺ. وقيل: ليس فيه تقدير بل يحط عنه شيء منه، وهو الصحيح. وقيل: إنه يعطى سهمه من الصدقات في قوله: «وَفِي الرِّقَابِ»، قال الحسن: لولا الكتابة لما جاز له أخذ الصدقة. وقال أصحابنا: إن المكاتبه ضربان: مطلق

سورة النور

ومشروط، فالمشروط أن يقول لعبده في حال الكتابة متى عجزت عن أداء ثمنك كنت مردوداً في الرق، فإذا كان كذلك جاز له رده في الرق عند العجز. والمطلق ينعتق منه عند العجز بحساب ما أدى من المال، ويبقى مملوكاً بحساب ما بقي عليه، ويرث ويورث بحساب ما عتق. ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ﴾ أي: إمائكم وولايكم ﴿عَلَى الْإِغَاءِ﴾ أي: على الزنى ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي: تعففاً وتزويجاً، عن ابن عباس، وإنما شرط إرادة التحصن لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادة التحصن فإن لم ترد، المرأة التحصن، بغت بالطبع، فهذه فائدة الشرط. ﴿لِيَنْتَفَعُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ أي: من كسبهن وبيع أولادهن. قيل: إن عبد الله بن أبي كان له ست جوار يكرههن على الكسب بالزنى. فلما نزل تحريم الزنى أتى رسول الله ﷺ فشكون إليه، فنزلت الآية. ﴿وَمَنْ يَكْرِهَهُنَّ﴾ أي: ومن يجبرهن على الزنى من سادتهن ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ للمكرهات لا للمكره، لأن الوزر عليه ﴿رَجِيمٌ﴾ بهن. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ مُبِينَاتٍ﴾ أي: واضحات ظاهرات، ومن قرأ بفتح الباء فمعناه: مفصلات بينهن الله وفصلهن ﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ﴾ وأخباراً من الذين مضوا من قبلكم، وقصصاً لهم وشبهاً من حالهم بحالكم، لتعتبروا بها ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وزجراً للمتقين عن المعاصي، وخصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بها.



قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ في يُوْتِ إِذْنَ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٢٦﴾ رِجَالٌ لَا لُئْلُمِهِمْ تَحِيَّةٌ وَلَا يُعْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٢٧﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٨﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن كثير ويعقوب: «كوكب دري» مضمومة الدال مشددة الياء، «توقد» بفتح التاء والدال وتشديد القاف. وقرأ أبو عمرو: «ودري» مكسورة الدال ممدودة مهموزة، «توقد» كما تقدم، وقرأ الكسائي: «دري» مكسورة الدال ممدودة مهموزة، «توقد» بضم التاء والتخفيف والرفع. وقرأ نافع وابن عامر وحفص: «دري» غير مهموزة، «توقد» بضم الياء والرفع. وقرأ أبو بكر وحمزة: «دري» مضمومة الدال مهموزة ممدودة، «توقد» بضم التاء وتخفيف القاف، وقرأ خلف: «دري» مضمومة الدال غير مهموزة، «توقد» بضم التاء والتخفيف، وقرأ ابن عامر وأبو بكر: «يسبح له فيها» بفتح الباء، والباقون بكسرها.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ «دري» يحتمل قوله أمرين:

أحدهما: أن يكون نسبة إلى الدر لفرط صفائه ونوره. ويجوز أن يكون فُعَيْلاً من الدَّريء فخففت الهمزة فانقلبت ياء، كما تنقلب من النسيء والنبىء. ومن قال «دُرِيء» كان فُعَيْلاً من الدرء، مثل السُّكير والفسِّيق، والمعنى: أن الخفاء اندفع عنه لتلألؤه في ظهوره، فلم يخف كما يخفى السهي ونحوه. ومن قرأ «دُرِيء» كان فُعَيْلاً من الدَّرء الذي هو الدفع. وقد حكى سيبويه عن أبي الخطاب: «كوكب دُرِيء» من الصفات، ومن الأسماء المُرَيِّق للعضف ومما يمكن أن يكون على هذا البناء العُلْيَة ألا تراه أنه من علا، ومنه السُّرْيَة الأولى أن تكون فعلية، ومن قرأ «تَوَقَّد» كان فاعله المصباح، لأن المصباح هو الذي توقد. قال امرؤ القيس:

سَمَوْتُ إِلَيْهَا وَالنَّجُومُ كَأَنَّهَا مَصَابِيحُ زُهَبَانِ تُشَبُّ لِقُفَالٍ^(١)

ومن قرأ «يوقد»: كان فاعله المصباح أيضاً. ومن قرأ «تَوَقَّد»: كان فاعله الزجاجية. والمعنى: على مصباح الزجاجية. فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، فقال: «توقد» فحمل الكلام على لفظ الزجاجية، أو يريد بالزجاجية القنديل. فقال: «توقد» على لفظ الزجاجية وإن كان يريد القنديل، ومعنى «توقد من شجرة» أي: من زيت شجرة، فحذف المضاف. يدلك على ذلك قوله: «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ». ومن قرأ: «يسبح له» بفتح الباء، أقام الجار والمجرور مقام الفاعل، ثم فسر من يسبح فقال: رجال، أي: يسبح له رجال، فرفع رجالاً بهذا المضمرة الذي دل عليه قوله: «يسبح» لأنه إذا قال: «يسبح» دل على فاعل التسبيح. ومثله قول الشاعر:

لَيْسَ بِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِفُ^(٢)

● **اللغة:** المشكاة، قيل: إنها رومية معربة. وقال الزجاج: يجوز أن تكون عربية لأن في الكلام مثل لفظها شكوة، وهي قربة صغيرة. فعلى هذا تكون بفعلتها منها، وأصلها مشكوة، فقلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، والمصباح: السراج، وأصله من البياض. والأصبح: الأبيض.

● **الإعراب:** قيل في تقدير قوله: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَجِهَانِ»:

أحدهما: أن يكون على حذف المضاف، وتقديره: ذو نور السماوات والأرض، على حد قوله: «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٌ فَلَا».

والثاني: أن يكون مصدراً وضع موضع اسم الفاعل، كقوله: «إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكَ غَوًّا» أي: غائراً وكما قالت الخنساء:

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا أَذْكَرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِذْبَارُ^(٣)

وعلى هذا تكون الإضافة غير حقيقية. و«السَّمَوَاتِ» في تقدير النصب، «فِيهَا مِصْبَاحٌ»:

(١) شب النار: أوقدها. والقفال: المسافرون.

(٢) الشعر في (جامع الشواهد)، وكذا الشعر الآتي. وقد مر في الكتاب أيضاً غير مرة.

(٣) مر بمعناه في ما سبق.

سورة النور

جملة في موضع الجر لأنها صفة مشكاة. ﴿الْيَصْبَاحُ فِي زُجَاجٍ﴾ جملة في موضع رفع بأنها صفة مصباح، والعائد منها إليه، لام العهد، تقديره: فيها مصباح ذلك المصباح في زجاجة، أو: هو في زجاجة. ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾: الجملة في موضع جر بأنها صفة زجاجة، وقوله ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل من شجرة، والباقي صفة. ﴿نُورٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هو نور على نور متعلق بمحذوف في موضع رفع بكونه صفة نور. ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ يتعلق بمحذوف وفي موضع جر بكونه صفة لمشكاة. فانتقل الضمير من المحذوف إليه، حيث سد مسده. ﴿يَغْيَرُ حَسَابٍ﴾ في موضع نصب بكونه صفة لمفعول محذوف، وتقديره: يرزق من يشاء رزقاً بغير حساب، أي: غير محسوب.

● **المعنى:** ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: الله هادي أهل السماوات والأرض إلى ما فيه من مصالحهم، عن ابن عباس.
والثاني: الله منور السماوات والأرض، بالشمس والقمر والنجوم، عن الحسن وأبي عالية والضحاك.

والثالث: مزين السماوات بالملائكة، مزين الأرض بالأنبياء والعلماء، عن أبي بن كعب.
وإنما ورد النور في صفة الله تعالى لأن كل نفع وإحسان وإنعام منه. وهذا كما يقال: فلان رحمة، وفلان عذاب: إذا كثر فعل ذلك منه. وعلى هذا قول الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَا نُورُ قَوْمٍ وَإِنَّمَا يُبَيِّنُ فِي الظُّلُمَاءِ لِلنَّاسِ نُورُهَا

وإنما المعنى: إنا نسعى فيما ينفعهم، ومنا خيرهم. وكذا قول أبي طالب في مدح النبي ﷺ:

وَأَبْيَضُ يُسْتَشْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ
يَلُودُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَقَوَاضِلِ

لم يعن بقوله: أبيض، بياض لونه، وإنما أراد كثرة أفضاله وإحسانه ونفعه، والاهتداء به.
ولهذا المعنى سماه الله تعالى سراجاً منيراً. ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ فيه وجوه:

أحدها: أن المعنى مثل نور الله الذي هدى به المؤمنين، وهو الإيمان في قلوبهم، عن أبي بن كعب والضحاك، وكان أبي يقرأ: مثل نور من آمن به.

والثاني: مثل نوره الذي هو القرآن في القلب، عن ابن عباس والحسن وزيد بن أسلم.

والثالث: أنه عنى بالنور محمد ﷺ، وأضافه إلى نفسه تشريفاً له، عن كعب وسعيد بن جبير، فالمعنى: مثل محمد رسول الله ﷺ.

والرابع: أن نوره سبحانه الأدلة الدالة على توحيده وعدله، التي هي في الظهور والوضوح مثل النور، عن أبي مسلم.

والخامس: أن النور هنا الطاعة، أي: مثل طاعة الله في قلب المؤمن، عن ابن عباس في

رواية أخرى. ﴿كَيْفَ كَوَّرَ فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ المشكاة: هي الكوة في الحائط يوضع عليها زجاجة، ثم يكون المصباح خلف تلك الزجاجة، ويكون للكوة باب آخر يوضع المصباح فيه. وقيل: المشكاة عمود القنديل الذي فيه الفتيلة، وهو مثل الكوة، والمصباح: السراج، وقيل: المشكاة القنديل، والمصباح الفتيلة، عن مجاهد ﴿الْمَصْبَاحُ فِي تِلْكَ السَّراجِ﴾ أي: ذلك السراج في زجاجة. وفائدة اختصاص الزجاجة بالذكر أنه أصفى الجواهر فالمصباح فيه أضوأ ﴿الزَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي: تلك الزجاجة مثل الكوكب العظيم المضيء الذي يشبه الدر في صفائه ونوره ونقاته، وإذا جعلته من الدرء وهو الدفع، فمعناه: المندفع السريع الوقع في الانقضا، ويكون ذلك أقوى لضوئه. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرٍ مُبَارَكٍ﴾ أي: يشتعل ذلك السراج من دهن شجرة مباركة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ أراد بالشجرة المباركة شجرة الزيتون، لأن فيها أنواع المنافع فإن الزيت يسرج به، وهو إدام ودهان ودباغ، ويوقد بحطبه وثقله، ويغسل برماده الإبريسم، ولا يحتاج في استخراج دهنه إلى إعصار. وقيل: إنه خص الزيتون لأن دهنها أصفى وأضوأ. وقيل: لأنها أول شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان، ومنبتها منزل الأنبياء. وقيل: لأنه بارك فيها سبعون نبياً، منهم إبراهيم، فلذلك سُميت مباركة. ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ أي: لا يفيء عليها ظل شرق ولا غرب، فهي ضاحية للشمس لا يظللها جبل ولا شجر ولا كهف، فزيتها يكون أصفى، عن ابن عباس والكلبي وعكرمة وقتادة. فعلى هذا يكون المعنى: أنها ليست بشرقية لا تصيبها الشمس إذا هي غربت، ولا هي غربية لا تصيبها الشمس إذا طلعت، بل هي شرقية غربية أخذت بحفظها من الأمرين. وقيل: معناه أنها ليست من شجر الدنيا فتكون شرقية أو غربية، عن الحسن، وقيل: معناه أنها ليست في مقنوة لا تصيبها الشمس بل هي بارزة للشمس، لا يصيبها الظل بل يصيبها الشمس والظل، عن السدي. وقيل: ليست من شجر الشرق ولا من شجر الغرب، لأن ما اختص بإحدى الجهتين كان أقل زيتاً، وأضعف ضوءاً، لكنها من شجر الشام، وهي ما بين الشرق والغرب، عن ابن زيد. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ﴾ من صفائه وفرط ضيائه ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: قبل أن تصيبه النار وتشتعل فيه. واختلف في هذا المشبه والمشبه به على أقوال:

أحدها: أنه مثلُ ضربه الله لنبيه محمد ﷺ، فالمشكاة صدره، والزجاجة قلبه، والمصباح فيه النبوة، لا شرقية ولا غربية، أي: لا يهودية ولا نصرانية، توقد من شجرة مباركة، يعني شجرة النبوة وهي إبراهيم عليه السلام، يكاد نور محمد ﷺ يبين للناس، ولو لم يتكلم به، كما أن ذلك الزيت يكاد يضيء ولو لم تمسه نار أي: تصبه النار، عن كعب وجماعة من المفسرين. وقد قيل أيضاً: إن المشكاة إبراهيم، والزجاجة إسماعيل، والمصباح محمد ﷺ، كما سُمي سراجاً في موضع آخر. من شجرة مباركة: يعني إبراهيم، لأن أكثر الأنبياء من صلبه. لا شرقية ولا غربية: لا نصرانية ولا يهودية، لأن النصراني تصلي إلى المشرق، واليهود تصلي إلى المغرب. يكاد زيتها يضيء أي: تكاد محاسن محمد ﷺ تظهر قبل أن يوحى إليه، ﴿تُورُّ عَلَى نُورٍ﴾ أي: نبي، من نسل نبي، عن محمد بن كعب، وقيل: إن المشكاة عبد المطلب، والزجاجة عبد الله، والمصباح هو النبي ﷺ، لا شرقية ولا غربية، بل مكية، لأن مكة وسط الدنيا، عن الضحاك. ورؤي عن الرضا عليه السلام أنه قال: نحن المشكاة فيها، والمصباح

سورة النور

محمد ﷺ يهدي الله لولايتنا من أحب. وفي كتاب التوحيد لأبي جعفر بن بابويه، رحمه الله، بالإسناد عن عيسى بن راشد، عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في قوله: ﴿كَيْشْكُورٌ فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ قال: نور العلم في صدر النبي ﷺ المصباح في زجاجة، الزجاجة صدر علي (عليه السلام)، صار علم النبي ﷺ إلى صدر علي، علم النبي علياً، يوقد من شجرة مباركة نور العلم، لا شرقية ولا غربية، لا يهودية ولا نصرانية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. قال: يكاد العالم من آل محمد ﷺ يتكلم بالعلم قبل أن يسأل. نور على نور أي: إمام مؤيد بنور العلم والحكمة، في إثر إمام من آل محمد ﷺ، وذلك من لدن آدم (عليه السلام) إلى أن تقوم الساعة. فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله خلفاء في أرضه وحججه على خلقه، لا تخلو الأرض في كل عصر من واحد منهم، ويدل عليه قول أبي طالب في رسول الله ﷺ:

أَنْتَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ قَزَمَ أَغْرُ مُسَوْدُ
لِمُسَوْدَيْنِ أَطَاهِرٍ كَرُمُوا وَطَابَ الْمَوْلُدُ
أَنْتَ السَّعِيدُ مِنَ السُّعُودِ تَكُنْ فَتُكْ الْأَسْعَدُ
مَنْ لَدُنْ آدَمَ لَمْ يَزَلْ فِينَا وَصِيٌّ مُرْشِدُ
وَلَقَدْ عَرَفْتُكَ صَادِقاً وَالْقَوْلُ لَا يَتَفُؤْدُ
مَا زِلْتَ تَنْطِقُ بِالْصُّوَابِ وَأَنْتَ طِفْلٌ أَمْرَدُ

تحقيق هذه الجملة يقتضي: أن الشجرة المباركة المذكورة في الآية، هي دوحة النقي والرضوان، وعرة الهدى والإيمان، شجرة أصلها النبوة، وفرعها الإمامة، وأغصانها التنزيل، وأوراقها التأويل، وخدمها جبرائيل وميكائيل.

وثانيها: أنه مثل ضربه الله للمؤمن، والمشكاة نفسه والزجاجة صدره، والمصباح الإيمان، والقرآن في قلبه، يوقد من شجرة مباركة هي الإخلاص لله وحده لا شريك له، فهي خضراء ناعمة كشجرة التفّ بها الشجر، فلا تصيبها الشمس على أي حال كانت، لا إذا طلعت، ولا إذا غربت، وكذلك المؤمن قد احترز من أن يصيبه شيء من الفتر، فهو بين أربع خلال: إن أعطي شكر وإن ابتلي صبر، وإن حكم عدل، وإن قال صدق، فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي بين القبور، نور على نور، كلامه نور وعلمه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور مصيره إلى الجنة نور يوم القيامة، عن أبي بن كعب.

وثالثها: أنه مثل القرآن في قلب المؤمن، فكما أن هذا المصباح يستضاء به، وهو كما هو لا ينقص، فكذلك القرآن يهتدى به ويعمل به، فالمصباح هو القرآن، والزجاجة قلب المؤمن، والمشكاة لسانه وفمه، والشجرة المباركة شجرة الوحي، يكاد زيتها يضيء، تكاد حجج القرآن تتضح وإن لم تقرأ. وقيل: تكاد حجج الله على خلقه تضيء لمن تفكر فيها وتدبرها، ولو لم ينزل القرآن. نور على نور: يعني أن القرآن نور مع سائر الأدلة قبله، فازدادوا به نوراً على نور، عن الحسن وابن زيد. وعلى هذا فيجوز أن يكون المراد ترتب الأدلة، فإن الدلائل يترتب بعضها على بعض ولا يكاد العاقل يستفيد منها إلا بمراعاة الترتيب، فمن ذهب عن الترتيب فقد

ذهب عن طريق الاستفادة. وقال مجاهد: ضوء نور السراج، على ضوء الزيت، على ضوء الزجاجة. ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يهدي الله لدينه وإيمانه من يشاء، بأن يفعل له لطفاً يختار عنده الإيمان إذا علم أن له لطفاً. وقيل: معناه يهدي الله لنبوته وولايته من يشاء ممن يعلم أنه يصلح لذلك، ويضرب الله الأمثال للناس تقريباً إلى الأفهام، وتسهيلاً لدرك المرام. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيضع الأشياء مواضعها ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَن تَرَفَعَ﴾ معناه: هذه المشكاة في بيوت هذه صفتها، وهي المساجد في قول ابن عباس والحسن ومجاهد والجبائي، ويعضده قول النبي ﷺ: «المساجد بيوت الله في الأرض، وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض». ثم قيل: إنها أربعة مساجد لم بينها إلا نبي: الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل، ومسجد بيت المقدس بناه سليمان، ومسجد المدينة ومسجد قبا بناهما رسول الله ﷺ. وقيل: هي بيوت الأنبياء. ورؤي ذلك مرفوعاً أنه سئل النبي ﷺ لما قرأ الآية: أي بيوت هذه؟ فقال: بيوت الأنبياء، فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت منها يعني بيت علي وفاطمة. قال نعم من أفاضلها. ويعضد هذا القول قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وقوله: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ بِرَبِّكَ عَلَيْهِ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾، فالإذن برفع بيوت الأنبياء والأوصياء مطلق. والمراد بالرفع التعظيم ورفع القدر من الأرجاس، والتطهير من المعاصي والأدناس. وقيل: المراد برفعها رفع الحوائج فيها إلى الله تعالى. ﴿وَيَذْكُرُ فِيهَا أَسْمُهُمْ﴾ أي: يتلى فيها كتابه، عن ابن عباس، وقيل: تذكر فيها أسماؤه الحسنی ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: يصلي فيها بالبكور والعشايا، عن ابن عباس والحسن والضحاك، وقال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن صلاة. وقيل: المراد بالتسبيح تنزيه الله تعالى عما لا يجوز عليه، ووصفه بالصفات التي يستحقها لذاته، وأفعاله التي كلها حكمة وصواب. ثم بين سبحانه المسبح فقال: ﴿رَبِّجَالٍ لَا تُلْهِيمُهُمْ﴾ أي: لا تشغلهم ولا تصرفهم ﴿تَحَرُّوْا وَلَا يَبِيعْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَقَالُوا صَلَّوْا﴾ أي: إقامة الصلاة، حذف الهاء لأنها عوض عن الواو في أقوام، فلما أضافه صار المضاف إليه عوضاً عن الهاء. ورؤي عن أبي جعفر ﷺ وأبي عبد الله ﷺ أنهم قوم إذا حضرت الصلاة تركوا التجارة، وانطلقوا إلى الصلاة، وهم أعظم أجراً ممن يتجر. ﴿وَأَيَّاتِ الزَّكَاةِ﴾ أي: إخلاص الطاعة لله تعالى، عن ابن عباس، وقيل: يريد الزكاة المفروضة، عن الحسن. ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ أراد يوم القيامة تتقلب فيه أحوال القلوب والأبصار، وتنتقل من حال إلى حال فتلفحها النار ثم تنضجها ثم تحرقها، عن الجبائي، وقيل: تتقلب فيه القلوب بين الطمع في النجاة، والخوف من الهلاك، وتقلب الأبصار يمنة ويسرة، من أين تؤتى كتبهم وأين يؤخذ بهم، أمن قبل اليمين أم من قبل الشمال، وقيل: تتقلب القلوب ببلوغها الحناجر، والأبصار بالعمى بعد البصر. وقيل: معناه تنتقل القلوب عن الشك إلى اليقين والإيمان، والأبصار عما كانت تراه غياً فتراه رشداً. فمن كان شاكاً في دنياه أبصر في آخرته، ومن كان عالماً ازداد بصيرة وعلماً، فهو مثل قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَفَرَّقَكَ الْيَوْمَ حَبِيدٌ﴾ عن البلخي. ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَرْبِّدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ أي: يفعلون ذلك طلباً لمجازاة الله إياهم بأحسن ما عملوا، ولتفضله عليهم بالزيادة على ما استحقوه بأعمالهم من

فضله وكرمه ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ﴾ أي: يعطي ﴿مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير مجازاة على عمل، بل تفضلاً منه سبحانه. والثواب لا يكون إلا بحساب، والتفضل يكون بغير حساب.

● **النظم:** اتصلت الآية الأولى بما قبلها اتصال المثل بالمثل، لأنه تعالى لما بين وجوه المنافع والمصالح وعلم الشرائع فيما سبق، بين بعده أن منافع أهل السماوات والأرض منه، لأن اسم النور يطلق على ذلك، كما تقدم بيانه، وقيل: إنها اتصلت بما قبلها اتصال العلة بالمعلول، فكأنه قال: أنزلنا آيات بينات ومواعظ بالغات فهديناكم لأننا نهدي أهل السماوات والأرض. واتصل قوله ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ بقوله ﴿كَيْتُكَوْفٍ فِيهَا مَصْبُوحٌ﴾ على ما تقدم بيانه. وقيل: يتصل بيسبح، ويكون فيها تكرير على التوكيد، والمعنى: يسبح لله رجال في بيوت أذن الله أن ترفع، فيكون كقولك: في الدار قام زيد فيها.



قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَتْهُمْ كَسْرًا بَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّالِمَانُ مَاءً حَلًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُ لَمْ يَكْدِ بِرَنَّهُا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير في رواية البري: «سحاب» بغير تنوين، «ظلمات» بالجر. وفي رواية القواس وابن فليح: «سحاب» بالتنوين، «ظلمات» بالجر. والباقون كلاهما بالرفع والتنوين.

● **الحجة:** قال أبو علي: قوله «أو كظلمات» معناه: أو كذي ظلمات. ويدل على حذف المضاف قوله: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُ لَمْ يَكْدِ بِرَنَّهُا﴾، فالضمير الذي أضيف إليه ﴿يَكْدُ﴾، يعود إلى المضاف المحذوف، ومعنى ذي ظلمات، أنه في ظلمات، ومعنى ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمة البحر، وظلمة الموج. وظلمة الموج الذي في الموج، وقوله: ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾، فإنه يجوز أن يكون ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة. وقوله: ﴿فَتَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ ظِلْمَةُ الْبَحْرِ، وظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل. ويجوز أن يكون الالتقام كان بالليل، فهذه ظلمات. ومن قرأ: «سحاب ظلمات» فرفع ظلمات، كان خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه ظلمات بعضها فوق بعض. ومن قرأ «سحاب ظلمات»، جاز أن يكون تكريراً وبدلاً من ظلمات الأولى. ومن قرأ: «سحاب ظلمات» بإضافة سحاب إلى الظلمات، فالظلمات هي الظلمات التي تقدم ذكرها، فأضاف السحاب إلى الظلمات لاستقلال السحاب وارتفاعه في وقت كون هذه الظلمات، كما تقول سحاب رحمة وسحاب مطر، إذا ارتفع في الوقت الذي يكون فيه الرحمة والمطر.

● **اللغة:** السراب: شعاع يتخيل كالماء، يجري على الأرض نصف النهار حين يشتد الحر، والآل: شعاع يرتفع بين السماء والأرض كالماء ضحوة النهار. والآل: يرفع الشخص الذي فيه. وإنما قيل سراب لأنه ينسرب أي: يجري كالماء. وقية: جمع قاع وهو الواسع من

الأرض المنبسطة، وفيه يكون السراب. ولجة البحر: معظمه الذي يتراب أمواجه، فلا يرى ساحله. والتج البحر التجاجاً.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه مثل الكفار فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا﴾ التي يعملونها ويعتقدون أنها طاعات ﴿كَرَامٍ بَقِيَّةٍ﴾ أي: كشعاع بأرض مستوية ﴿يَحْسَبُ الظَّالِمَانُ مَاءً﴾ أي: يظنه العطشان ماء ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَوْ يَجِدُهُ شَيْئًا﴾ أي: حتى إذا انتهى إليه رأى أرضاً لا ماء فيها، وهو قوله: ﴿لَوْ يَجِدُهُ شَيْئًا﴾ أي: شيئاً مما حسب وقدر، فكذلك الكافر يحسب ما قدم من علمه نافعاً، وأن له عليه ثواباً، ليس له ثواب، ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا﴾ قيل: معناه ووجد الله عند عمله فجازاه على كفره، وهذا في الظاهر خبر عن الظمان، والمراد به: الخبر عن الكفار. ولكن لما ضرب الظمان مثلاً للكفار جعل الخبر عنه كالخبر عنهم، والمعنى: وجد أمر الله ووجد جزاء الله. وقيل: معناه وجد الله عنده بالمرصاد فأتى له جزاءه. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب فيحاسب الجميع على أفعالهم في حالة واحدة. وسئل أمير المؤمنين (عليه السلام): كيف يحاسبهم في حالة واحدة؟ فقال: كما يرزقهم في حالة واحدة. وقيل: إن المراد به عتبة بن ربيعة، كان يلتبس الدين في الجاهلية، ثم كفر في الإسلام، عن مقاتل، ثم ذكر مثلاً آخر لأعمالهم فقال: ﴿أَوْ كَظَلَمْتِ﴾ أي: أو أفعالهم مثل ظلمات ﴿فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ﴾ أي: عظيم اللجة لا يرى ساحله، وقيل: هو العميق الذي يبعد عمقه، عن ابن عباس ﴿يَقْسِنُهُ مَوْجٌ﴾ أي: يعلو ذلك البحر اللجي موج ﴿مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أي: فوق ذلك الموج موج ﴿مِنْ فَوْقِهِ سَكَابٌ﴾ أي: من فوق الموج سحاب ﴿ظَلَمْتُ بَعْضًا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ يعني ظلمة البحر وظلمة الموج، وظلمة السحاب، والمعنى: أن الكافر يعمل في حيرة، ولا يهتدي لرشده، فهو من جهله وحيرته كمن هو في هذه الظلمات، لأنه من عمله وكلامه واعتقاده متقلب في ظلمات. ورؤي عن أبي أنه قال: إن الكافر يتقلب في خمس ظلمات: كلامه ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمة، وهي النار. ﴿إِذَا أُخْرِجَ بِكَدِّ لَوْ يَكْدُ رِيثًا﴾ اختلف في معناه فقيل: لا يراها ولا يقارب رؤيتها فهو نفي للرؤية ونفي مقارنة الرؤية، لأن دون هذه الظلمة لا يرى فيها، عن الحسن، وأكثر المفسرين. ويدل عليه قول ذي الرمة:

إذا غير النأي المُحبِّينَ لَمْ يَكْدُ عَلَى كُلِّ حَالٍ حُبُّ مَيَّةٍ يَنْرَحُ^(١)

ويروي: «رئيس الهوى من حب مية يبرح». وقال آخر: «ما كدت أعرف إلا بعد إنكاري» وقال الفراء: كاد صلة، والمعنى: أنه لم يراها، وقيل: لا يراها إلا بعد جهد ومشقة رؤية تخيل لصورتها، لأن حكم كاد إذا لم يدخل عليها حرف نفي، أن تكون نافية وإذا دخلها دلت على أن يكون الأمر وقع بعد بطاء، عن المبرد. ﴿وَمَنْ لَّزَّ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ أي: من لم يجعل الله له نجاة وفرجاً، فما له من نجاة، وقيل: من لم يجعل الله له نوراً في القيامة، فما له من نور.



(١) مية: اسم محبوبة ذي الرمة. والنأي: البعد. يقول: إن العشاق إذا بعدوا عن محبون، زالت المحبة عنهم. وأما أنا فعلى كل حال لا يزول حبها عن قلبي. ورئيس الهوى على الرواية الثانية: مسه وأثره وبقيته.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَقَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَفَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: «يذهب بالأبصار» بضم الباء وكسر الهاء، والباقون: «يذهب».

● **الحجة:** من قرأ «يذهب» فالباء زائدة، وتقديره: يذهب الأبصار، ومثله قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. وقول الهذلي:

شَرِبْنَا بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَعْنَا مَتَى لَجَجَ خُضْرٍ لَهُنَّ نَثِيحٌ^(١)

أي: شربنا ماء البحر. قال ابن جني: إنما يزداد هذا الباء لتوكيد معنى التعدي، كما يزداد اللام لتوكيد معنى الإضافة في قوله: «يابوس للحرب ضراراً لأقوام»، وإن شئت حملته على المعنى، فكأنه قال: يكاد سنا برقه يلوي بالأبصار أي: يستأثر بالأبصار، وقد ذكرنا اختلافهم في قوله: ﴿خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ فيه، والوجه في سورة إبراهيم.

● **اللغة:** الإزجاء والتزجية: الدفع والسوق. وزجا الخراج يزجو زجاء: إذا انساق إلى أهله وتيسر جبايته. والركام: المتراكم بعضه على بعض، والركمة: الطين المجموع. والودق: المطر، ودقت السماء تدق ودقاً: إذا أمطرت، قال الشاعر:

فَلا مُزْنَةً وَدَقَّتْ وَدَقَّتْهَا وَلَا أَرْضُ أَبْقَلَ أَبْقَالَهَا^(٢)

والخلال: جمع الخلل وهو الفرجة بين الشيئين، والبرد: أصله من البرد خلاف الحر. وسحاب برد: أتى بالبرد، ويقال: سمي البرد لأنه يبرد وجه الأرض أي: يقشره من بردت الشيء بالمبرد. والسنا مقصوراً: الضوء وهو بالمد: الرفعة.

● **الإعراب:** ﴿صَفَقَاتٍ﴾ حال من ﴿وَالطَّيْرِ﴾، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾: من لا ابتداء الغاية لأن السماء مبدأ لإنزال المطر. ﴿مِنْ جِبَالٍ﴾: من للتبعية لأن البرد بعض الجبال التي في السماء.

(١) لجج: جمع لجة، وهي في الأصل معظم الماء. وأراد لجج البحر. «نتيح»: مأخوذ من قولهم ناج: إذا مرت مرأً سريعاً، يصف السحاب.

(٢) قائله: عامر بن جوين الطائي. والمزنة: السحابة البيضاء. وأبقلت الأرض: خرج بقلها.

و﴿مِنْ بَرٍّ﴾ من لتبيين الجنس لأن جنس الجبال جنس البرد، عن علي بن عيسى، والتحقيق: أن قوله ﴿مِنْ جِبَالٍ﴾ بدل من قوله ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾، وقوله ﴿فِيهَا﴾ في يتعلق بمحذوف وتقديره: من جبال كائنة في السماء. فالجار والمجرور في موضع الصفة لجبال، تقديره: من جبال سماوية. وقوله ﴿مِنْ بَرٍّ﴾ يتعلق بمحذوف آخر في محل جر، لأنه صفة بعد صفة، تقديره: من جبال سماوية بردية، ومفعول ﴿يُنْزَلُ﴾ محذوف أي: ينزل من جبال في السماء من برد برداً، كما يقال: أخذت من المال شيئاً. وقوله: ﴿عَلَى بَطْنَيْهِ﴾ في موضع نصب على الحال، وكذلك قوله: ﴿عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ و﴿عَلَى أَرْبَعٍ﴾ ومن الأولى والثالثة بمعنى ما.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه الآيات التي جعلها نوراً للعقلاء العارفين بالله وصفاته، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم يا محمد لأن ما ذكر في الآية لا يرى بالأبصار وإنما يعلم بالأدلة، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد به جميع المكلفين ﴿أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والتسبيح: التنزيه لله تعالى عما لا يجوز عليه ولا يليق به، أي: ينزهه أهل السماوات وأهل الأرض بالسنتهم، وقيل: عنى به العقلاء وغيرهم، وكفى عن الجميع بلفظة ﴿نَنْ﴾ تغلياً للعقلاء على غيرهم. ﴿وَالطَّيْرِ﴾ أي: ويسبح له الطير ﴿صَلَاتٍ﴾ أي: واقفات في الجو مصطفات الأجنحة في الهواء، وتسبيحها: ما يرى عليها من آثار الحدوث. ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ معناه: أن جميع ذلك قد علم الله تعالى دعاءه إلى توحيده وتسبيحه وتنزيهه، وقيل: إن الصلاة للإنسان، والتسبيح لكل شيء، عن مجاهد وجماعة. وقيل: معناه كل واحد منهم قد علم صلاته وتسبيحه، أي: صلاة نفسه وتسبيح نفسه، فيؤديه في وقته، فيكون الضمير في علم الكل، وفي الأول يعود الضمير إلى اسم الله تعالى وهو أجود، لأن الأشياء كلها لا يعلم كيفية دلالتها على الله، وإنما يعلم الله تعالى ذلك. ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: عالم بأفعالهم فيجازيهم بحسبها ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والملك: المقدور الواسع لمن يملك السياسة والتدبير. فملك السماوات والأرض لا يصح إلا لله وحده لأنه القادر على الأجسام لا يقدر على خلقها غيره. فالملك التام لا يصح إلا له سبحانه. ﴿وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع يوم القيامة. ثم قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي السَّحَابَ﴾ أي: يسوقه سوقاً رقيقاً إلى حيث يريد. ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يضم بعضه إلى بعض، فيجعل القطع المتفرقة منه قطعة واحدة ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رِجَالاً﴾ أي: متراكماً متراكباً بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: ترى المطر والقطر يخرج من خلال السحاب، أي: مخارج القطر منه. ﴿وَيُنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرٍّ﴾ أي: وينزل من جبال في السماء تلك الجبال من برد برداً. والسحاب السحاب، لأن كل ما علا مطبقاً فهو سماء. ويجوز أن يكون البرد يجتمع في السحاب كالجبال، ثم ينزل منها، عن البلخي وغيره. وقيل: معناه وينزل من السماء مقدار جبال من برد، كما يقول: عندي بيتان من تبن أي: قدر بيتين، عن الفراء. وقيل: أراد السماء المعروفة فيها جبال من برد مخلوقة، عن الحسن والجاني. ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بالبرد، أي: بضره ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ فيهلك زرع وماله ﴿وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: ويصرف ضرره عن من يشاء فيكون إصابته نعمة وصرفه نعمة و﴿يَكَادُ سَنَاقُ بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ أي: يقرب ضوء برق السحاب من أن

يذهب بالبصر، ويخطفه لشدة لمعانه، كما قال: ﴿يَكَاذِبُونَ يُخَفِّفُ أَبْصَارَهُمْ﴾، ﴿يَغِيبُ اللَّهُ أَلِيلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: يصرفهما في اختلافهما وتعاقبهما، وإدخال أحدهما في الآخر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التقلب ﴿وَصَرَّةً﴾ أي: دلالة ﴿لَأَوَّلِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: لذوي العقول والبصائر. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ أي: كل حيوان يدب على وجه الأرض، ولا يدخل فيه الجن والملائكة ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ أي: من نطفة، وقيل: عنى به الماء لأن أصل الخلق من الماء، لأن الله خلق الماء وجعل بعضه ناراً فخلق الجن منها، وبعضه ريحاً فخلق منه الملائكة، وبعضه طيناً فخلق منه آدم ﷺ. فأصل الحيوان كله الماء، ويدل عليه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالحية والحوث والدود ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالأنس والطير ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام والوحوش والسباع. ولم يذكر ما يمشي على أكثر من أربع، لأنه كالذي يمشي على أربع في رأي العين فترك ذكره، لأن العبرة تكفي بذكر الأربع. قال البلخي: إن الفلاسفة تقول: كل ما له قوائم كثيرة فإن اعتماده إذا سعى على أربعة قوائم فقط، وقال أبو جعفر ﷺ: ومنهم من يمشي على أكثر من ذلك. ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يخترع ما يشاء وينشئه من الحيوان وغيره، وقال المبرد: قوله ﴿كُلَّ دَابَّةٍ﴾ للناس وغيرهم. وإذا اختلط النوعان حمل الكلام على الأغلب. فلذلك قال: ﴿مَنْ﴾ لغير ما يعقل. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يخلق هذه الأشياء لقدرته عليها. فاختلف هذه الحيوانات مع اتفاق أصلها، يدل على أن لها قادراً خالقاً، عالماً حكيماً. ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا بُيُوتًا﴾ أي: دلالات واضحات بينات ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: من جملة تلك الدواب، وعنى به المكلفين دون من ليس بمكلف. والصراط المستقيم: الإيمان، لأنه يؤدي إلى الجنة. وقيل: إن المراد يهدي في الآخرة إلى طريق الجنة.



قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢).

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وقالون عن نافع ويعقوب: «ويتقه» بكسر القاف والهاء مكسورة مختلصة غير مشبعة. وقرأ أبو عمرو وحزمة في رواية العجلي وخلاّد وأبو بكر في رواية حماد ويحيى: «ويتَّقه» بكسر القاف وسكون الهاء، وقرأ حفص: «ويتَّقَه» بسكون القاف وكسر الهاء غير مشبعة، والباقون: «يتَّقِه» بكسر القاف والهاء مشبعة. وروي عن علي ﷺ أنه قرأ: «قول المؤمنين بالرفع، وهو قراءة الحسن بخلاف ابن أبي إسحاق، وهو مثل قراءة من قرأ «فما كان جواب قومه»

بالرفع، وقد ذكرنا الوجه فيه. وقرأ أبو جعفر وحده: «لِيُخَكِّمَ بَيْنَهُمْ» بضم الياء وفتح الكاف في الموضعين، وفي البقرة وآل عمران مثل ذلك، وقد ذكرناه هناك.

● **الحجة:** قال أبو علي: الوجه «ويثقه» موصولة بياء، لأن ما قبل الهاء متحرك. ومن قرأ «وَيَثْقِيهِ» لا يبلغ بها الياء، فالوجه فيه: أن الحركة غير لازمة قبل الهاء، ألا ترى أن الفعل إذا رفع دخلته الياء. ومن قرأ: «ويثقه» بسكون الهاء، فلأن ما يتبع هذه الهاء من الياء والواو زيادة، فرد إلى الأصل، وحذف ما يلحقه من الزيادة. ويقوي ذلك ما حكي عن سيبويه أنه سمع من يقول: هذه أمة الله، في الوصل والوقف. وزعم أبو الحسن أن قوله: «له أَرْقَانِ»^(١) ونحوه، لغة يجرونها في الوصل مجراها في الوقف، فيحذفون منها كما حذفوا في الوقف، وحملها سيبويه على الضرورة. وأما قراءة حفص: «وَيَثْقِيهِ» فوجهه أن يثقه من يثقه مثل كتيف، فكما يسكن نحو كتيف كذلك تسكن القاف من ثقه. وعلى هذا قول الشاعر:

عَجِبْتُ لِمَوْلُودٍ وَلَيْسَ لَهُ أَبٌ وَذِي وَلَدٍ لَمْ يَلِدْهُ أَبٌ وَأَنْ^(٢)

ومثله: «فبات منتصباً وما تَكَرَّدَسَا»^(٣) فلما أسكن ما قبل الهاء لهذا التشبيه، حرّك الهاء بالكسر، كما حرّك الدال بالفتح في لم يلدّه.

● **اللغة:** قال الزجاج: الإذعان الإسراع مع الطاعة، يقال: أذعن لي بحقي، أي: طاعوني لما كنت ألتزمه منه، وصار يسرع إليه. وناقمة مذعان: منقادة. والحيف: الجور ينقص الحق، والفوز: أخذ الحظ الجزيل من الخير.

● **النزول:** قيل: نزلت الآيات في رجل من المنافقين، كان بينه وبين رجل من اليهود حكومة، فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، وحكى البلخي: أنه كانت بين علي وعثمان منازعة في أرض اشتراها من علي عليه السلام، فخرجت فيها أحجار، وأراد ردها بالعيب. فلم يأخذها، فقال: بيني وبينك رسول الله ﷺ. فقال الحكم بن أبي العاص: إن حاكمته إلى ابن عمه يحكم له، فلا تحاكمه إليه!، فنزلت الآيات. وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، أو قريب منه.

● **المعنى:** ﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي: صدّقنا بتوحيد الله ﴿وَيَا رَسُولَ اللَّهِ اطَّعْنَا﴾ هما فيما حكما ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ وَنَهُمُ﴾ أي: يعرض عن طاعتها طائفة منهم ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد

(١) هذا جزء من بيت لرجل من أزد السراة، يصف برقاً وتماه: «فظلت لدى البيت الحرام أخيله * ومطوأي مشتاقان له أرقان». وقوله أخيله أي: أنظر إلى مخيلته. والهاء عائدة على البرق في بيت قبله. ومطوأي أي: صاحباي.

(٢) نسب البيت إلى عمرو الجني، وله قصة مع امرئ القيس. وروي: «الإرب مولود وليس له ولد... اه» والمراد من المولود الذي ليس له أب: عيسى بن مريم عليه السلام، ومن الذي لم يلد له أبواه: آدم عليه السلام. وقيل: أراد به القوس لأنها تؤخذ من شجرة معينة واحدة. وقيل: أراد البيضة. وهذا البيت مع بيتين بعده من الأغاز ذكره في (شرح الأشموني ج ٣: ٣١٤).

(٣) التكرس: التجمع والتقبض.

قولهم: آمنا ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ﴾ الذين يدعون الإيمان، ثم يعرضون عن حكم الله ورسوله ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. وفي هذه الآية دلالة على أن القول المجرد لا يكون إيماناً، إذ لو كان ذلك كذلك لما صح النفي بعد الإثبات. ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى كتاب الله وحكمه وشريعته ﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: وإلى حكم رسوله ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمُ﴾ الرسول، وإنما أفرد بعد قوله ﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لأن حكم الرسول يكون بأمر الله تعالى، فحكم الله ورسوله واحد. ﴿وَإِذَا فُرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عما يدعون إليه ﴿وَأَن يَكُنْ لَهُمُ الْخُتْلَى﴾ أي: وإن علموا أن الحق يقع لهم ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ أي: إلى النبي ﷺ ﴿مُذْعِبِينَ﴾ مسرعين طائعين منقادين. ثم قال سبحانه منكراً عليهم: ﴿أَفَبَىٰ قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك في نبوتك ونفاق؟ وهو استفهام يراد به التقرير، لأنه أشد في الذم والتوبيخ أي: هذا أمر قد ظهر حتى لا يحتاج فيه إلى البينة، كما جاء في نقيضه من المدح على طريق الاستفهام نحو قول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَتَى الْعَالَمِينَ بَطُونٍ رَاحٍ^(١)

﴿أَرَأَيْتَابِ﴾ في عدلك أي: رأوا منك ما رايهم لأجله أمرك ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يجور الله عليهم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ أي: ويميل رسوله في الحكم ويظلمهم، لأنه لا وجه في الامتناع عن المجيء إلا أحد هذه الأوجه الثلاثة. ثم أخبر سبحانه أنه ليس شيء من ذلك فقال: ﴿بَلْ أَوْلَيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ نفوسهم وغيرهم، وفي هذه الآية دلالة على أن خوف الحيف من الله تعالى، خلاف الدين، وإذا كان كذلك فالقطع عليه أولى أن يكون خلافاً للدين. ثم وصف سبحانه الصادقين في إيمانهم فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا قول النبي ﷺ وأطعنا أمره، وإن كان ذلك فيما يكرهونه ويضرهم، عن ابن عباس ومقاتل. وقيل: معناه قبلنا هذا القول وانقذنا له، وأجبنا إلى حكم الله ورسوله. ﴿وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بالشواب الطافرون بالمراد. وروى عن أبي جعفر عليه السلام أن المعنى بالآية أمير المؤمنين، عليه أفضل الصلوات. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمره ونهيا عنه ﴿وَيَخْشِ اللَّهَ﴾ أي: ويخش عقاب الله في ترك أوامره وارتكاب نواهيه. ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ أي: ويتق عقابه بامتنال أوامره واجتناب نواهيه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وقيل: معناه ويخش الله في ذنوبه التي عملها ويتقه فيما بعد.

● **النظم:** قيل: اتصلت الآية الأولى بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾، ويعود الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إليهم، وإن كان يقع على بعضهم، فكأنه قال: ويقول جماعة من هؤلاء الناس أمثاله عن أبي مسلم، وقيل: إنه لما تقدم ذكر المؤمن والكافر، عقبه سبحانه بذكر المنافق.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

● **القراءة:** قرأ أبو بكر: «كما استخلف» بضم التاء، والباقون بفتح التاء. وقرأ ابن كثير وأبو بكر ويعقوب وسهل: «ولَيُبَدِّلَنَّهُم» من الإبدال، والباقون بالتشديد من التبديل.

● **الحجة:** قال أبو علي: الوجه في «كما استخلف» بفتح التاء واللام، لأن اسم الله قد تقدم ذكره، والضمير في «ليستخلفنهم» يعود إليه، فكذا في قوله «كما استخلف». والوجه في استخلف أنه يراد به ما يراد باستخلف. والتبديل والإبدال بمعنى، وقيل: إن التبديل تغيير حال إلى حال أخرى، يقال: بدل صورته. والإبدال: رفع الشيء بأن يجعل غيره مكانه. قال: «عزل الأمير بالأمير المبدل».

● **الإعراب:** ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أصله وأقسموا بالله يجهدون الأيمان جهداً، فحذف الفعل، وأقيم مصدره مضافاً إلى المفعول مقامه، كقوله: ﴿فَضَرَبَ الرِّقَابَ﴾، وحكم هذا المنصوب حكم الحال، كأنه قال: جاهدوا أيمانهم. ﴿طَاعَةٌ﴾ مبتدأ وخبره محذوف تقديره: طاعة معروفة أولى بكم وأفضل لكم. ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ جواب قسم يدل عليه قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ لأن وعده سبحانه كالقسم. ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾: يجوز أن يكون جملة مستأنفة على طريق الثناء عليهم، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الحال.

● **المعنى:** ولما بين الله سبحانه كراهتهم لحكمه، قالوا للنبي ﷺ: والله لو أمرتنا بالخروج من ديارنا وأموالنا، لفعلنا. فقال الله سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أي: حلفوا بالله أغلظ أيمانهم وقدر طاقتهم، أنك إن أمرتنا بالخروج في غزواتك لخرجنا. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿لَا تُقْسِمُوا﴾ أي: لا تحلفوا، وتم الكلام. ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ أي: طاعة حسنة للنبي ﷺ خالصة صادقة، أفضل وأحسن من قسمكم بما لا تصدقون به. فحذف خبر المبتدأ للعلم به. وقيل: معناه ليكن منكم طاعة، والقول المعروف هو المعروف صحته. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل. ثم أمرهم سبحانه بالطاعة، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما أأمركم به، واحذروا المخالفة. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: فإن تعرضوا عن طاعة الله وطاعة رسوله، والأصل تتولوا فحذف أحد التاءين ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي: على الرسول ﴿مَا حُمِّلَ﴾ أي: كلف وأمر من التبليغ وأداء الرسالة

﴿وَعَلَيْكُمْ مَا جُمِلْتُ﴾ أي: كُلفتم من الطاعة والمتابعة ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ﴾ أي: وإن طيعوا الرسول ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الرشd والصلاح، وإلى طريق الجنة ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمَیْتُ﴾ أي: ليس عليه إلا أداء الرسالة وبيان الشريعة، وليس عليه الاهتداء، وإنما ذلك عليكم ونفعه عائد إليكم، والمبين: البین الواضح. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: صدّقوا بالله وبرسوله، وبجميع ما يجب التصديق به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: الطاعات الخالصة لله ﴿لِيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ليجعلهم يخلفون من قبلهم. والمعنى: ليورثهم أرض الكفار من العرب والعجم، فيجعلهم سكانها وملوكها ﴿كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. قال مقاتل: يعني بني إسرائيل إذ أهلك الله الجابرة بمصر، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

وعن أبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا مع السلاح، ولا يصبحون إلا فيه. فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين، لا نخاف إلا الله؟ فنزلت هذه الآية. وعن المقداد بن الأسود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يبقى على الأرض بيت مدر ولا وبر، إلا أدخله الله تعالى كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل، إما أن يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما أن يذلهم فيدينون لها». وقيل: إنه أراد بالأرض أرض مكة، لأن المهاجرين كانوا يسألون ذلك. ﴿وَلْيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ يعني دين الإسلام الذي أمرهم أن يدينوا به، وتمكينه أن يظهره على الدين كله، كما قال: «زويت لي الأرض، فأريت مشارقها ومغاربها، وسيلبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها». وقيل: تمكينه بإعزاز أهله وإذلال أهل الشرك، وتمكين أهله من إظهاره بعد أن كانوا يخفونه. ﴿وَلْيَسَبِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ أي: وليصيرهم بعد أن كانوا خائفين بمكة، آمنين بقوة الإسلام وانبساطه. قال مقاتل: وقد فعل الله ذلك بهم وبمن كان بعدهم من هذه الأمة: مكن لهم في الأرض وأبدلهم أمناً من بعد خوف، وبسط لهم في الأرض، فقد أنجز وعده لهم. وقيل: معناه وليبدلهم من بعد خوفهم في الدنيا، أمناً في الآخرة. ويعضده ما روي عن النبي ﷺ أنه قال حاكياً عن الله سبحانه: «إني لا أجمع على عبد واحد بين خوفين، ولا بين أمنين: إن خافني في الدنيا أمنت في الآخرة، وإن أمني في الدنيا، خوّفته في الآخرة. ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ هذا استئناف كلام في الثناء عليهم، ومعناه: لا يخافون غيري، عن ابن عباس، وقيل: معناه لا يراؤون بعبادتي أحداً. وفي الآية دلالة على صحة نبوة نبينا ﷺ من جهة الإخبار عن غيب لا يعلم إلا بوحى من الله عز وجل. ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد هذه النعم ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ذكر الفسق بعد الكفر مع أن الكفر أعظم من الفسق، لأن الفسق في كل شيء هو الخروج إلى أكثره. والمعنى: أولئك هم الخارجون إلى أفبح وجوه الكفر وأفحشه. وقيل: معناه من جحد تلك النعمة بعد إنعام الله تعالى بها، فأولئك هم العاصون لله، عن ابن عباس. واختلف في الآية فقيل: إنها واردة في أصحاب النبي ﷺ، وقيل: هي عامة في أمة محمد ﷺ، عن ابن عباس ومجاهد. والمزوي عن أهل البيت ﷺ:

أنها في المهدي من آل محمد ﷺ. وروى العياشي بإسناده عن علي بن الحسين ﷺ أنه قرأ الآية، وقال: هم والله شيعتنا أهل البيت، يفعل الله ذلك بهم على يدي رجل منا، وهو مهدي هذه الأمة، وهو الذي قال رسول الله ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي، اسمه اسمي، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً»، وزوّي مثل ذلك عن أبي جعفر ﷺ وأبي عبد الله ﷺ. فعلى هذا يكون المراد بـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ النبي وأهل بيته، صلوات الرحمن عليهم، وتضمنت الآية البشارة لهم بالاستخلاف والتمكّن في البلاد، وارتفاع الخوف عنهم عند قيام المهدي ﷺ منهم. ويكون المراد بقوله: ﴿كَأَنَّمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هو أن جعل الصالح للخلاف خليفة مثل آدم، وداود وسليمان ﷺ، ويدل على ذلك قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿وَيَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾، وقوله ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾. وعلى هذا إجماع العترة الطاهرة، وإجماعهم حجة، لقول النبي ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض». وأيضاً فإن التمكين في الأرض على الإطلاق، لم يتفق فيما مضى، فهو منتظر لأن الله عز اسمه لا يخلف وعده.



قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥١) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر وحمزة: «لا يحسبن» بالياء، والباقون بالتاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ بالياء جاز أن يكون فاعله أحد شيئين: إما أن يكون تضمن ضميراً للنبي ﷺ أي: لا يحسبن النبي الذين كفروا معجزين. فالذين في موضع نصب بأنه المفعول الأول، ومعجزين المفعول الثاني. ويجوز أن يكون فاعل الحسبان الذين كفروا، ويكون المفعول الثاني محذوفاً وتقديره: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين. ومن قرأ بالتاء ففاعل تحسبن المخاطب.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه بإقامة أمور الدين فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: قوموا بأدائها وإتمامها في أوقاتها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لترحموا جزاء على ذلك، وتثابوا بالنعم الجزيلة. ثم قال: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد أو أيها السامع ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾ أي: سابقين فائتين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يقال: طلبته فأعجزني أي: فاتني وسبقني أي: لا يفوتوني. ومن قرأ بالياء فمعناه: لا يظنن الكافرون أنهم يفوتوني. ﴿وَأَتَيْنَاهُمُ النَّارَ﴾ أي: مستقرهم ومصيرهم النار ﴿وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: بشئ المستقر والمأوى. وإنما وصفها بذلك، وإن كانت حكمة وصواباً من فعل الله تعالى، لما ينال الصائر إليها من الشدائد والآلام.



قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَنَظِرَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَنَظِرُوا كَمَا اسْتَنَظَرَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة، غير حفص: «ثلاث عورات» بالنصب، والباقون بالرفع. وفي الشواذ عن الأعمش: «عَوْرَات» بفتح الواو، وقرأ أبو جعفر وأبو عبد الله عليه السلام: «يضعن من ثيابهن»، ورؤي ذلك عن ابن عباس وسعيد بن جبير.

● **الحجة:** قال أبو علي: من رفع كان خبر المبتدأ محذوفاً، كأنه قال: هذا ثلاث عورات، فأجمل بعد التفصيل. ومن نصب جعله بدلاً من قوله ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾، فإن قلت: فإن قوله ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ زمان بدلالة أنه فسر بزمان وهو قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ﴾، وليس العورات بزمان، فكيف يصح وليس هي هو؟ قيل: يكون ذلك على أن تضممر الأوقات، كأنه قال: أوقات ثلاث عورات. فلما حذف المضاف أعرب المضاف إليه بإعراب المضاف. والعورات: جمع عورة. وحكم ما كان على فَعلة من الأسماء تحريك العين في الجمع، نحو: جَفَنَةٌ وَجَفَنَاتٌ، إلا أن عامة العرب كرهوا تحريك العين فيما كان عينه واواً أو ياء، لما كان يلزم من الانقلاب إلى الألف، فأسكنوا وقالوا: عورات وبيضات، إلا هذيلاً حرّكوا العين منها فقالوا: عَوْرَاتٌ وَلَوْرَاتٌ. وأنشد بعضهم:

أُخُو بَيَضَاتٍ رَائِحٌ مُتَأَوِّبٌ رَفِيقٌ بِمَسْجِدِ الْمُنْكَبِينَ سُبُوحٌ ^(١)

فحرك الباء من بيضات. والجيد عند النحويين الأول. ومن قرأ: «من ثيابهن» فلائه لا يوضع كل الثياب وإنما يوضع بعضها. ورؤي عن عبد الله عليه السلام أنه قال: هو الجلباب، إلا أن تكون أمة فليس عليها جناح أن تضع خمارها.

● **اللغة:** التبرج: إظهار المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره، وأصله: الظهور، ومنه البرج: البناء العالي لظهوره.

● **المعنى:** لما تقدّم أحكام النساء والرجال، ومن أبيع له الدخول على النساء، استثنى

(١) الرائح بمعنى الذهاب. والمتأوب: الراجع. ورفيق بمسح المنكبين أي: عالم بتحريكها كناية عن حسن جريه ومهارته في السير. وسبوح أي: حسن الحركة. وفي اللسان: «أبو بيضات...».

سبحانه ههنا أوقاتاً من ذلك، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا اللَّيْلُ ءَامُوا۟ا لِّسْتَعْمِلُنَّكُمْ اللَّيْلُ مَلَكَتْ أَيْمُنُكُمْ﴾ معناه: مُرُوا عبيدكم وإماءكم أن يستأذنوا عليكم إذا أرادوا الدخول إلى مواضع خلواتكم عن ابن عباس. وقيل: أراد العبيد خاصة، عن ابن عمر، وهو المَرْوِي عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبد الله عليه السلام. ﴿وَالَّذِينَ لَا يَلْبَسُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ من أحراركم، وأراد به الصبي الذي يميز بين العورة وغيرها. وقال الجبائي: الاستئذان واجب على كل بالغ في كل حال، وعلى الأطفال في هذه الأوقات الثلاثة، بظاهر الآية ﴿تِلْكَ مَرْئِي﴾ أي: في ثلاث أوقات من ساعات الليل والنهار. ثُمَّ فُسِّرَها فقال: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْغَدَاةِ﴾ وذلك أن الإنسان ربما يبيت عرياناً، أو على حال لا يحب أن يراه غيره في تلك الحال. ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ يريد عند القائلة. ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ﴾ الآخرة، حين يأوي الرجل إلى امرأته ويخلو بها، أمر الله بالاستئذان في هذه الأوقات التي يتخلى الناس فيها وينكشفون، وفضلها، ثم أجملها بعد التفصيل، فقال: ﴿تِلْكَ عَوْرَتِي لَكُمْ﴾ أي: هذه الأوقات ثلاث عورات لكم. سُمِّيَ سبحانه هذه الأوقات عورات لأن الإنسان يضع فيها ثيابه فتبدو عورته. قال السدي: كان أناس من الصحابة يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الأوقات والساعات، ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم الله سبحانه أن يأمرُوا الغلمان والمملوكين أن يستأذنوا في هذه الساعات الثلاث. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني المؤمنين الأحرار ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني الخدم والغلمان ﴿جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: حرج في أن لا يستأذنوا في غير هذه الأوقات الثلاثة. ثُمَّ بَيَّنَّ المعنى فقال: ﴿طَوَافُوتٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هم خدمكم، فلا يجدون بداً من دخولهم عليكم في غير هذه الأوقات، ويتعذر عليهم الاستئذان في كل وقت، كما قال سبحانه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: يخدمهم. وقال النبي صلى الله عليه وآله: «إنها من الطوافين عليكم والطوافات» جعل الحرة بمنزلة العبيد والإماء. وقال مقاتل: ينقلون فيكم ليلاً ونهاراً. ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: يطوف بعضهم، وهم الممالك، على بعض، وهم الموالي. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما بَيَّنَّ لكم ما تعبدكم به في هذه الآية ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: الدلالات على الأحكام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ يعني من الأحرار ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ أي: في جميع الأوقات ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأحرار الكبار، الذين أمروا بالاستئذان على كل حال في الدخول عليكم، فالبالغ يستأذن في كل الأوقات، والطفل والعبد يستأذن في العورات الثلاث. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ مر معناه. قال سعيد بن المسيب: ليستأذن الرجل على أمه فإنما نزلت هذه الآية في ذلك. ﴿وَالْفَوَاحِشُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْحُونَ نِكَاحاً﴾ وهن المسنات من النساء اللاتي قعدن عن التزويج، لأنه لا يرغب في تزويجهن. وقيل: هن اللاتي ارتفع حيضهن وقعدن عن ذلك، اللاتي لا يطمعن في النكاح أي: لا يطمع في جماعهن لكبرهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ يعني الجلباب فوق الخمار، عن ابن مسعود وسعيد بن جبیر. وقيل: يعني الخمار والرداء، عن جابر بن زيد. وقيل: ما فوق الخمار من المقانع وغيرها، أبيع لهن القعود بين يدي الأجانب في ثياب أبدانهن مكشوفة الوجه واليد. فالمراد بالثياب ما ذكرناه، لا كل الثياب. ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي: غير قاصدات بوضع ثيابهن إظهار زينتهن، بل يقصدن به

التخفيف عن أنفسهن. فإظهار الزينة في القواعد وغيرهن محظور، وأما الشابات فإنهن يمنعن من وضع الجلباب أو الخمار، ويؤمرن بلبس أكثف الجلابيب لثلاث تصفهن ثيابهن. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «للزوجة ما تحت الدرع، وللأخت ما فوق الدرع، ولغير ذي محرم أربعة أثواب: درع وخمار وجلباب وإزار». ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ﴾ أي: واستعفاف القواعد وهو أن يطلبن العفة بلبس الجلابيب. ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ من وضعها، وإن سقط الحرج عنهن فيه. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوبكم.



قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾﴾.

● **اللغة:** الحَرَج: الضيق مشتق من الخرجة، وهي: الشجر الملتف بعضه ببعض لضيق المسالك فيه، وجمعها حَرَجات وجراج. قال:

أَيَا حَرَجاتِ الحَيِّ حِينَ تَحْمَلُوا بذي سَلَمٍ لاجِادُكُنَّ رَبيعُ^(١)
وخرج فلان: إذا أتم، وتخرج من كذا: إذا تأثم من فعله، والأشتات: المتفرقون وهو جمع شت.

● **الإعراب:** ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال، وكذلك ﴿أَشْتَاتًا﴾، و﴿تَحِيَّةٌ﴾: منصوب لأنها مصدر ﴿سَلِّمُوا﴾ لأن التحية بمعنى التسليم. ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ صفة ﴿تَحِيَّةٌ﴾.

● **المعنى:** لما تقدّم ذكر الاستئذان عقبه سبحانه بذكر رفع الحرج عن المؤمنين في الانبساط بالأكل والشرب، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ الذي كفّ بصره ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ﴾ الذي يعرج من رجله أو أحدهما ﴿حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ﴾ العليل ﴿حَرَجٌ﴾ أي: إثم. واختلف في تأويله على وجوه:

أحدها: أن المعنى: ليس عليكم في مؤاكلتهم حرج، لأنهم كانوا يتحرّجون من ذلك، ويقولون: إن الأعمى لا يبصر فنأكل جيد الطعام دونه. والأعرج لا يتمكن من الجلوس، والمريض يضعف عن الأكل، عن ابن عباس والفراء.

(١) قيل: إنه يعاتب الطرق التي سارت فيها المحبوبة للفراق.

وثانيها: أن المسلمين كانوا إذا غزوا، خلفوا زمناهم وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم، ويقولون: قد أحللتنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكان أولئك يتخرجون من ذلك ويقولون: لا ندخلها وهم غيب. فنفى الله سبحانه الحرج عن الزمنى في أكلهم من بيت أقاربهم، أو من بيت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو، عن سعيد بن المسيب والزهري.

وثالثها: أن المعنى: ليس على الأعمى والأعرج والمريض ضيق، ولا إثم في ترك الجهاد والتخلف عنه، ويكون قوله: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ كلاماً مستأنفاً. فأول الكلام في الجهاد وآخره في الأكل، عن ابن زيد والحسن والجبائي.

ورابعها: أن العمي، والعرج، والمريض، كانوا يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء، لأن الناس كانوا يتقذرون منهم ويكرهون مؤاكلتهم، وكان أهل المدينة لا يخالطهم في طعام أعمى ولا أعرج ولا مريض، عن سعيد بن جبير والضحاك.

وخامسها: أن الزمنى والمريض رخص الله سبحانه لهم في الأكل من بيوت من ساءهم في الآية، وذلك أن قوماً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمونهم، ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم وقرباتهم، فكان أهل الزمانة يتخرجون من أن يطعموا ذلك الطعام، لأنه يطعمهم غير مالكيه، عن مجاهد. ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: وليس عليكم حرج في أنفسكم ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوت عيالكم وأزواجكم، وبيت المرأة كبيت الزوج. وقيل: معناه من بيوت أولادكم، فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء، لأن الأولاد كسبهم وأموالهم كأموالهم، ويدل عليه قوله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك». وقوله ﷺ: «إن أن أطيّب ما يأكل المؤمن كسبه وإن ولده من كسبه». ولذلك لم يذكر الله بيوت الأبناء حين ذكر بيوت الآباء والأقارب اكتفاء بهذا الذكر. ثم ذكر بيوت الأقارب بعد الأولاد فقال: ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾. وهذه الرخصة في أكل مال القربات وهم لا يعلمون ذلك، كالرخصة لمن دخل حائطاً وهو جائع أن يصيب من ثمره، أو مرّ في سفره بغنم وهو عطشان، أن يشرب من رسله^(١)، توسعة منه على عباده، ولطفاً لهم ورغبة بهم عن دناءة الأخلاق وضيق العطن. وقال الجبائي: إن الآية منسوخة بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِطِينَ إِنَّهُ﴾ ويقول النبي ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة نفس منه». والمزوي عن أئمة الهدى، صلوات الله عليهم، أنهم قالوا: لا بأس بالأكل لهؤلاء من بيوت من ذكر الله تعالى بغير إذنهم، قدر حاجتهم من غير إسراف. وقوله: ﴿أَوْ مَكَائِهِمْ مَفَاتِحُهُ﴾ معناه: أو بيوت عبيدكم ومماليككم وذلك أن السيد يملك منزل عبده، والمفتاح هنا الخزائن، لقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، وقيل: هي التي يفتح الغيب بها، عن ابن عباس قال: عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته، فلا بأس عليه أن يأكل من ثمر حائطه ويشرب من لبن ماشيته. وقيل: إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن

سورة النور

يطعم الشيء اليسير، عن عكرمة. وقيل: هو الرجل يولى طعام غيره يقوم عليه، فلا بأس أن يأكل منه، عن السدي ﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ رفع الحرج عن الأكل من بيت صديقه بغير إذن، إذا كان عالمًا بأنه تطيب نفسه بذلك. والصديق: هو الذي صدقك عن موثقه، وقيل: هو الذي يوافق باطنه باطنك، كما وافق ظاهره ظاهره. ولفظ الصديق يقع على الواحد وعلى الجمع. قال جرير:

دَعَوْنَ الْهَوَىٰ ثُمَّ ارْتَمَيْنَ قُلُوبَنَا بِأَسْهُمِ أَعْدَاءٍ وَهُنَّ صَدِيقُ

وقال الحسن وقتادة: يجوز دخول الرجل بيت صديقه، والتحرم بطعامه من غير استئذان منه في الأكل. وقال أبو عبد الله عليه السلام: لهو والله الرجل يأتي بيت صديقه فيأكل طعامه بغير إذنه. وزُوي أن صديقاً للربيع بن خيثم، دخل منزله وأكل من طعامه، فلما عاد الربيع إلى المنزل أخبرته جاريته بذلك، فقال: إن كنت صادقة فأنت حرة. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أي: مجتمعين أو متفرقين، وذكر في تأويله وجوه:

أحدها: أن حياً من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده، فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً. وربما كانت معه الإبل الحقل^(١)، فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه، فأعلم الله سبحانه أن الرجل منهم إن أكل وحده فلا إثم عليه، عن قتادة والضحاك وابن جريج.

وثانيها: إن معناه: لا بأس بأن يأكل الغني مع الفقير في بيته، فإن الغني كان يدخل على الفقير من ذوي قرابته أو صداقته، فيدعوه إلى طعامه فيخرج، عن ابن عباس.

وثالثها: أنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف، تخرجوا أن يأكلوا إلا معه، فأباح الله سبحانه الأكل على الانفراد وعلى الاجتماع، عن أبي صالح، والأقوال متقاربة، والأولى الحمل على العموم. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: ليسلم بعضهم على بعض، عن الحسن. فيكون كقوله: ﴿أَنْ أَتَلَّوْا أَنْفُسَكُمْ﴾، وقيل: معناه فسلموا على أهليكم وعيالكم، عن جابر وقتادة والزهري والضحاك. وقيل: معناه فإذا دخلتم بيوتاً يعني المساجد، فسلموا على من فيها، عن ابن عباس. والأولى حمله على العموم. وقال إبراهيم: إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد، فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وقال أبو عبد الله عليه السلام: هو تسليم الرجل على أهل البيت حين يدخل، ثم يردون عليه، فهو سلامكم على أنفسكم. ﴿يَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: هذه تحية حياكم الله بها، عن ابن عباس، وقيل: معناه علمها الله وشرعها لكم، فإنهم كانوا يقولون: عم صباحاً. ثم وصف التحية فقال: ﴿مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي: إذا ألزمتوها كثر خيركم وطاب أجركم. وقيل: مؤبدة حسنة جميلة، عن ابن عباس. وإنما قال: مباركة لأن معنى السلام عليكم حفظكم الله وسلمكم الله من الآفات، فهو دعاء بالسلامة من آفات الدنيا والآخرة. وقال: طيبة لما فيها من طيب العيش بالتواصل، وقيل: لما فيها من الأجر الجزيل والثواب العظيم.

(١) التحفيل: أن لا تحلب الناقة أياماً ليجتمع اللبن في ضرعها. وحفل: جمع حافل: الممتلئة الضروع.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما بين لكم هذه الأحكام والآداب ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: الأدلة على جميع ما يتعبدكم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لتعقلوا معالم دينكم.



قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ إِنَّا لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

● **اللغة:** التسلل: الخروج في خفية، يقال: تسلل فلان من بين أصحابه: إذا خرج من جملتهم. والسلة: السرقه في الخفية، وكذلك الإسلال. ومنه الحديث: «لا إغلال ولا إسلال». واللواذ: أن يستتر بشيء مخافة من يراه. وقيل: اللواذ الاعتصام بالشيء بأن يدور معه حيث دار من قولهم: لا ذبه. وقال الزجاج: الملاوذة المخالفة ههنا، بدلالة قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾، ويقال: خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه دونه. ومنه قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلَأَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾، وخالفه عن الأمر: إذا صد عنه دونه.

الإعراب: ﴿لِوَاذًا﴾ مصدر وضع موضع الحال والتقدير: يتسللون منكم ملاوذين، ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: يخالفون الله عن أمره بمعنى يجاوزون أمره. ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ﴾: يوم منصوب بالعطف على محذوف وهو ظرف زمان، والتقدير: ما أنتم تثبتون عليه الآن ويوم يرجعون إليه خرج من الخطاب إلى الغيبة.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر المعاشرة مع الأقرباء والمسلمين، بين سبحانه في هذه الآية كيفية المعاشرة مع النبي ﷺ، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: ليس المؤمنون على الحقيقة إلا الذين صدقوا بتوحيد الله وعدله، وأقروا بصدق رسوله ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ أي: مع رسوله ﴿عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ وهو الذي يقتضي الإجماع عليه، والتعاون فيه، من حضور حرب أو مشورة في أمر أو صلاة جمعة، أو ما أشبه ذلك، ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ أي: لم ينصرفوا عن الرسول أو عن ذلك الأمر، إلا بعد أن يطلبوا الإذن منه في الانصراف ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ يا محمد ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: فهم الذين يصدقون بالله ورسوله على الحقيقة، دون الذين ينصرفون بلا استئذان ﴿فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي: متى ما استأذنتك هؤلاء المؤمنون أن يذهبوا لبعض مهماتهم وحاجاتهم ﴿فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ خير سبحانه نبيه ﷺ بين أن يأذن وأن لا يأذن، وهكذا حكم من قام مقامه من الأئمة. ﴿وَاسْتَغْفَرَ

لَهُمْ اللَّهُ أَي: واطلب المغفرة لهم من الله بخروجهم من جملة من معك، واستغفار النبي ﷺ لهم هو دعاؤه لهم باللطف الذي تقع معه المغفرة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ للمؤمنين أي: سائر لذنوبهم ﴿رَجِيمٌ﴾ بهم أي: منعم عليهم. ثم أمر سبحانه جميع المكلفين فقال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ اختلف في تأويله على وجوه:

أحدها: أنه سبحانه علّمهم تفخيم النبي ﷺ في المخاطبة، وأعلمهم فضله فيه على سائر البرية. والمعنى: لا تقولوا له عند دعائه: يا محمد أو يابن عبد الله، ولكن قولوا: يا رسول الله يا نبي الله، في لين وتواضع وخفض صوت، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وثانيها: أنه نهى عن التعرض لدعاء رسوله عليهم، فالمعنى: احذروا دعاءه عليكم إذا أسخطتموه، فإن دعاءه موجب مجاب بغير شك، وليس كدعاء غيره، عن ابن عباس في رواية أخرى.

وثالثها: أن المعنى: ليس الذي يأمركم به الرسول ويدعوكم إليه كما يدعو بعضكم بعضاً، لأن في القعود عن أمره قعوداً عن أمر الله تعالى، عن أبي مسلم. ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذَأَ﴾ قال ابن عباس: هو أن يلوذ بغيره فيهرب، وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم خطبة النبي ﷺ يوم الجمعة، فيلوذون ببعض أصحابه، فيخرجون من المسجد في استتار من غير استئذان. وفيه معنى التهديد بالمجازاة. وقال مجاهد: كانوا يتسللون في الجهاد رجوعاً عنه، وقيل: معناه يستترون ويستخفون تقية والتجاء. ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ حذّره سبحانه عن مخالفة نبيه ﷺ أي: فليحذر الذين يعرضون عن أمر الله تعالى، وإنما دخلت ﴿عَنْ﴾ لهذا المعنى. وقيل: عن أمر النبي ﷺ. ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلية تظهر ما في قلوبهم من النفاق. وقيل: عقوبة في الدنيا. ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. وفي هذا دلالة على أن أوامر النبي ﷺ على الإيجاب لأنها لو لم تكن كذلك لما حذّر سبحانه من مخالفته. ثم عظم سبحانه نفسه بأن قال: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له التصرف في جميع ذلك، ولا يجوز لأحد الاعتراض عليه ولا مخالفة أمره. فليس للعبد أن يخالف أمر ماله. ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الخيرات والمعاصي ومن الإيمان والنفاق، لا يخفى عليه شيء من أحوالكم ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يعني يوم البعث، يعلمه الله سبحانه متى هو ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ من الخير والشر والطاعات والمعاصي ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أعمالهم وغيرها ﴿عَلِيمٌ﴾ معناه: يُردون إليه للجزاء، فيجازي كلّاً على قدر عمله من الثواب والعقاب.

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

مكية / آياتها (٧٧)

مكية كلها، عن مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس: إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة من قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

● عدد آياتها: وهي سبع وسبعون آية، بلا خلاف.

● فضلها: أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفرقان، بعث يوم القيامة وهو يؤمن أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، ودخل الجنة بغير حساب»، وروى إسحاق بن عمار عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: يا ابن عمار! لا تدع قراءة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ فإن من قرأها في كل ليلة، لم يعذبه الله أبداً ولم يحاسبه، وكان منزلته في الفردوس الأعلى.

● تفسيرها: اتصلت هذه السورة بسورة النور اتصال النظير بالنظير، فإن مختتم تلك السورة تضمن: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأنه ﴿يَكُلُّ شَيْءٌ عِلْمٌ﴾، ومفتتح هذه السورة أن: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، سبحانه من قدير حكيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ① الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدَرًا نَقِيرًا ② وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ③ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا افْكٌ أَفْتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ قومٌ مَآخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا ④ وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑤ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ⑥ وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشَى فِي الْأَنْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ⑦ أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ⑧ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ⑨ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ⑩ .

سورة الفرقان

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «نأكل منها» بالنون، والباقون: بالياء. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر: «وَيَجْعَلُ لَكَ» بالرفع، والباقون بالجزم.

● **الحجة:** من قرأ: «يَأْكُلُ مِنْهَا» بالياء فإنه يعني به النبي ﷺ. ومن قرأ «نَأْكُلُ مِنْهَا» فكأنه أراد أنه تكون له المزية علينا في الفضل بأكلنا من جنته. ومن قرأ: «ويجعل لك» بالجزم، عطف على موضع جعل لأنه جزاء الشرط. قال الشاعر:

أَنى سَلَكَتْ فإِنِّنى لَكَ كاشِخٌ وعلى انْتِقاصِكَ في الحَيَاةِ وَأَزْدَدِ^(١)
ومن رفع قطعه مما قبله، واستأنف.

● **الإعراب:** قال الزجاج: التقدير جاؤوا بظلم وزور. فلما سقطت الباء أفضى الفعل فنصب الفعل. وأقول: إنه يجوز جاؤوا ظلماً بمعنى أتوا ظلماً. قال طرفة:

على غيرِ ذَنْبٍ جِئْتُهُ غَيْرَ أَتْنِي نَشَذْتُ فَلَمْ أَغْفِلْ حَمُولَةً مَغْبِدِ^(٢)

فمعنى جئته فعلته. ﴿أَكْتَبَهَا﴾: جملة في موضع نصب على الحال من ﴿أَسْطِيرُ﴾ ﴿الْأَوَّلِينَ﴾. وقد: مضمرة، و﴿أَسْطِيرُ﴾ خبر مبتدأ محذوف. و﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ حال والعامل فيه ما تعلق به اللام في قوله: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ فيكون منصوباً بإضمار أن. ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا﴾ كيف في محل نصب على المصدر والتقدير: ضرب، أي: ضربوا لك الأمثال، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الحال من الواو في ﴿ضَرَبُوا﴾، التقدير: أنظر أنكرين ضربوا لك الأمثال أم لا، ﴿إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾: الشرط والجزاء صلة الذي، و﴿جَنَّتِ﴾ بدل من قوله ﴿خَيْرًا﴾.

● **المعنى:** ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة معناه: عظمت بركاته وكثرت، عن ابن عباس. والبركة: الكثرة من الخير، وقيل: معناه تقدس وجل بما لم يزل عليه من الصفات، ولا يزال كذلك فلا يشاركه فيها غيره. وأصله من برك الطير، فكأنه قال: ثبت ودام فيما لم يزل ولا يزال، عن جماعة من المفسرين. وقيل: معناه قام بكل بركة وجاء بكل بركة. ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: القرآن الذي يفرق بين الحق والباطل والثواب والخطأ في أمور الدين، بما فيه من الحث على أفعال الخير، والزجر عن القبائح والشر. ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ﴾ محمد ﷺ بالقرآن ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: لجميع المكلفين من الإنس والجن ﴿نَذِيرًا﴾ أي: مخوفاً بالعقاب وداعياً لهم إلى الرشاد. ثم وصف سبحانه نفسه فقال: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعمت اليهود والنصارى والمشركون ﴿وَلَوْ يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ يشاركه فيما خلق، ويمنعه عن مراده ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مما يطلق عليه اسم المخلوق ﴿فَقَدَرَهُ نَفْيِرًا﴾ على ما اقتضته الحكمة، والتقدير: تبين مقادير الأشياء للعباد، فيكون معناه: قدر الأشياء بأن كتبها

(١) الكاشح: العدو الذي يضمم العداوة.

(٢) هذا بيت من معلقات الشهيرة، ومعبد هذا أخوه. والحمولة: الإبل التي تطيق أن يحمل عليها. ولهذا البيت قصة طويلة مذكورة في هامش المعلمات العشر برواية الزوزني، وغيره هكذا.

في الكتاب الذي كتبه الملائكة، لطفاً لهم. وقيل: خلق كل شيء فقدر طوله وعرضه ولونه، وسائر صفاته ومدة بقائه، عن الحسن. ثم أخبر سبحانه عن الكفار فقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون الله ﴿ءَالِهَةً﴾ من الأصنام والأوثان، وجهوا عبادتهم إليها، ثم وصف آلهم بما ينبئ أنها لا تستحق العبادة، فقال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: وهي مخلوقة مصنوعة ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لَأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ فيدفعونه عن أنفسهم ﴿وَلَا نَفْعاً﴾ فيجزونه إلى أنفسهم، أي: لا يقدر على دفع ضرر ولا على جر نفع، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوَةً﴾ أي: لا يستطيعون إماتة ولا إحياء ﴿وَلَا شُورًا﴾ أي: إعادة بعد الموت. يقال: أنشره الله فنشر، فإن جميع ذلك يختص الله تعالى بالقدرة عليه. والمعنى: فكيف يعبدون من لا يقدر على شيء من ذلك، ويتركون عبادة ربهم الذي يملك ذلك كله. ثم أخبر سبحانه عن تكذيبهم بالقرآن فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ﴾ أي: ما هذا القرآن إلا كذب افتراه محمد ﷺ، واختلقه من تلقاء نفسه ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ قالوا: أعان محمد ﷺ على هذا القرآن عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار غلام العلاء بن الحضرمي، وحبر مولى عامر، وكانوا من أهل الكتاب. وقيل: إنهم قالوا أعانه قوم من اليهود، عن مجاهد ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا﴾ أي: فقد قالوا إشراكاً وكذباً؟ حين زعموا أن القرآن ليس من الله. ومتى قيل: كيف اكتفى بهذا القدر في جوابهم؟ قلن: أنه لما تقدم التحدي وعجزهم عن الإتيان بمثله، اكتفى ههنا بالتنبيه على ذلك ﴿وَقَالُوا أَتَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ معناه: وقالوا أيضاً هذه أحاديث المتقدمين، وما سطره في كتبهم انتسخها. وقيل: استكتبها ﴿فَبِمِ ثَمَلٍ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: تملى عليه طرفي نهاره حتى يحفظها وينسخها، والأصيل: العشي لأنه أصل الليل وأوله. وفي هذا بيان مناقضتهم وكذبهم لأنهم قالوا: ﴿افْتَرَاهُ﴾ ثم قالوا: ﴿ثَمَلٍ عَلَيْهِ﴾ فقد افتراه غيره. وقالوا: إنه كتب، وقد علموا أنه كان لا يحسن الكتابة فكيف كتب ولم يستكتب. ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم تكذيباً لقولهم ﴿أَنْزَلَهُ﴾ أي: أنزل القرآن ﴿الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ أي: الخفيات ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على ما اقتضاه علمه بيوطن الأمور، لا على ما تقتضيه أهواء النفوس والصدور ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ حيث لم يعاجلهم بالعذاب، بل أنعم عليهم بإرسال الرسول إليهم لتأكيد الحجة وقطع المذعة. ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كما نأكل ﴿وَيَتَّبِعِي فِي الْأَشْوَاقِ﴾ في طلب المعاش كما نمشي ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُكَ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ أي: هلا أنزل إليه ملك فيكون معيناً له على الإنذار والتخويف. وهذا أيضاً من مقالاتهم الفاسدة، لأن الملك لو كان معيناً له على أداء الرسالة، ومخوفاً من ترك قبولها، ولو فعل تعالى ذلك، لأدى ذلك إلى استصغار كل واحد منهما من حيث إنه لم يقم بنفسه في أداء الرسالة، ولأن الجنس إلى الجنس أميل وبه أنس. ﴿أَوْ يُنْفَخِ إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ يستغني به عن طلب المعاش، قال ابن عباس: أو ينزل إليه مال من السماء ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: بستان يأكل من ثمارها. ومن قرأ بالنون فالمعنى: نأكل نحن معه ونتبعه. ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ أي: المشركون للمؤمنين ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أي: ما تتبعون إلا رجلاً مخدوعاً مغلوباً على عقله، وقد سبق تفسير المسحور في بني إسرائيل ﴿انظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي: الأشباه لأنهم قالوا

سورة الفرقان

تارة هو مسحور وتارة هو محتاج متروك، حتى تمنوا له الكنز، وتارة إنه ناقص عن القيام بالأمور. ﴿فَصَلُّوا﴾ بهذا عن الهدى وعن وجه الصواب وطريق الحق ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ لإلزامك الحجة من الوجوه المذكورة. وقيل: معناه لا يستطيعون سبيلاً إلى إبطال أمرك. وقيل: معناه لا يستطيعون سبيلاً إلى الحق مع ردهم الدلائل والحجج، واتباعهم التقليد والإلف والعادة. ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تقدس ﴿الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ الذي اقترحوه من الكنز والبستان. ثم فسر الذي هو خير مما اقترحوه فقال: ﴿جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ليكون أبلغ في الزهو، وأسرع في نضج الثمار ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ أي: وسيجعل لك قصوراً في كل بستان قصرًا، والقصور: البيوت المبنية المشيدة المطولة، عن مجاهد. وأراد في الآخرة أي: سيعطيك الله في الآخرة أكثر مما قالوا. وقيل: أراد به في الدنيا، لأن جبرائيل عليه السلام عرض عليه ذلك كله، فاختر الزهد في الدنيا.



قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ (١١) إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أَلْفَاوُا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقْرِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذِلَّةٌ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نَذْفُهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠).

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن كثير وحفص ويعقوب: «ويوم يحشرهم» بالياء، والباقون بالنون. وقرأ ابن عامر: «نفقون» بالنون، والباقون بالياء. وقرأ أبو جعفر وزيد عن يعقوب: «أَنْ نَتَّخِذَ» بضم النون وفتح الخاء، وهو قراءة زيد بن ثابت وأبي الدرداء. ورؤي عن جعفر بن محمد عليه السلام وزيد بن علي. والباقون: «نَتَّخِذُ» بفتح النون وكسر الخاء. وروى بعضهم عن ابن كثير: «فقد كذبوكم بما تقولون فما يستطيعون صرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نَذْفُهُ عَذَابًا كَبِيرًا» (١٩) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠).

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ: «يحشرهم» بالياء قوله: ﴿كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ ومن قرأ: «نحشرهم» بالنون، ﴿فَيَقُولُ﴾ بالياء، فعلى أنه أفرد بعد

أن جمع كما أفرد بعد الجمع في قوله: ﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾. وقراءة ابن عامر: «ويوم نحشرهم» «فنقول» حسن لإجرائه المعطوف مجرى المعطوف عليه في لفظ الجمع. قال ابن جني: من قرأ: «أن نتخذ» بضم النون فإن قوله: ﴿مِنَ أَوْلِيَائِهِ﴾ في موضع الحال، أي: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء. ودخلت ﴿مِنَ﴾ زائدة لمكان النفي، تقول: اتخذت زيدا وكيلًا. فإن نفيت قلت: ما اتخذت زيدا من وكيل. وكذلك أعطيته درهماً وما أعطيته من درهم. وهذا في المفعول به. وأما قراءة الجماعة: «إن نتخذ من دونك من أولياء» فإن قوله «من أولياء» في موضع المفعول، أي أولياء، فهو كقولك: ضربت رجلاً، فإن نفيت قلت: ما ضربت من رجل، والمعنى في قوله: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ﴾: لسنا ندعي استحقاق الولاء ولا العبادة لنا، والمعنى في قوله: «فقد كذبوكم بما تقولون» بالتاء: كذبوكم في قولكم إنهم شركاء وانهم آلهة، وذلك في قولهم: «تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون»، ومن قرأ: «بما يقولون» بالياء فالمعنى: فقد كذبوكم أي: ما كنتم تعبدون بقولهم. وقولهم هو نحو ما قالوه في قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِثْنَا تَعْبُدُونَ﴾، وقوله: ﴿فَالْقَوْلُ إِنِّهِمُ الْكَاذِبُونَ﴾. وقوله: «فما يستطيعون» بالياء معناه: فما يستطيع الشركاء صرفاً ولا نصراً لكم. ومن قرأ بالتاء فمعناه: فما تستطيعون أنتم أيها المتخذون للشركاء من دونه صرفاً ولا نصراً. ومن قرأ: «يُمَشُّونَ» بالتاء فمعناه: فما يستطيعون أنتم أيها المتخذون للشركاء من دونه صرفاً ولا نصراً. ومن قرأ «يُمَشُّونَ» فمعناه: يدعون إلى المشي ويحملهم حامل على المشي. وجاء على فَعَّلَ لتكثير فعلهم لأنهم جماعة.

● **اللغة:** السعير: النار الملتهبة مأخوذة من إسعار النار: وهو شدة إيقادها، أسعرتها إسعاراً وسعَّرها الله تسعيراً. والتغيظ: الهيجان والغليان، ومنه قيل لشدة الغضب الغيظ. ومقرنين: مأخوذ من القرن وهو الحبل يشد به بعيران أو أبعرة، ثم يستعمل في كل مجتمعين. والثبور: الهلاك، وثبر الرجل فهو مثبور: أهلك. قال ابن الزبيري:

إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ النَّفْيِ وَمَنْ مَالٍ مِثْلَهُ مَثْبُورٌ

ويقال: ما تبرك عن هذا الأمر أي: ما صرفك عنه، فكأن المثبور ممنوع من كل خير حتى هلك. والبور: الهلكى وهو جمع البائر. وقيل: هو مصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث. قال ابن الزبيري:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ

وأصل الباب من بارت السلعة تبور: إذا كسدت فلا تشتري، فكأنها بقيت وفسدت.

● **الإعراب:** ﴿مَكَانًا﴾ ظرف لألقى، ﴿مُقَرَّرِينَ﴾ نصب على الحال، ﴿ثُبُورًا﴾ مصدر فعل محذوف تقديره: ثبر ثبوراً، و﴿دَعَا﴾ هنا بمعنى قالوا، و﴿هَٰذَاكَ﴾ يحتمل أن يكون ظرف زمان، وأن يكون ظرف مكان أي: دعوا في ذلك اليوم، أو في ذلك المكان.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَصِيرًا﴾ في موضع نصب على الحال من وعد. وقد: مضمرة. وذو الحال الضمير المحذوف العائد من الصلة إلى الموصول، ﴿فَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ جملة أخرى

في موضع الحال من قوله: ﴿الْمُنْفُوتَ﴾. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾ محذوف تقديره: وما أرسلنا قبلك رسلاً. ويدل عليه قوله: ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الْطَّعَامَ﴾ إن مع اسمه وخبره مستثنى عن الرسل المحذوفة، تقديره: وما أرسلنا قبلك رسلاً إلا هم يأكلون الطعام. وهذا كما يقال: ما قدم علينا أمير إلا إنه مكرّم لي وليست كسرة إن لأجل اللام، فإن دخولها وخروجها واحد في هذا الموضع. وقيل: ما في الآية كقول الشاعر:

مَا أَغْطَيْانِي وَلَا سَأَلْتُهُمَا إِلَّا وَإِنِّي لِحَاجِزٌ كَرَمِي

● **المعنى:** ثم بين سبحانه سوء اعتقادهم، وما أعدّه لهم على قبيح فعالهم ومقالهم فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أي: ما كذبوك لأنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، بل لأنهم لم يقرأوا بالبعث والنشور والثواب والعقاب ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً تتلظى. ثم وصف ذلك السعير فقال: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: من مسيرة مائة عام، عن السدي والكلبي، وقال أبو عبد الله عليه السلام: من مسيرة سنة. ونسب الرؤية إلى النار، وإنما يرونها هم، لأن ذلك أبلغ كأنها تراهم رؤية الغضبان الذي يزفر غيظاً. وذلك قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا﴾ وتغيظها: تقطعها عند شدة اضطرابها، وزفيرها: صوتها عند شدة التهابها، كالتهاب الرجل المغتاط. والتغيظ لا يسمع، وإنما يعلم بدلالة الحال عليه. وقيل: معناه سمعوا لها صوت تغيظ وغليان، قال عبيد بن عمير: إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى نبي ولا ملك إلا خَرَّ لوجهه. وقيل: التغيظ للنار والزفير لأهلها، كأنه يقول: رأوا للنار تغيظاً، وسمعوا لأهلها زفيراً. ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ معناه: وإذا ألقوا من النار في مكان ضيق يضيق عليهم، كما يضيق الزج في الرمح، عن أكثر المفسرين. وفي الحديث قال عليه السلام في هذه الآية: والذي نفسي بيده، إنهم يستكروهون في النار كما يستكروه الود في الحائط. ﴿مُفْرَّيْنِ﴾ أي: مصفدين قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. وقيل: قرنوا مع الشياطين في السلاسل والأغلال، عن الجبائي. ﴿دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: دعوا بالويل والهلاك على أنفسهم، كما يقول القائل: واثبورا أي: واهلاكاه، وقيل: وانصرافاه عن طاعة الله! فتجيئهم الملائكة: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي: لا تدعوا ويلاً واحداً وادعوا ويلاً كثيراً، أي: لا ينفعكم هذا وإن كثر منكم. قال الزجاج: معناه هلاككم أكبر من أن تدعوا مرة واحدة ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿ذَلِكَ﴾ يعني ما ذكره من السعير ﴿خَيْرٌ أَم جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ﴾ تلك الجنة ﴿لَهُمْ جَزَاءُ﴾ على أعمالهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ أي: مرجعاً ومستقراً ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ ويستنهون من المنافع واللذات ﴿خَالِدِينَ﴾ مؤبدين لا يفنون فيها ﴿كَانَ عَلَى رِجِّكَ وَعَدًا مُّسْتَوْلاً﴾ قال ابن عباس: معناه أن الله سبحانه وعد لهم الجزاء، فسألوه الوفاء، فوفى. وقيل: معناه أن الملائكة سألوا الله تعالى ذلك لهم، فأجيبوا إلى مسألتهم، وذلك قولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾، عن محمد بن كعب. وقيل: إنهم سألوا الله تعالى في الدنيا الجنة بالدعاء، فأجابهم في الآخرة إلى ما سألوا وأتاهم ما طلبوا. ﴿وَيَوْمَ نَخْتَرُهمْ﴾ أي: نجمعهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني عيسى وعزير والملائكة، عن مجاهد، وقيل: يعني الأصنام، عن عكرمة والضحاك ﴿فَيَقُولُ﴾ الله تعالى لهؤلاء المعبودين ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلُّتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾

أَمْ هُمْ صَبُّوا السَّيْلَ ﴿١﴾ أي: طريق الجنة والنجاة ﴿قَالُوا﴾ يعني المعبودين من الملائكة والإنس أو الأصنام، إذا أحياهم الله وأنطقهم ﴿سُبْحَنَكَ﴾ تنزيهاً لك عن الشريك، وعن أن يكون معبود سواك ﴿مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ليس لنا أن نوالي أعداءك بل أنت ولينا من دونهم. وقيل: معناه ما كان يجوز لنا وللعابدين، وما كان يحق لنا أن نأمر أحداً بأن يعبدنا ولا يعبدك، فإننا لو أمرناهم بذلك لكننا واليناهم ونحن لا نوالي من يكفر بك. ومن قرأ: «نتخذ» فمعناه: ما كان يحق لنا أن نعبد. ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَأَهُمْ هُمْ حَقَّ نَسُوا الْآذَانَ﴾ معناه: ولكن طوّلت أعمارهم وأعمار آبائهم ومتعتهم بالأموال والأولاد بعد موت الرسل، حتى نسوا الذكر المنزل على الأنبياء وتركوه ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُرًّا﴾ أي: هلكى فاسدين. هذا تمام الحكاية عن قول المعبودين من دون الله. فيقول الله سبحانه عند تبرؤ المعبودين من عبدتهم: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي: كذبتكم المعبودون أيها المشركون ﴿يَمَا نَقُولُكُمْ﴾ أي: بقولكم إلهة شركاء لله. ومن قرأ بالباء فالمعنى: فقد كذبتكم بقولهم: ﴿سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا﴾ الآية. ﴿فَمَا سَتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ أي: فما يستطيع المعبودون صرف العذاب عنكم ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لكم بدفع العذاب عنكم. ومن قرأ بالتاء فالمعنى: فما تستطيعون أيها المتخذون الشركاء صرف العذاب عن أنفسكم، ولا أن تنصروا أنفسكم بمنعها من العذاب. ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ﴾ نفسه بالشرك وارتكاب المعاصي ﴿نَذِقْهُ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي: شديداً عظيماً. ثم رجع سبحانه إلى مخاطبة النبي ﷺ فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا إِنْهُمْ لِبَاطِلٍ أَطْعَامٍ وَيَكْسُوفٍ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ قال الزجاج: وهذا احتجاج عليهم في قوله: ﴿مَا لَ هَذَا الرُّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: فقل لهم كذلك كان من خلا من الرسل، فكيف يكون محمد بدءاً منهم. ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي: امتحاناً وابتلاء، وهو افتتان الفقير بالغني، يقول: لو شاء الله لجعلني مثله غنياً، والأعمى بالبصير يقول: لو شاء الله لجعلني مثله بصيراً، وكذلك السقيم بالصحيح، عن الحسن. وقيل: هو ابتلاء فقراء المؤمنين بالمستهزئين من قريش، كانوا يقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين اتبعوا محمداً من موالينا ورجالنا. فقال الله لهؤلاء الفقراء: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أيها الفقراء على الأذى والاستهزاء ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ إن: صبرتم فاصبروا. فأنزل الله فيهم ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾، عن مقاتل. وقيل: معناه أتصبرون أيها الفقراء على فقركم، ولا تفعلون ما يؤدي إلى مخالفتنا. أتصبرون أيها الأغنياء فتشكرون ولا تفعلون ما يؤدي إلى مخالفتنا. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: عليمًا فيغني من أوجبت الحكمة إغناؤه ويفقر من أوجبت الحكمة إفقاره. وقيل: بصيراً بمن يصبر وبمن يجزع، عن ابن جريج.



قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿١١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿١٢﴾ وَقَدْ مَنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا

﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالسَّعْمِ
وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا
﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَخْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلِيلَتِي أَنَحَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿٢٧﴾ يُنَوَّلَتْنِي
لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ
الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا
﴿٣٠﴾ .

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة وأبو عمرو: «تشقق» خفيفة الشين ههنا وفي سورة ق، والباقون: «تشقق» مشددة الشين. وقرأ ابن كثير: «نزل» بنون خفيفة، «الملائكة» بالنصب، والباقون: «ونزل» بنون واحدة وتشديد الزاي وفتح اللام، و«الملائكة» بالرفع.

● **الحجة:** تشقق: أصله تشقق، فأدغم التاء في الشين، والتخفيف أكثر في الكلام، لأن الحذف أخف عليهم من الإدغام. ومن قرأ «ونزل الملائكة تنزيلاً» فإن أنزل مثل نزل، ومثله في التنزيل: ﴿وَنَبِّئْ لَهُ تَبْيِيلًا﴾. فجاء المصدر على فعل. قال الشاعر: «وقد تطوَّيْتُ انطواء الخضب»^(١).

● **اللغة:** الرجاء: ترقب الخير الذي يقوي في النفس وقوعه، ومثله الطمع والأمل. واللقاء: المصير إلى الشيء من غير حائل، والعتو: الخروج إلى أفحش الظلم، وأصل الحجر الضيق، وسمي الحرام حَجراً لضيقه بالنهي عنه. قال المتلمس:

حَنَّتْ إِلَى التَّخَلَّةِ الْقُضُوى فَقُلْتُ لَهَا حَجَرٌ حَرَامٌ إِلَى تِلْكَ الدَّهَارِيسِ^(٢)

ومنه حَجَرُ الكعبة لأنه لا يدخل عليه في الطواف، وإنما يطاف من ورائه لتضييقه بالنهي عنه. والحجر: العقل لما فيه من التضييق في القبيح. والهباء: غبار كالشعاع لا يمكن القبض عليه. وفلان: كناية عن واحد بعينه من الناس لأنه معرفة. وقال ابن دريد عن أبي حاتم عن العرب: إنهم كنوا عن كل مذكر بفلان، وعن كل مؤنثة بفلانة، فإذا كنوا عن البهائم أدخلوا عليه الألف واللام فقالوا الفلان والفلانة.

● **الإعراب:** ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾: العامل في ﴿يَوْمَ﴾ معنى قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنه يدل على يحزنون، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾: توكيد لـ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ ولا يجوز أن

(١) قائله: رؤبة، وبعده: «بين قتاد ردهة وشقب». والخصب: ضرب من الحيات. قيل: ويجوز أن يكون أراد الوتر لأنه من معاني الخصب أيضاً.

(٢) فاعل حنت: النوق. والدهاريس بمعنى الدواهي. وهذا البيت من قصيدة له قالها بعدما هجا هو وطرفة عمرو بن هند، ملك العراق، فقتل طرفة بيد عامله ببحرين، وهرب المتلمس إلى الشام. وبلغه أن عمرو يقول: لئن وجده بالعراق ليقتلنه. وقصتهما طويلة ذكرها في (الأغاني ٢١: ١٢٧). و(معجم البلدان ٧: ٢٠٨)، و(مجمع الأمثال ١: ٣٥)، و(أمالي الشريف ١: ١٨٣). وغيرها.

يكون ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ منصوباً بـ ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ لأن ما يتصل بلا لم يعمل فيما قبلها. و﴿حَبْرًا﴾ منصوب لأنه مفعول ثان لفعل مقدر، وهو: جعل الله عليكم الجنة حَبْرًا محجوراً، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ﴾: العامل في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى﴾: العامل فيه محذوف تقديره: واذكر يوم تشقق. ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾: يومئذ من صلة الملك الذي هو المصدر. و﴿الْحَقُّ﴾ صفة له، والجار والمجرور الذي هو ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾: في موضع خبر المبتدأ الذي هو ﴿الْمَلِكُ﴾. ويجوز أن يكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفاً: وهو بدل من ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى﴾ ويكون العامل فيهما الظرف الذي هو قوله ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ وإن تقدما عليه. ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ﴾ يجوز أن يكون العامل فيه اذكر، ويجوز أن يكون معطوفاً على ما قبله. و﴿يَقُولُ﴾ جملة في موضع الحال. ﴿بَلَّيْتَنِي﴾ المنادى محذوف وتقديره يا صاحبي ليتني. و﴿يَوَلَّيْتَنِي﴾ منادى مضاف: أصله يا ويلتي تعالي فإنه وقتك فأبدل من الكسرة فتحة، ومن الياء ألفاً، لثقل الكسرة والياء، وخفة الفتحة والألف.

● **النزول:** قال ابن عباس: نزل قوله ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ﴾ في عقبة بن أبي معيط، وأبي بن خلف، وكانا متحالفين، وذلك أن عقبة كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً، فدعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة الرسول فقدم من سفره ذات يوم، فصنع طعاماً ودعا الناس، فدعا رسول الله ﷺ إلى طعامه. فلما قربوا الطعام قال رسول الله ﷺ: «ما أنا بأكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله». فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وبلغ ذلك أبي بن خلف فقال: صبأت يا عقبة؟ قال: لا والله ما صبأت، ولكن دخل علي رجل، فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له فطعم. فقال أبي: ما كنت براض عنك أبداً حتى تأتبه فتبزيق في وجهه. ففعل ذلك عقبة، وارتد وأخذ رحم دابة فالفأها بين كتفيه. فقال النبي ﷺ: «لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف». فضرب عنقه يوم بدر صبراً^(١). وأما أبي بن خلف فقتله النبي ﷺ يوم أحد بيده في المبارزة. وقال الضحاك: لما بزق عقبة في وجه رسول الله ﷺ، عاد بزاقه في وجهه فأحرق خديّه. وكان أثر ذلك فيه حتى مات. وقيل: نزلت في كل كافر أو ظالم تبع غيره في الكفر أو الظلم، وترك متابعة أمر الله تعالى. وقال أبو عبد الله ﷺ: ليس رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه آية أو آيتان، تقوده إلى جنة، أو تسوقه إلى نار، تجري فيمن بعده إن خيراً فخيراً وإن شراً فشرأ.

● **المعنى:** ثم حكى سبحانه عن حال الكفار بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يأملون لقاء جزائنا. وهذا عبارة عن إنكارهم البعث والمعاد. وقيل: معناه لا يخافون، فهي لغة تهامة. وهذيل يضعون الرجاء في موضع الخوف إذا كان معه جحد، لأن من رجا شيئاً خاف فوته، فإنه إذا لم يخف كان يقيناً. ومن خاف شيئاً رجا الخلاص منه، فوضع أحدهما موضع الآخر. ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: هلا أنزل الملائكة ليخبرونا بأن محمداً نبي ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيخبرنا بذلك ويأمرنا باتباعه وتصديقه. قال الجبائي: وهذا يدل على أنهم كانوا

(١) يقال للرجل إذا شدت يده ورجلاه، أو أمسكه رجل آخر حتى يضرب عنقه: قتل صبراً.

سورة الفرقان

مُجَسِّمَةً، فلذلك جَوَزُوا الرؤية على الله. ثم أقسم الله عز اسمه فقال: ﴿لَقَدْ أَسْتَكْبَرُوا﴾ بهذا القول ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: طلبوا الكبر والتجبر بغير حق ﴿وَعَتَوْا﴾ بذلك أي: طغوا وعاندوا ﴿عُتُوًا كَبِيرًا﴾ أي: طغياناً وعناداً عظيماً، وتمردوا في ردّ أمر الله تعالى غاية التمرد. ثم أعلم سبحانه أن الوقت الذي يرون فيه الملائكة هو يوم القيامة، وأن الله تعالى قد حرمهم البشري في ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ يعني يوم القيامة ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: لا بشارة لهم بالجنة والثواب، قال الزجاج: والمجرمون الذين أجزموا الذنوب، وهم في هذا الموضع الذين اجترموا الكفر بالله عز وجل. ﴿وَيَقُولُونَ حَبْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: ويقول الملائكة لهم حراماً محرماً عليكم سماع البشري، عن قتادة والضحاك. وقيل: معناه ويقول المجرمون للملائكة كما كانوا يقولون في الدنيا إذا لقوا من يخافون منه القتل حَبْرًا محجوراً دماؤنا، عن مجاهد وابن جريج. قال الخليل: كان الرجل يرى الرجل الذي يخاف منه القتل في الجاهلية في الأشهر الحرم، فيقول: حبراً أي: حرام عليك حرمتي في هذا الشهر، فلا يبدأه بشر، فإذا كان يوم القيامة رأوا الملائكة فقالوا ذلك ظناً منهم أنه ينفهم. وقيل: معناه يقول الملائكة حراماً محرماً أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا الله، عن عطاء عن ابن عباس. وقيل: يقولون حَبْرًا محجوراً عليكم أن تتعوزوا فلا معاذ لكم. ﴿وَقَدْ مَنَّا إِيَّاكَ مَا وَعَدْنَاهُ مِنْ عَمَلٍ﴾ أي: قصدنا وعمدنا، كما في قول الشاعر:

وَقَدِمَ الْخَوَارِجُ الضُّلَّالُ إِلَى عِبَادِ رَبِّهِمْ فَقَالُوا:
إِنَّ دِمَاءَكُمْ لَنَا حَالِلٌ

وفي هذا بلاغة عجيبة لأن التقدير: قصدنا إليه قصد القادم على ما يكرهه مما لم يكن رآه قبل، فيغيّره. وأراد به العمل الذي عمله الكفار في الدنيا، مما رجوا به النفع والأجر، وطلبوا به الثواب والبر، نحو إنصافهم لمن يعاملهم ونصرهم للمظلوم وإعتاقهم وصدقاتهم، وما كانوا يتقرّبون به إلى الأصنام. ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ وهو الغبار يدخل الكوة من شعاع الشمس، عن الحسن ومجاهد وعكرمة. وقيل: هو رهج الدواب^(١)، عن ابن زيد. وقيل: هو ما تسفيه الرياح وتزريه من التراب، عن قتادة وسعيد بن جبير. وقيل: هو الماء المهرق، عن ابن عباس، والمنثور المتفرق، وهذا مثل. والمعنى: تذهب أعمالهم باطلاً، فلم ينتفعوا بها من حيث عملوها لغير الله. ثم ذكر سبحانه فضل أهل الجنة على أهل النار فقال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني يوم القيامة ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ أي: أفضل منزلاً في الجنة ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: موضع قائلة. قال الأزهرى: القيلولة عند العرب الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر، وإن لم يكن مع ذلك نوم، والدليل على ذلك أن الجنة لا نوم فيها. وقال ابن عباس وابن مسعود: لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقبل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. وقال البلخي: معنى خير وأحسن هنا أنه خير في نفسه، وحسن في نفسه، لا بمعنى أنه أفعل من غيره، كما في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ

(١) الريح: ما أثير من الغبار.

عَلَيْهِ أَي: هو هُيْن عليه. وكما يقال: الله أكبر. لا بمعنى أنه أكبر من شيء غيره. ﴿وَيَوْمَ نَشَقُّ السَّمَاءَ بِالسَّعْيِ عَطْفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ المعنى: تتشق السماء وعليها غمام، كما يقال: ركب الأمير بسلاحه وخرج بشيابه، أي: وعليه سلاحه وثيابه، عن أبي علي الفارسي. وقيل: تتشق السماء عن الغمام الأبيض، عن الفراء، وإنما تتشق السماء لنزول الملائكة، وهو قوله: ﴿وَنَزَّلَ الْمَلَكُ نُزَيْلًا﴾ وقال ابن عباس: تتشق السماء الدنيا فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس، ثم تتشق السماء الثانية فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في السماء الدنيا من الإنس والجن، ثم كذلك حتى تتشق السماء السابعة، وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي قبلها. ﴿الْمَلِكُ يَوْمَ يَوْمِ الْحَقِّ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: الملك الذي هو الملك حقاً ملك الرحمن يوم القيامة، ويزول ملك سائر الملوك فيه. وقيل: إن الملك ثلاثة أضرب: ملك عظمة وهو الله تعالى وحده، وملك ديانة وهو بتعليم الله تعالى، وملك جبرية وهو بالغلبة. ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ أعسر عليهم ذلك اليوم لشدة ومشقة، ويهون على المؤمنين كأدنى صلاة صلّوها في دار الدنيا.

وفي هذا بشارة للمؤمنين، حيث خصّ بشدة ذلك اليوم الكافرين. ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ ندماً وأسفاً، وقيل: هو عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس، على ما مضى ذكره، عن ابن عباس. وقيل: هو عام في كل ظالم نادم يوم القيامة، وكل خليل يخالّه غيره في غير ذات الله، قال عطاء: يأكل يديه حتى تذهب إلى المرفقين ثم تنبتان، ولا يزال هكذا كلما نبتت يده أكلها ندامة على ما فعل. ﴿يَقُولُ يَنْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ أي: ليتني اتبعت محمداً ﷺ واتخذت معه سبيلاً إلى الهدى ﴿يَتَوَلَّى لَنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا﴾ يعني أبنياً ﴿خَيْلًا﴾ وقيل: أراد به الشيطان، عن مجاهد. وإن قلنا: إن المراد بالظالم هنا جنس الظلمة، فالمراد به كل خليل يضلّ عن الدين. ولو قال: لما اتخذ فرعون وهامان وإبليس وجميع المضلين لطلال، فقال: فلاناً، حتى يتناول كل خليل مضلّ عن الدين. ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي﴾ أي: صرفني وردني ﴿عَنِ الذِّكْرِ﴾ أي: عن القرآن والإيمان به ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ مع الرسول، وتمّ الكلام هنا. ثم قال الله: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ لأنه يتبرأ منه في الآخرة، ويسلمه إلى الهلاك ولا يغني عنه شيئاً. ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ يعني محمداً ﷺ يشكو قومه ﴿يَتَرَبَّ إِنَّا قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ يعني هجروا القرآن وهجروني وكذبوني، عن ابن عباس، والمعنى: جعلوه متروكاً لا يسمعون ولا يفهمونه. وقيل: إن قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ معناه: ويقول، كما في قول الشاعر:

مِثْلُ الْعَصَافِيرِ أَحْلَامًا وَمَقْدُرَةً لَوْ يُوزَنُونَ بِزِفِ الرِّيشِ مَا وَزَنُوا^(١)

أي: ما يزنون.



(١) قائله: قعنّب بن أم صاحب. والزف: صغار الريش. قاله في هجاء قوم وحقرهم.

سورة الفرقان

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٣٤ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ۝٣٥ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَذِيرًا ۝٣٦ وَقَوْمٌ نُوْحٌ لِّمَا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧ وَعَادًا وَثَمُودًا ۖ وَأَصْحَبَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝٣٩ وَلَقَدْ أَنْوَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْتُ مَطَرَ السَّوَاءِ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شُورًا ۝٤٠

● **القراءة:** في الشواذ قراءة مسلم بن محارب: «فَدَمْزَلْنَهُمْ تَدْمِيرًا» على التأكيد بالنون الثقيلة. وروي ذلك عن علي عليه السلام وعنه: «فَدَمْزَلْنَهُمْ» وهذا كأنه أمر لموسى وهارون أن يدمراهم.

● **اللغة:** العدو: المتباعد عن النصرة للبغضة، من عدا يعدو: إذا باعد خطوه. وعدا عليه: باعد خطوه للإيقاع به، وتعدى في فعله: إذا أبعد في الخروج عن الحق، ومنه غَدُوتَا الوادي: لأنهما بعده ونهايته، والترتيل: التبيين في تثبيت وترسل، وثغر رَتَلٌ وَرَتَلٌ بفتح التاء وسكونها: إذا كان مفلجاً لا لصص فيه^(١). والتدمير: الإهلاك لأمر عجيب، ومنه التنكيل. يقال: دمر على فلان: إذا هجم عليه بالمكروه، والرس: البثر التي لم تطو بحجارة ولا غيرها. والتبوير: الإهلاك، والاسم منه التبار، ومنه قيل: التبر لقطع الذهب.

● **الإعراب:** قال الزجاج: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ منصوب على وجهين:

أحدهما: الحال، أي: كفى ربك في حال الهداية والنصر.

والآخر: أن يكون منصوباً على التمييز، أي: كفى ربك من الهداة والنصار، جملة نصب على الحال معناه مجموعاً. ﴿وَأَحْسَنَ﴾ مجرور بالعطف على ﴿الْحَقِّ﴾. ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ في موضع نصب على الحال وتقديره: يحشرون مكبوبين. ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره هذا الظاهر، تقديره: أغرقنا قوم نوح. والعامل فيه لما أغرقناهم. ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ وما بعد ذلك. عطف على الهاء والميم في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾، ويجوز أن يكون عطفاً على معنى وأعتدنا للظالمين عذاباً. ويكون تقديره: وعدنا للظالمين بالعذاب ووعدنا عاداً. ﴿وَكُلًّا﴾ منصوب بفعل

(١) المفلجة من الأسنان: المنفرجة. واللصص تقارب الأسنان.

مضمرة الذي ظهر تفسيره، المعنى: وأنذرنا كلاً ضربنا له الأمثال وتبرنا كلاً. ﴿مَطَرُ السَّوءِ﴾ منصوب لأنه مصدر أمطرت تقديره: إمطار السوء.

● **المعنى:** ثم عزى الله سبحانه نبيه بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: وكما جعلنا لك عدواً من مشركي قومك، جعلنا لكل نبي عدواً من كفار قومه، عن ابن عباس. والمعنى في جعله إياهم عدواً لأنبيائه: أنه تعالى أمر الأنبياء ﷺ أن يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى، وترك ما ألفوه من دينهم ودين آبائهم، وإلى ترك عبادة الأصنام وذمها، وكانت هذه أسباباً داعية إلى العداوة، فإذا أمرهم بها فقد جعلهم عدواً لهم. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي: حسبك بالله هادياً إلى الحق وناصراً لأوليائه في الدنيا والآخرة على أعدائهم. وقيل: هادياً للأنبياء إلى التحرز عن عداوة المجرمين بالاعتصام بحبله. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ معناه: وقال الكفار لرسول الله ﷺ: هلا أتيتنا بالقرآن جملة واحدة، كما أنزل التوراة والإنجيل والزبور جملة واحدة. قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: نزلناه كذلك متفرقاً ﴿إِنِّي نَزَّلْتُهُ فِي فُؤَادِكَ﴾ أي: لنقوي به قلبك فتزداد بصيرة، وذلك أنه إذا كان يأتيه الوحي متجداً في كل حادثة وكل أمر، كان ذلك أقوى لقلبه وأزيد في بصيرته. وقيل: إنما أنزلت الكتب جملة واحدة لأنها نزلت على أنبياء يكتبون ويقرأون فنزلت عليهم مكتوبة، والقرآن إنما نُزل على نبي أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولذلك نزل متفرقاً، وأيضاً فإن في القرآن الناسخ والمنسوخ، وفيه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، وفيه ما هو إنكار لما كان، وفيه ما هو حكاية شيء جرى، فاقترضت الحكمة إنزاله متفرقاً. ﴿وَرَكَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ أي: بيناه تبييناً ورسلاً ترسيلاً، بعضه في اثر بعض، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. وقيل: فصلناه تفصيلاً، عن السدي، وقيل: فرقناه تفريقاً، عن النخعي. وروى أن النبي ﷺ قال: «يا بن عباس إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلاً، قال: وما الترتيل؟ قال: بينه تبييناً ولا تنثره نشر الدقل، ولا تهذه هذ الشعر^(١)، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكون هم أحدكم آخر السورة». ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: ولا يأتيك المشركون بمثل يضربونه لك في إبطال أمرك ومخاصمتك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الذي يبطله ويدحضه ﴿وَأَحْسَنَ تَقْسِيماً﴾ أي: وأحسن تفسيراً مما أتوا به من المثل أي: بياناً وكشفاً. ﴿الَّذِينَ يُخَشِّرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ لِكِ جَهَنَّمَ﴾ أي: يُسحبون على وجوههم إلى النار وهم كفار مكة، وذلك أنهم قالوا لمحمد ﷺ وأصحابه هم شرُّ خلق الله سبحانه. ﴿أَوَلَيْكَ شَرُّ مَكَانًا﴾ أي: منزلاً ومصيراً ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: ديناً وطريقاً من المؤمنين. وروى أنس أن رجلاً قال: يا نبي الله! كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «إن الذي أمشاه على رجله قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة». أورده البخاري في الصحيح. ثم ذكر سبحانه حديث الأنبياء وأمرهم تسلياً للنبي فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ أي: معيناً يعينه على تبليغ الرسالة، ويتحمل عنه بعض أثقاله ﴿فَقُلْنَا أَهْبَا

(١) الدقل: رديء التمر ويابس، وما ليس له اسم خاص، فتراه ليسه ورداءته لا يجتمع، ويكون مثوراً. والهد: سرعة القراءة.

سورة الفرقان

إِلَى الْقَوْرِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴿١﴾ يعني فرعون وقومه، وفي الكلام حذف أي: فذهبا إليهم فلم يقبلوا منهما وجحدوا نبوتهما ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي: أهلكناهم إهلاكاً بأمر فيه أعجوبة. ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ أي: وأغرقنا قوم نوح بالطوفان، وهو مجيء السماء بماء منهمر، وتفجير الأرض عيوناً حتى التقى الماء على أمر قد قدر. قال الزجاج: من كذب نبياً فقد كذب بجميع الأنبياء. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي: عبرة وعظة ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: وهبنا ﴿لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ سوى ما حلَّ بهم في الدنيا ﴿وَعَادًا وَثُمُودًا﴾ أي: وأهلكنا عاداً وثمود، ﴿وَأَصْحَابَ الرَّيِّ﴾ وهو بئر رسوا فيها نبيهم أي: ألقوه فيها، عن عكرمة، وقيل: إنهم كانوا أصحاب مواش ولهم بئر يقعدون عليها، وكانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم شعبياً فكذبوه، فانهار البئر وانخسفت بهم الأرض فهلكوا، عن وهب. وقيل: الرس قرية باليمامة يقال لها فلج قتلوا نبيهم فأهلكهم الله، عن قتادة. وقيل: كان لهم نبي يسمى حنظلة، فقتلوه فأهلكوا، عن سعيد بن جبير والكلبي. وقيل: هم أصحاب رس، والرس: بئر بأنطاكية، قتلوا فيها حبيباً النجار، فنسبوا إليها، عن كعب ومقاتل. وقيل: أصحاب الرس كان نساؤهم سحاقيات، عن أبي عبد الله عليه السلام. ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: وأهلكنا أيضاً قروناً كثيراً بين عاد وأصحاب الرس على تكذيبهم. وقيل: بين نوح وأصحاب الرس. والقرن: سبعون سنة. وقيل: أربعون سنة، عن إبراهيم. ﴿وَكُلًّا صَبَرْنَا لَهُ الْأَمَلُ﴾ أي: وكلاً بيئنا لهم أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا، عن مقاتل. وقيل: معناه بيئنا لهم الأحكام في الدين والدنيا ﴿وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا﴾ أي: وكلاً أهلكنا إهلاكاً على تكذيبهم وجحودهم. قال الزجاج: كل شيء كسرتة وفتته فقد تبرته. ﴿وَلَقَدْ أَنَاوَأْ﴾ يعني كفار مكة ﴿عَلَى الْفَرِيقِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرُ السَّوْءِ﴾ يعني قرية قوم لوط أمطروا بالحجارة ﴿أَفَكُم يَكُونُوا يَكُونُهَا﴾ في أسفارهم إذا مروا فيخافوا ويعتبروا ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ شُورًا﴾ يعني: بل رأوها وإنما لم يعتبروا بها لأنهم كانوا لا يخافون البعث، وقيل: لا يأملون ثواباً ولا يؤمنون بالنشأة الثانية، فركبوا المعاصي.



قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُّوكَ إِلَّا هُزُوًا أَلَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا
﴿٤١﴾ **إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ**
يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ**
وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ**
هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ **أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ**
جَعَلَنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ **ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾** **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ**
لَكُمْ أَلِيلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ شُورًا ﴿٤٧﴾ **وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا**
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ **لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مِّثْنًا وَنُسْفِيزَهُ**

مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ .

● **القراءة:** قرأ البرجمي: «نُسْقِيه» بفتح النون، والباقون: «نُسْقِيه» بضم النون. وفي الشواذ قراءة الأعرج: «من اتخذ الألاهة هواه»، وقراءة ابن السميع: «الرياح بشرى».

● **الحجة:** قد مضى الفرق بين نسقي ونُسْقِي فيما تقدم^(١). والألاهة: الشمس، وقيل: ألهة بالضم غير مصروفة، وأنشد:

تَرَوُّخَنَا مِنَ اللَّغْبَاءِ عَضْرًا وَأَعَجَلْنَا الْأَلَاهَةَ أَنْ تَوُوبَا^(٢)

ويروى: «وأعجلنا الإلاهة». ومن قرأ: «وألاهتك» فمعناه: وعبادتك، وقد يجوز أن يكون أراد هذه المعرفة، فأضافها إليه لعبادته لها، فيكون كقولك: ويذكرك وشمسك أي: والشمس التي تعبدوها. ومن قرأ: «بشرى» فهو مصدر وضع موضع الحال أي: مبشرة كقولهم: هلم جراً أي: جاراً أو منجراً، ويأتينك سعيًا. وقد ذكرنا الاختلاف بين القراء فيه وما لهم من الاحتجاج في كل وجه منه في سورة الأعراف، وذكرنا اختلافهم في «ليذكروا» في سورة بني إسرائيل.

● **اللغة:** القبض: جمع الأجزاء المنبسطة، واليسير: السهل القريب، واليسير أيضاً: نقيض العسير. وأيسر الرجل: ملك من المال ما تيسر به الأمور عليه. وقيل: اليد اليسرى، لأنه ييسر بها العمل مع اليمنى، وتيسر: أخذ في جهة اليد اليسرى، والسبات: قطع العمل، ومنه سبت رأسه يسبته سبتاً: إذا حلقه. ومنه يوم السبت: وهو يوم قطع العمل. والنشر: خلاف الطي. وأناسي: جمع إنسان جعلت الياء عوضاً عن النون، وقد قالوا أيضاً: أناسين. وقد يجوز أن يكون جمع إنسي، فيكون مثل كرسي وكراسي.

● **الإعراب:** ﴿أَمَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُوْلًا﴾ العائد من الصلة إلى الموصول محذوف لطول الكلام أي: بعثه الله. ﴿رَسُوْلًا﴾ منصوب على الحال من الهاء المحذوفة. ﴿وَإِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا﴾ إن مخففة، واسمه محذوف تقديره: إنه كاد، وهو ضمير الأمر والشأن. واللام في ﴿لَيُضِلَّنَا﴾ لام التأكيد التي تقع في خبر إن. ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلُّ﴾ كيف في محل نصب على الحال من الضمير المستكن في مد. والتقدير: أبعداً مد الظل أم لا. ويجوز أن يكون في موضع المصدر والتقدير: أي: مدَّ مدَّ الظل. وقال الزجاج: الأجود أن يكون «ألم تر» من رؤية القلب، ويجوز أن يكون من رؤية العين. و﴿بَشُرًا﴾ نصب على الحال في الوجوه كلها من الرياح، والعامل فيه ﴿أَرْسَلَ﴾. ﴿مِمَّا خَلَقْنَا﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال.

● **المعنى:** ثم حكى سبحانه عن الكفار الذين وصفهم فيما تقدم فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ أي: وإذا شاهدوك يا محمد ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: ما يتخذونك إلا مهزواً به،

(١) يعني في سورة النحل فراجع ج ٣ من هذه الطبعة.

(٢) قيل: إن الشعر لمية بنت عتبة، وهي أم البنين.

والمعنى أنهم يستهزئون بك ويستصغرونك، ويقولون على وجه السخرية: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أي: بعثه الله إلينا رسولاً ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ قال ابن عباس: معناه لقد كاد يصرفنا عن عبادة آلهتنا، وتأويله: قد قارب أن يأخذ بنا في غير جهة عبادة آلهتنا، على وجه يؤدي إلى هلاكنا، فإن الإضلال: الأخذ بالشيء إلى طريق الهلاك. ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: على عبادتها لأزلنا عن ذلك، وحذف الجواب لدلالة الكلام عليه. فقال سبحانه متوعداً لهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ الذي ينزل بهم في الآخرة عياناً ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: من أخطأ طريقاً عن الهدى، أهم أم المؤمنون. ثم عجب سبحانه نبيه ﷺ من نهاية جهلهم فقال: ﴿أَوَيْتَ مِنَ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ أي: من جعل إلهه ما يهواه، وهو غاية الجهل. وكان الرجل من المشركين يعبد الحجر والصنم، فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ يعبد الآخر، عن سعيد بن جبير. وقيل: معناه أرأيت من ترك عبادة خالقه وإلهه ثم هوى حجراً فعبده، ما حاله عندك؟ عن عطاء، عن ابن عباس. وقيل: من أطاع هواه واتبعه فهو كالإله له، وترك الحق، عن القتيبي. ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: أفأنت كفيل حافظ يحفظه من اتباع هواه، وعبادة ما يهواه من دون الله أي: لست كذلك، وقيل: معناه أتقدر أنت يا محمد أن تهديه إذا لم يتدبر ولم يتفكر؟ أي: لا تقدر على ذلك لأن الوكيل هو الكافي للشيء، ولا يكون كذلك إلا وهو قادر عليه. ثم قال للنبي ﷺ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ يا محمد، ﴿أَنْ أَكْفَرَهُمْ بِسَمْعِكَ﴾ ما تقوله سماع طالب للإفهام ﴿أَوْ يَقُولُونَ﴾ ما تقوله لهم وتقرأ عليهم، وما يعاينونه من المعجزات والحجج، أي: لا تظن ذلك ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: ما هم إلا كالبهائم التي تسمع النداء ولا تعقل ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من الأنعام لأنهم مكثوا من المعرفة، فلم يعرفوا. والأنعام لم يمكنوا منها، ولأن الأنعام ألهمت منافعها ومضارها، فهي لا تفعل ما يضرها، وهؤلاء عرفوا طريق الهلاك والنجاة وسعوا في هلاك أنفسهم، وتجنبوا سبيل نجاتهم، فهم أضل منها. ثم نبه سبحانه على النظر فيما يدل على وحدانيته وكمال قدرته فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به سائر المكلفين ﴿إِنَّ رَبَّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي: ألم تر إلى فعل ربك، ثم حذف المضاف، عن مقاتل. وقيل: معناه ألم تعلم فيكون من رؤية القلب، عن الزجاج: وذكر أن هذا على القلب، وتقديره: ألم تر إلى الظل كيف مده ربك، يعني الظل من وقت طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، عن ابن عباس والضحاك وسعيد بن جبير. وجعله ممدوداً لأنه لا شمس معه، كما قيل في ظل الجنة ممدوداً إذا لم تكن معه الشمس. وقال أبو عبيدة: الظل ما نسخته الشمس وهو بالغداة، والفيء ما نسخ الشمس وهو بعد زوال الشمس، وسمي فيئاً لأنه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب. وقيل: مد الظل من وقت غروب الشمس إلى وقت طلوعها، فيكون الظل بالليل، لأنه ظل الأرض، عن الجبائي والبلخي. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: مقيماً دائماً لا يزول ولا تنسخه الشمس. يقال: فلان يسكن بلد كذا: إذا أقام به. فهو مثل قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، في المعنى. وفي هذا إشارة إلى أنه قادر على تسكين الشمس حتى يبقى الظل ممدوداً، بخلاف ما يقوله الفلاسفة. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الظل ﴿دَلِيلًا﴾ قال ابن عباس: تدل الشمس على

الظل، بمعنى: أنه لولا الشمس لما عرف الظل، ولولا النور لما عرفت الظلمة، وكل الأشياء تعرف بأضدادها. وقيل: معناه ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً بإذهابها إياه عند مجيئها، عن ابن زيد. وقيل: لأن الظل يتبع الشمس في طوله وقصره، كما يتبع السائر الدليل، فإذا ارتفعت الشمس قصر الظل وإذا انحطت الشمس طال الظل. وقيل: إنَّ على هنا بمعنى مع، فالمعنى: ثم جعلنا الشمس مع الظل دليلاً على وحدانيتنا ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (١١) أي: قبضنا الظل بارتفاع الشمس، لأن الشمس كلما تعلو ينقص الظل فجعل سبحانه ذلك قبضاً. وأخبر أن ذلك يسير بمعنى أنه سهل عليه لا يعجزه. قال الكلبي: إذا طلعت الشمس قبض الله الظل قبضاً خفياً، والمعنى: ثم جمعنا أجزاء الظل المنبسط بتسليط الشمس عليه حتى ننسخها شيئاً فشيئاً. وقيل: معناه ثم قبضنا الظل بغروب الشمس إلينا أي: إلى الموضع الذي حكمنا بكون الظل فيه. قبضاً يسيراً أي: خفياً. وإنما قيل ذلك لأن الظل لا يذهب بغروب الشمس دفعة، بل يذهب جزءاً فجزءاً بحدوث الظلام، فكلما حدث جزء من الظلام نقص جزء من الظل. ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْإِنلَّ لِأَسَا﴾ أي: غطاء ساتراً للأشياء بالظلام، كاللباس الذي يشتمل على لابس. فالله سبحانه ألبسنا الليل وغشانا به لنسكن ونستريح من كد الأعمال، كما قال في موضع آخر ﴿لَنَسْكُنُوا فِيهِ﴾. ﴿وَالنَّوْمُ سُبَاتًا﴾ أي: راحة لأبدانكم وقطعاً لأعمالكم، قال الزجاج: السبات أن ينقطع عن الحركة والروح في بدنه. ﴿وَجَعَلَ الْنَّهَارَ نُشُورًا﴾ لانتشار الروح باليقظة فيه، مأخوذ من نشور البعث. وقيل: لأن الناس ينتشرون فيه لطلب حوائجهم ومعاشهم، فيكون النشور هنا بمعنى التفرق لابتغاء الرزق، عن ابن عباس. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيِّنَاتٍ يَدْعُو رَحْمَتَهُ﴾ مضى الكلام فيه في سورة الأعراف ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أي: طاهراً في نفسه ومطهراً لغيره، مزيلاً للأحداث والنجاسات ﴿لَنُنَجِّيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيْتًا﴾ قد مات بالجذب، وأراد بالبلدة: البلد أو المكان. فلذلك قال: ﴿مَيْتًا﴾ بالتذكير، والمعنى: لنحيي بالمطر بلدة ليس فيها نبت، قال ابن عباس: لنخرج به النبات والثمار ﴿وَنُشْفِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا﴾ أي: ولنسقي من ذلك الماء أنعاماً جمّة أو نجعله سقياً لأنعام ﴿وَأَنَابِيءَ كَثِيرًا﴾ أي: أناساً كثيرة. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ﴾ أي: صرفنا المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يدور في جهات الأرض. وقيل: قسّمناه بينهم يعني المطر، فلا يدوم على مكان فيهلك، ولا ينقطع عن مكان فيهلك، ويزيد لقوم وينقص لآخرين على حسب المصلحة ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ أي: ليتفكروا ويستدلوا به على سعة مقدورنا، ولأنه لا يستحق العبادة غيرنا ﴿فَأَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَفُورًا﴾ أي: جحوداً لما عدّدناه من النعم وإنكاراً، فيقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، عن عكرمة، وقيل: فأبوا إلا كفوراً بالبعث والنشور.



قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ (٥١) ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَنَّهُمْ بِهِ جَهَادًا كَبِيرًا﴾ (٥٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا

مَلُحٌ أَجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٩﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٦٠﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٦١﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا ﴿٦٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ ثُغُورًا ﴿٦٣﴾ .

● **القراءة:** قرأ حمزة والكسائي: «لما يأمرنا» بالياء، والباقون بالياء.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ بالتاء قال: إنهم تلقوا أمر النبي ﷺ إياهم بالرد، وزادهم أمره إياهم بالسجود نفوراً عما أمروا به. ومن قرأ بالياء فالمعنى: أنسجد لما يأمرنا محمد بالسجود على وجه الإنكار منهم لذلك، ولا يكون أنسجد لما يأمرنا الرحمن بالسجود له، لأنهم أنكروا الرحمن تعالى بقولهم: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾. وأقول: إذا جعلت ما بمعنى الذي على ما ذكره، فالتقدير: أنسجد لما يأمرنا بالسجود له، وترتيب الحذف فيه على الوجه الذي تقدم بيانه في قوله سبحانه ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فلا وجه لإعادته^(١). وإن جعلت ما مصدرية فإنك لا تحتاج إلى حذف شيء ويكون تقديره: أنسجد لأمرك أو لأمره.

● **اللغة:** أصل المرج: الخلط، ومنه أمر مريج أي: مختلط، وفي الحديث: «مرجت عهودهم» أي: اختلطت. ومرجت الدابة وأمرجتها: إذا خلتها ترعى. وعذب الماء عذوبة فهو عذب. والفرات أعذب المياه، يقال: فرت الماء يفرت فروة فهو فرات: إذا عذب، والملح الأجاج: الشديد الملوحة، والنسب: ما يرجع إلى ولادة قريبة، والصهر: خلطة تشبه النسب. القرابة والمصاهرة في النكاح: المقاربة، وفي الحديث: «كان يؤسس مسجد قبا فيصهر الحجر العظيم إلى بطنه» أي: يذنيه يقال: صهره وأصهره.

● **الإعراب:** ﴿هَذَا عَذَبٌ قُرَاتٌ﴾ مبتدأ وخبر في موضع نصب على الحال، وكذلك قوله: ﴿وَهَذَا مَلُحٌ أَجَاجٌ﴾ بالعطف عليه، وذو الحال أحد البحرين. ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ نصب على الحال، و﴿مَنْ شَاءَ﴾ نصب على الاستثناء، والمستثنى منه الكاف، والميم في ﴿أَسْأَلُكُمْ﴾. و﴿أَنْ يَتَّخِذَ﴾ في موضع نصب بأنه مفعول شاء. ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ في موضع جر تقديره: وتوكل على الحي الذي لا يموت، خالق السماوات والأرض. ويحتمل أن يكون في موضع نصب أو رفع على المدح والثناء، على تقدير: أعني الذي خلق، أو هو الذي خلق. و﴿الرَّحْمَنُ﴾ بالرفع القراءة. وورد عن بعضهم في الشواذ بالجر، ففي الرفع وجوه:

(١) راجع في سورة الحجر آية: ٩٤.

أحدهما: الابتداء، وخبره ﴿فَسْتَلِيَهُ﴾ عن الزجاج. وفيه نظر، لأن الفاء إنما يجوز في خبر ما فيه الألف واللام، إذا جاز فيه معنى الشرط، ولا يصح ذلك هنا.

والثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: هو الرحمن.

والثالث: أن يكون بدلاً من الضمير المستكن في ﴿أَسْتَوِي﴾.

والرابع: أن يكون فاعل ﴿أَسْتَوِي﴾، وأما الجر فعلى أن يكون صفة وتقديره: وتوكل على الحي الخالق الرحمن. و﴿تَوَكَّلْ﴾ مفعول ثان لزيد.

● **المعنى:** ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ (١٠) ينذرهم، ولكن بعثناك يا محمد إلى القرى كلها رسولاً، لعظيم منزلتك لدينا، والنذير: هو الداعي إلى ما يؤمن معه الخوف من العقاب. وقيل: إنه إخبار عن قدرته سبحانه، والمعنى: لو شئنا لقسمنا بينهم النذر، كما قسمنا الأمطار بينهم، ولكننا نفعل ما هو الأصلح لهم والأعود عليهم في دينهم ودنياهم، فبعثناك إليهم كافة. ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من المداينة والإجابة إلى ما يريدون. ﴿وَجَهَنَّهُمْ﴾ في الله ﴿بِهِ﴾ أي: بالقرآن، عن ابن عباس ﴿جَهَادًا كَبِيرًا﴾ أي: تاماً شديداً، وفي هذا دلالة على أن من أجل الجهاد وأعظمه منزلة عند الله سبحانه جهاد المتكلمين في حل شبه المبطلين وأعداء الدين. ويمكن أن يتأول عليه قوله: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسلهما في مجاريهما وخلاهما كما يرسل الخيل في المرح، وهما يلتقيان فلا يختلط الملح بالعذب ولا العذب بالملح، وهو قوله: ﴿هَذَا﴾ يعني أحد البحرين ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي: طيب شديد الطيب ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة، وقيل: الفرات البارد، والأجاج الحاد. وقيل: الأجاج المر، عن قتادة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حجاباً وحاجزاً من قدرة الله تعالى، يمنعهما من الاختلاط ﴿وَجَجَرًا تَحْجُورًا﴾ أي: حراماً محرماً أن يفسد الملح العذب ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ أي: خلق من النطفة إنساناً، وقيل: أراد به آدم عليه السلام، فإنه خلق من التراب الذي خلق من الماء. وقيل: أراد به أولاد آدم فإنهم المخلوقون من الماء ﴿فَجَعَلَهُمْ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي: فجعله ذا نسب وصهر، والصهر: حرمة الختونة. وقيل: النسب الذي لا يحل نكاحه، والصهر: النسب الذي يحل نكاحه كبنيات العم والخال، عن الفراء، وقيل: النسب سبعة أصناف والصهر خمسة، ذكرهم الله في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، عن قتادة والضحاك. وقد تقدّم بيانه في سورة النساء. وقيل: النسب البنون، والصهر البنات اللاتي يستفيد الإنسان بهن الإصهار فكانه قال: فجعل منه البنين والبنات. وقال ابن سيرين: نزلت في النبي ﷺ وعلي بن أبي طالب زوج فاطمة عليها السلام، فإن علياً عليه السلام هو ابن عمه وزوج ابنته، فكان نسباً وصهراً. ﴿وَكَانَ رُزُقًا قَدِيرًا﴾ أي: قادراً على ما أراد. ثم أخبر سبحانه عن الكفار فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ الظهير: العون والمعين أي: معيناً للشيطان على ربه بالمعاصي، عن الحسن ومجاهد. وقال الزجاج: لأنه يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الله، فإن عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان، وقيل: ظهيراً أي: هيناً كالمطرح من قولهم: ظهر فلان بحاجته: إذا

جعلها خلف ظهره فلم يلتفت إليها واستهان بها. والظهير: بمعنى المظهر وهو المتروك المستخف به، ومنه قوله: ﴿وَأَعْتَدْتُمُوهَ وَرَأَيْتُمْ ظَهِيرًا﴾. والأول أوجه. وقالوا: عنى بالكافر أبا جهل. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار، وقد سبق معناه. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿مَا أَشْتَكُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن وتبليغ الوحي ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ تعطونه ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهًا مِثْلًا﴾ بإنفاقه ماله في طاعة الله واتباع مرضاته. والمعنى: إني لا أسألكم لنفسي أجراً، ولكني لا أمتنع من إنفاق المال في طلب مرضاة الله سبحانه، بل أرغب فيه وأحث عليه. وفي هذا تأكيد لصدقه، لأنه لو طلب علي تبليغ الرسالة أجراً، لقالوا: إنما يطلب أموالنا. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي: فوض أمورك إليه، فإنه ينتقم لك ولو بعد حين، فإنه الحي الذي لا يموت، فلن يفوته الانتقام ﴿وَسَيَجْزِي بَحْمَدِهِ﴾ أي: أحمدته منزهاً له عما لا يجوز عليه في صفاته بأن تقول: الحمد لله رب العالمين، الحمد لله على نعمه وإحسانه الذي لا يقدر عليه غيره، الحمد لله حمداً يكافئ نعمه في عظيم المنزلة وعلو المرتبة. وما أشبه ذلك. وقيل: معناه وابعده وصل له شكراً منك له على نعمه. ﴿وَكَفَى بِهِ يَذُوتٍ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ أي: عليمًا فيحاسبهم ويجازيهم بها. فحقيق بهم أن يخافوه ويراقبوه ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بين هذين الصنفين ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ قد سبق تفسيره في سورة الأعراف. ﴿فَتَشَلَّى بِهِ خَيْرًا﴾ اختلف في تأويله فقيل: إن المعنى فاسأل عنه خبيراً، والباء بمعنى عن، والخبير ههنا هو الله تعالى، عن ابن جريج، وأنشد في قيام (الباء) مقام (عن) قول علقمة بن عبدة:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي خَبِيرٌ بِأَذْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبٌ
يُرِدُّ ثَرَاءَ الْمَالِ حَيْثُ وَجَدْتُهُ وَشَرَحُ الشُّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبٌ^(١)
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ فَلَيْسَ لَهُ فِي وَدْهَنْ نَصِيبٌ

وقول الأخطل:

دَعِ الْمُعَمَّرَ لَا تَسْأَلْ بِمَضَرَعِهِ وَاسْأَلْ بِمَضَقَّةِ الْبَكْرِ مَافَعَلَا

وقيل: إن الخبير هنا محمد ﷺ، والمعنى: ليسأل كل منكم عن الله تعالى محمداً فإنه الخبير العارف به، وقيل: إن الباء على أصلها، والمعنى: فاسأل بسؤالك أيها الإنسان خبيراً يخبرك بالحق في صفته. ودل قوله: ﴿فَتَشَلَّى﴾ على السؤال، كما قالت العرب: «من كذب كان شراً له»، أي: كان الكذب شراً له. ودل عليه كذب. وقد مر ذكر أمثاله، وقيل: إن الباء فيه مثل الباء في قولك: لقيت بفلان ليثاً: إذا وصفت شجاعته، ولقيت به غيثاً: إذا وصفت سماحته، والمعنى: إنك إذا رأيته رأيت الشيء المشبه به، والمعنى: فاسأله عنه فإنه لخبير به. وزوي أن اليهود حكوا عن ابتداء خلق الأشياء، بخلاف ما أخبر الله تعالى عنه. فقال سبحانه: ﴿فَتَشَلَّى بِهِ خَيْرًا﴾، قال نفطويه: أي: سألني عنه فإنك تسأل بسؤالك^(٢) خبيراً. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي:

(١) الثراء: كثرة المال. وشرح الشباب: أوله. (٢) [إياي].

لهؤلاء المشركين ﴿أَسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ أي: وأي شيء الرحمن، والمعنى: أنا لا نعرف الرحمن، قال الزجاج: الرحمن اسم من أسماء الله عز اسمه، مذكور في الكتب الأولى، ولم يكونوا يعرفونه من أسماء الله. ف قيل لهم: إنه من أسماء الله، ومعناه عند أهل اللغة: ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة، لأن فعلاً من أبنية المبالغة، تقول: رجل ريان وعطشان في النهاية من الري والعطش، وفرحان وجدلان: إذا كان في النهاية من الفرح والجدل. ﴿أَسْجُدُوا لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ مرّ تفسيره ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي: زادهم ذكر الرحمن تباعداً من الإيمان، عن مقاتل. والمعنى: أنهم ازدادوا عند ذلك نفوراً عن الحق وقبول قول النبي ﷺ.

● **النظم:** وجه اتصال الآية بما قبلها: أن فيها إخباراً أنه سبحانه أفرده بالإرسال مراعاة لحسن التدبير في تمييزه بالإكرام والإجلال، لعلمه بما فيه من الخلال الموجبة في الحكمة إرساله إلى الخلق على غاية الكمال. فعلى هذا يتعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾، ثم ذكر من التصريف للآيات بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ ما يدل على وحدانيته وكمال قدرته. ثم عجب سبحانه من إعراضهم عن الآيات مع وضوحها وظهورها، ومقابلتهم لنعمه بالكفران بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية. ثم بيّن أنه أراد بتصريف الآيات الخير والإحسان بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ الآية. ثم بيّن أنه لا يسألهم عليه أجراً لثلاث ينفروا عنه. ثم بيّن سبحانه أنه كما لا يسألهم أجراً، إنه يتوكل عليه في أمره، ويفوض إليه علم المصالح فيما كلفه. ثم هدّد سبحانه عباده بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ يَذُّوبٍ عِبَادُهُ خَيْرًا﴾ فإنه إذا لم يذهب عليه ذنوبهم، لا يذهب عليه جزاؤهم.



قوله تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾
 ﴿٦١﴾ وهو الذي جعل أئيل والنهار خلفاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴿٦٢﴾
 وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴿٦٣﴾
 والذين يبيتون لربهم سجداً وقيماً ﴿٦٤﴾ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴿٦٥﴾ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴿٦٦﴾ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴿٦٧﴾ والذين لا يدعون مع الله إِلَهاً ءَآخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «سُرْجاً» بضم السين من غير ألف، والباقون: «سراجاً»، وقرأ حمزة وخلف: «أَنْ يَذْكَرَ» خفيفاً، والباقون: «يَذْكَرُ» بتشديدتين. وقرأ أهل

المدينة وابن عامر: «يقتروا» بضم الياء، وقرأ أهل الكوفة بفتح الياء وضم التاء. وقرأ أهل البصرة وابن كثير بفتح الياء وكسر التاء. وقرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب وسهل: «يضعف له العذاب» بالتشديد والجزم، و«يخلد» بالجزم، وقرأ ابن عامر: «يضعف» بالتشديد والرفع، و«يخلد» بالرفع، وقرأ أبو بكر: «يضاعف» بالالف والرفع، و«يخلد» بالرفع. وقرأ نافع وأبو عمرو وأهل الكوفة إلا أبا بكر: «يضاعف» بالالف والجزم، و«يخلد» بالجزم، وقرأ ابن كثير وحفص: «فيهى مهاناً» بإشباع كسرة الهاء، وذلك مذهب ابن كثير في جميع القرآن، ووافقه حفص في هذا الموضع فقط، وقرأ: «يبدل الله» بسكون الباء البرجمي، عن أبي بكر مختلفاً عنه، والباقون بالتشديد.

● **الحجة:** من قرأ «سراجاً» فحجته قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾، ومن قرأ «سرجاً» فحجته قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ فشبهت الكواكب بالمصابيح كما شبهت المصابيح بالكواكب في قوله: ﴿الزُّجَجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾. وإنما المصباح الزجاجة في المعنى، وقد سبق القول في يذكر ويُذَكَّر فيما مضى. والإقتار: خلاف الإيسار. قال الشاعر:

لَكُمْ مَسْجِدُ اللَّهِ الْمَزُورَانَ وَالْحَصَى لَكُمْ قَبْضُهُ مِنْ بَيْنِ أَثَرِي وَأَقْتَرَا^(١)

تقديره: من بين رجل أثرى، ورجل أقترا. فأقام الصفة مقام الموصوف. ومثله في التنزيل: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ﴾ قال أبو علي: يجوز أن يكون على قبيل مردوا مثل قوله: ﴿وَمِنْ عَائِلِهِمْ يُرِيكُمْ الْبَرَقَ﴾، وأما قَتَرُ يَفْتَرُ وَيَقْتَرُ فمثل عَكَفُ يَغْكُفُ وَيَغْكُفُ وَعَرَشُ يَعْرِشُ وَيَعْرِشُ. فمن ضمَّ الياء أراد لم يفتروا في إنفاقهم، لأن المسرف مشرف على الإقتار. ومن فتح الياء فالمعنى: لم يضيّقوا في الإنفاق. ومن قرأ «يضاعف» بالجزم: جعله بدلاً من الفعل الذي هو جزاء الشرط، وهو قوله: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ وذلك أن تضعيف العذاب هو لقي جزاء الأثام في المعنى. ومثله قول الشاعر:

إِنْ يَجْبُنُوا أَوْ يَغْدُرُوا أَوْ يَنْخَلُوا لَا يَخْفَلُوا يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجَّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

فغدوهم مرجلين في المعنى ترك الاحتفال. وقد أبدل من الشرط كما أبدل من الجزاء، وذلك في قول الشاعر:

مَتَى تَأْتِنَا تُلِمِمَ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَظَبًا جَزَلًا وَنَارَ تَأَجَّجَا^(٢)

فأبدل تلمم من تأتينا، لأن الإلمام إتيان في المعنى. قال أبو علي: ومثل حذف الجزاء الذي هو مضاف في المعنى في قوله: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ أي: جزاء أثام قوله: ﴿تَرَى الْقُلُوبَ مُشْفِقِينَ مِمَّا

(١) قائله الكميت. وأراد من قوله «مسجد الله» مسجد مكة. ومسجد المدينة. «والحصى»: أراد به العدد العديد من الأهل والتبع. والقبص: بمعنى العدد الكثير من الناس. والضمير في «قبصه» يعود إلى الحصى، يقال: إن بني فلان لفي قبص الحصى.

(٢) الشعر في (جامع الشواهد).

كَسَبُوا وَهُوَ وَاَقْعُ بِهِمْ، المعنى: من جزاء ما كسبوا، وقال أبو عبيدة: يلق أثاماً أي: عقوبة. وأنشد لمسافع الليثي:

جَزَى اللَّهُ ابْنَ عَزْوَةٍ حَيْثُ أَمْسَى عُقُوقاً وَالْعُقُوقُ لَهُ أَثَامٌ

قال: وابن عروة رجل من ليث، كان دل عليهم ملكاً من غسان، فأغار عليهم. قال أبو علي: ويمكن أن يكون هذا من قول بشر:

فَكَانَ مَقَامُنَا نَدَعُو عَلَيْهِمْ بِأَسْفَلِ ذِي الْمَجَازِ لَهُ أَثَامٌ^(١)

ومن رفع يضاعف ويخلد قطعه عما قبله واستأنف. وأما يضاعف ويضعف فهما في المعنى سواء وكذلك يبذل ويبدل.

● **اللغة:** قال أبو عبيدة: الخلفة كل شيء بعد شيء، الليل خلفه النهار والنهار خلفه الليل لأن أحدهما يخلف الآخر. قال زهير:

بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِيْنَ خِلْفَةً وَأَطْلَاوْهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمٍ^(٢)

والهون: مصدر الهين في السكينة والوقار. والغرام: أشد العذاب وهو اللازم المُلْح، ومنه الغريم لملازمته وإلحاحه. وفلان مغرم بالنساء أي: ملازم لهن لا يصبر عنهن. قال بشر بن أبي حازم:

وَيَوْمُ النَّسَارِ وَيَوْمُ الْجِفَارِ كَانَا عَذَاباً وَكَانَا غَرَاماً^(٣)
وقال آخر:

إِنْ يُعَاقِبَ يَكُنْ غَرَاماً وَإِنْ يُغَطَّ جَزِيلاً فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي

● **الإعراب:** ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ خبر المبتدأ الذي هو ﴿عِبَادَ الرَّحْمَنِ﴾، ويجوز أن يكون خبره ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْفُرْقَةَ﴾، ويكون ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ صفة العباد. و﴿هَوْنًا﴾ في موضع الحال، و﴿سَلَامًا﴾ نصب على المصدر بفعل محذوف وتقديره: فنسلم منكم سلاماً لا نجاهلكم، كأنهم قالوا تسلماً منكم. و﴿مُسْتَقَرًّا وَمَقَامًا﴾ منصوبان على التمييز، والمخصوص بالذم محذوف وتقديره: ساءت مستقراً جهنم. ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أي: كان الإنفاق ذا قوام بين الإسراف والإقتار، فقلوه ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ تبين لقوام. وإن شئت علقته بنفس كان. وإن شئت علقته بخبر كان أي: ثابتاً بين ذلك فيكون خبر بعد خبر.

(١) في (اللسان) «بأبطع ذي المجاز». وذو المجاز: موضع سوق خلف العرفة بفرسخ، كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام.

(٢) هذا بيت من معلقته الشهيرة يصف داراً. وبها العين أي: البقر العين. فحذف الموصوف. والعين: جمع عيناء واسعة العين. والأرام: جمع ريم الظبي الأبيض والأطلاء جمع طلا: ولد الظبية. والجنوم: القعود.

(٣) النصار والجفار: موضعان وقعت فيهما حروب للعرب.

سورة الفرقان

● **المعنى:** ثم مدح سبحانه نفسه بأنه قال: ﴿بَارَكَ﴾ وقد مرَّ معناه في أول السورة ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ يريد منازل النجوم السبعة السيارة التي هي: زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر، وهي اثنا عشر برجاً: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، وقيل: هي النجوم الكبار، عن الحسن ومجاهد وقتادة، وسُمِّيت بروجاً لظهورها. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ يعني الشمس، ومن قرأ «سُرْجًا» أراد الشمس والكواكب معها، ﴿وَقَرَنَّا لَهَا لُجْنَ﴾ أي: مضيئاً بالليل إذا لم تكن شمس. ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلف كل واحد منهما صاحبه فيما يحتاج أن يعمل فيه. فمن فاته عمل الليل استدركه بالنهار. ومن فاته عمل النهار استدركه بالليل. وهو قوله لمن أراد أن يذكر، عن عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تقضي صلاة النهار بالليل، وصلاة الليل بالنهار. وقيل: معناه أنه جعل كل واحد منهما مخالفاً لصاحبه، فجعل أحدهما أسود والآخر أبيض، عن مجاهد. ﴿لَمَنَ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي: يتفكر ويستدل بذلك على أن لهما مدبراً ومصرفاً لا يشبههما ولا يشبهانه، فيوجه العبادة إليه ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ يقال: شكر يشكر شكراً وشكوراً أي: أراد شكر نعمة ربه عليه فيها، وعلى القول الأول فمعناه: أو أراد النافلة بعد أداء الفريضة ﴿وَيَعِزُّدُ الرَّحْمَنَ﴾ يريد: أفاضل عبادته، وهذه إضافة التخصيص والتشريف، كما يقال: ابني من يطيعني أي: ابني الذي أنا عنه راض، ويكون توبيخاً لأولاده الذين لا يطيعونه. ﴿الَّذِينَ يَسْتَوُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَ﴾ أي: بالسكينة والوقار والطاعة غير أشربين ولا مرجحين، ولا متكبرين ولا مفسدين، عن ابن عباس ومجاهد. وقال أبو عبد الله عليه السلام: هو الرجل يمشي بسجيته التي جبل عليها، لا يتكلف ولا يتبخر. وقيل: معناه حلماء علماء لا يجهلون، وإن جهل عليهم، عن الحسن، وقيل: أعفاء أتقياء، عن الضحاك ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ بما يكرهونه أو ينقل عليهم ﴿قَالُوا﴾ في جوابه ﴿سَلَامًا﴾ أي: سداداً من القول لا يقابلونهم بمثل قولهم من الفحش، عن مجاهد، وقيل: سلاماً أي: قولاً يسلمون فيه من الإثم، أو سلموا عليهم، دليله قوله: ﴿وَإِذَا سَكَبُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾. وقال قتادة: كانوا لا يجاهلون أهل الجهل. وقال ابن عباس: لا يجهلون مع من يجهل. قال الحسن: هذه صفة نهارهم إذا انتشروا في الناس، وليلهم خير ليل إذا خلوا فيما بينهم وبين ربهم، يراوحن بين أطوافهم، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَوُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ قال الزجاج: كل من أدركه الليل فقد بات، نام أو لم ينم، والمعنى: يبيتون لربهم بالليل في الصلاة ساجدين وقائمين، طالعين لثواب ربهم، فيكونون سُجَّدًا في مواضع السجود، وقِيَامًا في مواضع القيام ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: يدعون بهذا القول. وغراماً أي: لازماً ملخاً دائماً غير مفارق. ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: إن جهنم بشئ موضع قرار وإقامة هي: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ واختلف في معنى الإسراف فقيل: هو النفقة في المعاصي، والإقتار: الإمساك عن حق الله تعالى، عن ابن عباس وقتادة، وقيل: السرف مجاوزة الحد في النفقة، والإقتار: التقصير عما لا بد منه، عن إبراهيم النخعي. ورُوي عن معاذ أنه قال: سألت

رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «من أعطى في غير حق فقد أسرف، ومن منع عن حق فقد قتر». وَرَوَى عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ، أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ فِي الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ سَرْفٌ، وَإِنْ كَثُرَ. ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أَي: وَكَانَ إِنْفَاقَهُمْ بَيْنَ الْإِسْرَافِ وَالْإِقْتَارِ، لَا إِسْرَافًا يَدْخُلُونَ بِهِ فِي حَدِّ التَّبْذِيرِ، وَلَا تَضْيِيقًا يَصِيرُونَ بِهِ فِي حَدِّ الْمَانِعِ لِمَا يَجِبُ، وَهَذَا هُوَ الْمَحْمُودُ. وَالْقَوَامُ مِنَ الْعَيْشِ: مَا أَقَامَكَ وَأَغْنَاكَ، وَقِيلَ: الْقَوَامُ بِالْفَتْحِ وَهُوَ الْعَدْلُ وَالِاسْتِقَامَةُ، وَبِالْكَسْرِ مَا يَقُومُ بِهِ الْأَمْرُ وَيَسْتَقِرُّ، عَنْ تَغْلِبِ. وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ﷺ: الْقَوَامُ هُوَ الْوَسْطُ. وَقَالَ ﷺ: أَرْبَعَةٌ لَا يَسْتَجَابُ لَهُمْ: دَعْوَةُ رَجُلٍ فَاتَحَ فَاهُ جَالِسٌ فِي بَيْتِهِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ ارْزُقْنِي، فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أَمُرْكَ بِالطَّلَبِ. وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ يَدْعُو عَلَيْهَا يَقُولُ: يَا رَبِّ ارْحَنِي مِنْهَا، فَيَقُولُ: أَلَمْ أَجْعَلْ أَمْرَهَا بِيَدِكَ. وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ مَالٌ فَأَفْسَدَهُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ ارْزُقْنِي، فَيَقُولُ: أَلَمْ أَمُرْكَ بِالْاِقْتِصَادِ. وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ مَالٌ فَأَدَانَهُ بِغَيْرِ بَيْنَةٍ فَيَقُولُ: أَلَمْ أَمُرْكَ بِالشَّهَادَةِ. ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أَي: لَا يَجْعَلُونَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ شَرِيكَاً، بَلْ يُوْجِهُونَ عِبَادَتَهُمْ إِلَيْهِ وَحْدَهُ. ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أَي: حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وَالنَّفْسُ الْمَحْرُومُ قَتْلُهَا: نَفْسُ الْمُسْلِمِ وَالْمُعَاهِدِ. وَالْمُسْتَثْنَاةُ قَتْلُهَا نَفْسَ الْحَرْبِيِّ. وَمَنْ يَجِبُ قَتْلُهَا عَلَى وَجْهِ الْقُودِ وَالْارْتِدَادِ، أَوْ لِلزَّنى بَعْدَ الْإِحْصَانِ، وَلِلْسَعْيِ فِي الْأَرْضِ بِالْفُسَادِ. ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ وَالزَّنى هُوَ الْفُجُورُ بِالْمَرْأَةِ فِي الْفَرْجِ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ أَكْثَرَ الذُّنُوبِ بَعْدَ الشُّرْكِ الْقَتْلُ وَالزَّنى. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا بِالإِسْنَادِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الذُّنُوبِ أَكْثَرُ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلْقُكَ. قَالَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قَالَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تَزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَهَا ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الْآيَةَ. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: هَذِهِ الْخِصَالُ جَمِيعاً ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ أَي: عِقُوبَةً وَجْزَاءً لِمَا فَعَلَ. قَالَ الْفَرَاءُ: أَثَمُهُ اللَّهُ يَأْتِمُهُ إِثْمًا وَأَثَامًا أَي: جْزَاءً جْزَاءَ الْإِثْمِ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

وَهَلْ يَأْتِنُنِي اللَّهُ فِي أَنْ ذَكَرْتُهَا وَعَلَّلْتُ أَصْحَابِي بِهَا لَيْلَةَ النَّفْرِ^(١)

وقيل: إِنْ أَثَامًا اسْمُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَقَتَادَةَ وَمُجَاهِدٍ وَعُكْرَمَةَ. ثُمَّ فَسَّرَ سُبْحَانَهُ لَقِيَ الْأَثَامَ بِقَوْلِهِ: ﴿يُضْلَعُ لَهُ الْأَكْذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يَرِيدُ سُبْحَانَهُ مَضَاعِفَةَ أَجْزَاءِ الْعَذَابِ لَا مَضَاعِفَةَ الْاِسْتِحْقَاقِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَجُوزُ أَنْ يَعَاقِبَ بِأَكْثَرٍ مِنَ الْاِسْتِحْقَاقِ، لِأَنَّ ذَلِكَ ظُلْمٌ وَهُوَ مُنْفِي عَنْهُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ عَلَى كُلِّ مَعْصِيَةٍ مِنْهَا عِقُوبَةٌ، فَيَضَاعَفُ عَلَيْهِ الْعِقَابُ. وَقِيلَ: الْمَضَاعِفَةُ عَذَابُ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ، عَنْ قَتَادَةَ. ﴿وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَكَّأً﴾ أَي: وَيُدَوِّمُ فِي الْعَذَابِ مُسْتَحَقًّا بِهِ. وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ عَزَّ اسْمُهُ قَدْ يُوْصَلُ الْآلَامُ إِلَى بَعْضِ الْمَكْلُوفِينَ، لَا عَلَى وَجْهِ الْاِسْتِخْفَافِ وَالْإِهَانَةِ فَيَبَيِّنُ أَنَّهُ يُوْصَلُ الْعِقَابُ إِلَيْهِمْ عَلَى وَجْهِ الْإِهَانَةِ. ثُمَّ اسْتَشْنَى مِنْ جَمْلَتِهِمُ التَّائِبَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قَالَ قَتَادَةُ:

(١) قائله: صعب بن الأسود. يعني هل يجزييني الله جزاء إثمى بأن ذكرت هذه المرأة في غنائي. وليلة النفرة: ليلة الخروج من (منى) إلى (مكة).

سورة الفرقان

إلا من تاب من ذنبه وآمن بربه، وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه. قال: والتبديل في الدنيا طاعة الله بعد عصيانه، وذكر الله بعد نسيانه، والخير يعمل به بعد الشر. وقيل: يبدلهم الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام بالشرك إيماناً، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنى عفة وإحصاناً، عن ابن عباس ومجاهد والسدي. وقيل: إن معناه أن يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة، عن سعيد بن المسيب ومكحول وعمرو بن ميمون. واحتجوا بالحديث الذي رواه مسلم في الصحيح مرفوعاً إلى أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه ونحوها عنه كبارها. فيقال: عملت يوم كذا وكذا، وكذا، وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من الكبار، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: إن لي ذنباً ما أراها ههنا؟ قال: ولقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه». ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ أي: ساتراً لمعاصي عباده ﴿رَجِيمًا﴾ أي: منعماً عليهم بالرحمة والفضل.



قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (٧١) **وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** (٧٢) **وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا** (٧٣) **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فَرَّةً أُعْيِنَ وَاجْعَلْ لَنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** (٧٤) **أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا** (٧٥) **خَلَائِفَ فِيهَا فِيهَا جَسَدٌ حَسْبَتْ مِثْقَالُ ذَرَاةٍ مِنْهُمْ لَمَّا هَبَّ دُحَانًا** (٧٦) **فَلَمَّا يَبْغِوْا يَكُ رَبِّي نَوَلاً دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا** (٧٧).

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة غير حفص: «وذريتنا»، والباقون: «ذرياتنا» على الجمع. وقرأ «يلقون» بفتح الياء والتخفيف أهل الكوفة غير حفص، والباقون: «يلقون» بضم الياء والتشديد. وفي قراءة أهل البيت عليه السلام: «واجعل لنا من المتقين إماماً» والقراءة المشهورة: «واجعلنا للمتقين إماماً» وفي قراءة ابن عباس وابن الزبير: «فقد كذب الكافرون».

● **الحجة:** قال أبو علي: الذرية تكون واحدة، وتكون جمعاً. فمن قرأ: «وذريتنا» على الأفراد فإنه أراد به الجمع، فاستغنى عن جمعه، لما كان جمعاً. ومن جمع فكما يجمع هذه الأسماء التي تدل على الجمع نحو قوم وأقوام. وجاء في الحديث: «صواحبات يوسف». وحجة من قرأ: «ويُلَقَّون» قوله: «ولقاهم نضرة وسروراً»، وحجة من خفف: «فَسَوْفَ يَلَقَّوْنَ غَيًّا»، ومن قرأ: «فقد كذب الكافرون» ترك لفظ الحضور إلى الغيبة، ألا ترى أن قبله: ﴿قُلْ مَا يَبْغِوْا يَكُ رَبِّي نَوَلاً دُعَاؤُكُمْ﴾.

● **اللغة:** الفَرَّة: مصدر، يقال: قرَّت عينه قرة. ويكون من القُرور وهو برد العين عند السرور، ويكون أيضاً من استقرارها عند السرور، وقوله إماماً: مصدر من أَمَّ فلان فلاناً إماماً، كما قيل: قام قياماً وصام صياماً. ولذلك وحده هنا من جمع إماماً فقال: أئمة، فلأنه قد كثر في

معنى الصفة. وقيل: إنه إنما وُحِدَ لأنه جاء على الجواب، كقول القائل: من أميركم؟ فيقول المجيب: هؤلاء أميرنا. قال الشاعر:

يا عاذلاتي لا تُرِذْنِ ملامتي إِنَّ الْعَوَازِلَ لَسَنَ لِي بِأَمِيرٍ^(١)

وقيل: إنما وُحِدَ لأن المعنى: واجعل كل واحد منا إماماً، فأجعل. فالمعنى معنى التفصيل. وقال الزجاج: تأويل ﴿مَا يَعْزُبُ عَنْكَ﴾ أي: وزن يكون لكم عنده، كما يقال: ما عبأت بفلان أي: ما كان له عندي وزن ولا قدر. وأصل العبء في اللغة: الثقل. وقيل: أصله من تهية الشيء. يقال: عبث الطيب أعبؤ عبأً: إذا هيأته. قال الشاعر يصف أسداً:

كَأَنَّ بِنْخِرَةَ وَبِمَنْكَبَيْهِ عَبِيرًا بَاتَ تَعْبَاهُ عَرُوسُ^(٢)

أي تهينه. وعبأت الجيش بالتشديد والتخفيف: إذا هيأته. وما أعبؤ به أي: لا أهيه به أمراً.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ أي: أقبل عن معاصيه وندم عليها ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: يرجع إليه مرجعاً عظيماً جميلاً. وفُزِقَ علي بن عيسى بين التوبة إلى الله، والتوبة من القبيح لقبحه بأن التوبة إلى الله تقتضي طلب ثوابه، وليس كذلك التوبة من القبيح لقبحه. فعلى هذا يكون المعنى: من عزم على التوبة من المعاصي، فإنه ينبغي أن يوجه توبته إلى الله بالقصد إلى طلب جزائه ورضائه عنه، فإنه يرجع إلى الله فيكافيه. وقيل: معناه من تاب وعمل صالحاً فقد انقطع إلى الله، فاعرفوا ذلك له. فإن من انقطع إلى خدمة بعض الملوك فقد أحرز شرفاً، فكيف المنقطع إلى الله سبحانه. ثم عاد سبحانه إلى وصف عباده المخلصين فقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون مجالس الباطل، ويدخل فيه مجالس الغناء والفحش والخناء. وقيل: الزور الشرك، عن الضحاك. قال الزجاج: الزور في اللغة: الكذب ولا كذب فوق الشرك بالله. وقيل: الزور أعياد أهل الذمة كالشعانيين^(٣) وغيرها، عن محمد بن سيرين. وقيل: هو الغناء، عن مجاهد، وهو المزوي عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبد الله عليه السلام. وقيل: يعني شهادة الزور، عن علي بن أبي طلحة. فيكون المراد أنهم لا يشهدون شهادة الزور. فحذف المضاف. وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخّم وجهه ويطوف به في السوق. وأصل الزور: تمويه الباطل بما يوهم أنه حق. ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ واللغو: المعاصي كلها، أي: مروا به مَرَّ الكرماء الذين لا يرضون باللغو، لأنهم يجلون عن الدخول فيه والاختلاط بأهله، عن الحسن والكلبي. والتقدير: إذا مروا بأهل اللغو وذوي اللغو، مَرُّوا منزَّهين أنفسهم معرضين عنهم، فلم يجاروهم فيه ولم يخوضوا معهم في ذلك، فهذه صفة الكرام. يقال: تكرم فلان عما يشينه: إذا تنزه وأكرم نفسه

(١) الشعر في (جامع الشواهد).

(٢) العبير: الزعفران.

(٣) الشعانيين: عيد معروف للنصارى قبيل عيدهم الكبير بأسبوع، كما قاله ابن الأثير في (النهاية).

عنه، وقيل: مرورهم كراماً هو أن يمروا بمن يستبهم فيصفحون عنه، وبمن يستعين بهم على حق فيعينونه. وقيل: هم الذين إذا أرادوا ذكر الفرج، كنوا عنه، عن أبي جعفر عليه السلام ومجاهد. وأصل اللغو هو الفعل الذي لا فائدة فيه، ولهذا يقال للكلمة التي لا تفيد لغو، وليس المراد به القبيح، فإن فعل الساهي والناثم لغو، وليس بحسن ولا قبيح، إلا ما يتعدى إلى الغير على الخلاف فيه. **﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾** أي: إذا وعظوا بالقرآن والأدلة التي نصبها الله لهم، نظروا فيها وتفكروا في مقتضاها، ولم يقعوا عليها صمّاً كأنهم لم يسمعوها، وعمياناً كأنهم لم يروها، لكنهم سمعوها وأبصروها، وانتفعوا بها وتدبروا لها. قال الحسن: كم من قارئ يقرؤها فخرٌ عليها أصم وأعمى. وقال الأخفش: لم يخرؤا عليها أي: لم يقيموا. وقال ابن قتيبة: لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يروها. **﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فَرَّةً أُغْيَبَ﴾** أي: اجعل أزواجنا وذرياتنا قرة أعين بأن نراهم يطيعون الله، عن الحسن. وقيل: معناه ارزقنا من أزواجنا أولاداً، ومن ذرياتنا أعقاباً، قرة أعين أي: أهل طاعة تقر بهم أعيننا في الدنيا بالصلاح، وفي الآخرة بالجنة **﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾** أي: اجعلنا ممن يقتدى بنا. المتقون طلبوا العزَّ بالتقوى لا بالدنيا، وقيل: معناه اجعلنا نأتم بمن قبلنا حتى يأتم أي: يقتدي بنا من بعدنا وعلى هذا فيجوز أن يكون اللام في اللفظ في المتقين، وفي المعنى في نا، والتقدير: واجعل المتقين لنا إماماً. ومثله قول الشاعر:

كَأَنَّا رَعَيْنُ نَفْ يَرْفَعُ الْآلَا^(١)

والتقدير: يرفعه الآل. ثم أخبر سبحانه عن جميع هذه الأوصاف فقال: **﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ﴾** أي: يثابون الدرجة الرفيعة في الجنة **﴿بِمَا صَبَرُوا﴾** على أمر ربهم وطاعة نبيهم، وعلى مشاق الدنيا وصعوبة التكليف، وقيل: هي غرف الزبرجد والدر والياقوت، عن عطاء. والغرفة في الأصل: بناء فوق بناء، وقيل: الغرفة اسم لأعلى منازل الجنة وأفضلها، كما أنها في الدنيا أعلى المساكن. **﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا نَجْمَةً وَسَلَامًا﴾** أي: تتلقاهم الملائكة فيها بالتحية، وهي كل قول يسرُّ به الإنسان، وبالسلم بشارة لهم بعظيم الثواب، وقيل: التحية: الملك العظيم، والسلام جميع أنواع السلامة. وقيل: التحية: البقاء الدائم. وقال الكلبي: يُحَيِّي بعضهم بعضاً بالسلام، ويرسل إليهم الرب بالسلام. **﴿حَكِيمِينَ﴾** أي: مقيمين **﴿فِيهَا﴾** من غير موت ولا زوال **﴿حَسَنَاتٍ﴾** الغرفة **﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾** أي: موضع قرار واستقامة **﴿قُلْ﴾** يا محمد **﴿مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّي﴾** أي: ما يصنع بكم ربي، عن مجاهد وابن زيد. وقيل: ما يبالي بكم ربي، عن أبي عمرو بن العلاء. وما لا يعزُبُ به فوجوده وعدمه سواء. **﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾** أي: لولا دعاؤه إياكم إلى الدين والإسلام، عن ابن عباس. فيكون المصدر مضافاً إلى المفعول، والمعنى: قل للمشركين ما يفعل بكم ربي أي: أي نفع له فيكم وأي ضرر يعود إليه من عدمكم، وأي قدر لكم عند الله حتى يدعوكم إلى

(١) عجز بيت للنابعة. وصدرة: «حتى لحقنا بهم تعدى فوارسنا». والرعن: الأنف العظيم من الجبل تراه متقدماً. والقف: ما ارتفع من الأرض وغلظ. والآل: السراب.

الإيمان لكن الواجب في الحكمة دعاؤكم إلى الدين، وإرسال الرسول، وقد فعل. وقيل: معناه لولا عبادتكم له وإيمانكم به وتوحيدكم إياه، عن الكلبي ومقاتل والزجاج. فيكون الدعاء بمعنى العبادة. وفي هذا دلالة على أن من لا يعبد الله ولا يطيعه فلا وزن له عند الله. وقيل: معناه ما يعبؤ بعذابكم ربي لولا دعاء بعضكم بعضاً إلى الشرك والشر، عن البلخي. ودليله ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ الآية. وقيل: معناه لولا دعاؤكم له إذا مسكم ضرر أو أصابكم سوء، رغبة له وخضوعاً له. وروى العياشي بإسناده عن يزيد بن معاوية العجلي، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: كثرة القراءة أفضل، أم كثرة الدعاء أفضل؟ قال: كثرة الدعاء أفضل. وقرأ هذه الآية: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ الخطاب لأهل مكة أي: إن الله دعاكم بالرسول إلى توحيدهِ وعبادته ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ يا معاشر الكفار الرسول ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: فسوف يكون عقابه لتكذيبكم إياه، لازماً لكم. قال صخر الغي:

فإِذَا يَنْجُوا مِنْ حُثْفِ أَرْضِي فَقَدْ لَقِيَا حُتُوفَهُمَا لَزَامًا^(١)

أي: إنه واقع لا محالة. قال الزجاج: تأويله فسوف يكون تكذيبكم لازماً يلزمكم، فلا تعطون التوبة، وتلزمكم به العقوبة. وقال أبو عبيدة: لازماً فيصلاً. وقيل في تفسير اللزام: إنه القتل يوم بدر، عن ابن مسعود وأبي بن كعب. وقيل: هو عذاب الآخرة. وقال أبو ذؤيب في اللزام:

فَفَاجَأَهُ بِعَادِيَةِ لَزَامٍ كَمَا يَتَفَجَّرُ الْحَوْضُ الْقَلِيفُ^(٢)

فلزام: معناه كثيرة يلزم بعضها بعضاً. ولقيف: متساقط متهدم، وبالله التوفيق.

(١) الحثف: الموت.

(٢) العادية: جماعة القوم يعدون للقتال. يصف كثرة الجيش، وشبهها بحوض متهدم. يتفجر الماء من جوانبه.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

مكية/آياتها (٢٢٧)

مكية كلها غير قوله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوْنُ﴾ الآيات إلى آخر السورة، فإنها نزلت بالمدينة.

- **عدد آياتها:** مائتان وسبع وعشرون آية كوفي وشامي، والمدني الأول، وست في الباقي.
- **اختلافها:** أربع آيات ﴿طسّر﴾ كوفي ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ غير الكوفي، ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ غير البصري، ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ عراقي شامي، والمدني الأول.
- **فضلها:** أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدّق بنوح عليه السلام وكذّب به، وهود وشعيب وصالح وإبراهيم عليه السلام، وبعدد من كذّب بعيسى عليه السلام وصدّق بمحمد ﷺ». وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت السورة التي يذكر فيها البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه وطواسين من ألواح موسى، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التي يذكر فيها البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصلة نافلة». وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ الطواسين الثلاث في ليلة الجمعة، كان من أولياء الله وفي جواره وكنفه، وأسكنه الله في جنة عدن وسط الجنة، مع النبيين والمرسلين والوصيين الراشدين، ولم يصبه في الدنيا بؤس أبداً، وأُعطي في الآخرة من الأجر الجنة، حتى يرضى وفوق رضاه، وزوجه الله مائة حوراء من الحور العين.
- **تفسيرها:** ذكر الله سبحانه في مختتم سورة الفرقان تكذيبهم بالكتاب. وذكر في مفتتح هذه السورة وصف الكتاب، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسّر﴾ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَلِغٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣ إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٤ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ٦ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ٧ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٩

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير الأعشى والبرجمي وحفص: «طسم، ويس، وحم»

بالإمالة. والباقون بالفتح والتفخيم. وابن كثير أشد فتحاً وتفخيماً، وكذلك عاصم، ثم يعقوب، والآخرون لا يفتحون فتحاً شديداً. وقرأ أبو جعفر وحمزة بإظهار النون من سين عند الميم. والآخرون يدغمون.

● **الحجة:** قال أبو علي: تبيين النون هو الوجه لأن حروف الهجاء في تقدير الانفصال والانقطاع مما بعدها. فإذا كان كذلك، وجب تبيين النون لأنها إنما تخفى إذا اتصلت بحرف من حروف الفم. فإذا لم تتصل بها لم يكن شيء يوجب إخفاءها. ووجه إخفائها مع هذه الحروف: أنَّ همزة الوصل قد وصلت ولم تقطع، وهمزة الوصل إنما تذهب في الدرج. فلما سقطت همزة الوصل، وهي لا تسقط إلا في الدرج مع هذه الحروف في ألف لام ميم الله، كذلك لا يبين النون، ويقدر فيها الاتصال بما قبلها ولا يقدر الانفصال.

● **الإعراب:** ﴿أَلَا يَكُونُوا﴾ في محل نصب بأنه مفعول له، والتقدير: لأن لا يكونوا، أو بأن لا يكونوا. ﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ في موضع جزم عطفاً على تنزل من ذكر في محل رفع. ومن مزيدة، وكم: في موضع نصب بأنه مفعول أنبتنا و﴿أَبْلَسْنَا﴾: في موضع نصب على الحال. وقد: مضمرة والتقدير: مثبتاً.

● **المعنى:** ﴿طَسَّرَ﴾ قد بينا معاني هذه الحروف المقطعة في أول البقرة، فلا معنى لإعادته. وقال مجاهد والضحاك: إن طسم وطس من أسماء القرآن. وقال ابن عباس في رواية الوالبي: طسم قسم، وهو من أسماء الله عز وجل. وقال القرطبي: أقسم الله بطوله وسنائه وملكه. وروى عن ابن الحنفية عن علي عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وسلم، لما نزلت طسم قال: «الطاء طور سيناء، وسين الإسكندرية، والميم مكة». وقيل: الطاء شجرة طوبى، والسين سدرة المنتهى، والميم محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أشار بـ ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما ليس بحاضر، لكنه متوقع فهو كالحاضر لحضور المعنى في النفس، والتقدير: تلك الآيات التي وعدتم بها هي آيات الكتاب أي: القرآن. والمبين: الذي يبين الحق من الباطل. ﴿لَعَلَّكَ بَئِغْ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لعلك مهلك نفسك وقاتل نفسك بأن لا يكونوا مؤمنين، وبأن يقيموا على الكفر، إنما قال ذلك سبحانه تسلياً لنبيه صلى الله عليه وسلم، وتخفيفاً عنه بعض ما كان يصيبه من الاعتماد لذلك. ﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِّنْ سَمَاءٍ ءَايَةٍ﴾ أي: دلالة وعلامة تلجئهم وتضطرمهم إلى الإيمان ﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا﴾ أي: لتلك الآية ﴿خَاضِعِينَ﴾ منقادين. وقيل في ذلك وجوه:

أحدها: أن المراد فظل أصحاب الأعناق لها خاضعين. فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه لدلالة الكلام عليه.

وثانيها: أنه جعل الفعل أولاً للأعناق، ثم جعل خاضعين للرجال، لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون.

وثالثها: أن الخضوع مردود إلى المضمر الذي أضيف الأعناق إليه، عن الأخفش والمبرد

وأبي عبدة. وأنشدوا قول جرير:

أرى مَرَّ السُّنَيْنِ أَخْذَنْ مِثِّي كَمَا أَخَذَ السُّرَارُ مِنَ الْهِلَالِ^(١)

ورابعها: أن المراد بالأعناق الرؤساء والجماعات. يقال: جاءني عنق من الناس، أي: جماعة.

وخامسها: أنه لما وصف الأعناق بصفة ما يعقل، نسب إليها ما يكون من العقلاء. كما

قال الشاعر:

تمزرتُها والذِّيكُ يدعو صِيَّاحه إذا ما بَنُو نَعَشٍ دَنُّوا فتصوبوا^(٢)

وروي: «نادى صياحه». وذكر أبو حمزة الثمالي في هذه الآية: أنها صوت يسمع من

السماء في النصف من شهر رمضان، وتخرج له العواتق من البيوت. وقال ابن عباس: نزلت فينا

وفي بني أمية، قال: سيكون لنا عليهم الدولة فتخضع لنا أعناقهم بعد صعوبتها وتلين. ﴿وَمَا بِأَنْبِيَاءٍ

مِنْ ذِكْرِ مَنْ أَرْحَمَ مُخَلَّدًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾^(٣) أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار أنه لا يأتيهم ذكر

من الرحمن محدث، أي: جديد. يعني القرآن، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

﴾^(٤). وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٥) إلا أعرضوا عن الذكر ولم يتدبروا فيه. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا

فَسَيَأْتِيهِمْ﴾^(٦) فيما بعد يعني يوم القيامة ﴿أَنْتَ أَتَى مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وهي مفسرة في سورة الأنعام.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾^(٧) معناه: من كل نوع معه قرينه ﴿كَرِيمٌ﴾^(٨) أي: حسن،

وقيل: نافع محمود مما يحتاج إليه. وقيل: من كل صنف يكرم على أهله، وقيل: كريم مما

يأكل الناس والأنعام، عن مجاهد. وقال الشعبي: الناس نبات الأرض، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ

أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾^(٩) فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لثيم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَةً﴾^(١٠) أي: لدلالة على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١١) أي: لا يصدقون بذلك

ولا يعترفون به، عناداً وتقليداً لأسلافهم وهرباً من مشقة التكليف. قال سيبويه: كان هنا مزيدة

ومجازه: وما أكثرهم مؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾^(١٢) يا محمد ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾^(١٣) أي: القادر والذي لا يعجز،

والغالب الذي لا يغلب ﴿الْعَزِيمُ﴾^(١٤) أي: المنعم على عباده بأنواع النعم.



قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١٥) قَوْمٌ فِرْعَوْنٌ أَلَا

يَنْفَعُونَ^(١٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ^(١٧) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْدُلُنِي لِسَانِي فَأَرْسِلْ

إِلَيَّ هَارُونَ^(١٨) وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ^(١٩) قَالَ كَلَّا فَادْخُلَا يَابِلَتُنَا إِنَّا مَعَكُمْ

مُسْتَمِعُونَ^(٢٠) فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٢١) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ

﴿٢٢﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ^(٢٣) وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ

(٢) مر البيت بمعناه في هذا الجزء.

(١) السرار: آخر الشهر ليلة يستسر الهلال.

وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَيتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبْدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رِجْزُ رَبٍّ ءَابَايَكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَدَىٰ أَرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْمَلَتَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ .

● **القراءة:** قرأ يعقوب: «ويضيق ولا ينطلق» بالنصب فيهما، والباقون بالرفع. وفي الشواذ قراءة عبد الله بن مسلم بن يسار وحماة بن سلمة: «ألا تتقون» بالتاء، وقراءة الشعبي: «وَفَعَلْتُ فِعْلَتَكَ».

● **الحجة:** من قرأ: «يضيق ولا ينطلق» بالرفع عطف على «أخاف». ومن قرأ بالنصب عطف على «أن يكذبون» أي: أخاف أن يكذبون وأن يضيق صدري ولا ينطلق لساني. ومن قرأ: «ألا تتقون» بالتاء فهو على إضمار القول، أي: فقل لهم ألا تتقون. ومن قرأ: «فعلتكم» بكسر الفاء فهي مثل الركبة والجلسة، تكون كناية عن الحال التي يكون عليها. وقد يكون المصدر على هذه الزنة تقول: نشدته بالله نَشْدَةً.

● **الإعراب:** قال الزجاج: موضع ﴿إِذْ﴾ نصب على معنى: واتل عليهم هذه القصة فيما تتلو، والدليل عليه قوله: عطفاً على هذه القصة ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا قَوْمٌ الْفَٰطِلِينَ﴾ موضعه نصب بأنه مفعول نادى أي: ناداه بهذه الكلمة، رسول رب العالمين واحد في معنى الجمع كقوله: ﴿فَأْتِيَهُمْ دُعَاؤُا لِي﴾، ويجوز أن يكون كل واحد منهما رسولاً. ﴿أَنْ عَبْدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ في موضع رفع لأنه بدل من نعمة، تقديره: وتلك نعمة تعبيدك بني إسرائيل وتركك إياي غير عبد. ويجوز أن يكون في موضع نصب بأنه مفعول له أي: إنما صارت نعمة لأن عبدت بني إسرائيل، والمعنى: لو لم تفعل ما فعلت لكفنتني أهلي ولم يلقوني في السيم. وإنما صارت نعمة لما فعلت من البلاء. ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يجوز أن يكون ما في موضع رفع بالابتداء، وذا: بمعنى الذي على تقدير: فأى شيء الذي تأمرونه، ويجوز أن يكون في موضع نصب بأنه مفعول ﴿تَأْمُرُونَ﴾، ويكون مع ذا بمنزلة اسم واحد وتقديره: أى شيء تأمرون.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أقاصيص رسله، تسلياً للرسول ﷺ، وتحريضاً له على الصبر ثقة بنزول النصر، وابتدأ بقصة موسى وفرعون فقال: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: واذكر يا محمد واتل عليهم الوقت الذي نادى فيه ربك الذي خلقك ﴿مُوقِنٌ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمُ الْفَٰطِلِينَ﴾ هذا أمر بعد النداء وتقديره: قال له: يا موسى أن ات القوم الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، وظلموا بني إسرائيل بأن ساموهم سوء العذاب. ثم بيّن القوم الموصوفين بهذه الصفة فقال: ﴿قَوْمٌ فِرْعَوْنُ﴾ وهو عطف ببيان ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ إنما قاله بالياء لأنه على الحكاية، ومعناه: أما آن

لهم أن يتقوا، ويصرفوا عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته. والتقوى: مجانية القبائح بفعل المحاسن، وأصله صرف الأمر بحاجز بين الصارف وبينه. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ بالرسالة ولا يقبلوا مني، والخوف: انزعاج الناس بتوقيع الضر، ونقيضه: الأمن وهو سكون النفس إلى خلوص النفع. ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ بتكذيبهم إياي ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ أي: لا ينبعث بالكلام للعقدة التي كانت فيه، وقد مرَّ بيانها، وقد يتعذر ذلك لآفة في اللسان وقد يتعذر لضيق الصدر وغروب المعاني التي تطلب للكلام ﴿فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَرُونَ﴾ أخي يعني ليعاونني كما يقال: إذا نزلت بنا نازلة أرسلنا إليك أي: لتعيننا، وإنما طلب المعاونة حرصاً على القيام بالطاعة. وقال الجبائي: لم يسأل موسى ﷺ ذلك إلا بعد أن أذن الله له في ذلك، لأن الأنبياء لا يسألون الله إلا ما يؤذن لهم في مسألته ﴿وَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ ذَنْبٍ﴾ يعني قتل القبطي الذي قتله موسى ﷺ أي: لهم عليّ دعوى ذنب ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ خاف أن يقتلوه بتلك النفس، لا لإبلاغ الرسالة، فإنه علم أن الله تعالى إذا بعث رسولاً تكفل بمعونته على تبليغ رسالته. ﴿قَالَ﴾ الله ﴿كَلَّا﴾ وهو زجر أي: لا يكون ذلك، ولن يقتلوك به فياني لا أسلطهم عليك. ﴿فَأَذْهَبَا﴾ أنت وأخوك، وحذف ذكر هارون وإجابة موسى إلى ما اقترحه من إرساله معه إلى فرعون، لدلالة قوله ﴿فَأَذْهَبَا﴾ عليه ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّارُ﴾ أي: بدالاتنا ومعجزاتنا التي خصصناكما بها ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ أي: نحن نحفظكم ونحن سامعون ما يجري بينكم، ومستمع هنا في موضع سامع، لأن الاستماع طلب السمع بالإصغاء إليه، وذلك لا يجوز عليه سبحانه، وإنما أتى بهذه اللفظة لأنه أبلغ في الصفة وأؤكد، وهو قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وإنما قال: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ لأنه أجراهما مجرى الجماعة ﴿فَأَتَيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلنا الله إليك لندعوك إلى عبادته. وترك الإشراك به، ولم يقل رسولاً رب العالمين، لأن الرسول قد يكون في معنى الجمع. قال الهذلي:

الْكُنْيَىٰ إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرُّسُولِ لِي أَعْلَمُهُمْ بِشَوَاحِي الْخَبَرِ^(١)

أي: وخير الرسل. وقيل: إن الرسول بمعنى الرسالة، كما في قوله:

لَقَدْ كَذَّبَ الْوَاشُونَ مَا بُحِثَ عَنْدهُمْ بِسَرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ

أي: برسالة. وقال العباس بن مرداس:

أَلَا مِنْ مُبْلِغٍ عَنِّي خُفَافاً رَسُولاً بَيِّنُ أَهْلِكَ مُنْتَهَاها

فأنث الرسول تأنيث الرسالة. وقد يقع المصدر موقع الصفة، كما تقع الصفة موقع المصدر، فيكون مجازة: أنا ذوا رسالة رب العالمين. ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعًا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: أمرك الله بأن أرسلهم وأطلقهم من الاستعباد وخلّ عنهم. وفي الكلام حذف تقديره: انهما أتيا فرعون وبلغا الرسالة على ما أمرهما الله تعالى به. ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى ﴿أَلَمْ تَرُبِكَ مِنَّا وَلِيدًا﴾ والترية:

(١) قوله: الكني إليها أي: كن رسولي، وتحمل رسالتي إليها.

تنشئة الشيء حالاً بعد حال، معناه: ألم تكن فينا صبيّاً صغيراً فربّيناك ﴿وَلَيْسَتْ فِيْنَا مِنْ عُثْرِكَ سِنَّينَ﴾ أي: أقمت سنين كثيرة عندنا، وهي ثماني عشرة سنة، عن ابن عباس. وقيل: ثلاثين سنة، عن مقاتل. وقيل: أربعين سنة، عن الكلبي. وإنما قال ذلك امتناناً عليه بإحسانه إليه. وقيل: إنه أظهر لومه حيث ذكر صنائعه. ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك الْتِي فَعَلْتَ﴾ يعني: قتل القبطي ﴿وَأَنْتَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾ لنعمتنا وحق تربيتنا، عن ابن عباس وعطاء ومقاتل. وقيل: معناه وأنت من الكافرين بالهلك، إذ كنت معنا على ديننا الذي تعيب، وتقول: إنه كفر، عن الحسن والسدي. ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿فَعَلَّهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الْعَبَّالِينَ﴾ أي: فعلت هذه الفعلة وأنا من الجاهلين، لم أعلم بأنها تبلغ القتل. وقيل: معناه من الناسين، عن ابن زيد، وقيل: من الضالين عن العلم بأن ذلك يؤدي إلى قتله، عن الجبائي، وقيل: من الضالين عن طريق الصواب لأنني ما تعمّدته، وإنما وقع مني خطأ كمن يرمي طائراً فيصيب إنساناً. وقيل: من الضالين عن النبوة أي: لم يوح إليّ تحريم قتله. ﴿فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَّيْتُمْ﴾ أي: ذهبت من بينكم حذراً على نفسي إلى مدين، لما خفتكم أن تقتلوني بمن قتلته ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ أي: نبوة، وقيل: إن الحكم العلم بما تدعو إليه الحكمة، وهو الذي وهبه الله تعالى لموسى من التوراة، والعلم بالحلال والحرام وسائر الأحكام. ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: نبياً من جملة الأنبياء ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبْدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يقال: عبده وأعبدته: إذا اتخذته عبداً. وقيل في معناه أقوال:

أحدها: أن فيه اعترافاً بأن تربيته له كانت نعمة منه على موسى ﷺ، وإنكاراً للنعمة في ترك استعباده. ويكون ألف التوبيخ مضمرّاً فيه. فكانه يقول: أو تلك نعمة تمنها عليّ أن عبدت بني إسرائيل ولم تعبدني.

وثانيها: أنه إنكار للمنة أصلاً، ومعناه: أتمنّ عليّ بأن ربّيتني مع استعبادك قومي؟ هذه ليست بنعمة، يريد: إن اتخذك بني إسرائيل الذين هم قومي عبداً أحبط نعمتك التي تمنّ بها عليّ.

وثالثها: أن معناه أنك لو كنت لا تستعبد بني إسرائيل، ولا تقتل أبناءهم، لكانت أمتي مستغنية عن قذفي في اليم، فكأنك تمنّ عليّ بما كان بلاؤك سبباً له، عن الزجاج. وزاد الأزهري لهذا بياناً فقال: إن فرعون لما قال لموسى ﷺ ألم نربك فينا وليداً، فاعتد عليه بأن رباه وليداً منذ ولد إلى أن كبر فكان من جواب موسى ﷺ له: تلك نعمة تعتد بها عليّ، لأنك عبّدت بني إسرائيل، ولو لم تعبدهم لكفلني أهلي فلم يلقوني في اليم، وإنما صارت لك عليّ نعمة لما أقدمت عليه مما حظره الله عليك.

ورابعها: أن فيه بيان أنه ليس لفرعون عليه نعمة، لأن الذي تولى تربيته أمه وغيرها من بني إسرائيل بأمر فرعون لما استعبدهم. فيكون معناه: أنك تمنّ عليّ بأن استعبدت بني إسرائيل حتى ربوني وحفظوني، عن الجبائي. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣) أي: أي جنس رب العالمين الذي تدعوني إلى عبادته ﴿قَالَ﴾ موسى في جوابه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مبدعهما ومنشئهما وخالقهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الحيوان والجماد والنبات. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾

بأن الرب من كان بهذه الصفة، أو موقنين بأن هذه الأشياء محدثة وليست من فعلكم، والمُخَدَّث لا بد له من مُخَدِّث. ولم يشتغل موسى لجواب ما سأله فرعون، لأن الله تعالى ليس بذي جنس، بل اشتغل ببيان ربوبيته وصفاته وبيان الحجة الدالة عليه من خلقه، الذي يعجز المخلوقون عن مثله. ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِينُ﴾ يريد: ألا تستمعون مقالة موسى، عن ابن عباس. وقيل: معناه ألا تصغون إليه وتفهمون ما يقوله معجباً من قوله، وإنما عجب فرعون من حوله من جوابه، لأنه طلب منه أي أجناس الأجسام هو، جهلاً منه بالتوحيد، لأنه لو كان كأحد أجناس الأجسام لكان محدثاً كسائر الأجسام التي هي من جنسه، لحلول الحوادث فيه، ودلّه موسى على الله بدلالة أفعاله التي بها يجب أن يستدل عليه تعالى فقال فرعون: أنظروا إلى هذا أسأله عن شيء فيجيب عن غيره. فجري موسى ﷺ على عادته في الرفق، وتأكيّد الحجة وتكريرها. ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ وإنما ذكره تأييداً لما قبله وتوكيداً له، فإن فرعون كان يدّعي الربوبية على أهل عصره دون من قبله، فبيّن أن المستحق للربوبية من هو رب أهل كل عصر، ومالك تدبيرهم، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ فرعون إذ لم يقدر على جواب لكلام موسى ﷺ، يموه عليهم ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ لأنّي أسأله عن ماهية رب العالمين فيجيبني عن غير ذلك، كما يفعل المجنون. فعند ذلك لم يشتغل موسى ﷺ بالجواب عما نسبه إليه من الجنون، ولكن اشتغل بتأكيد الحجة والزيادة في الإبانة بأن ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ ذلك وتتدبرونه. وقيل: إن كنتم تعلمون أنه إنما يستحق العبادة من كان بهذه الصفة. فلما طال على فرعون الاحتجاج من موسى ﴿قَالَ﴾ مهدياً له ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ بِالْغَدَاةِ لَأَبْجَعَنَّكَ مِنَ الْاسْتُجْبِينِ﴾ أي: من المحبوسين، قالوا: وكان إذا سجن أحداً لم يخرج حتى يموت، فلما توعدّه بالسجن ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ معناه: أتسجنني ولو جئت بك بأمر ظاهر، تعرف به صدقي وكذبك، وحجة ظاهرة تدل على نبوتي.



قوله تعالى: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِیْنَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلَیْكُمْ (٣٤) یُرِیدُ أَنْ یُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدّٰلِیْنِ حٰشِرَیْنِ (٣٦) یَأْتُوکَ بِکُلِّ سَحَابٍ عَلَیْهِ (٣٧) فَجَمَعَ السّٰحِرَةُ لِمِیْقَتِ یَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِیلَ لِلنّٰسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّآ نَبْعُ السّٰحِرَةِ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغٰلِبِیْنَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السّٰحِرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا لَآخِرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغٰلِبِیْنَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنّٰكُمْ إِذَا لَیْنَ الْمُقَرَّبِیْنَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِجَالَهُمُ وَعَصِیَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُّوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا یَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السّٰحِرَةُ سِجِّدَیْنِ (٤٦) قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعٰلَمِیْنَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ

ءَامَنَّا لَمْ نَقُلْ أَن ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْلَمُونَ لَا تُفْطِنَ
 أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلُكُم مِّن خِلْفٍ وَلَا صَلِّبَتْكُمْ أَعْمِيقٌ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَرَرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾

● المعنى: ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى ﴿فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: هات ما
 أَدْعَيْتَ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا ﴿قَالَ لَقَدْ﴾ حينئذ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾ أي:
 حية عظيمة، وقيل: الثعبان الذكر من الحيات ﴿ثُبِينٌ﴾ ثعبان لا شبهة فيه ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَةٌ
 لِلنَّظِيرِ﴾ ﴿٤٨﴾ أي: وأخرج يده من كُمه أو جيبه على ما رُوِيَ، فإذا هي بيضاء بياضاً نورياً،
 كالشمس في إشرافها للناظرين إليها. ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلَأِ الْأَشْرَافِ مِنْ قَوْمِهِ﴾ ﴿حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا﴾
 يعني موسى ﴿لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ بالسحر والحيل ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ﴾ ودياركم ويتغلب عليها
 ﴿بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ في بابه. وإنما شاور قومه في ذلك مع أنه كان يقول لهم: إنه إله، لأنه
 يجوز أن يكون ذهب عليه وعلى قومه أن الإله لا يجوز أن يشاور غيره، كما ذهب عليهم أن
 الإله لا يجوز أن يكون جسماً محتاجاً، فاعتقدوا إلهيته مع ظهور حاجته. ﴿قَالُوا أَزِينَةٌ وَأَخَاهُ﴾ قد
 مرَّ تفسيره، واختلاف القراء فيه في سورة الأعراف، ﴿وَأَنبَتْ فِي اللَّيْلِ حَشِيرٌ﴾ يحشرون الناس
 من جميع البلدان ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿٤٧﴾ وفي الكلام حذف تقديره: أنه أنفذ
 الحاشرين في البلدان، فحشروهم ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِيلِئَتْ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ ﴿٤٨﴾ أي: لوقت يوم بعينه
 اختاروه وعينوه، وهو يوم عيدهم، يوم الزينة ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لأهل مصر ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ﴾
 ﴿لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ لموسى وأخيه. ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ وحضروا بين يدي
 فرعون ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ﴾ له ﴿أَيْنَ لَنَا لَأَجْرُ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ أي: هل لنا أجرة وجزاء على غلبتنا
 إياه، إن نحن غلبناه؟ ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿نَعَمْ﴾ لكم على ذلك الأجر الجزيل ﴿وَلِإِنَّكُمْ﴾ مع ما
 تعطون من الجزاء والأجر ﴿إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ والمقرب: المدني من مجلس الكرامة ﴿قَالَ لَهُمْ﴾
 أي: للسحرة ﴿مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ﴾ هذا بصورة الأمر والمراد به التحدي ﴿فَأَلْقَوْا جِبَالَهُمْ
 وَعِصِيَّهُمْ﴾ أي: طرحوا ما كان معهم من الحبال والعصي ﴿وَقَالُوا بِعِزَّتِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾
 والعزة: القوة التي يتمتع بها من لحاق ضيم لعلو منزلتها، وهذا القول قَسَمَ منهم، وإن كان غير
 مرور ﴿قَالَ لَقَدْ﴾ عند ذلك ﴿مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُلُفٌ مَّا يَأْكُفُونَ﴾ أي: ان العصا تتناول جميع ما
 مؤهوا به في أوجز مدة من الزمان ﴿قَالَ لَقَدْ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ لما بهرهم موسى ﷺ من قلب
 العصا حية وتلقفها جميع ما أتعبوا به نفوسهم فيه، وعلموا أن ذلك من عند الله، إذ أحد من
 البشر لا يقدر عليه ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥٠﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿فَعِنْدَ ذَلِكَ﴾ فرعون
 مهتداً لهم ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: صدقتم ﴿لَمْ﴾ فيما يدعو إليه ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: أذن أنا في
 تصديقه ﴿إِنَّهُمْ لَكَبِيرُكُمُ﴾ أي: أستاذكم وعالمكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْلَمُونَ﴾ فيما بعد ما
 أفعله بكم عقوبة لكم على تصديقكم إياه. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿لَا تُفْطِنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ
 خِلْفٍ﴾ يعني قطع اليد من جانب والرجل من الجانب الآخر، كقطع اليد اليمنى والرجل
 اليسرى، ﴿وَلَا صَلِّبَتْكُمْ أَعْمِيقٌ﴾ مع ذلك على الجدوع، ولا أترك أحداً منكم لا تناله عقوبتي.

﴿قَالُوا﴾ في جوابه عن ذلك ﴿لَا ضَرَّ﴾ أي: لا ضرر علينا فيما تفعله. يقال: ضاره يضره ضيراً وضراً يضره ضرراً ﴿إِنَّا إِلَيْكَ رَبَّنَا مُتَّقِلُونَ﴾ أي: إلى ثواب ربنا راجعون، فيجازينا على إيماننا وصبرنا بالنعيم الدائم الذي لا ينقضي، ولا يضرنا قطعك وصلبك، فإنه ألم ساعة عن قريب ينقضي. قال الحسن: لم يصل فرعون إلى قتل واحد منهم ولا قطعه. وقيل: إن أول من قطع الأيدي والأرجل فرعون.



قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَايُطُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا نَمَّ الْأَخْرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَضَيْنَا مُوسَىٰ وَمَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر وأهل الكوفة: «حاذرون» بالالف، والباقون بغير ألف. وقرأ «فاتبعوهم» موصولة الألف، مشددة التاء زيد عن يعقوب. وقرأ الباكون: «فاتبعوهم» بقطع الألف وسكون التاء. وقرأ حمزة ونصير عن الكسائي وخلف: «ترى الجمعان» بكسر الراء، والباقون بفتحها. وفي الشواذ قراءة أبان بن تغلب: «إن كنا أول المؤمنين» بكسر الهمزة من «إن»، وقراءة ابن أبي عامر «حاذرون» بالبدال غير المعجمة. وقراءة الأعرج وعبيد بن عمير: «إننا لمذكرون» بتشديد الدال. وقراءة عبد الله بن الحرث: «وأزلقنا» بالالف.

● **الحجة:** قال أبو علي: قال أبو عبيدة رجل حذر وحذر وحاذر، قال ابن أحمر:

هَلْ يَنْسَأُنْ يَوْمِي إِلَى غَيْرِهِ أَتَيْ حَوَالِي وَأَتَيْ حَاذِر

حوالي أي: ذو حيلة. وقال العباس بن مرداس:

وَإِنِّي حَاذِرٌ أَتَمِّي سِلَاحِي إِلَى أَوْصَالٍ ذِيَالٍ مَنِيعٍ^(١)

ووجه إمالة الحركة على الراء من ترائي أن قياسه أن يكون ترائي في الموقف مثال ترائي،

(١) فرس ذبال أي: طويل القد، وقيل: طويل الذنب. والأوصال: بمعنى المفصل.

فأمال فتحة الراء لإمالة فتحة الهمزة التي أميلت ليميل الألف نحو الياء، كما قالوا رأى، أمالوا فتحة الراء لإمالة فتحة الهمزة، فإن قيل: فإذا وصل وقيل: تراه الجمعان، فهلا لم يجرز إمالة الفتحة التي على الراء، لأنه إذا كان إمالتها لإمالة فتحة الهمزة، وما يوجب إمالة الفتحة، فقد سقط، وهو الألف المنقلبة من الياء التي سقطت لالتقاء الساكنين، فإذا سقطت لم يجرز إمالة فتحة الهمزة. فإذا لم يجرز إمالة فتحة الهمزة، وجب أن لا يجوز إمالة فتحة الراء؟ فقيل: إن إمالة فتحة الراء في ترائى جائزة في الوصل مع سقوط الألف من تفاعل، لالتقاء الساكنين، وما سقط الألف عن تفاعل لالتقاء الساكنين فهو عندهم في حكم الثابت. يدل على ذلك قولهم:

ولا ذاكرأ الله إلا قليلاً^(١)

فنصب مع سقوط التنوين لالتقاء الساكنين، كما نصب إذا ثبت. وزعم أبو الحسن أنه قد قرأ في القتلى الحر بإمالة فتحة اللام مع سقوط الألف. وقال ابن جني: قوله ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من الكلام الذي يعتاده المستظهر المدل بما عنده. يقول الرجل لصاحبه: أنا أحفظه عليك إن كنت وافياً. ولن يضيع لك جميل عندي. إن كنت شاكراً، أي: فكما تعلم أن هذا معروف من حالي فثق بوفائي وشكري، ومثله بيت كتاب سيويه:

أَتَغْضِبُ أَنْ أَدْنَا قُتَيْبَةَ حُرَّتَا جِهَاراً وَلَمْ تَغْضِبْ لِقَتْلِ ابْنِ حَازِمٍ
فشرط بذلك، وقد كان ووقع قبل ذلك. وقد جاء به أبو تمام فقال:

وَمَكَارِماً عُثِقَ النُّجَارِ تَلِيدَةً إِنْ كَانَ هَضْبُ عِمَايَتَيْنِ تَلِيداً^(٢)

أي: كما كان هضب عماتين تليداً، فكذلك هذه المكارم. وأما قوله: «حادرون» فالحادر: القوي الشديد، ومنه الحادرة: الشاعرة. وحدر الرجل: إذا قوي جسمه وامتلأ لحماً وشحمًا. قال الأعشى:

وَعَسِيرِ أَذْمَاءِ حَادِرَةِ الْعَيْنِ خُوفٍ عَيْرَانَةٍ شِمْلَالِ^(٣)

ويقال: أدركت الشيء وأدركته بمعنى. ومن قرأ: «وأزلفنا» بالفاء، فالآخرون موسى وأصحابه. ومن قرأ بالقاف، فالآخرون فرعون وأصحابه، أي: أهلكناهم.

● **اللغة:** سرى وأسرى لغتان وقد فرّق بينهما. والشرذمة: العصبة الباقية من عصب كثيرة، وشرذمة كل شيء: بقيته القليلة. قال الراجز:

جَاءَ الشَّتَاءُ وَقَمِيصِي أَخْلَاقٌ شَرَاذِمٌ يَضْحَكُ مِنْهَا التَّوَاتُ^(٤)

(١) هذا عجز بيت لأبي الأسود الدؤلي. وصدرة: «فألفيته غير مستعتب» والشعر بتمامه مذكور في (جامع الشواهد). وكذا الشعر الآتي.

(٢) النجار: الأصل. وعثق جمع عتيق: الكريم. والتليد: القديم. والهضب: الجبل. وعماتين: جبلان.

(٣) العسير: الناقة التي اعتاطت فلم تحمل ستها. والأدمة في الإبل: البياض الشديد. والخوف: الدابة التي تميل رأسها إلى فارسها في عدوها. والعيрана: القوية. وناقة شملال: خفيفة سريعة.

(٤) قيل: إن التواتق في البيت: اسم ابنه.

والفرق بين الحذر والحاذر، أن الحاذر الفاعل للحذر، والحذر: المطبوع على الحذر. والكنوز: الأموال المخبأة في مواضع غامضة من الأرض بعضها على بعض، ومنه كناز التمر وغيره مما يعبا بعضه على بعض. والمقام: الموضع الذي يقام فيه. والكريم: الحقيق بإعطاء الخير الجزيل، وهي صفة تعظيم في المدح، واتبع فلان فلاناً وتبعه: إذا اقتفى أثره. والإشراق: الدخول في وقت شروق الشمس، ويقال: شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت: إذا أضاءت وصفت، وأشرقنا: دخلنا في الشروق، وتراءى الجمعان أي: تقابلا بحيث يرى كل منهما صاحبه. ويقال: تراءى ناراهما: إذا تقابلا، وإنما جاز تشية الجمع لأنه يقع عليه صفة التوحيد، فنقول: هذا جمع واحد، كما تقول جملة واحدة. والإدراك: اللحاق، يقال: أدرك فتادة الحسن أي: لحقه. وأدرك الزرع أي: لحق ببلوغه، وأدرك الغلام أي: بلغ. وأدركت القدر: نضجت. والطود: الجبل. قال الأسود بن يعفر:

حَلُّوا بِأَنْقَرَةَ يَجِيشُ عَلَيْهِمُ مَاءُ الْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادٍ^(١)

والازدلاف: الإدناء والتقريب، ومنه المزدلفة^(٢)، أبو عبيدة: أزلفنا جمعنا. وليلة المزدلفة: ليلة الجمع. قال الشاعر:

وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى أَوْ لَيْلَةٌ سَلَفَتْ فِيهَا النُّفُوسُ إِلَى الْأَجَالِ تَزْدَلِفُ

والآخر بفتح الخاء: الثاني من قسمي أحد، يقال: نجى الله أحدهما وأهلك الآخر. وبكسر الخاء: هو الثاني من قسمي الأول، يقال: نجا الأول وهلك الآخر.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن السحرة أنهم قالوا لفرعون حين آمنوا: ﴿إِنَّا نَنْطَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا﴾ أي: ما فعلناه من السحر وغيره ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لأننا كنا أول من صدق موسى وأقر بنبوته، وبما دعانا إليه من التوحيد ونفي التشبيه. وقيل: إنهم أول من آمن عند تلك الآية، أو أول من آمن من آل فرعون، لأن بني إسرائيل كانوا آمنوا به. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ سبق تفسيره في سورة طه ﴿إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده، ليحولوا بينكم وبين الخروج من أرض مصر ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَتَيْنِ﴾ يحشرون إليه الناس ويجمعون له الجيوش، ليقبضوا على موسى وقومه لما ساروا بأمر الله عز وجل، فلما حضروا عنده قال لهم ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني أصحاب موسى ﴿يَشْرِذْمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي: عصابة من الناس قليلة. قال الفراء: يقال عصابة قليلة وقليلون وكثيرون. قال المفسرون: وكان الشرذمة الذين قَلَّ لَهُمْ فرعون ستمائة ألف، ولا يحصى عدد أصحاب فرعون ﴿وَلِيَّائِهِمْ لَنَا لَفَاطُونَ﴾ يقال غاظه واغتاظه غيظة: إذا أغضبه، أي: إنهم غاظونا لمخالفتهم إيانا في الدين، ثم لخروجهم من أرضنا على كره منا، وذهابهم بالحلي التي استعاروها وخلوصهم من استعبادنا ﴿وَلِإِنَّا لَجَمِيعٌ خَائِدُونَ﴾ أي: خائفون شرهم وحاذرون أي: مؤدون مقوون أي: ذوو أداة وقوة مستعدون شاكون

(١) هي أنقرة التي ببلاد الروم، واختاره الحموي في (المعجم)، وفيه: «نزلوا بأنقرة يسيل عليهم» بدل المصراع الأول.

(٢) [قال].

في السلاح. وقال الزجاج: الحاذر المستعد، والحدزر: المتيقظ. ثم أخبر سبحانه عن كيفية إهلاكهم بقوله ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ يعني آل فرعون ﴿مِنْ جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية فيها ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أي: أموال مخبأة وخزائن ودفائن ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي: منابر يخطب عليها الخطباء، عن ابن عباس. وقيل: هو مجالس الأمراء والرؤساء التي كان يحفُّ بها الأتباع فيأتمرون بأمرهم. وقيل: المنازل الحسان التي كانوا مقيمين فيها في كرامة. وقيل: يريد مرابط الخيل لتفرد الرؤساء بارتباطها عدة وزينة، فصار مقامها أكرم مقام متروك ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما وصفنا لك أخبارهم ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وذلك أن الله سبحانه رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه، وأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والعقار والمساكن والديار ﴿فَأَتَّبَعْنَاهُمْ مُّشْرِقِينَ﴾ يعني قوم فرعون أدركوا موسى وأصحابه حين شرقت الشمس وظهر ضوءها، وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ﴾ أي: تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ أي: سيدركنا جمع فرعون ولا طاقة لنا بهم ﴿قَالَ﴾ موسى ثقة بنصر الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ لن يدركونا ولا يكون ما تظنون. فانتهوا عن هذا القول ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بنصره ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيرشدني إلى طريق النجاة، وقيل: سيكفيني، عن السدي ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أُضْرِبْ بِعَصَاكَ الْآبِرَ﴾ وهو نهر النيل ما بين أيلة ومصر. وقيل: هو بحر قلزم ما بين اليمن ومكة إلى مصر. وفيه حذف أي: فضرب ﴿فَانْفَلَقَ﴾ أي: فانشق البحر وظهر فيه اثنا عشر طريقاً وقام الماء عن يمين الطريق ويساره كالجبل العظيم وذلك قوله: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي: فكان كل قطعة من البحر كالجبل العظيم، والفرق: الاسم لما انفرد والفرق مصدر. ﴿وَأَرْسَلْنَا نَحْنُ الْآخَرِينَ﴾ أي: قربنا إلى البحر فرعون وقومه حتى أغرقناهم، عن ابن عباس وقتادة. وقيل: معناه جمعنا في البحر فرعون وقومه، عن أبي عبيدة. وقيل: معناه وقربناهم إلى المنية لمجيء وقت هلاكهم. ﴿وَأَجَعَلْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ يعني بني إسرائيل أنجينا جميعهم من الغرق والهلاك ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ فرعون وجنوده ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ معناه: إن في فرق البحر وإنجاء موسى وقومه، وإغراق فرعون وقومه، لدلالة واضحة على توحيد الله وصفاته التي لا يشاركه فيها غيره ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ معناه: أنهم مع هذا السلطان الظاهر والبرهان الباهر والمعجز القاهر، ما آمن أكثرهم، فلا تستوحش يا محمد من قعود قومك عن الحق الذي تأتبه به وتدلهم عليه، فقد جروا على عادة أسلافهم في إنكار الحق وقبول الباطل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في سلطانه ﴿الْعَزِيمُ﴾ بخلقه، وقيل: العزيز في انتقامه من عدائه، الرحيم في إنجائه من الهلاك لأوليائه. وقيل: إنه لم يؤمن من أهل مصر غير آسية امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون ومريم التي دلت على عظام يوسف.



قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عِنْكِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ

﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْجَنَّةَ بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّئٍ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنِينِ ﴿٩٠﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ آيَنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَحُنُودٌ إِلَّا بِلَيْسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَأَلْنَاهُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾.

● **اللغة:** الأقدم: الموجود قبل غيره، ومثله الأول والأسبق، والقدم: وجود الشيء لا إلى أول، والتبريز: الإظهار، يقال: أبرزه وبرزه فبرز يبرز بروزاً. والغاوي: العامل بما يوجب الخيبة من الثواب. كبكبوا: أصله كببوا إلا أنه ضعف بتكرير الفاء، أي: دهدهوا وطرح فيها بعضهم على بعض جماعة جماعة. والحميم: القريب الذي تودّه ويودّك.

● **الإعراب:** ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أصله أن يتعدى إلى ما كان صوتاً مسموعاً، تقول: سمعت كلامك. فإن وقع على جوهر تعدى إلى مفعولين، ولا يكون الثاني منهما إلا صوتاً كقولك: سمعت زيدا يقرأ. ولا يجوز سمعت زيدا يقوم، لأن القيام لا يكون مسموعاً. وقوله: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ على حذف المضاف، والتقدير: هل يسمعون دعاءكم، فحذف المضاف ودل عليه قوله: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾. ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ استثناء منقطع، ويجوز أن يكون غير منقطع على تقدير: فإن جميع ما عبدتم عدو لي إلا رب العالمين، وقد عبدوا مع الله تعالى الأصنام. ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾ الموصول والصلة في محل نصب على البدل من مفعول ينفع المحذوف. تقديره: يوم لا ينفع أحداً مال ولا بنون إلا من أتى الله. ويجوز أيضاً أن يكون منصوباً على الاستثناء، ﴿هُمْ فِيهَا﴾ مبتدأ وخبر. ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ في موضع نصب على الحال، ويجوز أن يكون ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ خبر المبتدأ، و﴿فِيهَا﴾ يتعلق به فيكون منصوباً بإضمار أن في جواب التمني.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يا محمد ﴿بَأْ إِبراهيم﴾ أي: خبر إبراهيم فإنه شجرة الأنبياء، وبه افتخار العرب، وفيه تسلية لك، وعظة لقومك ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ﴾ على وجه الإنكار عليهم ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: أي شيء تعبدون من دون الله ﴿قَالُوا تَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ

لَمَّا عَنِكَ يَنْ (٧٦) أَي: فنظّل لها مصلّين، عن ابن عباس. وقيل: معناه فنقيم على عبادتها مداومين ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكَ﴾ أَي: هل يسمعون دعاءكم ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ معناه: هل يستجيبون دعاءكم إذا دعوتموهم ﴿أَوْ يَفْعَلُونَكَ﴾ إذا عبدتموهم ﴿أَوْ يَصْرُونَ﴾ إن تركتم عبادتها. وفي هذا بيان أن الدين إنما يثبت بالحجة، ولولا ذلك لم يحاجهم إبراهيم ﷺ هذا الحجاج. ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٧)﴾ وهذا إخبار عن تقليدهم آباءهم في عبادة الأصنام ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﷺ منكرأ عليهم التقليد ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أَي: والذي كنتم تعبدونه من الأصنام ﴿أَنْتُمْ﴾ الآن ﴿وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ أَي: المتقدمون، أي: والذين كان آباؤكم يعبدونهم. وإنما دخل لفظة كان لأنه جمع بين الحال والماضي. ﴿فَأَنَّهُمْ عُدُوِّي﴾ معناه: أن عبادة الأصنام مع الأصنام عدو لي، إلا أنه غلب ما يعقل. وقيل: إنه يعني الأصنام وإنما قال: ﴿فَأَنَّهُمْ﴾ فجمعها جمع العقلاء لما وصفها بالعداوة التي لا تكون إلا من العقلاء، وجعل الأصنام كالعدو في الضرر من جهة عبادتها، ويجوز أن يكون قال ﴿فَأَنَّهُمْ﴾: لأنه كان منهم من يعبد الله مع عبادته الأصنام، فغلب ما يعقل، ولذلك استثنى فقال: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ استثناء من جميع المعبودين. قال الفراء: إنه من المقلوب، والمعنى: فإني عدو لهم ومن عاديته فقد عاداك. ثم وصف رب العالمين فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ وأخرجني من العدم إلى الوجود ﴿فَهُوَ يَهْدِينِي﴾ أَي: يرشدني إلى ما فيه نجاتي، وقيل: الذي خلقتني لطاعته فهو يهديني إلى جنته ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي (٧٨)﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي (٨٠) معناه أنه يرزقني ما أتغذى به ويفعل ما يصحّ بدني ﴿وَالَّذِي يُسَيِّئُ ثُمَّ يُجَيِّبُنِي﴾ أَي: يميّتي بعد أن كنت حياً، ويحييني يوم القيامة بعد أن أكون ميتاً ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨١)﴾ أَي: يوم الجزاء، وإنما قال ذلك على سبيل الانقطاع منه إلى الله تعالى، لا على سبيل أن له خطيئة يحتاج إلى أن يغفر له يوم القيامة، لأن عندنا لا يجوز أن يقع من الأنبياء شيء من القبائح، وعند جميع أهل العدل، وإن جوزوا عليهم الصغائر، فإنها تقع عندهم محبطة مكفرة، فليس شيء منها غير مغفور، فيحتاج إلى أن يغفر يوم القيامة. وقيل: معناه أطمع أن يغفر لمن يشفعني فيه، فأضافه إلى نفسه كقوله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿يَغْفِرْ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. وإنما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ فأضاف المرض إلى نفسه وإن كان من الله استعمالاً لحسن الأدب، فإن المقصود شكر نعمة الله تعالى، ولو كان المقصود بيان القدرة لأضافه إلى الله تعالى، ونظيره قول الخضر ﷺ: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾. ثم قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾، وإنما حذف البيئات لأنه رؤوس الآيات. وهذا الكلام من إبراهيم ﷺ إنما صدر على وجه الاحتجاج على قومه والإخبار بأنه لا يصلح للإلهية إلا من فعل هذه الأفعال. ثم حكى الله عنه أنه سأله وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ والحكم بيان الشيء على ما تقتضيه الحكمة، وقيل: إنه العلم، عن ابن عباس، يعني علماً إلى علم، وفقهاً إلى فقه. وقيل: إنه النبوة، عن الكلبي. ﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّلَاحِينَ﴾ أَي: بمن قبلي من النبيين في الدرجة والمنزلة، وقيل: معناه افعّل بي من اللطف ما يؤديني إلى الصلاح والاجتماع مع النبيين في الثواب. وفي هذا دلالة على عظم شأن الصلاح، وهو الاستقامة على ما أمر الله تعالى به ودعا إليه. ﴿وَجَعَلَ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٢)﴾ أَي: ثناء حسناً في آخر الأمم وذكرأ

سورة الشعراء

جَمِيلاً، وَقَبُولاً عَاماً فِي الَّذِينَ يَأْتُونَ بَعْدِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَأَجَابَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ دَعَاءَهُ. فَكُلْ أَهْلُ الْأَدْيَانِ يَشْنُونَ عَلَيْهِ وَيَقْرُونَ بَنِيوتَهُ، وَالْعَرَبُ تَضَعُ اللِّسَانَ مَوْضِعَ الْقَوْلِ عَلَى الْإِسْتِعَارَةِ لِأَنَّ الْقَوْلَ يَكُونُ بِهَا، وَكَذَلِكَ يَسْمُونَ اللُّغَةَ لِسَاناً. قَالَ أَعْشَى بِأَهْلَةٍ:

إِنِّي أَتُذْنِي لِسَاناً لَا أُسْرِبُهُ مِنْ عُلُوِّ لَا عَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سَخَرُ

وقيل: إن معناه واجعل لي ولد صدق في آخر الأمم يدعو إلى الله ويقوم بالحق، وهو محمد ﷺ. ﴿وَجَعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٨٥) أي: من الذين يرثون الفردوس ﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِّبَاتِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٨٦) أي: من الذاهبين عن الصواب في اعتقاده، ووصفه بأنه ضال يدل على أنه كان كافراً كفر جهالة لا كفر عناد، وقد ذكرنا الوجه في استغفار إبراهيم لأبيه في سورة التوبة. ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا تفضحني ولا تعيرني بذنب يوم تحشر الخلائق. وهذا الدعاء كان منه ﷺ على وجه الانقطاع إلى الله تعالى، لما بيّن أن القبيح لا يجوز وقوعه من الأنبياء ﷺ. ثم فسر ذلك اليوم بأن قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) أي: لا ينفع المال والبنون أحداً، إذ لا يتهيأ لذي المال أن يفتدي من شدائد ذلك اليوم به، ولا يتحمل من صاحب البنين بنوه شيئاً من معاصيه ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩) من الشرك والشك، عن الحسن ومجاهد. وقيل: سليم من الفساد والمعاصي، وإنما خصّ القلب بالسلامة لأنه إذا سلم القلب، سلم سائر الجوارح من الفساد، من حيث إن الفساد بالجراحة لا يكون إلا عن قصد بالقلب الفاسد. ورؤي عن الصادق عليه السلام أنه قال: هو القلب الذي سلم من حب الدنيا. ويؤيده قول النبي ﷺ: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ». ﴿وَأَزَلَّتْ أَلْجَنَةُ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ (٩٠) أي: قربت لهم ليدخلوها ﴿وَوَرِثَ الْجَنَّةَ الْجَنَّةَ﴾ (٩١) أي: أظهرت وكشف الغطاء عنها للضالين عن طريق الحق والصواب ﴿وَقِيلَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى وَجْهِ التَّوْبِخِ: ﴿إِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان وغيرهما. وإنما وُبخوا بلفظ الاستفهام لأنه لا جواب لهم عن ذلك إلا بما فيه فضيحتهم ﴿هَلْ يَنْصُرُوكُمْ﴾ بدفع العذاب عنكم في ذلك اليوم ﴿أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ لكم إذا عوقبتهم. وقيل: ينتصرون أي: يمتنعون من العذاب ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا﴾ أي: جمعوا وطرح بعضهم على بعض، عن ابن عباس. وقيل: نُكِسُوا فيها على رؤوسهم، عن السدي ﴿هُمْ﴾ يعني الآلهة التي يعبدونها ﴿وَالْقَاوُونَ﴾ أي: والعابدون، والمعنى: اجتمع المعبودون من دون الله والعابدون لها في النار ﴿وَحُودُؤُا إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ (٩٥) أي: وكبكب معهم جنود إبليس، يريد من اتبعه من ولده وولد آدم. ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ (٩٦) أي: قال هؤلاء وهم في النار يخاصم بعضهم بعضاً: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ سَأَلْنَاهُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٨). وإن هذه هي المخففة من الثقلية أي: إنا كنا في ضلال، ومعناه: لقد كنا في ضلال عن الحق بين، وذهاب عن الصواب ظاهر، إذ سويناكم بالله وعدلناكم به في توجيه العبادة إليكم. ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٩٩) أي: إلا أولونا الذين اقتدينا بهم، عن الكلبي. وقيل: إلا الشياطين، عن مقاتل. وقيل: الكافرون الذين دعونا إلى الضلال. ثم أظهروا الحسرة فقالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٠٠) يشفعون لنا ويسألون في أمرنا ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (١٠١) أي: ذي قرابة يهتمه أمرنا. والمعنى: ما لنا من شفيع من الأبعد ولا صديق من الأقارب، وذلك حين

يشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون. وفي الخبر المأثور عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل يقول في الجنة: ما فعل صديقي فلان وصديقه في الجحيم، فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه إلى الجنة. فيقول من بقي في النار: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم». وروى العياشي بالإسناد عن حمران بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «والله لنشفعن لشيعتنا حتى يقول الناس: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ إلى قوله ﴿فَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾». وفي رواية أخرى: حتى يقول عدونا. وعن أبان بن تغلب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن المؤمن ليشفع يوم القيامة لأهل بيته، فيشفع فيهم حتى يبقى خادمه، فيقول ويرفع سبابتيه: يا رب خويدي كان يقيني الحرّ والبرد! فيشفع فيه». وفي خبر آخر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن المؤمن ليشفع لجاره وما له حسنة، فيقول: يا رب جاري كان يكف عني الأذى! فيشفع فيه. وإن أدنى المؤمنين شفاعاً ليشفع لثلاثين إنساناً». ثم قالوا: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين، فتحل لنا الشفاعة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما قصصناه ﴿لَايَةً﴾ أي: دلالة لمن نظر فيها واعتبر بها ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ فيها تسليّة للنبي ﷺ، وإعلام له بأن الشر قديم ﴿وَلَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ مضى معناه.



قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١١٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوتَ (١١٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١١٧) فَانْقُوتُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١١٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١١٩) فَانْقُوتُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٠) ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (١٢١) قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١٢٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ (١٢٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٢٥) قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١٢٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١٢٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْمًا وَيَخِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٢٨) فَاجْنَحْهُنَّ وَمَنْ مَعَهُمْ فِي الْفَلَاحِ الْمَشْحُونِ (١٢٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ (١٣٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٣١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٣٢).

● **القراءة:** قرأ يعقوب: «وأتباعك» وهو قراءة ابن مسعود والضحاك وابن السميع والفراء، والباقون: «واتبعك».

● **الحجة:** يحتمل قوله: «وأتباعك» وجهين:

أحدهما: أن يكون مبتدأ، و ﴿الْأَرْذَلُونَ﴾ خبره، والمعنى: لماذا تؤمن لك، وإنما أتباعك الأرذلون.

والآخر: أن يكون معطوفاً على الضمير في ﴿أَتُؤْمِنُ﴾، أي: أنؤمن نحن وأتباعك. و ﴿الْأَرْذَلُونَ﴾ صفة للتابع، وجاز العطف على الضمير المرفوع المتصل من غير تأكيد لما وقع

سورة الشعراء

هناك من الفصل وهو قوله: ﴿لَكَ﴾ فصار طول الكلام به كالعوض من توكيد الضمير بقوله: ﴿نَحْنُ﴾، والمعنى: أنؤمن لك وأتباعك الأرذلون فَنَعُدُّ في عدادهم.

● **اللغة:** الأرذلون والأراذل: السفلة وأوضاع الناس. والرذل: الوضع، والرذيلة: نقيض الفضيلة، والطرْد: إبعاد الشيء على وجه التنفير، طرده يطرده. وأطرده: جعله طريداً، وأطرده في الذهاب: استمر في الذهاب كالطريد، والرجم: الرمي بالحجارة، ولا يقال للرمي بالقوس رجم. ويسمى المشتوم: مرجوماً. لأنه يرمى بما يذم، والانتهاه: بلوغ الحد من غير مجاوزة إلى ما وقع عنه النهي، وأصل النهاية: بلوغ الحد. والنهي: الغدير، لانتهاه الماء إليه، والفتح: الحكم، والفتاح: الحاكم، لأنه يفتح على وجه الأمر بالحكم الفصل. قال الشاعر:

أَلَا أَبْلِغُ بَنِي أَعْيَا رَسُولًا فِلَانِي عَنْ فَتَاخَتِكُمْ غَنِيًّا

والفلك: السفن، يقع على الواحد والجمع، والمشحون: من شحنه يشحنه شحناً: إذا ملأه بما يسد خلله، وشحن الثغر بالرجال ومنه الشحنة.

● **الإعراب:** ﴿مَا عَلَيَّ﴾: «ما» حرف نفي، و﴿عَلَيَّ﴾، مبتدأ، وتقديره: ما علمي ثب، أو حصل بما كانوا يعملون.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه حديث نوح عليه السلام فقال: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ دخلت التاء في كذبت والقوم مذكر، لأن المراد بالقوم الجماعة، أي: كذبت جماعة نوح المرسلين، لأن من كذب رسولاً واحداً من رسل الله فقد كذب الجماعة، لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل. وقال أبو جعفر عليه السلام: يعني بالمرسلين نوحاً والأنبياء الذين كانوا بينه وبين آدم عليه السلام. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴿١٦٦﴾﴾ أي: في النسب لا في الدين ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله تعالى في تكذبي ومخالفتي ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٧﴾﴾ على الرسالة فيما بيني وبين ربكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بطاعته وعبادته ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به من الإيمان والتوحيد ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الدعاء إلى التوحيد ﴿وَمَنْ أَجْرِي﴾ من مزيدة ﴿إِنْ أَجْرِي﴾ ما جزائي وثوابي ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وخالق الخلاق أجمعين. ثم كرر عليهم قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ لاختلاف المعنى، لأن التقدير: فاتقوا الله وأطيعوني، لأنني رسول أمين واتقوا الله وأطيعوني لأنني لا أسألكم عليه أجراً، فتخافوا تلف أموالكم به، وكل واحد من هذين المعنيين يقوي الداعي إلى قبول قول الغير، ويبعد عنه التهمة. ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ﴾ أي: نصدقك فيما تقول ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرَذَلُونَ﴾ أي: وقد اتبعك سفلة الناس وأراذلهم وخسасهم، عن قتادة. وقيل: يعنون المساكين الذين ليس لهم مال ولا عز، عن عطا. وقيل: يعنون الحاقة والأساكفة، عن الضحاك وعلقمة. والمعنى: أن أتباعك أراذلنا وفقراؤنا وأصحاب الأعمال الدنية، والمهن الخسيسة، فلو اتبعناك لصرنا مثلهم ومعدودين في جملتهم، وهذا جهل منهم لأنه ليس في إيمان الأرذلين به ما يوجب تكذيبه، فإن الرذل إذا أطاع سلطانه، استحق التقرب عنده دون الشريف العاصي. ﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي: ما أعلم أعمالهم وصنائعهم، ولم أكلف ذلك، وإنما كلفت أن أدعوهم إلى الله وقد أجابوني إليه ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: ليس حسابهم إلا على ربي

الذي خلقني وخلقهم، لو تعلمون ذلك ما عبتموهم بصنائعهم. ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٤) إِنَّا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ أي: ما أنا بالذي لا يقبل الإيمان من الذين تزعمون أنهم الأزدلون، لأنني لست إلا نذيراً مخوفاً من معصية الله، داعياً إلى طاعته مبيناً لها. ﴿قَالُوا﴾ له عند ذلك: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحُوا﴾ أي: إن لم ترجع عما تقول وتدعو إليه ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ بالحجارة، عن قتادة. وقيل: من المرجومين بالشتم، عن الضحاك. ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿رَبِّ إِنِّي قَرَمْتُكَ كَذِبًا﴾ (١١٧) فَأَنْتَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴿١١٨﴾ أي: فاقض بيننا قضاء بالعذاب، لأنه قال: ﴿وَبِحُجَّتِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من ذلك العذاب ﴿فَأَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾ أي: فخلصناه ومن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة من الناس وغيرهم من الحيوانات.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعد نجاة نوح ﷺ ومن معه ﴿الْبَاقِينَ﴾ أي: الخارجين عن السفينة الكافرين به ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ واضحة على توحيد الله ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ وليس هذا بتكرار، وإنما كل واحد في قصة على حدة، فهذا ذكر آية في قصة نوح ﷺ وما كان من شأنه، بعد ذكر آية مما كان في قصة إبراهيم، وذكر آية أخرى في قصة موسى وفرعون. فبين أنه ذكر كلاً من ذلك لما فيه من الآية الباهرة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في إهلاك قوم نوح ﷺ بالغرق ﴿الْجَبِيمُ﴾ في إنجائه نوحاً ومن معه في الفلك.



قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٢) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ آلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَنْتُونُ بِكُلِّ رِيحٍ ءَايَةً تَبْشُرُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدُّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدُّكُمْ بِأَنْعَمِ رِيحٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَخَلَّتْ عَيْنُونَ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير، وأهل البصرة، وأبو جعفر، والكسائي، «خُلُقٍ» بفتح الخاء، والباقون بضم الخاء واللام. وفي الشواذ قراءة قتادة: «تخلدون»، بضم التاء وكسر اللام.

● **الحجة:** قال أبو علي «خلق الأولين» عاداتهم، و«خُلُقُ الْأَوَّلِينَ» اختلافتهم، وكذبهم مثل قوله ﴿وَتَخَلَّفُوا بِفِكَأٍ﴾، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾، وخلد الشيء: إذا بقي. وأخلدته وخلدته وأخلد إلى كذا: إذا أقام عليه ولزمه، وقيل: أخلد الرجل: إذا أبطأ عنه الشيب.

● **اللغة:** الريح: الارتفاع من الأرض، وجمعه أرياع وريعة. قال ذو الرمة:

طَرِاقُ الْخَوَافِي مَشْرِفٌ فَوْقَ رَيْعَةٍ نَدَى لَيْلِهِ فِي رَيْشِهِ يَتَرَقَّرُ^(١)

ومنه: الرّيع في الطعام وهو ارتفاعه بالزيادة والنماء. وقال أبو عبيدة: الرّيع: الطريق بين الجبلين في الارتفاع. وقيل: هو الفجّ الواسع. والمصانع: مأخذ الماء، جمع مصنع. قال أبو عبيدة: كل بناء مصنعه. وقال: قتادة، ومجاهد: المصانع: هي القصور والحصون. والبطش: العسف قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط. والجبار: العالي على غيره بعظيم سلطانه، وهو في صفة الله سبحانه مدح، وفي صفة غيره ذم، لأن معناه في العبد أنه يتكلف الجبرية.

المعنى: ثم أخبر سبحانه عن عاد فقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْأَنْسِيْنَ ۖ﴾ والتأنيث لمعنى القبيلة لأنه أراد بعد القبيلة ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودُ أَلَّا تَتَّقُونَ﴾ الله باجتناب معاصيه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولُ أَمِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّ الْأَعْلَمِينَ﴾ مرّ تفسيره ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: بكل مكان مرتفع، وقيل: بكل شرف، عن ابن عباس، وقيل: بكل طريق، عن الكلبي والضحاك ﴿أَيَّاءُ تَعْبَثُونَ﴾ أي: بناء لا تحتاجون إليه لسكناكم، وإنما تريدون العبث بذلك واللعب واللغو، كأنه جعل بناهم ما يستغنون عنه عبثاً منهم، عن ابن عباس في رواية عطاء، ويؤيده الخبر المأثور عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ خرج فرأى قبة مشرفة فقال: ما هذه؟ قال له أصحابه: هذا لرجل من الأنصار. فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم في الناس، أعرض عنه، وصنع ذلك بهمراراً حتى عرف الرجل الغضب والإعراض عنه، فشكا ذلك إلى أصحابه، وقال: والله إني لأنكر نظر رسول الله ﷺ ما أدري ما حدث فيّ وما صنعت؟ قالوا: خرج رسول الله ﷺ فرأى قبعتك فقال: لمن هذه؟ فأخبرناه، فرجع إلى قبته فسوّاها بالأرض، فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فلم ير القبة فقال: ما فعلت القبة التي كانت هنا؟ قالوا: شكا إلينا صاحبها إعراضك عنه فأخبرناه، فهدمها فقال: إنّ لكلّ بناء يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بدّ منه، وقيل: معناه أنهم كانوا يبنون بالمواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة والسائلة فيسخرها منهم ويعبثوا بهم، عن الكلبي والضحاك، وقيل: إنّ هذا في بنیان الحمام. أنكر هود عليهم اتخاذهم بروجاً للحمام عبثاً، عن سعيد بن جبیر، ومجاهد ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: حصوناً وقصوراً مشيدة، عن مجاهد، وقيل: مأخذاً للماء تحت الأرض، عن قتادة ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ كأنكم تخلدون فيها فلا تموتون فإن هذه الأبنية بناء من يطمع في الخلود، قال الزجاج: معناه تتخذون مباني للخلود، لا تفكرون في الموت ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ البطش: الأخذ باليد أي: إذا بطشتم بأحد تريدون إنزال عقوبة به عاقبتموه عقوبة من يريد التجبر بارتكاب العظائم، كما قال: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾، وقيل: معناه وإذا عاقبتم قتلتم، فمعنى الجبار: القتال على الغضب بغير حق ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ مرّ معناه ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَّاكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: أعطاكم ما تعلمون من الخير، والإمداد: أتباع الثاني ما قبله شيئاً بعد شيء على انتظام. وهؤلاء أمدؤا بأنواع من النعم وهو قوله: ﴿أَمَّاكُمْ بِاتَّقِيهِ وَبِئِنَّ ۖ وَخَشِيَ وَعْيُونِ﴾ فأعطاهم رزقهم على إدرار ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن

(١) الطراق في الريش: أن يكون بعضها فوق بعض. والخوافي: ريشان من الجناح، إذا ضمّ الطائر جناحيه خفيت وترقرو: بمعنى تلالا.

عصيتموني ﴿عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يريد يوم القيامة وصفه بالعظم لما فيه من الأهوال العظيمة ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي: أنهيتنا أم لم تكن من الناهين لنا، عن الكلي، والمعنى: أنا لا نقبل ما تدعوننا إليه على كل حال أوعظت أم سكّئت أي: حصول الوعظ منك وارتفاعه مستويان عندنا. ثم قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا كذب الأولين الذين ادعوا النبوة ولم يكونوا أنبياء، وأنت مثلهم. ومن قرأ «خلق الأولين» بضم الخاء، فالمعنى: ما هذا الذي نحن عليه من تشييد الأبنية، واتخاذ المصانع، والبطش الشديد، إلا عادة الأولين من قبلنا، وقيل: معناه ما هذا الذي نحن فيه إلا عادة الأولين في أنهم كانوا يحيون ويموتون ولا بعث ولا حساب، وقيل: معناه ما الذي تدعيه من النبوة والرسالة إلا عادة الأولين ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ على ما تدعيه لا في الدنيا ولا بعد الموت ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بعدذاب الاستئصال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٦﴾ قد مر تفسيره.



قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٤٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٥٠) أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هَلُمْنَا مِنْكُمْ مِنْ آيَاتٍ (١٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥٢) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٥٣) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ (١٥٤) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٥) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ (١٥٦) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٧) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٨) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ (١٥٩) قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ لَنَا شَرِبْ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ (١٦٠) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٦١) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ (١٦٢) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٦٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٦٤)

● القراءة: قرأ أهل الكوفة، والشام: «فارهم» بالالف، والباقون: «فرهم» بغير الالف.

● الحجة: قال الزجاج: فرهم: أشرين مرحين. وفارهم: حاذقين. أبو عبيدة قال:

قد جاء فارهم في معنى فرهم. وأنشد:

لا أَسْتَكِينُ إِذَا مَا أَرَمَ أَرَمْتُ وَلَنْ تَرَانِي بِخَيْرِ فَاِرَةِ اللَّبِّ (١)

أي: مرح اللب.

(١) الأزمة: الشدة والقحط. وفي (اللسان): «فاره الطلب».

● **اللغة:** الهضم: اللطيف في جسمه، ومنه: هزيمة الحشا أي: لطيفة الحشا، ومنه: هضمه حقه أي: نقصه لأنه لطف جسمه بنقصه، ومنه: هضم الطعام: إذا لطف واستحال إلى مشاكلة البدن. والمُسْحَر: الذي قد سحر مرة بعد أخرى، وهو أن يكون ممن له سحر أي: رثة، ومنه قولهم انتفخ سحره. قال لبيد:

فَإِنْ تَسَالَيْنَا فِيمَ نَحْنُ فَإِنَّا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمُسْحَرِ

أي: المعلل بالطعام والشراب على أمر يخفى كخفاء السحر. والشرب: الحظ من الماء. قال:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة في غصون ذات أوقال^(١)

أي لم يمنع حفظها من الماء، والسوء: الضر الذي يشعر به صاحبه لأنه يسوؤه وقوعه. والعقر: قطع شيء من بدن الحي فإذا كثر انتفت منه الحياة، وإذا قل لم تتف.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن ثمود فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٤١) وهو مفسر في هذه السورة إلى قوله: ﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هَنَأْنَا إِمِينًا﴾ معناه: أتظنون أنكم تتركون فيما أعطاكم الله من الخير في هذه الدنيا، آمين من الموت والعذاب، وهذا إخبار بأن ما هم فيه من النعم لا يبقى عليهم وأنها ستزول عنهم، ثم عدّد نعمهم التي كانوا فيها فقال: ﴿وَفِي جَنَّتٍ﴾ أي: بساتين يسترّها الشجر ﴿وَعِوْنٍ﴾ جارية ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَمَهَا هَظِيمٌ﴾ (١٤٢) الطلع: الكفرى مشتق من الطلوع لأنه يطلع من النخل، والهضم: اليانع النضيج، عن ابن عباس. وقيل: هو الرطب اللين، عن عكرمة، وقيل: هو الضامر بدخول بعضه في بعض، عن الضحاك، وقيل: هو الذي إذا مُسّ تفتت، عن مجاهد، وقيل: هو الذي ليس فيه نوى، عن الحسن ﴿وَتَنَحَّثُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمًا قَدَرِهِمْ﴾ (١٤٣) أي: حاذقين بنحتها، من فره الرجل فراهة، فهو فاره. وفرهين: أشرين بطرين، عن ابن عباس ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفته ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٤٤) يعني الرؤساء منهم وهم تسعة رهط من ثمود الذين عقروا الناقة، ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (١٤٥) قالوا: في جوابه ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾ قد أصبت بسحر ففسد عقلك، فصرت لا تدري ما تقول، وهو بمعنى المسحورين، والمراد: سحرت مرة بعد أخرى، وقيل: معناه من المخدوعين، وقيل: من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب، عن ابن عباس، وقيل: معناه أنت مخلوق مثلنا لك سحر أي: رثة تأكل وتشرب فلم صرت أولى منا بالنوبة ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي: آدمي مثلنا ﴿فَأَتِ بِنَاقَةٍ﴾ أي: بمعجزة تدل على صدقك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ ﴿قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ﴾ وهي الناقة التي أخرجها الله تعالى من الصخرة عشراء ترغو على ما اقترحوه ﴿لَمَّا شَرِبَ وَلَكُّرَ شَرِبَ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: لها حظ من الماء لا تراحموها فيه، لكم حظ لا تراحمكم فيه، وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إن أول عين

(١) القول: ثمرة شجر المقل. وجمعه أوقال. وفي (اللسان): «سحوق ذات أوقال» وقال: السحوق ما طال من شجر المقل.

نبتت في الأرض هي التي فجرها الله لصالح فقال: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿وَلَا تَسْؤَهَا يَسْؤُوا فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٦١﴾ هذا مع ما بعده مفسر في سورة الأعراف، والقصة مشروحة هناك.



قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٥﴾ قَالُوا لَنْ نَمْنَعَكَ مِنَ الْفَالِينَ ﴿١٦٦﴾ رَبِّ بَحْنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٨﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٦٩﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٠﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٣﴾

● **اللغة:** العادي، والظالم، والجائر، نظائر. وهو من العدوان، وأصله من العدو والذي هو الإسراع في السعي. والقالي: المبغض، يقال: قلاه يقلبه قلباً: أبغضه، والغابر: الباقي في قلة كالتراب الذي يذهب بالكس ويبقى غباره. والغبر: البقية من اللبن في الأخلاف. قال الحرث بن حنظلة:

لا تكسع الشول بأغبارها إنك لا تدري من الناتج^(١)

والتمدير: الإهلاك بأهول الأمور.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٦٠﴾ وقد فسرناه إلى قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦٤﴾ أي: تصيبون الذكور من جملة الخلائق ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: وتركوا ما خلقه الله لكم من الأزواج والنساء، والزوجة: هي التي وقع عليها العقد بالنكاح الصحيح، يقال لها: زوجة وزوج. قال سبحانه: ﴿أَسْكَنْ أَنتَ وَزَوَّجَكَ الْجَنَّةَ﴾. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي: ظالمون معتدون الحلال إلى الحرام، والطاعة إلى المعصية ﴿قَالُوا لَنْ نَمْنَعَكَ مِنَ الْفَالِينَ﴾ وتراجع عما تقوله ولم تمتنع عن دعوتنا وتقبيح أفعالنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ عن بلدنا. ﴿قَالَ﴾ لوط لهم عند ذلك: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْفَالِينَ﴾ أي: من المبغضين الكارهين، ثم دعا ربه فقال: ﴿رَبِّ بَحْنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦٧﴾ أي: من عاقبة ما يعملونه وهو العذاب النازل بهم.

(١) الكسع: أن يؤخذ ماء بارد، فيضرب به ضروع الإبل الحلوبة إذا أرادوا تغزيها، ليحف لبنها، ويكون أقوى لأولادها التي تتجها. والشول: جمع الشائلة التي أتى عليها من حملها، أو وضعها سبعة أشهر، فخف لبنها. يوصي الشاعر ابنه بإطعام الأضياف. يقول: لا تضرب الماء البارد على ضرع الإبل، تطلب بذلك قوة نسلها، واحلبها للأضياف فلعل عدواً يغير عليها، فيكون نتاجها له دونك.

وأجاب الله سبحانه دعاءه، قال: ﴿فَنَجِّنَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (١٧٥) يعني من العذاب الذي وقع بهم. ويجوز أن يكون أراد: نجيناه وأهله من نفس عملهم وتكون النجاة من العذاب النازل بهم تبعاً لذلك، والأول أوضح ويدل عليه قوله: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِينَ﴾ (١٧٦) وأراد بالمعجوز امرأته لأنها كانت تدل أهل الفساد على أضيافه فكانت من الباقيين في العذاب، وهلكت فيما بعد مع من خرج من القرية بما أمطره الله من الحجارة ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِيْنَ﴾ (١٧٧) أهلكتناهم بالخسف، وقيل: بالانثفاك وهو الانقلاب. ثم أمطر على من كان غائباً منهم عن القرية الحجارة من السماء وهو قوله: ﴿وَأَنطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ (١٧٨) أي: بشس واشتد مطر الكافرين. مطرهم وما بعده مفسر قبل.



قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنَقِوْنَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ (١٨٠) إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨١) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨٢) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٣) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٤) وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٥) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٦) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ (١٨٧) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٨) قَالَ رَبِّ اعْلَمْ بِمَا نَعْمَلُونَ (١٨٩) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٩٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٩١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩٢).

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز، والشام، «ليكة» بالنصب، غير مهموز ههنا وفي سورة ص، والباقون «الأيكة» بإثبات الهمزة والجر في الموضعين.

● **الحجة:** قال أبو علي: الأيكة تعريف أيكة، فإذا خففت الهمزة حذفتهما وألقيت حركتها على اللام، فقلت: لَيْكَةً كما قالوا: الْخَمَرُ، ومن قال لَحْمَرٌ قال لَيْكَةً، وقول من قال: «أصحاب ليكة»، بفتح التاء مشكل لأنه فتح مع لحاق لام المعرفة الكلمة. وهذا في الامتناع كقول من قال: بلحمر فيفتح، وإنما يخرج هذا على أن المعنى قد سمي بكلمة تكون اللام فيها فاء ولم أسمع بها. وقال الزجاج: جاء في التفسير: أن اسم المدينة التي أرسل إليها شعيب كان ليكة.

● **اللغة:** الأيكة: الغيضة ذات الشجر الملتف، والجمع الأيك. قال:

تَجَلُّوْا بِقَادِمَتِي حَمَامَةً أَيْكَةً بَرْدًا أَسْفَ إِثَائُهُ بِالْإِثْمِ (١)

المخسر: المعرض للخسران في رأس المال بالنقصان، أخسر يخسر إخصاراً: إذا جعله

(١) شبه شفتي محبوبته بمقدمي جناح الحمامة، وثغرها بالبرد ذر بالإثم.

يخسر في ماله، ونقيضه أرباحه، والجبلة: الخليفة التي طبع عليها الشيء بكسر الجيم والباء.
وقيل: أيضاً بضمها ويسقطون الهاء أيضاً. قال أبو ذؤيب:

منايا يقربن الحُتوفَ لأهلها جهاراً ويستمتعن بالأنس الجبل^(١)
وقال آخر:

والمَمُوتُ أغْظَمُ حادثٍ مما يمرُّ على الجبلة

● المعنى: ثم أخبر سبحانه عن شعيب فقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرْثَلِ﴾ وهم أهل مدين عن ابن عباس، وقيل: إنهم غيرهم، عن قتادة. وقال: إن الله سبحانه أرسل شعبياً إلى أمتين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم لأنه لم يكن من نسبهم، وكان من أهل مدين فلذلك قال في ذلك الموضع ﴿وَأِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ﴿أَلَا نُنْفِوُكُمْ﴾ ﴿إِلَىٰ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿١٧٨﴾ مفسر فيما قبل إلى قوله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وإنما حكى الله سبحانه دعوة كل نبي بصيغة واحدة ولفظ واحد، إشعاراً بأن الحق الذي تأتي به الرسل ويدعون إليه واحد، من اتقاء الله تعالى، واجتناب معاصيه، والإخلاص في عبادته، وطاعة رسله، وأن أنبياء الله تعالى لا يكونون إلا أمناء الله في عبادته، فإنه لا يجوز على واحد منهم أن يأخذ الأجرة على رسالته لما في ذلك من التنفير عن قبولهم، ثم قال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي: أعطوا الكيل وافيأ غير ناقص. ويدخل الوفاء في الكيل، والوزن، والذرع، والعدد ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي: من الناقصين للكيل والوزن ﴿وَرِزُوا بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل الذي لا حيف فيه، يعني زنوا وزناً يجمع الإيفاء والاستيفاء، وذكرنا الأقوال في القسطاس في سورة بني إسرائيل ﴿وَلَا تَبْخُسُوا الْكَاسَ أَسْيَاءَهُمْ﴾ أي: ولا تنقصوا الناس حقوقهم ولا تمنعوا ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: ولا تسعوا في الأرض بالفساد والعثي أشد الفساد والخراب، عن أبي عبيدة ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: أوجدكم بعد العدم ﴿وَالْجِلَّةَ﴾ أي: الخليفة ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: وخلق الأمم المتقدمين ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا مرَّ معناه ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ أي: وإنا نظنك كاذباً من جملة الكاذبين، وإن هذه مخففة من الثقلة ولذلك لزمها اللام في الخبر ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: قطعاً من السماء جمع كسفة، عن ابن عباس ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك ﴿قَالَ﴾ شعيب: ﴿رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ومعناه أنه إن كان في معلومه أنه إن بقاكم تبتم أو تاب بعضكم، لم يقتطعكم بالعذاب، وإن كان في معلومه أنه لا يفلح واحد منكم فسيأتيكم عذاب الاستئصال. ثم قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾ أصابهم حرٌ شديد سبعة أيام وحبس عنهم الريح، ثم غشيتهم سحابة، فلما خرجوا إليها طلباً للبرد من شدة الحر الذي أصابهم، أمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم، فكان من أعظم الأيام في الدنيا عذاباً، وذلك قوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَىٰ دِينِ اللَّهِ فَأَنُفِرُوا فِيهِمْ﴾ ومعنى الظلة ههنا السحابة التي قد أظلتهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ مفسر إلى آخره.



(١) يقول: الناس كلهم متعة للموت، يستمتع بهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَنُزِيلُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَوُا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذَكَرْنِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نَزَّلْنَا بِهِ الشَّيَاطِينَ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعُزُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ .

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز، وأبو عمرو، وحفص، وزيد: «نَزَلَ» بالتخفيف، «الروح الأمين» بالرفع، والباقون: «نَزَلَ» بالتشديد، «الروح الأمين» بالنصب. وقرأ ابن عامر: «أولم تكن» بالتاء، «آية» بالرفع، والباقون: «أَوَلَمْ يَكُنْ» بالياء «آية» بالنصب. وفي الشواذ قراءة الحسن: «الأعجميين» وقراءته أيضاً «فتأتيهم بغتة» بالتاء «وما تنزلت به الشياطين».

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قال: «نزل به» بالتشديد قوله ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ و﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ فإنه مطاوع «نزل»، وقوله ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، ومن أسند الفعل إلى الروح فقال «نزل به الروح الأمين» فإنه ينزل بأمر الله تعالى فمعناه معنى المثقلة، والوجه في قراءة ابن عامر: «أولم تكن لهم آية» أن في «تكن» ضمير القصة والحديث لأن ما يقع تفسيراً للقصة والحديث، من الجملة إذا كان فيها اسم مؤنث، جاز تأنيث المضمرة على شريطة التفسير، كقوله ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقوله ﴿فَإِنَّمَا لَا تَقَى الْأَبْصَرُ﴾ وكذلك ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَوُا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ لما كان فيه المؤنث جاز أن يؤنث «تكن» ذ «آية» مرتفعة بأنها خبر المبتدأ الذي هو ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَوُا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾. ولا يمتنع أن لا يضمم القصة والحديث، ولكن يرفع ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ بقوله ﴿تَكُنْ﴾ وإن كان في «تكن» علامة التأنيث لأن ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ في المعنى هو الآية، فيحمل الكلام على المعنى كما حمل على المعنى في قوله ﴿فَلَمْ عَشْرَ أَمثَالِهَا﴾ فأنت لما كان المراد بالأمثال الحسنات، وكذلك قراءة من قرأ ﴿تَكُنْ لَوْ تَكُنْ فَنَقَلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ . وقال ابن جني في قراءة الحسن «الأعجميين»: إنها تفسير للغرض في القراءة المجمع عليها، وهي قوله بعض الأعجميين، وذلك أن ما كان من الصفات على أفعال ومؤنثه فعلى لا يجمع بالواو والنون ولا بالألف والتاء، فكان قياسه أن لا يجوز فيه الأعجمون لأن مؤنثه عجمي، لكن سببه أنه أريد به الأعجميون، ثم حذف ياء النسب وجعل جمعه بالواو والنون دليلاً عليها وأمرة لإرادتها، كما جعلت الواو في عواور، أمرة لإرادة الياء في عواوير. وقوله «فتأتيهم بغتة» بالتاء فتأتيهم الساعة، فأضمر الساعة لدلالة العذاب الواقع فيها عليها وكثرة

ما يرد في القرآن من ذكر إتيانها. وأما قوله «الشياطون» فقد قال الفراء: فيه غلط الشيخ يعني الحسن، فقليل ذلك للنضر بن شميل، فقال: إذا جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤية، فهلا جاز أن يحتج بقول الحسن مع أنا نعلم أنه لم يقرأ به إلا وقد سمعه. قال ابن جني: هذا مما يعرض مثله للفصح لتداخل الجمعين عليه وتشابههما عنده، ونحو منه قولهم: مسيل، فيمن أخذه من السيل، ثم قالوا في جمعه: مسلان وأمسلة، وفي معين: معنان وأمعنة، مع أن الأقوى أن يكون معنان من العين. فالشياطون غلط لكن يشبهه كما أن من همز مصائب كذلك عندهم. وقال الزمخشري: الوجه فيه أنه رأى آخره كآخر يبرين وفلسطين، فتخيّر بين أن يجري الإعراب على النون وبين أن يجريه على ما قبله، فيقول الشياطين والشياطون. كما تخيّرت العرب بين أن تقول هذه يبرون ويبرين، وفلسطين وفلسطين. وحقه أن يشتق من الشيطونة، وهي الهلاك، كما قيل له الباطل.

● **اللغة:** الأعجم: الذي يمتنع لسانه عن العربية، والعجمي: نقيض العربي، والأعجمي: نقيض الفصح.

● **الإعراب:** ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ في موضع النصب عن الحال، و﴿بَقْتَهُ﴾ مصدر وضع موضع الحال، ﴿سِينَ﴾ ظرف زمان لـ ﴿مَتَّعْتَهُمْ﴾. ﴿مَا أَغْنَى﴾ مآ نافية ومفعول ﴿أَغْنَى﴾ محذوف وتقديره: ما أغنى عنهم تمتعهم شيئاً. ﴿ذَكَرَى﴾ في محل النصب لأنه مفعول له. ﴿وَمَا يَبْنِي﴾ فاعل ﴿يَبْنِي﴾ مستكن فيه عائد إلى مصدر تنزيل تقديره وما ينبغي لهم أن يتنزلوا به.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه أمر القرآن بعد أن قصّ أخبار الأنبياء ﷺ ليتّصل بها حديث نبينا ﷺ فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُ لَكُنْزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نَزَلَ بِهِ أَي: نزل الله بالقرآن ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ يعني جبرائيل عليه السلام، وهو أمين الله لا يغيره ولا يبدله، وسماه روحاً لأنه يحيي به الدين، وقيل: لأنه يحيي به الأرواح بما ينزل من البركات، وقيل: لأنه جسم روحاني ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد، وهذا على سبيل التوسع لأن الله تعالى يسمعه جبرائيل عليه السلام، فيحفظه وينزل به على الرسول، ويقرأه عليه، فيعيه، ويحفظه بقلبه، فكانه نزل به على قلبه، وقيل: معناه لقنك الله حتى تلقته وثبته على قلبك، وجعل قلبك وعاء له ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: لتخوف به الناس وتنذرهم بآيات الله ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أي: بلغة العرب مبين للناس ما بهم إليه الحاجة في دينهم، وقيل: أراد به لسان قریش ليفهموا ما فيه ولا يقولوا: ما نفهم ما قال محمد، عن مجاهد، وقيل: لسان جرهم، وإنما جعله عربياً لأن المنزل عليه عربي والمخاطبون به عرب، ولأنه تحدى بفصاحته فصحاء العرب.

وقد تضمنت هذه الآية تشريف هذه اللغة لأنه سماها مبيناً، ولذلك اختارها لأهل الجنة ﴿وَأَنبَأَهُ﴾ أي: وإن ذكر القرآن، وخبره ﴿لَنُيْزِلَ الْآوَلِينَ﴾ أي: في كتب الأولين على وجه البشارة به وبمحمد ﷺ، لا بمعنى أن الله أنزله على غير محمد ﷺ وواحد الزبر: زبور. وقيل: معناه أنه أنزل على سائر الأنبياء من الدعاء إلى التوحيد، والعدل، والاعتراف بالبعث وأفانيص الأمم، مثل الذي نزل في القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَن يَلْعَلَهُمْ عَلَّمَتُوهُنَّ بِحَقِّ إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿١٧٧﴾

معناه: أولم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل بمجيئه على ما تقدمت البشارة دلالة لهم على صحة نبوته، لأن العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم، وكانت اليهود تبشر به وتستفتح على العرب، وكان ذلك سبب إسلام الأوس والخزرج على ما مرّ بيانه، وعلماء بني إسرائيل عبد الله بن سلام، وأصحابه، عن ابن عباس، وقيل: هم خمسة عبد الله بن سلام، وابن يامين، وثعلبة، وأسد، وأسيد، عن عطية ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ (١٨) أي: ولو نزلنا القرآن على رجل ليس من العرب وعلى من لا يفصح ﴿فَقَرَأُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على العرب ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لم يؤمنوا وأنفوا من اتباعه لكننا أنزلناه بلسان العرب على أفصح رجل منهم من أشرف بيت، ليتدبروا فيه وليكون ادعى إلى اتباعه وتصديقه. وقيل: معناه لو نزلناه على أعجم من البهائم أو غيرها لما آمنوا به وإن كان فيه زيادة أعجوبة، عن عبد الله بن مطيع، وروي عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن هذه الآية وهو على بعير فأشار إليه وقال: هذا من الأعجمين ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٠) أي: كما أنزلنا القرآن عربياً مبيناً أمرنا وأدخلناه وأوقعناه في قلوب الكافرين بأن أمرنا النبي ﷺ، حتى قرأه عليهم وبينه لهم. ثم بين أنهم مع ذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٢١) فيلجئهم إلى الإيمان به وهذا خبر عن الكفار الذين علم الله أنهم لا يؤمنون أبداً ﴿يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي يَتَوَقَّعُونَهُ وَيَسْتَعْجِلُونَهُ﴾ (٢٢) أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمجيئه ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ (٢٣) أي: مؤخرون لنؤمن ولنصدق. قال مقاتل: لما أوعدهم النبي ﷺ بالعذاب، استعجلوا العذاب تكديباً له فقال الله: ﴿أَفَعَدَّائِمًا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٢٤) توبيخاً لهم ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنَّمَا مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ (٢٥) ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (٢٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَعْتُونَ﴾ (٢٧) أي: رأيت إن أنظرناهم، وأخرناهم سنين، ومتعناهم بشيء من الدنيا، ثم أتاهم العذاب، لم يغن عنهم ما متعوا في تلك السنين من النعيم لازديادهم في الآثام واكتسابهم من الإجرام، وهو استفهام في معنى التقرير ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أي: وما أهلكنا قرية ﴿إِلَّا مَا مُنْذَرُون﴾ أي: إلا بعد إقامة الحجج عليهم بتقديم الإنذار وإرسال الرسل ﴿وَنُكَرُوا﴾ أي: تذكيراً وموعظة لهم لينتظروا ويصلحوا فإذا لم يصلحوا مع التخويف والتحذير واستحقوا عذاب الاستئصال بإصرارهم على الكفر والعناد أهلكناهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: وما ظلمناهم بالإهلاك لأننا لا نظلم أحداً. نفى سبحانه عن نفسه الظلم، وفي هذا تكذيب لمن زعم أن كل ظلم وكفر في الدنيا هو من خلقه وإرادته، وغاية الظلم أن يعاقب عباده على ما خلقه فيهم وأرادهم منهم الله عن ذلك وتقدس ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ كما يزعمه بعض المشركين ﴿وَمَا يَبْنِي لَهُمْ﴾ إنزال ذلك أي: الشياطين ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك ولا يقدرين عليه لأن الله تعالى يحرس المعجزة عن أن يمويه بها المبطل، فإنه إذا أراد أن يدل بها على صدق الصادق أخلصها بمثل هذه الحراسة حتى تصح الدلالة بها. ومعنى قول العرب: ينبغي لك أن تفعل كذا أنه يطلب منك فعله في مقتضى العقل من البغية التي هي الطلب ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُوُونَ﴾ (٢٨) أي: مصروفون عن استماع القرآن أي: عن المكان الذي يستمعون ذلك فيه، ممنعون عنه بالشهب الثاقبة، وقيل: معناه أن الشياطين عن سماع القرآن منحون، عن قتادة، فإن العزل تنحية الشيء عن موضع إلى خلافه

وإزالته عن أمر إلى نقيضه. قال مقاتل: قالت قريش: إنما تجيء بالقرآن الشياطين فتلقيه على لسان محمد ﷺ فأكذبهم الله تعالى بأن قال إنهم لا يقدرون بأن يأتوا بالقرآن من السماء، قد حيل بينهم وبين السمع بالملائكة والشهب.



قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ (٢٢٢) **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٢٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٢٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢٢٧) الَّذِي يَرِنَكَ هِينَ نَقُومُ﴾ (٢٢٨) وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجَدِينَ﴾ (٢٢٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٣٠).**

- **القراءة:** قرأ أهل المدينة، وابن عامر: «فتوكل» بالفاء. والباقون بالواو.
- **الحجة:** هو في مصاحف أهل المدينة والشام بالفاء، وفي مصاحف مكة والعراق بالواو، والوجهان حسنان.

● **اللغة:** عشيرة الرجل: قرابته، سموا بذلك لأنه يعاشرهم وهم يعاشرونه.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ والمراد به سائر المكلفين فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ (٢٢٢) بسبب ذلك وإنما أفرد بالخطاب ليعلم أن العظيم الشأن إذا أوعد فمن دونه كيف حاله؟ وإذا حذر هو فغيره أولى بالتحذير ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٢٤) أي: رهطك الأدين أي: أنذرهم بالإفصاح من غير تليين بالقول كما تدعو إليه مقارنة العشيرة. وإنما خصهم بالذكر تنبيهاً على أنه ينذر غيرهم، وأنه لا يداهنهم لأجل القرابة ليقطع طمع الأجانب عن مداهنه في الدين. وقيل: إنه ﷺ أمر بأن يبدأ بهم في الإنذار والدعاء إلى الله ثم بالذين يلونهم كما قال ﴿فَتَنِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾، لأن ذلك هو الذي يقتضيه حسن الترتيب، وقيل: إنه إنما خصهم لأنه يمكنه أن يجمعهم ثم ينذرهم، وقد فعل ذلك النبي ﷺ، واشتهرت القصة بذلك عند الخاص والعام. وفي الخبر المأثور، عن البراء بن عازب أنه قال: لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب، وهم يومئذ أربعون رجلاً، الرجل منهم يأكل المسنة^(١) ويشرب العس، فأمر علياً عليه السلام برجل شاة فأدمها^(٢) ثم قال: ادنوا بسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا، ثم دعا بقعب^(٣) من لبن فجرع منه جرعة، ثم قال لهم: اشربوا بسم الله، فشربوا حتى رووا، فبدرهم أبو لهب فقال: هذا ما سحركم به الرجل فسكت ﷺ يومئذ ولم يتكلم. ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام

- (١) وفي بعض الروايات: «الجذعة»، وفي بعضها: «الجفرة». وهي من أولاد المعز ما بلغ أربعة أشهر، وفصل عن أمه، وأخذ في الرعي. والعس: القدح الكبير.
- (٢) أدم الخبز: خلطه بالأدام.
- (٣) القعب: القدح الضخم الغليظ.

والشراب، ثم أنذرهم رسول الله ﷺ فقال: يا بني عبد المطلب! إني أنا النذير إليكم من الله عز وجل، والبشير فأسلموا، وأطيعوني تهتدوا، ثم قال: من يؤاخذني، ويؤاخذني، ويكون وليي، ووصي بعدي، وخليفتي في أهلي، ويقضي ديني؟ فسكت القوم، فأعادها ثلاثاً كل ذلك يسكت القوم، ويقول علي عليه السلام: أنا! فقال في المرة الثالثة: أنت! فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب: أطع ابنك فقد أمر عليك، أورده الثعلبي في تفسيره. وروي عن أبي رافع هذه القصة وأنه جمعهم في الشعب، فصنع لهم رجل شاة، فأكلوا حتى تضلعوا، وسقاهم عساً، فشربوا كلهم، حتى روي. ثم قال: إن الله تعالى أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأنتم عشيرتي ورهطي وإن الله لم يبعث نبياً إلا جعل له من أهله أخاً ووزيراً ووارثاً ووصياً وخليفة في أهله، فأياكم يقوم فيبايعني على أنه أخي ووارثي ووزير وصي، ويكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي؟ فسكت القوم، فقال: ليقومن قائمكم أو ليكونن في غيركم ثم لتندمن، ثم أعاد الكلام ثلاث مرات، فقام علي عليه السلام فبايعه وأجابه ثم قال: ادن مني، فدنا منه، ففتح فاه، ومج في فيه من ريقه، وتفل بين كتفيه ونديه. فقال أبو لهب فبئس ما حبوت به^(١) ابن عمك أن أجابك فملأت فاه ووجهه بزاقاً! فقال ﷺ: ملأته حكمة وعلماً. وعن ابن عباس قال: لما نزلت الآية صعد رسول الله ﷺ على الصفا فقال: يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقالوا: ما لك فقال: رأيتمكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدقونني؟ قالوا: بلى، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قال أبو لهب: تباً لك ألهذا دعوتنا جميعاً؟ فأنزل الله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخر السورة. وفي قراءة عبد الله بن مسعود «وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين»، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِإِنِّ أَبْعَدَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ألن جانبك وتواضع لهم وحسن أخلاقك معهم، عن أبي زيد، وغيره ﴿فَإِنَّ عَصَاكَ﴾ يعني أقاربك بعد إنذارك إياهم وخالفوك فيما تدعوهم إليه ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: من أعمالكم القبيحة وعبادتكم الأصنام ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي: فوض أمرك إلى العزيز المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه ليكفيك كيد أعدائك الذين عصوك فيما أمرتهم به ﴿الَّذِي يَرِنَاكَ مِنْ تَحْتِ الْقَوْمِ﴾ أي: الذي يبصرك حين تقوم من مجلسك أو فراشك إلى الصلاة وحدك وفي الجماعة، وقيل: معناه يراك حين تقوم في صلاتك عن ابن عباس، وقيل: حين تقوم بالليل لأنه لا يطلع عليه أحد غيره، وقيل: حين تقوم للإنذار وأداء الرسالة ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ أي: ويرى تصرفك في المصلين بالركوع والسجود والقيام والقعود، عن ابن عباس، وقتادة، والمعنى: يراك حين تقوم إلى الصلاة مفرداً وتقلبك في الساجدين إذا صليت في جماعة، وقيل: معناه وتقلبك في أصلاب الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً، عن ابن عباس في رواية عطاء وعكرمة، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله صلوات الله عليهما قالوا: في أصلاب النبيين نبي بعد نبي حتى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام. وروي جابر عن أبي

(١) أي: أعطيت به.

جعفر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «لا ترفعوا قبلي ولا تضعوا قبلي فإني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي» ثم تلا هذه الآية ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع ما تتلو في صلاتك ويعلم ما تضرع فيها.



قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿٣٣﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٤﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٣٥﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٣٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٣٩﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع «يَتَّبِعُهُم» ساكنة التاء، والباقون «يَتَّبِعُهُم».

● **الحجة:** الوجهان حسنان، يقال: تبعت القوم وأتبعهم وأتبعتهم.

● **اللغة:** الأفاك: الكذاب. وأصل الإفك: القلب، والأفاك: الكثير القلب للخبر عن جهة الصدق إلى جهة الكذب. والأثيم: الفاعل للقيح، يقال أثم يأثم إثماً: إذا ارتكب القبيح، وتأثم: إذا ترك الإثم. والهائم: الذاهب على وجهه، عن الكسائي، وقيل: هو المخالف للقصده عن أبي عبيدة.

● **الإعراب:** انتصب قوله ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ﴾ لأنه صفة مصدر محذوف، وتقديره: سيعلم الذين ظلموا انقلاباً أي انقلاب ينقلبون. ولا يجوز أن يكون معمول ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله وإنما يعمل فيه ما بعده، والعلة في ذلك الاستخبار قبل الخبر، ورتبة الاستخبار التقديم فلا يجوز أن يعمل فيه الخبر لأن الخبر بعده وذلك أنه موضوع على أنه جواب مستخبر.

● **المعنى:** لما أخبر الله سبحانه أن القرآن ليس مما تنزل به الشياطين وأنه وحي من الله عقبه بذكر من تنزل عليه الشياطين فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿٣٣﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٤﴾ أي: إنما ينزل الشياطين على كل كذاب فاجر عامل بالمعاصي وهم الكهنة، وقيل: طليحة ومسيلمة، عن مقاتل. ولست بكذاب ولا أثيم فلا ينزل عليك الشياطين، وإنما ينزل عليك الملائكة ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ معناه: أن الشياطين يلقون ما يسمعون إلى الكهنة والكذابين ويخلطون به كثيراً من الأكاذيب ويوحونه إليهم ﴿وَأَكْثُرُهُمْ﴾ أي: وأكثر الشياطين ﴿كَذِبُونَ﴾ وقيل: أكثر الكهنة كاذبون. قال الحسن: هم الذين يسترقون السمع من الملائكة فيلقون إلى الكهنة. وهذا كان قبل أن أوحى إلى النبي ﷺ وبعد ذلك ﴿فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانَ يَحْدِ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا﴾ ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ قال ابن عباس: يريد شعراء المشركين، وذكر مقاتل أسماءهم فقال: منهم عبد الله بن الزبير السهمي، وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب، وهيرة بن أبي وهب المخزومي، ومسافع بن عبد مناف الجمحي، وأبو عزة عمرو بن عبد الله،

كلهم من قريش وأمية بن أبي الصلت الثقفي، تكلموا بالكذب والباطل وقالوا: نحن نقول مثل ما قال محمد ﷺ وقالوا الشعر، واجتمع إليهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم ويروون عنهم حين يهجون النبي ﷺ وأصحابه فذلك قوله ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾، وقيل: الغاؤون الشياطين، عن قتادة، ومجاهد، وقيل: أراد بالشعراء الذين غلبت عليهم الأشعار حتى اشتغلوا بها عن القرآن والسنة، وقيل: هم الشعراء الذين إذا غضبوا سبوا وإذا قالوا كذبوا، وإنما صار الأغلب عليهم الغي لأن الغالب عليهم الفسق. فإن الشاعر يصدر كلامه بالتشبيب، ثم يمدح للصلة ويهجو على حمية الجاهلية فيدعوه ذلك إلى الكذب ووصف الإنسان بما ليس فيه من الفضائل والردائل، وقيل: إنهم القصاص الذين يكذبون في قصصهم، ويقولون ما يخطر ببالهم وفي تفسير علي بن إبراهيم: أنهم الذين يغيرون دين الله تعالى ويخالفون أمره. قال: وهل رأيت شاعراً قط تبعه أحد إنما عني بذلك الذين وضعوا ديناً بآرائهم فتبعهم الناس على ذلك. وروى العياشي بالإسناد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: هم قوم تعلموا وتفقهوا بغير علم فضلوا وأضلوا ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي: في كل فن من الكذب يتكلمون، وفي كل لغو يخوضون يمدحون ويذمون بالباطل، عن ابن عباس، وقاتدة، والمعنى: أنهم لما يغلب عليهم من الهوى كالهائم على وجهه في كل واد يعن له فيخوضون في كل فن من الكلام والمعاني التي تعن لهم ويريدونها، فالوادي مثل لفنون الكلام وهيئتهم فيه قولهم على الجهل بما يقولون من لغو وباطل وغلو في مدح وذم ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: يحثون على أشياء لا يفعلونها وينهون عن أشياء يرتكبونها. ثم استثنى من جملتهم فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهم شعراء المؤمنين مثل عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت، وسائر شعراء المؤمنين مدحوا رسول الله ﷺ وردوا هجاء من هجاه. وفي الحديث عن الزهري قال: حدثني عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: يا رسول الله! ماذا تقول في الشعر؟ فقال: إن المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما ينضحونهم بالنبل. وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: «اهجهم أو هاجهم وروح القدس معك». رواه البخاري ومسلم في الصحيحين، وقال الشعبي: كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان علي عليه السلام أشعر من الثلاثة ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله ولم يجعلوا الشعر همهم ﴿وَأَنْتَصِرُوا﴾ من المشركين للرسول والمؤمنين ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قال: الحسن انتصروا بما يحبون الانتصار به في الشريعة وهو نظير قوله ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: ردوا على المشركين ما كانوا يهجون به المؤمنين. ثم هدد الظالمين فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ أي: سوف يعلمون أي مرجع يرجعون وأي منصرف ينصرفون لأن منصرفهم إلى النار نعوذ بالله منها.

سُورَةُ النَّحْلِ

مكية/آياتها (٩٢)

- عدد آياتها: خمس وتسعون آية حجازي، أربع بصري شامي، ثلاث كوفي.
- اختلافها: آيتان: ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ حجازي، ﴿مِن قَوَارِيرٍ﴾ غير الكوفي.
- فضلها: أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بسليمان، وكذب به، وهود، وشعيب، وصالح، وإبراهيم، ويخرج من قبره وهو ينادي: لا إله إلا الله».
- تفسيرها: لما ختم الله سبحانه سورة الشعراء بذكر القرآن افتتح هذه السورة بذكره أيضاً فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَةُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتًا لَّهُمْ أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ۝ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَانِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَرَّ يَعْقُبُ يَمْوَسَّى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ۝﴾ .

- القراءة: قرأ أهل الكوفة، ورويس، عن يعقوب، ﴿بِشَهَابٍ قَبَسٍ﴾ منوناً غير مضاف، وقرأ الباقون: «بشهاب قبس» مضافاً.

- الحجة واللغة: قال أبو عبيدة: الشهاب: النار، والقبس: ما اقتبست. وأنشد:

في كفه صعدة مثقفةً فيها سنانٌ كشغلة القبس^(١)

وقال غيره: كل ذي نور فهو شهاب. قال أبو علي: يجوز أن يكون قبس صفة، ويجوز أن

(١) الصعدة: القناة التي نبتت مستوية. ومثقفة أي: مستوية.

يكون اسماً غير صفة، فأما الصفة فإنهم يقولون: قبسته أقبسه قبساً. والقبس: الشيء المقبوس، فإذا كان القبس صفة فالأحسن أن يجري على شهاب كما جرى على الموصوف في قوله: «كأنه ضرم بالكف مقبوس»، وإن كان مصدرأ غير صفة حسنت فيه الإضافة، ولا يحسن ذلك في الصفة لأن الموصوف لا يضاف إلى صفته. وقال أبو الحسن: الإضافة أجود وأكثر في القراءة كما تقول: دارٌ آجرٍ وسوارٌ ذهب ولو قلت: سوارٌ «ذهب» ودارٌ آجرٌ كان عربياً. قال أبو علي: جعل أبو الحسن القبس فيه غير وصف ألا ترى أنه جعله بمنزلة الآجر والذهب وليس واحد منهما صفة.

● الإعراب: ﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾ في محل نصب أو الرفع فالنصب على الحال أي: هادية ومبشرة، والعامل فيهما معنى الإشارة، والرفع على ثلاثة أوجه. على: هي «هدى وبشرى» وعلى البدل من ﴿ءَايَاتٍ﴾ وعلى أن يكون خبراً بعد خبر، ﴿أَنَّ بُرْكَ﴾ «أن» هي المفسرة لأن النداء فيه معنى القول، يعني فيهما قيل له بورك. ولا يجوز أن تكون مخففة عن الثقيلة على تقدير أنه بورك لأنه كان يكون لا بد من قَدْ والهاء في ﴿إِنَّهُ﴾ ضمير الشأن، و﴿أَنَا اللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر و﴿وَأَلَىٰ عَصَاكَ﴾ عطف على ﴿بُورِكَ﴾ أي: نودي أن بورك وأن ألقى عصاك.

● المعنى: ﴿طَسَّ﴾ سبق تفسيره ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما وعدوا بمجيئه من القرآن ﴿ءَايَاتٍ أَلْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ تُبَيِّنُ﴾ أضاف الآيات إلى القرآن، وآيات القرآن هي القرآن فهو كقوله ﴿وَلَنْتُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾، والقرآن والكتاب معناهما واحد وصفه بالصفتين ليفيد أنه مما يظهر بالقراءة ويظهر بالكتابة، وهو بمنزلة الناطق بما فيه من الأمرين جميعاً، ووصفه بأنه ﴿تُبَيِّنُ﴾ تشبيه له بالناطق بكذا، ومعناه أن الله يبيِّن فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ووعدته ووعدته، وإذا وصفه بأنه بيان فإنه يجري مجرى وصفه له بالنطق بهذه الأشياء في ظهور المعنى به للنفس، والبيان: هو الدلالة التي تبين بها الأشياء. والمبين: المظهر ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هدى من الضلالة إلى الحق بالبيان الذي فيه والبرهان وباللطف فيه من جهة الإعجاز الدال على صحة أمر النبي ﷺ، وبشرى للمؤمنين بالجنة والثواب، ويجوز أن يكون في موضع نصب على أن يكون تقديره: هادياً ومبشراً، ويجوز أن يكون في موضع رفع والتقدير: هو هدى وبشرى، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ بحدودها وواجباتها ويدومون على أوقاتها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: ويخرجون ما يجب عليهم من الزكاة في أموالهم إلى من يستحقها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: بالنشأة الآخرة والبعث والجزاء ﴿هُمْ يُؤْفَقُونَ﴾ لا يشكون فيه. ثم وصف من خالفهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١﴾ اختلف في معناه فقل: إن المعنى زينا لهم أعمالهم التي أمرناهم بها بأحسن وجوه التزيين والترغيب، فهم يتحيزون بالذهاب عنها، عن الحسن، والجبائي، وأبي مسلم، وقيل: زينا لهم أعمالهم بأن خلقنا فيهم شهوة القبيح الداعية لهم إلى فعل المعاصي ليجتنبوا المشتبه، فهم يعمهون عن هذا المعنى ويترددون في الحيرة، وقيل: معناه حرمانهم التوفيق عقوبة لهم على كفرهم فتزينت أعمالهم في أعينهم وحليت في صدورهم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي: شدة العذاب وصعوبته ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ﴾ أي: لا أحد أخسر صفقة منهم لأنهم يخسرون الثواب ويحصل لهم بدلاً منه العقاب ﴿وَأَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَلْقَىٰ أَلْفُورَاتٍ﴾ أي: لتعطى ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ في أمره ﴿عَلِيمٍ﴾ بخلقه أي:

من عند الله لأن الملك يليقه من قبل الله سبحانه، وقيل: معناه لتلقن. قال علي بن عيسى: عليم بمعنى عالم، إلا أن في عليم مبالغة، فهو مثل سامع وسميع، لأن في قولنا عالم يفيد أن له معلوماً، كما أن قولنا سامع يفيد أن له مسموعاً، وإذا وصفناه بأنه عليم أفاد أنه متى يصح معلوم فهو عالم به. كما أن سميعاً يفيد أنه متى وجد مسموع فلا بد أن يكون سامعاً له ﴿إِذْ قَالَ الرَّجَا: الْعَامِلُ فِي﴾ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سَائِرُكُم مِّنْهَا يَخْشَوْنَ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشَهَابٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: أبصرت ورأيت ﴿نَارًا﴾ ومنه اشتقاق الإنس لأنهم مرثيون وقيل آنست أي: أحسست بالشيء من جهة يؤنس بها وما آنست به فقد أحسست به مع سكون نفسك إليه ﴿سَائِرُكُم مِّنْهَا يَخْشَوْنَ﴾ معناه: فألزموا مكانكم لعلي آتيكم من هذه النار بخبر الطريق وأهتدي بها إلى الطريق لأنه كان أضل الطريق ﴿أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشَهَابٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: بشعلة نار، والشهاب: نور كالعمود من النار، وكل نور يمتد مثل العمود يسمى شهاباً. وإنما قال لامرأته: ﴿ءَاتِيكُمْ﴾ على لفظ خطاب الجمع، لأنه أقامه مقام الجماعة في الأنس بها، والسكون إليها في الأمكنة الموحشة ﴿لَمَّا كَرِهَ لَكُمْ تَقُوتُهُمْ﴾ أي: لكي تستدثنوا بها، وذلك لأنهم كانوا قد أصابهم البرد وكانوا شاتين، عن الحسن، وقتادة ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي: جاء موسى إلى النار يعني التي ظن أنها نار وهي نور ﴿نُورٍ﴾ أن بورك من في النار ومن حولها قال وهب: لما رأى موسى ﷺ النار، وقف قريباً منها فراها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة، لا تزداد النار إلا اشتعالاً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة وحسناً، فلم تكن النار بحرارتها تحرق الشجرة، ولا الشجرة برطوبتها تطفىء النار. فعجب منها وأهوى إليها بضغث في يده ليقبّس منها، فمالت إليه فخافها فتأخر عنها، ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها إلى أن نودي، والمراد به نداء الوحي، ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: بورك فيمن في النار وهم الملائكة، وفيمن حولها يعني موسى ﷺ، وذلك أن النور الذي رأى موسى ﷺ كان فيه ملائكة لهم زجل بالتقديس والتسبيح، ومن حولها هو موسى ﷺ لأنه كان بالقرب منها ولم يكن فيها، فكأنه قال: بارك الله على من في النار وعليك يا موسى، ومخرجه الدعاء، والمراد الخبر. قال الكسائي: تقول العرب باركه الله وبارك عليه وبارك فيه، وقيل: بورك من في النار معناه من في النار سلطانه وقدرته وبرهانه، فالبركة ترجع إلى اسم الله، وتأويله: تبارك من نور هذا النور ومن حولها، يعني موسى والملائكة. وهذا معنى قول ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبيرة. وقيل: معناه بورك من في طلب النار وهو موسى ﷺ فحذف المضاف ومن حولها الملائكة أي: دامت البركة لموسى والملائكة، وهذا تحية من الله سبحانه لموسى ﷺ بالبركة كما حيا إبراهيم ﷺ بالبركة على السنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، ثم نزه سبحانه نفسه فقال: ﴿وَسُبْحَنَّ أَلَّهُ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ﴾ أي: تنزيهاً له عما لا يليق بصفاته تعالى عن أن يكون جسماً يحتاج إلى جهة أو عرضاً يحتاج إلى محل أو يكون ممن يتكلم بالآلة، ثم أخبر سبحانه موسى عن نفسه وتعرف إليه بصفاته فقال: ﴿يَتُوسَعُ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: إن الذي يكلمك هو الله العزيز أي: القادر الذي لا يغالب ولا يمتنع عليه شيء، الحكيم في أفعاله المحكم لتدابيره ثم أراه سبحانه آية يعلم

سورة النمل

بها صيحة النداء فقال: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ وفي الكلام حذف: تقديره فألقاها فصارت حية ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أي: تتحرك كما يتحرك الجان وهو الحية التي ليست بعظيمة، وإنما شبهها بالجان في خفة حركتها، واهتزازها، مع أنها ثعبان في عظمها، ولذلك هاله ذلك حتى ولى مدبراً، وقيل: إن الحالتين مختلفتان لأن الحال التي صارت ثعباناً هي الحال التي لقي فيها فرعون، والحال التي صارت جاناً هي الحال التي خاطبه الله في أول ما بعثه نبياً ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ أي: رجع إلى ورائه ﴿وَلَمْ يَعْقُبْ﴾ أي: لم يرجع، وكل راجع معقب، والمفسرون يقولون لم يلتفت ولم يقف فقال الله سبحانه: ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ وهذا تسكين من الله سبحانه لموسى ونهي له عن الخوف. يقول له: إنك مرسل والمرسل لا يخاف لأنه لا يفعل قبيحاً ولا يخل بواجب فيخاف عقابي على ذلك.



قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤).

● **القراءة:** في الشواذ قراءة زيد بن أسلم، وأبي جعفر القاري: «ألا من ظلم» بفتح الهمزة خفيفة اللام. وقرأ علي بن الحسين (عليه السلام)، وقتادة: «مُبْصِرَةً» بفتح الميم والصاد.

● **الحجة:** قال ابن جني: من عدل إلى هذه القراءة فكأنه خفي عليه انقطاع الاستثناء في القراءة الفاشية، فإن ﴿مَنْ﴾ في هذه القراءة في موضع رفع بالابتداء، أو يكون للشرط كقولك: من يقوم اضرب، و﴿مَنْ﴾ هناك منصوبة على الاستثناء وهو استثناء منقطع بمعنى لكن. وقوله «مُبْصِرَةً» كقولك «هدى ونوراً»، وقد كثرت المفعلة بمعنى الشيع والكثرة في الجواهر والأحداث جميعاً كقولهم: أرض مضبة: كثيرة الضباب. ومفعلة: كثيرة الأفاعي، ومحيأة، ومحواة: كثيرة الحيات، هذا في الجواهر. وأما الأحداث فكقولك: البطنة موسنة وأكل الرطب موزدة ومحممة، ومنه المسعاة والمعلاة، والحق مجردة بك ومخلقة، وفي كله معنى الكثرة من موضعين:

أحدهما: المصدرية التي فيه والمصدر إلى الشيع والعموم.

والآخر: التاء وهي لمثل ذلك.

● **الإعراب:** ﴿بَيْضَاءَ﴾ منصوبة على الحال، و﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ يتعلق ببيضاء. و﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ يتعلق بـ ﴿أَلْقِ﴾، و﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ ومعناه إلقاء العصا وإدخال اليد في جيبك من جملة الآيات التسع التي يظهرها له. ﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ﴾ يتعلق بمحذوف، والتقدير: مرسلًا إلى فرعون فهو في موضع الحال. ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ مفعول له، و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بأنه خبر كان.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ المعنى: لكن من ظلم نفسه بفعل القبيح

من غير المرسلين، لأن الأنبياء لا يقع منهم ظلم لكونهم معصومين من الذنوب والقبائح، فيكون هذا استثناء منقطعاً، وإنما حسن ذلك لاجتماع الأنبياء وغيرهم في معنى شملهم وهو التكليف ﴿فَرَّ بَدَلًا حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ أي: بدّل توبة وندماً على ما فعله من القبيح، وعزماً أن لا يعود إليه في المستقبل ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: سائر لذنبه، قابل لتوبته ﴿وَأَدْخَلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ يَصْخَاءٍ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أعطاه آية أخرى وقد سبق بيانها ﴿فِي يَتَجَ لَيْكٍ﴾ أي: مع تسع آيات أخر أنت مرسل بها ﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ وَفُؤَيْدَهُ﴾ فحذف، أو يكون تقديره: مرسلًا بها إلى فرعون ومبعوثاً إليه ومثله قول الشاعر:

رَأْنِي بِحَبْلَيْهَا فَصَدَّتْ مَخَافَةً وَفِي الْحَبْلِ رَوْعَاءُ الْفَوَادِ فَرُوقُ^(١)
والتقدير: رأني مقبلاً بحبلَيْها. وقال الزجاج: في تسع آيات معناها: من تسع آيات، أي: أظهر هاتين الآيتين من جملة تسع آيات كقولهم: خذ لي عشرًا من الإبل فيها فحلان، والمعنى: منها فحلان، والآيات التسع مفسرة في سورة بني إسرائيل ﴿لَهُمْ كَاوًا قَوْمًا قَسِيْقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله إلى أقبح وجوه الكفر ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا﴾ أي: حججنا ومعجزاتنا ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي: واضحة بيّنة على من أبصر أنها خارجة عن قدرة البشر، وهو مثل قوله ﴿وَأَيْنَا نُمُودَ النَّافَةِ مُبْصِرَةً﴾، وقد مرّ بيانه. ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر بين ﴿وَحَدَّوْا بِهَا﴾ وأنكروها ولم يقرؤا بأنها من عند الله تعالى. قال أبو عبيدة: الباء زائدة، والمعنى جحدوها، كما قال العجاج: نضرب بالسيف ونرجو بالفرج. ﴿وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: عرفوها وعلموها يقيناً بقلوبهم وإنما جحدوها بالسنتهم ﴿ظُلُمًا﴾ على بني إسرائيل، وقيل: ظلمًا على أنفسهم ﴿وَعُلُوًّا﴾ أي: طلباً للعلو والرفعة وتكبراً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى عليه السلام ﴿فَانْظُرْ﴾ يا محمد أو أيها السامع ﴿كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بالمعاصي.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَايَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَّيُّهَا النَّاسُ عُلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادٍ لِّتَمَلَّيْ قَالَتَ نَمَلَةٌ يَتَّيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) .

● **اللغة:** الوزع: أصله المنع والكف، يقال: وزعه عن الظلم. قال النابغة:

(١) قائله حميد بن ثور. وروعاء الفؤاد: حديده. وفروق: بمعنى الخائف.

على حين عَاتَبْتُ المشيب على الصبا وقلت: أَلَمْ تَضُحْ والشَّيْبُ وازعُ^(١)

وقال آخر:

أَلَمْ تَزِعِ الهوى إذ لم تواتي بلى وَسَلَوْتُ عَنْ طَلَبِ الفتاة

والحطم: الكسر، ومنه الحطمة: من أسماء جهنم، والحطام: ما تحطم والإيزاع: الإلهام وفلان موزع بكذا أي: مولع به. قال الزجاج: أوزعني تأويله في اللغة: كَفَنِي عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك، وكفني عما يباعد منك.

● الإعراب: ﴿لَا يَحْطَمَنَّكُمْ﴾ في موضع جزم لأنه جواب الأمر. قال الزجاج: ﴿ضَاحِكًا﴾ حال مؤكدة لأن ﴿تَبَسَّمَ﴾ في معنى ضحك. وقال بعض المتأخرين: يجوز أن يكون حالاً بعد الفراغ من الفعل، لأن التبسم دون الضحك، فكانه تبسم أولاً ثم آل أمره إلى الضحك.

● المعنى: ثم عطف سبحانه على قصة موسى عليه السلام قصة داود وسليمان عليهما السلام فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ أي: علماً بالقضاء بين الخلق وبكلام الطير والدواب، عن ابن عباس ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: اختارنا من بين الخلق بأن جعلنا أنبياء، وبالمعجزة والملك والعلم الذي آتانا وبإلانة الحديد وتسخير الشياطين والجن والإنس. وإنما نكر قوله ﴿عِلْمًا﴾ ليدل على أنه أراد علمه احتاجا إليه مما ينبيء عن صدقهما في دعوى الرسالة ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ في هذا دلالة على أن الأنبياء يورثون المال كتوريث غيرهم، وهو قول الحسن، وقيل: معناه إنه ورثه علمه ونبوته وملكه دون سائر أولاده. ومعنى الميراث هنا: أنه قام مقامه في ذلك فأطلق عليه اسم الإرث كما أطلق على الجنة اسم الإرث، عن الجبائي. وهذا خلاف للظاهر، والصحيح عند أهل البيت عليه السلام هو الأول ﴿وَقَالَ﴾ سليمان مظهراً لنعمة الله وشاكراً إياها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُثْمَانًا مِّنْطِقِ الطَّيْرِ﴾ أهل العربية: يقولون إنه لا يطلق النطق على غير بني آدم، وإنما يقال الصوت لأن النطق عبارة عن الكلام، ولا كلام للطير إلا أنه لما فهم سليمان معنى صوت الطير سماه منطقاً مجازاً، وقيل: إنه أراد حقيقة المنطق لأن من الطير ما له كلام مهجى كالطيטوى. قال المبرد: العرب تسمي كل مبین عن نفسه ناطقاً ومتكلماً. قال رؤية:

لو انني أُعْطِيتُ عِلْمَ الْحُكْلِ عِلْمَ سُلَيْمَانَ كَلَامَ النَّمْلِ

والحكل: ما لا يسمع له صوت. وقال علي بن عيسى: إن الطير كانت تكلم سليمان معجزة له كما أخبر عن الهدد. ومنطق الطير: صوت يتفاهم به معانيها على صيغة واحدة بخلاف منطق الناس الذي يتفاهمون به المعاني على صيغ مختلفة. ولذلك لم نفهم عنها مع طول مصاحبتها، ولم نفهم هي عنا لأن أفهامها مقصورة على تلك الأمور المخصوصة، ولما جعل سليمان يفهم عنها كان قد

(١) المشيب: الشيب وابيضاض الشعر. والصبا: الميل إلى هوى النفس. وقوله: «تضح» من الصحو، وهو زوال

السكر. وقوله: «على حين» الجار والمجرور متعلق بأسفل في البيت الذي قبله وهو قوله:

«فأسبل مني عبرة، فرددتها على النحر منها مستهل، ودامع»

علم منطقها ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من كل شيء يؤتى الأنبياء والملوك، وقيل: من كل ما يطلبه طالب لحاجته وانتفاعه به، وقيل: من كل شيء علماً وتسخييراً في كل ما يصلح أن يكون معلوماً لنا أو مسخراً لنا، غير أن مخرجه مخرج العموم فيكون أبلغ وأحسن. وروى الواحدي بالإسناد عن محمد بن جعفر بن محمد، عن أبيه عليه السلام، قال: أعطى سليمان بن داود ملك مشارق الأرض ومغاربها، فملك سبعمائة سنة وستة أشهر، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن والإنس والشياطين والدواب والطيور والسباع وأعطى علم كل شيء ومنطق كل شيء، وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة التي سمع بها الناس وذلك قوله: ﴿عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾. ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَّ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي: هذا فضل الله الظاهر الذي لا يخفى على أحد، وهذا قول سليمان على وجه الاعتراف بنعم الله عليه، ويحتمل أن يكون قول الله سبحانه على وجه الإخبار بأن ما ذكره هو الفضل المبين ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾ أي: جمع له جموعه وكل صنف من الخلق جند على حدة بدلالة قوله: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ قال المفسرون: كان سليمان إذا أراد سفراً أمر فجمع له طوائف من هؤلاء الجنود على بساط، ثم يأمر الريح فتحملهم بين السماء والأرض، والمعنى: «وحشر لسليمان جنوده» أي: جمع له جموعه في مسير له. وقال محمد بن كعب: بلغنا أن سليمان بن داود كان معسكره مائة فرسخ، خمسة وعشرون منها للإنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة صريحة وسبعمائة سرية، فيأمر الريح العاصف فترفعه، ويأمر الرخاء فتسير به، فأوحى الله تعالى إليه وهو يسير بين السماء والأرض: «إني قد زدت في ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلا جاءت به الريح فأخبرتكم». وقال مقاتل: نسجت الشياطين لسليمان بساطاً فرسخاً في فرسخ ذهباً في إيريسم وكان يوضع فيه منبر من الذهب في وسط البساط فيقعد عليه، وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظلله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس، وترفع الريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ومن الرواح إلى الصباح ﴿فَهُمْ يَوْمُوعُونَ﴾ أي: يمنع أولهم على آخرهم، عن ابن عباس، ومعنى ذلك: أن على كل صنف من جنوده وزعة ترد أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ولا يتفرقوا، كما تقوم الجيوش إذا كثرت بمثل ذلك وهو أن تدفع أخراهم وتوقف أولاهم، وقيل: معناه يجسسون، عن ابن زيد، وهو مثل الأول في أنه يجسب أولاهم على أخراهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ اللَّاتِلِ﴾ أي: فسار سليمان وجنوده حتى إذا أشرفوا على واد وهو بالطائف، عن كعب. وقيل: هو بالشام عن قتادة، ومقاتل ﴿فَأَلَّتْ رَمْلَهُ﴾ أي: صاحت بصوت خلق الله لها، ولما كان الصوت مفهوماً لسليمان عبر عنه بالقول. وقيل: كانت رئيسة النمل ﴿يَتَأْتِيهَا اللَّتَمَلُ أَدْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِئَنَّكُمْ﴾ أي: لا يكسرناكم ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بحطمكم ووطئكم فإنهم لو علموا بمكانكم لم يطؤوكم، وهذا يدل على أن سليمان وجنوده كانوا ركباً ومشاة على الأرض ولم تحملهم الريح لأن الريح لو حملتهم بين السماء والأرض لما خافت النمل أن يطأوها بأرجلهم. ولعل هذه القصة كانت قبل تسخير الله الريح لسليمان، فإن قيل: كيف عرفت النملة سليمان وجنوده حتى قالت هذه المقالة؟ قلنا: إذا كانت مأمورة بطاعته فلا بد أن يخلق لها من

الفهم ما تعرف به أمور طاعته ولا يمتنع أن يكون لها من الفهم ما يستدرك به ذلك، وقد علمنا أنه تشق ما تجمع من الحبوب بنصفين مخافة أن يصيبها الندى، فتنبت إلا الكزبرة فإنها تكسرهما بأربع قطع لأنها تنبت إذا شقت بنصفين، فمن هداها إلى هذا؟ فإنه جلّ جلاله يهديها إلى تمييز ما يحطمها مما لا يحطمها، وقيل: إن ذلك كان منها على سبيل المعجز الخارق للعادة لسليمان عليه السلام. قال ابن عباس: فوقف سليمان بجنوده حتى دخل النمل مساكنه ﴿فَنَبَّسَهُ﴾ سليمان ﴿صَاحِجًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وسبب ضحك سليمان التعجب، وذلك أن الإنسان إذا رأى ما لا عهد له به تعجب وضحك، وقيل: إنه تبسم بظهور عدله حيث بلغ عدله في الظهور مبلغاً عرفه النمل، وقيل: إن الريح أطارت كلامها إليه من ثلاثة أميال حتى سمع ذلك، فانتهى إليها وهي تأمر النمل بالمبادرة فتبسم من حذرهما ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بأن علمتني منطق النمل وأسمعتني قولها من بعيد حتى أمكنتني الكف، وأكرمتني بالنبوة والملك ﴿وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ﴾ أي: أنعمت على والدي بأن أكرمته بالنبوة وفصل الخطاب وألنت له الحديد، وعلى والدتي بأن زوجتها نبيك، وجعل النعمة عليهما نعمة الله سبحانه عليه ويلزمه شكرها ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: وفقني لأن أعمل صالحاً في المستقبل ترضاه ﴿وَأَدْخِلْنِي رَحْمَتَكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ومن بعدهم من النبيين، أي: أدخلني في جملتهم وأثبت اسمي مع أسمائهم، واحشروني في زمريهم، وقال ابن زيد ﴿فِي عِبَادِكَ﴾ معناه: مع عبادك. قال الزجاج: جاء لفظ ﴿أَدْخُلُونَا﴾ كلفظ ما يعقل، لأن النمل له هنا أجري مجري الآدميين حتى نطق كما ينطق الآدميون، وإنما يقال لما لا يعقل ادخلي. وفي الخبر دخلت أو دخلن. وروي أن نمل سليمان هذا كان كأمثال الذئب والكلاب.



قوله تعالى: ﴿وَنَقَّذَ الظَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدًى أَمْ كَانَ مِنَ الْفَكَائِبِ ۚ لَا أُغْلِبُهُ ۖ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ۚ أَوْ لِيَأْتِنِي إِسْلَاطٌ مِّنِّي ۚ فَكُتَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ ۖ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ۚ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۚ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۚ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: «أو ليأتيني» بنونين أولهما مشددة مفتوحة، والباقون بنون واحدة مشددة. وقرأ عاصم، ويعقوب ﴿فَكُتَّ﴾ بفتح الكاف، والباقون بضم الكاف. وقرأ أبو عمرو وابن كثير في رواية البزي «من سبأ» بفتح الهمزة. وقرأ ابن كثير في رواية القواس،

وابن فليح «من سباً» بغير همزة. وقرأ الباقون ﴿مِنْ سَبَا﴾ مجرورة منونة، ومثله سواء في سورة سبأ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ وقرأ أبو جعفر، والكسائي، ورويس، عن يعقوب «ألا يسجدوا» خفيفة اللام، وقرأ الباقون ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ مثل قوله ﴿لَا يَقُولُوا﴾ ومن خفف وقف على «ألا يا» وابتدأ «اسجدوا». وقرأ الكسائي، وحفص، عن عاصم ﴿مَا تَحْفَوْنَ وَمَا تَعْلَتُونَ﴾ بالتاء، والباقون بالياء.

● **الحجة:** من قرأ ﴿لِيَأْتِيَنِي﴾ حذف النون الثالثة التي هي قبل ياء المتكلم لاجتماع النونات. ومن قرأ ﴿لِيَأْتِيَنِي﴾ فهو على الأصل. ومكث ومكث: لغتان. ومما يقوي الفتح قوله ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ وقوله: ﴿تَكِيدُ فِيهِ أَبَدًا﴾، وقال سيبويه: ثمود وسبأ مرة للقبيلتين ومرة للحيين. قال أبو علي: يريد أن هذه الأسماء منها ما جاء على أنه اسم الحي نحو معد وقريش وثقيف، ومنها ما يستوي فيه الأمران كثمود وسبأ. وقال أبو الحسن في سبأ: إن شئت صرفت فجعلته اسم أبيهم أو اسم الحي، وإن شئت لم تصرف فجعلته اسم القبيلة. قال: والصرف أحب إلي لأنه قد عرف أنه اسم أبيهم وإن كان اسم الأب يصير كالقبيلة، إلا أنني أحمله على الأصل. وقال غيره: هو اسم رجل واليمانية كلها تنسب إليه. يقولون: سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. قال الزجاج: من قال إن سبأ اسم رجل فغلط، لأن سبأ هي مدينة تعرف بمأرب من اليمن، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام. قال الشاعر:

مِنْ سَبَا الْحَاضِرِينَ مَأْرِبَ إِذْ يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَبِيلِ الْعَرِمَا

فمن لم يصرف فلأنه اسم مدينة ومن صرفه فلأن يكون اسماً للبلد. قال جرير:

الواردون وَتَنِيْمٌ فِي ذُرَى سَبَا قَدْ عَصَّ أَغْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ^(١)

ومن قرأ ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ فالتقدير: فصدهم عن السبيل لأن لا يسجدوا، على أنه مفعول له. قال أبو علي: وهذا هو الوجه لتجري القصة على سننها، ولا يفصل بين بعضها وبعض ما ليس منها، وإن كان الفصل بهذا النحو غير ممتنع، لأنه يجري مجرى الاعتراض، وكأنه لما قيل ﴿وَرَبِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْنَاهُمْ فَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ فدل هذا الكلام على أنهم لا يسجدون لله، قال: ألا يا قوم! اسجدوا لله خلافاً عليهم. ووجه دخول حرف التنبيه على الأمر: أنه موضع يحتاج فيه إلى استعطاف المأمور لتأكيد ما يؤمر به عليه، كما أن النداء موضع يحتاج فيه إلى استعطاف المنادى لما ينادى له من إخبار أو أمر أو نهى، ونحو ذلك مما يخاطب به، وإذا كان كذلك فيجوز أن لا تريد منادى في نحو ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ كما لا تريد المنادى في نحو قوله:

يَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْأَقْوَامِ كُلِّهِمْ وَالصَّالِحِينَ عَلَى سَمْعَانَ مِنْ جَارٍ^(٢)

وكذلك ما حكى عن أبي عمرو من قوله: يا ويل له! ويجوز أن يراد بعد «يا مأمورون» فحذفوا كما حذف في قوله: يا لعنة الله! فكما أن «يا» ههنا لا يجوز أن يكون إلا لغير اللعنة، كذلك يجوز أن يكون المأمورون مرادين، وحذفوا من اللفظ. وقد جاء هذا في مواضع من الشعر

(١) الذرى جمع الذروة: أعلى كل شيء.

(٢) الشعر في (جامع الشواهد). وسمعان: اسم رجل.

فمن ذلك ما أنشده أبو زيد:

فَقَالَتْ أَلَا يَا اسْمَعَ نَعِظُكَ بِخِطَّةٍ فَقُلْتُ سَمِيعاً فَأَنْطِقِي وَأَصِيبِي

وأنشد الزجاج لذي الرمة:

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مَيِّ عَلَى الْبَلَى وَلَا زَالَ مُنْهَلًا بِجِزَعَائِكَ الْقَطْرِ^(١)

ولالأخطل:

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا هِنْدُ هِنْدُ بَنِي بَذْرِ^(٢) وَلَا زَالَ حَيَانَا عِدَى آخِرِ الدُّهْرِ^(٣)

ومما يؤكد قراءة من قرأ ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ بالتشديد: أنها لو كانت مخففة لما كانت في ﴿يَسْجُدُوا﴾ ياء، لأنها اسجدوا. ففي ثبات الياء في المصحف دلالة على التشديد. ومن قرأ «بخفون ويعلمون» بالياء فلأن الكلام على الغيبة، وقراءة الكسائي فيهما بالتاء لأن الكلام قد دخله خطاب على قراءة «اسجدوا لله»، ومن قرأ: «أَلَا يَا اسجدوا» فيجوز أن يكون الخطاب للمؤمنين والكافرين الذين جرى ذكرهم على لفظ الغيبة.

● الإعراب: كان أبو عمرو يسكن الياء في قوله: ﴿مَالِكٌ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ﴾ ويفتح في قوله: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ثلثاً يقف الواقف على مالي ويبتدىء بلا أعبد، و ﴿لَا أَرَى﴾ في موضع نصب على الحال. ﴿أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾. ﴿أَمْ﴾: منقطعة. التقدير: بل أهو من الغائبين و ﴿كَانَ﴾ بمعنى يكون، واللام في ﴿لَا عَذِيبَتَهُ﴾ جواب قسم مقدر أي: والله لأعذبنه. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ منصوب لأنه صفة ظرف أو صفة مصدر، تقديره: فمكث وقتاً غير بعيد أو مكثاً غير بعيد. و ﴿يَسْجُدُونَ﴾ في موضع نصب على الحال من ﴿وَعِدْتُ﴾.

● المعنى: ثم أخبر سبحانه عن سليمان فقال: ﴿وَتَقَفَّذَ الطَّيْرَ﴾ أي: طلبه عند غيبته ﴿فَقَالَ مَالِكٌ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ﴾ أي: ما للهدهد لا أراه، تقول العرب مالي أراك كثيراً، ومعناه: مالك. ولكنه من القلب الذي يوضح المعنى، واختلف في سبب تفقده الهدهد ف قيل: إنه احتاج إليه في سفره، وليدله على الماء لأنه يقال: إنه يرى الماء في بطن الأرض كما يراه في القارورة، عن ابن عباس، وروى العياشي بالإسناد قال: قال أبو حنيفة لأبي عبد الله عليه السلام: كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير؟ قال: لأن الهدهد يرى الماء في بطن الأرض كما يرى أحدكم الدهن في القارورة، فنظر أبو حنيفة إلى أصحابه وضحك، قال أبو عبد الله عليه السلام: ما يضحكك؟ قال: ظفرت بك جعلت فداك. قال: وكيف ذلك؟ قال: الذي يرى الماء في بطن الأرض لا يرى

(١) قوله: اسلمي أمر من السلامة، وهي البراءة من العيوب. المنادى محذوف تقديره: «يا دارمية اسلمي». وقوله: «يا دارمي» تأكيد للمنادى الأول. و«مي» مرخم مية، محبوبته. وورد ذكرها كثيراً في شعر ذي الرمة. والبلى: الانداس. والانهلال: انصباب المطر بشدة. والجرعاء: رملة مستوية لا تنبت شيئاً. والقطر: المطر.

(٢) وفي رواية: «بني بكر».

(٣) أي: ولو كان بين قبيلتي وقبيلتك عداوة.

الفخ في التراب حتى يؤخذ بعنقه؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: يا نعمان، أما علمت أنه إذا نزل القدر أغشى البصر؟ وقيل: إنما تفقده لإخلاله بنوبته، عن وهب، وقيل: كانت الطيور تظله من الشمس فلما أخل الهدهد بمكانه بان بطلوع الشمس عليه **﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاكِينَ﴾** معناه: أتاخر عصياناً أم غاب لعذر وحاجة؟ قال: المبرد لما تفقد سليمان الطير ولم ير الهدهد، قال: مالي لا أرى الهدهد؟ على تقدير: أنه مع جنوده وهو لا يراه. ثم أدركه الشك فشك في غيبته عن ذلك الجمع، بحيث لم يره فقال: **﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاكِينَ﴾** أي: بل أكان من الغائبين كأنه ترك الكلام الأول واستفهم عن حاله وغيبته ثم أوعده على غيبته فقال: **﴿لَأُعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا﴾** معناه: لأعذبه بتنف ريشه وإلقائه في الشمس، عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وقيل: بأن أجعله بين أضداده. وكما صحَّ نطق الطير وتكليفه في زمانه معجزة له جازت معاقبته على ما وقع منه من تقصير فإنه كان مأموراً بطاعته فاستحق العقاب على غيبته **﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّكَ﴾** أي: لأقطعن حلقة عقوبة على عصيانه **﴿أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾** أي: بحجة واضحة تكون له عذراً في الغيبة **﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾** أي: فلم يلبث سليمان إلا زماناً يسيراً حتى جاء الهدهد، وقيل: معناه فلبث الهدهد في غيبته قليلاً ثم رجع، وعلى هذا فيجوز أن يكون التقدير: فمكث في مكان غير بعيد. قال ابن عباس: فاتاه الهدهد بحجة **﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾** أي: اطلعت على ما لم تطلع عليه وجئتكم بأمر لم يخبركم به ولم يعلم به الإنس وبلغت ما لم تبلغه أنت ولا جنودك وهو قوله: **﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾** أي: بخبر صادق. وعلم الإحاطة: وهو أن يعلم الشيء من جميع جهاته التي يمكن أن يعلم عليها تشبيهاً بالسور المحيط بما فيه، وفي الكلام حذف تقديره: ثم جاء الهدهد فسأله سليمان عن سبب غيبته، فقال: أحطت بما لم تحط به، وفي هذا دلالة على أنه يجوز أن يكون في زمن الأنبياء من يعرف ما لا يعرفونه. وسبأ: مدينة بأرض اليمن، عن قتادة، وقيل: إن الله تعالى بعث إلى سبأ اثني عشر نبياً، عن السدي، وروى علقمة بن وعله، عن ابن عباس، قال: سئل النبي ﷺ عن سبأ فقال: هو رجل ولد له عشرة من العرب تيامن منهم ستة وتشأم أربعة، فالذين تشأموا: لخم وجذام وغسان وعاملة، والذين تيامنوا: كندة والأشعرى والأزد ومذحج وحمير وأنمار، ومن الأنمار: خثعم وبعيلة **﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ﴾** أي: تتصرف فيهم بحيث لا يعترض عليها أحد **﴿وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾** وهذا إخبار عن سعة ملكها أي: من كل شيء من الأموال وما يحتاج إليه الملوك من زينة الدنيا. وقال الحسن: وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ، وقيل شرحبيل ولدها أربعون ملكاً آخرهم أبوها [شرحبيل]^(١). قال قتادة: وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثنى عشر قتيلاً^(٢)، كل قيل منهم تحت رايته ألف مقاتل **﴿وَلَمَّا عَزَّشَ عَظِيمٌ﴾** أي: سرير أعظم من سريرك وكان مقدمه من ذهب مرصع بالياقوت الأحمر والزمرد الأخضر ومؤخره من فضة، مكلل بألوان الجواهر، وعليه سبعة أبيات، على كل بيت باب مغلق، وعن ابن عباس قال: كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعاً في ثلاثين ذراعاً وطوله في الهواء ثلاثون

(١) ما بين المعقوفين غير موجود في المخطوطتين، وكذا في نسخة (البحار).

(٢) القيل: الرئيس.

سورة النمل

ذراعاً. وقال: أبو مسلم: المراد بالعرش الملك. ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: عبادتهم للشمس من دون الله ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: صرفهم عن سبيل الحق ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ قال الجبائي: لم يكن الهدهد عارفاً بالله تعالى وإنما أخبر بذلك كما يخبر مراقبو صبياننا لأنه لا تكاليف إلا على الملائكة والإنس والجن فيرانا الصبي على عبادة الله، فيتصور أن ما خالفها باطل، فكذلك الهدهد تصور له أن ما خالف فعل سليمان عليه السلام باطل، وهذا الذي ذكره خلاف ظاهر القرآن لأنه لا يجوز أن يفرّق بين الحق الذي هو السجود لله وبين الباطل الذي هو السجود للشمس، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح، إلا العارف بالله سبحانه وبما يجوز عليه وما لا يجوز، هذا مع نسبة تزيين أعمالهم وصدّهم عن طريق الحق إلى الشيطان، وهذا مقالة من يعرف العدل وأن القبيح غير جائز على الله سبحانه ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ قد بيّنا أن التخفيف إنما هو على معنى الأمر بالسجود، ودخلت الياء للتنبيه أو على تقدير: «ألا يا قوم اسجدوا لله». وقيل: إنه أمر من الله تعالى لجميع خلقه بالسجود له، اعترض في الكلام، وقيل: إنه من كلام الهدهد قاله لقوم بلقيس حين وجدهم يسجدون لغير الله، وقاله لسليمان عليه السلام عند عوده إليه استنكاراً لما وجدهم عليه. والقراءة بالتشديد لا توجب سجدة التلاوة، وهذا غير صحيح لأن الكلام قد تضمن الذم على ترك السجود، فيكون فيه دلالة على وجوب السجود، وهو كقوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ الآية. ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الخباء: المخبوء وهو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه، وهو مصدر وصف به يقال: خبأته أخبؤه خبأً، وما يوجده الله تعالى فيخرجه من العدم إلى الوجود يكون بهذه المنزلة. وقيل: الخباء: الغيب، وهو كل ما غاب عن الإدراك، فالمعنى يعلم غيب السماوات والأرض، عن عكرمة، ومجاهد. وقيل: إن خباء السماوات: المطر، وخباء الأرض: النبات والأشجار، عن ابن زيد ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلم السر والعلانية ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ إلى ههنا تمام الحكاية لما قاله الهدهد، ويحتمل أن يكون ابتداء إخبار من الله تعالى. والعرش: سرير الملك الذي عظمه الله ورفع فوق السماوات السبع، وجعل الملائكة تحفّ به وترفع أعمال العباد إليه وتنشأ البركات من جهته، فهو عظيم الشأن كما وصفه الله تعالى، وهو أعظم خلق الله تعالى.



قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٧) ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (٨) ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّيَأُفِي إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ (٩) ﴿إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١٠) ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأُنُوِي مُسْلِمِينَ﴾ (١١).

● **القراءة:** في الشواذ ما رواه وهب، عن ابن عباس «ألا تغلوا» بالغين المعجمة من

الغلو.

● **المعنى:** ولما سمع سليمان ما اعتذر به الهدهد في تأخره ﴿قَالَ﴾ عند ذلك ﴿سَنْظُرُ أَصَدَقْتُ﴾ في قولك الذي أخبرتنا به ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وهذا ألطف وألين في الخطاب من أن يقول: أم كذبت، لأنه قد يكون من الكاذبين بالميل إليهم، وقد يكون منهم بالقرابة تكون بينه وبينهم، وقد يكون منهم بأن يكذب كما كذبوا، ثم كتب سليمان كتاباً وختمه بخاتمه ودفعه إليه فذلك قوله: ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهِ إِلَيْهِمْ﴾ يعني إلى أهل سبأ ﴿ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: استتر منهم قريباً بعد إلقاء الكتاب إليهم، فانظر ماذا يرجعون، عن وهب بن منبه، وغيره. وقيل: إنه على التقديم والتأخير ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ماذا يردون من الجواب. ثم تول عنهم لأن التولي عنهم بعد الجواب، عن مقاتل، وابن زيد، والجبائي، وأبي مسلم، والأول أوجه لأن الكلام إذا صح من غير تقديم وتأخير كان أولى. وفي الكلام حذف تقديره: فمضى الهدهد بالكتاب وألقاه إليهم فلما رآه بلقيس ﴿قَالَتْ﴾ لقومها ﴿يَتَأَيَّأُ الْمَلَكُوتُ﴾ أي: الأشراف ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ﴾ قال قتادة: أنها الهدهد وهي نائمة مستلقية على قفاها، فألقى الكتاب على نحرها، فقرأت الكتاب، وقيل: كانت لها كوة مستقبلة للشمس، تقع الشمس عندما تطلع فيها فإذا نظرت إليها سجدت، فجاء الهدهد إلى الكوة فسدها بجناحه فارفعت الشمس ولم تعلم، فقامت تنظر، فرمى الكتاب إليها، عن وهب، وابن زيد، فلما أخذت الكتاب جمعت الأشراف، وهم يومئذ ثلاثمائة واثنا عشر قتيلاً، ثم قالت لهم: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ﴾ سمته كريماً لأنه كان مختوماً، عن ابن عباس، ويؤيده الحديث: «إكرام الكتاب ختمه». وقيل: وصفته بالكريم لأنه صدره بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وقيل: لحسن خطه وجودة لفظه وبيانه. وقيل: لأنه كان ممن يملك الإنس والجن والطير وقد كانت سمعت بخبر سليمان فسمته كريماً لأنه من كريم رفيع الملك عظيم الجاه ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَنَ وَإِنَّكُمْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ معناه: أن الكتاب من سليمان وأن المكتوب فيه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتُونِي سُتْلِيَيْنَ﴾ (٣١) فإن هذا القدر جملة ما في الكتاب، وأول من استفتح ببسم الرحمن الرحيم سليمان ﷺ ولم تعرفه هي ولا قومها، وقيل إن هذا حكاية ما قالتها على المعنى باللغة العربية وإن لم تقل هي بهذا اللفظ، والحكاية على ثلاثة أوجه: حكاية على المعنى فقط، وحكاية على اللفظ فقط ممن حكاها من غير أن يعلم معناه وحكاية على اللفظ والمعنى وهو الأصل في الحكاية التي لا يجوز العدول عنها إلا بقريئة، وموضع ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ﴾ يجوز أن يكون رفعاً بالبدل من ﴿كِتَابَ﴾ ويجوز أن يكون نصباً على معنى بأن «لا تعلموا»، والصحيح أن ﴿أَنْ﴾ في مثل هذا الموضع بمعنى أي: على ما قاله سيبويه في نحو قوله: ﴿وَأَنْطَلَقَ أَلَلًا مِنْهُمْ أَنْ أَشْوَا﴾ أي: امشوا ومعناه لا تترفعوا ولا تكبروا ﴿عَلَىٰ وَأَتُونِي سُتْلِيَيْنَ﴾ أي: منقادين طائعين لأمرى فيما أدعوكم، وقيل مسلمين مؤمنين بالله تعالى ورسوله مخلصين في التوحيد. قال قتادة: وكذا كانت الأنبياء تكتب كتبها موجزة مقصورة على الدعاء إلى الطاعة من غير بسط.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْأَلْمَلُؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ۚ﴾ (٣٢) ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۚ﴾ (٣٣) ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۚ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۚ﴾ (٣٤) ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ۚ﴾ (٣٥) ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أْتِمِدُونَنِي بِمَالٍ مِمَّا عَاتَيْنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا عَاتَلَكُمْ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۚ﴾ (٣٦) ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِمَّا آذَلَّاهُمْ وَهُمْ صَغِيرُونَ ۚ﴾ (٣٧).

● **القراءة:** قرأ حمزة ويعقوب «أتمدونني» بنون واحدة مشددة على الإدغام، والباقون

بنونين مظهرين.

● **الإعراب:** ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ انتصب ﴿تَشْهَدُونِ﴾ بإضمار أن والنون فيه نون عماد. ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ﴾ فاعل ﴿جَاءَ﴾ الضمير المستكن فيه الراجع إلى مفعول ﴿مُرْسِلَةٌ﴾ المحذوف لأن تقديره: إني مرسله رسولاً، ﴿أَذِلَّةً﴾ نصب على الحال ﴿وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾ جملة في موضع الحال معطوفة على ﴿أَذِلَّةً﴾.

● **المعنى:** ولما وقفت بلقيس على كتاب سليمان ﴿قَالَتْ﴾ لأشرف قومها ﴿يَتَأْتِيَ الْأَلْمَلُؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أي: أشيروا علي بالصواب. والفتيا والفتوى: الحكم بما فيه صواب بدلاً من الخطأ وهو الحكم بما يعمل عليه فجعلت المشورة هنا فتياً ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي: ما كنت ممضية أمراً ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ أي: تحضروني. تريد: إلا بحضورتكم ومشورتكم، وهذا ملاطفة منها لقومها في الاستشارة منهم لما تعمل عليه ﴿قَالُوا﴾ لها في الجواب عن ذلك ﴿نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ﴾ أي: أصحاب قوة وقدرة وأهل عدد ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: وأصحاب شجاعة شديدة ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ أي: إن الأمر مفوض إليك في القتال وتركه ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي: ما الذي تأمرين، أي: ما الذي تأمريننا به لنمثله، فإن أمرت بالصلح صالحنا وإن أمرت بالقتال قاتلنا ﴿قَالَتْ﴾ مجيبة لهم عن التعريض بالقتال ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ أي: إذا دخلوها عنوة عن قتال وغلبة أهلكوها وخربوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أي: أهانوا أشرافها وكبراءها كي يستقيم لهم الأمر والمعنى: أنها حذرتهم مسير سليمان ﷺ إليهم ودخوله بلادهم وانتهى الخبر عنها. وصدقها الله فيما قالت فقال: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما قالت هي ﴿يَفْعَلُونَ﴾ وقيل: إن الكلام متصل ببعضه ببعض وكذلك يفعلون من قولها ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى سليمان وقومه ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ أصانعه بذلك عن ملكي ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ أي: فمستظرة ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ بقبول أم رد، وإنما فعلت ذلك لأنها عرفت عادة الملوك في حسن موقع الهدايا عندهم، وكان غرضها أن يتبين لها بذلك أنه ملك أو نبي، فإن قبل الهدية تبين أنه ملك وعندها ما يرضيه. وإن ردها تبين أنه نبي. واختلف في الهدية فقيل: أهدت إليه وصفاء ووصائف ألبستهم لباساً واحداً حتى لا يعرف ذكر من أنشئ، عن ابن عباس، وقيل: أهدت مائتي غلام ومائتي جارية، ألبست الغلمان لباس الجواري وألبست الجواري ألبسة الغلمان، عن مجاهد، وقيل: أهدت له صفائح الذهب في

أوعية من الديباج. فلما بلغ ذلك سليمان عليه السلام أمر الجن فموهوا له الآجر بالذهب، ثم أمر به فألقي في الطريق، فلما جاؤوا رأوه ملقى في الطريق في كل مكان، فلما رأوا ذلك صغر في أعينهم ما جاؤوا به، عن ثابت اليماني، وقيل: إنها عمدت إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، فألبست الجواري الأقبية والمناطق وألبست الغلمان في سواعدهم أساور من ذهب وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب وفي آذانهم أقراطاً وشنوفاً مرصعات بأنواع الجواهر، وحملت الجواري على خمسمائة رمكة والغلمان على خمسمائة برذون، على كل فرس لجام من ذهب مرصع بالجواهر، وبعثت إليه خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت المرتفع، وعمدت إلى حقة فجعلت فيها درة يتيمة غير مثقوبة وخرزة جزعية مثقوبة معوجة الثقب، ودعت رجلاً من أشراف قومها اسمه المنذر بن عمرو، وضمت إليه رجلاً من قومها أصحاب رأي وعقل، وكتبت إليه كتاباً بنسخة الهدية قالت فيها: إن كنت نبياً فميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما في الحقة قبل أن تفتحها، واثقب الدرة ثقباً مستوياً، وأدخل الخرزة خيطاً من غير علاج إنس ولا جن. وقالت للرسول: انظر إليه إن دخلت عليه فإن نظر إليك نظرة غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولك أمره، فإننا أعز منه، وإن نظر إليك نظر لطف فاعلم أنه نبي مرسل. فانطلق الرسول بالهدايا، وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان عليه السلام فأخبره الخبر فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبنات الذهب ولبنات الفضة ففعلوا، ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذي هو فيه إلى بضعة فراسخ ميداناً واحداً بلبنات الذهب والفضة، وأن يجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة ففعلوا. ثم قال للجن: عليّ بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقامهم على يمين الميدان ويساره، ثم قعد سليمان عليه السلام في مجلسه على سريه، ووضع له أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثلها عن يساره، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفاً فراسخ، وأمر الإنس فاصطفوا فراسخ، وأمر الوحش والسباع والطيور فاصطفوا فراسخ عن يمينه ويساره. فلما دنا القوم من الميدان، ونظروا إلى ملك سليمان، تقاصرت إليهم أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا. فلما وقفوا بين يدي سليمان عليه السلام نظر إليهم نظراً حسناً بوجه طلق وقال: ما وراءكم؟ فأخبره رئيس القوم بما جاءوا له، وأعطاه كتاب الملكة فنظر فيه، وقال: أين الحقة؟ فأتى بها وحركها، وجاءه جبرائيل عليه السلام فأخبره بما في الحقة، فقال: إن فيها درة يتيمة غير مثقوبة، وخرزة مثقوبة معوجة الثقب. فقال الرسول: صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط في الخرزة، فأرسل سليمان عليه السلام إلى الأرض فجاءت، فأخذت شعرة في فيها، فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر، ثم قال: من لهذه الخرزة يسلكها الخيط؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا رسول الله! فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر. ثم ميز بين الجواري والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعله على اليد الأخرى، ثم تضرب به الوجه، والغلام كان يأخذ من الآنية يضرب به وجهه وكانت الجارية تصب على باطن ساعدها والغلام على ظهر الساعد، وكانت الجارية تصب الماء صباً والغلام يحدر الماء على يده حدراً فميز بينهما بذلك، هذا كله مروى عن وهب، وغيره. وقيل: إنها أنفذت مع هداياها عصاً كان يتوارثها ملوك

سورة النمل

حمير، وقالت: أريد أن تعرفني رأسها من أسفلها، وبقدح ماء، وقالت، تملأها ماء رواء ليس من الأرض ولا من السماء، فأرسل سليمان عليه السلام العصا إلى الهواء، وقال: أي الرأسين سبق إلى الأرض فهو أسفلها، وأمر الخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها، وقال: ليس هذا من ماء الأرض ولا من ماء السماء ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ﴾ أي: فلما جاء الرسول سليمان ﴿قَالَ أَمِدُّونَنِي بِمَالٍ﴾ أي: تريدونني مالا وهذا استفهام إنكار يعني أنه لا يحتاج إلى مالهم ﴿فَمَّا ءَاتَيْنَهُهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُمُ﴾ أي: ما أعطاني الله من الملك والنبوة والحكمة خير مما أعطاكم من الدنيا وأموالها ﴿بَلْ أَنتُمْ بِهِدْيَتِكُمْ قَرُحُونَ﴾ إذا أهدى بعضكم إلى بعض، وأما أنا فلا أفرح بها، أشار إلى قلة اكتراثه بأموال الدنيا، ثم قال عليه السلام للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ بما جئت من الهدايا ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِخَبْرٍ لَا يَكُنْ لَكُمْ بِهِ﴾ أي: لا طاقة لهم بها ولا قدرة لهم على دفعها ﴿وَلَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً﴾ أي: من تلك القرية ومن تلك المملكة، وقيل: من أرضها وملكها ﴿وَهُمْ صَاعِقُونَ﴾ أي: ذليلون صغيرو القدر إن لم يأتوني مسلمين. فلما ردَّ سليمان عليه السلام الهدية وميَّز بين الغلمان والجواري إلى غير ذلك علموا أنه نبي مرسل وأنه ليس كالمملوك الذين يغترون بالمال.



قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُوا أَفْكُم بِاتِّبَاسٍ لِّعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٢٨) قَالَ عَفْرِتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ نَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتِنَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤).

● **القراءة:** في الشواذ قراءة أبي رجاء وعيسى الثقفي «عفرية».

● **الحجة:** والمعنى معنى العفريت، يقال: رجل عفرية نفرية أي: خبيث داه. قال ذو

الرمة:

كَأَنَّهُ كَوَكَّبٌ فِي إِثْرِ عَفْرِيةٍ مُّسَوِّمٌ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبٌ^(١)

وأصل العفريت والعفرية من العفر: وهو التراب، لأنه يصرع قرنه في العفر، ومنه قيل

(١) قوله مسوم أي: معلم بعلامة. ومنقضب أي: منقض من مكانه: يصف ثوراً وحشياً.

للأسد: عفربي، وللناقة الشديدة: عفرناة. قال الأعشى:

بِذَاتِ لَوْثٍ عَفْرَنَاءٍ إِذَا عَثَرَتْ فَالْتَّغُسُ أَدْنَى لَهَا مِنْ أَنْ يُقَالَ لَعَا^(١)

● **اللغة:** التنكير: تغيير الشيء من حال إلى حال ينكرها صاحبها إذا رآه، والصرح: القصر، وكل بناء مشرف: صرح، وصرحة الدار ساحتها وقارعتها وصحنها، وأصله من الوضوح يقال: صرح بالأمر أي: كشفه وأوضحه. وصرّح بالتشديد لازم ومتعد، والدجة: معظم الماء والجمع لجج، ولج البحر: خلاف الساحل ومنه لج بالأمر: إذا بالغ بالدخول فيه، والممرد: المملس، ومنه الأمرد، وشجرة مرداء أي: ملساء لا ورق عليها، والمارد المتملس عن الحق الخارج منه.

● **المعنى:** فلما رجع إليها الرسول، وعرفت أنه نبي، وأنها لا تقاومه فتجهزت للمسير إليه، وأخبر جبرائيل سليمان عليه السلام أنها خرجت من اليمن مقبلة إليه ف﴿قَالَ﴾ سليمان لأماثل جنده وأشرف عسكره ﴿يَتَأْتِيَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، واختلف في السبب الذي خصّ به العرش بالطلب على أقوال:

أحدها: أنه أعجبه صفته فأراد أن يراه، وظهر له آثار إسلامها فأحب أن يملك عرشها قبل أن تسلم فيحرم عليه أخذ مالها، عن قتادة.

وثانيها: أنه أراد أن يختبر بذلك عقلها وفطنتها، ويختبر هل تعرفه أو تنكره، عن ابن زيد. وقيل: أراد أن يجعل ذلك دليلاً ومعجزة على صدقه ونبوته لأنها خلفته في دارها وأوثقته ووكلت به ثقات قومها يحرسونه ويحفظونه، عن وهب. وقال ابن عباس: كان سليمان رجلاً مهيباً لا يتبدى بالكلام حتى يكون هو الذي يسأل عنه، فخرج يوماً، فجلس على سريره، فرأى رهجاً^(٢) قريباً منه فقال: ما هذا؟ فقالوا: بلقيس يا رسول الله! وقد نزلت منا بهذا المكان وكان ما بين الكوفة والحيرة على قدر فرسخ، فقال: أيكم يأتيني بعرشها؟ وقوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه أراد مؤمنين موحدين.

والآخر: مستسلمين منقادين على ما مرّ بيانه ﴿قَالَ عَفْرِيَّتُ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: مارد قوي داهية، عن ابن عباس ﴿أَنَا مَأْيُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ أي: من مجلسك الذي تقضي فيه، عن قتادة ﴿وَإِنِّي عَلَيْكَ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ أي: وإني على حملي لقوي وعلى الإتيان به في هذه المدة قادر وعلى ما فيه من الذهب والجواهر أمين، وفي هذا دلالة على أن القدرة قبل الفعل لأنه أخبر بأنه قوي عليه قبل أن يجيء به، وكان سليمان عليه السلام يجلس في مجلسه للقضاء غدوة إلى نصف النهار فقال سليمان عليه السلام: أريد أسرع من ذلك. فعند ذلك ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهو آصف بن برخيا وكان وزير سليمان، وابن أخته، وكان صديقاً يعرف اسم الله الأعظم الذي إذا

(١) اللوث: القوة. والعرب تدعو على العائر من الدواب إذا كان جواداً بالتعس، فتقول: تعسأ له، وإن كان بليداً كان دعاؤهم له إذا عثر: لعأ لك.

(٢) أي: غباراً.

سورة النمل

دعي به أجاب، عن ابن عباس. وقيل: إن ذلك الاسم الله والذي يليه الرحمن، وقيل: هو يا حي يا قيوم وبالعبرائية أهيا شراهما^(١)، وقيل: هو يا ذا الجلال والإكرام، عن مجاهد، وقيل: إنه قال: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت، عن الزهري، وقيل: إن الذي عنده علم من الكتاب كان رجلاً من الإنس يعلم اسم الله الأعظم اسمه بلخيا، عن مجاهد، وقيل: اسمه أسطوم، عن قتادة، وقيل: الخضر عليه السلام عن أبي لهيعة، وقيل: إن الذي عنده علم من الكتاب هو جبرائيل عليه السلام، أذن الله له في طاعة سليمان عليه السلام بأن يأتيه بالعرش الذي طلبه. وقال الجبائي: هو سليمان عليه السلام قال ذلك للعرفيت ليريه نعمة الله عليه، وهذا قول بعيد لم يؤثر عن أهل التفسير وأما الكتاب المعروف في الآية بالآلف واللام فقليل: إنه اللوح المحفوظ، وقيل: أراد به جنس كتب الله المنزلة على أنبيائه وليس المراد به كتاباً بعينه والجنس قد يعرف بالآلف واللام، وقيل: إن المراد به كتاب سليمان عليه السلام إلى بلقيس. ﴿أَنَا إِلَٰهُكَ بِئْسَ الْقَبْلُ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ اختلف في معناه، فقليل: يريد قبل أن يصل إليك من كان منك على قدر مد البصر، عن قتادة، وقيل: معناه قبل أن يبلغ طرفك مداه وغايته ويرجع إليك. قال سعيد بن جبير: قال لسليمان: انظر إلى السماء فما طرف حتى جاء به فوضعه بين يديه، والمعنى حتى يرتد إليك طرفك بعد مدّه إلى السماء، وقيل: ارتداد الطرف: إدامة النظر حتى يرتد طرفه خاسئاً، عن مجاهد. فعلى هذا معناه: أن سليمان مد بصره إلى أقصاه وهو يديم النظر، فقبل أن ينقلب بصره إليه حسيراً، يكون قد أتى بالعرش. قال الكلبي: خرّ آصف ساجداً ودعا باسم الله الأعظم فغار عرشها تحت الأرض حتى نبع عند كرسي سليمان. وذكر العلماء في ذلك وجوهاً:

أحدها: أن الملائكة حملته بأمر الله تعالى.

والثاني: أن الريح حملته.

والثالث: أن الله تعالى خلق فيه حركات متوالية.

والرابع: أنه انخرق مكانه حيث هو هناك ثم نبع بين يدي سليمان.

والخامس: أن الأرض طويت له، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

والسادس: أنه أعده الله في موضعه وأعاده في مجلس سليمان، وهذا لا يصح على مذهب أبي هاشم، ويصح على مذهب أبي علي الجبائي، فإنه يجوز فناء بعض الأجسام دون بعض. وفي الكلام حذف كثير لأن التقدير: قال سليمان له: افعل. فسأل الله تعالى في ذلك، فحضر العرش فرآه سليمان عليه السلام مستقراً عنده ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ﴾ أي: فلما رأى سليمان عليه السلام العرش محمولاً إليه موضوعاً بين يديه في مقدار رجح البصر ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ أي: من نعمته عليّ وإحسانه لديّ لأن تيسير ذلك وتسخيره مع صعوبته وتعذره معجزة له ودلالة على علو قدره وجلالته وشرف منزلته عند الله تعالى ﴿لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي:

(١) كذا في الأصل والمخطوطتين. وفي نسخة مطبوعة: «آهى إشراهى». واستظهر في هامش نسخة (البحار): أن الصحيح «أهيه إشراهى». وقال (أهيه) بمعنى واجب الوجود. وقيل معنى الجملة: الوجود الذي هو موجود.

ليختبرني هل أقوم بشكر هذه النعمة أم أكفر بها؟ ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن عائدة شكره ومنفعته ترجعان إليه وتخصانه دون غيره، وهذا مثل قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَّبِّي عَزِيزٌ﴾ عن شكر العباد غير محتاج إليه بل هم المحتاجون إليه لما فيه من الثواب والأجر ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: متفضل على عباده شاكرهم وكافرهم عاصيهم ومطيعهم، لا يمنعه كفرهم وعصيانهم من الإفضال عليهم والإحسان إليهم ﴿قَالَ﴾ سليمان عليه السلام ﴿تَكْرُؤًا لِّمَا عَرَّسْتَهَا﴾ أي: غيروا سريرها إلى حال تنكرها إذا رأته وأراد بذلك اختبار عقلها على ما قيل ﴿تَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: أتهدي إلى معرفة عرشها بفطنتها بعد التغيير أم لا تهدي إلى ذلك، عن سعيد بن جبير، وقتادة، وقيل: أتهدي أي: أتستدل بعرشها على قدرة الله وصحة نبوتي وتهدي بذلك إلى طريق الإيمان والتوحيد أم لا، عن الجبائي. قال ابن عباس: فنزع ما كان على العرش من الفصوص والجواهر، وقال مجاهد: غير ما كان أحمر فجعله أخضر وما كان أخضر فجعله أحمر، وقال عكرمة: زيد فيه شيء ونقص منه شيء ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فلم تثبت ولم تنكره ودل ذلك على كمال عقلها حيث لم تقل لا، إذ كان يشبه سريرها لأنها وجدت فيه ما تعرفه ولم تقل نعم إذ وجدت فيه ما غير وبدل ولأنها خلفته في بيتها وحمله في تلك المدة إلى ذلك الموضع غير داخل في قدرة البشر، قال مقاتل: عرفته ولكن شبهوا عليها حين قالوا لها: أهكذا عرشك؟ فشبهت حين قالت: كأنه هو، ولو قيل لها: أهذا عرشك؟ ل قالت: نعم. قال عكرمة: كانت حكيمة، قالت: إن قلت هو هو خشيت أن أكذب وإن قلت لا، خشيت أن اكذب، فقالت: كأنه هو. شبهته به فقبل لها: فإنه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب وكانت قد خلفته وراء سبعة أبواب لما خرجت فقالت ﴿وَأَوْتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ بصحة نبوة سليمان عليه السلام ﴿مِنْ قَبْلِهَا﴾ أي: من قبل الآية في العرش ﴿وَكُنَّا مُبْلِينَ﴾ طائعين لأمر سليمان، عن مجاهد، ومعناه: وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة قبل مجيئها المرة وكنا مخلصين لله بالتوحيد، وقيل: معناه وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة قبل مجيئها وقيل: إنه من كلام قوم سليمان، عن الجبائي ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: منعها عبادة الشمس عن الإيمان بالله تعالى بعد رؤية تلك المعجزة، عن مجاهد. فعلى هذا تكون ﴿مَا﴾ موصولة مرفوعة الموضع بأنها فاعلة صد، وقيل: معناه وصدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله، وحال بينها وبينه، ومنعها عنه، فعلى هذا يكون ﴿مَا﴾ في موضع نصب، وقيل: معناه منعها الإيمان والتوحيد الذي كانت تعبد من دون الله وهو الشمس. ثم استأنف فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي: من قوم يعبدون الشمس قد نشأت فيما بينهم، فلم تعرف إلا عبادة الشمس ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ والصرح هو الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف. وذكر أن سليمان لما أقبلت صاحبة سبأ، أمر الشياطين ببناء الصرح، وهو كهينة السطح المنبسط من قوارير أجرى تحته الماء، وجمع في الماء الحيتان والضفادع ودواب البحر. ثم وضع له فيه سرير فجلس عليه. وقيل: إنه قصر من زجاج كأنه الماء بياضاً. وقال أبو عبيدة: كل بناء من زجاج أو صخر أو غير ذلك موثق فهو صرح. وإنما أمر سليمان عليه السلام بالصرح لأنه أراد أن يختبر عقلها وينظر هل تستدل على معرفة الله تعالى بما ترى من هذه الآية العظيمة. وقيل: إن

الجن والشياطين خافت أن يتزوجها سليمان عليه السلام فلا ينفكون من تسخير سليمان وذريته بعده لو تزوجها، وذلك أن أمها كانت جنية فأساؤوا، الثناء عليها ليزهده فيها، وقالوا: إن في عقلها شيئاً وإن رجلها كحافر الحمار. فلما امتحن ذلك وجدها على خلاف ما قيل. وقيل: إنه ذكر له أن على رجلها شعراً فلما كشفته بان الشعر، فساءه ذلك، فاستشار الجن في ذلك فعملوا الحمامات وطبخوا له النورة والزرنخ. وكان أول ما صنعت النورة ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ أي: رأت بلقيس الصرح ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ وهي معظم الماء ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ لدخول الماء. وقيل: إنها لما رأت الصرح قالت: ما وجد ابن داود عذاباً يقتلني به إلا الغرق، وأنفت أن تجبن فلا تدخل، ولم يكن من عاداتهم لبس الخفاف فلما كشفت عن ساقها ﴿قَالَ﴾ لها سليمان ﴿إِنَّهُ صَرَحٌ مُّزْدٌّ﴾ أي: مملس ﴿مِنْ قَوَارِيرٍ﴾ وليس بماء. ولما رأت سرير سليمان والصرح ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بالكفر الذي كنت عليه ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فحسن إسلامها وقيل: إنها لما جلست دعاها سليمان إلى الإسلام، وكانت قد رأت الآيات والمعجزات، فأجابته، وأسلمت. وقيل: إنها لما ظنت أن سليمان يغرقها ثم عرفت حقيقة الأمر، قالت: ظلمت نفسي إذ توهمت على سليمان ما توهمت. واختلف في أمرها بعد ذلك فقيل: إنه تزوجها سليمان وأقرها على ملكها. وقيل: إنه تزوجها من ملك يقال له تبع، وردّها إلى أرضها، وأمر زوبعة أمير الجن باليمن أن يعمل له ويطيع، فصنع له المصانع باليمن. قال عون بن عبد الله: جاء رجل إلى عبد الله بن عتبة فسأله: هل تزوجها سليمان؟ قال: عهدي بها أن قالت وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين، يعني أنه لا يعلم ذلك وأن آخر ما سمع من حديثها هذا القول. وروى العياشي في تفسيره بالإسناد قال: التقى موسى بن محمد بن علي بن موسى عليه السلام ويحيى بن أكثم، فسأله عن مسائل، قال: فدخلت على أخي علي بن محمد عليه السلام بعد أن دار بيني وبينه من المواعظ حتى انتهت إلى طاعته، فقلت له: جعلت فداك إن ابن أكثم سألني عن مسائل أفنيه فيها، فضحك، ثم قال: فهل أفنيت فيها؟ فقلت: لا. قال: ولم؟ قلت: لم أعرفها قال: وما هي؟ قلت: أخبرني عن سليمان أكان محتاجاً إلى علم أصف بن برخيا؟ ثم ذكر المسائل الآخر قال: اكتب يا أخي: «بسم الله الرحمن الرحيم سألت عن قول الله تعالى في كتابه، ﴿قَالَ أَلَيْسَ عِنْدُ عَلِيٍّ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فهو أصف بن برخيا ولم يعجز سليمان عن معرفة ما عرفه أصف، لكنه عليه السلام أحب أن تعرف أمته من الإنس والجن أنه الحجة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه أصف بأمر الله تعالى، ففهمه الله ذلك لثلا يختلف في إمامته ودلالته، كما فهم سليمان في حياة داود ليعرف إمامته ونبوته من بعده لتأكيد الحجة على الخلق».



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ لِمَ يُقَوْمُ لِمَ سَتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمَن مَّعَكَ قَالَ طَعْتِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ

قَوْمٌ تُقَاتُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ سِتْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَكَ بُيُوتُهُمْ حَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٣﴾ .

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «لنبيتنه» بالتاء وضم التاء الثانية، «ثم لتقولن» بالتاء أيضاً وضم اللام. والباقون «لنبيتنن» بالنون وفتح التاء، «ثُمَّ لَنَقُولَنَّ» أيضاً بالنون وفتح اللام. وقرأ أهل الحجاز، وأبو عمرو، وسهل، وابن عامر: «إنا دمرناهم» بكسر الألف، والباقون بفتح الألف. وروى عن روح وزيد، عن يعقوب بكسر الألف أيضاً.

● **الحجة:** قال أبو علي: قوله ﴿تَقَاسَمُوا﴾ لا يخلو من أن يراد به مثال الماضي أو مثال الآتي الذي يراد به الأمر، فمن أراد به الأمر جعل ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ جواباً لـ ﴿تَقَاسَمُوا﴾ فكأنه قال: حلفوا «لنبيتنه»، لأن هذه الألفاظ التي تكون من ألفاظ القسم تتلقى بما يتلقى به الإيمان كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنِجَاءَنَّهُمْ بِحَبْلٍ مُنَمَّ﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنَبَعِثَ اللَّهُ مَبِيتُهُمْ﴾ فكذلك ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ ملقاة باللام والنون الثقيلة. وأدخل المتكلمون أنفسهم مع المقسمين كما دخلوا في قوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾. ومن قال: ﴿تَقَاسَمُوا لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ أراد: ليقسم بعضكم لبعض لنبيتنه، فتقاسموا على هذا أمر كما فيمن قال: «لنبيتنه» أمراً، ومن قال: «تقاسموا لنبيتنه» بالتاء، فتقاسموا على هذا مثال ماضٍ ولا يجوز مع هذا إلا بالتاء لأن مثال الماضي للغيبة و«لنبيتنه» للخطاب. ومن كسر «إنا دمرناهم» جاز أن يكون ﴿كَانَ﴾ في قوله ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ﴾ تامة وأن تكون ناقصة، فإن جعلتها تامة بمعنى وقع، كان قوله ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ في موضع حال تقديره: على أي حال وقع عاقبة مكرهم أي: أحسنًا وقع عاقبة مكرهم أو سيئًا، أو يكون في ﴿كَيْفَ﴾ ضمير من ذي الحال، كما أنك إذا قلت: في الدار حدث الأمر، فجعلته في موضع الحال كان كذلك، وحكم ﴿كَيْفَ﴾ على ذا أن يكون متعلقاً بمحذوف، كما أنك إذا قلت: في الدار وقع زيد، فتقديره: وقع زيد مستقراً في هذه الحال، فإن جعلته ظرفاً للفعل تعلق بـ ﴿كَانَ﴾ الذي بمعنى الحدث. وقوله ﴿أَنَا دَمَرْنَاهُمْ﴾ فيمن كسر استئناف، وهو تفسير للعاقبة، كما أن قوله ﴿لَمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تفسير للموعد. ومن قرأ «إنا دمرناهم» جاز أن يكون ﴿كَانَ﴾ على ضربيها، وإذا حملته على وقع، كان ﴿كَيْفَ﴾ في موضع حال، وجاز في قوله «إنا دمرناهم» أمران:

أحدهما: أن يكون بدلاً من قوله ﴿عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ﴾، وجاز أن يكون محمولاً على مبتدأ مضمرة، كأنه قال هو «أنا دمرناهم» أو ذاك «أنا دمرناهم» فإذا حملتها على المقضية للخبر جاز في قوله ﴿أَنَا دَمَرْنَاهُمْ﴾ قولان:

أحدهما: أن يكون بدلاً من اسم ﴿كَانَ﴾ الذي هو العاقبة، فإذا حملته على ذلك، كان ﴿كَيْفَ﴾ في موضع خبر ﴿كَانَ﴾.

والآخر: أن يكون خبر ﴿كَانَ﴾ ويكون موضع خبر ﴿كَيْفَ﴾ في موضع حال، ويجوز أن يكون العامل في ﴿كَيْفَ﴾ أحد شيئين: إما أن يكون ﴿كَانَ﴾، لأنه فعل كما كان العامل في الظرف في قوله ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ ألا ترى أنه لا يجوز أن يتصل قوله ﴿لِلنَّاسِ﴾ بواحد من المصدرين إلا أن تجعله صفة لعجب فتقدمه فيصير في موضع حال. فالعامل فيه على هذا أيضاً كان. ويجوز أن يكون العامل فيه ما في الكلام من الدلالة على الفعل، لأن قوله ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ بمنزلة تدميرنا، وتدميرنا: يدل على دمرنا، فيصير العامل فيه هذا المعنى الذي دلَّ عليه ما في الكلام من معنى الفعل، وزعموا أن في حرف أبي: «أن دمرناهم» فهذا يقوي الفتح في «أنا».

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على قصة سيدنا سليمان عليه السلام قصة صالح فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿صَالِحًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: أرسلناه بأن أعبدوا الله وحده لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فِرْقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: مؤمنون وكافرون يقول كل فريق: الحق معي ﴿قَالَ﴾ صالح للفريق المكذب ﴿يَقُولُوا لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعذاب قبل الرحمة أي: لم قلت إن كان ما أتينا به حقاً فأتنا بالعذاب، وسمى العذاب سيئة لما فيه من الآلام، ولأنه جزاء على السيئة لأن السيئة هي الخصلة التي تسوء صاحبها ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿سَتَسْفِرُونَ اللَّهَ﴾ أي: تطلبون مغفرته من الشرك بأن تؤمنوا ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ فلا تعذبون في الدنيا ﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمِّنُ مَعَكُ﴾ أي: تشأنا بك وبمن على دينك، وذلك أنهم قحط المطر عنهم، وجاعوا فقالوا: أصابنا هذا الشر من شؤمك وشؤم أصحابك ﴿قَالَ﴾ لهم صالح ﴿طَّيَّرَكُمُ عَنِ اللَّهِ﴾ أي: الشؤم أناكم عند الله بكفركم، وهذا كقوله: ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَّا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عَنِ اللَّهِ﴾. ﴿بَلْ أُنْتُمْ قَوْمٌ تَفْتَنُونَ﴾ أي: تختبرون بالخير والشر، عن ابن عباس، وقيل: تعذبون بسوء أعمالكم، عن محمد بن كعب، وقيل: تبتلون وتمتحنون بطاعة الله ومعصيته ﴿وَكَانَ فِي الدِّينَةِ﴾ يعني التي بها صالح وهي الحجر ﴿سَعَةً رَّحِطَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ كانت هذه التسعة النفر من أشrafهم وهم غواة قوم صالح، وهم الذين سعوا في عقر الناقة ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: لا يطيعون الله تعالى، وذكر ابن عباس أسماءهم، وقال: هم قدار بن سالف، ومصدع، ودهمي، ودهيم، ودعمي، ودعيم، وأسلم، وقاتل، وصداف. ﴿قَالُوا نَقَاسُمُ بِاللَّهِ﴾ أي: قالوا فيما بينهم احلفوا بالله ﴿لَنُيَسِّدَنَّ﴾ أي: لنقتلن صالحاً ﴿وَأَهْلَهُ﴾ بيئاتاً، ومن قرأ بالنون فكانهم قالوا: أقسموا لفعلن، والأمر بالقسم في القراءتين داخل في الفعل منهم ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ أي: لذي رحم صالح إن سألنا عنه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي: ما قتلناه وما ندري من قتله وأهلكه، وقد ذكرنا اختلاف القراء فيه في سورة الكهف ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في هذا القول، قال الزجاج: كان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحاً وأهله ثم ينكروا عند أوليائه أن يكونوا فعلوا ذلك أو رأوه، وكان هذا مكرراً عزموا عليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرًا مَّكْرًا﴾ أي: جازيناهم جزاء مكرهم بتعجيل عقوبتهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكر الله بهم فإنهم دخلوا على صالح ليقتلوه

فأنزل الله سبحانه الملائكة، فرموا كل واحد منهم بحجر حتى قتلوهم وسلم صالح من مكربهم، عن ابن عباس، وقيل: إن الله أمر صالحاً بالخروج من بينهم ثم استأصلهم بالعذاب، وقيل: نزلوا في سفح جبل ينظر بعضهم بعضاً ليأتوا صالحاً فخرّ عليهم الجبل، عن مقاتل ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ أي: أهلكناهم بما ذكروا من العذاب ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بصيحة جبرائيل ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ أشار إلى، بيوتهم والمعنى فانظر إليها ﴿خَاوِيَةً﴾ نصب على الحال أي: فارغة خالية ﴿يَمَا ظَلَمُوا﴾ أي: بظلمهم وشركهم بالله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في إهلاكهم ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لعلهم لمن نظر إليها واعتبر بها. وفي هذه الآية دلالة على أن الظلم يعقب خراب الدور. وروي عن ابن عباس أنه قال: أجد في كتاب الله أن الظلم يخرب البيوت، وتلا هذه الآية، وقيل: إن هذه البيوت بوادي القرى بين المدينة والشام ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ به ﴿وَكَاوُوا يَنْقُوتُ﴾ قالوا: إنهم أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضرموت، وسميت حضرموت لأن صالحاً لما دخلها مات.



قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ فَكَلُوا أَخْرَجًا ءَالَ لُوطٍ مِنْ قَرَبَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَهِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَايِبِ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَالَهُ خَيْرٌ مِمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة، وعاصم: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء، والباقون بالتاء على الخطاب. وفي الشواذ قراءة الحسن «فما كان جواب قومه» بالرفع.

● **الحجة:** الأولى أن يكون ﴿جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ والاسم قوله: ﴿أَنْ فَكَلُوا﴾ لشبه أن بالمضمر، من حيث كانت لا توصف، والمضمر أعرف من المظهر. وقد تقدم القول في هذا.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه قصة لوط عاطفاً بها على ما تقدم فقال: ﴿وَلُوطًا﴾ أي: وأرسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ منكرأ عليهم أفعالهم ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ يعني الخصلة القبيحة الشنيعة الظاهرة القبح وهي إتيان الذكران في أدبارهم ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: تعلمون أنها فاحشة، وقيل: معناه وأنتم يرى بعضكم ذلك من بعض. ثم بين سبحانه الفاحشة التي يأتونها فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ اللاتي خلقهن الله لكم ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: تفعلون أفعال الجهال. قال ابن عباس: يجهلون القيامة وعاقبة العصيان ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ فَكَلُوا أَخْرَجًا ءَالَ لُوطٍ مِنْ قَرَبَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَهِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ عن

سورة النمل

إتيان الرجال في أدبارهم ﴿فَأَنبَيَيْنَهُ وَأَقْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَهَا﴾ أي: جعلناها ﴿مِنَ الْغَيْرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ وهو الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ الذين أبلغهم لوط النذارة وأعلمهم بموضع المخافة لِيَتَّقَوْهَا فخالفوا ذلك. ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكراً على نعمه بأن وفقنا للإيمان، وقيل: الحمد لله على هلاك الأمم الكافرة ﴿وَسَلِّمْ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَى﴾ أي: اصطفاهم الله واجتباهم واختارهم على بريته وهم الأنبياء، عن مقاتل، وقيل: هم أصحاب محمد ﷺ، عن ابن عباس والحسن، وقيل: هم أمة محمد ﷺ، ومعنى السلام عليهم: أنهم سلموا مما عذب الله به الكفار عن الكلبي، وقيل: هم آل محمد ﷺ، عن علي بن إبراهيم. ثم قال سبحانه مخاطباً للمشركين: ﴿عَلَّاهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يا أهل مكة يعني: الله خير لمن عبده أم الأصنام لعباديتها، وهذا إلزام للحجة على المشركين بعد ذكر هلاك الكفار، والمعنى: أن الله تعالى نجى من عبده من الهلاك والأصنام لم تغن شيئاً عن عابديها عند نزول العذاب، وإنما قال ذلك لأنهم توهّموا في عبادة الأصنام خيراً.



قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمَ أَنْ تَنْتَبِهُوا شَجَرَهَا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿١٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴿١٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو، وهشام «ما يذكرون» بالياء، والباقون بالتاء. والوجه فيهما ظاهر.

● **اللغة:** الحديقة: البستان الذي عليه حائط، وكل ما أحاط به البناء فهو حديقة، وقيل: الحديقة: البستان الذي فيه النخل، والقرار: المكان المطمئن الذي يستقر فيه الماء؛ ويقال للروضة المنخفضة: قرارة. ومنه حديث ابن عباس قال: «علمي في علم علي عليه السلام كالقرارة في المثعجر» أي: كالغدير في البحر. والبرهان: البيان بحجة.

● **الإعراب:** ﴿أَمَّنْ﴾ استفهام في محل الرفع على الابتداء وخبره ﴿خَلَقَ﴾، و﴿قَرَارًا﴾ نصب على الحال لأن ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى ﴿خَلَقَ﴾، وإن كان بمعنى صير فهو مفعول ثان له.

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر تقديره: أإله ثبت مع الله، وإنما جاز أن تكون النكرة مبتدأ لأنه استفهام، ويجوز أن يكون خبر المبتدأ محذوفاً أو يكون تقديره: أإله في الوجود مع الله. ﴿فَلَيْلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ صفة مصدر محذوف تقديره: ما تذكرون تذكراً قليلاً ﴿وَمَا﴾ مزيدة، و﴿بَشَرًا﴾ نصب على الحال، و﴿بَيْنَ يَدَيَّ رَحْمَتِي﴾ ظرف منه، ﴿أَيَّانَ﴾ في محل نصب لأنه ظرف زمان والعامل فيه ﴿يَعْتُونَ﴾.

● **المعنى:** ثم عدّد سبحانه الدلائل على توحيده ونعمه الشاملة لعبيده فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وتقديره: أما تشركون خيراً أم من خلق السموات والأرض أي: أنشأهما واختراعهما ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: غيثاً ومطراً لكم أي: لمنافعكم ولأجل معاشكم، عرفهم سبحانه أن غيره لا يقدر على ذلك ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أي: رياضاً وبساتين، وما لم يكن عليه حائط لا يقال له حديقة ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: ذات منظر حسن يبتهج به من رآه، ولم يقل ذوات بهجة لأنه أراد تأنيث الجماعة، ولو أراد تأنيث الأعيان لقال ذوات. وقال الشاعر:

وسوف يُغْفِبُنِيهِ إِنْ ظَفَرَتْ بِهِ رَبِّ كَرِيمٍ وَبِيضٌ ذَاتُ أَطْهَارٍ^(١)

﴿مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ ما هنا للنفي أي: لم يكونوا يقدرّون على إنبات شجرها ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ وهذا استفهام إنكار معناه: هل معه معبود سواه أعانه على صنعه ﴿بَلْ﴾ ليس معه إله ﴿هُمْ قَوْمٌ يَعِدِلُونَ﴾ يشركون بالله غيره، يعني كفار مكة ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: مستقرة لا تميل ولا تميد بأهلها ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أي: وجعل وسط الأرض وفي مسالكها ونواحيها أنهاراً جارية ينبت بها الزرع ويحيا بها الخلق ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً ثوابت أثبت بها الأرض ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي: مانعاً من قدرته بين العذب والملح فلا يختلط أحدهما بالآخر ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد ربهم وكمال قدرته وسلطانه ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: يجيب المكروب المجهود فيكشف ضره وكرهه، وإجابة دعاء المضطر هي فعل ما يدعو به، وهذا لا يكون إلا من قادر على الإجابة مختار لها، ورأس المضطرين المذنب الذي يدعو ويسأله المغفرة، ومنهم الخائف الذي يسأله الأمن، والمريض الذي يطلب العافية، والمحبوس الذي يطلب الخلاص، فإن الكل إذا ضاق بهم الأمر فزعوا إلى رب العالمين وأكرم الأكرمين، وإنما خصّ المضطر وإن كان قد يجيب غير المضطر لأن رغبته أقوى وسؤاله أخضع ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أي: يدفع الشدة وكل ما يسوء ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ يخلف كل قرن منكم القرن الذي قبله فيهلك قرناً وينشئ قرناً، وقيل: يجعلكم خلفاء من الكفار بنزول بلادهم وطاعة الله تعالى بعد شركهم وعنادهم ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ فَلَيْلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قليلاً ما تتعظون، عن ابن عباس، ومن قرأ بالياء فالمعنى: قليلاً ما يتذكر هؤلاء المشركون ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْيَحْرِ﴾ أي: أما تشركون خيراً أم من يرشدكم إلى

(١) قيل: إن الشعر لسموأل بن عاديّا، يضرب به المثل في الوفاء. وكانت عنده دروع أمانة. فطلبها منه رجل، فأبى فأخذ الرجل ابنه وهدده بقتله إن لم يسلم الدروع. والبيت يشير إلى ذلك ويقول: إن ظفرت بابني وقتلته، فسوف يخلفني ربي أبناء آخر من نساء بيض ذات أطهار.

سورة النمل

القصد والسمت في البر والبحر، بما نصب لكم من الدلالات من الكواكب والقمر إذا ضللتكم، وهو كقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجْمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْيَوْمِ﴾. ﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قد مضى تفسيره، ووجوه القراءات فيه ^(١) ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: جلّ وتنزه عن الشريك كما يزعمه المشركون ﴿أَمْ يَدْعُوا الْخَلْقَ﴾ بأن يخترعه ويوجده وينشئه على غير مثال واحتذاء ثم يميتة ويفنيه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾ بعد الإفناء، وإنما قال ذلك لأنهم أقروا بأنه الخالق فيلزمهم الإقرار بالبعث من حيث إن من قدر على الإنشاء قدر على الإعادة ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بإنزال المطر وبإخراج الثمار والنبات ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِقَدِيرٍ عَلَى ذَلِكَ﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَاسِئًا بِرُفْعِكُمْ﴾ أي: حجتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن لي شريكاً صنع شيئاً من هذه الأشياء، فإذا لم يقدروا على إقامة البرهان على ذلك فاعلموا أنه لا إله معي ولا يستحق العبادة سواي ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الملائكة والإنس والجن ﴿الْغَيْبِ﴾ وهو ما غاب علمه عن الخلق مما يكون في المستقبل ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وحده أو من أعلمه الله تعالى ﴿وَمَا يَسْأَلُونَكَ إِلَّا أَنْ يُبْعَثُوا﴾ أي: متى يحشرون يوم القيامة، دلّ سبحانه بهذه الآية كما دلّ بما تقدمها على قدرته.



قوله تعالى: ﴿بَلْ أَذْرَكَ عَلِمْتُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَاَبَاؤُنَا أَيْنَا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَاَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ .

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة، وأبو جعفر، وابن كثير «بل أدرك» بقطع الألف وسكون اللام والذال. وقرأ الشموني عن أبي بكر «بَلْ أَذْرَكَ» موصولة الألف مشددة الذال بلا ألف بعدها، والباقون «بل اذارك»، وفي الشواذ قراءة سليمان بن يسار، وعطاء بن يسار «بَلْ أَذْرَكَ» بفتح اللام ولا همزة ولا ألف. وقراءة الحسن، وأبي رجاء، وابن محيصن، وقاتدة «بَلْ أَذْرَكَ»، وقراءة ابن عباس «بلى» بياء «أدرك»، وقراءة أبي «بل تدارك»، وقرأ أهل المدينة «إذا كنا تراباً» بكسر الألف «أنا لمخرجون» بالاستفهام بهمزة واحدة ممدودة، عن أبي جعفر. وقالون وغيره

(١) أي: في سورة الأعراف. راجع ٤.

ممدودة عن ورش، وإسماعيل. وقرأ ابن عامر، والكسائي «إذا» بهمزتين «أنا» بنونين، وقرأ ابن كثير، ويعقوب «إذا أنا» بالاستفهام فيهما جميعاً بهمزة واحدة غير ممدودة، وقرأ أبو عمر «آذا أنا» بالاستفهام فيهما جميعاً بهمزة واحدة ممدودة. وقرأ عاصم وحمة وخلف «إذا» «إنا» بالاستفهام فيهما جميعاً بهمزتين، وقرأ ابن كثير «في ضيق» بكسر الضاد والباقون بفتحها.

● **الحجة:** قال أبو علي: إن علم قد يصل بالجار كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَمْلِكْ أَنَّهُ يَرَى﴾، وقولهم: علمي يزيد يوم الجمعة، ومعنى أدرك: بلغ ولحق، يقال: فلان أدرك الحسن أي: لحق أيامه، وهذا ما أدركه علمي أي: بلغه، فالمعنى: أنهم لم يدركوا علم الآخرة أي: لم يعلموا حدوثها وكونها ودل على ذلك قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي: بل هم من علمها عمون، وإذا كان كذلك كان معنى قوله ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ معنى الباء أي: لم يدركوا علمها ولم ينظروا في حقيقتها فيدركوا، ولهذا قرأ من قرأ «أدرك» كأنه أراد لم يدركوه كما تقول: أجتثني أمس أي: لم تجثني. والمعنى: لم يدرك علمهم بحدوث الآخرة، بل هم في شك منها بل هم من علمها عمون، والعمى عن الشيء أبعد منه من الشاك فيه، لأن الشك قد يعرض عن ضرب من النظر، والعمى عن الشيء: الذي لم يدرك منه شيئاً، وأما من قال: «إدَارَكُ» فإنه أراد تدارك فادغم التاء في الدال لمقاربتها لها وكونها من حيزها فلما سكنت التاء للإدغام اجتمعت لها همزة الوصل كما اجتمعت في نحو «اداراتم»، وفي التنزيل ﴿حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا﴾ كان معناها تلاحقوا قال:

تداركتهم الأحلاف قد ثل عرشها^(١)

وما روي عن أبي بكر «بل أدرك» معناه: افتعل من أدركت، وافتعل وتفاعل يجيئان بمعنى، ومن ثم صح قولهم ازدوجوا، وإن كان الحرف على صورة يجب فيها الانقلاب، ولكنه صح لما كان بمعنى تفاعلوا، وتفاعلوا يلزم فيه تصحيح حروف العلة لسكون الحرف الذي قبل حرف العلة، فصار تصحيح هذا كتصحيح عَوَزَ وَحَوَلَ لما كان بمعنى اغَوَزَ وَاخَوَلَ. ومن قرأ «بَلْ ذَرَكُ» فإنه خفف الهمزة بحذفها وإلقاء حركتها على اللام الساكنة قبلها نحو قَدْ فَلَحَ فِي «قَدْ أَفْلَحَ»، وأما قوله «بَلْ أَدَرَكُ» فإن بل استئناف، وما بعدها استفهام، كما تقول: أزيد عندك بل أعمرو عندك، تركاً للأول إلى غيره، وأما «بلى»^(٢) فكانه جواب، وذلك لأنه لما قال «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ» فكان قائلًا قال: ما الأمر كذلك، فقل له: بلى، ثم استأنف فقل: «أدرك» علمهم في الآخرة. وقد سبق ذكر الاستفهامين فيما تقدم وكذلك ذكر الضيق والضيق، والأولى أن يحمل على أنهما لغتان.

● **اللغة:** قال ابن الأعرابي: ردت وأردفت ولحقت وألحقت بمعنى. وترادفوا

(١) هذا صدر بيت لزهير، وعجزه: «وذيان قد زلت بأقدامها النمل». ومراده من الأحلاف هم قبيلتا أسد وغطفان، لأنهم تحالفوا على التناصر. وقوله: «وذيان» عطف على الأحلاف. وثل عرشه أي: تضعضعت حاله.

(٢) أي: في قراءة ابن عباس: «بلى أدرك».

تلاحقوا، قال المبرد: اللام في ﴿رَدَفَ لَكُمْ﴾ زائدة. وقيل: إنه إنما أتى باللام لأن معنى ردف: دنا فكأنه قال: دنا لكم، كما قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهُ الْحَاجَاتُ يَطْرَحَنَّ بِالْفَتَى وَهُمْ تَعْنَانِي مُعْنَى رَكَائِيهِ^(١)

قال: يطرحن بالفتى لما كان معنى يطرحن يرمين، وكنت الشيء في نفسي وأكنته: إذا سترته في نفسك فهو مكن ومكنون، قال الرماني: الإكنان: جعل الشيء بحيث لا يلحقه أذى بمانع يصده عنه.

● **الإعراب:** العامل في ﴿أَوَّادًا﴾ معنى قوله ﴿مُخْرَجُونَ﴾ لأن ما بعد «إن» لا يعمل فيما قبل «إن» فالتقدير: إذا كان تراباً أخرجنا، وهذا في محل نصب لأنه مفعول ثانٍ لوعده، ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدَفَ لَكُمْ﴾ يكون اسمه ضمير الأمر والشأن، وما بعده خبره، و﴿أَن يَكُونَ﴾ وما يتعلق به في محل رفع بأنه فاعل ﴿عَسَىٰ﴾.

● **المعنى:** لما أخبر سبحانه عن الكفار أنهم لا يشعرون متى يبعثون، وأنهم شاكون عقبه بأنهم يعلمون حقيقة ذلك يوم القيامة فقال: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: تتابع منهم العلم وتلاحق حتى كمل علمهم في الآخرة بما أخبروا به في الدنيا فهو على لفظ الماضي والمراد به الاستقبال أي: يتدارك، ومن قرأ «أدرك» فمعناه: سيدرك علمهم هذه الأشياء في الآخرة حين لا ينفعهم اليقين ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ في الدنيا، عن ابن عباس، والمعنى: أن ما جهلوه في الدنيا وسقط علمه عنهم علموه في الآخرة، وقيل: معناه اجتمع علمهم يوم القيامة فلم يشكوا ولم يختلفوا، عن السدي. وقال مقاتل: يقول بل علموا في الآخرة حين عاينوها ما شكوا وعموا عنه في الدنيا، وقيل: إن هذا على وجه الاستفهام فحذف الألف، والمراد به النفي بمعنى أنه لم يدرك علمهم بالآخرة ولم يبلغها علمهم، وقيل: معناه أدرك هذا العلم جميع العقلاء لو تفكروا ونظروا لأن العقل يقتضي أن الإهمال قبيح فلا بد من تكليف، والتكليف يقتضي الجزاء، وإذا لم يكن ذلك في الدنيا فلا بد من دار للجزاء، وقيل: إن الآية إخبار عن ثلاث طوائف: طائفة أقرت بالبعث، وطائفة شكّت فيه، وطائفة نفتته، كما قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ وقوله: ﴿بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: عن معرفتها وهو جمع عمى وهو الأعمى القلب لتركه التدبر والنظر ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بإنكارهم البعث: ﴿أَوَّادًا كُنَّا تَرَبًّا وَإِبَادًا أَنَا لِمُخْرَجُونَ﴾ من القبور مبعوثون. يقولون ذلك على طريق الاستبعاد والاستنكار ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا﴾ البعث ﴿فَمَن﴾ فيما مضى ﴿وَأَبَاؤُنَا مِن قَبْلٍ﴾ أي: ووعد آبائنا ذلك من قبلنا فلم يكن مما قالوه شيء ﴿إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين كفروا بالله وعصوه أي: كيف أهلكهم الله وخرب ديارهم ﴿وَلَا

(١) قائله: الفرزدق من قصيدة يمدح فيها المطلب بن عبد الله المخزومي. وقبل هذا البيت قوله وهو مطلع القصيدة:

«تقول ابنة الغوثي مالك ههنا * وأنت تميمي مع الشرق جانبه * فقلت لها...» وقوله: «هم تعناني» أي قاساني.

ومعنى من التعنية.

تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ ﴿٦٥﴾ أي: على تكذيبهم وتركهم الإيمان ﴿وَلَا تَكُنْ فِي صَيْقِلٍ﴾ وهو ما يضيق به الصدر ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: يدبرون في أمرك فإن الله تعالى يحفظك وينصرك عليهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا يا محمد من العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنه يكون ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ أي: أقرب لكم، عن ابن عباس، وقيل: أقرب لكم، عن السدي، وقيل: أردف لكم، عن قتادة ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب، وعسى من الله واجب فمعناه: أنه قرب منكم وسيأتيكم، وهذا البعض الذي دنا لهم القتل والأسر يوم بدر وسائر العذاب لهم فيما بعد الموت، وقيل: هو الإنذار عند الموت وشدة عذاب القبر، عن الجبائي ﴿وَلَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بضروب النعم الدينية والدنيوية، وقيل: بآمالهم ليتوبوا، والفضل هو الزيادة من الله تعالى للعبد على ما يستحقه بشكره والعدل: حق للعبد، والفضل فيه واقع من الله تعالى إلا أنه على ما يصح وتقتضيه الحكمة ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمه ﴿وَلَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: تخفيه وتستره ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: ويعلم ما يظهرونه أيضاً ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ أي: من خصلة غائبة ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني جميع ما أخفاه عن خلقه وغيبه عنهم ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: إلا وهو مبين في اللوح المحفوظ، وقيل: أراد أن جميع أفعالهم محفوظة عنده غير منسية كما يقول القائل: أفعالك عندي مكتوبة أي: محفوظة، عن أبي مسلم، والجبائي.



قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْفُذُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٦٦) وَإِنَّهُمْ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٦٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٦٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ ﴿٧٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٧٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آدَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٧٥﴾ .

● **القراءة:** قرأ «ولا يسمع» بالياء، «الصم» بالرفع ههنا، وفي الروم، ابن كثير، وابن عباس. والباقون «لا تسمع» بضم التاء «الصم» بالنصب، وقرأ «وما أنت تهدي العمي» حمزة ههنا وفي الروم. وقرأ الباقر «وما أنت يهدي العمي»، وفي الشواذ قراءة ابن عباس، وسعيد بن جبير ومجاهد، والجدري، وابن ذرعة: «تكلمهم» بفتح التاء والتخفيف، وقرأ أهل العراق غير أبي عمرو، وسهل «أن الناس» بفتح الهمزة، والباقر بكسرهما.

● **الحجة:** حجة من قال «تسمع» أنه أشبه بما قبل من قوله ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾. ويؤكد ذلك قوله ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ﴾، ومن قرأ «ولا يسمع الصم الدعاء» فالمعنى: لا ينفادون

لالحق لعنادهم كما لا يسمع الأصم ما يقال له. ومن قرأ «تهدي العمى» فالتقدير: إنك لا تهديهم لشدة عنادهم وإعراضهم. وأنت مرفوع بما على قول أهل الحجاز و«تهدي» في موضع نصب بأنه خبر، وعلى قول تميم: يرتفع بفعل مضمر ويفسره الظاهر الذي هو «تهدي» تقديره: إذا أظهرت ذلك المضمر ما تهدي تهدي، لأنك إذا أظهرت الفعل المضمر اتصل به الضمير ولم ينفصل كما ينفصل إذا لم تظهر. ومن قرأ ﴿يَهْدِي أَلْمَى﴾ مضافاً في السورتين فاسم الفاعل للحال أو للآتي، فإذا كان كذلك كانت الإضافة في نية الانفصال. وقوله ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ بالفتح، فالوجه فيه تكلمهم بأن الناس. وزعموا أنه في قراءة أبي «تنبئهم»، وعن قتادة: أنه في بعض الحروف «تحدثهم»، وهذا يدل على أن تكلمهم من الكلام الذي هو النطق، وليس هو من الكلم الذي هو الجراحة. ومن كسر فقال: «إن الناس»، فالمعنى تكلمهم فتقول لهم: إن الناس. وإضمار القول في الكلام كثير، وحسن ذلك لأن الكلام قول، فكان القول قد أظهر. ومن قرأ «تكلّمهم» فمعناه تجرحهم بأكلها إياهم.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه من الحجج ما يقوي قلب نبيه ﷺ فقال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُضُّ عَلَى بَيْتِ إِسْرَءِيلَ﴾ أي: يخبرهم بالصدق ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من حديث مريم، وعيسى ﷺ والنبي المبشر به في التوراة، حيث قال بعضهم: هو يوشع، وقال بعضهم: لا بل هو منتظر لم يأت، بعد وغير ذلك من الأحكام، وكان ذلك معجزة لنبينا ﷺ إذ كان لا يدرس كتبهم ولا يقرأها ثم أخبرهم بما فيها ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني القرآن ﴿لَهْدَى﴾ أي: دلالة على الحق ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نعمة لهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ يريد بين المختلفين في الدين يوم القيامة وأشار بذلك إلى شيئين:

أحدهما: أن الحكم له، فلا ينفذ حكم غيره فيوصل إلى كل ذي حق حقه.
والآخر: أنه وعد المظلوم بالإنصاف من الظالم ﴿وَهُوَ أَعَزُّهُ﴾ القادر على ما يشاء لا يمتنع عليه شيء ﴿أَلْعَلِمُ﴾ بالمحق والمبطل فيجازي كلا بحسب عمله، وفي هذه الآية تسلية للمحققين من الذين خولفوا في أمور الدين، وأن أمرهم يؤول إلى أن يحكم بينهم رب العالمين، ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يا محمد ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أي: الواضح، البين، الظاهر، والمحق أولى بالتوكل من المبطل المدغل، والمراد بهذا الخطاب: سائر المؤمنين وإن كان في الظاهر لسيد المرسلين، ثم شبه الكفار بالموتى فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ يقول كما لا تسمع الميت الذي ليس له آلة السمع النداء، كذلك لا تسمع الكافر النداء، لأنه لا يسمع ولا يقبل بالموعظة ولا يتدبر فيها ﴿وَلَا تَسْمِعُ أَصْغَرَ الدُّعَاءِ إِذَا وَلَوْ أُمَّدَّيْنِ﴾ إنما قال ذلك لأن الأصم إذا كان قريباً فالإنسان يطمع في إسماعه، فإذا أعرض وأدبر وتباعد، انقطع الطمع في إسماعه، فجعل سبحانه المصمم على الجهل كالمت في أنه لا يقبل الهدى وكالأصم في أنه لا يسمع الدعاء ﴿وَمَا أَنتَ بِهْدَى أَلْمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ في الدين بالآيات الدالة على الهدى إذا أعرضوا عنها كما لا يمكنك أن تهدي الأعمى إلى قصد الطريق. جعل سبحانه الجهل بمنزلة العمى لأنه يمنع عن إدراك الحق كما يمنع العمى من إدراك المبصرات ﴿إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: ما يسمع إلا من يطلب الحق بالنظر في آياتنا ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مستسلمون منقادون. جعل سبحانه استماعهم وقبولهم الحق سماعاً وتركهم للقبول تركاً للسمع، وقيل:

مسلمون أي: موحدون مخلصون ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وجب العذاب والوعيد عليهم، وقيل: معناه إذا صاروا بحيث لا يفلح أحد منهم ولا أحد بسبيهم، عن مجاهد، وقيل: معناه إذا غضب الله عليهم، عن قتادة، وقيل: معناه إذا أنزل العذاب بهم عند اقتراب الساعة فسمي المقول قولاً كما يقال: جاء الخبر الذي قلت ويراد به المخبر، قال أبو سعيد الخدري وابن عمر: إذا لم يأمرُوا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم وأخذوا بمبادئ العقاب منها قوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ تخرج بين الصفا والمروة فتخبر المؤمن بأنه مؤمن والكافر بأنه كافر، وعند ذلك يرتفع التكليف ولا تقبل التوبة وهو علم من أعلام الساعة، وقيل: لا يبقى مؤمن إلا مسحته، ولا يبقى منافق إلا خطمته تخرج ليلة جمع، والناس يسرون إلى منى عن ابن عمر. وروى محمد بن كعب القرظي قال: سئل علي صلوات الرحمن عليه عن الدابة؟ فقال: أما والله ما لها ذنب وإن لها للحية وفي هذا إشارة إلى أنها من الإنس، وروى عن ابن عباس أنها دابة من دواب الأرض لها زغب وريش ولها أربع قوائم، وعن حذيفة عن النبي ﷺ قال: دابة الأرض طولها ستون ذراعاً لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب فتسم المؤمن بين عينيه وتكتب بين عينيه مؤمن، وتسم الكافر بين عينيه وتكتب بين عينيه كافر، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن بالعصا، وتختم أنف الكافر بالخاتم حتى يقال: يا مؤمن ويا كافر! وروى عن النبي ﷺ أنه يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجاً بأقصى المدينة فيفشو ذكرها في البادية ولا يدخل ذكرها القرية، يعني مكة ثم تمكث زماناً طويلاً، ثم تخرج خرجة أخرى قريباً من مكة فيفشو ذكرها في البادية ويدخل ذكرها القرية يعني مكة، ثم سار الناس يوماً في أعظم المساجد على الله عز وجل حرمة وأكرمها على الله يعني المسجد الحرام لم ترعهم إلا وهي في ناحية المسجد تدنو وتدنو كذا ما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم عن يمين الخارج في وسط من ذلك، فيرفض الناس عنها ويثبت لها عصاة عرفوا أنهم لن يعجزوا الله فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرت بهم، فجلت عن وجوههم، حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية، ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب، حتى إن الرجل ليقوم فيتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه، فتقول: يا فلان الآن تصلي؟ فيقبل عليها بوجهه فتمسه في وجهه. فيتجاوز الناس في ديارهم ويصطحبون في أسفارهم ويشتركون في الأموال يعرف الكافر من المؤمن فيقال للمؤمن: يا مؤمن وللکافر: يا كافر. وروى عن وهب أنه قال: ووجهها وجه رجل وسائر خلقها خلق الطير، ومثل هذا لا يعرف إلا من النبوات الإلهية. وقد روي عن علي عليه السلام أنه قال: إنه صاحب العصا والميسم، وروى علي بن إبراهيم بن هاشم في تفسيره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رجل لعمار بن ياسر: يا أبا اليقظان آية في كتاب الله أفسدت قلبي؟ قال عمار: وآية آية هي؟ فقال: هذه الآية فآية دابة الأرض هذه؟ قال عمار والله ما أجلس ولا أكل ولا أشرب حتى أريتها. فجاء عمار مع الرجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يأكل تمرأ وزبداً فقال: يا أبا اليقظان، هلم. فجلس عمار يأكل معه فتعجب الرجل منه، فلما قام عمار قال الرجل: سبحان الله حلفت أنك لا تأكل ولا تشرب حتى ترينها، قال عمار: أريتها إن كنت تعقل، وروى العياشي هذه القصة بعينها عن أبي ذر

رحمه الله أيضاً. وقوله: ﴿تَكْلِمُهُمْ﴾ أي: تكلمهم بما يسوؤهم وهو أنهم يصيرون إلى النار بلسان يفهمونه، وقيل: تحدثهم بأن هذا مؤمن وهذا كافر، وقيل: تكلمهم بأن تقول لهم: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وهو الظاهر، وقيل: بآياتنا معناه بكلامها وخرجها ﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يدفعون، عن ابن عباس، وقيل: يحبس أولهم على آخرهم، واستدل بهذه الآية على صحة الرجعة من ذهب إلى ذلك من الإمامية، بأن قال: إن دخول «من» في الكلام يوجب التبعض فدل ذلك على أن اليوم المشار إليه في الآية يحشر فيه قوم دون قوم وليس ذلك صفة يوم القيامة الذي يقول فيه سبحانه: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، وقد تظاهرت الأخبار عن أئمة الهدى من آل محمد عليهم السلام في أن الله تعالى سيعيد عند قيام المهدي عليه السلام قوماً ممن تقدم موتهم من أوليائه وشيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته، ويبتهجوا بظهور دولته، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم، وينالوا بعض ما يستحقونه من العذاب في القتل على أيدي شيعته والذل والخزي بما يشاهدون من علو كلمته. ولا يشك عاقل أن هذا مقدور لله تعالى غير مستحيل في نفسه. وقد فعل الله ذلك في الأمم الخالية ونطق القرآن بذلك في عدة مواضع مثل قصة عزيز وغيره على ما فسرناه في موضعه. وصح عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «سيكون في أمتي كل ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة»^(١) حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتموه»، على أن جماعة من الإمامية تأولوا ما ورد من الأخبار في الرجعة على رجوع الدولة، والأمر والنهي دون رجوع الأشخاص، وإحياء الأموات، وأولوا الأخبار الواردة في ذلك لما ظنوا أن الرجعة تنافي التكليف، وليس كذلك لأنه ليس فيها ما يلجئ إلى فعل الواجب والامتناع من القبيح والتكليف يصح معها كما يصح مع ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة كفلق البحر وقلب العصا ثعباناً، وما أشبه ذلك، ولأن الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار المنقولة فيتطرق التأويل عليها، وإنما المعول في ذلك على إجماع الشيعة الإمامية وإن كانت الأخبار تعضده وتؤيده، ومن قال: إن قوله ﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ المراد به يوم القيامة. قال: المراد بالفوج الجماعة من الرؤساء والمنتبذين في الكفر حشروا وجمعوا لإقامة الحجة عليهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوْا إِلَىٰ مَوْقِفِ الْحِسَابِ﴾ قال الله تعالى لهم: ﴿أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِنَا﴾ أي: كذبتُم بأنبيائي ودلالاتي الدالة على ديني ﴿وَلَمْ تَحْطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ أي: لم تطلبوا معرفتها ولم تبيّنوا ما أوجب الله عليكم فيها ﴿أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا في صحتها، يقول ذلك تبكيّاً لهم وتجهيلاً أي: هذا كان الواجب عليكم فتركتموها ولم تعرفوها حق معرفتها فبماذا اشتغلتم، ومن قال بالأول قال: المراد بالآيات الأئمة الطاهرون عليهم السلام ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وجب العذاب عليهم ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: بظلمهم إذ صاروا بحيث لا يفلح منهم ولا أحد بسببهم ﴿فَهُمْ لَا يَخْفَوْنَ﴾ إذ ذاك بكلام ينتفعون به، ويجوز أن يكون المراد أنهم لا ينطقون أصلاً لعظم ما يشاهدونه، وهول ما يرونه.

(١) قال ابن الأثير: القذة واحدة القذذ: ريش السهم. وفي الحديث: «لتركن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة» أي: كما تقدر كل واحدة منهما على قدر صاحبها، وتقطع. يضرب مثلاً للشئيين يستويان، ولا يتفاوتان.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسِئَانِهِمْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُفْخَرُ فِي الصُّورِ فَنُفِخَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَخِيرٍ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَقِّنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَّرَكُمْ بِإِذْنِهِ فَمَنَعُوا نَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة، وحفص، وخلف ﴿أَتَوْهُ﴾ مقصورة الألف، غير ممدودة بفتح التاء. وقرأ الباقون «آتوه» بمد الألف وضم التاء. وقرأ أهل البصرة غير سهل، وابن كثير، وحماد، والأعشى، والبرجمي، عن أبي بكر «بما يفعلون» بالياء، والباقون بالتاء، وقرأ أهل الكوفة ﴿مِنْ فَزَعٍ﴾ منوناً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بفتح الميم، وقرأ أهل المدينة غير إسماعيل «من فزع» بغير تنوين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بفتح الميم، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ونافع، برواية إسماعيل، ويعقوب «من فزع» بغير تنوين «يومئذٍ» بكسر الميم. وقرأ أهل المدينة، وابن عامر، وحفص، ويعقوب، ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء، والباقون بالياء.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ ﴿أَتَوْهُ﴾ كان فعلوا من الإتيان، ومن قرأ «آتوه» فهو فاعلوه، وكلاهما محمول على معنى كل. ولو حمله على اللفظ جاز كما في قوله ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ﴾، و﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾، وحجة من قال «يفعلون» بالياء أن ذكر الغيبة قد تقدم في قوله ﴿وَكُلُّ أَتَوْهُ﴾، وحجة التاء أنه خطاب للكافة، وقد تدخل الغيبة في الخطاب ولا يدخل الخطاب في الغيبة، وقوله ﴿مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ من نون كان في انتصاب «يوم» ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون منتصباً بالمصدر كأنه قال: «وهم من أن يفزعوا يومئذ آمنون».

والآخر: أن يكون اليوم صفة لفزع، لأن أسماء الأحداث توصف بأسماء الزمان، كما يخبر عنها بها وفيه ذكر الموصوف وتقديره في هذا الوجه أن يتعلق بمحذوف كأنه «من فزع يحدث يومئذ».

والثالث: أن يتعلق باسم الفاعل «كأنه آمنون من فزع يومئذ»، ويجوز إذا نون الفزع أن يعني به فزعا واحداً، ويجوز أن يعني به كثرة لأنه مصدر والمصادر تدل على الكثرة وإن كانت مفردة الألفاظ، كقوله تعالى ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، وكذلك إذا أضاف فقال «من فزع يومئذ أو يومئذ، ويجوز أن يعني به مفرداً، ويجوز أن يعني به كثرة. فأما القول في إعراب

«يَوْمَ» وبنائه إذا أُضيف إلى إذ فقد ذكر فيما تقدم. وحجة من قرأ «يعملون» بالياء أنه وعيد للمشركين وحجة التاء أنه على معنى: قل لهم ذلك.

● الإعراب: وصف النهار بأنه مبصر فيه وجهان:

أحدهما: أن معناه ذو إِبْصَار كقوله ﴿عِشَّةً رَاضِيَةً﴾ أي: ذات رضى. وكقول النابغة:

كَلِينِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةً نَاصِبٍ^(١)

أي: ذي نصب.

والثاني: أنه يريك الأشياء كما يراها من يبصرها بالنور الذي تجلى عندها، وفيه قول ثالث

انه مثل قول جرير:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السَّرَى وَزَنَمْتَ وَمَا لَيْلِ الْمَطِيِّ بِنَائِمٍ^(٢)

أي: بالذي ينام فيه، فيكون مبصراً بمعنى ما يبصر فيه.

● المعنى: ثم بين سبحانه قدرته على الإعادة والبعث بما احتج به على الكفار فقال:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ لَيْسَ كُنُوفِهِ﴾ عن التعب والحركات ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: يبصر فيه، ويمكن التصرف فيه لضياؤه ويدرك بنوره جميع الأشخاص كما يدرك بنور البصر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأن جعل الشيء لما يصلح له من الانتفاع إنما يكون بالاختيار ولا يكون بالطباع ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ منصوب بتقدير: واذكر يوم ينفخ إسرافيل بأمر الله تعالى في الصور، وذلك اليوم الذي يقع عليهم القول بما ظلموا ويجوز أن يكون على حذف في الكلام، والتقدير: ويوم ينفخ في الصور وتكون النشأة الثانية. واختلف في معنى الصور فقيل: هو صور الخلق جمع صورة، عن الحسن، وقتادة. ويكون معناه: يوم ينفخ الروح في الصور فيبعثون. وقيل: هو قرن ينفخ فيه شبه البوق، عن مجاهد. وقد ورد ذلك في الحديث: ﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ماتوا لشدة الخوف والفرع يدل عليه قوله في موضع آخر الآية ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾، وقيل: هي ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين، ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ من الملائكة الذين ثبت الله قلوبهم وهم: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وقيل: يعني الشهداء فإنهم لا يفزعون في ذلك اليوم، وروي ذلك في خبر مرفوع ﴿وَكُلٌّ﴾ من الأحياء الذين ماتوا ثم أحيوا ﴿أَنزَوْهُ﴾ أي: يأنونه في المحشر ﴿دَاخِرِينَ﴾ أي: أذلاء صاغرين، عن ابن عباس، وقتادة ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبًا جَازِمَةً﴾ أي: واقفة مكانها لا تسير ولا تتحرك في مرأى العين ﴿وَمِمَّا تَرَى مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي: تسير سيراً حثيثاً مثل سير السحاب، عن ابن عباس، وفي مثل هذا المعنى قول النابغة الجعدي يصف جيشاً:

(١) هذا صدر بيت للنابغة الذبياني، وعجزه: «وليل أُنَاسِهِ بَطِيءُ الْكَوَاكِبِ» وقوله: «كَلِينِي» أي: دعيني أمر من وكل

إليه الأمر: فوض. وأميمة على وزن جهينة: اسم حبيته.

(٢) الشعر في (جامع الشواهد).

بِأَرْعَنَ مِثْلَ الطُّودِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ وَقُوفٌ لِحَاجٍ، وَالرِّكَابُ تُهْمَلِجُ^(١)

أي: تحسب أنهم وقوف من أجل كثرتهم والتفافهم، فكذلك المعنى في الجبال أنك لا ترى سيرها لبعدها أطرافها كما لا ترى سير السحاب إذا انبسط لبعده أطرافه وذلك إذا أزيلت الجبال عن أماكنها للتلاشي كما في قوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾. ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ أي: صنع الله ذلك صنعا وانتصب بما دل عليه ما تقدمه من قوله ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾، وذكر اسم الله لأنه لم يأت ذكره فيما قبل وإنما دل عليه ﴿الَّذِي أَفْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: خلق كل شيء على وجه الإتيان والإحكام والاتساق، قال قتادة: أي: أحسن كل شيء خلقه، وقيل: الإتيان حسن في إتيانك ﴿إِنَّكُمْ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: عليم بما يفعل أعداؤه من المعصية وبما يفعل أولياؤه من الطاعة. ثم بين سبحانه كيفية الجزاء على أفعال الفريقين فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: بكلمة التوحيد والإخلاص، عن قتادة، وقيل: بالإيمان، عن النخعي، وكان يحلف ولا يستثنى ان الحسنة لا إله إلا الله، والمعنى من وافى يوم القيامة بالإيمان ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ قال ابن عباس، أي: فمنها يصل الخير إليه، والمعنى: قوله فله من تلك الحسنة خير يوم القيامة وهو الثواب والأمان من العقاب، فخير ههنا اسم وليس بالذي هو بمعنى الأفضل وهو المروي عن الحسن، وعكرمة، وابن جريج، قال عكرمة: فأما أن تكون خيرا من الإيمان فلا، فليس شيء خيرا من لا إله إلا الله، وقيل: معناه فله أفضل منها في معظم النفع لأنه يعطي بالحسنة عشرا، عن زيد بن أسلم، ومحمد بن كعب، وابن زيد، وقيل: لأن الثواب فعل الله تعالى والطاعة فعل العبد، وقيل: هو رضوان الله ﴿وَرِضْوَانٌ مِنْ رَبِّكَ اللَّهُ أَكْبَرُ﴾. ﴿وَهُمْ يَنْفَرُونَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قال الكلبي: إذا أطلقت النار على أهلها فزعوا فزعة لم يفزعوا مثلها وأهل الجنة آمنون من ذلك الفرع ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالمعصية الكثيرة التي هي الكفر والشرك، عن ابن عباس، وأكثر المفسرين ﴿فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي: ألقوا في النار منكوسين ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني أن هذا جزاء فعلكم وليس بظلم. حدثنا السيد أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني قال: حدثنا الحاكم أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله الحسكاني قال: أخبرنا محمد بن عبد الله بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن أحمد بن محمد قال: حدثنا عبد العزيز بن يحيى بن أحمد قال: حدثني محمد بن عبد الرحمن بن الفضل قال: حدثني جعفر بن الحسين قال: حدثني محمد بن زيد بن علي عليه السلام، عن أبيه قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: دخل أبو عبد الله الجدلي على أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أبا عبد الله! ألا أخبرك بقول الله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ إلى قوله ﴿تَعْمَلُونَ﴾ قال: بلى جعلت فداك، قال: الحسنة حبا أهل البيت والسيئة بغضنا. وحدثنا السيد أبو الحمد قال: حدثنا الحاكم أبو القاسم قال: أخبرنا أبو عثمان سعيد بن محمد الحميري قال: حدثنا جدي أحمد بن إسحاق الحميري قال: حدثنا جعفر بن سهل قال: حدثنا أبو زرعة عثمان بن عبد الله القرشي قال: حدثنا ابن لهيعة، عن ابن الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: يا علي! لو أن أمتي صاموا حتى

(١) الجيش الأرعن: هو المضطرب لكثرتة. والطود: الجبل. والحاج: جمع الحاجة. والهملاج: حسن سير الدابة في سرعة.

صاروا كالأوتاد وصلوا حتى صاروا كالحنايا ثم أبغضوك لأكبهم الله على مناخرهم في النار. ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: قل لهم ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَٰذَا بَلَدُ﴾ يعني مكة، عن ابن عباس، قال أبو العالية: هي منى ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: جعلها حراماً آمناً يحرم فيها ما يحل في غيرها لا ينفر صيدها ولا يختلى خلاها ولا يقتص فيها ﴿وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ﴾ أي: وهو مالك كل شيء مما أحله وحرمه فيحرم ما شاء ويحل ما شاء ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من المخلصين لله بالتوحيد ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ عليكم يا أهل مكة وأدعوكم إلى ما فيه ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ﴾ إلى الحق والعمل بما فيه ﴿فَأَنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لأن ثواب ذلك وجزاءه يصل إليه دون غيره ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عنه وحاد ولم يعمل بما فيه ولم يهتد إلى الحق ﴿فَقُلْ﴾ له يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ الذين يخوفون بعقاب الله من معاصيه ويدعون إلى طاعته، ولا أقدر على إكراههم على الإيمان والدين ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ اعترافاً بنعمته إذ اختارني لرسالته ﴿سَيُريكَوْءُ بَيْنِي﴾ يوم القيامة ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ وتعرفونها على ما أخبرتم بها في الدنيا، عن الحسن. وقيل: معنى آياته هي العذاب في الدنيا والقتل ببدر فتعرفونها أي: تشاهدونها، ورأوا ذلك. ثم عجلهم الله إلى النار، عن مقاتل ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو عالم بجميع ذلك فيجازيكم عليها وإنما يؤخر عقابكم إلى وقت تقتضيه الحكمة.

● **النظم:** وجه اتصال قوله ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَٰذَا بَلَدُ﴾ بما قبله: أنه سبحانه لما بيّن أن الأمن من أهوال القيامة للمؤمن المحسن، فكان قائلاً قال: وما الحسنه؟ وكيف العبادة؟ فقال: إنما أمرت.

سُورَةُ الْقَصَصِ

مكية/آياتها (٨٨)

- عدد آياتها: وهي ثمان وثمانون آية.
- اختلافها: آيتان: ﴿طَسَّرَ﴾ كوفي، ﴿يَسْقُوتُ﴾ غير الكوفي.
- فضلها: أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن قرأ ﴿طَسَّرَ﴾ القصص أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بموسى وكذب به، ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقاً إن ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾».
- تفسيرها: لما أمر سبحانه في خاتمة تلك السورة بتلاوة القرآن، بيّن في هذه السورة أن القرآن من ﴿طَسَّرَ﴾ وأنه يتلو عليهم من نبأ موسى وفرعون فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طَسَّرَ﴾ ① تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ② تَتْلُوَا عَلَيْهِ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أُنْثَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⑥

- القراءة: قرأ أهل الكوفة، غير عاصم «ويرى فرعون» بالياء وما بعده بالرفع، وقرأ الباقون ﴿وَرَى﴾ بالنون وضمه وكسر الراء ونصب الياء وما بعده بالنصب.
- الحجة: قال أبو علي: حجة من قرأ بالنون أن ما قبله للمتكلم، فينبغي أن يكون ما بعده أيضاً كذلك ليكون الكلام من وجه واحد، وحجة من قرأ بالياء أن فرعون وجنوده أروه ذلك، والمعلوم أنهم يرونه إذا أروه، وهو قراءة الأعمش.
- اللغة: النبأ: الخبر عما هو عظيم الشأن، والشيخ: الفرق، وكل فرقة شيعه، وسموا بذلك لأن بعضهم يتابع بعضاً، والعرب تقول: شاعكم السلام أي: تبعكم وشيعة: اتبعه، والتمكين: تكميل ما يتم به الفعل.
- الإعراب: قوله ﴿بِالْحَقِّ﴾: في موضع نصب على الحال، ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف تقديره: تلاوة كائنة بالحق، ويجوز أن يكون «الحق» صفة محذوف تقديره:

بالأمر الحق، والجار والمجرور يتعلق بـ ﴿تَتْلُو﴾، و﴿يَسْتَضِعُّ﴾ في موضع نصب على الحال، و﴿يُذَيِّعُ﴾ حال بعد حال، ويجوز أن يكون حالاً عن الحال.

● **المعنى:** ﴿طَسَرَ ۝ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي﴾ أي: المبين الرشد من الغي، عن قتادة، وقيل: هو البين الظاهر والآية مفسرة فيما مضى ﴿تَتْلُو عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ نَّبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: طرفاً من أخبارهما ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق والحقيقة لا ريب فيه ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون بالله وبما أنزله إليك ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بغى وتجبر وتعظم واستكبر في أرض مصر، يقال: علا علواً إذا تجبر، ومنه قوله: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فرقاً، قال قتادة: فرق بين بني إسرائيل والقبط. والمعنى: يكرم قوماً ويذل آخرين بالاستعباد والاستعمال في الأعمال الشاقة، وقيل: معناه جعل بني إسرائيل أصنافاً في الخدمة والتسخير ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ يعني من بني إسرائيل ثم فسر ذلك فقال: ﴿يُذَيِّعُ أَثْنَاءَهُمْ وَسَتَّخَىٰ نِسَاءَهُمْ﴾ يقتل الأبناء ويستبقي البنات فلا يقتلن وذلك أن بعض الكهنة قال له: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون سبب ذهاب ملكك، وقال السدي: رأى فرعون في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، فسأل علماء قومه فقالوا له: يخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يده ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ بالقتل والعمل بالمعاصي ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ المعنى: أن فرعون كان يريد إهلاك بني إسرائيل وإفناءهم ونحن نريد أن نمُنَّ عليهم ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: قادة ورؤساء في الخير يقتدى بهم، عن ابن عباس، وقيل: نجعلهم ولاة وملوكاً، عن قتادة، وهذا القول مثل الأول، لأن الذين جعلهم الله ملوكاً فهم أئمة، ولا يضاف إلى الله سبحانه ملك من يملك الناس عدواناً وظلماً، وقد قال سبحانه: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾، والملك من الله تعالى هو الذي يجب أن يطاع، فالأئمة على هذا ملوك مقدّمون في الدين والدنيا يظأ الناس أعقابهم ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْآرِثِينَ﴾ لذيّار فرعون وقومه وأموالهم. وقد صحت الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها، عطف الضروس على ولدها^(١)، وتلا عقيب ذلك ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. وروى العياشي بالإسناد، عن أبي الصباح الكناني قال: نظر أبو جعفر عليه السلام إلى أبي عبد الله عليه السلام فقال: هذا والله من الذين قال الله تعالى ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، وقال سيد العابدين علي بن الحسين عليه السلام: والذي بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً إن الأبرار منا أهل البيت وشيعتهم بمنزلة موسى وشيعته، وإن عدونا وأشياعهم بمنزلة فرعون وأشياعه ﴿وَنَمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ونريد أن نمكّن لبني إسرائيل في أرض مصر، والتمكين: هو فعل جميع ما لا يصح الفعل إلا معه مع القدرة والآلة واللفظ وغير ذلك. وقال علي بن عيسى: اللطف لا يدخل في التمكين لأنه لو

(١) شمس الفرس شماساً: كان لا يمكّن أحداً من ظهوره، ولا من الإسراج، ولا الإلجام، ولا يكاد يستقر. والضروس:

الناقة السيئة الخلق تعض حاليها.

دخل فيه لكان من لا لطف له لم يكن ممكناً، ولكنه من باب إزاحة العلة ﴿وَرَبِّيَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ كَانُوا يَنْسَوْنَ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ من ذهاب الملك على يد رجل منهم. قال الضحاك: عاش فرعون أربعمئة سنة وكان قصيراً دميماً وهو أول من خضب بالسواد، وعاش موسى ﷺ مائة وعشرين سنة.



قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَىٰ أَن أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾﴾ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرَ مُوسَىٰ فَرِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم «وحزناً» بضم الحاء وسكون الزاي، والباقون «حزناً» بفتحها. وفي الشواذ قراءة الحسن، وفضالة بن عبد الله «فؤاد أم موسى فرعاً»، وقراءة ابن عباس «فرعاً» بالقياف والراء، وحكى قطرب عن بعضهم «فرعاً».

● **الحجة:** الحزن والحزن: لغتان مثل البخل والبخل، والعرب والعرب، والعجم والعجم، وأما قوله «فرعاً» بالفاء والزاي فمعناه: قلقاً يكاد يخرج من غلافه وأما «فرعاً» فمعناه: يرجع إلى معنى قارع لأن رأس الأقرع يكون خالياً من الشعر، وأما «فرعاً» فمعناه: هدرأ وباطلاً قال:

فإن تك أذواداً أصبَنَ ونسوةً قَلَنَ يذهبوا فرعاً بفعلٍ حبال^(١)

وقوله: ﴿فَرِعًا﴾ معناه: خالياً: من الحزن لعلمها أنه لا يغرق.

● **الإعراب:** مفعول ﴿خَفِيَ﴾ محذوف تقديره: خفت عليه أحداً، ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هو قرة عين، قال الزجاج: ويجوز على بعد أن يكون ﴿قُرْتُ عَيْنِي﴾ مبتدأ ويكون خبره ﴿لَا نَقْتُلُوهُ﴾، ﴿وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ﴾ في موضع نصب على الحال والعامل فيه ما يدل على هذه القصة وتقديره: قالوا ما قالوه غير شاعرين.

(١) قائله طليحة بن خويلد الأسدي. والأذواد جمع ذود: ما بين الثلاث إلى العشر من الإبل. وحبال: اسم رجل، وهو ابن أخي طليحة بن خويلد - قائل البيت - (وقال ابن هشام في السيرة ج ١: ٦٣٨ وكذا الميداني في مجمع الأمثال ج ٢: ١٧١ هو ابنه) قتله عكاشة بن محصن الأسدي: فلما أطلع على قتله طليحة، خرج في أثر عكاشة حتى أدركه فقتله. ثم قال في ذلك أبياتاً. وهذا البيت أحدها. يقول: إن صار دم الإبل والنسوة هدرأ، فلن يصير دم حبال هدرأ.

● **المعنى:** ثم بيّن سبحانه كيف دبّر في إهلاك فرعون وقومه منبهاً بذلك على كمال قدرته وحكمته فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ أي: ألهمناها وقذفنا في قلبها وليس بوحي نبوة، عن قتادة، وغيره، وقيل: أتاها جبرائيل عليه السلام بذلك، عن مقاتل، وقيل: كان هذا الوحي رؤيا منام عبّر عنها من يثق به من علماء بني إسرائيل عن الجبائي ﴿أَنَّ أَرْضِيَّةً﴾ ما لم تخافي عليه الطلب ﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ﴾ في القتل الذي أمر به فرعون في أبناء بني إسرائيل ﴿فَكَأْتِيهِ فِي الْبَيْتِ﴾ أي: في البحر وهو النيل ﴿وَلَا تَخَافِ﴾ عليه الضيعة ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ من فراقه ﴿إِنَّا رَأَوُوهَ إِتْلُكْ﴾ سالماً عن قريب ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ والانبيااء، وفي هذه الآية أمران ونهيان وخبران وبشارتان. وحكي أن بعضهم سمع بدوية تشد أبياتاً، فقال لها: ما أفصحك! فقالت: الفصاحة لله تعالى، وذكرت هذه الآية وما فيها. قال وهب بن منبه: لما حملت أم موسى بموسى عليه السلام كتمت أمرها عن جميع الناس، فلم يطلع على حملها أحد من خلق الله، وذلك شيء ستره الله تعالى لما أراد أن يمنّ به على بني إسرائيل، فلما كانت السنة التي يولد فيها موسى عليه السلام بعث فرعون القوابل وتقدّم إليهن أن يفتشن النساء تفتيشاً لم يفتشنه قبل ذلك، وحملت أم موسى بموسى فلم يَنْتُ^(١) بطنها ولم يتغير لونها ولم يظهر لبنها فكانت القوابل لا يعرضن لها. فلما كانت الليلة التي ولد فيها موسى عليه السلام ولدته أمه ولا رقيب عليها ولا قابلة ولم يطلع عليها أحد إلا أخته مريم، فأوحى الله تعالى إليها ﴿أَنْ أَرْضِعِي﴾ الآية. قال: فكتمته أمه ثلاثة أشهر ترضعه في حجرها لا يبكي ولا يتحرك، فلما خافت عليه عملت له تابوتاً مطبقاً ومهدت له فيه ثم ألقته في البحر ليلاً كما أمرها الله تعالى، قال ابن عباس: لما قربت ولادة أم موسى وكانت قابلة من النساء اللاتي وكلهن فرعون بحبال بني إسرائيل مصافية لأم موسى، فلما ضربها الطلق، أرسلت إليها فجاءت، فعالجتها فلما ولد موسى، رأت نوراً بين عينيه، فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى عليه السلام في قلبها، ثم قالت: يا هذه! ما جئت إليك إلا ومن ورائي قتل مولودك ولكن وجدت لابنك هذا حباً ما وجدت حب شيء مثل حبه، فاحفظي ابنك فإني أراه هو عدونا. فلما خرجت من عندها القابلة بصرتها العيون فجأوا ليدخلوا على أم موسى فقالت أخته: يا أماه! هذا الحرس بالباب، فلقت موسى عليه السلام في خرقه فوضعت في تنور مسجور، فدخلوا فإذا التنور مسجور ورأوا أم موسى لم يتغيّر لها لون، ولم يظهر لها لبن، فخرجوا من عندها. وانطلقت إلى الصبي، وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً، قال: ثم لما رأت إلحاح فرعون في الطلب خافت على ابنها فانطلقت إلى نجار من قوم فرعون فاشتريت منه تابوتاً. فقال النجار: ما تصنعين بهذا التابوت؟ قالت: إن لي ابناً أخبأه في التابوت، وكرهت الكذب، فلما اشترت التابوت وحملته انطلق النجار إلى الذباحين ليخبرهم بأمر أم موسى، فلم يطق الكلام فرجع وأخذ في النجر فانطلق لسانه فرجع ثانياً فلما انتهى إليهم اعتقل لسانه هكذا ثلاث مرات، فعلم أن ذلك أمر إلهي ﴿فَالْفَقْطَةُ﴾ أي: أصابوه وأخذوه من غير طلب ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرّاً﴾ أي: ليكون لهم في عاقبة أمره كذلك لا لأنهم أخذوه لهذا،

(١) نثا يتنو الشيء: ارتفع. ورد في بعض النسخ: «فلم يتنأ» بالهمزة، ومعناها واحد.

كما يقال لمن كسب مالا فأداه ذلك إلى الحتف والهلاك: إنما كسب فلان لحتفه وهو لم يطلب المال للحتف ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَ وَخُودَهُمَا كَانُوا خَطِيعِينَ﴾ أي: عاصين ربهم في أفعالهم. وكانت القصة في ذلك: أن النيل جاء بالتأبوت إلى موضع فيه فرعون وامراته على شط النيل، فأمر فرعون فأتى به، وفتحت آسية بنت مزاحم بابه فلما نظرت إليه ألقى الله في قلبها محبة موسى ﷺ وكانت آسية بنت مزاحم امرأة من بني إسرائيل استنكحها فرعون، وهي من خيار النساء ومن بنات الأنبياء، وكانت أما للمؤمنين ترحمهم وتتصدق عليهم ويدخلون عليها، فلما نظر فرعون إلى موسى ﷺ غاظه ذلك، وقال: كيف أخطأ هذا الغلام الذبح؟ قالت آسية وهي قاعدة إلى جنبه: هذا الوليد أكبر من ابن سنة وإنك أمرت أن يُذبح الولدان لهذه السنة فدعه يكن قرة عين لي ولك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أَمْرَأْتُ فِرْعَوْنُ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَّ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وإنما قالت ذلك لأنه لم يكن له ولد فأطمعت في الولد. قال ابن عباس: إن أصحاب فرعون لما علموا بموسى جاؤوا ليقتلوه، فمنعتهم وقالت لفرعون: ﴿قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَّ لَا تَقْتُلُوهُ﴾، قال فرعون: قرة عين لك وأما لي فلا! قال رسول الله ﷺ: «والذي يحلف به لو أقر فرعون بأن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته لهداه الله به كما هداها، ولكنه أبى إلا الشقاء الذي كتبه الله عليه» ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يشعرون أن هلاكهم على يديه، وقيل: لا يشعرون أن هذا هو المطلوب الذي يطلبونه ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَ فَتِرَافًا﴾ أي: خالياً من كل شيء إلا من ذكر موسى. أي: صار فارغاً له، عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وقيل: فارغاً من الحزن لعلمها أن ابنها ناج سكوناً إلى ما وعدها الله تعالى به، وقيل: فارغاً من الوحي الذي أوحى إليها بنسيانها فإنها نisst ما وعدها الله تعالى به، عن الحسن، وابن زيد ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ معناه: أنها كادت تبدي بذكر موسى ﷺ فتقول: يا ابناه! من شدة الغم والوجد، عن ابن عباس، وقتادة، والسدي، وقيل: معناه كادت تصيح على ابنها شفقة عليه من الغرق، عن مقاتل، وقيل: معناه هممت بأن تقول إنها أمه لما رأيته عند دعاء فرعون إياها للإرضاع لشدة سرورها به، عن جعفر بن حرب. وقيل: معناه أنها كادت تبدي بالوحي ﴿لَوْلَا أَنْ رَّبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا﴾ بالصبر واليقين. والربط على القلب إلهام الصبر وتقويته، عن الزجاج، وقيل: معناه لولا أن قوينا قلبها بالعصمة والوحي، وجواب لولا محذوف والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لأظهرته ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: فعلنا ذلك لتكون من جملة المصدقين بوعدها الواثقين بوحينا وقولنا ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَهِ﴾.



قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ نَصِيبٌ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُهْلِهِ كَمَا نَفَرْنَا مِنْهُ لَوْلَا تَحَرَّزَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ

ءَايَنَّتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّتِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّتِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ .

● **اللغة:** القصص: اتباع الأثر، ومنه القصص في الحديث، لأنه يتبع فيه الثاني الأول، والقصاص: اتباع الجاني في الأخذ بمثل جنايته في النفس، فبصر به: رآه. فبصر لا يتعدى إلا بحرف الجر ورأى يتعدى بنفسه، ومعنى بصرت به عن جنب: أبصرت به عن جنابة أي: عن بعد. قال الأعشى:

أَتَيْتُ حُرَيْشًا زَائِرًا عَنْ جَنَابَةٍ وَكَانَ حُرَيْثٌ عَنْ عَطَائِي جَامِدًا
وقيل: «جنب» صفة وقعت موقع الموصوف أي: عن مكان جنب، والمراضع: جمع مرضعة، والنصح: إخلاص العمل من شائب الفساد وهو نقيض الغش، والوكز: الدفع، وقيل: هو بجمع الكف ومثله: اللكر واللهز.

● **الإعراب:** ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال، وتقديره: فبصرت به بعيدة، وإن جعلت «جنباً» صفة على تقدير من مكان جنب: فهو في موضع نصب بأنه ظرف مكان، ﴿هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ جملتان في محل النصب لأنهما صفة ﴿رَجُلَيْنِ﴾ صفة بعد صفة.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه لطف صنعه في تسخيره لفرعون حتى تولى تربية موسى فقال: ﴿وَقَالَتْ﴾ يعني أم موسى ﴿لِأُخْتَيْهِ﴾ يعني أخت موسى واسمها كلثمة عن الضحاك ﴿فَقُصِيَتْ﴾ أي: اتبعني أثره وتعرفني خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ في الكلام حذف واقتصار، تقديره: فذهبت أخت موسى فوجدت آل فرعون قد أخرجوا التابوت وأخرجوا موسى فبصرت به، وهذا من الإيجاز الدال على الإعجاز باللفظ القليل على المعنى الكثير، أي: فرأت أختها موسى ﷺ عن جنب أي: عن بعد، عن مجاهد، وقيل: عن جانب، تنظر إليه كأنها لا تريده، عن قتادة، وتقديره: عن مكان جنب ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وآل فرعون لا يشعرون أنها أخته، عن قتادة، وقيل: معناه وهم لا يشعرون أنها جاءت متعرفة عن خبره، ويمكن أن يكون سبحانه كرّر هذا القول تنبيهاً على أن فرعون لو كان إلهاً لكان يشعر بهذه الأمور ﴿وَحَرَمًا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعُ﴾ المعنى: أنه لا يؤتى بمرضع فيقبلها، وتأويله: منعناهن منه وبغضناهن إليه، عن ابن عباس، وقيل: هو جمع مرضع بمعنى الرضاع أي: منعناهن من الرضاع فهذا تحريم منع لا أن هناك نهياً عن الفعل، ومثله قول امرئ القيس:

جَالَتْ لِتَضَرَّعَنِي فَقُلْتُ لَهَا اقْصِرِي إِنِّي أَمْرٌ صَرَعِي عَلَيْكَ حَرَامٌ^(١)

(١) الضمائر ترجع إلى الناقة المذكورة في الآيات السابقة على هذا البيت.

أي: صرعي ممتنع عليك، فإني فارس أمتنعك من ذلك، ويقال: فلان حرم على نفسه كذا أي: امتنع منه كما يمتنع بالنهي ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل مجيء أخته وقيل من قبل رده على أمه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ وهذا يدل على أن الله تعالى ألقى محبته في قلب فرعون، فلشدة محبته وغاية شففته عليه طلب له المراضع، وكان موسى عليه السلام لا يقبل ثدي واحدة منهم بعد أن أنته مرضع بعد مرضع، فلما رأت أخته وجدهم به وحبهم له ورقتهم عليه، قالت لهم: هل أدلكم على أهل بيت يقبلون هذا الولد، ويبدلون النصح في أمره، ويحسنون تربيته، ويضمنون لكم القيام بأمره ﴿وَهُمْ لَمْ تَنْصَحُوا﴾ يشفقون عليه وينصحونه. وقيل: إنه لما قالت أخته ذلك، قال هامان: إن هذه المرأة تعرف أن هذا الولد من أي أهل بيت هو. فقالت هي: إنما عنيت أنهم ناصحون للملك فأمسكوا عنها ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أَبِيهِ كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ يعني عين أمه. وانطلقت أخت موسى إلى أمها فجاءت بها إليهم فلما وجد موسى ريح أمه قبل ثديها وسكن بكأوه، وقيل: إن فرعون قال لأمه: كيف ارتضع منك ولم يرتضع من غيرك؟ فقالت: لأنني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أكاد أوتى بصبي إلا ارتضع مني فسر فرعون بذلك ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أراد به ما وعدها الله به في الآية المتقدمة بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاذْهَبِي عَلَيْهِ فَكَأَلْنَاهُ فِي الْإِثْرِ وَلَا تَخَافِي إِنَّا رَادُّهُ إِلَيْكَ وَمَجْلُوهٌ مِنَ الْأَرْسَالِ﴾ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تحقيق ذلك الوعد كما علمت ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: ثلاثاً وثلاثين سنة ﴿وَأَسْتَوَىٰ﴾ أي: بلغ أربعين سنة، عن مجاهد، و قتادة، وابن عباس ﴿فَأَيَّدْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: فقهاً وعلماً وعقلاً بدينه ودين آبائه، فعلم موسى عليه السلام وحكم قبل أن يبعث نبياً، وقيل: نبوة وعلماً، عن السدي ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذه الآية مفسرة في سورة يوسف ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ يريد مصر، وقيل: مدينة منف من أرض مصر، وقيل: على فرسخين من أرض مصر ﴿عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أراد به نصف النهار والناس قائلون، عن سعيد بن جبير، وقيل: ما بين المغرب والعشاء الآخرة، عن ابن عباس، وقيل: كان يوم عيد لهم وقد اشتغلوا بلعبهم، عن الحسن، وقيل: اختلفوا في سبب دخوله المدينة في هذا الوقت على أقوال:

أحدها: أنه كان موسى عليه السلام حين كبر يركب في مواكب فرعون فلما جاء ذات يوم قيل له: إن فرعون قد ركب فركب في أثره فلما كان وقت القائلة دخل المدينة ليقيل، عن السدي.

والثاني: أن بني إسرائيل كانوا يجتمعون إلى موسى ويسمعون كلامه، ولما بلغ أشده خالف قوم فرعون فاشتهر ذلك منه وأخافوه فكان لا يدخل مصر إلا خائفاً فدخلها على حين غفلة، عن ابن إسحاق.

والثالث: أن فرعون أمر بإخراجه من البلد فلم يدخل إلا الآن، عن ابن زيد ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي: يختصمان في الدين، عن الجبائي، وقيل: في أمر الدنيا ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي: أحدهما إسرائيلي، والآخر قبضي يسخر الإسرائيلي ليحمل حطباً إلى مطبخ فرعون، وقيل: كان أحدهما مسلماً والآخر كافراً، عن محمد بن إسحاق ﴿فَاسْتَفْتَاهُ أَلَيْسَ مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ أَلَيْسَ مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي: استنصره لينصره عليه. وروى أبو بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام

سورة القصص

قال: ليهنكم الاسم قال: قلت: وما الاسم؟ قال: الشيعة قال: أما سمعت الله سبحانه يقول ﴿فَأَسْأَلُكَ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾. ﴿فَوَكَّرْتُ مُوسَى﴾ أي: دفع في صدره بجمع كفه، عن مجاهد، وقيل: ضربه بعصاه، عن قتادة ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي: فقتله وفرغ من أمره ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: بسببه حتى هيج غضبي فضربته فهو من إغرائه، قال الحسن: لم يكن يحل قتل الكافر يومئذ لأن الحال كانت حال الكف عن القتال، وقيل: معناه أن الأمر الذي وقع القتل بسببه من عمل الشيطان أي: حصل بوسوسة الشيطان، وذكر المرتضى قدس الله روحه، فيه وجهين آخرين:

أحدهما: أنه أراد أن تزيين قتلي له وترك لي لما ندبت إليه من تأخيره وتفويتي ما أستحقه عليه من الثواب، من عمل الشيطان.

والآخر: أنه يريد أن عمل المقتول من عمل الشيطان يبين بذلك أنه مخالف لله تعالى، مستحق للقتل. ثم وصف الشيطان فقال: ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ﴾ لبني آدم ﴿مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة والإضلال.

سؤال: قالوا: إن هذا القتل لا يخلو من أن يكون مستحقاً أو غير مستحق، فإن كان غير مستحق فالأنبياء ﷺ لا يجوز عليهم ذلك عندكم لا قبل النبوة ولا بعدها، وإن كان مستحقاً فلا معنى لندمه عليه واستغفاره منه.

والجواب: أن القتل إنما وقع على سبيل تخليص المؤمن من يد من أراد ظلمه والبغي عليه، ودفع مكروهه عنه، ولم يكن مقصوداً في نفسه. وكل ألم وقع على هذا الوجه، فهو حسن غير قبيح سواء كان القاتل مدافعاً عن نفسه أو عن غيره، وسنذكر الوجه في استغفاره منه وندمه عليه.



قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١١) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٢) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٣) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمُْوسَى أَتُرِيدُ أَنْ نَقْتُلَكَ كَمَا قُتِلَتْ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ (١٤) وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُْوسَى ابْنَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ الْمُنصَحِينَ (١٥) ﴿

● **اللغة:** الترقب: الانتظار، والاستصراخ: طلب الصراخ على العدو بما يردعه عن الإيقاع به، والائتمار: التشاور والارتياح. يقال: اتتمر القوم وارتاءوا بمعنى، قال امرؤ القيس:

أَحَارِ ابْنِ عَمْرٍو كَأَنِّي خَمِرٌ وَيَغْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتِمُرُ^(١)
وقال النمر بن تولب:

أرى الناس قد أحدثوا شيمة وفي كل حادثة يؤتمر

● **الإعراب:** ﴿يَمَّا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ الباء للقسم، ويجوز أن يكون «ما» حرفاً موصولاً والمعنى: بإنعامك عليّ، ويجوز أن يكون اسماً موصولاً والضمير العائد محذوفاً، والتقدير: بالذي أنعمته عليّ، وجواب القسم ﴿لَنْ أَكُونَ﴾، والفاء: لجواب القسم مقدر في الموصول بالجملة الفعلية. ﴿أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾ أن الأولى زائدة، وأن الثانية مع صلتها: منصوبة الموضع بأنها مفعولة أراد، ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ لا يجوز أن تتعلق اللام في ﴿لَكَ﴾ بالناصحين، لأن الصلة لا تعمل فيما قبل الموصول وإنما تتعلق بمحذوف يفسره هذا الظاهر تقديره: إني من الناصحين لك.

● **المعنى:** ثم حكى سبحانه: أَنَّ موسى ﷺ حين قتل القبطي ندم على ذلك: ﴿وَقَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ في هذا القتل، فإنهم لو علموا بذلك لقتلوني، وقال المرتضى قدس الله روحه العزيز: إنما قاله على سبيل الانقطاع والرجوع إلى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن أداء حقوق نعمه، أو من حيث حرّم نفسه الثواب المستحق بفعل الذنب ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ معناه قول آدم ﷺ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقبول الاستغفار والتوبة قد يسمى غفراناً ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ إِيَّاهُ هُوَ الْغُفُورُ لعباده ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم المنعم عليهم ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ يَمَّا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: بنعمتك عليّ من المغفرة وصرف بلاء الأعداء عني ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ المعنى: فلك عليّ ألا أكون مظاهراً ومعيناً للمشركين عن ابن عباس، وفي هذا دلالة على أن مظاهرة المجرمين جرم ومعصية، ومظاهرة المؤمنين طاعة. وإنما ظاهر موسى ﷺ من كان ظاهره الإيمان وخالف من كان ظاهره الكفر.

وجاء في الأثر: أن رجلاً قال لعطاء بن رباح: إن فلاناً يكتب لفلان ولا يزيد على كتبه دخله وخرجه، فإن أخذ منه أجراً كان له غنى، وإن لم يأخذ اشتد فقره وفقر عياله، فقال عطاء: أما سمعت قول الرجل الصالح: رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴿فَأَصْبَحَ﴾ موسى ﷺ في اليوم الثاني ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً﴾ من قبل القبطي ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الأخبار في قتل القبطي، عن ابن عباس، يعني: أنه خاف من فرعون وقومه أن يكونوا عرفوا أنه هو الذي قتل القبطي فكان يتجسس وينتظر الأخبار في شأنه ﴿فَإِذَا الَّذِي اَسْتَصَارَ بِالْأَمْسِ يَسْتَصِرُّهُ﴾ معناه: أن الإسرائيلي الذي كان قد خلصه بالأمس، ووكر القبطي من أجله، يستصرخ موسى ويستعين به على رجل آخر من القبط خاصمه، قال ابن عباس: لما فشا أمر قتل القبطي قيل لفرعون: إن بني إسرائيل قتلت منا رجلاً، قال: أتعرفون قاتله ومن يشهد عليه؟ قالوا: لا فأمرهم بطلبه. فبينما هم يطوفون إذ مرّ موسى من الغد وأتى ذلك الإسرائيلي يطلب نصرته ويستغيث به ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَكَوْنُ مَيِّنٍّ﴾ أي: ظاهر الغواية حيث قاتلت بالأمس رجلاً وتقاتل اليوم الآخر، ولم يرد الغواية في الدين، والمراد: أن من خاصم

(١) قوله حار مرخم حارث، ورجل خمر ككتف: خالطه داء. وقيل: رجل خمر أي في عقب خمار وهو بقية السكر.

سورة القصص

آل فرعون مع كثرتهم فإنه غوي أي: خائب فيما يطلبه، عادل عن الصواب فيما يقصده ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ معناه: فلما أخذته الرقة على الإسرائيلي وأراد أن يدفع القبطي الذي هو عدو لموسى والإسرائيلي عنه، ويبطش به أي: يأخذه بشدة، ظن الإسرائيلي أن موسى قصده لما قال له: إنك لغوي مبین فقال: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، عن ابن عباس، وأكثر المفسرين، وقال الحسن: هو من قول القبطي لأنه قد اشتهر أمر القتل بالأمس وأنه قتله بعض بني إسرائيل ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما تريد إلا أن تكون عالياً في الأرض بالقتل والظلم. قال عكرمة، والشعبي: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين بغير حق ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ ولما قال الإسرائيلي ذلك، علم القبطي أن القتال موسى فانطلق إلى فرعون وأخبر به. فأمر فرعون بقتل موسى وبعث في طلبه ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أي: آخرها. فاختصر طريقاً قريباً حتى سبقهم إلى موسى ﴿يَسْعَى﴾ أي: يسرع في المشي فأخبره بذلك وأندره. وكان الرجل حزيل مؤمن آل فرعون، وقيل: رجل اسمه شمعون، وقيل: سمعان ﴿قَالَ يَمْوسَى إِنَّكَ أَلَمَّا﴾ أي: الأشراف من آل فرعون ﴿يَأْتِمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون فيك، عن أبي عبيدة، وقيل: يأمر بعضهم ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ من أرض مصر ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ في هذا يقال: نصحته ونصحت له.



قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا بَاسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ آتِيَةٌ إِلَى بَيْتٍ أَبِيكَ يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُمْ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر، وأبو عمرو، وابن عامر «حتى يصدر» بفتح الياء وضم الدال، وقرأ الباقون «يُصْدِرُ» بضم الياء وكسر الدال.

● **الحجة:** من قرأ «حتى يَصْدُرَ الرعاء» فمعناه: حتى يرجعوا من سقيهم، وفي التنزيل: ﴿يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا لِيُرَوْا﴾، ومن قرأ «حَتَّى يُصْدِرَ» أراد: حتى يصدروا مواشيهم من ودهم، فحذف المفعول كما قال الشاعر:

لَا يَغْدِلُنْ أَتَاوِيُونَ تَضْرِبُهُمْ نَكَبَاءَ صِرُّ بِأَصْحَابِ الْمُحِلَّاتِ^(١)

(١) الأتايون: الغرباء. والصَّرُّ: شدة البرد. والمحلات: القدر، والرحى، والدلو، والقرية، والجفنة، والسكين، والفأس، والزند. سمي بذلك لأن من كانت هذه معه، حل حيث شاء إلا فلا بد من أن يجاور الناس يستعير منهم بعضها أي: لا تعدل أتايون إذا أصابهم الصر أحداً بأصحاب المحلات.

أي أحداً.

● **اللغة:** تلقاء الشيء: حذاؤه، ويقال: فعل ذلك من تلقاء نفسه أي: من حذاء داعي نفسه، وسواء السبيل: وسط الطريق، قال الشاعر: «حتى أغيب في سواء الملحد»^(١) وذاد شاته أو إبله عن الشيء يذودها ذوداً أي: حبسها عنه بمنعه منه، قال: سويد بن كراع:

أَبَيْتُ عَلَى بَابِ الْقَوَافِي كَأَنَّمَا أَذُودُ بِهَا سِرْباً مِنَ الْوَحْشِ نُرْعَا^(٢)

قال الفراء: ولا يقال دُذْتُ في الناس، وإنما يقال في الإبل والغنم، وهذا ليس بشيء، يدل عليه قول الكميت يصف بني هاشم^(٣):

سَادَةٌ ذَادَةٌ عَنِ الْخُرْدِ الْبَيْضِ — ضِ إِذَا الْيَوْمُ كَانَ كَالْأَيَّامِ^(٤)

والخطب: الأمر الذي فيه تفخيم ومنه الخطبة والخطبة والخطاب، كل ذلك فيه معنى العظم، وما خطبهما؟ أي: ما شأنكما؟ قال الراجز: «يا عجباً ما خطبه وخطبي» والرعاة: جمع راع، ويجمع على الرعيان والرعاة.

● **الإعراب:** ﴿تَلْقَاءَ﴾ ظرف مكان ﴿لَا سَقَى﴾ أي: لا نسقي الغنم الماء، فحذف مفعولاه لدلالة الكلام عليه وكذلك قوله ﴿سَقَى لَهُمَا﴾، واللام في قوله ﴿لَمَّا أَنْزَلْتَ﴾ يتعلق بفقير، ﴿تَمْشِي﴾ في موضع نصب على الحال من جاءت، وقوله ﴿عَلَى أَسْتَحْيَا﴾ في موضع الحال أيضاً من ﴿تَمْشِي﴾ أي: تمشي مستحيية، ويجوز أن يكون حالاً بعد حال. ﴿فَأَلَّتْ إِنْكَ أَيْ يَدْعُوكَ﴾ الجملة يجوز أن يكون بدلاً من قوله ﴿لَمَّا أَنْزَلْتَ لَهُمَا﴾، ويجوز أن تكون في موضع الحال بإضمار قد، والعامل فيه: جاءت أو تمشي.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه خروج موسى من مصر إلى مدين فقال: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي: من مدينة فرعون ﴿خَائِفاً﴾ من أن يطلب فيقتل ﴿يَتَّقُبُ﴾ الطلب ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال ابن عباس: خرج موسى متوجهاً نحو مدين وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه، قال: نجني من فرعون وقومه، وقيل: إنه خرج بغير زاد ولا ماء ولا حذاء ولا ظهر، وكان لا يأكل إلا من حشيش الصحراء حتى بلغ ماء مدين ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ التوجه: صرف الوجه إلى جهة من الجهات، وقوله: هذا المعنى يتوجه إلى كذا أي: هو كالتألم له يصرف وجهه إليه، قال الزجاج: معناه ولما سلك في الطريق التي يلقي مدين فيها وهي على مسيرة ثمانية أيام من مصر نحو ما بين البصرة إلى الكوفة ولم يكن له علم بالطريق، ولذلك ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ

(١) سواء الملحد: وسط القبر.

(٢) السرب: القطيع من الظباء، والبقر، والطير، وغيرها. ونزع أي: طالبة الفحل.

(٣) وقد ورد في حديث الحوض أيضاً عن رسول الله ﷺ: «إني ليعقر حوضي أذود الناس عنه لأهل اليمن» وفي حديث آخر: «فلizardان رجال عن حوضي» وغير ذلك. ذكره الجزري في (النهاية) فراجع. وفي (زيارة الجامعة) أيضاً: «السادة الولاة، والذادة الحماة».

(٤) الخريد من النساء: البكر التي لم تمس قط.

سورة القصص

التَّكْوِيلُ ﴿١﴾ أي: يرشدني قصد السبيل إلى مدين، وقيل: سواء السبيل: وسطه المؤدي إلى النجاة لأن الأخذ يميناً وشمالاً يبعد عن طريق الصواب، وقيل: إنه لم يقصد موضعاً بعينه ولكنه أخذ في طريق مدين. وقال عكرمة: عرضت لموسى أربع طرق، فلم يدر أيتها يسلك، ولذلك قال عند استواء الطرق له: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل. فلما دعا ربه، استجاب له ودلّه على الطريق المستقيم إلى مدين، وقيل: جاء ملك على فرس بيده عنزة فانطلق به إلى مدين، وقيل: إنه خرج حافياً ولم يصر إلى مدين حتى وقع خف قدميه، عن سعيد بن جبير ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ وهو بئر كانت لهم ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي: جماعة من الرعاة يسقون مواشيهم الماء من البئر ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تحبسان وتمنعان غنمهما من الورود إلى الماء، عن السدي، وقيل: تذودان الناس عن مواشيهما، عن قتادة، وقيل: تكفان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس، عن الحسن فترك ذكر الغنم اختصاراً ﴿قَالَ﴾ موسى لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما وما لكما لا تسقيان مع الناس، عن ابن إسحاق ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي﴾ عند المزاحمة مع الناس ﴿حَتَّىٰ يَصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ مرّ معناه أي: حتى ينصرف الناس فإننا لا نطبق السقي فننتظر فضول الماء فإذا انصرف الناس سقينا مواشينا من فضول الحوض، عن ابن عباس وقاتدة ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يقدر على أن يتولى السقي بنفسه من الكبر ولذلك احتجنا ونحن نساء أن نسقي الغنم. وإنما قالتا ذلك تعريضاً للطلب من موسى ﷺ أن يعينهما على السقي، وقيل: إنما قالتا ذلك اعتذاراً إلى موسى في الخروج بغير محرم ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ معناه: فسقى غنمهما الماء لأجلهما وهو أنه زحم القوم عن الماء حتى أخرجهم عنه ثم سقى لهما، عن ابن إسحاق، وقيل: رفع لأجلهما حجراً عن بئر كان لا يقدر على رفع ذلك الحجر عنها إلا عشرة رجال وسألهم أن يعطوه دلوّاً فناولوه دلوّاً، وقالوا له: أنزح إن أمكنك، وكان لا ينزحها إلا عشرة فزحها وحده وسقى أغنامهما ولم يستق إلا ذنوباً^(١) واحداً حتى رويت الغنم ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ أي: ثم انصرف إلى ظل سمرة، فجلس تحتها من شدة الحر وهو جائع ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال ابن عباس: سأل نبي الله ﷺ فلق خبز يقيم به صلبه، وقال أمير المؤمنين عليه أفضل الصلوات. والله ما سألته إلا خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بقلّة الأرض، لقد كانت خضرة البقلة نرى من شفيف صفاق بطنه لهزّاله وتشذب لحمه، قال الأخفش: يقال فقير إليه وفقير له. قال ابن إسحاق: فرجعنا إلى أبيهما في ساعة كانت لا ترجعان فيها، فأنكر شأنهما وسألهما، فأخبرتا الخبر، فقال لإحدهما: عليّ به فرجعت الكبرى إلى موسى ﷺ لتدعوه فذلك قوله: ﴿فَلَمَّا تَدَارَكَا أَعْيُنَهُمَا تَمَشَّىٰ عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي: مستحية معرضة على عادة النساء الخفريات، وقيل: أراد باستحيائها أنها غطت وجهها بكمّ درعها، عن عمر بن الخطاب، وقيل: هو بعدها عن النداء عن الحسن، قال: فوالله ما كانت ولاجة ولا خراجة ولكنها كانت من الخفريات اللاتي لا يحسن المشي بين أيدي الرجال والكلام معهم، وقيل: أراد أنها كانت تمشي عادلة عن الطريق ﴿قَالَتْ إِنَّكَ أَنَّىٰ يَدْعُوكَ لِجَزْئِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: ليكافئك على سقيك لغنمنا، وأكثر المفسرين على أن أباهما شعيب ﷺ. وقال وهب، وسعيد بن

(١) الذنوب: الدلو التي لها ذنب.

جبیر: هو يثرون ابن أخي شعيب، وكان شعيب مات قبل ذلك بعد ما كف بصره ودفن بين المقام وزمزم، وقيل: يثروب، وقيل: هو اسم شعيب لأن شعيباً اسم عربي. قال أبو حازم: لما قالت: ليجزيك أجر ما سقيت لنا، كره ذلك موسى ﷺ وأراد أن لا يتبعها ولم يجد بداً من أن يتبعها لأنه كان في أرض مسبعة وخوف، فخرج معها، وكانت الريح تضرب ثوبها فتصف لموسى ﷺ عجزها فجعل موسى ﷺ يعرض عنها مرة ويغض مرة فناداها: يا أمة الله! كوني خلفي وأرني السميت بقولك. فلما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء مهيتاً فقال له شعيب: اجلس يا شاب فتنعش، فقال له موسى ﷺ: أعوذ بالله، قال شعيب: ولم ذاك؟ ألسنت بجائع؟ قال: بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملك الأرض ذهباً، فقال له شعيب: لا والله يا شاب ولكنها عادتي وعادة آبائي نُقري الضيف ونطعم الطعام، قال: فجعل موسى يأكل وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي: فلما جاء موسى شعيباً وقص عليه أمره أجمع من قتل القبطي وأنهم يطلبونه ليقتلوه ﴿قَالَ﴾ له شعيب: ﴿لَا تَخَفْ بَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني فرعون وقومه فلا سلطان له بأرضنا ولسنا في مملكته.



قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَىٰ اسْتَجِرَّةُ إِنَّكَ حَرِّمَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هُنَيْنٍ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ٢٨﴾ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَحْذَرٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٢٩﴾ ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَلْطِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْسُقْ يُفِي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٣٠﴾.

● **القراءة:** قرأ عاصم «أو جذوة» بفتح الجيم، وقرأ حمزة، وخلف «جذوة» بضم الجيم، والباقون «جذوة» بالكسر. وفي الشواذ قراءة الحسن «أيما الأجلين» بتخفيف الياء وسكونها.

● **الحجة:** في «الجذوة» ثلاث لغات على حسب القراءات الثلاث، وأما «أيما» فهي لغة. قال الفرزدق:

تنظرت نسراً والسماكين أيهما علي من الغيث استهلّت مواطره^(١)

(١) النسر، والسماكان: أسماء لكواكب. وفي (جامع الشواهد): «نصراً» بالصاد. وقال في ترجمته: نصر بالنون والصاد والراء المهملتين كفلس: هو ابن سيار أمير خراسان. واستهل المطر: انصب بشدة.

● **اللغة:** الجذوة: القطعة الغليظة من الحطب فيها النار وجمعها جذى قال:

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمَسْنَ لَهَا جَزَلَ الْجَذَى غَيْرَ خَوَارٍ وَلَا دَعِرٍ^(١)

وشاطئ الوادي: جانبه وهو الشط والجمع الشواطىء.

● **الإعراب:** ﴿هَتَيْنِ﴾ صفة لابنتي. ﴿ثَمَنِي حَجَجٌ﴾ ظرف زمان، ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾

ذلك مبتدأ وخبره «بيني وبينك»، ومعناه ما شرطت عليّ فلك وما شرطت لي فلي، كذلك الأمر بيننا، عن الزجاج ﴿أَيَّمَا﴾ في معنى الجزاء، وهي منصوبة بقضية ﴿وَمَا﴾ مزيدة مؤكدة وجوابه ﴿فَلَا عُدُونَكَ عَلَيَّ﴾. ﴿أَنْ يَمُوتَ﴾ أن في موضع نصب وهي مخففة من الثقيلة تقديره: نودي بأنه يا موسى وبأنه ألق عصاك.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أمر موسى في مدين وانصرافه عنها فقال: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾

أي: إحدى ابنتيه واسمها صفورة وهي التي تزوج بها واسم الأخرى ليا، وقيل: إن اسم الكبرى صفراء واسم الصغرى صفيراء ﴿يَتَأْتِي أَسْتَجِرُّهُ﴾ أي: اتخذه أجيئاً ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ أي: خير من استعملت من قوي على العمل وأداء الأمانة، قال عمر بن الخطاب: لما قالت المرأة هذا، قال شعيب: وما علمك بأمانته وقوته؟ قالت: أما قوته: فلأنه رفع الحجر الذي لا يرفعه كذا وكذا، وأما أمانته: فإنه قال لي: امشي خلفي فأنا أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي عجزك، وقيل: القوي في نزع الحجر من البئر وكان لا يستطيعه إلا النفر. الأمين في غض طرفه عنهما حين سقى لهما فصدرتا وقد عرفنا قوته وأمانته، فلما ذكرت المرأة من حاله ما ذكرت زاده ذلك رغبة فيه ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ أي: أزوجهك ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٍ﴾ أي: على أن تكون أجيئاً لي ثماني سنين ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: ذلك تفضل منك وليس بواجب عليك. وقيل: معناه على أن تجعل جزائي وثوابي إياك على أن أنكحك إحدى ابنتي أن تعمل لي ثماني سنين، فزوجه ابنته بمهر، واستأجره للرعي ولم يجعل ذلك مهراً وإنما شرط ذلك عليه، وهذا على وفق مذهب أبي حنيفة والأول أصح وأوفق لظاهر الآية ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ في هذه الثمانية حجج وأن أكلفك خدمة سوى رعي الغنم، وقيل: ما أشق عليك بأن آخذك بإتمام عشر سنين ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في حسن الصحبة والوفاء بالعهد، وإنما علق الصلاح بمشيئة الله لأن مراده إن شاء الله تبقيتي ففعل، فمن الجائز أن يخرمه الله ولا يفعل الصلاح الديني الذي يريده. وحكى يحيى بن سلام أنه جعل لموسى كل سخلة توضع على خلاف شية أمها، فأوحى الله إلى موسى ﷺ في المنام: أن ألق عصاك في الماء ففعل، فولدت كلهن على خلاف شيتهن، وقيل: إنه وعده أن يعطيه تلك السنة من نتاج غنمه كل أدرع^(٢) وأنها نتجت كلها درعاً. وروى الحسين بن سعيد، عن صفوان بن يحيى، عن أبي

(١) الحواطب: الجواري يلتمن الحطب. والجزل: الحطب اليابس. وقيل: الغليظ. والخوار من كل شيء:

الضعيف الذي لا بقاء له. وعود دعر بالبدال المهمة: أي: كثير الدخان.

(٢) الأدرع من الخيل والشاة: ما اسود رأسه، وابيض سائر جسده.

عبد الله ﷺ قال: سئل أيتها التي قالت إن أبي: يدعوك؟ قال: التي تزوج بها، وقيل: فأبي الأجلين قضى؟ قال: أوفاهما وأبعدهما عشر سنين، قيل: فدخل بها قبل أن يمضي الشرط أو بعد انقضائه؟ قال: قبل أن ينقضي، قيل له: فالرجل يتزوج المرأة ويشترط لأبيها إجارة شهرين، أيجوز ذلك؟ قال: إن موسى علم أنه سيتم له شرطه، قيل: كيف؟ قال: علم أنه سيقى حتى يفي ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: ذلك الذي وصفت وشرطت عليّ فلك وما شرطت لي من تزويج إحداهما فلي. وتم الكلام، ثم قال: ﴿أَيُّمَا الْأَجَلَيْنِ﴾ من الثماني والعشر ﴿قَضَيْتُ﴾ أي: أتممت وفرغت منه ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: لا ظلم عليّ بأن أكلف أكثر منهما وأطالب بالزيادة عليهما ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: شهيد فيما بيني وبينك، عن ابن عباس ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أي: أوفاهما. روى الواحدي بالإسناد، عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما وأبطأهما».

وبالإسناد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «إذا سئلت: أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما وأبرهما، وإن سئلت: أي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما وهي التي جاءت فقالت: يا أبت استأجره». وقال وهب: تزوج الكبرى منهما. وفي الكلام حذف وإيجاز، وهو: فلما قضى موسى الأجل وتسلم زوجته ثم توجه نحو الشام ﴿وَسَارَ بِأَهْلِيهِ﴾ عَاشَرَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ كَارًا وقيل: إنه لما زوجها منه أمر الشيخ أن يعطى موسى عصا يدفع السباع عن غنمه بها، فأعطي العصا وقد ذكرنا حديث العصا في سورة الأعراف، وقيل: خرج آدم ﷺ بالعصا من الجنة فأخذها جبرائيل بعد موت آدم ﷺ وكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً فدفعتها إليه، عن عكرمة، وقيل: لم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وصلت إلى شعيب، فأعطاه موسى ﷺ وكانت عصا الأنبياء عنده، وروى عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: كانت عصا موسى قضيب آس من الجنة أتاه به جبرائيل ﷺ لما توجه لتقاء مدين، وقال السدي: كانت تلك العصا استودعها شعيباً ملكاً في صورة رجل، فأمر ابنته أن تأتبه بعصا فدخلت وأخذت العصا فأتته بها، فلما رآها الشيخ قال: لا آتبه بغيرها فألقته، وأرادت أن تأخذ غيرها فكانت لا تقع في يدها إلا هي. فعلت ذلك مراراً فأعطاه موسى، وقوله ﴿وَسَارَ بِأَهْلِيهِ﴾ قيل: إنه مكث بعد انقضاء الأجل عند صهره عشرًا أخرى فأقام عنده عشرين سنة ثم استأذنه في العود إلى مصر ليزور والديه وأخاه فأذن له فسار بأهله، عن مجاهد، وقيل: إنه لما قضى العشر، سار بأهله أي: بامرأته وبأولاد الغنم التي كانت له وكانت قطعياً، فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته في شهرها، فسار في البرية غير عارف بالطريق، فالتجأ المسير إلى جانب الطور الأيمن في ليلة مظلمة شديدة البرد، وأخذ امرأته الطلق وضلّ الطريق وتفرقت ماشيته فأصابه المطر فبقي لا يدري أين يتوجه فبينما هو كذلك آنس من جانب الطور ناراً، وروى أبو بصير، عن أبي جعفر ﷺ قال: لما قضى موسى الأجل وسار بأهله نحو بيت المقدس أخطأ الطريق ليلاً فرأى ناراً ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ وقد مرّ تفسيره ﴿لَعَلَّيْكُمْ مِّنْهَا مَخْبَرٌ﴾ أي: بخبر عن الطريق الذي أريد قصده وهل أنا على صوبه أو منحرف عنه، وقيل: بخبر من النار، هل هي لخبر نانس به أو لشئ نحذره ﴿أَوْ جَذْوَةٌ مِّنَ النَّارِ﴾ أي: قطعة من النار، وقيل: بأصل

شجرة فيها نار ﴿لَمَّا كَوُتَ فَطَلَّوْهُ﴾ أي: تستدفئون بها ﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: نودي موسى من الجانب الأيمن للوادي ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ وهي البقعة التي قال الله تعالى فيها لموسى ﷺ ﴿فَاخْلَعْ ثَوْبَكَ﴾ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿وَأَمَّا كَانَتْ مَبَارَكَةً لَّأَنَّهَا مَعْدَنُ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَقِيلَ: مَبَارَكَةٌ لِكَثْرَةِ الْأَشْجَارِ وَالْأَثْمَارِ وَالْخَيْرِ وَالنِّعَمِ بِهَا، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ إِنَّمَا سَمِعَ مُوسَى النَّدَاءَ وَالْكَلَامَ مِنَ الشَّجَرَةِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَعَلَ الْكَلَامَ فِيهَا وَجَعَلَ الشَّجَرَةَ مَحَلَّ الْكَلَامِ لِأَنَّ الْكَلَامَ عَرَضٌ يَحْتَاجُ إِلَى مَحَلٍّ، وَعَلِمَ مُوسَى ﷺ بِالْمُعْجَزِ أَنَّ ذَلِكَ كَلَامُهُ تَعَالَى وَهَذِهِ أَعْلَى مَنَازِلِ الْأَنْبِيَاءِ، أَعْنِي: أَنَّ يَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ وَاسْطَةٍ وَمُبْلَغٍ، وَكَانَ كَلَامُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿أَنْ يَتُوسَّعَ﴾ إِنَّتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿أَي: إِنْ الْمَكْمَلُ لَكَ هُوَ اللَّهُ مَالِكُ الْعَالَمِينَ وَخَالِقُ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَحِلَّ فِي مَحَلٍّ أَوْ يَكُونَ فِي مَكَانٍ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِعَرَضٍ وَلَا جِسْمٍ.



قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلِيَّ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا نَهَزْتُ كَأَنَّهُ جَانٌّ وَلِي مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلَّكَ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز، والبصرة «من الرّهْب» بفتح الراء والهاء، وقرأ حفص «من الرّهْب» بفتح الراء وسكون الهاء، والباقون بضم الراء وسكون الهاء. وقرأ أهل البصرة، وابن كثير «فذلّك» بالتشديد، والباقون بالتخفيف. وقرأ أبو جعفر، ونافع «ردأ» بغير همزة والباقون بالهمزة، وقرأ عاصم، وحمة «يُصَدِّقُنِي» بالرفع، والباقون «يُصَدِّقُنِي» بالجزم، وفي الشواذ قراءة الحسن «عَضُدُكَ».

● **الحجة:** الرّهْب والرّهْب: لغتان مثل الرّشد والرّشد، والرّهْب والرّهْب مثل الشّمع والشّمع والنّهْر والنّهْر، وقوله «فذلّك» قد مضى القول فيه فيما تقدم. وقال الزجاج: التشديد تشنية ذلك والتخفيف تشنية ذاك وجعل بدل اللام في ذلك تشديد النون، ومن قرأ «ردأ» فإنه خفف الهمزة، وذلك حكم الهمزة إذا خففتها وكان قبلها ساكن أن تحذف وتلقى حركتها على الساكن قبلها. ومن قرأ «يُصَدِّقُنِي» بالرفع جعله صفة للنكرة وتقديره «ردأ مصدق»، ومن قرأ بالجزم كان على معنى الجزاء أي: إن أرسلته يصدقني. وفي عضد خمس لغات عَضُدٌ وَعَضْدٌ وَعَضْدٌ وَعَضْدٌ وَعَضْدٌ: عَضْدٌ وَعَضْدٌ وَأَفْصَحُهَا عَضْدٌ مثل رجل.

● الإعراب: قوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ يتعلق بما يتعلق به «من» من قوله ﴿بُرْهَانَيْنِ مِنْ زَيْلِكَ﴾، ويجوز أن يتعلق بمحذوف كما تقدم في قوله ﴿فِي سَجٍّ أَيْتٍ﴾، إلى فرعون وهارون عطف بيان. ﴿رَدَّاهُ﴾ نصب على الحال والباء في قوله ﴿بِأَيِّنِّتَنَّا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها: أن يتعلق بيصلون.

والثاني: أن يتعلق بنجعل.

والثالث: أن يتعلق بقوله الغالبون.

● المعنى: ثم بين سبحانه تمام قصة موسى عليه السلام فقال: ﴿وَأَن آتَىٰ عَصَاكَ﴾ إنما أعاد سبحانه هذه القصة وكررها في السور تقريراً للحجة على أهل الكتاب، واستمالة بهم إلى الحق، ومن أحب شيئاً أحب ذكره، والقوم كانوا يدعون محبة موسى عليه السلام وكل من ادعى اتباع سيده مال إلى من ذكره بالفضل، على أن كل موضع من مواضع التكرار لا تخلو من زيادة فائدة، وههنا حذف تقديره: فألقاها من يده فانقلبت بإذن الله تعالى ثعباناً عظيماً تهتز كأنها جان في سرعة حركتها وشدة اهتزازها ﴿فَلَمَّا رَآهَا تُهَازِلُ﴾ أي: تتحرك ﴿كَأَنَّمَا جَاءُ وَلَّىٰ مُدِيرًا﴾ موسى ﴿وَلَزَّ يَعْقَبُ﴾ أي: لم يرجع إلى ذلك الموضع فنودي ﴿يَنُوحُوتُ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ من ضررها. وفي انقلاب العصا حية دلالة على أن الجواهر متماثلة وأنها من جنس واحد، لأنه لا حال أبعد إلى حال الحيوان من حال الخشب وما جرى مجرى ذلك من الجماد، فإذا صح قلب الخشب إلى حال الحيوان صح أيضاً قلب الأبيض إلى حال الأسود ﴿أَسْأَلُكَ بِدَاكِ فِي جَبِّكَ﴾ أي: أدخلها فيه ﴿فَخَرَجَ بِضَاءٍ مِّنْ غَيْرِ سَوَاءٍ﴾ أي: من غير برص ﴿وَأَضْمُتْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ أي: ضم يدك إلى صدرك من الخوف فلا خوف عليك، عن ابن عباس، ومجاهد، والمعنى: أن الله تعالى أمره أن يضم يده إلى صدره فيذهب ما أصابه من الخوف عند معاينة الحية، وقيل: أمره سبحانه بالعزم على ما أراده منه وحثه على الجد فيه، لئلا يمنعه الخوف الذي يغشاه في بعض الأحوال مما أمره بالمضي فيه، وليس يريد بقوله: ﴿وَأَضْمُتْ بِدَاكِ﴾ اضمم يدك الضم المزيل للفرجة بين الشيتين، عن أبي علي الفارسي، قال: وهذا كما أن اشد في قوله:

أشد حيازيمك للموت فإن الموت لا قيكا

ليس يراد به الشد الذي هو الربط، والمراد به: تأهب للموت واستعد للقائه حتى لا تهاب لقاءه ولا تجزع من وقوعه، وقد جاء ذكر اليمين في مواضع يراد بهما جملة ذي اليد، فمن ذلك قولهم: «لبيك والخير بين يديك»، ومنه قوله تعالى: ﴿يَمَّا قَدَّمْتُ يَدَاكَ﴾، وفي المثل: «يداك أوكتا وفوك نفخ»^(١)، وإنما يقال هذا عند تفريغ الجملة، وقال أبو عبيدة: جناحا الرجل يده، وقال غيره: الجناح هنا العضد، ويدل على قوله أن العضد قد تقام مقام الجملة في مثل قوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، وقد جاء المفرد ويراد به التثنية قال:

يداك يد إحداهما الجود كله وراحتك الأخرى طعان تغامره

(١) أوكى القرية: شدها بالوكاء.

سورة القصص

المعنى: يدان بدلالة قوله «إحدهما» فعلى هذا يجوز أن يراد بالإفراد في قوله ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ التثنية، وقيل: إنه لما ألقى العصا وصارت حية بسط يديه كالمتقي وهما جناحاه، ف قيل له: اضمم إليك جناحك أي: ما بسطته من يديك، والمعنى: لا تبسط يديك خوف الحية فإنك آمن من ضررها، ويجوز أن يكون معناه: اسكن ولا تخف فإن من هاله أمر أزعجه حتى كأنه يطيره، وآلة الطيران الجناح فكانه عليه السلام قد بلغ نهاية الخوف ف قيل له: ضم منشور جناحك من الخوف واسكن، وقيل: معناه: إذا هالك أمر يدك لما تبصر من شعاعها فاضممها إليك لتسكن ﴿فَلَا يَنْفَكُ بَرَهَانَيْنِ مِنْ رَبِّكَ﴾ معناه: فاليد والعصا حجتان من ربك على نبوتك ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: أرسلناك إلى فرعون وملئه بهاتين الآيتين الباهرتين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين من طاعة الله إلى أعظم المعاصي وهو الكفر ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي قُلْتُ إِنَّهُمْ نَفْسًا فَآخَأَ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ بتلك النفس ﴿وَأَخِي هَارُوتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وإنما قال ذلك لعقدة كانت في لسانه وقد مرَّ فيما مضى ذكر سببها، وقد كان الله تعالى أزال أكثرها أو جميعها بدعائه ﴿فَأَرْسَلْنَاهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي: معيناً لي على تبليغ رسالتك، يقال: فلان رده لفلان: إذا كان ينصره ويشد ظهره ﴿يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي: مصدقاً لي على ما أؤديه من الرسالة. وإن جزمته فالمعنى: أنك إن ترسله معي يصدقني، وإنما كان سؤاله ذلك بعد أن أذن له فيه لأن الإنسان لا يعلم أن المصلحة في إرسال نبي واحد أو اثنين إلا بالوحي، وقال مقاتل: معناه لكي يصدقني فرعون ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ هذه استعارة رائعة والمعنى: سنجعل رسولاً معك ونؤيدك بأن نقرنه إليك في النبوة وننصرك به ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي: حجة وقوة وبرهاناً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ أي: لا يصل فرعون وقومه إلى الإضرار بكما بسبب ما نعطيكم من الآيات وما يجري على أيديكم من المعجزات فيخافكما فرعون وقومه لأجلها. وقيل: إن قوله ﴿بِآيَاتِنَا﴾ موضعه التقديم أي: ونجعل لكما سلطاناً بآياتنا فلا يصلون إليكما. ثم أخبر أن الغلبة لهما عليهم فقال: ﴿أَتُنْمَا وَمِنْ أَتْبَعَكُمَا الْفَالِغُونَ﴾ على فرعون وقومه القاهرون لهم، وهذه الغلبة غير السلطان فإن السلطان بالحجة والغلبة بالقهر حين هلك فرعون وقومه وملك موسى وقومه ديارهم.

وروي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل قال: فلما رجع موسى عليه السلام إلى امرأته قالت: من أين جئتني؟ قال: من عند رب تلك النار قال: فغدا إلى فرعون فوالله لكأنني أنظر إليه طويل الباع ذو شعر آدم، عليه جبة من صوف، عصاه في كفه مربوط حقوه بشريط^(١)، نعله من جلد حمار شراكها من ليف، فقيل لفرعون: إن على الباب فتى يزعم أنه رسول رب العالمين فقال فرعون لصاحب الأسد: خل سلاسلها، وكان إذا غضب على رجل خلاها، فقطعته. فخلاها، ففرع موسى الباب الأول، وكانت تسعة أبواب، فلما قرع الباب الأول انفتحت له الأبواب التسعة فلما دخل جعلن تبصصن تحت رجله كأنهن جراء^(٢) فقال فرعون لجلسائه: أرايتم مثل هذا قط؟ فلما أقبل إليه أثبته فقال: «ألم نربك فينا وليداً» إلى قوله «وأنا من الضالين»،

(١) الحقو: الخصر. والشريط: خوص مفتول يشترط به السرير ونحوه.

(٢) بصبص الكلب: تحرك ذنبه. والجراء جمع الجرو: أولاد السباع.

فقال فرعون لرجل من أصحابه: قم فخذ بيده، وقال للآخر: اضرب عنقه، فضرب جبرائيل بالسيف حتى قتل ستة من أصحابه، فقال: خلوا عنه. قال: فأخرج يده فإذا هي بيضاء قد حال شعاعها بينه وبين وجهه، فألقى العصا فإذا هي حية، فالتقمت الإيوان بلحيها فدعاه أن يا موسى ألقني إلى غد ثم كان من أمره ما كان.



قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُون لَّهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْنِ فَاجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَهَانَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُونَ إِلَى التَّكَاثُرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير «قَالَ مُوسَى» بغير واو، وكذلك هو في مصاحف مكة، والباقون «وقال» بالواو، وقرأ نافع، وأهل الكوفة غير عاصم «من يكون» بالياء، والباقون بالتاء. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم ويعقوب «لا يرجعون» بفتح الياء والباقون بضم الياء، وفتح الجيم.

● **الحجة:** قال أبو علي: قد مضى القول في نحو هذا فيما قبل، وكذلك في نحو الياء والتاء من «يكون» وكلاهما حسن، وكذلك قد مضى فيما تقدم القول في يُرجعون ويرجعون.

● **اللغة:** الصرح: البناء العالي كالقصر، وأصله من الظهور، فالتصريح: شدة ظهور المعنى. قال الشاعر:

بِهِنَّ نَعَامٌ بَنَاهَا الرِّجَالُ تَخْسِبُ أَعْلَامُهُنَّ الصُّرُوحُ (١)

والنبذ: الإلقاء والطرح. والشيء منبوذ، قال أبو الأسود:

نَظَرْتُ إِلَى عُنوانِهِ فَنَبَذْتُهُ كَنَبْذِكَ نَعْلًا أَخْلَقْتَ مِنْ نَعَالِكَا

والقبج: الإبعاد، قبحه الله أي: أبعدته يقبحه قبحاً، ويقال: قبحه: إذا جعله قبيحاً وقيل: قبحه فهو مقبوح: أهلكه.

سورة القصص

● **الإعراب:** ﴿بَيَّنَّتْ﴾ نصب على الحال. ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ يحتمل أن تكون الباء زائدة ويحتمل أن تكون على أصلها، وقوله ﴿يَكْفُرُ الْحَقُّ﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال والتقدير: واستكبر هو وجنوده مبطلين، و﴿يَكْفُرُونَ﴾ صفة ﴿أَيُّمَهُ﴾ و﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ظرف لفعل يدل عليه قوله ﴿مِنَ الْمُقْبُوحِينَ﴾ على تقدير قبحوا يوم القيامة لأن الصلة لا تعمل فيما قبل الموصول، والألف واللام في ﴿الْمُقْبُوحِينَ﴾ موصول وتقديره: الذين قبحوا.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ التقدير: فمضى موسى ﷺ إلى فرعون وقومه، فلما جاءهم بآياتنا أي: بمختلف مفتعل لم يَبْنِ على أصل صحيح، لأنه حيلة توهم خلاف الحقيقة. فوصفوا الآيات بالسحر والاختلاق على هذا المعنى جهلاً منهم وذهاباً عن الصواب ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى﴾ أي: لم نسمع ما يدعيه ويدعو إليه في آبائنا الذين كانوا قبلنا، وإنما قالوا ذلك مع اشتهاار قصة نوح وهود وصالح وغيرهم من النبيين الذين دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته لأحد أمرين: إما للفترة التي دخلت بين الوقتين والزمان الطويل، وإما لأن آباهم ما صدقوا بشيء من ذلك ولا دانوا به، فيكون المعنى: ما سمعنا بآبائنا أنهم صدقوا الرسل فيما جاؤوا به، ووجه شبهتهم في ذلك أنهم قالوا: إنهم الكبراء. فلو كان حقاً لأدركوه فإنه لا يجوز أن يدرك الحق الأنقص في الرأي والعقل ولا يدركه الأفضل فيهما، وهذا غلط لأن ما طريقه الاستدلال لا يمتنع أن يصيبه الأدون في الرأي إذا سلك طريقه ولا يصيبه الأكمل في الرأي إذا لم يسلك طريقه ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ مجيباً لهم ﴿رَبِّ أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ وَمَن تَكُونُ لَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ ومعناه: ربي يعلم أي جئت بهذه الآيات الدالة على الهدى من عنده فهو شاهد لي على ذلك إن كذبتوني ويعلم أن العاقبة الحميدة لنا ولأهل الحق والإنصاف، وهذا كما يقال على سبيل المظاهرة: الله أعلم بالحق منا والمبطل، وحجتي ظاهرة فأكثرها إن قدرت على ذلك ﴿إِنَّهُ لَا يُلْقِي الْأَقْلَامُونَ﴾ أي: لا يفوز بالخير من ظلم نفسه وعصى ربه وكفر نعمه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ منكرأ لما أتى به موسى من آيات الله لما أعياه الجواب وعجز عن حاجته ﴿يَتَأْتِيَ الْمَلَأُ﴾ يريد أشرف قومه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَكُنْ عَلَى الْطِينِ﴾ أي: فأجج النار على الطين واتخذ الآجر، وقيل: إنه أول من اتخذ الآجر وبنى به، عن قتادة ﴿فَأَجْعَلْ لِّي صَرْحًا﴾ أي: قصرأ وبناء عالياً ﴿لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَيْكَ إِلَهَ مُوسَى﴾ أي: أصعد إليه وأشرف عليه وأقف على حاله، وهذا تلييس من فرعون وإيهام على العوام أن الذي يدعو إليه موسى، يجري مجراه في الحاجة إلى المكان والجهة ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ في ادعائه إلهاً غيري وأنه رسوله ﴿وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَخُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَكْفُرُ الْحَقُّ﴾ أي: رفع فرعون وجنوده أنفسهم في الأرض فوق مقدارها بالباطل والظلم وأنفوا وتعظموا عن قبول الحق في اتباع موسى ﴿وَوَلَّوْا أَنَّهُمْ إِنِّسًا لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: أنكروا البعث وشكوا فيه ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَخُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي: فعاقبناهم وطرحناهم في البحر وأهلكناهم بالغرق. وعن باليم: نيل مصر، وقيل: بحر من وراء مصر يقال له أساف غرقهم الله فيه ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: تفكر

وتدبر وانظر بعين قلبك كيف أخرجناهم من ديارهم وأغرقتهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ﴾ وهذا ما يحتاج إلى تأويل لأن ظاهره يوجب أنه تعالى جعلهم أئمة يدعون إلى النار كما جعل الأنبياء أئمة يدعون إلى الجنة، وهذا ما لا يقول به أحد، فالمعنى: أنه أخبر عن حالهم بذلك وحكم بأنهم كذلك، وقد تحصل الإضافة على هذا الوجه بالتعارف، ويجوز أن يكون أراد بذلك أنه لما أظهر حالهم على لسان أنبيائه حتى عرفوا فكانه جعلهم كذلك، ومعنى دعائهم إلى النار أنهم يدعون إلى الأفعال التي يستحق بها دخول النار من الكفر والمعاصي ﴿وَيَوْمَ أَلْقَيْنَا لَآ بُصُرُونَ﴾ أي: لا ينصر بعضهم لبعضي، ولا ينصرهم غيرهم يوم القيامة، كما كانوا يتناصرون في الدنيا ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَنَكْفَنَّ﴾ أي: أردفناهم لعنة بعد لعنة، وهي البعد عن الرحمة والخيرات، وقيل: معناه ألزمتهم اللعنة في هذه الدنيا بأن أمرنا المؤمنين بلعنهم فلعنوهم، عن أبي عبيدة ﴿وَيَوْمَ أَلْقَيْنَا هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: من المهلكين، عن الأخفش، وقيل: من المشوهين في الخلقة بسواد الوجوه وزرقة الأعين، عن الكلبي، عن ابن عباس، وقيل: من الممقوتين المفضوحين.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحِمَةً مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ مِّمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَكُنُوتَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفِيرٍ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَآتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة ﴿سِحْرَانِ﴾ بغير ألف، والباقون «ساحران» بالألف.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ «ساحران» أنه قال تظاهرا، والمظاهرة: المعاونة. وفي التنزيل ﴿وَأَن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾. والمعاونة في الحقيقة إنما تكون للساحرين لا

للسَّحَرِينَ. والوجه في قوله «سحران» أنه نسب المعاونة إلى السحرين على وجه الاتساع كأن كل سحر منهما يقوي الآخر.

● **الإعراب:** قال الزجاج: قوله ﴿بَصَايِرَ﴾ حال أي: آتيناها الكتاب مبيناً، وأقول فيه إنه بدل من الكتاب، فإن المعرفة يجوز أن تبدل منها النكرة، والبصائر في معنى الحجج، فلا يصح معنى الحال فيها إذا كان اسماً محضاً لا شائبة فيه للفعل، وقوله ﴿إِذْ فَضَيْنَا﴾ ظرف للمحذوف الذي يتعلق به الباء في قوله ﴿بِحَايِبِ الْغَرْبِيِّ﴾، و﴿تَنَلُّوا﴾ جملة منصوبة الموضع على الحال، ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً﴾: ﴿رَحْمَةً﴾ منصوبة مفعول لها تقديره: ولكننا أوحينا إليك رحمة أي: للرحمة، كما تقول فعلت ذلك ابتغاء الخير. ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾، لولا هذه هي التي معناها امتناع الشيء لوجود غيره، و﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ﴾ مبتدأ وجواب لولا محذوف وتقديره لم يحتج إلى إرسال الرسل، «ولولا» الثانية في قوله ﴿فَقِيلُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ هي التي معناها التحضيض بمعنى هلا ﴿يَغْتَرِ هُدًى﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه من أخبار موسى عليه السلام ما فيه دلالة على معجزة نبينا ﷺ فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ أي: الجموع التي كانت قبله من الكفار مثل قوم نوح وعاد وثمود، ويجوز أن يريد بالقرون قوم فرعون لأنه سبحانه أعطاه التوراة بعد إهلاكهم بمدة ﴿بَصَايِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: حججاً وبراهين للناس وعبراً يبصرون بها أمر دينهم، وأدلة يستدلون بها في أحكام شريعتهم ﴿وَهُدًى﴾ أي: دلالة لمن اتبعه يهتدي بها ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون ويعتبرون. وجاءت الرواية بالإسناد عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض، غير أهل القرية التي مسحوا قردة، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ الآية ﴿وَمَا كُنْتَ بِحَايِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ أي: وما كنت يا محمد حاضراً بجانب الجبل الغربي أي: في الجانب الغربي من الجبل الذي كلم الله فيه موسى، عن قتادة، والسدي. وقيل: بجانب الوادي الغربي، عن ابن عباس، والكلبي ﴿إِذْ فَضَيْنَا إِلَيْكَ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ أي: عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه، وقيل: معناه أخبرناه بأمرنا ونهينا، وقيل: أراد كلامه معه في وصف نبينا ﷺ ونبوته ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: الحاضرين لذلك الأمر، وبذلك المكان فتخبر قومك عن مشاهدة وعيان، ولكننا أخبرناك به ليكون معجزة لك ﴿وَلَكِنَّا أَشْنَاءُ قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ﴾ أي: خلقنا قرناً بعد قرن، فطال عهدهم بالمهلكين قبلهم وفترة النبوة، فحملهم ذلك على الاغترار، وأنكروا بعثة الله رسله لجهلهم بأمر الرسل فأرسلناك للناس رسولاً، وجعلناك رحمة للناس كما جعلنا موسى عليه السلام رحمة. لا يتم الكلام إلا بهذا التقدير، وقيل: إن المعنى: خلقنا خلقاً كثيراً عهدنا إليهم في نعتك وصفتك وأمرنا الأول بالإبلاغ للناس إلى الثاني فامتد بهم الزمان فنسوا عهدنا إليهم فيك ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَنَلُّوا عَلَيْهِمْ أَيْدِيَنَا﴾ معناه: وما كنت مقيماً في قوم شعيب، تنلر عليهم آياتنا. قال مقاتل: معناه ولم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي:

أرسلناك إلى أهل مكة وأنزلنا عليك هذه الأخبار، ولولا ذلك لما علمتها، قال الزجاج: المعنى أنك لم تشاهد قصص الأنبياء ولا تليت ولكننا أوحيناها إليك وقصصناها عليك حتى تخبر قومك بهذا، فيدل ذلك على صحة نبوتك، وقيل: معناه أنك لم تشهد إحساننا إلى عبادنا في إرسال الرسل ونصب الآيات وإنزال الكتب بالبينات والهدى، وهذا كما يقال: لم تدر أي شيء كان هناك، تفخيماً للأمر. ولولا الوحي لما علمت من ذلك ما علمت ولم تهتد له ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: ولم تك حاضراً بناحية الجبل الذي كلمنا عليه موسى ونادينا: يا موسى خذ الكتاب بقوة، وقيل: أراد بذلك المرة الثانية التي كلم الله فيها موسى ﷺ حين اختار من قومه سبعين رجلاً ليسمعوا كلام الله تعالى ﴿وَلَكِنْ رَّعِمَهُ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: ولكن الله تعالى أعلمك ذلك وعرفك إياه نعمة من ربك أنعم بها عليك، وهو أن بعثك نبياً واختارك لإيتاء العلم بذلك معجزة لك ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: لتنذر العرب الذين لم يأتهم رسول قبلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي يتفكروا ويعتبروا وينزعوا عن المعاصي، وفي هذا دلالة عن وجوب فعل اللطف، فإن الإنذار والدعوة لطف من الله تعالى مؤثر في القبول ومقرب منه ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤) معناه: ﴿لَوْلَا﴾ لولا أن لهم أن يحتجوا لو أصابتهم عقوبة بأن يقولوا: هلا أرسلت إلينا رسولا يدعونا إلى ما يجب الإيمان به فنتبع الرسول ونأخذ بشريعته ونصدق به، لما أرسلنا الرسل ولكننا أرسلنا رسلاً لقطع حجتهم، وهو في معنى قوله: ﴿لَوْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، وقيل: إن جواب لولا ههنا «لعلنا لهم العقوبة»، وقيل: المراد بالمصيبة ههنا عذاب الاستئصال، وقيل: عذاب الدنيا والآخرة عن أبي مسلم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي محمد ﷺ والقرآن والإسلام ﴿قَالُوا لَوْلَا أُرْسِلَ إِلَيْنَا رَسُولٌ مِنْ رَبِّنَا يُبَيِّنُ لَنَا الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: هلا أعطى محمد ﷺ ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من فلق البحر واليد البيضاء والعصا، وقيل: معناه هلا أوتي كتاباً جملة واحدة وإنما قاله اليهود أو قريش بتعليم اليهود فاحتج الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ﴾ أي: وقد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد ﷺ ﴿وَقَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ يعنون التوراة والقرآن، عن عكرمة، والكلبي، ومقاتل، ومن قرأ «ساحران تظاهرا» فمعناه: أنهم قالوا تظاهر موسى ومحمد ﷺ، عن ابن عباس ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُمْ لَكَافِرُونَ﴾ من التوراة والقرآن. قال الكلبي: وكانت مقالاتهم هذه حين بعثوا الرهط منهم إلى رؤوس اليهود بالمدينة في عيد لهم، فسألهم عن محمد ﷺ، فأخبروهم بنعته وصفته في كتابهم التوراة. فرجع الرهط إلى قريش، فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: سحران تظاهرا ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٥) معناه: قل يا محمد لكفار قومك: فأتوا بكتاب هو أهدى من التوراة والقرآن حتى أتبعه إن صدقتم أن التوراة والقرآن سحران، وقيل: معناه فأتوا بكتاب من عند الله يؤمن معه التكذيب أي: لم يكذب به طائفة من الناس، ثم قال لنبى ﷺ: ﴿فَإِنْ لَرَّ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي: فإن لم يأتوا بمثل التوراة والقرآن. وقيل: فإن لم يستجيبوا لك إلى الإيمان مع ظهور الحق ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُعْمِلُكُمْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: ما تميل إليه طباعهم لأن الهوى ميل الطبع إلى المشتى قال الزجاج: أي فاعلم

أَنَّمَا رَكِبُوهُ مِنَ الْكُفْرِ لَا حِجَّةَ لَهُمْ فِيهِ وَإِنَّمَا آثَرُوا فِيهِ الْهَوَىٰ ثُمَّ ذَمَّهُمْ فَقَالَ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أَي: لَا أَحَدٌ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ رِشَادٍ وَلَا بَيَانٍ جَاءَهُ مِنَ اللَّهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰلِئِينَ﴾ إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَا يَحْكُمُ اللَّهُ بِهَدَايَتِهِمْ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَهْتَدُوا بِهَدْيِ اللَّهِ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَهْدِهِمْ.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنَالُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أَوَلَيْكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِيَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٥٥﴾.

● **اللغة:** أصل التوصيل: من وصل الجبال بعضها ببعض. قال امرؤ القيس:

دَرِيرٌ كَخُذْرُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرُهُ تَتَابَعُ كَفَيْهِ بِخِيطٍ مُّوَصَّلٍ^(١)

أَي: مَوْصُولٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَهُوَ فِي الْكَلَامِ أَنْ يَصِيرَ بَعْضُهُ يَلِي بَعْضًا، وَالْدَّرُءُ: الدَّفْعُ.

النزول: نَزَلَ قَوْلُهُ ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وَمَا بَعْدَهُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَتَمِيمِ الدَّارِيِّ، وَالْجَارُودِ الْعَبْدِيِّ، وَسُلَيْمَانَ الْفَارْسِيِّ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا أَسْلَمُوا نَزَلَتْ فِيهِمُ الْآيَاتُ، عَنْ قَتَادَةَ، وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْإِنْجِيلِ كَانُوا مُسْلِمِينَ بِالنَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ مَبْعَاثِهِ: اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ مِنَ الْحَبَشَةِ، أَقْبَلُوا مَعَ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ وَقَدْ قَدِمُوا، وَثَمَانِيَةٌ قَدِمُوا مِنَ الشَّامِ، مِنْهُمْ بِحِيرَا وَأَبْرَهَةَ وَالْأَشْرَفُ وَعَامِرُ وَأَيْمَنُ وَإِدْرِيسُ وَنَافِعُ وَتَمِيمُ.

● **المعنى:** ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ صِفَةَ الْقُرْآنِ فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أَي: فَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ وَبَيَّنَّا، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمَعْنَاهُ: أَتَيْنَا بآيَةٍ بَعْدَ آيَةٍ وَبَيَانٍ بَعْدَ بَيَانٍ وَأَخْبَرْنَاهُمْ بِأَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُهَلِكِينَ مِنْ أُمَمِهِمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَي: لِيَتَذَكَّرُوا وَيَتَفَكَّرُوا فَيَعْلَمُوا الْحَقَّ وَيَتَعَذَّوْا ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿هُمْ بِهِ﴾ أَي: بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا نَعْتَهُ فِي التَّوْرَةِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ وَهُمْ بِالْقُرْآنِ يَصْدُقُونَ، وَالْمُرَادُ بِالْكِتَابِ: التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ يَعْنِي الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ﴿وَإِذَا يُنَالُ﴾ الْقُرْآنُ ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ نَزْوِلِهِ ﴿مُسْلِمِينَ﴾ بِهِ وَذَلِكَ أَنْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ

(١) هَذَا بَيْتٌ مِنْ مَعْلَقَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ. يَصِفُ فَرَسَهُ، وَشِدَّةَ عَدُوِّهِ، وَمَهَارَتَهُ فِي الْجَرِيِّ. وَالْدَرِيرُ: السَّرِيعُ مِنَ الدَّوَابِّ. وَالْخُذْرُوفُ: شَيْءٌ مُسْتَدِيرٌ يَدِيرُهُ الصَّبِيانُ بِخِيطٍ أَدْخَلَ فِي ثَقْبِهِ، وَقَتْلُ. وَالْوَلِيدُ: الصَّبِيُّ. وَالْإِمْرَارُ: إِحْكَامُ الْقَتْلِ. شَبَّ شِدَّةَ عَدُوِّهِ بِإِدَارَةِ خُذْرُوفٍ أَحْكَمَ الصَّبِيِّ قَتْلَ خِيطِهِ، وَتَتَابَعَتْ كَفَاهُ فِي قَتْلِهِ وَإِدَارَتِهِ بِخِيطٍ انْقَطَعَ، ثُمَّ وَصَلَ، وَذَلِكَ أَشَدُّ لِدَوْرَانِهِ. يَقُولُ: يَدِيرُ الْجَرِيَّ وَالْعَدُوَّ، وَيَسْرِعُ فِيهِمَا كإِسْرَاعِ هَذَا الْخُذْرُوفِ.

والقرآن كان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل فهؤلاء لما يعاندوا، ثم أثنى الله سبحانه عليهم فقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ مرة يتمسكهم بدينهم حتى أدركوا محمداً ﷺ فآمنوا به ومر بإيمانهم به، وقيل: بما صبروا على الكتاب الأول وعلى الكتاب الثاني وإيمانهم بما فيهما، عن قتادة، وقيل: بما صبروا على دينهم وعلى أذى الكفار وتحمل المشاق ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالحسن من الكلام القبيح الذي يسمعون من الكفار، وقيل: يدفعون بالمعروف المنكر، عن سعيد بن جبير، وقيل يدفعون بالحلم جهل الجاهل، عن يحيى بن سلام، ومعناه: يدفعون بالمدارة مع الناس أذاهم عن أنفسهم، وروي مثل ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ مرّ معناه ﴿وَإِذَا سَأَلُواكَ الْفَقْرَ﴾ أي: السفة من الناس والقبيح من القول والهزء الذي لا فائدة فيه ﴿أَعْرِضْ عَنْهُ﴾ ولم يقابلوه بمثله ﴿وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي: لا نسأل نحن عن أعمالكم ولا تسألون عن أعمالنا بل كل منا يجازي على عمله، وقيل: معناه لنا ديننا ولكم دينكم، وقيل: لنا حلمنا ولكم سفهكم ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: أمان منا لكم أن نقابل لغوكم بمثله، وقيل: هي كلمة حلم واحتمال بين المؤمنين والكافرين، وقيل: هي كلمة تحية بين المؤمنين، عن الحسن ﴿يَنْتَعِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي: لا نطلب مجالستهم ومعاونتهم، وإنما نبتغي الحكماء والعلماء، وقيل: معناه لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفة، عن مقاتل، وقيل: لا نبتغي دين الجاهلين ولا نحبه، عن الكلبي.



قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِنْ نَبِّعْ آلِهَتِي مَعَكَ تَنخَطِفَ مِنْ أَزْوَاجٍ أُولَمَ تُمْكِنَ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تُشْكِنْ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّاها وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة، ويعقوب، وسهل «تجى» بالتاء، والباقون بالياء. وقرأ أبو عمرو ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ بالياء وبالتاء كيف شئت، والباقون بالتاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: تأنيث ﴿ثَمَرَاتُ﴾ تأنيث جمع وليس بتأنيث حقيقي، فيكون بمنزلة الوعظ والموعظة، والصوت والصيحة إذا ذكرت جاز وإذا أنثت جاز، وحجة من قرأ ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ بالتاء قوله ﴿مَا أُوتِيتُمْ﴾، والياء على ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يا محمد.

● **اللغة:** التخطف: أخذ الشيء على وجه الاستلاب من كل وجه، يقال: تخطفه تخطفاً واختطفه اختطافاً، وخطفه يخطفه خطفاً، قال امرؤ القيس:

تَخَطَّفُ خِزَّانَ الْأُنْيَعِمِ بِالضُّحَى وَقَدْ حَجَرَتْ مِنْهَا ثَعَالِبُ أَوْرَالِ^(١)

يجبي: من جبيت الماء في الحوض أي: جمعته، والجابية: الحوض، والبطر: الطغيان عند النعمة، قال ابن الأعرابي: البطر سوء احتمال الغنى، وقيل: إن أصله من قولهم: ذهب دمه بطراً أي: باطلاً، عن الكسائي، وقيل: هو أن يتكبر عند الحق فلا يقبله.

● الإعراب: ﴿رَزَقًا﴾ مصدر وضع موضع الحال، تقديره «يجبى إليه بثمرات» كل شيء من رزقه، ويجوز أن يكون مصدر فعل محذوف تقديره: نرزق رزقاً، ويجوز أن يكون مصدراً من معنى قوله يجبى إليه ثمرات، لأنه في معنى رزق فيكون مثل قولهم: حمدته شكراً، ويجوز أن يكون مفعولاً له. وقوله من ﴿لَدُنَّا﴾ في موضع نصب على الصفة لقوله ﴿رَزَقًا﴾، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: كثيراً من القرى أهلكتنا. فكم: في موضع نصب بأهلكتنا و﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ في موضع نصب على التمييز لأن كم الخبرية إذا فصل بينها وبين مميزها بكلام نصب كما ينصب كم الاستفهامية، ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ انتصب بقوله ﴿بَطَرَتْ﴾ وتقديره في معيشتها فحذف الجار فأفضى الفعل، ﴿فَإِنَّكَ مَسْكُونُهُمْ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿لَمْ تُشْكِرْ﴾ في موضع نصب على الحال والعامل فيه معنى الإشارة في تلك، ﴿قَلِيلًا﴾ صفة مصدر محذوف تقديره: إلا سكوناً قليلاً أو صفة ظرف تقديره وقتاً أو زمناً قليلاً.

● النزول: قيل: نزل قوله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ في أبي طالب، فإن النبي ﷺ كان يحب إسلامه، فنزلت هذه الآية، وكان يكره إسلام وحشي قاتل حمزة فنزل فيه ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ الآية. فلم يسلم أبو طالب وأسلم وحشي، ورووا ذلك عن ابن عباس وغيره.

وفي هذا نظر كما ترى فإن النبي ﷺ لا يجوز أن يخالف الله سبحانه في إرادته كما لا يجوز أن يخالفه في أوامره ونواهيه، وإذا كان الله تعالى على ما زعم القوم لم يرد إيمان أبي طالب، وأراد كفره، وأراد النبي ﷺ إيمانه، فقد حصل غاية الخلاف بين إرادتي رسول الله ﷺ والمرسل، فكأنه سبحانه يقول على مقتضى اعتقادهم: إنك يا محمد تريد إيمانه ولا أريد إيمانه ولا أخلق فيه الإيمان مع تكلفه بنصرتك وبذل مجهوده في إعانتك والذب عنك ومحبه لك ونعمته عليك، وتكره أنت إيمان وحشي لقتله عمك حمزة، وأنا أريد إيمانه وأخلق في قلبه الإيمان وفي هذا ما فيه. وقد ذكرنا في سورة الأنعام أن أهل البيت ﷺ قد أجمعوا على أن أبا طالب مات مسلماً، وتظاهرت الروايات بذلك عنهم، وأوردنا هناك طرفاً من أشعاره الدالة على تصديقه النبي ﷺ وتوحيده. فإن استيفاء ذلك جميعه لا تتسع له الطوامير، وما

(١) يصف فرسه. وقبل البيت قوله: «كأنني بفتحاء الجناحين لقوه * صيود من العقيان طأطأت شمالاً» شبهه بعقاب تخطف الأرناب والثعالب. وتخطف: أصله تتخطف، فحذف إحدى التائين. والخزان: ذكور الأرناب. والأنيم: موضع. وفي بعض الروايات «خزان الشربة» وهو اسم موضع أيضاً. وأورال: أجبل ثلاثة سود في جوف الرمل. بحذاء ماء لبني دارم، وكان يسكنها قوم من العرب.

روي من ذلك في كتب المغازي وغيرها أكثر من أن يحصى، يكشف فيها من كاشف النبي ﷺ ويناضل عنه ويصح نبوته. وقال بعض الثقات: إن قصائده في هذا المعنى، التي تنفت في عُقد السحر وتُغَبَّرُ في وجه شعراء الدهر يبلغ قدر مجلد وأكثر من هذا. ولا شك في أنه لم يختر تمام مجاهرة الأعداء استصلاحاً لهم وحسن تدبير في دفع كيدهم لئلا يلجنوا الرسول إلى ما ألجأوه إليه بعد موته.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر الرسول والقرآن، وأنه أنزل هدىً للخلق، بين سبحانه أنه ليس عليه الاهتداء وإنما عليه البلاغ والأداء، فقال: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته، وقيل: من أحببته لقربته والمراد بالهداية هنا: اللطف الذي يختار عنده الإيمان، فإنه لا يقدر عليه إلا الله تعالى، لأنه إما أن يكون من فعله خاصة أو بإعلامه، ولا يعلم ما يصلح المرء في دينه إلا الله تعالى، فإن الهداية التي هي الدعوة والبيان قد أضافها سبحانه إليه في قوله: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وقيل: إن المراد بالهداية في الآية: الإجماع على الاهتداء أي: أنت لا تقدر على ذلك. وقيل: معناه ليس عليك اهتداؤهم وقبولهم الحق ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بلطفه وقيل: على وجه الإجماع ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: القابلين للهدى فيدبر الأمور على ما يعلمه من صلاح العباد. ثم قال سبحانه حاكياً عن الكفار: ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعَ أَهْدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أََرْضِنَا﴾ أي: نستلب من أرضنا، يعني أرض مكة والحرم، وقيل: إنما قاله الحرث بن نوفل بن عبد مناف فإنه قال للنبي ﷺ: إنا لنعلم أن قولك حق ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا ولا طاقة لنا بالعرب، فقال سبحانه راداً عليه هذا القول ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ أي: أو لم نجعل لهم مكة في أمن وأمان قبل هذا ودفعتنا ضرر الناس عنهم حتى كانوا يأمنون فيه؟ فكيف يخافون زواله الآن، أفلا تقدر على دفع ضرر الناس عنهم لو آمنوا، بل حالة الإيمان والطاعة أولى بالأمن والسلامة من حالة الكفر ﴿يَجُوجُ إِلَيْهِ شَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي: تجمع إليه ثمرات كل أرض وبلد ﴿وَرِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ أي: إعطاء من عندنا جارياً عليهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما أنعمنا به عليهم، وقيل: لا يعلمون الله ولا يعبدونه فيعلموا ما يفوتهم من الثواب ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أي: من أهل قرية ﴿بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: في معيشتها بأن أعرضت عن الشكر وتكبرت، والمعنى: أعطيناهم المعيشة الواسعة فلم يعرفوا حق النعمة وكفروا فأهلكناهم ﴿فَإِنَّكَ مَسْكُونُهُمْ لَّوْ تَشْكُرُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تلك إشارة إلى ما يعرفونه هم من ديار عاد وثمود وقوم لوط، أي: صارت مساكنهم خاوية خالية عن أهلها وهي قريبة منكم، فإن ديار عاد إنما كانت بالأحقاف وهو موضع بين اليمن والشام، وديار ثمود بوادي القرى، وديار قوم لوط بسدوم، وكانوا هم يمرؤون بهذه المواضع في تجارتهم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: المالكين لديارهم لم يخلفهم أحد فيها، ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمْنَاهَا رَسُولًا﴾ قيل: إن معنى أمها أم القرى وهي مكة، وقيل: يريد معظم القرى من سائر الدنيا ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ أي: يقرأ عليهم حججنا وبيناتنا ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَعْلَاهَا ظُلُمَاتٌ﴾ لنفوسهم بالكفر والطغيان والعتو والعصيان، ثم خاطب سبحانه خلقه فقال: ﴿وَمَا أُرْسِلُ مِنْ

شَيْءٍ أَي: وما أعطيتموه من شيء ﴿فَمَتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا﴾ أَي: هو شيء تتمتعون به في الحياة وتزينون به ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب ونعيم الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ من هذه النعم ﴿وَأَبْقَى﴾ لأنها فانية ونعم الآخرة باقية ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذلك وتفكرون فيه حتى تميزوا بين الباقي والفاني.



قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (١١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿١٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾ فَجِئْتُمْ عَلَيْهِمُ الْآبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٦﴾

● **اللغة:** المتعة: المنفعة، وقد فُرقَ بينهما بأن المتعة منفعة توجب الالتذاذ في الحال، والمنفعة قد تكون بألم تؤدي عاقبتها إلى نفع. فكل متعة منفعة، وليس كل منفعة متعة. والإحضار: إيجاد ما به يكون الشيء بحيث يشاهد. والزعم: القول في الأمر على ظن أو علم ولذلك دخل في باب علمت وأخواته، قال:

فإن تزعميني كُنتُ أَجْهَلَ فيكم فإنني شَرَنْتُ الْجِلْمَ عِنْدَكَ بِالْجَهْلِ

● **النزول:** نزل قوله ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ﴾ الآية في رسول الله ﷺ وأبي جهل، وقيل: نزل في حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب ؓ وفي أبي جهل، عن محمد بن كعب، والسدي، وقيل: نزل في عمار وفي الوليد بن المغيرة، والأولى أن يكون عاماً فيمن يكون بهذه الصفة.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر ما أوتوا من زينة الحياة الدنيا عقبه سبحانه بالفرق بين من أوتي نعيم الدنيا وبين من أوتي نعيم الآخرة، فقال: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ من ثواب الجنة ونعيمها جزاء على طاعته ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ أَي: فهو واصل إليه ومدركه لا محالة ﴿كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ من الأموال وغيرها ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للجزاء والعقاب، وقيل: من المحضرين في النار. والمعنى: أيكون حال هذا كحال ذاك، أَي: لا يكون حالهما سواء لأن نعم الدنيا مشوبة بالغموم وتعرض الزوال والفناء، ونعم الآخرة خالصة صافية دائمة لا تتكرر بالشوب ولا تنتقص بالانقضاء ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أَي: واذكر يوم ينادي الله الكفار وهو يوم القيامة. وهذا نداء تقريع وتبكيت ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أَي: كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركاء في الإلهية وتعبدونهم وتدعون أنهم ينفعونكم ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أَي: حق عليهم الوعيد بالعذاب من الجن والشياطين والذين أغوا الخلق من الإنس ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ يعنون أتباعهم ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أَي: أضللناهم عن الدين بدعائنا إياهم إلى الضلال

كما ضللنا نحن بأنفسنا ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم ومن أفعالهم، قال الزجاج: برىء بعضهم من بعض، وصاروا أعداء، كما قال سبحانه: ﴿الْأَخْلَآءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾. ﴿مَا كَانُوا إِيَّاكَ يَعْبُدُونَ﴾ أي: لم يكونوا يعبدوننا بل كانوا يعبدون الشياطين الذين زينوا لهم عبادتنا، وقيل: معناه لم يعبدونا باستحقاق وحجة ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي: ويقال للاتباع: ادعوا الذين عبدتموهم من دون الله وزعمتم أنهم شركائي لينصروكم ويدفعوا عنكم عذاب الله، وإنما أضاف الشركاء إليهم لأنه لا يجوز أن يكون لله شريك ولكنهم كانوا يزعمون أنهم شركاء الله بعبادتهم إياهم ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي: فیدعونهم فلا يجیبونهم إلى ملتسمهم ﴿وَرَأَوْا أَلْعَذَابَ﴾ أي: ويرون العذاب ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ جواب لو محذوف تقديره: لو أنهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب أي: لاعتقدوا أن العذاب حق، وهذا القول أولى لدلالة الكلام على المحذوف ﴿وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٥﴾ أي: ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين، وهذا سؤال تقرير بالذنب، وهو نداء يجمع العلم والعمل معاً، فإن الرسل يدعون إلى العلم والعمل جميعاً فكانه قيل لهم: ماذا علمتم؟ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: فخفيت واشتبهت عليهم طرق الجواب يومئذ فصاروا كالعمي لانسداد طرق الأخبار عليهم، كما تنسد طرق الأرض على العمي، وقيل: معناه فالتبس عليهم الحجج، عن مجاهد. وسميت حججهم أنباء لأنها أخبار يخبر بها فهم لا يحتجون ولا ينطقون بحجة، لأن الله تعالى أدهض حجتهم وأكل السنتهم فسكتوا. فذلك قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَسْأَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً عن الحجج، وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً عن العذر الذي يعتذر به في الجواب فلا يجيبون، وقيل: معناه لا يتساءلون بالأنساب والقرابة كما في الدنيا، وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله لشغله بنفسه، عن الجبائي، وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل ذنوبه عنه، عن الحسن.



قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّيْنَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُغْلِقِينَ﴾ ﴿١٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٠﴾.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه التائبين ورغب في التوبة بعد التخويف، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ أي: رجع عن المعاصي والكفر ﴿وآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: وأضاف إلى إيمانه الأعمال الصالحة ﴿فَغَسَّيْنَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُغْلِقِينَ﴾ وإنما أتى بلفظة «عسى» مع أنه مقطوع بفلاحه لأنه على رجاء أن يدوم على ذلك فيفلح، وقد يجوز أن يزل فيما بعد فيهلك، على أنه قد قيل: إن «عسى» من الله سبحانه لفظة وجوب في جميع القرآن، ولما كان المفلح مختار الله تعالى ذكر عقبيه أن الاختيار إلى الله تعالى والخلق والحكم له لكونه قادراً عالماً على الكمال فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ الخيرة: اسم من الاختيار أقيم مقام

المصدر، والخيرة: اسم للمختار أيضاً يقال: محمد ﷺ خيرة الله من خلقه، ويجوز التخفيف فيهما، واختلف في الآية وتقديرها على قولين:

أحدهما: أن معناه: وربك يخلق ما يشاء من الخلق، ويختار تدبير عباده علي ما هو الأصلح لهم، ويختار للرسالة ما هو الأصلح لعباده. ثم قال: ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخَيْرَةُ﴾ أي: ليس لهم الاختيار على الله بل الله الخيرة عليهم، وعلى هذا تكون «ما» نفيًا، ويكون الوقف على قوله ﴿وَيَحْتَكِرُ﴾، وفيه رد على المشركين الذين قالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، فاخترأوا الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف.

والآخر: أن يكون «ما» في الآية بمعنى الذي أي: ويختار الذي كان لهم الخيرة. فيكون الوقف على هذا عند قوله ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخَيْرَةُ﴾، وهذا أيضاً في معنى الأول لأن حقيقة المعنى فيهما أنه سبحانه يختار وإليه الاختيار ليس لمن دونه الاختيار، لأن الاختيار يجب أن يكون على العلم بأحوال المختار، ولا يعلم غيره سبحانه جميع أحوال المختار، ولأن الاختيار هو أخذ الخير، وكيف يأخذ الخير من الأشياء من لا يعلم الخير فيها ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَكَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه عن أن يكون له شريك في خلقه واختياره، ثم أقام سبحانه البرهان على صحة اختياره بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٦٩) أي: وربك يعلم ما يخفونه وما يظهرونه، فإليه الاختيار، وفي هذا دلالة على أن من لا يعلم السر والجهر فلا اختيار إليه ثم أكد سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا يستحق العبادة سواه ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ أي: له الثناء والمدح والتعظيم على ما أنعم به على خلقه في الدنيا والعقبى ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ بينهم بما يميز به الحق من الباطل. قال ابن عباس: يحكم لأهل طاعته بالمغفرة والفضل، ولأهل معصيته بالشقاء والويل ﴿وَالِإِيَّاهُ﴾ أي: وإلى جزائه وحكمه ﴿تَرْجِعُونَ﴾.



قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) وَمَنْ رَحِمْتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) وَيَوْمَ يُبَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعِلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٥).

● المعنى: ثم بين سبحانه ما يدل على توحيده فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل مكة الذين عبدوا معي آلهة تنبهاً لهم على خطئهم ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾

أي: دائماً ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْكَةِ﴾ لا يكون معه نهار ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ كضياء النهار تبصرون فيه فإنهم لا يقدرّون على الجواب عن ذلك إلا بأنه لا يقدر على ذلك سوى الله، فحينئذٍ تلزمهم الحجة بأنه لا يستحق العبادة غيره ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ أي: أفلا تقبلون ما وعظمت به، وقيل: أفلا تسمعون ما بيّنه الله لكم من أدلته وتفكرون فيه ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ أي: دائماً ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْكَةِ﴾ لا يكون معه ليل ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستريحون فيه من الحركة والنصب، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفلا تعلمون من البصيرة وقيل: أفلا تشاهدون الليل والنهار وتدبرون فيهما فتعلموا أنهما من صنع مدبر حكيم، ثم قال: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: ومن نعمته عليكم وإحسانه إليكم أن جعل لكم الليل والنهار ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعم الله في تصريف الليل والنهار وفي سائر أنواع النعم ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ مضى تفسيره، فإنما كرّر النداء للمشركين بـ ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ تقريراً لهم بعد تقرير، وقيل: لأن النداء الأول لتقرير إقرارهم على أنفسهم بالغي الذي كانوا عليه ودعوا إليه. والثاني للتعجيز عن إقامة البرهان على ما طولبوا به بحضرة الأشهاد ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: وأخرجنا من كل أمة من الأمم رسولها الذي يشهد عليهم التبليغ، وبما كان منهم، عن مجاهد، وقتادة. وقيل: هم عدول الآخرة ولا يخلو كل زمان منهم يشهدون على الناس بما عملوا ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حججكم على صحة ما ذهبتُم إليه ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: فبهتوا وتحيروا لما لم يكن لهم حجة يقيمونها، وعلموا يقيناً أن الحق ما أنتم عليه وما أنزله الله وأن الحجة لله ولرسوله فلزمتهم الحجة لأن المشهود عليه إذا لم يأت بمخلص من بينة الخصم توجهت القضية عليه ولزمه الحكم ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: ذهب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب وبطل ما عبده من دون الله تعالى.

● **النظم:** إنما اتصلت هذه الآيات بما قبلها: بأنه جرى ذكر معبودي الكفار، وأنهم لم يغنوا من الله شيئاً، فعقبه سبحانه بأن وصف نفسه بأنه المنعم المالك للنع والضر، وقيل: لما تقدم أن الحمد لله سبحانه في الدارين ذكر عقيب ما يوجب الحمد من النعم السابقة، وقيل: يتصل بقوله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: ويختار لعباده ما هو الأصح لهم والأففع.



قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرُونَكُمْ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآيَيْنَاهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنْ مَفَاحَهُ لَنُؤَا بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِينَ ﴿٧٧﴾﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ

مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾
 فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُورُونُ إِنَّهُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَافُ لَكُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾.

● **القراءة:** قرأ حفص، عن عاصم، ويعقوب، وسهل «لخسف» بفتح الخاء والسين، وهو قراءة الحسن، والأعرج، وشيبة، ومجاهد، والباقون «لخسف» بضم الخاء وكسر السين، وقرأ يعقوب «وَيْكَ» ، يقف عليها ثم يبتدىء فيقول: «أنه».

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ «لَخَسَفَ بِنَا» بفتح الخاء فلتقدم ذكر الله تعالى. ومن قرأ بضم الخاء فبنى الفعل للمفعول به، فإنه يؤول إلى الأول في المعنى، وقال ابن جني في «وَيْكَانَهُ» ثلاثة أقوال: منهم من جعلها كلمة واحدة فلم يقف على «وَيْ» ، ومنهم من وقف على «وَيْ» ، ومنهم من قال: «ويك» ، وهو مذهب أبي الحسن. والوجه فيه عندنا هو قول الخليل وسيبويه وهو أن «وَيْ» اسم سمي به الفعل في الخبر فكأنه اسم «أعجب». ثم ابتداء فقال «وَيْكَانَهُ» لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ ، «وَيْكَانَهُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ﴿٨٣﴾» ، فوي: منفصلة من كان، وعليه بيت الكتاب:

سَأَلْتَانِي الطَّلَاقَ إِنْ رَأَتَانِي قُلَّ مَالِي قَدْ جِئْتُمَانِي بِشُكْرِ
 وَئِي كَأَنَّ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يَحِبُّ بَ وَمَنْ يَفْتَقِرُ يَعْشُ عَيْشَ ضُرٍّ^(١)

ومما جاءت فيه «كأن» عارية من معنى التشبيه ما أنشده أبو علي:

كَأَنَّنِي حِينَ أَمْسِي لَا تَكَلَّمْنِي مَتِيْمٌ يَشْتَهِي مَا لَيْسَ مَوْجُودًا^(٢)

أي: أنا حين أمسي متيم من حالي كذا، ومن قال: إنها «ويك» فكأنه قال أعجب لأنه «لا يفلح الكافرون». وأعجب لأن الله يبسط الرزق، وهو قول أبي الحسن، وينبغي أن يكون الكاف هنا حرف خطاب بمنزلة الكاف في ذلك وأولئك، ويشهد لهذا قول عترة:

لَقَدْ شَفَا نَفْسِي وَأَذْهَبَ سُقْمَهَا قِيلُ الْفَوَارِسِ وَئِكَ عَنَتَرُ أَقْدَمِ

وقول من قال: «ويكأنه» كلمة واحدة إنما يريد به أنه لا يفصل بعضه عن بعض.

● **اللغة:** البغي: طلب العتو بغير حق، ومنه قيل لولاة الجور: بغاة. والكنز: جمع

(١) النشب: المال والعقار.

(٢) المتيم: من تيمه الحب أي: عبده وذُلَّه والشعر في (جامع الشواهد) وكذا الشعر الآتي.

المال بعضه على بعض، وصار بالعرف عبارة عما يخبأ تحت الأرض، ولا يطلق في الشرع اسم الكنز إلا على مال لا تخرج زكاته للوعيد الذي جاء فيه، والمفتاح: جمع مفتاح، والمفاتيح: جمع مفتاح ومعناها واحد، وهو عبارة عما يفتح به الأغلاق، وناء بحمله ينوء نوءاً: إذا نهض به مع ثقله عليه، ومنه أخذت الأنواء لأنها تنهض من المشرق على ثقل نهوضها. وقال أبو زيد: ناءني الحمل إذا أثقلني. والعصبة: الجماعة الملتف بعضها ببعض يقال: ناءت المفاتيح بالعصبة، وأناءت العصبة بمعنى، كما يقال: ذهبت به وأذهبت. فالباء والهمز يتعاقبان في تعدي الفعل. قال سبحانه: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ أي: جاء بها، وقال أبو عبيدة: هذا من المقلوب ومعنى قوله ﴿لَنُنَوِّئَ بِالْعُصْبَةِ﴾ تنوء العصبة بها، كما قال الشاعر:

إِنْ سَرَجاً لَكْرِيمٍ مَفْخَرُهُ تَجَلَّى بِهِ الْعَيْنُ إِذَا مَا تَجَهَّرُهُ
ومعناه: يُجَلَّى بالعين فقلب، وقال آخر:

كَانَتْ عَقُوبَةُ مَا جَنَيْتَ كَمَا كَانَ الزَّنَى عَقُوبَةَ الرَّجَمِ
قال امرؤ القيس:

يُضْيِئُ الظُّلَامَ وَجْهَهَا لَضَجِيعِهَا كَمَصْبَاحٍ زَيْتٍ فِي قَنَادِيلِ دُبَالٍ^(١)

أي: في ذبال قناديل، وهذا غير صحيح. ولا يجوز أن يحمل القرآن عليه لأنه يجري مجرى الغلط من العرب ومثل ذلك في شعرهم كثير قال:

غَدَاةٌ حَلَّتْ لَابْنَ صَرْمَةَ طَعْنَةً خُصَيْنِ غَبِيطَاتِ السِّدَايِفِ وَالْخَمْرِ^(٢)

والغبيطات: مفعولة والطعنة: فاعلة فقلب، ومن أغلاطهم قول الراجز:

جَارِيَةٌ لَمْ تَغْلَمْ الْمُرْقَقَا وَلَمْ تَذُقْ مِنَ الْبَقُولِ الْفَسْتَقَا

فطن الفستق من البقول، فأما قول خدّاش بن زهير:

وَتَرَكْتُ خَيْلاً لَا هَوَادَةَ بَيْنَهَا وَتَشَقَّى الرِّمَاحُ بِالضِّيَاطِرَةِ الْحَمْرِ^(٣)

فذهب كثير من العلماء إلى أنّ المعنى: وتشقى الضيافة الحمر بالرمّاح^(٤) فقلب، وليس الأمر كذلك وإنما أراد: أن رماحهم تشرف عن هؤلاء الضيافة فإذا طعنوا بها فقد شقيت الرماح لأن منزلتها أرفع من أن يطعنوا بها وقالوا أيضاً في قول زهير:

فَتُنْتِجَ لَكُمْ غِلْمَانٌ أَشَامٌ كُلُّهُمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُنْتِجَ فَتَنْتَمِ^(٥)

(١) ذبال: جمع ذبالة بمعنى القتيلة.

(٢) حصين بدل ابن أصرم أي: حصين بن أصرم. وسدائف، جمع سديف: السنام.

(٣) الهوادة: المصالحة. الضيافة: الضخام الذين لا غناء عندهم. والحمر جمع الأحمر: من لا سلاح معه.

(٤) أي: إنهم يقتلون بها.

(٥) هذا بيت من المعلقات قاله في ذم الحرب. ورواية المعلقات العشر والزوزني وغيره هكذا: «كأحمر عاد ثم

ترضع».

إنه غلط فنسبه إلى عاد وإنما هو أحمر ثمود، وهذا أيضاً ليس بغلط فإن ثمود يسمى عاداً الآخرة لقوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾، وقيل: إنما سموها ثمود لأن الله تعالى أهلك عاداً، وبقيت منهم بقية تناسلوا فهم ثمود، واشتق لهم هذا الاسم من الثمد: وهو الماء القليل، لأنهم قلوا عن عدد عاد الأولى، وإذا جاء في الشعر ما يجري مجرى الغلط فلا يجوز أن يحمل كلام الله تعالى عليه.

● **المعنى:** ﴿إِنَّ قُرُونَكُمْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنٍ﴾ أي: كان من بني إسرائيل ثم من سبط موسى عليه السلام، وهو ابن خالته عن عطاء عن ابن عباس، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام وقيل: كان ابن عم موسى لَحَاً لأنه كان قارون بن يصهر بن فاهث وموسى بن عمران بن فاهث، عن ابن جريج، وقيل: كان موسى ابن أخيه وقارون عمه، عن محمد بن إسحاق ﴿فَبَقِيَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: استطال عليهم بكثرة كنوزه، عن قتادة قال: وكان يسمى المنور لحسن صورته، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ منه للتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري فبغى عليهم، وقيل: كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فكان يبغى عليهم ويطالبهم لما كانوا بمصر، عن سعيد بن المسيب، وابن عباس، وقيل: إنه زاد عليهم في الثياب شبراً، عن عطاء الخراساني، وشهر بن حوشب ﴿وَمَا يَنبَغِي مِنَ الْكُفْرِ﴾ قال عطاء: أصاب كنزاً من كنوز يوسف ﴿مَا إِنَّ مَقَاتِلَهُمْ لَنَنُوءُ بِالْمُصْبَكَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ ما هذه موصولة بمعنى الذي، وصلتها إن مع اسمها وخبرها أي: أعطيناه من الأموال المدخرة قدر الذي ينبغي مفاتحه العصبية. والمفاتيح هنا: الخزائن في قول أكثر المفسرين وهو اختيار الزجاج كما في قوله سبحانه ﴿وَعِنْدُ مَقَاتِلِ الْفَتَنِ﴾، فيكون المراد بمفاتيحه: خزائن ماله، وهو قول ابن عباس، والحسن، وقيل: هي المفاتيح التي تفتح بها الأبواب، عن قتادة، ومجاهد. وروى الأعمش، عن خيثمة قال: كانت مفاتيح قارون من جلود، كل مفتاح مثل الإصبع، واختلف في معنى العصبية فقيل: ما بين عشرة إلى خمسة عشر، عن مجاهد، وقيل: ما بين عشرة إلى أربعين عن قتادة، وقيل: أربعون رجلاً، عن أبي صالح، وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة، عن ابن عباس، وقيل: إنهم الجماعة يتعصب بعضهم لبعض ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ من بني إسرائيل ﴿لَا تَفَرِّجْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي: لا تأثر ولا تفرح ولا تتكبر بسبب كنوزك، إن الله لا يحب من كان بهذه الصفة، ويدل على أن الفرح بمعنى البطر قول الشاعر:

ولست بمفراح إذا الدهر سرني ولا جازع من صرفه المتقلب

وقول الآخر: «ولا أرخي من الفرح الإزار». ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ وهذا أيضاً من مقالة المؤمنين من قوم قارون له، وقيل: إن المخاطب له بذلك موسى، وإن ذكر بلفظ الجمع، ومعناه: اطلب فيما أعطاك الله من الأموال الدار الآخرة بأن تنفقها في سبيل الخير ووجوه الخير والبر ﴿وَلَا تَسْكَنْ نِصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو أن تعمل في الدنيا للآخرة، عن أكثر المفسرين، ومعناه: لا تنس أن تعمل لآخرتك لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذي يعمل به لآخرفته. وروي في معناه عن علي عليه السلام: لا تنس صحتك وقوتك وفراغك وشبابك ونشاطك وغناك أن تطلب بها الآخرة، وقيل: أمر أن يقدم الفضل وأن يمسك ما يغنيه، عن الحسن، وقيل: معناه أنه

كان قتوراً شحيحاً فقيل له: كل واشرب واستمتع بما آتاك الله من الوجه الذي أباحه الله لك فإن ذلك غير محظور عليك ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أفضل على الناس كما أفضل الله عليك، وقيل: أحسن فيما افترض الله عليك كما أحسن في إنعامه عليك، عن يحيى بن سلام. وقيل: معناه وأحسن شكر الله تعالى على قدر إنعامه عليك وواس عباد الله بمالك ﴿وَلَا تَبْخُ الْفَسَادَ﴾ أي: لا تطلب العمل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ظاهر المعنى ﴿قَالَ﴾ قارون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ اختلف في معناه، فقيل: أراد إنما أعطيت هذا المال بفضل وعلم عندي ليس ذلك عندكم، عن قتادة، يعني أنه قدر أن هذا ثواب من الله تعالى له لفضيلته كما أخبر سبحانه عن ذلك الكافر بقوله: ﴿وَلَكِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾، وقيل: معناه لرضا الله عني ومعرفته باستحقاقي، عن ابن زيد، وهذا قريب من الأول، وقيل: معناه أن المال حصل لي على علم عندي بوجوه المكاسب وبما لا يتهيأ لأحد أن يكتسبه من التجارات والزراعات وغيرها، وقيل: على علم عندي بصناعة الذهب وهو علم الكيمياء، عن الكلبي، وحكي أن موسى ﷺ علم قارون الثلث من صناعة الكيمياء، وعلم يوشع الثلث منها، وعلم ابن هارون الثلث منها فخدعهما قارون حتى علم ما عندهما وعمل بالكيمياء فكثرت أمواله ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ فَدَّ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ﴾ الكافرة بنعمته ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ كقوم عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم. ثم بين سبحانه أن اغتراره بماله وعدده من الخطأ العظيم لأنه لا ينتفع بذلك عند نزول العذاب به، كما أن من كانوا أقوى وأغنى منه لم تغن أموالهم وجموعهم عنهم شيئاً عند ذلك ﴿وَلَا يَسْتَلْ عَنْ دُونِهِمْ الْمُجْرِمُونَ﴾ قال قتادة: يعني أنهم يدخلون النار بغير حساب، وقال قتادة: إن الملائكة تعرفهم بسيماهم فلا يسألون عنهم لعلامتهم، ويأخذونهم بالنواصي والأقدام فيصيرونهم إلى النار، وهذا كقوله ﴿فَبَيِّنْ لَّا يَسْتَلْ عَنْ دُونِهِ إِشْرًا وَلَا جَانًّا﴾، وأما قوله ﴿فَوَرَبَّكَ لَنَسْتَلُنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: فإنما ذلك سؤال تقريع وتوبيخ لا يعلم ذلك من قبلهم عن الحسن ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي: خرج قارون على بني إسرائيل ﴿فِي زِينَتِهِ﴾ التي كان يتزين بها وحشمه وتبعه، وقيل: إنه خرج في أربعة آلاف دابة عليها أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان، عن قتادة. والأرجوان في اللغة: صبغ أحمر، وقيل: خرج في جوار بيض على سرج من ذهب على قطف أرجوان على بغال بيض عليهن ثياب حمر وحلي من ذهب، عن السدي، وقيل: خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ من الكفار والمنافقين وضعيفي الإيمان بما للمؤمنين عند الله من ثواب الجنة لما رآه في تلك الزينة والجمال: ﴿يَلَيَّتْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَوْمُونَ إِنَّهُمْ لَدُوٌّ حَظِيظٌ﴾ أي: ذو نصيب وافر من الدنيا، والمعنى: أنهم تمنوا مثل منزلته ومثل ماله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم المصدقون بوعد الله المؤمنون لهم ﴿وَلَيْسَ كَمِثْلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ مما أوتي قارون وحذف لدلالة الكلام عليه ﴿وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي: ولا يلقي مثل هذه الكلمة ولا يوفق لها إلا الصابرون على أمر الله، وقيل: معناه ولا يعطاها يعني الجنة في الآخرة، ودل عليها قوله: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ على طاعة الله وعن زينة الدنيا، عن الكلبي ﴿فَنَسَفْنَا بِهِ يَدَايِهِ الْأَرْضَ﴾ قال السدي: دعا قارون امرأة من بني إسرائيل بغياً فقال لها: إني أعطيتك ألفين على أن تجيئي غداً إذا

اجتمعت بنو إسرائيل عندي فتقولي: يا معشر بني إسرائيل ما لي ولموسى قد آذاني. قالت: نعم. فأعطاهما خريطين عليهما خاتمه فلما جاءت بيتها ندمت وقالت: يا ويلتي! قد عملت كل فاحشة فما بقي إلا أن أفترى على نبي الله. فلما أصبحت أقبلت ومعها الخريطان حتى قامت بين بني إسرائيل فقالت: إن قارون قد أعطاني هاتين الخريطين على أن آتي جماعتكم فأزعم أن موسى يراودني عن نفسي ومعاذ الله أن أفترى على نبي الله، وهذه دراهمه عليها خاتمه، فعرف بنو إسرائيل خاتم قارون، فغضب موسى ﷺ فدعا الله عليه فأوحى الله إليه إني أمرت الأرض أن تطيعك وسلطتها عليه فمرها. فقال موسى: يا أرض خذيه وهو على سريرته وفرشه فأخذته حتى غيبته سريرته، فلما رأى قارون ذلك ناشده الرحم فقال: خذيه فأخذته حتى غيبته قدميه ثم أخذته حتى غيبته ركبتيه ثم أخذته حتى غيبته حقويه وهو يناشده الرحم فأخذته حتى غيبته فأوحى الله إليه: يا موسى ناشدك الرحم واستغاثك فأبيت أن تغيثه لو إياي دعا واستغاثني لأغثته، قال مقاتل: ولما أمر موسى ﷺ الأرض فابتلعت، قال بنو إسرائيل: إنما فعل ذلك موسى ليرث ماله لأنه كان ابن عمه، فخسف بداره وبجميع أمواله بعده بثلاثة أيام فلم يقدر على ماله بعده أبداً ﴿فَمَا كَانَ لِمَنْ فِي شَرْعٍ يَصْرِفُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: فما كان له من جماعة منقطعة إليه يدفعون عنه عذاب الله تعالى الذي نزل به، وإنما قال سبحانه ذلك لأنه كان يقدر مع نفسه الامتناع بحاشيته وجنوده ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَصَرِّينَ﴾ بنفسه لنفسه ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمِينِ﴾ حين خرج عليهم في زينته ﴿يَقُولُونَ وَيَكُنَّا اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ وهذه كلمة ندم واعتراف، وقد بينا أن عند الخليل وسيبويه لفظة «وي» مفصولة من «كان» وإن وقعت في المصحف موصولة بقول القائل إذا تبين له الخطأ: وي كنت على خطأ، وقال الفراء: أصله ويلك فحذفت اللام وجعلت أن مفتوحة في موضع نصب بفعل مضممر كأنه قال: اعلم أن الله تعالى. قال: وحدثني شيخ من أهل البصرة قال: سمعت أعرابية تقول لزوجها: أين ابنك؟ ويلك! فقال لها: ويك إنه وراء البيت، قال: معناه أما ترينه وراء البيت؟ وقيل: معناه ألا كان وأما كان، وقال الكسائي: ويكأن في التأويل: ذلك أن الله، وهو قول ابن عباس، أي قالوا: ذلك أن الله يبسط الرزق لمن يشاء لا لكرامته كما بسط لقارون ويقدر أن يضيق على من يشاء لا لهوان لكن بحسب المصلحة، وقال مجاهد وقتادة: ويكأن معناه: ألم تعلم ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: لولا أنه أنعم علينا بنعمه فلم يعطنا ما أعطى قارون لخسف بنا كما خسف به، وقيل: معناه لو أن الله تعالى من علينا بالتجاوز عما تمنينا لخسف بنا لما تمنينا منزلة قارون ﴿وَيَكُنَّا لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: لا يفوز بشواب الله وينجو من عقابه الجاحدون لنعمه العابدون معه سواء.

● **النظم:** إنما اتصلت قصة قارون بما قبلها من قوله ﴿تَنَلُّوا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيِّ مُوسَى﴾ فكأنه قال: ومن نبأ موسى الذي وعدنا تلاوته في أول السورة قصة قارون معه، وقيل: اتصل بقوله ﴿وَمَا أُوتِشِرَ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ فأكد سبحانه ذلك بحديث قارون وحاله، وقيل: إنه لما تقدم خزي الكفار وافتضاحهم يوم القيامة ذكر عقيبه أن قارون من جملتهم وأنه يفتضح يوم القيامة كما افتضح في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٢) ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٤) ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٨٥) ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونْ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ (٨٦) ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨٧) ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨).

● **النزول:** قيل لما نزل النبي ﷺ بالجحفة في مسيره إلى المدينة، لما هاجر إليها اشتاق إلى مكة، فاتاه جبرائيل عليه السلام فقال أنتشاق إلى بلدك ومولدك؟ فقال: نعم! قال: جبرائيل عليه السلام فإن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ يعني مكة ظاهراً عليها، فنزلت الآية بالجحفة وليست بمكة ولا مدينة وسميت مكة معاداً لعوده إليها، عن ابن عباس.

● **المعنى:** ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تجبراً وتكبراً على عباد الله واستكباراً عن عبادة الله ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ أي: عملاً بالمعاصي، عن ابن جريج ومقاتل.

وروى زاذان عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يمشي في الأسواق وحده وهو دال يرشد الضال، ويعين الضعيف، ويمر بالبائع والبقال، فيفتح عليه القرآن، ويقرأ ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾، ويقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس، وروى أبو سلام الأعرج، عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً قال: إن الرجل ليعجبه شراك نعله فيدخل في هذه الآية ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الآية. يعني: أن من تكبر على غيره بلباس يعجبه فهو ممن يريد علواً في الأرض، قال الكلبي: يعني بقوله ﴿فَسَادًا﴾ الدعاء إلى عبادة غير الله، وقال عكرمة: هو أخذ المال بغير حق ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: والعاقبة الجميلة المحمودة من الفوز بالشواب للذين اتقوا الشرك والمعاصي، وقيل: معناه الجنة لمن اتقى عقاب الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ مضى تفسيره ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يزداد في عقابهم على قدر استحقاقهم بخلاف الزيادة في الفضل على الشواب المستحق فإنه يكون تفضلاً، فهو مثل قوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾. ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ خطاب للنبي ﷺ والمعنى: إن الذي أوجب عليك الامتثال بما تضمنه القرآن وأنزله عليك ﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ أي: يردك إلى مكة، عن ابن عباس، ومجاهد،

والجبائي، وعلى هذا فيكون في الآية دلالة على صحة النبوة لأنه أخبر به من غير شرط ولا استثناء، وجاء المخبر مطابقاً للخبر. قال القتيبي: معاد الرجل بلده لأنه يتصرف في البلاد ثم يعود إليه، وقيل: إلى معاد إلى الموت. عن ابن عباس في رواية أخرى، وعن أبي سعيد الخدري، وقيل: إلى المرجع يوم القيامة أي: يعيدك بعد الموت كما بدأك، عن الحسن، والزهري، وعكرمة، وأبي مسلم، وقيل: إلى الجنة، عن مجاهد، وأبي صالح، فالمعنى: أنه مميتك وباعثك ومدخلك الجنة، والظاهر يقتضي أنه العود إلى مكة لأن ظاهر العود يقتضي ابتداء ثم عوداً إليه. على أنه يجوز أن يقال: الجنة معاد وإن لم يتقدم له فيها كون كما قال سبحانه في الكفار ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ ثم ابتداء سبحانه كلاماً آخر فقال: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ ﴿رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ الذي يستحق به الثواب ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ومن لم يجيء بالهدى وضل عنه أي: لا يخفى عليه المؤمن والكافر ومن هو على الهدى ومن هو ضال عنه، وتأويله: قل ربي يعلم أنني جئت بالهدى من عنده وأنكم في ضلال سينصروني عليكم، ثم ذكر نعمه فقال: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: وما كنت يا محمد ترجو فيما مضى أن يوحى الله إليك ويشرفك بإنزال القرآن عليك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ قال الفراء: هذا من الاستثناء المنقطع ومعناه: إلا أن ربك رحمك وأنعم به عليك وأراد بك الخير، كذلك ينعم عليك بربك إلى مكة فاعرف هذه النعم، وقيل: معناه وما كنت ترجو أن تعلم كتب الأولين وقصصهم تتلوها على أهل مكة ولم تشهدها ولم تحضرها، بدلالة قوله ﴿وَمَا كُنْتُ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ أي: إنك تتلو على أهل مكة قصص مدين وموسى، ولم تكن هناك ثاوياً مقيماً، وكذلك قوله ﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وأنت تتلو قصصهم وأمرهم فهذه رحمة من ربك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: معيلاً لهم، وفي هذا دلالة على وجوب معاداة أهل الباطل، وفي هذه الآية وما بعدها وإن كان الخطاب للنبي ﷺ فالمراد غيره، وقد روي عن ابن عباس أنه كان يقول: القرآن كله إياك أعني واسمعي يا جارة ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي ولا يمنعك هؤلاء الكفار عن اتباع آيات الله التي هي القرآن والدين بعد إذ نزلت إليك تعظيماً لذكرك وتفخيماً لشأنك ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: إلى طاعة ربك الذي خلقك وأنعم عليك وإلى توحيدك ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تمل إليهم ولا ترض بطريقتهم ولا توالي أحداً منهم ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ أي: لا تعبد معه غيره ولا تستدع حوائجك من جهة ما سواه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود إلا هو وحده لا شريك له ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: كل شيء فان باند إلا ذاته، وهذا كما يقال: هذا وجه الرأي ووجه الطريق، وهذا معنى قول مجاهد «إلا هو» وفي هذا دلالة على أن الأجسام تفنى ثم تعاد، على ما قاله الشيوخ في الفناء والإعادة، وقيل: معناه كل شيء هالك إلا ما أريد به وجهه فإن ذلك يبقى ثوابه عن عطاء، وابن عباس، وعن أبي العالية، والكلبي، وهو اختيار الفراء وأنشد:

أستغفر الله ذنباً لست مُخَصِّصَهُ رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

أي: إليه أوجه العمل. وعلى هذا يكون وجه الله ما وجه إليه من الأعمال ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾

أي: له القضاء النافذ في خلقه، وقيل: له الفصل بين الخلائق في الآخرة دون غيره ﴿وَلَا إِلَهَ

تَرْجِعُونَ ﴿٣٣٧﴾ أي: تردون في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم.

● **النظم:** اتصل قوله ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الآية بما قبله، على معنى أنه سبحانه كما حرّم نعم الدنيا عليهم بالهلاك كذلك يحرم عليهم نعم الآخرة، وأما وجه اتصال قوله ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ الآية، بما قبله فقد ذكر فيه من حمل المعاد على البعث أنه اتصل بقوله ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾. ومن حمله على العود إلى مكة قال: إنه لما بيّن سبحانه وعده لأم موسى ردّ موسى ﷺ عليها مع شرف النبوة، كذلك وعده ربه العودة إلى مكة مع الشرف العظيم وقد أنجز وعده كما أنجز وعده هناك، ويكون معنى الكلام: أن الذي أنزل القرآن بذلك الوعد، سينجز هذا الوعد واتصل قوله ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِأَهْدَى﴾ على معنى أنه أمره بأن يقول لهم: ربي أعلم بالصادق والكاذب لا يلتبس عليه شيء.

تم الجزء السابع

من تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن للعلامة الطبرسي

jabir.abbas@yahoo.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة
سورة طه	٥
سورة الأنبياء	٥٢
سورة الحج	٩٠
سورة المؤمنون	١٢٨
سورة النور	١٥٨
سورة الفرقان	٢٠٣
سورة الشعراء	٢٣٢
سورة النمل	٢٦٣
سورة القصص	٢٩٩
الفهرس	٣٣٨

